عقائد الإسلاميين

بين وحدة المنهج

وتباين الأحكام

بقلم عمرو الشاعر

كلمة الغلاف الخلفي

على الرغم من التباين والاختلاف الكبيرين بين الفرق الإسلامية في الأصول والفروع، في الأحكام والعقائد، فإن الناظر في كتب الفرق الإسلامية المختلفة سنيها وشيعيها، إباضيها وزيديها، قديمها وحديثها، إخباريها وأصوليها يجد أنها كلها تستعمل منهجا واحدا في استخراج الأحكام والعقائد.

وإن رمي فرقة واحدة من الفرق الإسلامية بالضلال أو الكفر مؤذن برمي باقي الفرق بنفس التهمة، لاتحاد المنهج العام لكل الفرق الإسلامية مع وجود بعض الاختلافات الطفيفة بين الفرق في التطبيق. وإن دعوة أي داع أن فرقته على سبل الرشاد متوفرة عناصرها عند الفرق الأخرى.

وهذا الكتاب إذ يعرض للفرق الإسلامية فإنه لا يعرض لها كلها من باب العرض التفصيلي للعقائد وإنما يعرض لأكبرها والتي قدر الله لها أن تستمر وتبقى على الساحة الإسلامية، بأن يعرض لمسألة عدم الصرامة في استخراج وتحديد العقائد بين الفرق الإسلامية، والتي أدت إلى تفرق المسلمين وتشرذمهم وتحزبهم إلى شيع، كل حزب بما لديهم فرحون.

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، جعل القرآن نبراسا هاديا إلى صراطه المستقيم، ففتح به أعينا عميا وآذانا صما وأخرجنا به من الظلمات إلى النور وتركنا على بينة من أمرنا لا عوج فيها ولا شطط.

ونصلي ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد النبي العدنان خير الأنام، خاتم رسل الله وإمام المرسلين، آخر من تلقى وحي رب السماء والأراضين وبلغه أهل الأرض أجمعين، أما بعد:

فليست الكتابة في مجال العقائد من باب الترف الفكري أو الرياضة العقلية نحاول بها ملأ فراغ عند بعض الناس أو مجرد تسويد بعض الصفحات تطبع وتنشر في كتاب ليُقرأ، ولكن الكتابة من منظور تقريبي توحيدي في هذا المجال في أيامنا هذه تحديدا صار ضرورة ملحة من أجل لمّ شمل المسلمين ورأب صدع الشقاق بينهم، فمن ينظر إلى حال المسلمين في أنحاء المعمورة يرى العجب العجاب الذي يسر له كل عدو ويأسى له كل أخ وحبيب، يرى اختلافا كبيرا وتفرقا شديدا، تقاتلا وتناحرا، تشتتا وتمزقا، دعاوى جاهلية ما أنزل الله بها من سلطان، يرى أمة تداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، فما من مكروه ولا مصاب ولا فاجعة ولاضر ولا أذى إلا والنصيب الأكبر والحظ الأوفر فيه للمسلمين. فعلى الرغم من أن المسلمين هم أكثر الملل تعدادا على وجه البسيطة[1] وأكثرها انتشارا إلا إنهم غثاء كغثاء السيل مستضعفون في

[1] تعتقد الغالبية العظمى من البشر أن المسيحية هي أكثر الأديان انتشارا على وجه الأرض ولكن الواقع يخالف هذا الاعتقاد الباطل، فالمسيحيون الأرثوذكس على سبيل المثال يعدون الكاثوليك كفرة، ومن ثم فهم ليسوا بمسيحيين، وكذلك يرى الكاثوليك أنفسهم هم المسيحيين فقط على وجه الأرض، كما صرح بابا الفاتيكان بنديكت السادس عشر في تصريحه الآخير أن الكنيسة الكاثوليكية هي الكنيسة الوحيدة الناجية على وجه الأرض، ناهيك عن شهود يهوه وفرق المسيحيين الموحدين في أوروبا. إذا لا بد أن تحسب المسيحية الكاثوليكية كديانة والأرثوذكسية كديانة وهلم جرا. أما المسلمون فعلى الرغم من تفرقهم إلى فرق مختلفة مثل: السنة والشيعة والإباضية فإنهم لا يكفرون بعضهم ولكن يكتفون بالتضليل فقط.!!

الأرض يخافون أن يتخطفهم الناس، يتفنون في اختلاق المشاكل والخلافات بينهم وبين أنفسهم، يتسابقون في ادعاء ضلال إخوانهم من المسلمين ونبذهم بالألقاب فهذا رافضي ضال وهذا ناصبي مضل وهذا مجسم على شفا حفرة من النار وذاك من أهل الزيغ... إلخ من الألقاب المحرم التنابذ بها شرعا، ثم تدعي كل فرقة أنها على الصراط المستقيم السالكين لسبل الرشاد من غير مزاحم. وظهرت الشحناء والبغضاء بين المسلمين بسبب بعض علماء سوء، يفرقون ولا يجمعون، يهدمون ولا يبنون.

ولما كان حال المسلمين لا يحتمل مزيد فرقة ولا كثرة شتات بسبب كثرة دعاة التفريق الظانين أنفسهم حماة الأمة الذابين عن بيضتها، لم نرتض لأنفسنا أن نكون دعاة على باب جهنم من هواة التكفير والتضليل بل أردنا أن نكون دعاة تقريب لا دعاة تغريب ودعاة وحدة لا دعاة فرقة. ولما كنا نحسن الظن بعامة المسلمين ونرى فيهم الخير الكثير ونعلم علم اليقين أن أسباب الفرقة بين المسلمين هي من أعظم الباطل وأضره وأشد البدع وأخطرها على دين الله عز وجل وعلى المؤمنين بكتابه وهي غاية ومنى أعداء دين الله رأينا أن نتناول موضوع الخلاف الرئيس بين المسلمين وهو تلكم البدعة المسماة ب "العقيدة"[2] لا من أجل أن نؤججه مثلما يفعل دعاة الفتنة ولا من أن أجل أن نعرض عقيدتنا على أنها العقيدة الصحيحة السليمة ثم نبرهن على أن عقائد غيرنا من الفرق الإسلامية هي عين الخطأ، ولا من أجل أن نعرض عقائد الفرق الإسلامية التي ظهرت واندثرت أو ظهرت وكتب لها البقاء حتى الآن. لا فنحن نرى أن هذا عمل موسوعي كبير لا يجدي مع القارئ كثير النفع، نعم هو سيعطيه بعض التصورات عن هذه الفرق و الأسباب التاريخية التي أدت إلى ظهورها مصبوغة بحكم الكاتب في هذه الفرق وكيف أنها انحرفت عن سبيل الجادة والصواب، ولكن تظل المشكلة الخالدة عند كل قارئ غير دارس كما هي، وهي الحيرة والتخبط في الحكم على هذه الفرق، فللأسف الشديد تعرض معظم -ولا نقول كل- كتب العقائد معتقدات الفرق الأخرى كأنها معتقدات مجموعة من الحمقى المتخلفين عقليا الذين يقبلون ما يناقض العقل

---

[2] سيرى القارئ الكريم في طيات هذا الكتاب بعد صفحات ما نقصده بقولنا أن "العقيدة" بدعة.

ويصادم المنطق، ثم تصورهم بخلاف بلههم وحمقهم كمجموعة من أعداء الدين الذين تأثروا بأفكار دخيلة، سواء كانت إسرائيلية أو يونانية، ويسعون بجهد جهيد لهدم الدين ونصرة هذه الأفكار، ثم يتحسرون على تكاسل أهل الحق عن نصرة مذهبهم.

هذا العرض نرفضه جملة وتفصيلا ونراه الداعي الأكبر إلى تفرق المسلمين وتشتتهم، فالعامة يرون كل ما يقوله المشائخ موضع صدق وتسليم وإقرار ولا يجادلون فيه بل هو عندهم من المسلمات، ونحن نحسن الظن بعامة المسلمين ونراهم على خير بإذن الله تعالى.

ولما كانت إشكالية عقائد الإسلاميين لا تُعالَج إلا معالجة جزئية يتناول كل كاتب زاوية من زواياها بين مؤجج ومؤدلج، رأينا أن نقوض أسس هذه المسألة حتى نقضي على الإشكال الأكبر والفرقة العظمى عند جمهور المسلمين وهو الشعور بالتميز والاستعلاء على غيرهم من المسلمين، بأن نوضح للقارئ الكريم لب المسألة و هو: لم حدث الاختلاف من الأساس ولم كانت الفرقة بين المسلمين، بغض النظر عن الأسباب التاريخية التي أدت إلى نشوب الخلاف بين المسلمين، ثم نقدم عقائد الإسلاميين المعاصرين لأهم الفرق الإسلامية المعاصرة وتصوراتهم عن الإسلام ومواطن اختلافهم مع المذهب السائد في أوطاننا وهو المذهب السني، ونوضح للقارئ أس الخلاف ونظهر له في نهاية المطاف أن الفرق الإسلامية كلها بلا استثناء تتبع نفس المنهج العقدي مع تفاوت بسيط في الدرجات، لذا ما من فرقة ترمي أختها بالضلال إلا وعندها من أسبابه في مبادئها المماثل والشبيه وما تدعي فرقة سبل الرشاد والهدى إلا و أختها معها على الدرب سائرة فكل المسلمين والحمد لله متقاربون لا يفصل بينهم إلا أقل القليل الذي يمكن تجاوزه.

عزيزي القارئ قد توافقني في بعض ما أقول وقد تخالفني في كثير مما أقول وهذا هو حال الإنسان فالوفاق بين الناس في كل آرائهم شبه معدوم فلا تحملنك مخالفتك لي على رفض وهجر ما اتفقنا عليه وبدلا من أن تسارع بتضليلي وتفسيقي ادع الله لي وللمسلمين بالهداية!

أرجو من الله العلي الكريم أن يجعل كتابي هذا لبنة من لبنات جدار وحدة المسلمين وأن يجعلنا هداة مهديين لا ضالين ولا مضلين، فما من توفيق فمن الله وما كان من خطأ أو نسيان فمني ومن الشيطان والله منه براء وهو المستعان وعليه الاتكال.

الفقير إلى عفو ربه: عمرو الشاعر

كان البدء في تأليف هذا الكتاب لتسع عشر مضين من رمضان في عام ثمان وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة الموافق اليوم الأول من أكتوبر في عام 2007 بعد ميلاد المسيح.

الباب الأول

التأصيل

الفصل الأول: تعريف بالمصطلحات

قبل أن نلج إلى هذا الكتاب لا بد أن نعطي للقارئ نبذة عن المصطلحات الواردة في عنوان الكتاب وداخله حتى يكون على بينة من الأمر فيعي ما نقصد بهذه الألفاظ:

عقائد: جمع عقيدة على وزن فعيلة بمعنى مفعول أي معقودة، والعقد هو الجمع بين طرفي الحبل، والعقدة في الحبل أقوى أجزائه. وسميت العقيدة بذلك لأن قضاياها ينعقد عليها القلب فلا تقبل الانحلال، لا بالظن ولا بالشك ولا بالوهم[3]. وهي مشتقة من الأصل "ع ق د" وهو كما ورد في معجم مقاييس اللغة لابن فارس:

"العين والقاف والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على شَدٍّ وشِدّةِ وُثوق، وإليه ترجعُ فروعُ البابِ كلها. من ذلك عَقْد البِناء، والجمع أعقاد وعُقود. قال الخليل: ولم أسمع له فِعْلاً. ولو قيل عَقَّد تَعقِيداً، أي بنى عَقْداً لجاز. وعَقَدت الحبلَ أعقِده عَقْداً، وقد انعقد، وتلك هي العُقْدة... وعاقَدته مثل عاهدته، وهو العَقْد والجمع عُقود. قال الله تعالى: ﴿... أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ...﴾①] سورة المائدة ,١[، والعَقْد: عَقْدُ اليمين، [ومنه] قوله تعالى: ﴿... وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ... ⑧⑨﴾] سورة المائدة ,٨٩[. وعُقْدَة النكاح وكلِّ شيء: وُجوبُه وإبرامُه. والعُقْدة في البيع: إيجابه. والعُقْدَة: الضَّيْعة، والجمع عُقَد. يقال اعتقد فلانٌ عُقْدةً، أي اتَّخذها. واعتقد مالاً وأخاً، أي اقتناه. وعَقَد قلبَه على كذا فلا يَنزِع عنه. واعتَقَد الشيءُ: صَلُب..." اهـ

إذا فالعقيدة تدل على شدة وعزم وصلابة في الأمر، لذا استعملت في العصورة المتأخرة كرمز وإشارة إلى أصول الدين والإيمانيات في دين الله عزوجل. ولا يهمنا من أول من أطلق هذا الاسم واستعمله بهذا الشكل ولكن لا بد من لنا من وقفة للتساؤل:

---

[3] أما الاستسلام بالظاهر لعادات أو تقاليد لا يسمى عقيدة وإنما هو محاكاة واتباع مجرد خال من اقتناع راسخ في القلب، والواجب هو الاقتناع. محمد إسماعيل جبر، "إن الله معنا حقا."

ألا يعد هذا المصطلح بدعة؟

إذا نحن نظرنا في كتاب الله عزوجل وجدنا أن الجذر عقد ومشتقاته ورد في القرآن الكريم سبع مرات هي كالتالي: ﴿... وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ... ﴿٢٣٥﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٥]، ﴿... إِلَّآ أَن يَعۡفُونَ أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِ ... ﴿٢٣٧﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٧]، ﴿... وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡ ... ﴿٣٣﴾﴾ [سورة النساء, ٣٣]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ... ﴿١﴾ [سورة المائدة, ١]، ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَ ... ﴿٨٩﴾﴾ [سورة المائدة, ٨٩]، ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [سورة طه, ٢٧]، ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [سورة الـفلق, ٤]

هذه هي المرات السبع التي وردت فيها "عقد" أو إحدى مشتقاتها في القرآن، ونلاحظ أنها كلها بلا استثناء لم ولا يمكن أن تستعمل بالمعنى الطارئ الذي ألحق بها في العصور المتأخرة.

وإذا نحن نظرنا في السنة وجدناها تسير على نفس الدرب والمنوال، فما كان للنبي أفصح العرب أن يخالف نهج القرآن ولن نضرب أمثلة على استعمالها في السنة فهي كثيرة جدا ولكنها كلها لا تخرج عن الأصل الذي ذكره ابن فارس، وبنفس الاستعمال لم ترد "العقيدة" عند الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم بهذا الاستعمال قط، وأقوالهم منثورة في كتب السير ومن يرد أن يبحث فليفعل ولكن نحن نجزم أنها لم تستعمل هذا الاستعمال أبدا. قد يقول قائل: وما الحرج في ذلك وما المشكلة أن تُستعمل كلمة بمعنى جديد تواضع وتعارف عليه الناس؟ نقول: إذا لم يكن الأمر متعلقا بالدين فلا حرج، ولكن وللأسف البالغ فهذا منبع الخلاف بين معظم المسلمين، وهو استحداث ألفاظ لم يستعملها الله ولا رسوله أو استعمال ألفاظ استخدمها الله ورسوله بغير ما قصدوا وأرادوا، ثم التشاجر والتناحر حول هذه المستحدثات لفظا أو استعمالا لأنها

مصطلحات واهية مطاطة تحمل الكثير من الاحتمالات ولا حد شرعي لاستخدامها، ولو اقتصر المسلمون على ما ورد في كتاب الله لأراحهم ذلك كثيرا من العنت والمشقة، ويريد الله أن يخفف عنا ولكنا آثرنا أن نعسر على أنفسنا.

وإذا نحن أخذنا كلمة "العقيدة" نموذجا على ما نقول، نجد أنها نموذج أكثر من رائع على ما نقول فالكلمة على الرغم من وجود بديل لها وهو "الإيمان" وكما قلنا لم ترد لا في الكتاب ولا في السنة بهذا المعنى وعلى الرغم من ذلك صار لها الأثر البالغ في تفريق المسلمين وصارت بلاءا عليهم، فأصبحنا نسمع من كثير من الناس: فلان هذا عقيدته باطله أو عقيدته سلفية أو أشعرية أو فلان صلب العقيدة أو لين العقيدة لذا فاجتنبه! وما شابه.

لذا فنحن نرى أنه ينبغي الحكم على الإنسان من خلال أفعاله وأقواله وليس من خلال ما يبطن. ونكرر: السؤال عن العقيدة بدعة! فلم يرد عن النبي المعصوم ولا عن صحبه الأبرار أن أحدا منهم سأل شخصا: ما دينك أو ما هي عناصر إيمانك؟ أو أي سؤال يحمل ذات المدلول. أما نحن فقمنا بحشر العديد والعديد من المسائل القابلة للخلاف في بند الإيمان تحت مسمى العقائد وأخذنا نضلل المسلمين على أساسها.

وإذا نحن نظرنا إلى الإيمان في القرآن والسنة وجدنا أنه ينحصر في أركان خمس يشترك فيها كل المسلمين وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.[4]

هذه هي أركان الإيمان التي يجب أن تتحقق في كل إنسان مسلم وإذا لم يتحقق ركن منها كان الإنسان كافرا بنص القرآن، وهذه الأركان وردت في القرآن مجتمعة ومتفرقة، ذُكرت مع الأمر بالإيمان بها أو الإخبار عن الإيمان أو الكفر بها كما جاء في قوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ

[4] ورد أيضا في السنة مضافا إلى ذلك الإيمان بالقدر وكل المسلمين يؤمنون بالقدر ولكن كل فرقة تفهم "القدر" بمفهومها الخاص.

﴿٢٨٥﴾] سورة البقرة, ٢٨٥[وأشمل آية في هذا الشأن هي: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾] سورة النساء, ١٣٦[وقوله تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾] سورة البقرة, ٢٨٥[، وجاءت متفرقة كما في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِى لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ ... ﴿١٩٣﴾] سورة آل عمران, ١٩٣[، ﴿وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ... ﴿٣٩﴾] سورة النساء, ٣٩[، ﴿... أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖ ... ﴿٨٥﴾] سورة البقرة, ٨٥[، ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾] سورة البقرة, ١٢١[، ﴿... وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾] سورة المائدة, ٥[، ﴿... وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾] سورة العنكبوت, ٥٢[

وهذا ما ورد في السنة أيضا، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري: "عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ قَالَ الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الْإِسْلَامُ قَالَ الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الْإِحْسَانُ قال إن تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ مَتَى السَّاعَةُ قَالَ مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنْ السَّائِلِ وَسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ثُمَّ تَلَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ} الْآيَةَ ثُمَّ أَدْبَرَ فَقَالَ رُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا فَقَالَ هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ"

وزاد مسلم "وتؤمن بالقدر خيره وشره" وفي رواية أخرى عنده أيضا "وتؤمن بالقدر كله"

هذا هو إيمان المسلم يؤمن بالله وملائكته وبكل ما ورد في القرآن[5] ويؤمن بكتب الله المنزلة على وجه الإجمال وبرسله من علم منهم ومن لم يعلم: ﴿... مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ... ۝٧٨﴾ [سورة غافر, ٧٨] وباليوم الآخر وبالبعث فيه وبالقدر.

هذه ما تحدث عنه القرآن عند الحديث على الإيمان والكفر أما أفهامنا نحن للنصوص فليست حجة على أحد، لذا فإن القول بتفسيق أو تضليل فلان من أجل مخالفة "العقيدة" الفلانية فهو بدعة من أشر البدع التي سُلطت على دين الله، فدين الله لا يعرف وسط إما إيمان وإما كفر، أما التفسيق والتضليل فهذا دأب من كان دليله ظنيا فلما قصر دليله عن تكفير غيره اكتفي بتفسيقه مستندا إلى الدليل الظني!

تأمل أخي في الله كيف أدى الانحراف عن لفظ الإيمان واستعمال مفردة "العقيدة" إلى إدخال الكثير والكثير من المسائل فلو استعمل لفظ الإيمان لحوصر المستعمل بوروده في الكتاب والسنة بشكل مخصوص ولاضطر للنزول عليها، أما مع استعمال لفظ مستحدث فيمكن أن يدرِج المرء تحته ما يشاء بحجة "لا مشاحة في الاصطلاح" حتى ولو كفرنا وفسقنا عامة المسلمين ولاحول ولا قوة إلا بالله.

وبما أننا تعرضنا لأهمية المصطلح لا بد أن نذكر للقارئ بعض أمثلة على تطور المصطلحات وإختلافها حتى يدرك أهمية تحديد المصطلح ولا يستهين به فمعظم الخلاف بين البشر على البسيطة مرجعه إلى عدم تحديد المصطلحات:

---

[5] للأسف الشديد صار تعبير"الإيمان بكل ما ورد في القرآن" تعبيرا هلاميا غير محدد الملامح، بسبب طريقة تعامل كل الفرق الإسلامية مع القرآن، فالقرآن به مقدم كان ينبغي تأخيره ومؤخر كان ينبغي تقديمه ومحذوف وزائد وكلمات تستعمل في غير مواضعها، وآيات لا مدلول لها وعام أريد به الخاص وخاص أريد به العام وكثير من أشباه هذه الطوام، هذا إذا غضضنا الطرف عن التفسير الباطني للقرآن، ثم تصر كل فرقة أن الآخرى تتجاوز أصول اللغة والعقل والمنطق عند التعامل مع القرآن!! والقرآن من كل هذا براء فألفاظه لامبدل لها واضحة جلية بينة لا تحتاج إلى تفسير بشر. لمزيد من التوضيح يرجى الرجوع إلى كتابنا الأول "لماذا فسروا القرآن" المنشور على موقعنا www.amrallah.com

مصطلح "السلف الصالح" عند أهل السنة مصطلح واسع يدخل فيه القرون الثلاثة الأولى بعد الرسول مما يعطي الانطباع أن هذه القرون كانت خيرا خالصا لا شر فيها ويعطي في نفس الوقت وزنا لأي قول يصدر عمن كان في هذه القرون كأن مجرد كونه في هذه القرون كافيا لذلك، أليس من السلف الصالح؟! وينسى من يتفوه بهذا الادعاء أن هذه القرون كانت مثلها[6] مثل باقي القرون مليئة بالخلافات والنزاعات والفتن والاستباحات، وطبعا لها تبريرها عند من يقدس السلف، لذا "ينبغي عند استخدامنا ل (السلف الصالح) أن نقيده مباشرة ب (المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان) أو نشير إلى ذلك في المقدمة أو نحوها حتى لا تختلط الأمور[7]"

بل إن مصطلح "أهل السنة" نفسه لم يكن له نفس الدلالة عن بداية ظهوره وعند نشأته، يقول أحمد الكاتب: "ومن المؤكد أن المعنى البسيط الظاهر المتبادر من المصطلح الأول "السنة" هو اتباع سنة الرسول الأعظم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وهو لا يمكن أن يتناقض مع التشيع لأهل البيت الذي يتضمن اتباع السنة، وبناء على ذلك فإن السنة هم شيعة لأهل البيت وإن الشيعة هم جزء لا يتجزأ من السنة. وقد مضى زمن في الصدر الأول قبل تكوُّن الطوائف، لم يكن أحد يشعر بوجود تناقض بين المفهومين أو الالتزام بهما. وربما كان شيعة الامام علي بن أبي طالب (عليه السلام) يشكلون (أهل السنة والجماعة) في مواجهة الخارجين عليه.

ولكن المصطلحين (الشيعة والسنة) افترقا فيما بعد ليشكلا علامتين على طائفتين أو طوائف من المسلمين. وقبل أن يستقر المصطلحان كما هما في الأذهان اليوم، كان مصطلح "السنة" يعني في القرن الثاني الهجري "الحديث النبوي" في مقابل ما كان يصطلح عليه "أهلُ الحديث" بالبدعة. وغلب في القرن الثالث على الحنابلة في مقابل المعتزلة والأحناف، في حين كان أئمة أهل السنة، أو أهل الحديث، يعتبرون أئمةَ أهل

[6] نحن لا ننكر أو نرد حديث النبي المعصوم "خير القرون قرني ثم الذين يلونهم..." ونقر أن جيل الصحابة هو خير الأجيال ولكن ذلك على سبيل الاجمال وسيرى القارئ موقفنا من الصحابة من خلال عرض مواقف الفرق الإسلامية حولهم.

[7] حسن بن فرحان المالكي، قراءة في كتب العقائد: المذهب الحنبلي نموذجا.

البيت أئمةً لأهل السنة أيضا. ولم يأخذ مصطلح أهل السنة دائرته الواسعة التي تضم المذاهب الأربعة المعروفة (الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة) إلا في القرن الخامس الهجري، رغم استمرار الصراع والتنافس بين المذاهب السنية نفسها الى أمد طويل. وظل الحنابلة أو أهل الحديث يشككون بسنية الأحناف والأشاعرة والماتريدية (الذين يشكلون غالبية المسلمين السنة) إلى هذا اليوم، ولا يعترفون بهم إلا بمعنى عام في مقابل الشيعة وعلى أساس بعض المقاييس.[8]" اهـ

إذا لا بد من تحديد استعمال المصطلح وأن يكون جامعا مانعا لما يندرج تحته، لا أن يكون تبعا لهوى من يطلقه، ونعيب على الأخوة السلف الذين يبدعون تقريبا كل شيء ويبدعون الكلام واستحداث ألفاظ أخذت من الفلسفات اليونانية وأدخلت في "العقيدة" ثم هم يغفلون عن الاستعمال البدعي لكلمة "عقيدة" وتركهم كلمة "إيمان" أو "ملة" وكذلك التوسع في استعمال المصطلح مع ما لايندرج تحته بأي حال من الأحوال[9]. وإن الباحث فيما يسمى بعلم الكلام أو العقيدة الإسلامي يجد أن هذا العلم قد استحدث الكثير من المسائل والمصطلحات العقائدية التي لم ترد نصا في القرآن الكريم كمسائل ومصطلحات من مثل: خلق أفعال العباد –خلق القرآن– علاقة ذات الله بصفاته وأسمائه فلسفة الجواهر والأعراض، وغيرها من المسائل والمصطلحات المستحدثة.

مصطلح "الذات": من المصطلحات الحديثة الطارئة كذلك مصطلح "ذات" ونسبه إلى الله تعالى وجعله بمعنى "نفس" أو "عين الشيء"، وهذه الكلمة ما سمعنا بها في قرآن أو السنة بهذا المعنى وما استعملتها العرب بهذا الشكل، والله تعالى يحذرنا بقوله ﴿... وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف ,٣٣]، لذا يقول ابن حجر في فتح الباري في شرح صحيح البخاري ما يلي:

[8] أحمد الكاتب، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ.

[9] هناك أئمة كبار من أئمة أهل السنة أدخلوا المسح على الخفين في العقائد! لأن فرقا إسلامية أخرى لا تقول به!!

"فَأَمَّا الذَّات فَقَالَ الرَّاغِب: هِيَ تَأْنِيث ذُو، وَهِيَ كَلِمَة يُتَوَصَّل بِهَا إِلَى الْوَصْف بِأَسْمَاءِ الْأَجْنَاس وَالْأَنْوَاع وَتُضَاف إِلَى الظَّاهِر دُون الْمُضْمَر وَتُثَنَّى وَتُجْمَع وَلَا يُسْتَعْمَل شَيْء مِنْهَا إِلَّا مُضَافًا، وَقَدْ اِسْتَعَارُوا لَفْظ الذَّات لِعَيْنِ الشَّيْء وَاسْتَعْمَلُوهَا مُفْرَدَة وَمُضَافَة وَأَدْخَلُوا عَلَيْهَا الْأَلِف وَاللَّام وَأَجْرَوْهَا مَجْرَى النَّفْس وَالْخَاصَّة، وَلَيْسَ ذَلِكَ مِنْ كَلَام الْعَرَب اِنْتَهَى. وَقَالَ عِيَاض: ذَات الشَّيْء نَفْسه وَحَقِيقَته، وَقَدْ اِسْتَعْمَلَ أَهْل الْكَلَام الذَّات بِالْأَلِفِ وَاللَّام، وَغَلَّطَهُمْ أَكْثَر النُّحَاة وَجَوَّزَهُ بَعْضهمْ؛ لِأَنَّهَا تَرِد بِمَعْنَى النَّفْس وَحَقِيقَة الشَّيْء، وَجَاءَ فِي الشِّعْر لَكِنَّهُ شَاذّ، وَاسْتِعْمَال الْبُخَارِيّ لَهَا دَالّ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ أَنَّ الْمُرَاد بِهَا نَفْس الشَّيْء عَلَى طَرِيقَة الْمُتَكَلِّمِينَ فِي حَقّ اللَّه تَعَالَى فَفَرَّقَ بَيْن النُّعُوت وَالذَّات، وَقَالَ اِبْن بُرْهَان: إِطْلَاق الْمُتَكَلِّمِينَ الذَّات فِي حَقّ اللَّه تَعَالَى مِنْ جَهْلهمْ؛ لِأَنَّ ذَات تَأْنِيث ذُو، وَهُوَ جَلَّتْ عَظَمَته لَا يَصِحّ لَهُ إِلْحَاق تَاء التَّأْنِيث؛ وَلِهَذَا اِمْتَنَعَ أَنْ يُقَال عَلَّامَة وَإِنْ كَانَ أَعْلَم الْعَالَمِينَ. قَالَ: وَقَوْلهمْ الصِّفَات الذَّاتِيَّة جَهْل مِنْهُمْ أَيْضًا؛ لِأَنَّ النَّسَب إِلَى ذَات: ذَوِي، وَقَالَ التَّاج الْكِنْدِيّ فِي الرَّدّ عَلَى الْخَطِيب بْن نَبَاتَة فِي قَوْله كُنْهُ ذَاته ذَات، بِمَعْنَى صَاحِبَة تَأْنِيث ذُو وَلَيْسَ لَهَا فِي اللُّغَة مَدْلُول غَيْر ذَلِكَ، وَإِطْلَاق الْمُتَكَلِّمِينَ وَغَيْرهمْ الذَّات بِمَعْنَى النَّفْس خَطَأ عِنْد الْمُحَقِّقِينَ" اهـ

مصطلح "الله موجود": يستعمل المسلمون قاطبة هذا المصطلح ولا يرون أي حرج في ذلك لأنهم يرون أنهم يثبتون بهذا وجودا الله ردا على الملاحدة الذين يقولون إن الله غير موجود. ونحن بدورنا لا نقول أن "الله موجود" لسبب بسيط وهو أن الله غير موجود بل هو "موجد الوجود" أو "واجد الوجود"، فالله تعالى هو الذي أوجد الوجود، فهو فاعله حقيقة، أما استعمالنا ل "موجود" فاستعمال خاطئ لأنها اسم مفعول والله تعالى ليس مفعولا بل هو فاعل كل الوجود، لذا لا تقل لملحد –أو حتى لمسلم– أن "الله موجود" لأنه سيسألك سؤالا منطقيا: ومن أوجده؟ بل قل له "إن الله واجد". ولأن هذا الاستعمال "موجود" باطل لم تأت به السنة ولم يذكره القرآن.

الإسلاميون: من المعلوم بداهة أن من يُنسب إلى الإسلام فهو مسلم كما جاء في القرآن والسنة ولم يرد قط في الكتاب أو السنة مصطلح إسلامي كمرادف ل مسلم

ولكن على الرغم من ذلك وجدنا أبا الحسن الأشعري ألف كتابا سماه "مقالات الإسلاميين" وكذلك وجدنا أبا القاسم البلخي –من أئمة المعتزلة– يؤلف كتابا تحت ذات العنوان، مستخدمين كلاهما مصطلح إسلامي كمرادف لمسلم.

هذا المصطلح لا يستخدم –قديما ولا حديثا– باعتباره مرادفا لمصطلح "المسلمين"، "فالمسلمون" هم كل من يتدين بدين الإسلام أما "الإسلاميون" فإنهم طلائع الفكر والعمل الإسلامي، المشتغلون بصناعة الفكر، والذين يقودون العمل لوضع هذا الفكر في الممارسة والتطبيق.. فكل "إسلامي" هو مسلم وليس العكس دائما بصحيح"[10] إذا فالاستعمال قديم كمرادف للمسلم وأحيانا كان يستعمل مع من دخل في الإسلام تمييزا له عمن ولد مسلما كما حدث مع اليهود الذين أتوا من أسبانيا ثم أسلموا. ثم جاء الغرب فاستعمل الكلمة لكي يجد فرصة للتفريق بين المسلمين والإسلاميين، ويقول إنه ليس عنصريا ولا يعادي الإسلام دينا وعقيدة، بل يعادي الإسلاميين الإرهابيين... وللأسف وجد خطاب الغرب هذا صداه في العالم الإسلامي!!

أما نحن فاستخدمنا مصطلح "إسلاميين" ولم نستخدم "مسلمين" لكي نشير إلى أن كثيرا من العقائد الخلافية بين الفرق الإسلامية ليست بين أفراد الفرق نفسها بل هي بين قاداتهم طلائع الفكر والعمل الإسلامي، المشتغلون بصناعة الفكر، والذين يقودون العمل لوضع هذا الفكر في الممارسة والتطبيق، أما معظم المسلمين فإيمانهم سليم بسيط خال من هذه العقد –العقائد– مقتصر على ما ذكرنا من أسس الدين، ولكن ولما كان السادة الفقهاء قد أجازوا التقليد في الدين وفي بعض العقائد صار هؤلاء المسلمين تبعا للسادة المُنظرين يتبعونهم حيث مشوا ويحطون رحالهم حيث نزلوا، ثم يصبحون في نهاية المطاف هم وقودا لنار الفتنة التي يشعلها دعاة الفرقة فالروافض الملاعين أخطر على الدين من اليهود والنصارى والنواصب أتباع كذا وكذا يجب استئصالهم كما أبادوا

[10] محمد عمارة، الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين.

أهل البيت، وهكذا تستمر دوامة العنف بلا نهاية بأناس بسطاء لا ناقة لهم ولا جمل في هذا العراك الفكري المتعصب العفن ولاحول ولا قوة إلا بالله.

الظن: وهو كما ورد في مقاييس اللغة: "الظاء والنون أُصَيْل صحيحٌ يدلُّ على معنينِ مختلفين: يقين وشكّ، فأمَّا اليقين فقولُ القائل: ظننت ظناً، أي أيقنتُ. قال الله تعالى: ﴿... قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ... ﴿٢٤٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٤٩] أرادَ، والله أعلم، يوقِنون. والعربُ تقول ذلك وتعرفه. قال شاعرهم: فقلت لهم ظُنُّوا بأَلْفَيْ مُدَجَّجٍ سراتُهم في الفارسيِّ المُسَرَّدِ أراد: أيقِنُوا. وهو في القرآن كثير. ومن هذا الباب مَظِنَّة الشيء، وهو مَعْلَمه ومكانُه. ويقولون: هو مَظِنَّةٌ ظن لكذا. قال النَّابغة: *فإنَّ مَظِنَّة الجهلِ الشَّبابُ* والأصل الآخر: الشَّك، يقال ظننتُ الشيءَ، إذا لم تتيقّنْه، ومن ذلك الظِّنَّة: التُّهْمَةَ. والظِّنين: المُتّهم. ويقال اظَّنَّنِي فلانٌ. قال الشاعر:

ولا كُلُّ من يَظَّنِّنِي أنا مُعْتِبٌ   ولا كُلُّ ما يُرْوَى عليَّ أَقُول" اهـ

وهو في لسان العرب: "المحكم: الظَّنُّ شك ويقين إلاَّ أَنه ليس بيقينِ عِيانٍ، إنما هو يقينُ تَدَبُّرٍ، فأَما يقين العِيَانِ فلا يقال فيه إلاَّ علم... " اهـ.

و"الظن" أنواع منها مرفوض ومنها مقبول، منها ظن ثبوت العقيدة نفسها ومنها الظن في العقيدة ذاتها وسيلاحظ القارئ أن كثيرا مما هو مسطور في كتب العقائد هو من الظن المذموم سواءا كان في طيات الحديث عن عقائد الفرقة نفسها أو عقائد الفرق الأخرى.

اليقين: هو كما جاء في لسان العرب: "اليَقِينُ: العِلْم وإزاحة الشك وتحقيقُ الأَمر، وقد أَيْقَنَ يُوقِنُ إيقاناً، فهو مُوقِنٌ، ويَقِنَ يَيْقَن يَقَناً، فهو يَقِنٌ. واليَقِين نَقيض الشك، والعلم نقيضُ الجهل، تقول عَلِمْتُه يَقيناً. وفي التنزيل العزيز: وإنَّه لَحَقُّ اليَقِين؛ أَضاف الحق إلى اليقين وليس هو من إضافة الشيء إلى نفسه، لأَن الحق هو غير اليقين، إنما هو خالصُه وأَصَحُّه، فجرى مجرى إضافة البعض إلى الكل." اهـ وهنا يطرح سؤال نفسه: كيف يتم الحديث عن اليقين في الإيمانيات (العقائد) وهي غيبيات؟

عندما نتحدث عن اليقين في الإيمانيات الإسلامية فنحن نقصد: أولا: يقين ثبوت نصوص الإيمانيات نفسها، بحيث لا يوجد أي نسبة شك في ثبوتها عن النبي المعصوم، بل هي واردة عنه بطريق التواتر الذي يوجب العلم اليقيني سواءا كان قرآنا أم سنة. ثانيا: اليقين في الإيمانيات نفسها، نعم هي وإن كانت من الغيبيات ولكن يتم البرهنة عليها وإثباتها بطريق غير مباشر عن طريق إثبات صحة القرآن نفسه، فإذا ثبت صحة القرآن ككل ثبت صحة ما يحتويه من الإيمانيات. أما مسألة كيفية البرهنة والتدليل على صحة القرآن فليس هذا موضعه.[11]

كان هذا تحديدا للمفردات الواردة في عنوان الكتاب، أما بعض اللألفاظ التي سنجد فيها صعوبة على القارئ فسنوضحها في سياقها.

[11] سألت بعض الملاحدة والمسيحيين الألمان الذين يدرسون الدراسات الشرقية: هل ترى في الإسلام شيئا غير منطقيا؟ فقالوا: لا، على حد علمنا أفكار الإسلام مقبولة عقلا ومنطقا. أما الملاحدة العرب فعندهم العجب العجاب، فلقد وجدت فيهم من يدعي أنه أثبت عدم وجود الله!! وهذا ما لم نسمعه قط من فلاسفة ملاحدة الشرق أو الغرب!! وخذ الحكمة من أفواه الملاحدة العرب!.

الفصل الثاني: أهمية الإيمانيات في حياة الإنسان

للإيمانيات بشكل عام في حياة الإنسان أهمية عظمى فهي الدافع الذي من أجله يسعى الإنسان في حياته ويتحرك من أجله ولو لم يوجد لدى المرء إيمانا لما خطا خطوة واحدة في حياته. ونحن لا نقصد هنا الإيمان بإله ولكن نقصد مبدأ الإيمان وهو أن يؤمن الفرد بشيء بفكرة أو بهدف أو بغاية أو حتى بذاته ومن أجل هذا يتحرك ويسعى ويدافع عنها[12]. أما إذا فقد الإنسان الإيمان فيفقد الهدف والرغبة في هذه الحياة فيصبح إنسانا سلبيا أو في أفضل الأحوال يصبح إنسانا ضارا غير نافع.

فإذا نحن ضيقنا دائرة الإيمان وحصرناه في دائرة الإيمان بقوة عليا مسيطرة خالقة مهيمنة وهي التي تعارف الناس على تسميتها بالإله ونتعارف عليها نحن المسلمين العرب باسم الله وجدنا أن الإيمان بالله وتوحيده هو أكبر دافع للإنسان للحركة والسعي الدؤب على الأرض لأنه يعلم أنه خليفة الله في الأرض ﴿... إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً... ﴿٣٠﴾﴾ [سورة البقرة ,٣٠]، ﴿... هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا... ﴿٦١﴾﴾ [سورة هود ,٦١]

فالإيمان بالله العلي العظيم الخالق رب السموات والأرض يقضي على السلبية والشك واللأدرية ويحدد للإنسان هدفه في هذه الحياة وهو معرفة من خلقه عن طريق ما خلقه له "وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ [سورة الذاريات ,٥٦]

وفي هذا يقول الشيخ جعفر إدريس:

---

[12] في الواقع إن كل سعي الإنسان في الدنيا هو من أجل الوصول إلى الله عزوجل حتى ولو لم يدرك الإنسان ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الانشقاق ,٦] والدليل على ذلك هو أن الإنسان لا يرضى بأي شيء في الدنيا إلا الله عزوجل، فإذا كدح الإنسان من أجل غاية ووصل إليها يشعر بالرضا والإشباع لفترة قصيرة ثم يعافها و يرى أن هذا غير كاف ويبحث عن أخرى، فالباحث عن المال لا ينقطع ويظل يجمع ويجمع إلى أن يأتيه الموت والمتقلب في الشهوات يتقلب من شهوة إلى أخرى ظانا أن هذه أفضل من تلك وهو لا يدري أنه لا يزيد نفسه إلا ظمأ، أما من كدح في طريق الله حتى وصل إليه فيطمئن قلبه ويركن إليه ويهنأ به ويكون قد دخل الجنة في الدنيا قبل أن يدخلها في الآخرة.

"وربما يتبادر إلى الذهن وخاصة في عصرنا هذا الذي يرفع من قدر الظاهر المحسوس، أن الجدير بهذه المكانة هو الأعمال الصالحة كالإنفاق وحسن معاملة الناس، فلماذا جعلت لشيء باطني غير عملي؟ مع أننا إنما نُقوم الناس بأفعال جوارحهم لا بحركات قلوبهم وما تكنه ضمائرهم؟ الجواب الموجز هو أن ما في الباطن مقدم على ما في الظاهر لأنه هو أساسه ومصدره. فما من عمل ظاهري حسن كان أم سيئ إلا وله أساس باطني. هذه حقيقة يعلمها كل إنسان من نفسه، ولو كان يعلم ما في نفوس الآخرين كما يعلم نفسه لكان تقويمه لأعمالهم بأساسها الباطني هذا. تصور لو أن إنسانا أهدي إليك هدية قيمة، لكنك شاهدته في قلبه يقول لك: "ما أحقرك؛ والله إنك لا تستحقها ولا أقل منها، ولولا أني أطمع منك في أكثر منها لما أعطيتك إياها." هذا علم غيبه الله عنا فلم يبق لنا إلا الحكم بالظاهر والاستدلال به أحيانا على ما في الباطن. أما الخالق سبحانه فإنه عالم الغيب والشهادة، الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور. ولهذا كان تقويمه سبحانه للناس بهذا الباطن الذي هو أساس الظاهر... فالروح هي محل الإدراك والإيمان والتصورات والإرادات والمشاعر. والإنسان إنما يتحرك ويتصرف بما يعتقد، حقا كان أو باطلا، وبما يتصور واقعا كان أم وهما. وإذا كان الأمر كذلك كان ما يظهر لنا من صلاح الإنسان أو فساده السلوكي راجعا بالضرورة إلي صلاح معتقداته وتصوراته أو فسادها. وإذن فالجانب الذي نسميه عمليا في حياة الإنسان والذي قد نخطئ فنظنه أهم جانبيه، إنما هو أثر وناتج عن جانبه الداخلي الذي قد نجنح إلي التقليل من أهميته فنصفه بالنظري أو المثالي. كلا. إنه لهو الجانب الفعال الذي يحدد مصير الإنسان والذي ينبغي لذلك أن تكون العناية به أكبر[13]" اهـ

ولما كان الإسلام بناءً كاملا متكاملا لا يفصل بين داخل الإنسان وخارجه كان لزاما أن ينسجم كل الإنسان جسدا وروحا وعقلا في بنيان متناسق لا تناقض فيه ولا تعارض حتى يستطيع أن يحقق توازنه في هذه الحياة ولا يقع فريسة التشتت الذي يعاني منه الإنسان المعاصر أيما معاناة، وبذلك يصل إلى تحقيق الغاية العظمى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي

[13] د/ جعفر شيخ إدريس، أهمية العقيدة وأثر الإعلام الغربي فيها، بتصرف.

وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾] سورة الأنعام, ١٦٢[وهي الإخلاص لله عزوجل، فالعقيدة أيا ما كانت هذه العقيدة تعد ضرورة من ضروريات الإنسان التي لا غنى له عنها وذلك لأن الإنسان بحسب فطرته، يميل إلى اللجوء إلى قوة عليا يعتقد فيها القوة الخارقة والسيطرة الكاملة عليه وعلى المخلوقات من حوله. وهذا الاعتقاد يحقق له الميل الفطري للتدين ويشبع نزعته تلك، فإذا كان الأمر كذلك فإن أولى ما يحقق ذلك هو الاعتقاد الصحيح الذي يوافق تلك الفطرة ويحترم عقل الإنسان ومكانته في الكون، وهذا ما جاءت به العقيدة الإسلامية. قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾] سورة الأنعام, ٨٢[

قد يقول قائل: نراك ركزت كل التركيز على الإيمان بالله مع أن الإيمانيات في الإسلام تحتوي غير ذلك؟ فنقول: نعم، ولكن الإيمان بالله أساس الدين، وأول واجب على الإنسان، وعليه يقوم الإيمان ببقية أركان الإيمان؛ إذ لا يصح إيمان أحد بشيء من أركان الإيمان وشعبه وسننه إلا بعد إيمانه بالحق تبارك وتعالى. فالإيمان بالله تعالى هو أساس جميع أعمال الإيمان؛ لذا يذكر الإيمان بالله تعالى متقدماً على بقية الأركان حين يذكر معه. وعندما أمرنا الله عزوجل بالإيمان به وبوحدانيته أمرنا بالإيمان به عن طريق العلم وليس عن طريق الظن والتخمين فيقول رب الناس: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ... ﴿١٩﴾]سورة محمّـد, ١٩[

والعلم له أدواته فمن أهمل استخدامها فلا يلومن إلا نفسه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾] سورة الأعراف, ١٧٩[، ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾] سورة يونس, ١٠١[. وبداهة لن يستطيع الإنسان أن يصل بالنظر والتدبر إلى أكثر من وجود الإله الخالق، لذا يكمل الله عزوجل معرفة الإنسان عن طريق

الوحي: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِيكُمۡ رَسُولٗا مِّنكُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمۡ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾] سورة البقرة, ١٥١[

والأدلة على وجود الله ووحدانيته كثيرة وأوضح ما تكون فهي في الآفاق وفي أنفسنا ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَ لَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٥٣﴾] سورة فصّلت, ٥٣[، ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾]سورة الذاريات, ٢١[

وكذلك الفطرة والرسل وآياتهم وأكبر آية على وجود الله هو القرآن[14]. وليس هذا موطن التفصيل في إثبات بدهية وجود الله فلها موضعها، ولكن من يتخذ إلهه هواه لن يجدي معه نفعا أي دليل فلقد جعل عقله أو هواه معيارا ويا حبذا لو عبده الناس هو، فهو ليس عديم المثال على أي حال، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إشكالية العقائد في عصرنا

تواجه الأديان في عصرنا هذا بشكل عام إشكالية كبيرة وصار التبرؤ من الأديان والإلحاد هو الديدن والغالب في المجتمعات الغربية حتى صار هذا رمزا على التحضر والرقي ولما كان بعض عبيد الغرب عندنا يسجدون لكل ما أتى به الأسياد هناك فأظهروا العداوة والبغضاء للدين بنفس الحجج الغربية الواهية والتي ربما كان لها من الأسباب

[14] يمكن للإنسان أن يتأكد بكل يسر من أن القرآن من عند الله عن طريق السنة بصحيحها وموضوعها، ونركز على "موضوعها" فإذا كانت السنة الصحيحة من عند محمد بن عبد الله في القرن السابع الميلادي في بادية العرب والأحاديث الموضوعة وضعت بعد حوالي مائتي عام في مجتمعات انصهرت فيها خيرة خبرات البشر في ذلك العصر يونانيها وفارسيها وهنديها إلخ وخرجت على الرغم من ذلك تافهة لا تقارن بالقرآن بأي حال، فما بال إنسان البادية يسبق عباقرة فارس والروم؟

والدوافع عندهم ما يكفي أما عندنا فالأمر جد مختلف[15]، ولكن متى كان للعبيد عقل مستقل يزنون به الأمور ويتدبرون به في واقعهم؟!

لذا أصبحنا نواجه نحن أيضا في عالمنا الإسلامي أزمة الدين والتدين حيث صار التدين كأنه تهمة يتبرأ منها الناس وبعد أن كان هناك مصطلحا قديما نقرأه في الكتب ونسمع عنه في الأقاصيص وهو: "النفاق الديني" وهو أن يظهر الإنسان الإيمان ويبطن الكفر أصبح أشباه المثقفين يتباهون و يتفاخرون ببعدهم عن الدين وبنقدهم له على الرغم من عدم دراستهم له، حتى أني سمعت ذات يوم أحد المتفيهقين يتكلم ذات مرة في التلفاز المصري ويقول: "ويجب أن يعرض كل دين بمميزاته وعيوبه فكل دين فيه مميزات وعيوب فعلى سبيل المثال عندنا في الإسلام تعدد الزوجات... " قلت: لا حول ولا قوة إلا بالله ومن أين أتى العيب في دين الله أليس الله أحكم الحاكمين؟ أما كان يستطيع أن يأتي بدين لا عيوب فيه؟!

إن أشباه المثقفين نصبوا عقولهم للحكم على كل شيء في العالم حتى ما لا علم لهم به، ولأن الدين لا حامي بشري له صار الدين مطعنا لكل طاعن، أما المؤمنون الحقيقيون فلهم "الأمن". هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد أن الجهل الديني على المستوى الإيماني أو المستوى "الفقهي" مستشر بين العوام كانتشار النار في الحطيم والهشيم بسبب تجويز العلماء للعوام التقليد في دين الله، فالعوام كما قلنا وإن كانوا متمسكين بإصول الإيمان الكافية للنجاة مثل الإيمان بوحدانية الله وكماله واليوم الآخر والبعث والملائكة والكتب والرسل والقدر ولكن بجوار ذلك نجد للأسف الشديد بعض "العقائد" الفاسدة التي قد تناقض وتنقض هذه الإيمانيات الكاملة، فنجد عند عوام أهل السنة والشيعة بعض الشركيات مثل التوسل بالأموات والأولياء واللجوء إلى السحرة والكهنة ظنا منهم أنهم قد ينفعون أو يضرون وكذلك نجد عند بعض الشيعة التقديس المبالغ فيه لأهل البيت حتى ليكادون يصلون إلى مرتبة الآلهة ولقد شعرت أنا شخصيا

[15] نحن لا ندعي هذا من باب أننا مسلمون ولكنها شهادة الملاحدة والمسيحين الغربيين الذين يتميزون بالحياد الذي لا يوجد عند ملحدينا أصحاب "عنزة وإن طارت".

وأنا أقرأ في كتب المذهب الجعفري أن الشيعة يجلون الرسول المعصوم ويكرمونه من أجل أهل بيته لا العكس!

من ناحية ثالثة نجد أن هذا الجهل الديني من زاوية والدعاوى الغربية لتسطيح قيمة ما يؤمن به المرء وجعلها حرية شخصية للإنسان وعلاقة داخلية بين العبد والرب والتركيز على أن أغلى وأهم ما يمتلكه المرء هو الحرية –وهي قولة حق أريد بها باطل– قد أتت ثمارها، فما عدنا نرى –على الأقل ظاهريا– الرفض الصريح للآخر وأصبحنا نرى دعاوى الحوار والوحدة والتسامح تنطلق من كل مكان سواء كان المقصود بها الحوار بين أتباع الدين الواحد أو الحوار بين أتباع الديانات المختلفة، وعلى الرغم من أن بعضا منها يحمل معنى التهميش إلا أنها تركز قبل أي شيء على التسامح بين أتباع المذاهب والأديان المختلفة.

فما هو موقف الإسلاميين تجاه هذه الإشكالية العقدية؟ للأسف الشديد نجد أنهم كلهم –إلا من رحم ربي– يلفون ويدورون في نطاق إثبات صحة معتقدهم هم وخطأ وضلال غيرهم من الفرق الإسلامية ويهملون ترسيخ أصول الدين في نفوس العوام وتعليمهم كيف يعتمدون على أنفسهم في الوصول إلى الله عن طريق النظر في خلق الله. أهملوا الطريق الذي أعده الله لعباده لكي يصلوا إليه بواسطته وتفننوا في جعل المسائل الخلافية أصول الدين والذي ينكرها أو لا يعرفها على شفا حفرة من النار، فأصبحنا نرى من يقول بكفر من يقولون بخلق القرآن أو عدم رؤية الله عزوجل يوم القيامة وأنه لا تجوز الصلاة خلفهم، مع أنهم يجوزون الصلاة خلف كل بر وفاجر، أما خلف هؤلاء فلا، فهم كفرة فجرة مردة شردوا عن الدين كما يشرد السهم عن قوسه.

وهأنا ذا أكررها مرة أخرى: إن وظيفة الإسلاميين أن يعلموا الناس كيف أن يزنوا العقائد ويحكموا عليها وأن يرشدوهم كيف يصلوا إلى الله بالعقل لا أن يسقوهم العقائد بالملعقة، فنظام التعليم التلقيني أثبت فشله الجدير في تعليم المواد الدنيوية أما آن لنا أن نقلع عنه ونتبع الهدي الرباني المرسوم بعناية ربانية في كتاب غير العالم؟!

ولكن لا بد لنا من الاعتراف أن طريقة تعليم وتلقين العقائد عندنا معاشر المسلمين نقلت الدين برمته إيمانا وأحكاما من بند اتباع العقل والدليل في صحة أو خطأ العقيدة إلى بند إتباع ﴿... إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الزخرف ,٢٣] وهذا المنهج مرفوض جملة وتفصيلا في القرآن ولكن من يسمع؟!

وكم جادلت زملائي الأزهرية وأظهرت عليهم الحجة ولكنهم كانوا يصرون على موقفهم ورأيهم خشية أن يضلوا عن جادة الصواب.[16]

ويعجبني في هذا الشأن سلوك معظم الأوروبيين تجاه تغيير أحد أفراد الأسرة دينه إلى الإسلام، فلو ألحد لكان مقبولا ولكن أن يصير مسلما فإنها لكبيرة، ولكن على الرغم من ذلك فإن قبول الفرد المتحول داخل الأسرة هو الأعم الغالب وإن كان هذا لا يمنع من وجود بعض المتشددين والمتعصبين في كل مكان.

ولنتصور لو حدث هذا عندنا وأنا لن أسأل كيف سيكون الحال لو تحول المسلم السني إلى الشيعة أو العكس أو صار أباضيا كيف سيكون الحال وكيف سيكون رد فعل أسرته وأصدقاءه وتصوروا لو تحول إلى الأحمدية أو القاديانية؟ ما سيحدث أننا سنجد أعينا عميا وأذانا صما وقلوبا غلفا لا تريد أن تسمع لم تحول هذا المسكين من فرقة إلى فرقة أخرى ولكن كل همها أن يسمع هو ما يقولونه ويقتنع به فجادة الصواب ما لديهم... فقط.

[16] قال لي أحد الزملاء الذين أقدر عقله وعلمه وذكائه بعد نقاشنا في أحد المسائل الإيمانية "إنت كلامك مقنع بس انا مش هاسيب اللي درسناه واللي كل الناس بتقوله واللي أهلنا ربونا عليه"

علاقة الإيمان بالعقل

هل الإيمانيات "العقائد" في عصرنا هذا أو في العصور الماضية متوافقة مع العقل؟ تأتي الإجابة المباشرة على هذا السؤال من خلال الواقع المنظور لجميع الأديان الموجودة على البسيطة –السماوي منها والأرضي– بالنفي الصريح، فدعاة الأديان قاطبة –ما عدا الإسلام[17]– يركزون على الفصل التام بين العقل والإيمان وأن لهذا نطاقه ولهذا مجاله وأن الأمور الإيمانية لا تقاس بالعقل بل يجب أن تؤخذ أخذ تسليم لأن الدين يعلو على العقل ولا يمكن قياسه ولا الحكم عليه لا بالعقل ولا بالعلم. وعلى الرغم من التطور الكبير للنظريات النقدية وللنظريات العلمية إلا أن كل دعاة الأديان يرفضون خضوع النص الديني للنقد العلمي بحجة رمزية النص الديني وأنه مليء بالإشارات وبحجة تاريخانية النص –والتي وقع فيها الكثير من علماء المسلمين بدون أن يدروا– وبكثير من الحجج، المهم أن يظل الدين في نهاية المطاف متعال عن العقل والعلم –حتى ولو كان كله خرافة– خاضعا لسلطة الكهنة والحاخامات ورجال الدين حتى ولو تطلب الأمر اشهار سيف التهديد والتكفير والعزل في وجه من ينتقد الدين. ولقد أتى الجدار الذي أقامه رجال الدين حول الإيمانيات ثماره تماما، فأصبح أتباع الأديان كلها مقلدون يأخذون ما يقال لهم مأخذ التسليم التام بدون وجه اعتراض أو نظر من عقل، فمشاغل الحياة كثيرة، وإذا كان هؤلاء الرجال الصالحون يقولون لنا أننا في الجنة وعلى صواب فحتما ولزاما نحن كذلك، وبفضل عملية "غسيل المخ" الكبرى التي يجريها الكهنة على أتباعهم منذ الصغر حيث يغرسون الوثن والخرافة في مكان الإله العلي القدير نجد الناس يتقبلون أشياء تصادم المنطق وتعارض العقل معارضة بينة وعلى الرغم من ذلك يدافع عنها معتنقيها دفاعا مستميتا ويسخرون ممن يخالفونهم، وما ذلك إلا لأنهم اعتادوا أن يروا الأمور بمنطق مقلوب معكوس. ولا يعجب المرء من تقبل هؤلاء الناس للخرافة

---

[17] للأسف نجد بعضا من مشايخنا ولا نقول علمائنا ينتهجون نفس نهج الفصل بين الإيمانيات والعقل، ولكن نهجم هذا معارض تماما للتوجه والتوجيه القرآني لذا لا عبرة ولا وزن لقولهم وفعلهم.

والدفاع عنها فبخلاف قوة ما وجد عليه الآباء فإن الدافع الرئيس للدفاع عن هذه الخرافة هو فطرة وجود الله في النفس البشرية، فالإنسان بطبيعته يؤمن بوجود الله ووحدانيته عزوجل –وهذا مغروس فيه– ولكن كيف هو الله؟ ما هي أوامره؟ كيف يُعبد؟ فكل هذه الأمور لا بد لها من مصدر خارجي تُؤخذ منه، ولأن كل إنسان لا يتصور إلا الصدق في إخوان عقيدته وشيوخه ولا يتصور الوصول إلى الله عزوجل إلا عبر الطريق الذي هو سائر فيه، ويخشى إذا تركه أن يفقد الطريق إلى الله، لذا فعندما يدافع أحد أتباع الديانات الوثنية الخرافية عن تناقضات دينه وملته باستماته فاعلم أنه يدافع عن وجود الله ويظن أن هدم دينه هو هدم الإيمان كاملا وبذلك يختفي الله من حياته[18].

ولن نطيل الحديث عن التناقض التام بين العقل والإيمان في الأديان الموجودة على أرض الله فنظرة واحدة يمنة أو يسرة أكثر من كافية لكي يرى الإنسان عُبّاد بقر وعباد بشر وعباد أنصاف آلهة وأنصاف بشر وعباد حجارة وعباد عقول وعباد هوى وعباد جنس وعباد وهم وعباد آلهة مختلفة، والكل يرى على الرغم من ذلك أن فعله سليم منطقيا ولا حرج فيه عقلا طالما أن التبرير القديم المستمر والمتوغل موجودا وجاهزا للاستعمال "إن الذات الإلهية حلت في هذا الحجر أو الشجر أو البشر" أو "هذا الحمار أو البقرة تمظهر للقوة الإلهية العليا، فهو أو هي بذاتها ليس المعبود ولكنه رمز ل...، إلى آخر تلك الإسطوانة المشروخة التي يعيدها كل أتباع الأوثان مع بعض الاتهامات بقصر النظر وسوء الفهم –لنا طبعا نحن معاشر المسلمين– بل والأدهى وما يضحك الثكلى أننا نحن الوثنيون!!. والكل في هذا تبعا للهوى فالكل يريد أن يشبع غريزة العبادة والتقديس الموجودة عنده وليكن ذلك بإله وهمي أعبده ولا يأمرني، اكتفي

(18) كانت تؤرقني بشدة مسألة تفاعل أتباع الديانات الوثنية مع آلهتهم، فلقد كنت ولا زلت متأكدا تماما من بطلان كل الأديان ما عدا دين الله الإسلام ولكن على الرغم من ذلك كنت أراهم يبكون وينفعلون مثلنا تماما معاشر المسلمين عند سماع آيات دينهم أو الوقوف أمام آلهتهم ودعاؤها، ثم تنبهت بفضل الله ثم كاتب مسلم أن المسألة مسألة فطرية وجود الله في النفس البشرية، فهذا العابد للوثن يستحضر عظمة ووجود الإله في نفسه –الله– عندما يسمع آيات ما يظن أنها من الله أو يقف أمام الوثن داعيا ما يظن أنه الله فتدفعه فطرة الله التي فطر الناس عليها مع وجود هذا المؤثر الخارجي –سماع الآيات أو الوقوف أمام الوثن الإله الوهمي– إلى البكاء.

فقط بتقديسه ويترك لي الدنيا أرتع فيها كما يحلو لي، فما أحلاه من إله وما أجمله من رب!!

هذا كان بمنظور عام واقعي نظرة الأديان قاطبة وتعاملها المطبق مع العقل، تجنيب للعقل و غرس للوثن في عملية غسيل مخ طويلة المدى في جو من الخرافة ثم ادعاء عقلانية الدين والملة والتهجم على الديانات الأخرى لتغطية الخلل الموجود في إيمانياتها نفسها.

أما عندنا في الإسلام فالأمر جد مختلف، وليس الأمر مجرد دعوى لا بينة عليها إلا في عقل الكاتب أو منظري الدين –فنحن والحمد لله ليس عندنا ولا ينبغي أن يكون عندنا منظرين للدين– بل هي أشد الوضوح في كتاب الله وليس مخالفة البعض بحجة على الدين بل نصوص الدين هي الحجة على أفعال الاتباع. فإذا نحن تتبعنا هذه القضية أي قضية الإيمان في كتاب الله سنجد أنها تقوم تماما على العقل وعلى ذم الإعراض عن العقل والبينات واتباع الهوى وتحث على إعمال العقل حتى يصل الإنسان إلى اليقين فيما يعبده لا أن يكون الأمر مجرد تخرصات وأوهام وظنون وهذا هو عين المطلوب في أي قضية علمية حتى يُتوصل فيها إلى العلم اليقيني، والآيات حول هذا الموضوع جد كثيرة ولن نعرض للقارئ كم مرة ذُكر العقل في القرآن وكم مرة ذُم الهوى وكم مرة دعا القرآن إلى التفكر والتدبر فلقد فعلها السابقون مرارا ولكن نكتفي بأن نعرض للقارئ بعضا من هذه الآيات التي توضح المنهج الرباني:

1– ذم الظن: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ١١٦﴾ [سورة الأنعام, ١١٦] وقوله تعالى: ﴿... وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٦٦﴾ [سورة يونس, ٦٦] وقوله تعالى: ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلۡهُدَىٰٓ ٢٣﴾ [سورة النجم, ٢٣]

2- ذم اتباع الهوى: ﴿... فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْۚ... ١٣٥﴾ [سورة النساء ,١٣٥] وقوله تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ٢٦﴾ [سورة ص ,٢٦]

3- ذم اتباع الموروث والتقليد بدون تفكر: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ١٧٠﴾ [سورة البقرة ,١٧٠] وقوله تعالى: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ٢٢ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ[19] ٢٣﴾ [سورة الزخرف ,٢٢-٢٣]

4- دعوة للنظر والبحث العلمي من أجل الإيمان: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ٤٦﴾ [سورة الحج ,٤٦] وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ[20] ٢٠﴾ [سورة العنكبوت ,٢٠]

5- دعوة للاستفادة من الأمم السابقة وتلافي أخطاءها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ١٠﴾]سورة محمّد ,١٠[وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ١١١﴾ [سورة يوسف ,١١١]

---

[19] من يتابع الآيات في سورة الزخرف يجد أن الانتقام من الله عز وجل جاء للأقوام جاء بعد أن صرحوا أنهم مقتدون بآباءهم على كل حال، فنحن نلاحظ أنهم في الآية الأولى ادعوا أنهم مهتدون باتباعهم آباءهم، فلما بينت لهم رسلهم ضلالهم أصروا على اتباع الآباء وبينوا أنهم بهم مقتدون على صواب أو خطأ لهم متبعون، فنزل بهم أمر الرب القدير عقابا لهم على فعلهم.

[20] لست أدري هل قرأ الملاحدة هذه الآية أم لم يسمعوا عنها وما هو دافع محمد –في رأيهم– لاختلاق هذه الآية؟!!

6– دعوة للتعقل والتفكر والتدبر: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٤٢] وقوله تعالى: ﴿... ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٥١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾﴾ [سورة يوسف, ٢] وقوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٦٧] وقوله: ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٦٦] وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٩١] وقوله: ﴿... فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٦] وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾ [سورة الرّعد, ٣].

7– دعوة لاتباع البرهان: ﴿... قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [سورة البقرة, ١١١] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾﴾ [سورة النساء, ١٧٤] وقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المؤمنون, ١١٧].

من خلال هذه الآيات والتي هي غيض من فيض في القرآن المجيد أرجو أن يكون القارئ قد استوعب جيد وعلم علم اليقين أي عقلية يريد القرآن أن يؤسسها وأي إيمان يطلبه القرآن، إنه إيمان الحجة والبيان والبرهان إيمان مبني على العقل مساعد له وليس إيمان الهوى والتقليد.

هذا هو المنهج الرباني في التعامل مع الإيمانيات عن طريق إعمال العقل، ولكن اعترافا بالحق لا بد من القول إنه عند التطبيق في مسيرة "التاريخ الإسلامي" أُلغي كل هذا ورأينا

العجب العجب من أتباع كل فرقة، فرأينا تعمية على العقل وإبطال لدوره ودعوة صريحة إلى إلغاء العقل واتباع الرجال.

نظرة في كتب العقائد

بداهة لن يقول المنظرون: ألغوا عقولكم واتركوا كتاب ربكم واتبعونا!، ولكنهم في خضم التأصيل لمذهبهم يتم سباب انتقاص الآخرين وسبهم ووصفهم بأقذع الصفات فيرد الآخرون بداهة بمثل ما اعتدي عليهم[21]، وهنا ينقلب النقاش العقلي العلمي إلى صراع لساني منحط مطلوب فيه النصرة للنفس وللمذهب بأي شكل وبأي طريقة كانت. كما يُفخم شيوخ الفرقة وعلمهم وقدرهم ويُعظمون بطريقة مبالغ فيه تصل إلى درجة التقديس، حيث يُتجاوز معها عن كل خطأ وسهو، فيشعر معها المتبع أنه لا يقارن بهم، وإذا حاول المقلد أن يناقش نقطة معينة في المذهب خُوف وحُذر من الهلاك والضلال بالخروج عن المذهب الصحيح، وأن الدين ليس بالعقل، ومن أنت؟ واتبع ولا تبتدع! ولا تجادل أهل البدع ولا تقرأ كتبهم، وما شابه ذلك من التخويف والترهيب من استعمال العقل والحث على التقليد، حتى ولو خالفوا في ذلك القرآن، فهؤلاء الشيوخ تلاميذ نجباء لشيوخهم ولا بد أن يسيروا على نهج الشيوخ في تعليمهم التلاميذ ويضيع القرآن ونهجه بين هؤلاء وهؤلاء ولا حول ولا قوة إلا بالله. فإذا نحن نظرنا في كتب العقائد –البعيدة كل البعد عن المنهج الرباني– نجد التالي:

"التكفير والظلم والغلو في المشايخ والشتم والكذب والقسوة في المعاملة والذم بالمحاسن والأثر السيئ في الجرح والتعديل والتجسيم الصريح أو التأويل الباطل وإرهاب المتسائلين وتفضيل الكفار على المسلمين، وتفضيل الفسقة والظلمة على الصالحين، والمغالطة والانتصار بالأساطير والأحلام، وتجويز قتل الخصوم

[21] سنذكر أمثلة على ذلك في الكتاب.

والإسرائيليات والتناقض والتقول على الخصوم وزرع الكراهية الشديدة مع عدم معرفة حق المسلم والأثر السيئ على العلاقات الاجتماعية واستثارة العامة والغوغاء والتزهيد من العودة للقرآن الكريم مع المبالغة في نشر أقوال العلماء الشاذة مع انتشار عقائد ردود الأفعال (كالنصب وذم العقل) وجود القواعد المعلقة التي يطلقها بعضهم والتركيز على الجزئيات وترك الأصول وإطلاق دعاوى الإجماع وإطلاق دعاوى الاتفاق مع الكتاب والسنة والصحابة وتعميم معتقد البعض أو بعض الأفراد على جميع المسلمين مع إرجاع أصول المخالفين كل فرقة أصول الفرقة الأخرى لأصول غير مسلمة يهودية أو نصرانية أو مجوسية، وغير ذلك من الأمراض التي نعلمها أبناءنا في المدارس والجامعات فيخرجون فاقدين لأهلية التفكير الصحيح وجاهلين أبرز أسس العدل والإنصاف، ثم نستغرب بعد هذا كله لماذا هذا التوتر في المجتمع المسلم!! وهذا التباغض والتباعد بين المسلمين."[22] اهـ

تصور كل هذا عندنا في كتب العقائد ثم تدعي كل فرقة عقلانية منهجها وأتباعها، وأنّى تكون العقلانية مع كل هذه الدعاوى الباطلة، لا بد أن يُلغى العقل وتشتعل الضغائن والأحقاد بين المسلمين، ولقد أثرت هذه التوجهات على كتب العقائد بين المسلمين لذا سنضرب للقارئ الكريم بعض الأمثلة على الانتقادات والاتهامات التي كالها الأطراف المختلفة لبعضهم داخل المذهب الواحد وهو مذهب أهل السنة فما بالنا بالانتقادات التي تُوجه إلى الشيعة أو الإباضية، ولما كانت معظم هذه الفرق قد انقرضت أو كادت نوجه هذا التذكير إلى الأخوة أنصاف المتعلمين الذين يتبعون المنهج الحنبلي تحت مسمى السلفية ويتعصبون له أشد التعصب ليعلموا أن تهويلات علمائهم هي من التعصب المذموم والخوض في لحوم العلماء المسمومة وأن الحق فاتهم فيما يقولون، فنعرض لهم وللقراء كيف تعامل هؤلاء مع الخصوم ويتوقع القراء كيف يكون رد فعل المخالفين:

---

[22] حسن بن فرحان المالكي، قراءة في كتب العقائد، المذهب الحنبلي نموذجا.

خاض الحنابلة في العلماء وكفروهم لمخالفتهم لهم، وطبعا سكت الحنابلة عن هذه الرزايا الموجودة في كتبهم ولكن التاريخ يشهد أنهم كانوا يكفرون أبا حنيفة ويبغضونه اشد البغض وننقل نموذجا مما ذكروه في حقه: ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتابه السنة جملة من اتهامات خصوم أبي حنيفة مثل التي تصفه بأنه: كافر، زنديق، مات جهمياً، ينقض الإسلام عروة عروة، ما ولد في الإسلام أشأم ولا أضر على الأمة منه، وأنه أبو الخطايا، وأنه يكيد الدين!! وأنه نبطي غير عربي!!، وأن الخمارين خير من أتباع أبي حنيفة!!، وأن الحنفية أشد على المسلمين من اللصوص!!، وأن أصحاب أبي حنيفة مثل الذين يكشفون عوراتهم في المساجد!! وأن أبا حنيفة سيكبه الله في النار!!، وأنه أبو جيفة!! وأن المسلم يؤجر على بغض أبي حنيفة وأصحابه، وأنه لا يسكن البلد الذي يذكر فيه أبو حنيفة؟!، وأن استقضاء الحنفية على بلد أشد على الأمة من ظهور الدجال، وأنه من المرجئة، ويرى السيف على الأمة، وأنه أول من قال القرآن مخلوق، وأنه ضيع الأصول، ولو كان خطؤه موزعاً على الأمة لوسعهم خطأً، وأنه يترك الحديث إلى الرأي، وأنه يجب اعتزاله كالأجرب المعدي بجربه، وأنه ترك الدين، وأن أبا حنيفة وأصحابه شر الطوائف جميعاً، وأنه لم يؤت الرفق في دينه، وأنه ما أصاب قط، وأنه استتيب من الكفر مرتين أو ثلاثاً، واستتيب من كلام الزنادقة مراراً، وأن بعض فتاواه تشبه فتاوى اليهود، وأنه ما ولد أضر على الإسلام من أبي حنيفة، وأن الله ضرب على قبر أبي حنيفة طاقاً من النار، وأن بعض العلماء حمدوا الله عندما سمعوا بوفاة أبي حنيفة، وأنه من الداء العضال، وأن مذهب الحنفية هو رد أحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم)، وأنه يرى إباحة شرب المسكر وأكل لحم الخنزير، وأنه كان فاسداً، وأن كثيراً من العلماء على جواز لعن أبي حنيفة، وأنه كان أجرأ الناس على دين الله، وأن أبا حنيفة يرى أن إيمان إبليس وإيمان أبي بكر الصديق واحد، وأن حماد بن سلمة كان يقول: إني لأرجو أن يدخل الله أبا حنيفة نار جهنم!!.

وكرد فعل نجد أن اتهامات التكفير ظهرت على الجانب الآخر، فيقول المالكي: "ومثلما بالغ ابن القيم –تبعاً لشيخه ابن تيمية– في ذم الأشاعرة والمعتزلة والشيعة والصوفية فقد

بالغ خصومه من الأشاعرة خاصة في ذمه وتكفيره ورميه بكل طامة لأسباب كثيرة لكنها لا تبرر لهم تكفيره ومن تلك الأسباب هذه القصيدة التي كفرهم فيها أو لمحّ لكفرهم فألف السبكي (السيف الصقيل) بالغ فيه وردَّ الخطأ بخطأ مثله وكفرّ ابن تيمية وابن القيم ونعتهم بأقسى الألقاب والشتائم وتابعه كثير من الأشاعرة فهم إلى اليوم يكفرون ابن تيمية وابن القيم وابن بطة وغيرهم من علماء الحنابلة أو يبدعونهم وهذا رد للظلم بظلم وكان من آخر هؤلاء المخالفين لهم الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله الذي كفر ابن تيمية وابن القيم رحمهما الله، فغضبنا لذلك وقمنا بتكفير الكوثري وذمه وذم تلاميذه وتبديعهم فغضب للكوثري وأبي غدة رحمهما الله جمع من تلاميذهما –وحق لهم أن يغضبوا لكن لا يحق لهم أن يظلموا– فقالوا بتكفيرنا واتهامنا بالتجسيم وتكفير المسلمين وجمود الفهم وما إلى ذلك وهذا كله رد للخطأ بخطأ والظلم بظلم والتعصب بتعصب وهكذا... وتراهم يذمون الخوارج لأنهم يقتلون المسلمين ويكفرونهم بينما هم يفتون بقتل خصومهم وتكفيرهم كالخوارج تماماً انظر –على سبيل المثال– الآثار عند عبد الله بن أحمد (528،531) (431) (121/1،120،118،107،112،115، 127،124،...) وغير ذلك مما لا يمكن حصره، لكنني أقول في الخلاصة هنا إنني لم أجد غلاة الحنابلة ينهون عن شيء إلا ارتكبوه عندما يريدون ولم يأمروا بأمر إلا خالفوه عندما يريدون ذلك، وهذه مصيبة عامة لا تكاد تنجو منها فرقة من فرق المسلمين للأسف لكنها في غلاة الحنابلة تبدو أكثر وضوحاً من الأشاعرة والمعتزلة على الأقل." اهـ [23]

ووصل الخلاف الفكري والعقدي بين الفرق إلى أن بعضهم ضعف البخاري[24] ومسلم والإمام البيهقي! ونذكر كذلك نماذجا للافتراء على الخصوم والمبثوثة في كتب العقائد

---

[23] المرجع السابق.

[24] تركه أهل الحديث حين رفض الإقرار لهم بأن لفظ القرآن غير مخلوق!، وقعد وحيداً في منزله، فمرقوا عليه وقالوا له: "ترجع عن هذا القول حتى نعود إليك" وقال فيه أحدهم: "ألا من يختلف إلى مجلسه فلا يختلف إلينا فإنهم كتبوا إلينا من بغداد أنه تكلم في اللفظ ونهيناه فلم ينته فلا تقربوه ومن يقربه فلا يقربنا"، وقال فيه أيضاً: "من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، وخرج عن الإيمان، وبانت منه امرأته، يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه، وجعل ماله فيئاً بين المسلمين، ولم يدفن في مقابرهم، ومن وقف

–والنماذج كلها مأخوذة من كتاب السنة لعبد الله بن أحمد بن حنبل–: زعموا أن جهم بن صفوان كان يريد أن يمحو آية (الرحمن على العرش استوى) وزعموا بأنه يصلي على عيسى ولا يصلي على النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنه ذم النبي (صلى الله عليه وسلم) وأنه يحل المسكر.

وزعموا أن بشر المريسي وأصحابه لا يدرون ما يعبدون. وزعموا إنما أراد بشر المريسي وأصحابه أن يقولوا ليس في السماء شيء. وزعموا أن من قال القرآن مخلوق فهو يعبد صنماً! وأنه قد قال على الله ما لم تقله اليهود والنصارى! وزعموا أن أبا حنيفة يزعم أن النبي (صلى الله عليه وسلم) لو أدركه لأخذ بكثير من قوله.

وكالعادة نجد أن كل فرقة تعظم إمامها وتضع في فضله الروايات حتى يصير صاحب مناعة لا يرد له قول ومن يتجرؤ عليه فله الويل كل الويل، ومن أبرز من وُضعت الآثار في فضله الإمام ابن حنبل –نعم وُضع لأبي حنيفة والشافعي ولكن لم يبلغا معا قدر ابن حنبل– حتى أن الذين وضعوا في فضله الآثار اقتربوا من الشيعة في وضعهم لأئمتهم! ونذكر بعض ما ورد في مناقب أحمد وطبقات الحنابلة في فضل أحمد: "من أبغض أحمد بن حنبل فهو كافر، وزعموا أن الإمام أحمد به يعرف المسلم من الزنديق، وأن الخضر أثنى عليه وكذلك النبي موسى عليه السلام وأن نظرة من أحمد خير من عبادة سنة، وأن الله عز وجل يزوره في قبره كل عام!، وأن التبرك بقبر أحمد مشروع، وأنهم كانوا يضعون قلم أحمد في النخلة التي لا تحمل فتحمل من بركته، وأنه غضب على منكر ونكير لما سأله في القبر وقال لهما: لمثلي يقال: من ربك؟! فاعتذرا له!، وأنه رؤي في المنام يبايع الله عز وجل!، وأن الله يباهي به الملائكة!، وأن أحد الحنابلة سأل في المنام عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فأجابه المسئول: بأنهما قد زارا رب العالمين ووضعت لهما الموائد! إلى آخر هذه الخرافات." فمن يستطع بعد ذلك أن يخطئ أحمدا أو يرد له قولا؟!

فقال لا أقول مخلوق مخلوق، فقد ضاهى الكفر، ومن زعم أن لفظي بالقرآن مخلوق فهذا مبتدع لا يجالس ولا يكلم، ومن ذهب بعد هذا إلى محمد بن إسماعيل البخاري فاتهموه.

كذلك وجدنا تشريع الكراهية والفرقة بين المسلمين وكل هذا باسم الدين، ومن أشهر من يضرب بهم المثل هو الإمام البربهاري وكتابه السنة[25] حيث نرى في كتابه هذا العجب العجاب، مع أن كل مستنده هو فقط إلى أحاديث غالبيتها ضعيفة وموضوعة وعلى الرغم من ذلك يحكم انطلاقا منها على المسلمين بالتبديع والتفسيق ثم يوضح لنا كيف ينبغي أن نعاملهم: "آكل مع يهودي ونصراني ولا آكل مع مبتدع وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد!!. من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله!! وأخرج نور الإسلام من قلبه! (من أين للبربهاري بهذا العلم أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا؟). إذا علم الله من الرجل أنه مبغض لصاحب بدعة غفر له!. ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر!. ومن أعرض عن صاحب بدعة ملأ الله قلبه إيماناً!! ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله في الجنة مائة درجة!. ومن جحد حرفاً مما في هذا الكتاب أو شك أو وقف فهو صاحب هوى –يقصد كتابه لا كتاب الله!– ولا يدين الله بدين!. من أقر بما في هذا الكتاب وآمن به واتخذه إماماً ولم يشك في حرف منه ولم يجحد حرفاً واحداً فهو صاحب سنة وجماعة كامل قد كملت فيه السنة!!. "وإذا رأيت الرجل من أهل السنة رديء الطريق والمذهب فاسقاً فاجراً، صاحب معاصي ضالاً وهو على السنة، (لست أدري كيف يجتمع الاثنان؟!!– المؤلف–) فاصحبه واجلس معه فإنه ليس يضرك معصيته، وإذا رأيت الرجل مجتهداً في العبادة متقشفاً محترقاً بالعبادة صاحب بدعة فلا تجالسه ولا تقعد معه ولا تسمع كلامه"، "لا تجلس مع صاحب بدعة فإني أخاف أن تنزل عليك اللعنة" اهـ

وكذلك نجد التبديع والتكفير منتشرا بين الفرق الإسلامية المختلفة حول نقاط أقل ما توصف بأنها مبتدعة أو أنها قابلة للخلاف –كما يقبل الخلاف في الفقه– مثل مسألة خلق القرآن ولكن لا نجد إلا التشنج والإصرار على التكفير ويعجبني ما قرأته في

[25] هناك من يرى أن الكتاب ليس للبربهاري ولكنه لأحمد بن محمد بن غالب الباهلي المشهور بغلام خليل المتوفي سنة 275هـ اعتمادا على الاسم الموجود على المخطوطة! ولكن على كل حال فالكتاب يقطر حقدا وبغضا للمخالفين.

"رسالة استحسان الخوض في علم الكلام" للإمام الأشعري فنثبته هنا بنصه ردا على المتشدقين المكفرين بغير حجة:

"ثم يقال: النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يصح عنه حديث في أن القرآن غير مخلوق أو هو مخلوق. فلم قلتم إنه غير مخلوق؟ فإن قالوا: قد قاله بعض الصحابة وبعض التابعين. قيل لهم: يلزم الصحابي والتابعين مثل ما يلزمكم من أن يكون مبتدعاً ضالاً إذ قال مالم يقله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم. فإن قال قائل: فأنا أتوقف في ذلك فلا أقول مخلوق، ولا غير مخلوق. قيل له: فأنت في توقفك في ذلك مبتدع ضال لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل: "إن حدثت هذه الحادثة بعدي توقفوا فيها ولا تقولوا فيها شيئاً"، ولا قال: "ضللوا وكفروا من قال بخلقه أو من قال بنفي خلقه ". وخبرونا لو قال قائل: هذا ربكم شبعان، أو ريان، أو مكتسٍ، أو عريان، أو مقرور، أو صفراوي، أو مرطوب، أو جسم، أو عرض، أو يشم الريح، أو لا يشمها، أو هل له أنف، وقلب، وكبد، وطحال، وهل يحج في كل سنة، وهل يركب الخيل، أو لا يركبها، وهل يغتم أم لا؟ ونحو ذلك من المسائل لكان ينبغي أن تسكت عنه لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يتكلم في شيء من ذلك ولا أصحابه، أو كنت لا تسكت فكنت تبين بكلامه أن شيئاً من ذلك لا يجوز على الله عز وجل وتقدس كذا وكذا بحجة كذا وكذا. فإن قال قائل أسكت عنه ولا أجيبه بشيء، أو أهجره، أو أقوم عنه، أو لا أسلم عليه، أو لا أعوده إذا مرض، أو لا أشهد جنازته إذا مات. قيل له: فيلزمك أن تكون في جميع هذه الصيغ التي ذكرتها مبتدعاً ضالاً لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يقل: "من سأل عن شيء من ذلك فاسكتوا عنه"، ولا قال: "لا تسلموا عليه"، ولا: "قوموا عنه"، ولا قال شيئاً من ذلك. فأنتم مبتدعة إذا فعلتم ذلك. ويقال لهم: ولم لم تسكتوا عمن قال بخلق القرآن ولم كفرتموه ولم يرد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حديث صحيح في نفي خلقه وتكفير من قال بخلقه. فإن قالوا: لأن أحمد بن حنبل رضي الله عنه قال بنفي خلقه، وتكفير من قال بخلقه. قيل لهم: ولم لم يسكت أحمد عن ذلك، بل تكلم فيه؟ فإن قالوا: لأن عباس العنبري ووكيعاً وعبد الرحمن بن مهدي،

وفلانا، وفلاناً قالوا: إنه غير مخلوق، ومن قال: بأنه مخلوق فهو كافر. قيل لهم: ولم لم يسكت أولئك عما سكت عنه النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإن قالوا: لأن عمرو بن دينار وسفيان بن عيينة وجعفر بن محمد رضي الله عنهم، وفلاناً وفلانً قالوا: ليس بخالق ولا مخلوق. قيل لهم: ولم لم يسكت أولئك عن هذه المقالة، ولم يقلها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فإن أحالوا ذلك عن الصحابة، أو جماعة منهم كان ذلك مكابرة، فإنه يقال لهم: فلم لم يسكتوا عن ذلك، ولم يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولا قال: "كفروا قائله"؟ إن قالوا: لا بد للعلماء من الكلام في الحادثة ليعلم الجاهل حكمها. قيل لهم: هذا الذي أردناه منكم. فلم منعتم الكلام؟ فأنتم إن شئتم تكلمتم حتى إذا انقطعتم قلتم نهينا عن الكلام، وإن شئتم قلدتم من كان قبلكم بلا حجة ولا بيان وهذه شهوة وتحكم. ثم يقال لهم: فالنبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يتكلم في النذور والوصايا، ولا في العتق، ولا في حساب المناسخات، ولا صنف فيها كتاباً كما صنعه مالك، والثوري، والشافعي، وأبو حنيفة فيلزمكم أن يكونوا مبتدعة ضلال إذ فعلوا مالم يفعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقالوا مالم يقله نصاً بعينه وصنفوا مالم يصنفه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وقالوا بتكفير القائلين بخلق القرآن ولم يقله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. وفيما ذكرناه كفاية لكل عاقل غير معاند." اهـ

الفصل الثالث: الإشكالية اللغوية وتأويل النصوص

أصل اللغة، إلهام أم اصطلاح؟

عندما يتأمل المرء في مسلك الناس تجاه بعض الأمور البدهية يجد المرء العجب العجاب الذي يحير الألباب في سلوكهم، ومن هذه المسالك المقلوبة العجيبة مسلك البشر في التعامل مع النصوص اللغوية المقدسة وغير المقدسة وتأتي المقدسة على رأس القائمة في وجوب التعامل المخصوص المقلوب. فتجد أهل كل ملة يفهمون لغتهم ونصوصهم بشكل شبه منطقي أما عند قراءة الكتب المقدسة فيتلاشى تماما بواقي المنطق الموجودة في اللغة وترى مذهبا ونهجا غريبا في فهم أو تأويل النصوص[26]. وعلى الرغم من بدهية استعمال المتكلم لما يوصل مبتغاه ومن محكومية النص بالبيئة أو بالظروف التاريخية والاجتماعية التي قيل فيها حيث الكلمات ما هي إلا ترجمة للأفكار الموجودة في أذهاننا، نجد دوما من يرفض ما يُسمى بالقراءة الظاهرية للنص بحجة أن ليس المعنى المتبادر إلى الذهن هو المقصود بل هناك معنى آخر باطن في النص ولا يستطيع أحد أن يستخرج هذا المعنى الباطني إلا قلة من المتكلمين العالمين –وينسى هذا المتشدق أن أول من قرأوا أو واجهوا النص لم يفهموا هذا الفهم، ناهيك أن صاحبه نفسه لم يشر إليه–.

ومسألة تقسيم العلوم أو "قراءة النصوص" إلى ظاهر وباطن ليست مسألة من مستحدثات النهضة الأوروبية أو المسيحين من أجل التغلب على التناقضات وبداهة هي ليست من إبداعات العلماء المسلمين، بل إن الأمر موغل في القدم ويكاد يكون ملازما لظهور طبقة الكهنة الذين يحمون بيضة الدين!!. فإذا كان الدين –الإلهي– مجموعة من النصوص البسيطة التي يفهمها القاصي والداني بنسبة كبيرة، ابتدع هؤلاء الكهنة القول

[26] نحن نرفض الاستعمال المغلوط للفظة "تأويل" ونرى أن "التأويل" بمعنى الرد إلى الأصول وليس ما يقصدونه هو المنهج المفترض في التعامل مع النصوص وخاصة المقدسة منها، لمزيد من التوضيح انظر كتابنا "لماذا فسروا القرآن"!

بالظاهر والباطن في النصوص وأوهموا الاتباع أن ما يفهمونه من ظاهر النصوص هو فهم سطحي بل من الممكن أن يكون فهما غير صحيح، أما الفهم الباطني المراد من النص فهو عندهم فقط وعلى العامة أن يلجأوا إليهم ليأولوا لهم النصوص التأويل السليم، بل إن بعض الكهنة كانوا يخفون النصوص من أمام العامة لأنها مقدسة!! فلا يجوز ترديدها أمام الطبقات الدنيا كما كان يحدث في الهندوسية في التعامل مع كتاب "الأوبانيشادا".

ولكن إذا سلمنا أن موضوع التقسيم هذا قديم موغل في القدم، فأين بدأ وكان ظهوره؟ يرى كثيرا من العلماء أن مبدأ هذا التقسيم ومرده كان الفلسفة اليونانية القديمة ومنهم من يرى أنه ظهر في فارس. وهناك من يرى أن هذا السلوك ظهر مع كل مجتمع كان يحوي كتابا مقدسا، جيث كانت تتكون دوما طبقة من العلماء أو الكهان يدعون معرفة السر المكتوم للكلمات والحروف المقدسة وبذلك يحصلون على مكانة عليا في مجتمعاتهم.

وإذا نحن قرنا هذا المسلك مع اليهودية وجدنا أن هذا السلوك بدأ مع مجموعة من الأفراد حاولت أن تأول التوراة متأثرة بالفلسفة الأفلاطونية القديمة ومن ثم ظهرت فرقة القبالة والتي كانت تحاول كشف الغيب ومعرفة أسرار الحروف والتنجيم ثم ظهر بعد ذلك الفيلسوف اليهودي فيلون الأكثر تأثيرا في هذا المسلك الوذي خلط الفلسفة اليونانية بالفكر اليهودي، والذي أخذ يفسر التوراة تفسيرا رمزيا فحواء مثلا ترمز للحس والحية تشير إلى اللذة وهكذا.

ومع استمرار هذا النهج المعتمد على ترميز الكلمة واحتوائها لكثير من الأسرار والإشارات أصبحت الكلمة ذات تأثير ذاتي خرافي لا يصد ولا يرد حتى أننا نجد أن إسحاق عندما يتلفظ بالبركة ليعقوب بدلا من عيسو يُبارك فعلا ولا يبقى لعيسو شيء، كأن البركة كانت مختزنة في الكلمة وليست من عند الله عزوجل!!

ولم تكن المسيحية بدعا من الأمر فلقد أُغرقت تماما في التأويلات والتفسيرات الباطنية، فلقد كان لظهورها وانتشارها في ذلك الوسط الذي تسيطر عليه الفلسفات اليونانية والأفكار الغنوصية –اللأدرية– دورا هاما في وقوعها تحت تأثير هذه التأويلات الباطنية العجيبة ومن أبرز من قام بتفسير الإنجيل تفسيرا باطنيا هو أوريجانوس –تلميذ فيلون الفيلسوف اليهودي– والذي فسر الإنجيل تفسيرا رمزيا معتمدا على الفلسفة الأفلاطونية الحديثة والطرق المنتشرة في عصره. ونضرب مثالا على تفسير أوريجانوس الإشاري، وذلك عند تفسيره لمثال السامري الصالح الوارد في إنجيل لوقا[27] فيقول: "الرجل الذي كان نازلا من أريحا هو آدم. أريحا هي العالم. الكاهن هو الناموس. اللاوي يمثل الأنبياء. السامري ربنا. الدابة تمثل جسد المسيح. الفندق هو الكنيسة. صاحب الفندق هو رئيس الكنيسة. الدرهمان هما الآب والابن. الوعد برجوع السامري هو إشارة إلى مجيئ المسيح الثاني"[28] اهـ

وبما أننا نتكلم عن المسيحية فلا يمكن أن ننسى التحول الأكبر والخطير للكلمة في المسيحية حيث صارت الكلمة هي الرب كما في إنجيل يوحنا: "1:1 في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله 1: 2 هذا كان في البدء عند الله 1: 3 كل شيء به كان و بغيره لم يكن شيء مما كان"

وعندما جاء الإسلام ظهرت أيضا بعض التفسيرات الباطنية لنصوص الكتاب والسنة ونشأت على إثرها فرق كاملة ولكن لم يكتب لها البقاء والاستمرار وسنعرض لبعضها عند الحديث عن الفرق الإسلامية ومقالاتها. وعلى الرغم من أن الفكر الباطني لم يلق

[27] الآيات هي: "فأجاب يسوع و قال إنسان كان نازلا من أورشليم الى أريحا فوقع بين لصوص فعروه وجرحوه ومضوا وتركوه بين حي وميت 10: 31 فعرض أن كاهنا نزل في تلك الطريق فرأه وجاز مقابله 10: 32 وكذلك لاوي أيضا إذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابله 10: 33 ولكن سامريا مسافرا جاء اليه ولما راه تحنن 10: 34 فتقدم وضمد جراحاته وصب عليها زيتا وخمرا وأركبه على دابته واتى به الى فندق واعتنى به 10: 35 وفي الغد لما مضى اخرج دينارين واعطاهما لصاحب الفندق وقال له اعتن به ومهما انفقت اكثر فعند رجوعي اوفيك 10: 36 فاي هؤلاء الثلاثة ترى صار قريبا للذي وقع بين اللصوص 10: 37 فقال الذي صنع معه الرحمة فقال له يسوع اذهب انت ايضا واصنع هكذا"

[28] محمود المراكبي، تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية.

انتشارا في البيئة الإسلامية، إلا أن النصوص المقدسة جابهت نوعا آخر أقل درجة من التأويل وهو صرف اللفظ عن معناه إلى معان أخرى لأسباب عدة جلها واهية، حتى أنه قد ظهر في بعض التيارات الإخبارية عند الشيعة ظاهرة التوقف في فهم النص القرآني وعدم الاعتماد على ظاهره، حيث لا بد من وجود نص عن الأئمة المعصومين يوضح المعنى المراد من القرآن، وعلى الرغم من أن التيارات السنية لم تقل بهذا القول صراحة ولكنه يكاد يكون بينا في تفسيرهم حيث بنحرفون في كثير من تفسيرهم للقرآن عن النص ويعتمدون على قول السلف وما ورد في السنة –غير الصحيحة– لمخالفتها القرآن المبين الثابت بحجة أن السنة توضح القرآن.

وعلى الرغم من أن هذا المنهج الباطني في التفسير مرفوض عقلا تماما إلا أن شيوع أي أمر وتعارف الناس عليه يجعله مقبولا جدا ويلغي اللامنطقية فيه، ونحن لا نرفض بتاتا التفسير الإشاري للنصوص، بمعنى أن كلمات النص تدل على معنى معين وفي نفس الوقت تشير إلى كذا وكذا، أما أن يترك المدلول المباشر للنص بحجة التفسير الباطني فهذا ما نرفضه تماما. والسبب الرئيس في قبول هذه التفسيرات وقبول أي تفسير عجيب هو القول بالاعتباطية في اللغة. ولما كان الكثيرون من القراء لا يعرفون ما هو المقصود بالاعتباطية في اللغة، لذا نوضح لهم بقليل من الإطالة المقصود منها:

هل سألت نفسك مرة: لم سمي الحمار حمارا؟ أو لم سمي الخرطوم خرطوما؟ ولم سمي الكلب كلبا؟ قد يكون هذا السؤال قد مر على بال بعض القراء ولكنه سرعان ما نساه، ولم يخطر ببال آخرين، وفي كلا الحالتين قد طمر السؤال. وفي الواقع إن هذا الإجابة على هذا السؤال من الصعوبة بمكان، فلقد احتار فيه اللغويون من قديم الزمان و حتى الآن، فهل هناك حقا علاقة بين الدال "اللفظ" والمدلول "الشيء"، وهل الحروف منفردة مثل حرف "الحاء" أو "الميم" لها معنى؟ أم أنها اعتباطية وردت هكذا بالصدفة، ولا علاقة لها بالطبيعة المحيطة بها ولا تحمل أي معنى في ذاتها؟ ولما عجزوا عن إيجاد إجابة لهذا السؤال قالوا إنه لا علاقة بين الاثنين فاللغة اعتباطية، أي أنه لا يوجد قواعد توضع عليها اللغة أو أسس تقوم عليها، أي أنه كان من الممكن جدا أن

يسمى الحمار حصانا أو يسمى البيت رجلا أو يسمى الذراع ساقا، ولكنه لم حصل التواضع من البشر على ذلك استقرت الاسماء على مسمياتها. وهذه الإجابة قد تبدو مريحة بعض الشيء للقارىء العادي أو المتخصص، وكذلك للعلماء، ولكن هل هذا هو الواقع فعلا أنه لا توجد علاقة بين الدال والمدلول؟ بطبيعة الحال هذا الخلاف ليس حديثا فلقد اختلف فيه علماء اللغة العربية منذ زمن طويل ولكنهم اختاروا المنهج الاعتباطي، فنقل لنا الإمام السيوطي في كتابه "المزهر" هذا الخلاف، حاكيا:

"باب القول على أصل اللغة، إلهام هي أم اصطلاح؟ هذا موضع مُحْوِج إلى فَضْل تأمُّل، غير أن أكثَر أهلِ النظر على أن أصلَ اللغةِ إنما هو تواضعٌ واصطلاح، لا وَحْيٌ ولا توقيفٌ، إلاّ أن أبا علي رحمه اللّه قال لي يوماً: هي من عند اللّه؛ واحتج بقوله تعالى: "وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماءَ كُلَّها"؛ وهذا لا يتناول موضعَ الخلاف؛ وذلك أنه قد يجوز أن يكونَ تأويلُه: أَقدَرَ آدَمَ على أَنْ واضَعَ عليها، وهذا المعنى من عند اللّه سبحانه لا مَحالة؛ فإذا كان ذلك مُحْتَمَلاً غير مُسْتَنْكَر سقط الاسْتِدلال به، إلاّ أنني سألتُ يوماً بعضَ أهله فقلت: ما تنكر أن تصحّ المواضعة من اللّه –سبحانه؟ وإن لم يكن ذا جارحة، بأن يُحدث في جسم من الأجسام –خشبةٍ أو غيرها– إقبالاً على شخص من الأشخاص، وتحريكاً لها نحوَه، ويُسْمع –في حال تحرك الخشبة نحوَ ذلك الشخص– صَوْتاً يضَعُه اسماً له، ويعيد حركة تلك الخشبة نحو ذلك الشخص دفعاتٍ، مع أنه –عزَّ اسمُه– قادرٌ على أن يُقْنِعَ، في تعريفه ذلك، بالمرَّة الواحدة، فتقومُ الخشبة في هذا الإيماء وهذه الإشارة، مقامَ جارحة ابن آدم في الإشارة بها في المواضعة؛ وكما أن الإنسان أيضاً قد يجوزُ إذا أراد المواضعة أن يشير بخشبةٍ نحو المرادِ المتواضَعِ عليه، فيقيمها في ذلك مقامَ يده، لو أراد الإيماء بها نحوَه. فلم يُجب عن هذا بأكثرَ من الاعترافِ بوجوبه، ولم يخرج من جهته شيء أصلاً فأحكيه عنه، وهو عندي وعلى ما تراه الآن لازمٌ لمن قال بامتناع كون مواضعة القديم تعالى لغةً مُرْتجلة غير ناقلة لساناً إلى لسان، فاعرف ذلك.وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعات؛ كدَويِّ الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشَحِيج الحمار، ونعيق

الغراب، وصهيل الفرس، ونَزيب الظبْي، ونحو ذلك، ثم وُلِّدت اللغاتُ عن ذلك فيما بعد. وهذا عندي وجهٌ صالح، ومذهب مُتَقَبَّل. واعلم فيما بعد أنني على تَقَادم الوقت دائمُ التَّنْقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدَّواعي والخوالج قويَة التَّجاذب لي، مختلفةَ جهاتِ التَّغَول على فكري؛ وذلك أنني إذا تأملتُ حالَ هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة، والدِّقَّة، والإرهاف، والرِّقَّة، ما يملك عليَّ جانب الفكر، حتى يكاد يطمحُ به أمامَ غَلْوَةِ السِّحْرِ؛ فمن ذلك ما نَبَّه عليه أصحابنا رحمهم اللّه، ومنه ما حَذَوْتُه على أمثلتهم، فعرفت بتَتَابُعه وانْقِياده وبُعْدِ مَرَاميه وآماده، صحةَ ما وُفِّقُوا لتقديمه منه ولُطْفِ ما (...). الألفاظُ إما أن تدل على المعاني بذواتها أو بوَضْع اللّه إياها، أو بوَضْع الناس أو بكَون البعْض بوَضْع اللّه والباقي بوضع الناس؛ والأول مذهب عباد بن سليمان، والثاني مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري وابن فُورَك، والثالث مذهب أبي هاشم، وأما الرابع فإما أن يكونَ الابتداءُ من الناس والتَّتِمَّة من اللّه، وهو مذهب قوم، أو الابتداءُ من اللّه والتتمة من الناس، وهو مذهب الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني. والمحققون متوقفون في الكل إلاّ في مذهب عباد، ودليل فسادِه أن اللفظَ لو دلَّ بالذات لفَهِم كلُّ واحد منهم كلَّ اللغات؛ لعدم اختلاف الدلالات الذاتية، واللازمُ باطلٌ فالملزوم كذلك. واحتجَّ عبّاد بأنه لولا الدّلالةُ الذاتيَّةُ لكان وضعُ لفظٍ من بين الألفاظ بإزاء معنًى من بين المعاني ترجيحاً بلا مُرَجِّح، وهو محال."اهـ

فنلاحظ أن العلماء توقفوا في جميع الآراء إلا الرأي الذي قال به عباد بن سليمان، فاتفق اللغويون العرب على هذا المبدأ في الماضي، و لكنهم لم يسموه هذا الاسم، وأمّا في الغرب فقد تمَّ تأسيس مبدأ الاعتباطية على يد العالم اللغوي الشهير دي سوسير فسمّاه لأول مرةٍ بـ (المبدأ الاعتباطي) وقرر أن هذا الأمر وإن كان متناقضاً على نحوٍ ما مع علم اللغة إلاّ أنه بالفعل مبدأٌ لامنطقيٌّ وعليه فيمكن تأسيس علمٍ للغة على هذا المبدأ.

حيث أن هذه هي حجة الاعتباطية الكبرى في نفي العلاقة بين الدال والمدلول، إذ أنه لو كان هناك علاقة واقعة بين الدال والمدلول لما اختلفت اللغات ولصارت اللغات

كلها لغة واحدة، لأن الناس في جميع الأقطار سيتفقون على تسمية واحدة للمسمى لوجود العلاقة القائمة بينهما، فيسمون الحصان حصانا والحجر حجرا لأن العلاقة قائمة بينهما."

ونحن لن نحاول التأصيل لهذا المبدأ في هذا الكتاب فالكلام عليه يطول والجدال فيه كثير ونحيل القارئ إلى كتاب "اللغة الموحدة" للكاتب العراقي "عالم سبيط النيلي" رحمه الله ففيه التفصيل والتأصيل لهذا المنهج –على الرغم من اختلافنا معه رحمه الله في بعض النقاط في كتابه–.

أمثلة على الفوضى التفسيرية

ولما كان المنهج القصدي يقوم على وجود علاقة بين الدال والمدلول، كان لا بد من الاعتماد على نصوص سليمة لم يصلها التحريف أو الاستعمال الجزافي الاعتباطي الخاطئ. وعلى الرغم من أن اللغة العربية هي أم اللغات، وعلى الرغم من ظهورها مع الإنسان الأول وعلى الرغم من التوجيه الرحماني الرباني لها على مدار العصور والأزمنة حتى وصلت إلى اللسان العربي المبين الحالي المهيئ لحمل القرآن، إلا أنه كعادة البشر في الاستعمال الجزافي للمفردات فلا يمكن الاعتماد على اللغة العربية بل كان لا بد من الاعتماد على نص محفوظ من عند رب العالمين، نضمن فيه عدم وجود اللحن أو الخطأ نقيس عليه ونقوم به كلام العرب، لا أن نفعل كما فعل السادة النحاة والمفسرون. فالمشكلة الأزلية أنهم وضعوا القرآن والأبيات المختلقة من الشعر وقول فلان أو علان من العرب جنبا إلى جنب، بل وقاسوا القرآن على أقوال العرب، فما عاد هناك معيار للصواب والخطأ، فبدلا من أن يكون القرآن العظيم هو المعيار والتبيان ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [سورة

النحل ,٨٩] صار تابعا لقول هذا وذاك، يجره هذا الكوفي إلى قول ابن فلان، ويسوقه البصري على رأي علان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وبهذا المسلك العجيب المريب انهار الركن الركين في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٦٤﴾ [سورة النحل ,٦٤] فبدلا من أن يكون الكتاب رافعا للخلاف مؤسسا للوحدة، أصبح الكتاب هو أصل الخلاف وما من فريق من الفرق الإسلامية إلا ويستدل على ما يقوله بما هو موجود في كتاب الله وجائز في لغة العرب!!

فإذا كان السيد المفسر يتعامل مع النص القرآني بطريقة التعضية[29] ويتعامل معه كأنه أحاط به علما ويجعل القرآن تابعا له فيما يقول بدلا من أن يخضع هو له، ويؤمن أن النص القرآني غير مغاير لكلام المخلوقين بل هو من جنسه، وإذا كان لا يرى أن القرآن مبينا بذاته لذاته ويحتاج إلى الإبانة من غيره وإذا كان المفسر لا يرى علو القرآن وشموله لكل العلوم سواء اللغوية منها أو العقدية ويراه تابعا للسنة والسنة حاكمة ومهيمنة عليه، فلا عجب أن يكون هذا هو حال الأمة في الاختلاف والشقاق وحال كل من يتعامل مع النص بهذا الشكل والمنهاج.

فإذا كانت الكلمة تفسر بكلمة أخرى بدعوى الترادف وإذا كان الله عزوجل يأتي بترتيب ويأتي السادة المفسرون والنحاة بترتيب آخر، وإذا كان الله عزوجل يختار بعض الحروف –كالجر– ويأبى المفسرون إلا اختيار أخر، وإذا كان الرب القدير يختار أزمنة للفعل ولا يقبل المفسرون إلا أن يجعلوا المضارع للماضي أو العكس، وإذا كان المعرفة يُراد به النكرة والمفرد يراد به الجمع واسم الإشارة البعيد يستعمل للقريب، وإذا كان هناك محذوفات كثرة في القرآن، وتتعدد أشكال المحذوفات فمنها مركب ومنها

[29] إشارة إلى قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَى ٱلۡمُقۡتَسِمِينَ ٩٠ ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ ٩١﴾ [سورة الحجر ,٩٠-٩١]

مفرد[30]، وإذا كان هناك زيادات وحشو في القرآن، وإذا كانت أنواع المجازات تكاد تملأ القرآن، فلا بد أن يكون هذا حال الأمة من تمزق وشقاق، لذلك لا عجب أن يقول المعتزلة أن القرآن قطعي الثبوت ظني الدلالة! ولكن العجيب أننا رأينا بعض أهل السنة يزعم أن القرآن قطعي الثبوت قطعي الدلالة! ونحن لا نعارض في ذلك بل نحن كلنا يقين وثقة أنه قطعي الثبوت قطعي الدلالة، فالله عزوجل أنزل كتابا غاية في البيان، أنزله لرفع الخلاف لا ليثير الخلاف، وأنا أسأل: بالله عليك عزيزي القارئ: كيف يكون نص يحتمل ويقبل كل هذه الاحتمالات قطعي الدلالة؟!

وحتى لا يظن القارئ أننا نتقول على السادة المفسرين أو نبالغ في الأمر سنقوم بعرض بعض الأمثلة على الفوضى التفسيرية[31]:

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ... ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٤٧] "قال الزجاج: ونضع الموازين ذوات القسط وقوله: {لِيَوْمِ القيامة} قال الفراء في يوم القيامة وقيل لأهل يوم القيامة." قال المفسّرون في حرف "اللام" المرتبط بمفردة يوم أنها (حرفُ زائدٌ). وقال آخرون بل هو بمعنى (في). ونرد على ذلك: إن كان هو بمعنى (في) فهو ظرفٌ، والمعنى البديل هو (في يوم). ويتساءل المنهج عندئذٍ عن أمرين: الأول: لماذا لم يقلْ الله تعالى (في يوم القيامة)، وهو قولٌ مقدورٌ له ولا يحدِث التباساً ولا يخلّ بالسياق أو التناغم بين الألفاظ. الثاني: إذا كان القصد هو (في يوم القيامة) فإن هذا الحرف (اللام) سيكون زائداً ولا شكّ في مخالفته للبلاغة، لأنَّه يكفي نصب لفظ (يوم) على الظرفية كما هو معلوم ومطّرد في القرآن فيكون التركيب بهذه

---

[30] نذكر للقارئ نموذجا سريعا لقولهم بمحذوف في كتاب الله، قالوا في تفسير! قول الله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَٰنَ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [سورة المائدة, ٨٩]، حيث قالوا: والمقصود إذا حلفتم فحنثتم لأن الكفارة لا تجب بمجرد الحلف، إلا أنه حذف ذكر الحنث لكونه معلوماً! فبدلا من التصريح بعدم فهم معنى الحلف يصرح بوجود محذوف معلوم بداهة! وحتى نقرب على القارئ معنى الحلف نقول: تتبع مواطن استعماله في القرآن وانظر مع أي صنف من الناس استعمل!

[31] من يرد المزيد والمزيد من الأمثلة على ما نقول فعليه بكتابنا الأول "لماذا فسروا القرآن"

الصورة (ونضع الموازين القسط يومَ القيامة) وهي عبارة صحيحة ومتناسقة ولا خلل فيها. والمعنى واضح جدا وهو ليس "نضع الموازين في يوم القيامة، ولا نضع الموازين يوم القيامة" بل هو "ونضع الموازين القسط ليوم القيامة"، ونرجو أن يتذكر القارئ معنى اللام في اللغة العربية ويفهم على أساسه الآية وسيجدها واضحة جدا.!

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [سورة الأنبياء, ١٠٥] فيقول ابن خالويه في كتاب (ليس في كلام العرب) ما نصّه: (وليس في كلام العرب (بعد) بمعنى (قبل) إلاَّ في قوله تعالى: "وَلَقَد كَتَبْنَا فِي الزَبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِكرِ أنَّ الأرضَ يَرِثُهَا عِبَاديَ الصَالِحون" فلقد ظنَّ أنَّ (الذكر) هو القرآن، وإذن فكيف يكون (الزبور) من بعد الذكر؟، فلا بدَّ أن يكون (من قبل) لأَنَّه قبل القرآن. وعليه فإنّ (بعد) هي (بعد) عند جميع الأمم، وعند جميع العرب إلاَّ عند الوحي وفي موضعٍ واحدٍ منه هي بمعنى (قبل)!

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾﴾ [سورة الـطارق, ٦] حيث زعموا أنّها صيغة فاعل ولكنها بمعنى مفعول: أي ماء مدفوق. فلماذا زعموا ذلك والدافق اسم فاعلٍ يأتي كصفةٍ للفاعل مثله مثل أيّ اسم فاعلٍ يعمل كصفة مثل (رجل تاجر) و(سيف ضارب) و(زورق غارق)؟.. فإذا كان يزعم أنَّ الماء ليست له قدرة على التدفّق بمفرده فلذلك يكون (مدفوقاً) بدلاً من (دافقٍ)، فلماذا لا يغيّر اللغة كلّها؟.. فهناك آلاف الاستعمالات من هذا النوعِ.. فهل يجوز أنَّ يقول (سيف مضروب) و(زورق مغرق) باعتبار أنَّ السيف والزورق لا يفعلان ذلك من تلقاء نفسيهما؟.

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة القصص, ١٢] "قالوا: (هو من باب إقامة المفعول بدل الفاعل). ومعنى ذلك أنَّ أصل العبارة هو: وحرَّمناه على المراضع. إنَّ هذا القول لم يكن تعسّفاً بغير ما سببٍ وحسب، وإنَّما هو فوق ذلك جرأةٌ على الله تعالى ورسوله واعتداءٌ سافرٌ على موسى (ع). ذلك لأنَّه حينما حُرِّمَت عليه المراضع فإن موسى (ع) يكون هو الذي استلم أمر التحريم

وعمل به فلم يقبل على مرضعةٍ ما لأنَّها محرّمةٌ عليه. ومعلومٌ أنَّ المرضعات من آل فرعون كافراتٌ فيُخشى أنَّ يُصيبه من داء الرضاع ما يصيب المولود من النسب، ولأجل ذلك ولأهمِّية الرضاع حرَّم الشرعُ من الرضاع ما يحرَّم من النسب. إنّ غاية العبارة التفسيرية هي إظهار طهارة نساء آل فرعون، وأنَّه تعالى قد حرَّم عليهن موسى (ع) وما يتبع ذلك من إساءةٍ لهذا النبي الكريم وقلبٍ لمعنى الآية رأساً على عقبٍ!. ويبقى السؤال نفسه الذي نردّده: ما هي غاياتهم من قلب التركيب الذي نزل به الوحي؟ وقد يقال: إنهم قالوا ذلك لأنَّه من غير المعقول أنْ يحرِّم الله تعالى شيئاً على الرضيع، إذ هو دون سنّ التكليف ولا يفهم شيئاً!. الواقع.. إنَّ الذي يقول ذلك هو الذي لا يفهم شيئاً!."[32]

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا... ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الأحقاف, ٢٠] "قالوا: (وهو مقلوبٌ إذ الأصل فيه: ويوم تُعرَضُ النارُ على الذين كفروا). ولا ندري ما هو السبب الحقيقي لمثل هذا التقدير.. ولكن لعلّهم ظنّوا أنَّ الذي تعرض عليه الأشياء لا بدَّ أنَّ يكون عاقلاً مدركاً، والنار ليست كذلك، فيكون الصحيح أنَّ النار هي التي تعرض على الذين كفروا..!. نقول: فعلاً أنْ قد أصبح الأمر بالمقلوب! فقد جعلوا الذين لا يعقلون وهم الذين كفروا عقلاء، والنار التي هي خلقٌ ناطقٌ وعاقلٌ من خلق الله حسب القرآن الكريم.. جعلوها غير عاقلة!.

فأمَّا لا عقلانية الذين كفروا فهي أوضح من أنْ نأتيَّ بشاهدٍ لها، إذ تعدّدت الموارد القرآنية فيها، بل أنَّ هؤلاء قد اعترفوا بحسب هذا المورد حينما قالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [سورة الـملك, ١٠-١١]

[32] عالم سبيط النيلي، النظام القرآني.

وأمَّا عقلانية النار: فأيُّ شيءٍ أعقل من هذا الكائن الذي يضع الناس في مواضعهم الصحيحة، ويضع الشخص المناسب في المكان المناسب وبحسب الطبقات سوى الذين أمَّرهم عليها؟. وهي مخلوقٌ متكلّمٌ وعارفٌ.. وحينما تُسألُ تجيبُ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾ [سورة ق, ٣٠]، ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩﴾ [سورة الأنبياء, ٦٩]. وكانت مخاطبتها بشأن إبراهيم تحديداً لأنَّها عاقلةٌ وتميّز إبراهيم من غيره.[33]"

ونكتفي بهذا القدر البسيط من نماذج التعامل العجيب مع كتاب الله، عل القارئ يكون قد وعى تماما ما نقصده.

إشكالية التأويل

بعد أن تكلمنا عن الإشكالية اللغوية في التعامل مع النصوص وكيف أن القول بالاعتباطية في اللغة ساعد على قبول التفسيرات الباطنية والتفسيرات العجيبة للنص والتأويلات للنص، ولكننا لم نعرض لأسباب لجوء المفسر إلى التأويل، فالمفترض في المفسر أن يلجأ إلى إزالة مواطن الغموض في النص حتى يصير سلسا سهلا، يفهمه القارئ بلا صعوبة ويلغي أي احتمالات للتعارض، فما الذي يدفع المفسر إلى التأويل بغض النظر عن سعيه إلى منصب أو مكانة؟

السبب الرئيس للتأويل هو رفع الخلاف وإلغاء التناقض سواء مع عناصر النص الأخرى أو مع الواقع المشاهد أو مع اللغة أو الدليل العقلي القاطع، باختصار يؤول النص حتى لا يصطدم بقطعي، حتى أننا سمعنا المقولة الشهيرة "إذا تعارض النقل مع العقل يؤول النقل من أجل العقل." وإذا نحن تأملنا سلوك السادة الفقهاء والمفسرين عند التعامل مع

[33] المصدر السابق.

النصوص القرآنية نجدهم يتفنون في صرف اللفظ عن ظاهره وأنه لا يقبل بهذا الشكل بل كان المفترض أن يكون كذا وكذا أو المقصود كذا وكذا، لأن العقل السليم! يقول كذا أو السنة الصحيحة! تلزم أن لا يكون المعنى المباشر هو المقصود من النص بل ما جاء في الأخبار هو عين الصواب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

المهم، بعد أن اتفق الجميع على التأويل وأولوا النص وترك المنطوق وأخذوا المبطون – في عقولهم– اختلفوا الاختلاف الذريع في الدين، وكل فريق يرمي أخاه بالضلال المبين والزيغ عن الصواب، ولم يستطيعوا أن يصلوا إلى رأي معين في المؤول، وهذه هي إشكالية التأويل الكبرى، فعندما أدعي أن النص يعارض مواطن أخرى لذات النص أو يعارض العقل وألجا إلى التأويل فلقد وقعت في ورطتين مهما راوغت وحاولت الفرار: أولاهما: الاعتراف بحصول الاختلاف والتناقض في النص، لأنه لو لم يكن هناك تناقض ما اضطر المفسر أو القارئ إلى التأويل، والنص الإلهي السليم يستحيل وجود الاختلاف فيه، فالله تعالى يقولك ﴿... وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا[34] ٨٢﴾]سورة النساء, ٨٢[. ثانيهما: إلغاء المرجعية التي يُحتكم إليها، فإذا كان النص قد أُول وترك منطوقه ولفظه فإلى ما يحتكم المختلفون؟! وبذلك يسقط النص المؤول في الحالتين عند المؤمنين به والمنكرين له، إما لوجود التناقض الداخلي وإما لإسقاط أهله له بأيديهم.

والعجيب أنه ما من موضع أُول في كتاب الله بحجة التعارض مع العقل إلا وهناك من فهمه بظاهره بدون الحاجة إلى التأويل، وترى كل فريق يسخر ويعجب من الآخر، فترى من يأول يعجب ممن يأخذ الآيات على ظواهرها وكيف أنه قصير النظر قليل الفهم، ومن يأخذها على ظاهرها يعجب كيف غفل من أولها عن فهمها مع أنها واضحة جلية.

[34] يرى بعض الحمقى أن القرآن يقبل أن يكون به القليل من الاختلاف استنادا إلى دليل الخطاب في قوله تعالى: "اختلافا كثيرا"، وهم بذلك يقيسون الله عزوجل على البشر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد يعجب القارئ، لم هذا الإصرار من المؤلف والتركيز على مسألة التأويل على الرغم من أنه مسألة واقعة مألوفة لا جدال فيها؟ فنقول: على الرغم من أن مخالفة التأويل للنص واضحة جالية وكان من المفترض في العقول السليمة أن ترفضها أيما رفض، إلا أن الأمر لما عم في التعامل مع النصوص الدينية أو غيرها صار مألوفا ومقبولا، حتى أننا رأيناه في تعامل السادة المفسرين مع نصوص القرآن العظيم. لذا فإن رفضنا للتأويل هو خطوة أولى لرد الأمور إلى نصابها وكشف الغث من السمين وإظهار دين الله الحق ولو كره المشركون.

فمن ينظر في ساحة الأديان الموجودة على سطح البسيطة يجد الكثير والكثير من الأديان التي كُتب لها البقاء والاستمرار على الرغم من تناقص مبناها وتفاهة محتواها لسبب واحد رئيس وهو ذلك المسمى بمبضع التأويل. فإذا أنت ناقشت اليهودي أو النصراني أو البوذي أو السيخي أو أي تابع لأي ملة أرضية في نقاط معينة في دينه وقلت له إن هذا القول في كتابكم يناقض القول الآخر فيه أيضا، فيا عجبا لغفلتكم، كما أن وصفكم لإلهكم وصف منحط مجسم لا يليق بالإله العلي، إن عقائدكم هذه عقائد بدائية لا تصلح للقرن الخامس عشر ناهيك عن الحادي والعشرين، سينظر إليك بكل استخفاف وشفقة ويقول لك: يبدو أنك غر ساذج ولا تفهم اللغة ولا مبناها، فما ذكرته من تعارض كذا مع كذا، فليس المراد منه ما فهمت ولكن المراد كذا أو كذا، أما سمعت عن شيء اسمه المجاز، أما قولك أنَّا نَصِفُ الإله بأوصاف نابعة من عقول بدائية فاقرأ كتابك وستجد المماثل لها، لذا يمكنني أن أصفكم أيضا أنكم مجسمة، فما الفارق بيننا وبينكم إذا كنا نحن نؤول وأنتم تأولون أو "تبلكفون" أم أنه مسألة تعصب؟!!

طبعا لن يستطيع أن يرد عليه لاشتراك الجميع في المنهج، أما إذا قلنا نحن أن الفارق بين الإسلام وبين غيره من الأديان الأخرى هو نقطة محورية وهي أن كتابه الموحى به لا يزال كما هو لم يصبه تحريف أو ضياع، بلغه أصلية مفهومة مستعملة ويمكن فهمه بلا

أي مجاز أو كناية أو تأويل أو أي انحراف عن منطوق النص وبدون أي تدخل من العقل إلا في حدود فهم النص من باب ومنظور التبعية للنص لا الحاكمية عليه.

وأرجو أن لا يسيء القارئ فهمنا فيظن أننا نقصد من الفهم المباشر للفظ بدون المجازات أو التأويل أننا سنفهم من مثل قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [سورة الإسراء, ٢٤] أو من قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٤٢] أو من قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الإسراء, ٧٢] أو من قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٥٧]، جناح مثل جناح الطائر أو خطوة مثل مباعدة الإنسان بين ساقيه في المشي أو الإنسان الذي لا يستطيع الرؤية.

قد يسأل سائل: وما الفرق إذا بينك وبين من يقول بالمجاز؟

فنقول: الفارق هو ذلك التقسيم الخاطئ للمجاز والحقيقة، فاللفظة في اللغة العربية تحتمل وتأتي بأكثر من معنى، يكون واحدا منها دالا على جسم مادي والأخر على شيئ معنوي، فإذا استعملت مع المادي كان ذلك من باب الحقيقة وإذا استعملت مع المعنوي كان ذلك من باب المجاز وهذا ما أسميه "الحقيقة الجسد عند اللغويين"، فليس هناك ما يمكن أن يسمى "بالحقيقة المجسمة أو المجاز المعنوي" بل الحقيقة يمكن أن تكون مادية أو معنوية. ولما كان السادة البلغاء يعرفون أن هذا التقسيم غير سليم بتاتا لم يصرحوا به ولم يذكروا أن المادي هو الحقيقة والمعنوي هو المجاز ولكن أنا أطلب إلى القارئ العزيز أن يتتبع المواطن التي قالوا إنها من المجازات في القرآن وسيرى أنهم يسيرون على هذا النهج بدون أن يلاحظوا، وهو "تمجيز المعنوي وتحقيق المادي" أما منهجنا بكل بساطة فهو فهم منطوق النص من خلال مفرداته فهما نابعا منه، متفقا مع الأصل العام لمعنى المفردة المستخدمة، فإذا نحن تأملنا في أي كلمة في

لغتنا العظيمة سنجد أنه يندرج تحتها الكثير والكثير من المعاني، قد يظن البعض أنه لا علاقة بينها، ولكن في الواقع يربطها رباط عام تندرج تحته، وهذا المعنى الإجمالي هو الذي نتحرك من خلاله في معنى اللفظة المستخدمة في النص القرآني وبذلك لا نحيد عن الحقيقة قيد أنملة في التعامل مع كتاب الله[35].

ونضرب مثالا توضيحيا للقارئ الكريم على ما نقول: بما أننا نتكلم عن كتاب الله عزوجل فسنختار الأصل "ك ت ب"، فإذا بحث عنه القارئ في لسان العرب فسيجده يأتي في عدة من الصفحات ويندرج تحته الكثير من المداليل منها الكتابة بالخط والكتيبة في الجيش مثلا والكتابة بمعنى الإلزام، ولكن إذا بحث عن هذا الأصل في معجم مقاييس اللغة فسيجده كالتالي: "الكاف والتاء والباء أصلٌ صحيح واحد يدلُّ على جمع شيءٍ إلى شيءٍ. من ذلك الكِتَابُ والكتابة. يقال: كتبت الكتابَ أكْتبه كَتْباً. ويقولون كتبتُ البَغلَة، إذا جمعتُ شُفرَي رَحِمها بحَلْقة. قال: لا تأمَنَنَّ فَزارِيًّا حَلَلتَ به على قَلُوصِك واكتُبْهَا بأسيار والكُتْبَةُ: الخُرْزَة، وإنَّما سمِّيت بذلك لجمعها المخروز. والكُتَب الخُرَز. قال ذو الرُّمَّة: وَفْرَاءَ غَرْفِيَّةٍ أثأَى خوارِزَها مُشَلشَلٌ ضَيَّعَتْهُ بينَها الكُتَب ومن الباب الكِتَابُ وهو الفَرْضُ. قال الله تعالى: ﴿...كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ ... ﴿١٨٣﴾﴾]سورة البقرة ,١٨٣[، ويقال للحُكْم: الكتاب. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أمَا لأَقْضِيَنَّ بينكما بكتاب الله تعالى"، أراد بحُكْمِه. وقال تعالى: ﴿... يَتْلُواْ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾﴾] سورة البينة ,٢-٣[، أي أحكامٌ مستقيمة. ويقال للقَدَر: الكِتاب. قال الجعديّ: يا ابنةَ عمِّي كتابُ الله أخرَجَنِي عنكم وهل أمنعَنَّ الله ما فَعَلا ومن الباب كتائب الخيل، يقال: تكتَّبُوا. قال:قال ابنُ الأعرابيّ: الكاتب عند العرب: العالم، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾﴾] سورة الطور ,٤١[/]سورة القلم ,٤٧[.والمُكاتَب: العبدُ يكاتبه سيِّده على نفسه. قالوا: وأصله من الكِتاب، يراد بذلك الشَّرْطُ الذي يكتب بينهما."

[35] بداهة هذه المزية غير متوفرة في باقي الكتب –السماوية أو الأرضية– إما لعدم وجود أصولها ووجود ترجمات فقط أو لوجود الأصل ولكنه بلغة قديمة جدت لم تعد مستعملة إلا في إقامة الشعائر الدينية ولا يمكن الحكم على أصولها أو فصولها.

إذا فنحن ننظر إلى الأصل الجامع لمدلولات الكلمة النابع من معان كل حرف من حروف هذا الأصل مجموعا مع الحروف المشتركة معه في الأصل، وبهذا نتعامل مع النصوص دوما على مستوى الحقيقة بعيدا عن دعوى المجاز[36]، لذلك عندما يظهر التناقض الداخلي أو مع الواقع في أي نص فيجب إسقاطه على الفور وعدم التمحك من أجله، والحمدلله فقد ضمن الله عدم وجود الاختلاف –الذي هو أعم من التناقض – في كتابه الكريم فقال: ﴿... وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ۝٨٢﴾]سورة النساء, ٨٢[، أما غيره من النصوص فلم ولن يوجد، ومن يرد أن يختبر صحة دعوانا فليفعل.

وأبرز موضع يظهر فيه التأويل هو تأويل أسماء الله عزوجل، ونلاحظ أن أول انحراف اتفقت عليه جُل الفرق والطوائف وهو إطباقهم على استعمال كلمة "صفات" إضافة إلى كلمة أسماء التي ذكرها الله عزوجل في قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝١٨٠﴾ [سورة الأعراف, ١٨٠] وفي بعض الآيات الأخرى، مع أن كلمة صفة أو صفات لم ترد البتة في كتاب الله عزوجل وكل ما أتى متعلقا بها هو قوله تعالى في ذم فعل المشركين ﴿... سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ۝١٣٩﴾ [سورة الأنعام, ١٣٩] أما في الحديث عن الله عزوجل فقال في بعض المواطن: ﴿... سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠﴾ [سورة الأنعام, ١٠٠]، ﴿... فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٢٢﴾ [سورة الأنبياء, ٢٢]، ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠﴾ [سورة الصّافّات, ١٨٠]

قد يظن القارئ أن الأمر يسير، ولكن للأسف فإن هذا هو أول سلك الإنحراف، استعمال كلمات لم يستعملها الله عزوجل ثم التقاتل والتناحر حول مدلول هذه الكلمات وما يقصده كل فريق باستعماله هذه الكلمات، لذا ألا يحق لي أن أصف من

[36] لمزيد من التوضيح حول منهجنا في التعامل مع كتاب الله نرجو مراجعة كتابنا "لماذا فسروا القرآن"!

قال بأن لله صفاتا مثل اليد والجنب والوجه بالابتداع، لأن الله عزوجل ورسوله المعظم لم يذكرا كلمة "صفات الله" ولكن كان كل حديثهما عن أسماء؟!! ولست أدري حقا كيف جُعل الوجه واليد والعين والجنب صفات؟! فالصفة اسم مشتق من أسماء المعاني التي هي: اسم الفاعل: أبنية المبالغة لاسم الفاعل، الصفة المشبهة باسم الفاعل اسم المفعول، اسم التفضيل، اسم الآلة. أما أسماء المعاني فهي: المصدر المجرد أو المزيد، المصدر الميمي، اسم المصدر، المصدر الصناعي، اسم المرة، اسم الهيئة [النوع].

بقي من الأسماء اسم الجنس واسم العلم، والأسماء التي تصلح صفات هي أسماء المعاني المشتقة أما أسماء المعاني الجامدة: الجنس والعلم والمصادر بأنواعها فلا تصلح لتكون صفات إلا إذا أمكن فهمها بالمشتق، فلا يمكن أن أقول أن لفلان صفة الوجه، إلا إذا كانت بمعنى المقدّم والعظيم في القوم؟! أما أن أقول أن لفلان صفة الوجه وأعنى بذلك العضو من الجسم فهو مرفوض وغير معقول في كل لغات العالم، فمن المعروف أنه لا يمكن أن يُطلق على أسماء المعاني (المصادر) أنها صفات؟ لأن الصفات محصورة بالمشتقات فلا يجوز في اللسان العربي أنْ يقال: "هذا الرجل قوة"، ولكن يقال: "هذا الرجل قوي". سيقول القارئ: قد يكون فهمك ورأيك سليما ومقبولا في مسائل مثل الوجه واليد والجنب والعين والتي لا تصلح أساسا أن تكون صفاتا، ولكن ما المشكلة في أن أقول أن الله تعالى "مريدا"، ألا يُفهم ذلك عندما أقرأ بعض الآيات في كتاب الله مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [سورة يس ,٨٢] نرد على هذا السؤال بنفس الإجابة السابقة: الله عندما تكلم عن نفسه ذكر أن له أسماءا حسنى ولم يذكر أن له صفاتا حسنى، فإذا كان يريد أن يعبر عن نفسه ويوضح لنا أنه "مريد" لقال ذلك. ولكنه ذكر فعل "الإرادة" بالصيغة الفعلية، فكيف يصير وصف الفعل وصفا للذات؟! ألم تر أن الله قال عن نفسه أنه "سميع بصير، لطيف خبير، علي كبير... إلخ الأسماء الحسنى؟ فلم لم يقل أنه مريد

قدير مثلا؟! نعم، من أراد من البشر أو من المخلوقات عامة[37] شيئا فهو حتما مريد ولكنه يكون مريدا فقط عندما يريد فلا يظل طيلة عمره مريدا! فإذا نحن وصفنا الله تعالى بالإرادة سندخل في هذه المتاهة التي أغنانا الله عنها، هل إرادته قديمة أم حادثة، وكيف يريد وأين توجد إرادته؟ هل توجد في محل أو في لا محل إلى آخر هذه الأسئلة التي لا نفع معها سوى الجدال الفكري العقيم الذي لا ينفع ولا يجلب معه إلا الضر والبغض.

ومن ينظر في اختلاف الفرق الإسلامية كلها في هذه المسألة بين مثبت ومؤول يجد أن كلهم يدور في تخطأته للآخر حول عنصر واحد فقط وهو "قياس الغائب على الشاهد" أو "الشاهد على الغائب والكامل على الناقص"، فنجد أن البعض أثبت صفاتا لله عزوجل -ما دليل القائل بأن لله صفاتا[38]؟!!- وآخرون ينفونها بحجة المشابهة للحوادث، ثم نجد أن كل الفرق تدعي أن فهمها هذا هو فهم السلف لكتاب الله عزوجل، كأن كتاب الله عزوجل ما عاد مبينا وكأنه صار موضع خلاف يحتاج معه المرء إلى مرجح يرجح

---

[37] كل المخلوقات لها إرادة حتى ولو لم نفهم نحن طبيعة تلك الإرادة، وتدبر قول الله تعالى الذي حارت العقول في تأويله على الرغم من وضوحه -مثل كل القرآن- ﴿... فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۝٧٧﴾]سورة الكهف ,٧٧[فإذا كنا لا نعرف أو لا نريد أن نفهم كيف يريد الجدار أن ينقض، أفلا نستحي مع الرب القدير؟!!

[38] نفصل قليلا في هذه المسألة حتى يعرف القارئ ما نقصده بنفي الصفات: نحن نقول بكل الأسماء الحسنى التي وردت في القرآن، بداهة بصيغى اسم مثل سميع، بصير، عليم، خبير.. إلخ أما ما بخلاف ذلك فلا نقول به، ونزيد التوضيح فنقول: صفات الله عند العلماء على ثلاثة أقسام: 1- صفات ذاتية.2- صفات معنوية.3- صفات خبرية.

1- الصفات الذاتية: وهي: القدم، والوحدانية، والمخالفة للحوادث، والبقاء، والقيام بنفسه، وهذه الصفات لم يقع فيها خلاف. لأنها تعتبر الفاصل بين وحدة الوجود وتعدد الآلهة والتوحيد.

2- الصفات المعنوية: وهي سبع صفات: الحياة، والعلم، والإرادة، والقدرة، والكلام، والسمع، والبصر.

3- الصفات الخبرية: وهي: الاستواء، والعلو، والنزول، والوجه، واليد، والمجيء، والإتيان.

وهناك تقسيم آخر باعتبار علاقتها بالله تعالى وتعلقها بمشيئته وقدرته وتبعا لهذا التقسيم فإن الصفات تنقسم إلى قسمين هما:

1- صفات ذاتية: لا تنفك عن الذات بل هي لازمة أزلا وأبدا ولا يتعلق بها مشيئته تعالى وقدرته وذلك كصفات الحياة والعلم والقدرة ونحوها.

2- صفات فعلية: تتعلق بها مشيئته وقدرته كل وقت وآن، وتحدث بمشيئته وقدرته، كالاستواء، والمجئ والإتيان والنزول ونحوها. والصفات الخبرية أو الفعلية هي التي ننفيها لأنها لم ترد في القرآن بصيغة اسمية وإنما أتت علي شكل أفعال فكيف نجعل فعلا صفة أو نجعل اسما مثل الوجه صفة! ونرى أنها من أفعال الله وليست من صفاته.

فهمه له، وهو فهم السلف، وكل هذا نابع من اتباع منهج خاطئ في التعامل مع كتاب الله من منظور العلو لا التبعية.

وعلى الرغم من أن أقوال الجميع بلا استثناء طافحة بالتنزيه، إلا أن الجميع وقع في الخطأ الأزلي وهو محاولة معرفة الله أو –عرضه– بصورة تقريبية للعقل البشري، مع أن معرفة الله الحقة تكون بمعرفة عجز العقل عن إدراكه وأنه "ليس كمثله شيء"

فإذا عرف العقل أنه عاجز عن إدراك الله عزوجل لأنه ليس كمثله شيء ارتاح من كثير من المشاكل الأزلية مثل علم الله وحرية الإنسان، ولقد كنت ممن حاولوا أن يقدموا تفسيرا منطقيا لحرية الإنسان مع علم الله وقدمت تفسيرا مقبولا في ذلك، ثم تنبهت بعد ذلك إلى أن ما أفعله هو من باب تشبيه الله، فبما أنك أدركت طريقة علم الله أو فعله، فهذا سائر على طريق البشر –وإلا كيف توصلت إليه– والله تعالى بخلاف ذلك، فسلمت بمسألة أن علم الله يعلو علومنا ويخالف طرقنا في العلم، لذا فالله يعلم أفعالنا المستقبلية بطريقة لن نعلمها ومع ذلك فنحن أحرار ولا جبر في أفعالنا البتة.

أما تعاملنا مع ما جعلوه من المتشابهات في "وصف" الله عز وجل فهو الفهم الإجمالي[39] بدون تحديد لغوي أو عقلي، لأن مداركنا البشرية اللغوية والعقلية قادرة عن تحديد المعنى الإجمالي لهذه الألفاظ عند استعمالها مع الله عزوجل. وبذلك نخرج نحن عن درب المجسمين أو المؤولين باتباع هذا المنهج التفويضي، فإذا نحن نظرنا إلى هذا الموقف المقر بالعجز والمحدودية أمام اللامتناهي هو الحل، لذا "كان الموقف التفويضي عند السلف، أولئك الذين لم يلتفتوا لتلك العقبة، لا اعتلاءا عليها وتجاوزا لها، كما فعل المؤولون، ولا تشبثاً بها وانصياعاً لها كما فعل المثبتون. فلم يكن هم السلف أن ينظروا إلى الإنسان العارف، بل ارتقوا في الأسباب إلى موضوع المعرفة، وهو مقام الألوهية الأقدس، تنزه وتقدس. هكذا نظر السلف إلى المسألة، وعلى هذا النحو فهم السلف هذه المتشابهات التي يتوهم منها التشبيه، أمروها كما وردت، واكتفوا من

---

[39] حتى لا نحيد عن الدرب! نقول أن فهمنا هذا هو الفهم الذي قال به السلف!

تفسيرها بمجرد تلاوتها، فهو تعالى كما وصف نفسه، لا يقال كيف، والكيف عنه مرفوع:

1- فهم يعرفون ما لهذه المتشابهات -من نصوص الكتاب والسنة- من معان يستطيع البشر فهمها، سواء بمعرفة اللغة، أو بمعرفة العقل، فلا يعقل أن يكونوا -وهم على مقربة من عصر النبوة- جاهلين بدلالات الألفاظ، وسياق الآيات، وسباقها، ولحاقها.

2- ثم هم يعرفون أن لهذه المتشابهات معان أخرى حقيقية وراء مدارك البشر اللغوية أو العقلية، وتلك المعاني قد استأثر الله تعالى بعلمها، وتلك المعاني المكنونة هي حقائق تلك الظواهر ومآلها.

3- ثم هم يقطعون -في الآن نفسه- بعجز البشر عن إدراك هذه المعاني المكنونة، ومن ثم فلا يجهدون أنفسهم في تفسيرها، أو اكتناهها، أصلاً وابتداءً.

إذن فيجب -في هذا الصد- الانكفاف عن إعمال اللغة أو العقل في فهم هذه النصوص، بل ينبغي -في نظر السلف- أن نضيف تلك المعاني الحقيقية المكنونة إليه تعالى، إدراكاً، كما نضيفها إليه -تعالى- اتصافاً. وهكذا يكون التنزيه في عين الإثبات، أي أن السلف قد أثبتوا ونزهوا في آن معاً، لقد أثبتوا في عين التنزيه، ونزهوا في عين الإثبات. أما المثبتون -كابن خزيمة والذهبي وابن تيمية ومدرسته- فقد أعملوا اللغة البشرية في فهم هذه الظواهر وأضافوا تلك الأفهام البشرية إليه تعالى اتصافاً، ثم نزهوه تعالى بعدئذٍ عن الكيف والمماثلة. وهكذا كان الإثبات لديهم يمثل خطوة، تعقبها خطوة أخرى هي التنزيه، فهم إذن قد أثبتوا أولاً، ثم نزهوا بعدئذٍ. أما المؤولون -كالجويني والرازي والآمدي وغيرهم- فقد أعملوا العقل في فهم هذه الظواهر، وحين انتهى بهم العقل إلى التنزيه أضافوا إليه تعالى ما انتهى إليه العقل اتصافاً، وبهذا كان مرتكز اهتمامهم الأول هو التنزيه، بل إن بعض رجالات الحنابلة -كابن الجوزي مثلا- قد جعل العقل هو أساس فهم هذه الظواهر؛ لأنا -

على حد تعبيره– قد عرفنا به الله تعالى، فينبغي ألا يهمل ما ثبت به الأصل، وهو العقل. فلنعد إلى موقف السلف التفويضي البسيط والعميق معا لنجد أن قد أوصد –منذ اللحظة الأولى– أما اللغة أو أمام العقل كل باب للولوج إلى حرم المتشابهات،"[40] ونحن نرى أن الإدراك القلبي لهذه –المتشابهات!– أعظم وأجل وأفضل آلاف المرات من الإدراك العقلي الذي لن يقدم أو يؤخر، فمهما علا فكر الإنسان فلن يدرك الله أبدا، أما عندما يقرأ هذه الآيات ويستشعرها في قلبه من خلال الفهم الإجمالي والتصور العام فسيكون له أتم التأثير وأنجع الأثر.

وعلى الرغم من أن الفرق الإسلامية اختلفت في إثبات صفات أو نفيها عن الله عز وجل إلا أننا نجدها مطبقة على نفي وصف الله عزوجل لنفسه بالمعية، كما جاء في قوله: ﴿... وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤﴾ [سورة الحديد ,٤]، ﴿... مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٧﴾ [سورة المجادلة ,٧]

فنجد أن النافين للاستواء على العرش بالتصور الجسدي وهو الجلوس، يشنعون بهذه الآية على من أثبت الاستواء بمعنى الجلوس!! لأنهم أولوا هذا الآية فقالوا إن المعية معية علم وليست معية وجود. وأنا أعتقد أن الفرق الإسلامية أطبقت على تأويل هذا الخبر الإلهي لتفادي القول بالحلول ووحدة الوجود، وسقطوا كلهم هذه المرة في قياس الغائب على الشاهد، لأنهم ظنوا أن معنى القول بوجود الله تعالى في السماوات والأرض هو الاتحاد والحلول، كأن الله عزوجل مكون من أجزاء حتى يتحد بذرات الكون، أو يحتاج إلى الحلول حتى يكون في الكون. الله تعالى أجل وأعز من هذا،

[40] محمد عبد الفضيل القوصي، موقف السلف من المتشابهات بين المثبتين والمؤولين، دراسة نقدية لمنهج ابن تيمية.

فهو: استوى على عرشه: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ[41] ٥﴾ [سورة طه ,٥]، قريب من خلقه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ... ١٨٦﴾ [سورة البقرة ,١٨٦] في السماوات والأرض: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ[42]لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ ٢٢﴾ [سورة الأنبياء ,٢٢]، في السماء: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ[43] أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦﴾ [سورة الـملك ,١٦]، كان ولا زال محيطا بكل شيء: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا ١٢٦﴾ [سورة النساء ,١٢٦]، ﴿أَلَآ إِنَّهُمۡ فِي مِرۡيَةٖ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمۡۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطُۢ ٥٤﴾ [سورة فصّلت ,٥٤]، واسع عليم: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ [سورة البقرة ,١١٥].

إذا فيقين وإيمان الإنسان المسلم أن الله تعالى قريب منه حقا بنفسه وليس بعلمه، وهو في السماوات والأرض وهو في السماء وتعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ولا تعارض في هذا ولا قول بحلول ولا اتحاد ولا وحدة وجود. والغريب أن آيات القرآن والسنة الصحيحة متضافرة على إثبات هذا المعنى ولكن الكل يؤول، حتى لا يُعتقد أن الإسلام يقول بوحدة الوجود أو الحلول، ولست أدري ما الصعوبة أو الإشكال العقلي في أن الواحد الأحد في هذا الكون المادي بدون اختلاط أو حلول، وما المحتم أن يؤدي هذا إلى وحدة الوجود؟ اللهم أني

[41] نحن نلا نستعمل مصطلح "مستو على عرشه" الذي تستعمله الفرق الإسلامية وإذا استعمل فهو من باب التجوز، لأن الله تعالى لم يصف نفسه قط أنه مستو على عرشه، بل يذكر هذا الوصف دوما في القرآن بالصيغة الفعلية "استوى على العرش" وما جاء هذا الوصف قط في السنة النبوية، والقارئ اللبيب يعرف الفارق بين الصيغة الفعلية والصيغة الاسمية، لذا نحن نستعمل ما استعمله الله، فمن الغفلة أن يستعمل الله فعلا ثم نجعله نحن اسما معتقدين أننا على صواب.!

[42] الغريب أن السادة علماء البلاغة مُصرين على أن "إلا" بمعنى "غير" ليخرجوا من مأزق وجود الله في السموات والأرض!

[43] الغريب أن السادة السلفيون يؤولون "من" ويجعلونها بمعنى "على"!! حتى يثبتوا صفة العلو!، فيكون المعنى "أأمنتم من على السماء أن يخسف بكم الأرض"!!، قل أأنتم أعلم أم الله؟!!

أشهد أن الدافع الوحيد إلى هذا هو قياس الكامل على الناقص، وأنا أبرأ إلى الله العليم من هذا.

وأختم هذا المقال لهؤلاء بقوله تعالى مخبرا عن نفسه موضحا لحقيقة هذا الأمر:

﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النّور ,٣٥].

الفصل الرابع: محدودية الإيمانيات الإسلامية وثباتها

كان الغرض من بعث الله الرسل وإنزال الشرائع هو –بخلاف تنظيم حياة الناس– معرفة الخالق عزوجل وتحديد اتجاهه من خلال الإجابة على الأسئلة الخالدة عند كل إنسان وهي: من الخالق وكيف هو، كيف نشأ العالم وكيف ظهر الإنسان على سطح الأرض وما هي الغاية من خلق الإنسان وما المصير بعد الموت، وإذا كان هناك حياة أخرى كيف هي؟ هل هناك مخلوقات عاقلة أخرى غير الإنسان أم أن الإنسان هو المخلوق العاقل الوحيد في هذا الكون؟

أتى القرآن بمواطن محدودة وجعلها محل للإيمان وللكفر فلم يجعل كل أجوبة هذه الأسئلة مواطن الإيمان عند المسلم بل حصر مواطن الكفر كما ذكرنا آنفا في نقاط خمس وهي ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَـٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَـٰلَۢا بَعِيدًا ١٣٦﴾ [سورة النساء, ١٣٦] **لذا عندما أصرح وأقول بملئ فمي أن هذه هي نقاط الإيمان والكفر في الملة الإسلامية لا غير مستندا على كتاب الله فأنا على دليل قطعي ومن معه أي آية في القرآن تثبت كفرا بغير ما ذكرنا فليخرجها لنا!**

نقاط الكفر والإيمان محدودة ومرتبطة بالغايات من الدين الحنيف، فالله أرسل رسله ليخرج الناس من الظلمات وليعرفهم بنفسه بكل كمالاته المتمثلة في أسمائه الحسنى وليعلمهم أن دين الله واحد وحبله ممتد مذ خلق الخلق فعقلوا فأرسل لهم الرسل وأوحى إليهم الكتب وليعلمهم أنهم ليسوا وحدهم في هذا الكون فهناك ملائكة خلقهم الله لتسيير أمورٍ في هذا الكون وأن هذه الحياة ليست هي الحياة الوحيدة للإنسان بل هي الحياة الدنيا وهي حياة قصيرة أما الأخرى التي بعد الموت فتمتد أبدا إلى مالانهاية وعلى الإنسان أن يصلح هذه حتى يفوز في تلك. ولكن أبى الناس إلا أن يضيفوا

ويحذفوا ويرفضوا ويقبلوا، فأضافوا إلى أسس الدين وإلى "الإيمانيات" الكثير والكثير من المضحكات المبكيات التي صارت ترتبط بدين الله مع أن الله تعالى ما أنزل بها من سلطان. فأصبحنا نقرأ في كتب العقائد عن الإمامة! عن الصحابة ومحبتهم ودرجاتهم! وعن رجل يأتي في آخر الزمان لأمة فاسدة معرضة عن كتاب ربها وهدي نبيها فيصلح حالهم في طرفة عين وينصرهم مع أنهم لم ينصروا دينهم ثم يغير أحكام الملة والدين ورجل آخر –لم يولد!– دخل سرداب منذ أكثر من ألف عام وسيخرج هو أيضا في آخر الزمان فيحي موتى ويصلح هو الآخر الأمة ونقرأ عن أشراط للساعة –مع أنها تأتي بغتة– ونقرأ عن مسح للخفين! وقرأنا "صفاتا" لله عز"وجل تقشعر من تجسيدها الأبدان.

ويقف الإنسان المسلم ليتساؤل: هل هذه الأمور من الإيمانيات "العقائد" أم أن علي أن أو من فقط بالخمس نقاط التي ذكرتها أنت، وماذا أفعل بما ورد في القرآن والسنة؟ نقول: أصول الإيمان خمسة وهي كما ذكرنا لايضاف إليها شيء، وبداهة يجب على المرء أن يؤمن ويصدق بكل ما ورد –صراحة وليس استنباطا[44]– في كتاب الله تعالى وما وافقه من السنة، أما ما زاد عن كتاب الله تعالى فليس من "عقيدة" المسلم في شيء، بل هو من الظن المذموم الذي يجب على المسلم أن يعرض عنه ولا يلقي له بالا.

ونقارن بين ما نقوله وبين ما يذكره ابن تيمية عند الحديث عن العقيدة الصحيحة، حيث يقول في مجموع الفتاوى الجزء الثالث: "هذا اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة، أهل السنة والجماعة، وهو: الإِيمان بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والإيمان بالقدر: خيره وشرّه. ومن الإِيمان بالله: الإيمان بما وَصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تَحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تَمثيل، بل يؤمنون بأن الله سبحانه: ﴿... لَيۡسَ

[44] الاستنباط في دين الله منحصر بالأحكام الفقهية ولا علاقة له بالإيمانيات: ﴿... وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٨٣﴾﴾] سورة النساء ,٨٣].

كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾] سورة الشورى, ١١]. وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسَمّى به نفسه بين النفي والإثبات. فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون، فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين، والصدِّيقين والشهداء والصالحين." اهـ

ونحن نتفق مع ابن تيمية في جل ما يقوله ونخالفه في نقطتين فقط وهما: قوله "وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم" فابن تيمية وأهل السنة يأخذون ما جاء في السنة حتى ولو لم يكن له أصل في القرآن بحجة أن السنة مكملة!! للقرآن، ولا إكمال إلا لما كان ناقصا! ولا حول ولا قوة إلا بالله، أما نحن فنأخذ ما جاء في السنة وذكر صراحة في القرآن، أما ما لا أصل له في القرآن وجاء في السنة فقط – وخاصة في مسألة وصف الله عزوجل– فنحن نرفضه تمام الرفض، ونرى أن قبوله هو من التقول على الله عزوجل بلا علم وهذا أكبر إثم يأتي به الإنسان: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾] سورة الأعراف, ٣٣]، ولست أدري ماذا سيكون رد الواصفين ربهم بغير ما أخبر به المجسمين له المشبهينه بخلقه مستندين على أدلة ظنية فقط عندما يسألهم الرب العلي: إلا ما استندتم في وصفي بهذا الوصف؟ النقطة الثانية: ادعاؤه هو والتيار السلفي "الإيمان بما وَصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، من غير تَحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تَمثيل" والتشنيع على من يخالفهم ويستعمل بعض الألفاظ من باب التوضيح أو التمثيل، ثم نجدهم يخالفون وأكبر مخالفة وهي الإتيان بما لم يأت به الله وهو جعل أفعاله وما أخبر به في بعض المواطن صفاتا له. مع أن الله عزوجل لم يذكر أن له صفاتا، وإنما ذكر أن له أسماءا حسنى –بداهة جاءت بصيغة الاسم مثل الرحيم الغفور، اللطيف الشكور–. فعندما أتي أنا إلى فعل مثل "استوى على العرش" فأدعي أنه تعالى "مستو على العرش" فمن أين لي هذا؟

قد يهون البعض من المسألة فيقول: هذا فعل وذاك اسم، وكل ما أفعله أنني أخبر عما وصف به نفسه أنه فعله. نقول: لا طبعا، المسألة كبيرة، فالله أتى به فعلا يفيد التغير فجعلته أنت اسما يفيد الثبوت ثم وصفته به، ثم أتيت أنت إلى خبر فقلبته وصيرته كما فهمته أنت لا كما قال الله، فأتيت أنت مثلا إلى بعض ما أضيف إلى الله تعالى فجعلته صفة له، مع أنه من الجلي أن ليس كل ما يضاف إلى الشيء منه أو صفته!، فقلت بصفة "اليد" ومن قال بصفة "الجنب" و"العين". وهنا أسألك: أين أخبرك الله تعالى أن من أسمائه –أوحتى من صفاته التي ابتدعتموها– ذو الأيدي أو صاحب اليد؟ نعم، الله ذكر في بعض المواطن اليد أو العين مضافة إليه مثل قوله: ﴿قَالَ يَـٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ ۝٧٥﴾]سورة ص ,٧٥[ولكن هذه مواطن مخصوصة والاستعمال له سياقه المرتبط بالفعل وليس على إطلاقه حتى يستحق أن يكون اسما، لذا فعندما أتكلم عن هذه المسألة أو ما شابهها فأقول: الله خلق آدم بيديه، ولا أقول أن الله تعالى "ذو اليد أو الأيد" أو أن له صفة "اليد"، لأنه تعالى ما وصف نفسه بهذا.

وبهذا التأصيل البسيط تنتهي جُل مشاكل الإنسان المسلم في التعامل مع "عقيدته"، فلقد ضخم العلماء –سامحهم الله– المسألة وعقدوها، حتى قنع العامي بالجلوس والتلقي منهم بدون نظر في كتاب الله وكل فرقة تأتي بالعجب العجاب وتنسبه إلى دين الله وإلى شروط وأركان الإيمان به، ولست أدري ما شأن الصحابة بدين الله[45] أو شأن الإمام علي بدين الله؟ والعامي المسكين جالس يسمع ويطيع ويخشى أن ينحرف فيضل ويزيغ.

ولما كنا قد لاحظنا أن السادة الأفاضل يعطون العامة المسألة برمتها كـ "شروة" إما أن تأخذها كلها أو ترفضها كلها، والعامي يقبل بالفطرة وبالعقل بعض الأشياء ولا يتقبل بعضا آخر، ولكنه لا يستطيع أن يصرح حتى لنفسه بالرفض، فهو يخشى أن يخرج من

---

(45) أنا أرى أن الصحابة هم أفضل قرن في الإسلام ولكن هذا لا شأن له بالعقيدة!

دين الله ويقع في الشرك، فهو لا يمتلك أي معيار يقيس به إيمانيات دين الله ويخشى أن يكون ما يرفضه من أسس الدين فيضل ويصبح من الخاسرين.

لذا فنحن نعطي العامي الميزان الذي يزن به الإيمانيات وهو: أنظر إذا كانت مذكورة في كتاب الله صراحة وكان المذكور في السنة مطابقا لما في كتاب الله فهذا من الإيمانيات أما ما زاد عن ذلك فليس من الإيمانيات في شيء ولا تخش شيئا. وإذا حكّم العامي هذا المنهج القرآني النبوي الصحابي السلفي الشيعي[46] الإباضي العقلي في التعامل مع الإيمانيات فسيستطيع أن يحكم على ما يعرض أمامه بدون وجل ولا حيرة.

بداهة سيوجل القارئ السني بالذات من هذا المبدأ لأن هذا المبدأ يعني رد الكثير من الأحاديث –والتي هي بداهة ليست من السنة– لمخالفتها القرآن أو لزيادتها عنه، وقد يفسقني البعض أو يتهمني بالعداء بالسنة أو يكفرني بعض الأخوة ولكننا سنعرض للقارئ ما هو مستندنا في هذا القول في الصفحات التالية، وأنه ليس ببدع من القول بل هو المنهج الوحيد الموصل إلى اليقين والقاضي على الخلاف والمستقى من القرآن والسنة وفعل الصحابة –على الرغم من أن فعلهم ليس بحجة– ومن العقل والمنطق. وقبل أن ندخل إلى هذا البيان نوضح للقارئ أهم مميزات منهجنا وتوافقه مع غايات دين الله وهو: القضاء على التقليد وإلزام الإنسان المسلم بالاعتماد على نفسه وإعمال عقله في الوصول إلى ما يؤمن به من اليقينيات بنفسه لا بغيره، أما غيرنا من المذاهب فهي ملزمة للتقليد والاتباع للظنيات ومحبطة مثبطة للعقل مبلدة للهمم مهمشة للإنسان في منظومة الوجود الكوني.[47]

[46] على الرغم من أن الشيعة يقولون بعدم زيادة السنة على ما في القرآن –على عكس أهل السنة– فإنهم أدخلوا الإمامة في العقائد! لأنهم جعلوا ذلك من الموجود في القرآن!! أما نحن فنشترط الذكر صراحة لا ضمنيا واستنادا إلى أحاديث، فنقع في الدور، حيث الحديث لا بد أن يكون مستنده في القرآن، والقرآن غير جلي ولا واضح ولا مبين –والعياذ بالله– فتفسره السنة!! وبذلك تستقل السنة بذاتها شاءت الشيعة أم أبت!.

[47] الله لم يسخر للإنسان الكون لكي يصير ذلك الإنسان الخامل البليد المقلد المتعصب لما وجد عليه الآباء، فليس هذا إنسان القرآن بل هو إنسان الفقهاء والمفسرين، أما الإعداد الرباني للإنسان فإعداد يليق بجلاله وعظمته تعالى، إعداد يصل بالإنسان المسلم إلى مرتبة الإنسان الخارق". وأنا عازم بعون الله على كتابة كتاب عن الإنسان المسلم الخارق.

تدبر عزيزي القارئ ما نقوله وما يقولونه وقارن في ذهنك وأحكم بنفسك: نحن نقول أن دين الله عزوجل أحكاما وإيمانيات –ولا نقول كونيات أو طبيعيات– بسيط جدا محدود المحتوى رسالة فردية مطالب بها كل إنسان، تستطيع أنت بنفسك أن تستوعبه وتعقله بنسبة تتجاوز الخمس وثمانين بالمائة، ولا يتطلب منك الأمر أكثر من قراءة كتاب واحد، وهو كتاب الله والذي ترجع إليه أقوال الرسول.

أما هم فيرون أن دين الله خليط من كتاب وسنة وأقوال رجال –صحابة أو أئمة– وكتب عقائد وتعقيد ومجلدات وعلى الإنسان أن يعرف كل هذا أو بعبارة أخرى على الإنسان أن يكون عالما شموليا حتى يفهم دين الله. بداهة هذا القول أوقعهم في مأزق: كيف يصير دين الله السهل السمح بهذا الشكل الكبير المعقد المتفرع، ثم يكون على الإنسان أن يتدبره، فخرجوا من هذا المأزق بالإفتاء بأكبر طامة لحقت دين الله تعالى وهي قولهم بجواز التقليد –فيما لا استنباط فيه– وهذه النقطة هي التي سنناقشها قبل الحديث عن علاقة السنة بالقرآن وهل هي قطعية أم ظنية؟

حكم التقليد

كديدن القوم قبل الخوض في الباب نذكر التعريف اللغوي لما نحن بصدده، فنقول: جاء في مقاييس اللغة لابن فارس: "القاف واللام والدال أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدهما على تعليق شيءٍ على شيء وليِّه به، والآخَر على حظٍ ونصيب. فالأوَّل التقليد: تَقليد البَدَنة، وذلك أن يعلَّق في عُنُقها شيءٌ ليُعْلَم أنَّها هَدْيٌ. وأصل القَلْد: الفتل، يقال قَلَدْتُ الحبلَ أقلِدُه قَلْداً، إذا فتَلْتَه. وحبلٌ قليدٌ ومقلود. وتَقَلَّدْتُ السَّيف. ومُقَلَّدُ الرَّجُل: موضِعُ نِجاد السَّيف على مَنْكِبه. ويقال: قلَّدَ فلانٌ فلاناً قِلادةَ سَوءٍ، إذا هجاه بما يَبْقَى عليه وَسْمُه. فإذا أكَّدوه قالوا: قلَّدَهُ طَوْقَ الحمامة، أي لا يفارقُه كما لا يُفارِق الحمامةَ طوقُها..." وفي القاموس المحيط: "تقلد الرجال الشيء لبسه أو حمله،

وتقلدت السيف أليقت حمالته في عنقي. ومأخوذ من "قلدتها قلادة، جعلتها في عنقها، والقلادة ما جعل في العنق" اهـ

إذا فمفهوم التقليد هو جعل الغير ذا قلادة، ومنه تقليد الهدي، وهذا يناسب العمل استناداً إلى رأي الغير فأنه جعل العمل كالقلادة في رقبة الغير.

أما التقليد في اصطلاح الأصوليين فكالعادة لم يتفقوا على تعريف جامع مانع له فقيل: عرفه الشيخ الأنصاري في رسالة الاجتهاد والتقليد: "قبول قول الغير، المستند إلى الاجتهاد". وقال ابن عبدالبر في "جامع بيان العلم": "التقليد عند جماعة العلماء غير الاتباع، لأن الاتباع: هو أن تتبع القائل على مابان لك من فضل قوله وصحة مذهبه. والتقليد: أن تقول بقوله وأنت لاتعرفه ولا وجه القول ولامعناه".

ونلاحظ في التعريفات أن أولها –قول الأنصاري– يتفق في تصوره للتقليد مع ما نقول به، أما القول الثاني والثالث فقد استبعدا جزءا كبيرا من التقليد، كأن المقلد إذا عرف الدليل أو الحجة عرف صحة الدليل، فإذا كان العامي لا يعرف الدليل فهل سيعرف كيف يستخرج الحكم من الدليل الشرعي، ناهيك عن أن يرجح بين الأدلة[48].

متى نشأ التقليد؟

بداهة لم يظهر التقليد وينتشر فجأة في العالم الإسلامي، ولكنه ظهر وانتشر تدريجيا حتى عم وصار هو المذهب الشائع والقول المقبول، وما كان هذا الظهور إلا بداية انحراف وبعد عن كتاب الله وهدي نبيه، أتبعه تهميش للدين في حياة المسلم وإقبال على الدنيا بدون ضوابط الشرع بل باتباع لعقل وهوى وجاهلية.

---

[48] من المضحكات المبكيات أنني أسمع أحيانا بعض المستفتين يسأل شيخا عن مسألة ما فيأتي له بأدلة لا علاقة لها بالمسألة ويقول له قال الله وقال الرسول إذا فالحكم كذا وكذا، والعامي يسمع ويقبل، مع أن الأدلة لا علاقة لها بالأسئلة!!

يقول ابن حزم في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام": "وليعلم مَن قرأ كتابنا، أن هذه البدعة العظيمة –نعني التقليد– إنما حدثت في الناس وابتُدئ بها بعد الأربعين ومئة من تاريخ الهجرة، وبعد أزيد من مئة عام وثلاثين عاماً بعد وفاة رسول الله. وأنه لم يكن قط في الإسلام قبل الوقت الذي ذكرنا مسلم واحدٌ فصاعداً على هذه البدعة، ولا وجد فيهم رجل يقلد عالماً بعينه، فيتبع أقواله في الفتيا، فيأخذ بها ولا يخالف شيئاً منها. ثم ابتدأت هذه البدعة من حين ذكرنا في العصر الرابع في القرن المذموم، ثم لم تزل تزيد حتى عمَّت بعد المئتين من الهجرة عموماً طبق الأرض، إلا من عصم الله –عز وجل– وتمسك بالأمر الأول الذي كان عليه الصحابة والتابعون وتابعو التابعين بلا خلاف من أحد منهم. نسأل الله تعالى أن يثبِّتنا عليه، وأن لا يعدل بنا عنه، وأن يتوب على من تورَّط في هذه الكبيرة من إخواننا المسلمين، وأن يفيء بهم إلى منهاج سلفهم الصالح". اهـ

ويقول الشوكاني في "القول المفيد في حكم التقليد": "إن التقليد لم يحدث إلاّ بعد انقراض خير القرون، ثم الّذين يلونهم، ثم الّذين يلونهم، وإن حدوث التمذهب بمذاهب الأئمة الأربعة، إنّما كان بعد انقراض عصر الأئمة الأربعة، وإنهم كانوا على نمط من تقدمهم من السلف في هجر التقليد، وعدم الاعتداد به، وإن هذه المذاهب إنّما أحدثها عوام المقلدة لأنفسهم من دون أن يأذن بها إمام من الأئمة المجتهدين." اهـ

فلقد وصى الأئمة كلهم بالاجتهاد وعدم التقليد: قال أبو حنيفة: هذا رأيي فمن جاء برأي خير منه قبلناه، وقال مالك: إنما أنا بشر أصيب وأخطئ، فاعرضوا قولي على الكتاب والسنة، وقال الشافعي: إذا صح الحديث فاضربوا بقولي الحائط، وإذا رأيت الحجة موضوعة على الطريق فهي قولي، وقال الإمام أحمد: لا تقلدني ولا تقلد مالكاً، ولا الشافعي، ولا الثوري، وتعلم كما تعلمنا، وقال: لا تقلد في دينك الرجال، فإنهم لن يسلموا من أن يغلطوا. وعلى الرغم من أن البعض يرجع مسألة التقليد هذه إلى عصر الصحابة إلا أننا نرى صحة ما قاله ابن حزم والشوكاني.

التقليد في القرآن

لم يأت التقليد بهذا اللفظ والمادة في القرآن الكريم، ولكنه جاء في مقام ذم عملية الاتباع للغير من غير حجة في تلك التبعية، بل مجرد إتباع صرف، وقد وردت عدة آيات في سور مختلفة، من ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [سورة المائدة, ١٠٤] وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [سورة لقمان, ٢١]

وكذلك في السنة لم يأت التقليد بمعناه الاصطلاحي بل أتى بالمعنى اللغوي.

حكم التقليد (الأصولي) في دين الله

نكاد أن نقطع بحصول الاتفاق عموماً بين المذاهب الإسلاميّة ما عدا من شذ منهم على أن مجال التقليد هو في الأحكام الفرعية دون الأصول. فأحكام القضايا العملية التي تثبت بطريق ظني هي المجال الذي يصح فيه الاجتهاد والتقليد، وقد اختلفت كلمة المسلمين في حكم التقليد في المسائل الشرعية على أقوال، وبالإمكان حصر تلك الأقوال وإرجاعها إلى ثلاثة: الأول: القول بالتحريم مطلقاً وعلى رأس هذا الاتجاه ابن حزم الظاهري، والإمام الشافعي، والشوكاني، ومعتزلة بغداد، وعلماء حلب من الإمامية، وابن القيم والإخباريون من الإمامية. فابن حزم يقول في المحلى: "لا يحل لأحد أن يقلد أحداً، لا حياً ولا ميتاً، ومن أدعى وجوب تقليد العامي للمفتي فقد أدعى الباطل، وقال قولاً لم يأت به قط نص قرآني ولا سنة ولا إجماع ولا قياس." اهـ

الثاني: جواز التقليد سواءا على باب الوجوب أو الإباحة، واستدل هؤلاء المجوزون ببعض أدلة على قولهم، منها: ﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۞﴾ [سورة الأنبياء ,٧]، ﴿... فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۞﴾ [سورة التوبة ,١٢٢]، والدليل الثالث دليل عقلي حيث أن الاشتغال بالتقليد يؤدي إلى هلاك الحرث والنسل والله تعالى يقول: ﴿... وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ... ۞﴾ [سورة الحج ,٧٨]

ولقد رد كثير من العلماء على هذه الأدلة، فعلى سبيل المثال يقول ابن حزم في كتابه الإحكام في أصول الأحكام: "فالتقليد كله حرام في جميع الشرائع أولها عن آخرها، من التوحيد والنبوة والقدر والإيمان والوعيد والإمامة والمفاضلة وجميع العبادات والأحكام. فإن قال قائل: فما وجه قوله تعالى (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون)؟ قيل له وبالله التوفيق: إنه تعالى أمرنا أن نسأل أهل العلم عما حكم به الله تعالى في هذه المسألة، وما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها، ولم يأمرنا أن نسألهم عن شريعة جديدة يحدثونها لنا من آرائهم، وقد بيّن ذلك عليه السلام بقوله "فليبلغ الشاهد الغائب" ثم قال: "فإن قال قائل: فكيف يصنع العامي إذا نزلت به النازلة؟ فالجواب وبالله تعالى التوفيق: أنا قد بينا تحريم الله تعالى للتقليد جملة، ولم يخص الله تعالى بذلك عامياً من عالم، ولا عالماً من عامي، وخطاب الله تعالى متوجه إلى كل أحد، فالتقليد حرام على العبد المجلوب من بلده، والعامي، والعذراء المخدّرة، والراعي في شعف الجبال، كما هو حرام على العالم المتبحر ولافرق. والاجتهاد في طلب حكم الله تعالى ورسوله عليه السلام في كل ماخص المرء من دينه لازم لكل من ذكرنا، كلزومه للعالم المتبحر ولافرق. فمن قلّد مِن كل مَن ذكرنا فقد عصى الله عزوجل وأثم، ولكن يختلفون في كيفية الاجتهاد، فلا يلزم المرء منه إلا مقدار مايستطيع عليه، لقوله تعالى: (لايكلف الله نفسا إلا وسعها)، ولقوله تعالى (فاتقوا الله مااستطعتم) ـإلى أن قال: فاجتهاد العامي إذا سأل العالم عن أمور دينه فأفتاهـ: أن يقول له: هكذا أمر الله ورسوله: فإن قال له: نعم، أخذ بقوله، ولم يلزمه

أكثر من هذا البحث، وإن قال له: لا، أو قال له: هذا قولي، أو قال له: هذا قول مالك أو ابن القاسم أو أبي حنيفة أو أبي يوسف أو الشافعي أو أحمد أو داود أو سمى له أحداً من صاحب أو تابع فمن دونهما غير النبي صلى الله عليه وسلم، أو انتهره أو سكت عنه، فحرام على السائل أن يأخذ بفتياه، وفرض عليه أن يسأل غيره من العلماء، وأن يطلبه حيث كان، إذ إنما يسأل المسلم من سأل من العلماء عن نازلة تنزل به ليخبره بحكم الله تعالى وحكم محمد صلى الله عليه وسلم في ذلك، ومايجب في دين الإسلام في تلك المسألة." اهـ

نلاحظ أول ما نلاحظه عند النظر في هذه المسألة أن السادة الفقهاء متفقون قاطبة على تقسيم الأمة إلى مجتهد وعامي، ولست أدري على أي أساس استندوا في قبولهم لهذا الأمر –سوى الواقع الذي أصلوا هم له!– كأنه أمر مقبول لا يحبذ تغيره ولم يأت الدين ليغيره، وذلك كله لتصورهم "الدين" ذلك التصور الزائف أنه كم هائل من الكتب والمراجع في أصناف عدة لا يستطيع "العامي" أن يحيط بها حتى أننا وجدنا بعضهم يقول الآتي: فابن عبد البر يقول في "جامع بيان العلم وفضله" بعد أن ذكر ما ورد في ذم التقليد وبطلانه: "هذا كله لغير العامة، فأن العامة لابد لها من تقليد علمائها عندما تنزل بها النازلة لأنها لا تتبين موقع الحجة، ولا تصل بعدم الفهم إلى علم ذلك، لأن العلم درجات لا سبيل منها إلى أعلاها إلاّ بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة". ويقول الغزالي في "المستصفى": "إن الإجماع على أن العامي مكلف بالأحكام وتكليفه طلب رتبة الاجتهاد محال، لأنه يؤدي إلى أن ينقطع الحرث والنسل، وتتعطل الحرف والصنائع، ويؤدي إلى خراب الدنيا لو اشتغل الناس بجملتهم بطلب العلم، بل إلى هلاك العلماء وخراب العالم، وإذا استحال لم يبق إلاّ سؤال العلماء".

وكثير من أقوال الأصوليين المشابهة لهذين القولين، ولانتشار الأمر ولوقوعه صار الأمر مقبولا ولا عجب فيه، على الرغم من أنه من مبدأه يحوي تناقضا كبيرا يجتث كل هذا الكلام وما شابهه من أصوله، هذا التناقض هو مضمون كلامهم، فكأن الله عزوجل أنزل دينا يؤدي إلى خراب العالم وتعطل الحرف وانقطاع الحرث والنسل،

وأتأمل بأسى بالغ وبجسم مقشعر قول الغزالي –رحمه الله– وأنا أتذكر قول الله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝٩٦﴾ [سورة الأعراف, ٩٦]، الله عزوجل يجعل الإيمان والتقوى سببا للبركات والسادة الأصوليون يجعلون التدبر في دين الله خرابا للدنيا!

وقبل أن ندخل في المناقشات التقليدية حول جواز التقليد من منعه أسأل العقلاء من المسلمين: بالله عليكم، ما سبب فساد المسلمين وانحرافهم وضعفهم وذللهم وذلهم؟ أليس هو الاعراض عن كتاب الله ومنهجه؟ ستأتي الإجابة: بلى هو كذلك. فأسأل مرة أخرى متحديا: أعطوني طريقة يرجع بها المسلمون إلى كتاب ربهم مع قولكم بالتقليد؟ مهما فعلوا وأصّلوا وحاولوا ونظّروا فلن يستطيعوا أن يجيبوا بإجابة شافية، وأنا أعتقد أن القرون الماضيات حتى زمننا هذا أكبر شاهد على صحة ما نقوله.

فإذا أتينا إلى الأدلة التي استدل بها السادة المجوزون على جواز التقليد والتي ذكرنا ردود بعض العلماء عليها، نجد أن أقوالهم فيها "استنباط" من آيات ذات سياق مخصوص، والاستنباط بأي حال لا ينهض لمقارعة الدليل الشرعي المباشر، فهم أخرجوا بعض الجمل من سياقها وعمموها، ولا حرج في استنباط بعض القواعد من بعض الجمل القرآنية ولكن الحرج كل الحرج أن يخالف هذا الاستنباط قول الله تعالى الواضح الصريح، المذكور مرارا وتكرارا وليس مرة واحدة، ونذكر غيضا من فيض على أدلة منع التقليد وإلزام كل مسلم بأخذ دينه من كتاب الله:

أول دليل قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [سورة العلق, ١] ومعلوم أن هذا أول ما نزل من كتاب الله تعالى. قد يبدو الاستدلال بهذه الآية غريبا عند المقلدة، ولكنا بهذه الآية نغلق مدخلهم إلى تقسيم الأمة إلى مجتهد ومقلد وقبول ذلك، فالله تعالى أمر في أول آية من كتابه أمرا يفيد الوجوب والإلزام لعموم الأمة بقراءة القرآن

وتعلمه، فمن يخالف هذا الأمر يتحمل وزر نفسه لا أن نفتي له نحن بجواز التقليد حتى نزعم أن الدين يسر ولا يحرج ويضيق على عباد الله.

قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٢٩﴾ [سورة ص, ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [سورة محمّد, ٢٤] فالله جعل التدبر مطلوبا من الكل، فمن أخرج الجزء الأكبر من الأمة فعليه الدليل، أم أننا رضينا أن نكون من أصحاب الأقفال؟!

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ... ١٩﴾ [سورة محمّد, ١٩]، فهل علم المقلد أنه لا إله إلا الله؟! بداهة المقلد يرى أنه لا إله إلا الله ولكن هل لديه من الأدلة النابعة من القرآن العظيم ومن العقل السليم على وحدانية الله ما يكفي ويروي؟! للأسف ليس لديه في الغالب، واستقرار هذه العقيدة عنده سببه عدم الجدال حولها في المجتمع الذي يحي فيه المقلد، ولكنه لو احتك بملحد فسيثير في صدره الكثير من الشكوك والظنون، أما لو علم أنه لا إله إلا الله حقا –بداهة بنفسه– فسيصير إيمانه أرسخ من الجبال، ولكنه التقليد المقيت مفتاح كل جهل وإهمال.

قوله تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ ٢﴾ [سورة طه, ٢]، ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [سورة القمر, ١٧] في هذه الآيات رد على من يدعي أن الانشغال بكتاب الله إهلاك للحرث والنسل وخراب للدنيا وانقطاع عن الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا[49] ٣٠﴾ [سورة الفرقان, ٣٠] وأكبر الهجر نبع من الفتوى –الظنية التي لا دليل عليها– بالتقليد، فلو أخذ الناس بوجوب الأخذ من كتاب الله بأنفسهم لما كان هذا الهجر.

---

[49] نلاحظ أن الرسول المعصوم يشكو منا نحن معاشر العرب من هجر القرآن لأنه قال "قومي" والقوم غير الأمة. فالأمة بها العرب وغير العرب، والقرآن نزل بلسان عربي مبين فلا حجة للعرب بالذات في التقليد بأي نوع من أنواعه، وإلا على أي محمل يريدون أن يظفروا بمديح الله عزوجل بالخيرية إن لم يحملوا الرسالة ويبلغوها.

قوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٣﴾ [سورة الأعراف, ٣] فهل المقلد اتبع ما أنزل إليه من ربه أم هجره كلية؟ ولا يقولن قائل أن المراد من ذلك هو اتباع المشركين أو آلهة غير الله، فهذا جزء من المعنى والمعنى يشمل قبل هذا المعنى الجانبي ما نقول به، فالآية تدور حول وجوب اتباع القرآن وألا نتبع من دونه –وتأمل في تعبير من دونه– أولياء، فالمقلد يتبع من دون القرآن أولياء، فهم يوجهون القرآن حيث شاءوا –واقرأ كما يحلو لك في التفاسير!– أما الذي يطلب دين الله لنفسه فخال من أعراض الهوى أو التبعة للكثرة.

قوله تعالى عن القرآن ﴿مَّنۡ أَعۡرَضَ عَنۡهُ فَإِنَّهُۥ يَحۡمِلُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وِزۡرًا ١٠٠﴾ [سورة طه, ١٠٠] وكيف يكون من لا يقرأ القرآن ولا يتدبره إلا شهرا في العام ويأخذ دينه من الرجال مقبلا غير معرض؟!

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةٖ شَهِيدٗا فَقُلۡنَا هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ فَعَلِمُوٓاْ أَنَّ ٱلۡحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٧٥﴾ [سورة القصص, ٧٥] فالله تعالى يطلب البرهان من الإنسان على فعله، فأي برهان لدى متبع لعالم وهو لا يفهم كتاب ربه أساسا وصار حاله كالأعجمي الذي لا يعرف العربية؟

هذا كان بعضا من الأدلة على منع التقليد في كتاب الله، ودليل واحد منها أكثر من كاف ولكن لما جبل الإنسان على الجدل كان لا بد من إلقامه الحجر. ونخرج من هذه الأدلة أنه على الإنسان أن يتدبر كتاب الله ويقرأه وما لا يدركه يسأل فيه العلماء، ولا حرج في هذا، ومعه المعيار لصحة العلماء أو خطأهم وهو الكتاب نفسه، أما أن يصير الإنسان أُميا –دينيا– بالكلية بحجة أن التقليد جائز فهذا مرفوض تماما وما ظهر في دين الله إلا لقبول السادة الفقهاء للتقسيم الذي رأوه في أتباع الديانات الأخرى من وجود طبقة لرجال الدين وطبقة للعوام، فرضوا بذلك في دين الله وأوحوا إلى العامة أن انشغلوا بدنياكم واتركوا الدين لنا وخذوه منا ولا حرج عليكم في ذلك، فإن أصبنا

فلكم وإن أخطأنا فعلينا! ثم قالوا: لا يوجد عندنا رجال دين بل عندنا علماء دين! بحجة أن قول الواحد منهم ليس بحجة!

وقولهم هذا تأصيليا سليم تماما ولكنه واقعاً خاطئٌ بالمرة فقول العالم للعامي حجة ولا فارق لأنه يظن أن هذا قول الله ورسوله وليس قول العالم ذاته.

لذا فنحن نكرر مرة أخرى: التقليد مرفوض في دين الله والتدبر مأمور على الكل بقدر ما يستطيع، ودين الله ليس معقدا أو للخاصة بل هو لكل الناس من رب الناس العليم بهم. وما أمر هؤلاء السادة بالتقليد إلا لتصورهم المغلوط المضخم للدين، أما نحن فنرد دين الله ونحصره فقط في كتاب الله وما وافقه من سنة رسوله فقط، والذي يجب على كل مسلم أن يحكم بذاته هل توافق السنة القرآن أم لا، وليس ما يقوله له العلماء.

فاقرأوا كتاب ربكم وتدبروا آيه تفلحوا في الدنيا والآخرة ولا تكونوا ممن شغلته الدنيا فرضي بها وقبِل أن يكون دين الله في آخر أولوياته واهتماماته وأعجبه هواه فرضي أن يكونا ذنبا يتبع الرجال ويهجر كتاب الله[50].

(50) لا يظن البعض أننا نعني أن المسلم يستطيع أن يستوعب كل كتاب الله وسنة رسوله بمجرد إقباله عليهما، فالأمر يحتاج إلى قليل من طلب العلم اللغوي والشرعي حتى يصير مؤهلا للتعامل بذاته مع كتاب الله. ولكن لا بد أن يجتهد المرء قليلا من أجل الوصول إلى هذه المرتبة. ونطمئن القارئ أنه يستطيع أن يصل إلى هذه المرتبة في أوقات فراغه في فترة لا تزيد عن بضعة أشهر ولن ينقطع بذلك الحرث ولا البذر، إذا كان لديه المنهج الصارم الذي يستطيع به الحكم على النصوص الشرعية واستخراج الأدلة منها ونحن نقدم له هذا المنهج بإذن الله. وهذا المنهج بسيط وسهل ويمكن كل إنسان من أن يصبح فقيه نفسه ومن ثم لا يحضره الفقيه!

الفصل الخامس: السنة وثبوتها وعلاقتها بالقرآن

تعريف السنة

قبل الولوج في حديثنا عن السنة وثبوتها وعلاقتها بالقرآن، لابد أن نقوم بتعريفها لأن فهم الشيء فرع عن تصوره، فنقول أولا السنة لغة –كما جاء في "إرشاد الفحول" للشوكاني: "الطريقة المسلوكة، وأصلها من قولهم سننت الشيء بالمسن إذا أمررته عليه حتى يؤثر فيه سنا أي طريقا. وقال الكسائي: معناها الدوام، فقولنا: سنة، معناها الأمر بالإدامة من قولهم: سننت الماء إذا واليت في صبه. وقال الخطابي: أصلها الطريقة المحمودة، فإذا أطلقت انصرفت إليها، وقد تستعمل في غيرها مقيدة، كقوله: من سن سنة سيئة. وقيل: هي الطريقة المعتادة سواء كانت حسنة أو سيئة، كما في الحديث الصحيح: من سن سنة حسنة فله أجرها واجر من عمل بها إلى يوم القيمة، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة". اهـ

"وهي في اصطلاح الفقهاء والأصوليين وعلماء الكلام: تطلق في عرف الفقهاء على ما يقابل البدعة، ويراد بها كل حكم يستند إلى أصول الشريعة في مقابل البدعة فإنها تطلق على ما خالف أصول الشريعة ولم يوافق السنة وربما استعملها الكلاميون بهذا الاصطلاح، كما تطلق في اصطلاح آخر لهم على ما يرجح جانب وجوده على جانب عدمه ترجيحا ليس معه المنع من النقيض وهي بذلك ترادف كلمة المستحب، وربما كان إطلاقها على النافلة في العبادات من باب إطلاق العام على الخاص، وكذلك إطلاقها على خصوص ما واظب على فعله النبي ص مع ترك ما بلا عذر كما جاء في بعض التحديدات.

السنة عند الأصوليين: وقد اختلفوا في مدلولها من حيث السعة والضيق مع اتفاقهم على صدقها على ما صدر عن النبي (ص) من قول أو فعل أو تقرير.[51]" اهـ

والتعريف الشهير لها هو: هي كل ما صدر عن النبي ص من قول أو فعل أو عمل أو إقرار.

أما تعريفنا نحن للسنة فهو: ما صدر من النبي من قول أوعمل أو إقرار مطبقا للقرآن ومتأولا له. أما ما خالف فهو إما مختلق أو كان قبل نزول آي القرآن الرافعة لهذا الحكم وليس من السنة.

طبعا نحن نخالف تعريفهم للسنة في مسألة اندراجها تحت كتاب الله وتبعيته له، فكتاب الله القطعي هو الحاكم على السنة وليس العكس كما يقول ويفعل أهل السنة وكما يطبقه الشيعة فعلا وينكرونه تأصيلا. وليس لأحد أن يعترض على تعريفنا للسنة فالتأصيل للسنة كله من وضع البشر، فمن عرّف السنة هم العلماء ومن جعل أن الأمر في السنة يفيد الوجوب مثل القرآن هم العلماء ومن جعل السنة حاكمة على القرآن هم العلماء ومن جعل السنة أهم من القرآن هم بعض الجهلاء. لذا فإذا خالفنا هؤلاء العلماء والجهلاء فلا حرج، فتعريفنا مقابل تعريفهم والقبول والرفض لمن يثبت دقة تعريفه، وإذا قلنا أن الأمر في السنة التي لا أصل صريح لها في القرآن يفيد السنية فقط وليس الوجوب، فما من مانع شرعي، وإذا قلنا أن القرآن حاكم على السنة فأنا متبع لكتاب الله الذي وصفه ربنا بقوله ﴿... وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ۝٨٩﴾ [سورة النحل ,٨٩] فإذا لم يكن الكتاب تبيانا لدين الله[52] فماذا يبين؟ وإذا رأينا

[51] محمد تقي الحكيم, السنة في الشريعة الإسلامية.

[52] من تناقضات السادة الفقهاء والمفسرين أنهم قالوا إن المقصود من قوله تعالى "لكل شيء" ليس كل شيء ولكن كل ما احتاجه الإنسان من أمور الشرع! ثم عادوا فسحبوا قولهم هذا وقالوا: لا تعرض السنة على القرآن ليبين صحتها بل هي حاكمة عليه! ولست أدري أي شيء صار القرآن تبيانا له، بعد أن صار تابعا غير مبين لا للدنيا ولا للدين؟! وعجبت لمن تحكم فيه هواه!

أن السنة لا تقارن بالقرآن البته[53] بله أن تكون أهم منه فلسنا من المتجنين على دين العليم الرحيم.

إذا فهذا تعريفنا وذاك تعريفهم ولن نتوقف كثيرا عند نقطة التعريف بل ننتقل إلى مسألة ثبوت السنة وهل هي قطعية أم ظنية لأن هذه النقطة سيكون لها الدور الأكبر في تحديد علاقة السنة بالقرآن.

هل السنة قطعية الثبوت أم ظنيته؟

على الرغم من أن الإجابة بدهية ولا جدال فيها إلا أنه لا بد من التفصيل فيها،فنقول: ينقسم الحديث تقسيماً أساسياً إلى قسمين: متواتر وآحاد. كلمة (متواتر) تقرأ بصيغة اسم الفاعل –أي بكسر التاء الثانية– بمعنى أن الخبر نفسه تواتر، وبصيغة اسم المفعول –أي فتح التاء الثانية– بمعنى أن الخبر تُوتر به. ومصدره (تواتُر) –بضم التاء الثانية– من (تواتر يتواتر)، وأصله (واتر). يقال: واتر الشيءَ: تابعه، مع فترة تتخلل التتابع، ومن دون فترة. والذي يظهر –معجمياً– أن أكثر ما يستعمل هذا الفعل في الدلالة على التتابع، يستعمل في التتابع تتخلله فترة، إلا أن المحدثين عندما نقلوه مصطلحاً على الحديث الذي نحن بصدد تعريفه، أرادوا منه المعنى الأقل استعمالاً، وهو التتابع مطلقاً. وهو اصطلاحا: هو الخبر الذي يرويه كثرة من الرواة تبلغ حد إحالة

(53) نحن نرفض بتاتا قولهم عن صحيح البخاري "أصح كتاب بعد كتاب الله"، فما من كتاب بشري إلا وأتاه الباطل والخلل، لذا فدعواهم أن كل ما في البخاري صحيح دعوى باطلة، وإذا استعملنا ألفاظهم الفخمة وطريقتهم في التضليل نقول: مقولتهم تحمل جزءا من الشرك بالله وكتابه، فالله تعالى يقول: ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝٤٢﴾ [سورة فصّلت , ٤١-٤٢] فيقولون هم: وكتاب البخاري كذلك، فلقد فعلها بشر وأتى بكتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه!. ولا يجادل أحد مدعيا بأن البخاري لم يؤلف الكتاب بل جمعه فقط. فنحن نتكلم عن نجاحه في الجمع وليس في محتوى الكتاب نفسه.

العادة اتفاقهم على الكذب[54]. قال ابن الصلاح في "مقدمة علوم الحديث": "هو الخبر الذي ينقله من يحصل العلم بصدقهم ضرورة عن مثلهم من أول الإسناد إلى آخره." اهـ

هل يشترط عدد معين للتواتر؟

كالعادة اختلفوا في أقل عدد يبلغ به التواتر فظهرت الكثير من الآراء منها: "قال القاضي الباقلاني: لا يقل عدد المخبرين عن خمسة أشخاص، لعدم إفادة خبر الأربعة العدول، العلم كما في شهود الزنا –حيث تفيد الظن–. نسب هذا القول للقاضي الباقلاني: قال اللاصطخري: لا يقل عدد المخبرين عن عشرة، لأنه أول جموع الكثرة. قيل: لا يقل عدد المخبرين عن إثني عشر وهو عدد النقباء في قوله تعالى: "وبعثنا منهم إثني عشر نقيباً".

أن لا يقل عددهم عن عشرين، لقوله تعالى: ﴿... إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُواْ مِاْئَتَيْنِ ... ﴿٦٥﴾﴾ [سورة الأنفال ,٦٥].

أن لا يقل العدد عن أربعين، لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة الأنفال ,٦٤] **حيث كانوا أربعين.**

أن لا يقل العدد عن سبعين، لأنه عدد قوم موسى (ع) كما في قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا ... ﴿١٥٥﴾﴾ [سورة الأعراف ,١٥٥].

---

[54] العلم بامتناع تواطئهم على الكذب، أو العلم بعدم تواطئهم عليه، لا يكون دليلاً على صدق الخبر، وعدم تعمد المخبرين بالكذب، لأن للكذب أسباباً ودواعي أخر غير التواطئ عليه، فإن الحب والبغض في الأفراد ربما يجران إلى التقول في الأفراد الكثيرة بلا تواطئ، خصوصاً إذا كانوا أصحاب هوى ودعاية. فمجرد علمه بعدم التواطئ لا يكفي في رفع الشك في التعمد بالكذب. فالأَولى أن يضاف إلى التعريف قولنا: (يُؤمَن معه من تعمدهم على الكذب).

أن لا يقل عن ثلاثة عشر وثلاثمائة، لأنه عدد أهل بدر أو لأنه عدد أصحاب طالوت.[55]" اهـ

وكل هذه الأقوال مجرد تخرصات واجتهادات ولا مرجح لأحدها عن الآخر فالمهم أن تفيد العلم.

و"ينقسم الخبر المتواتر إلى قسمين: لفظي ومعنوي.

1- المتواتر اللفظي: هو الذي يرويه جميع الرواة، وفي كل طبقاتهم بنفس صيغته اللفظية الصادرة من قائله. ومثاله: الحديث الشريف عن النبي المعصوم: "من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار"

2- المتواتر المعنوي: وهو المعنى المستفاد من تكرره أو الإشارة إليه في أحاديث مختلفة الألفاظ، وكثيرة كثرة لا يمكن معها تكذيبها. (...)

ويظهر من خلال الاستقراء الذي أشير إليه في بعض مراجع علم الحديث أن الأحاديث المتواترة تواتراً لفظياً قليلة قلة نادرة، وأكثر ما يوصف من الأحاديث بالتواتر هي من المتواتر المعنوي، (...) وقليل تحققه في الأحاديث الخاصة المنقولة بالألفاظ المخصوصة لعدم اتفاق الطرفين والوسط فيها، وأن تواتر مدلولها في بعض الموارد كالأخبار الدالة على شجاعة علي رضي الله عنه وكرم حاتم ونظائرهما، فإن كل فرد خاص من تلك الأخبار الدالة على أن علياً (ع) قتل فلاناً، وفعل كذا، غير متواتر، وكذا الأخبار الدالة على أن حاتماً أعطى الفرس الفلانية والجمل والرمح وغيرها، إلا أن القدر المشترك بينها متواتر تدل عليه تلك الجزئيات المتعددة آحاداً بالتضمن. (...) ولم يتحقق إلى الآن خبر خاص بلغ حد التواتر حتى قيل -والقائل ابن الصلاح- من سئل عن إبراز مثال لذلك أعياه طلبه، هذا مع كثرة رواتهم قديماً وحديثاً، وانتشارهم في أقطار الأرض، قال: وحديث "إنما الأعمال بالنيات" ليس منه أي المتواتر، وأن نقله

---

[55] عبد الهادي الفضلي, أصول الحديث.

الآن عدد التواتر وأكثر، فإن جميع علماء الإسلام ورواة الحديث الآن يروونه، وهم يزيدون عن عدد التواتر أضعافاً مضاعفة، لأن ذلك التواتر المدعى قد طرأ في وسط إسناده الآن دون أوله، فقد انفرد به جماعة مترتبون أو شاركهم من لا يخرج بهم عن الآحاد. (...) وأكثر ما ادعي تواتره من هذا القبيل ينظر مدعي التواتر إلى تحققه في زمانه، أو هو وما قبله من غير استقصاء جميع الأزمنة، ولو أنصف لوجد الأغلب خلواً أول الأمر منه بل ربما صار الحديث الموضوع ابتداءً متواتراً بعد ذلك، لكن شرط التواتر مفقود من جهة الابتداء[56]." اهـ

فإذا تركنا المتواتر وانتقلنا إلى حديث أو خبر الآحاد, وجدنا أن تعريفه هو:

"خبر الآحاد: الآحاد جمع أَحد كحجر وأَحجار؛ وأصل الاحاد أحاد بهمزتين، فأبدلت الثانية ألفاً لسكونها وتحرك ما قبلها، واشتقاقه من الواحد. (...) وهو في اصطلاح جمهور الأصوليين: ما فقد شروط المتواتر المتقدمة أو أحدها، سواء كان رواته واحداً أو عدداً، فيعم المشهور الذي جعله الحنفية واسطة بين المتواتر والآحاد.[57]" اهـ

"وقد قسم المحدثون الآحاد إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول: الغريب. القسم الثاني: العزيز. القسم الثالث: المشهور. (...)

القسم الأول: الغريب: وهو ما لم يثبت إلا من طريق واحد، وقد يعبرون عنه بالفرد، وأول من اشتهر باستعماله الترمذي في جامعه، فكثيراً ما يقول: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه أو من حديث فلان، أو تفرد به فلان وإن رواه عنه جماعة. (...)

---

[56] المرجع السابق.

[57] دينا حسن نصير, حديث الآحاد في العقائد والأحكام.

القسم الثاني: العزيز: هو ما روي من طريقين، أو ما رواه اثنان فقط. وسمي بذلك إما من العزة بمعنى القلة، لقلة وجوده، أو لقلة رواته؛ وإما من العزة وهي القوة، لأنه عز وقوي بمجيئه من الطريق الثانية. (...)

القسم الثالث: المشهور: (...) ما رواه أكثر من اثنين في جميع طبقات السند، ولم يصل إلى حد التواتر[58] وقيل: هو ما زاد نقلته عن ثلاثة إلى آخر سنده.[59]" اهـ

هل يفيد خبر الآحاد اليقين أم يفيد الظن؟

وبغض النظر عن هذه التقسيمات التي قسمها أهل الحديث، من غريب أو عزيز أو مشهور أو مقرون أو غير مقرون فكلها تدخل في نهاية المطاف في باب الآحاد، فما هي درجة ثبوت حديث الآحاد، هل هي ظنية أم يقينية؟ وبعبارة أخرى نقول: ترتبا على تلك الدرجة: هل يفيد خبر الآحاد اليقين أم يفيد الظن؟

بداهة خبر الآحاد لا يفيد عقلا إلا الظن[60]، وكان ينبغي أن نتجاوز هذه النقطة مباشرة إلى ما يليها ولكن لما كان الناس لا يقنعون إلا بأقوال العلماء الذين يثبتون لهم أن ما

[58] هو عند الحنفية: ما كان آحاداً في القرن الأول، ثم تواتر بعد ذلك وكثرت رواته في القرن الثاني والثالث.

[59] عبد الله بن جبرين, أخبار الآحاد في الحديث النبوي.

[60] نذكر بعضا من الأدلة العقلية على ظنية خبر الواحد: 1- أنه لو أفاد خبر الواحد العلم لوجب تصديق كل خبر نسمعه، لكنا لا نصدق كل خبر نسمعه ولو كان ناقله ثقة، وهذا ظاهر لا يحتاج إلى بيان. 2- أن الناس قد قسموا الأخبار إلى خمسة أقسام: 1- قسم مقطوع بصدقه. 2- سم مقطوع بكذبه. 3- قسم يحتمل الصدق والكذب، واحتمال الصدق أرجح من احتمال الكذب. 4- قسم يحتمل الصدق والكذب، واحتمال الكذب أرجح من احتمال الصدق. 5- قسم يحتمل الصدق والكذب على سواء. وجعلوا من القسم الثالث خبر الواحد العدل أو الخبر الذي لم يتواتر، وذلك لاحتمال الذهول والسهو والغفلة والخطأ والنسيان، إلى غير ذلك من الاحتمالات، فإذا تبين ذلك، فالقطع بالصدق مع ذلك محال، ثم هذا في العدل في علم الله تعالى، ونحن لا نقطع بعدالة واحد، بل لا يجوز أن يضمر خلاف ما يظهر، ولا يستثنى من ذلك إلا من استثني بقاطع كأنبياء الله ورسله –عليهم أفضل الصلاة والسلام.– 3- أن الناس قد اتفقوا على أن التصحيح والتحسين والتضعيف...إلخ أمور ظنية وأنه لا يمكن القطع بشيء من ذلك لاحتمال أن يكون الواقع بخلاف ذلك. والدليل على ذلك أننا نرى العلماء كثيرا ما يحكمون على بعض الأحاديث بالصحة لتوافر شروط الصحة فيها عندهم، ثم يجدون بعض العلل التي تقدح في صحة ذلك الحديث فيحكمون عليه بما تقتضيه تلك العلة

أقرته عقولهم هو الصواب! لذا نذكر أقوال العلماء في ظنية الحديث حتى يكون القارئ على درجة اليقين من ظنية الحديث!

يقول الإمام الشوكانى في إرشاد الفحول في علم الأصول: "الآحاد: وهو خبر لايفيد بنفسه العلم سواء أكان لايفيده أصلاً، أو يفيده بالقرائن الخارجة عنه، فلا واسطة بين المتواتر والآحاد وهذا قول الجمهور". ويقول الإمام المحدث الخطيب في الكفاية: "خبر الواحد لا يُقبل في شيء من أبواب الدين المأخوذ على المكلفين العلم بها والقطع عليها..."، إلى أن قال: "وإنما يُقبل به فيما لا يُقطع به، مما يجوز ورود التعبد به كالأحكام التى تقدم ذكرها (مثل الكفارات، والهلال،..)". ويقول الأصولى محمد الأمين الشنقيطى في شرح مراقي السعود: ولا يفيد العلم بالإطلاق عند الجماهير من الحذاق: "ولا يفيد خبر الواحد العلم ولو عدلاً بالإطلاق، احتفت به قرينة أم لا عند الجماهير من الحذاق، وبعضهم قال يفيده", ويقول الأصولى الشاطبى في الموافقات: "فإنها إن كانت من أخبار الآحاد فعدم إفادتها القطع ظاهر"، ويقول الأصولى الباقلانى في تمهيد الأوائل: اتفق الفقهاء والمتكلمون على تسمية كل خبر قصر عن إيجاب العلم بأنه خبر واحد، وسواء رواه الواحد، أو الجماعة، وهذا الخبر لا يوجب العلم", ويقول ابن الأثير في جامع الأصول: "وخبر الواحد لايفيد العلم ولكننا متعبدون به. وماحُكى عن المحدثين من أن ذلك يورث العلم، فلعلهم أرادوا أنه يفيد العلم بوجوب العمل، أو سموا الظن علماً ولهذا قال بعضهم: يورث العلم الظاهر والعلم ليس له ظاهر وباطن، وإنما هو الظن".

القادحة، وقد يضعفون بعض الأحاديث لعدم توافر شروط الصحة فيها، ثم يجدون ما يقويها، فيحكمون بصحتها وهكذا 4- أنه لو أفاد خبر الواحد العلم، لما تعارض خبران، لأن العلمين لا يتعارضان، كما لا تتعارض أخبار التواتر، لكنا رأينا التعارض كثيرا في أخبار الآحاد، وذلك يدل على أنها لا تفيد القطع. 5- أن كثيرا من المحدثين بل أكثرهم يرون الروايات بالمعنى، كما هو معلوم لا يخفي على طالب علم، وقد وردت أحاديث كثيرة جدا في كتب السنة مما لا يمكن أن يقال إلا أنها مروية بالمعنى، كما لا يخفي على من له أدنى ممارسة لهذه الكتب، والرواية بالمعنى لا يؤمن معها من الغلط. 6- ثبت عن جماعة من صحابة رسول الله أنهم قد ردوا بعض الأحاديث الآحادية بمجرد معارضتها لبعض الظواهر القرآنية أو لبعض الروايات الأخرى، فلو كانت أخبار الآحاد تفيد القطع لما ردوها.

انظر "السيف الحاد على من أخذ بأحاديث الآحاد في الاعتقاد" لسعيد بن مبروك القنوبي.

ويقول الأصولى المعاصر الدكتور وهبة الزحيلى في كتابه أصول الفقه الإسلامي: "وحكم سنة الآحاد أنها تفيد الظن لا اليقين ولا الطمأنينة، ويجب العمل بها لا الاعتقاد للشك في ثبوتها، وهذا هو مذهب أكثر العلماء وجملة الفقهاء". ويقول الإمام البزدوى: "وأما دعوى علم اليقين في أحاديث الآحاد فباطلة بلا شبهة لأن العيان يرده، وهذا لأن خبر الواحد محتمل لامحالة، ولايقين مع الاحتمال، ومن أنكر هذا فقد سفه نفسه وأضل عقله. ولما كان خبر الواحد لايفيد اليقين، لايكون حجة فيما يرجع إلى الاعتقاد لأنه مبنى على اليقين، وإنما كان حجة فيما قصد فيه العمل". ويقول الإمام الغزالى في المستصفي في علم الأصول: "خبر الواحد لايفيد العلم، وهو معلوم بالضرورة، فإنا لانصدق بكل مانسمع، ولو صدقنا، وقدرنا تعارض خبرين فكيف نُصدق بالضدين؟"

ويقول زين الدين العراقي في توضيح الأفكار –وهو عميد المحدثين في عصره: "وحيث يقول المحدثون: هذا حديث صحيح، فمرادهم فيما ظهر لنا، عملاً بظاهر الإسناد، لا أنه مقطوع بصحته في نفس الأمر؛ لجواز الخطأ والنسيان على الثقة، وكذا قولهم هذا حديث ضعيف، مرادهم فيما لم يظهر لنا فيه شروط الصحة، لا أنه كذب في نفس الأمر؛ لجواز صدق الكاذب وإصابة من هو كثير الخطأ" ويقول الإمام السيوطى في تدريب الراوي شرح تقريب النواوي: "وإذا قيل: هذا حديث صحيح فهذا معناه أى: ما اتصل سنده مع الأوصاف المذكورة، فقبلناه عملاً بظاهر الإسناد، لا أنه مقطوع به في نفس الأمر، لجواز الخطأ والنسيان على الثقة، خلافاً لمن قال: إن خبر الواحد يوجب القطع"

وهذا الذي ذكرناه غيض من فيض فالأكثرية تقول بهذا القول مثل: بدر الدين العيني وابن حجر والجرجاني والكراماستي والحافظ الذهبي والعز بن عبدالسلام وابن قدامة وعبد القاهر البغدادي وابن الأثير والأسنوي والسخاوي وابن تيمية والتاج السبكي وإمام الحرمين الجويني والجصاص والسرخسي وابن رشد وابن عبدالبر والدارقطني. وأعتقد أن هذا أكثر من كاف ليتأكد القارئ أن خبر الآحاد لا يفيد إلا الظن.

وعلى العكس من ذلك سنرى أن بعض المحدثين –وهم قلة– يرون أن خبر الآحاد يفيد العلم واليقين –وهذا مخالف للعقل والنقل– مخالفين بذلك لجمهرة العلماء التي ذكرناهم[61]. وكما عرضنا أدلة النافين لحجية خبر الآحاد في العقائد نعرض حجج الزاعمين حجية خبر الآحاد في إفادة العلم واليقين ثم نرد عليها:

أشهر أدلة القائلين بإفادة خبر الآحاد للعلم

يذكر الشيخ ربيع بن هادي المدخلي العديد من الأدلة على إفادة خبر الآحاد العلم, فنذكرها هنا مفصلة ثم نرد عليها, حيث قال:

"الدليل الأول: أن المسلمين لما أخبرهم الواحد وهم بقباء في صلاة الصبح أن القبلة قد حولت إلى الكعبة قبلوا خبره وتركوا الحجة التي كانوا عليها واستداروا إلى القبلة، ولم ينكر عليهم رسول الله(ص) بل شكروا على ذلك وكانوا على أمر مقطوع به من القبلة الأولى فلولا حصول العلم لهم بخبر الواحد لم يتركوا المقطوع به المعلوم لخبر لا يفيد العلم، وغاية ما يقال فيه: إنه خبر اقترنته قرينة، وكثير منهم يقول لا يفيد العلم بقرينة ولا غيرها وهذا في غاية المكابرة. ومعلوم أن قرينة تلقى الأمة له بالقبول وروايته قرناً بعد قرن من غير نكير من أقوى القرائن وأظهرها فأي قرينة فرضتها كانت تلك أقوى منها.

الدليل الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ... ٦﴾ [سورة الحُجُرات ,٦]، وفي القراءة الأخرى [فَتَثَبَّتُوا] وهذا يدل على الجزم بقبول خبر الواحد أنه لا يحتاج إلى التثبت ولو كان خبره لا يفيد العلم لأمر بالتثبت

(61) هناك من العلماء المذكورين من قال بظنية خبر الآحاد ولكن عند تعامله معه طبق مذهب أهل الحديث من أنه يفيد العلم، فهو بذلك يخالف بفعله قوله وتأصيله!!

حتى يحصل العلم. ومما يدل عليه أيضاً أن السلف الصالح وأئمة الإسلام لم يزالوا يقولون: قال رسول الله(ص) كذا، وفعل كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا. وكثير من أحاديث الصحابة يقول فيها أحدهم قال رسول الله(ص) وإنما سمعه من صحابي غيره، وهذه شهادة من القائل وجزم على رسول الله(ص) بما نسبه إليه من قول أو فعل. فلو كان خبر الواحد لا يفيد العلم لكان شاهداً على رسول الله (ص) بغير علم.

الدليل الثالث: أن أهل العلم بالحديث لم يزالوا يقولون صح عن رسول الله(ص) وذلك جزم منهم بأنه قاله، ولم يكن مرادهم ما قاله بعض المتأخرين إن المراد بالصحة صحة السند لا صحة المتن بل هذا مراد من زعم أن أحاديث رسول الله(ص) لا تفيد العلم، وإنما كان مرادهم صحة الإضافة إليه وأنه قال كما كانوا يجزمون بقولهم قال رسول الله (ص) وأمر ونهى وفعل رسول الله(ص) وحيث كان يقع لهم الوهم في ذلك يقولون يذكر عن رسول الله(ص) ويروى عنه ونحو ذلك.

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةٗۚ فَلَوۡلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرۡقَةٖ مِّنۡهُمۡ طَآئِفَةٞ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوۡمَهُمۡ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ١٢٢﴾]سورة التوبة, ١٢٢[، والطائفة تقع على الواحد فما فوقه فأخبر أن الطائفة تنذر قومهم إذا رجعوا إليهم والإنذار الإعلام بما يفيد العلم وقوله لعلهم يحذرون نظير قوله في آياته المتلوة والمشهودة: [لعلهم يتفكرون]. [لعلهم يعقلون]. [لعلهم يهتدون] وهو سبحانه إنما يذكر ذلك فيما يحصل العلم لا فيما لا يفيد العلم.

الدليل الخامس: قوله: ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ ... ٣٦﴾ [سورة الإسراء, ٣٦]، أي: لا تتبعه ولا تعمل به ولم يزل المسلمون من عهد الصحابة يقفون أخبار الآحاد ويعملون بها ويثبتون لله تعالى بها الصفات فلو كانت لا تفيد علماً لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الإسلام كلهم قد قفوا ما ليس لهم به علم.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النحل ,٤٣]، فأمر من لم يعلم أن يسأل أهل الذكر وهم أولوا الكتاب والعلم، ولولا أن أخبارهم تفيد العلم لم يأمر بسؤال من لا يفيد خبره علماً، وهو سبحانه لم يقل سلوا عدد التواتر بل أمر بسؤال أهل الذكر مطلقاً فلو كان واحداً لكان سؤاله وجوابه كافياً.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ... ﴿٦٧﴾﴾ [سورة المائدة ,٦٧]، وقال: ﴿... وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة النّور ,٥٤]، وقال النبي (ص): "بلغوا عني"، وقال لأصحابه في الجمع الأعظم يوم عرفة: أنتم مسئولون عني فماذا أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك بلغت وأديت ونصحت. ومعلوم أن البلاغ هو الذي تقوم به الحجة على المبلغ، ويحصل به العلم فلو كان خبر الواحد لا يحصل به العلم لم يقع به التبليغ الذي تقوم به حجة الله على العبد فإن الحجة إنما تقوم بما يحصل به العلم، وقد كان رسول الله(ص) يرسل الواحد من أصحابه يبلغ عنه، فتقوم الحجة على من بلغه وكذلك قامت حجته علينا بما بلغنا العدول الثقات من أقواله وأفعاله وسنته ولو لم يفد العلم لم تقم علينا بذلك حجة ولا على من بلغه واحد أو اثنان أو ثلاثة أو أربعة أو دون عدد التواتر، وهذا من أبطل الباطل فيلزم من قال: إن أخبار رسول الله(ص) لا تفيد العلم أحد أمرين:

1- إما أن يقول: إن الرسول لم يبلغ غير القرآن وما رواه عنه عدد التواتر وما سوى ذلك لم تقم به حجة ولا تبليغ.

2- وإما أن يقول: إن الحجة والبلاغ حاصلان بما لا يوجب علماً ولا يقتضي عملاً.

وإذا بطل هذان الأمران بطل القول بأن أخباره(ص) التي رواها الثقات العدول الحفاظ وتلقتها الأمة بالقبول لا تفيد علماً وهذا ظاهر لا خفاء به.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَـٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا... ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة ,١٤٣]، وقوله: ﴿... وَفِى هَـٰذَا

لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴿٧٨﴾] سورة الحج ,٧٨[، وجه الاستدلال أنه تعالى أخبر أنه جعل هذه الأمة عدولاً خياراً ليشهدوا على الناس بأن رسلهم قد بلغوهم عن الله رسالته وأدوا عليهم ذلك، وهذا يتناول شهادتهم على الأمم الماضية وشهادتهم على أهل عصرهم ومن بعدهم أن رسول الله(ص) أمرهم بكذا ونهاهم عن كذا فهم حجة الله على من خالف رسول الله وزعم أنه لم يأتهم من الله ما تقوم به عليه الحجة، وتشهد هذه الأمة الوسط عليه بأن حجة الله بالرسل قامت عليه ويشهد كل واحد بانفراده بما وصل إليه من العلم الذي كان به من أهل الشهادة فلو كانت أحاديث رسول الله(ص) لا تفيد العلم لم يشهد به الشاهد ولم تقم به الحجة على المشهود عليه.

الدليل التاسع: أن هؤلاء المنكرين لإفادة أخبار النبي(ص) العلم يشهدون شهادة جازمة قاطعة على أئمتهم بمذاهبهم وأقوالهم أنهم قالوا ولو قيل لهم أنها لم تصح عنهم لأنكروا ذلك غاية الإنكار وتعجبوا من جهل قائله ومعلوم أن تلك المذاهب لم يروها عنهم إلا الواحد والاثنان والثلاثة ونحوهم لم يروها عنهم عدد التواتر وهذا معلوم يقيناً فكيف حصل لهم العلم الضروري والمقارب للضروري بأن أئمتهم ومن قلدوهم دينهم أفتوا بكذا وذهبوا إلى كذا ولم يحصل لهم العلم بما أخبر به أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وسائر الصحابة عن رسول الله(ص) ولا بما رواه عنهم التابعون وشاع في الأمة وذاع وتعددت طرقه وتنوعت.

الدليل العاشر: قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴿٢٤﴾] سورة الأنفال ,٢٤[، ووجه الاستدلال أن هذا أمر لكل مؤمن بلغته دعوة الرسول(ص) إلى يوم القيامة، ودعوته نوعان: مواجهة ونوع بواسطة المبلغ وهو مأمور بإجابة الدعوتين في الحالتين وقد علم أن حياته في تلك الدعوة والاستجابة لها، ومن الممتنع أن يأمره الله تعالى بالإجابة لما لا يفيد علماً أو يحييه بما لا يفيد علماً أو يتوعده على ترك الاستجابة لما لا يفيد علماً بأنه إن لم يفعل عاقبه وحال بينه وبين قلبه.

الدليل الحادي عشر: قوله تعالى: ﴿... فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٦٣﴾ [سورة النّور ,٦٣]، وهذا يعم كل مخالف بلغه أمره(ص) إلى يوم القيامة ولو كان ما بلغه لم يفده علماً لما كان متعرضاً بمخالفة ما لا يفيد علماً للفتنة والعذاب الأليم فإن هذا إنما يكون بعد قيام الحجة القاطعة التي لا يبقى معها لمخالف أمره عذراً.

الدليل الثاني عشر: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ... ۝٥٩﴾ [سورة النساء ,٥٩] إلى قوله: ﴿... وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ... ۝٥٩﴾ [سورة النساء ,٥٩]، ووجه الاستدلال أنه أمر أن يرد ما تنازع فيه المسلمون إلى الله ورسوله والرد إلى الله هو الرد إلى كتابه والرد إلى رسوله هو الرد إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته، فلولا أن المردود إليه يفيد العلم وفصل النزاع لم يكن في الرد إليه فائدة إذ كيف يرد حكم المتنازع فيه إلى مالا يفيد علماً البتة ولا يدرى حق هو أم باطل، وهذا برهان قاطع – بحمد الله– فلهذا قال من زعم أن أخبار رسول الله(ص) لا تفيد علماً إنا نرد ما تنازعنا فيه إلى العقول والآراء والأقيسة فإنها تفيد العلم.

الدليل الثالث عشر: قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ... ۝٤٩﴾ [سورة المائدة ,٤٩] إلى قوله: ﴿... أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ۝٥٠﴾ [سورة المائدة ,٥٠]، ووجه الاستدلال أن كل ما حكم به رسول الله(ص) فهو مما أنزل الله وهو ذكر من الله أنزله على رسوله وقد تكفل سبحانه بحفظه فلو جاز على حكمه الكذب والغلط والسهو من الرواة، ولم يقم دليل على غلطه وسهو ناقله لسقط حكم ضمان الله وكفالته لحفظه وهذا من أعظم الباطل، ونحن لا ندعي عصمة الرواة بل نقول إن الراوي إذا كذب أو غلط أو سها فلا بد أن يقوم دليل على ذلك ولا بد أن يكون في الأمة من يعرف كذبه وغلطه ليتم حفظه لحججه وأدلته ولا تلتبس بما ليس منها، فإنه من حكم الجاهلية بخلاف من زعم أنه يجوز أن تكون كل هذه الأخبار

والأحكام المنقولة إلينا آحاداً كذباً على رسول الله(ص) وغايتها أن تكون كما قاله من لا علم عنده: "إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين".[62] اهـ

هذه هي أشهر الأدلة التي يستدلون بها على حجية خبر الواحد في العقائد وباقي الأدلة التي لم أذكرها اختصارا يمكن ردها إلى بعض الأدلة هنا فهي من باب التكرار، وليعذرني القارئ أني ذكرت حججهم بالتفصيل –على عكس حجج الرأي الآخر والتي ذكرت إجمالا في الهامش– ولكن ذلك من باب الإلزام حتى لا يكون هناك حجة، حتى يعرف القارئ ويدرك كم هو مقلوب منطقهم هذا وكم هو بعيد كل البعد عما يستدلون به له ومن أجله. ونبدأ بفتح الله وعونه في إزاحة الغشاء عن أعين القارئ ليعلم أنه لاحجة ولا دليل فيما يقولون البتة بل كل أقوالهم بإذن الله مردودة عليهم:

وقبل أن نبدأ الرد على الأدلة لا بد أن نوضح للقارئ أن نقطة الخلاف الرئيسة بيننا وبينهم هي في مسألة انفراد الحديث أو اقترانه، فهم يقبلون ويرون حجة الحديث المنفرد، أما نحن فنرى وجوب اقترانه بأصله في القرآن، فإذا كان له أصل صريح في القرآن أُخذ و قُبل في مجالي الأحكام والعقائد ولكنا نفرق بين روايات الأحكام والعقائد في مسألتين:

1– رواية الأحاد في مجال الأحكام يمكن أن تدخل تحت أصل قرآني عام لحكم شرعي ولا يشترط تطابق الألفاظ لعموم الألفاظ القرآنية ولاشتمالها على كثير من المدلولات التي تندرج تحت هذا الأصل القرآني العام.

2– ما لا يندرج مباشرة –في مجال الأحكام العملية– تحت أصل قرآني يُؤخذ كسنة ولا يرد.

أما في العقائد فلا بد من تطابق الروايات مع الألفاظ القرآنية ولا مجال للتوسع في الاستعمال بل لا بد من وجود تطابق كامل تام فلا يُجعل الإتيان كالنزول أو ما شابه،

[62] انظر حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام للشيخ ربيع بن هادي عمير المدخلي.

والتضيق هنا من باب التحوط في التقول على الله ولعدم إمكانية التوسع في مدلولات الألفاظ لاستحالة انطباقها في هذه الحالة على أكثر من مدلول واحد.

إذا نحن نشترط لقبول رواية الآحاد أن تكون مقترنة بأصل قرآني في الأحكام والعقائد حتى تقبل رواية الآحاد، أما إذا خالفت القرآن بأي شكل فهي مردودة لا محالة وبلا أي تمحك.

ولقد كان لأهل الحديث الكلمة العليا في احتجاجهم على المعارضين في قبولهم لخبر الآحاد في مجال الأحكام العملية ورده في العقائد، فعلي أي أساس يُقبل الخبر هنا ثم يرد هناك؟! فإما أن يُقبل في الحالتين أو يُرد في الحالتين؟ ولكنا نحن لم نخطأ خطأ علماء الأصول واشترطنا لقبول خبر الآحاد الاقتران التابع للقرآن في الحالتين حتى نتأكد من صحته وبذلك تُلغى ظنية الخبر، والآن إلى تفنيد الأدلة بشكل عام:

يُلاحظ أول ما يُلاحظ أن لا دليل مباشر على ما يستدلون عليه من القرآن بل هم ينزعون بعض الآيات ويستنتجون عن طريق تفسيرها بشكل معين صحة مذهبهم. بالإضافة إلى ذلك فهم يخلطون بين خبر الآحاد المباشر وخبر الآحاد المنقول، ثم هم يتخذون من فعل فلان أو علان –والذي يعممونه– دليلا على قولهم، وفي هذا دليل واضح على عدم وجود دليل صريح معهم على مذهبهم، والآن إلى النقد التفصيلي لأدلتهم.

النقد التفصيلي لأدلة القائلين بأن خبر الآحاد يفيد العلم

أما بالنسبة للدليل الأول وهو مسألة تحويل القبلة فلا حجة فيه لما يقولون، فهو أولا متعلق بالأحكام العملية وليس بالعقائد، والأصوليون متفقون معهم في قبول هذا الخبر، أما نحن فنقول –على فرض حدوث هذه الواقعة– فخبر الآحاد فيه مباشر وليس منقولا بواسطة، حيث أنه لا خلاف في قبول قول الثقة إذا كان اخبارا عما علم ولكن الخلاف في المنقول، ونوضح للقارئ ما نقصده بذلك:

كنت أتناقش مع زميل لي في الجامعة فقلت له: لو أخذتُ منك مالا وأشهدت علينا شاهدين ثم مات الشاهدان أو سافرا وقبل أن يسافرا أخبرا اثنين آخرين أنني أخذت منك مبلغا من المال وأقسما لهما على ذلك، ثم أنكرتُ أنني أخذت منك المال فشكيتني للقضاء، فعندما يسألك القاضي أين شهودك؟ فإذا قلت له: الشهود ماتوا ولكن هناك من أقسم لهم الشهود أنهم شهدوا عليه وهو يأخذ مني المال، فهل سيقبل القاضي شهادتهما؟ قال: بداهة لا لأنهما لم يشهدا شيئا فلقد حُكي لهما فقط فهذا ظن. فقلت له: وما الفارق بين هذا وبين السنة، ألا ترى أن السنة نقلت بمثل هذا الشكل؟ فاحمر وجهه وقال: لا هناك الكثير والكثير من الفروق. فقلت له: اذكر عشرا منها، لا، اذكر واحدا منها فقط! فلم يحر جوابا إلى أن قال لي: هذا دين وهذه دنيا! فقلت له: عجيب، تريدنا أن نتحوط في الدنيا ونتساهل في الدين، ما هذا الفهم المقلوب، يا أخي نحن نقول بظنية الحديث وعلى الرغم من ذلك لا نردها لاندراجها تحت القرآن، فإذا خالفت القرآن قيد أنملة رددنها، لا أن نجعلها حاكمة على القرآن. –كان أصل الحوار عن النسخ حيث كنت أقول له أن السنة لا تنسخ القرآن وهو كأي أزهري خريت بنكر ذلك!–.

وأنا الآن أوجه نفس السؤال لكل علماء الحديث: كيف قبلتم الحديث منفردا بلا مستند صريح من القرآن مع أنه ظن مرجوح وبنيتم عليهِ حل وحُرمة؟! لو اكتفيتم بتقرير السنن –بمعنى الدرجة الأقل من الفرض– من خلاله لكان مقبولا ولكن أن يتجاوز الأمر إلى الحل والحرمة بل ويصل إلى الإيمانيات فهذا تقّول ما بعده تقّول، فما هو مستندكم العقلي، كيف قبلتم في الدين ما ترفضوه في الدنيا؟ سنسمع الإجابة المشهورة: الله عزوجل يقول: ﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٧﴾ [سورة الحشر,٧] والآيات التي تأمر بطاعة الرسول. فنقول: على فرض أن المراد بما تقولون هنا هو السنة بالمعنى الذي تفهمونه، فكيف أقول أو أضمن أن الرسول آتاني كذا وكذا وهذا كله ظن مرجوح مرفوض في الدنيا ولماذا رفضتم أحاديث الثقات من الفرق الأخرى؟! المتفق عليه بين المسلمين أن ما تركه لنا الرسول

هو القرآن وما نُقل تواترا[63] واتفقت عليه الأمة، أما ما بخلاف ذلك فمختلف عليه الاختلاف الشديد وهو في وجهة نظر الشرع والقانون ظن مرجوح مرفوض في التعامل الدنيوي. قد يقول قائل: ولكن ذلك سيؤدي إلى رد السنة! نقول: ليس هذا ما نقصده فنحن لا ندعوا إلى إنكار السنة ولكننا ندعوا إلى تقييد السنة بالقرآن وعرضها عليه – كما تقول كل الفرق الإسلامية ما عدا أهل السنة وكما صح في الأحاديث تبعا لمنهجنا–، فإذا كان للسنة المستند الصريح من القرآن المنقول بالتواتر أو ما نقل بالتواتر من السنة فيُرفع عنها حكم الظن المرجوح وتُقبل، أما إذا استقلت بنفسها فترفض في التحريم وفي العقائد.

سيكرر المقلدة: ولكن السلف لم يشترطوا هذا الشرط بل كانوا يقبلون السنن سواء كانت تابعة للقرآن أم مستقلة عنه؟ نقول: وهل فعل السلف حجة؟ سلفكم هذا الذي تستدلون به ليس كل الأمة، ومن يدعي أن الأمة كلها فعلت هذا فعليه أن يأتي بالدليل على ذلك؟! التعميم والتعمية سلاح المضخم للأمور، أما نحن فنأخذ الأمور من منظور الشرع ولا يزال السؤال مطروحا: كيف يُقبل في الدين ما لا يقبل في الدنيا؟

ما تحتاجه الأمة تكفل الله بحفظه ونُقل بالتواتر من التطبيق العملي للقرآن أما ما بخلاف ذلك فاجتهد المسلمون في قبوله ورده، ولم يلزمنا الله ولا رسوله بقبول منهج أهل السنة في تلقي الأحاديث بل على كل مسلم أن يبحث عن المعيار الذي يضمن به تنقية السنة، ونحن والحمد لله وجدنا المنهج الذي يرفع الحرج ويرد على القرآنيين الذين يرفضون السنة كلية بحجة الظنية! وهو خليط من منهج أهل السنة والفرق الإسلامية الأخرى ومن قولنا نحن، فأهل السنة محصوا الأسانيد أيما تمحيص وأهملوا –إلى حد

---

(63) نحن نرى أن القرآن نُقل بحفظ الله عن طريق التواتر، فلولا تعهد الله بحفظ القرآن لاحتمل أن يُضاف أو ينقص من القرآن بعض الحروف ولكن حفظ الله الذي وفر له من الأسباب الدنيوية والبنية الداخلية كان المانع من حدوث التحريف. ونشير إلى نقطة هامة في تعاملنا مع القرآن هي أننا أصبحنا نتعامل مع القرآن من منطلق مقلوب، فبعد أن كان القرآن دليلا على نبوة الرسول أصبح النقل المتواتر للقرآن من الرسول إلينا هو الحجة على صدوره من عند الله مع عدم وقوع التحريف، أي أننا نقر ضمنا: أن القرآن لو كان منقولا بغير التواتر ووصل إلينا بهذا الشكل فلا مانع عقلا من وقوع التحريف فيه، أي أن جلنا لا يدرك البناء المتميز للنص القرآني عن غيره من النصوص اللغوية وهذه طامة كبرى!

ما– المتون، والفرق الأخرى اشترطت عدم معارضة النصوص للقرآن واندراجها تحته، أما نحن فأخذنا من أهل السنة اشتراط الثقات في السند ومن الفرق الإسلامية عدم المعارضة مع القرآن ولكن زدنا الاندراج المباشر للسنة تحت النص الصريح في القرآن، لا أن تمرر السنة تحت عموم من عموميات القرآن، ثم تفسر السنة هذا العموم وبهذا تُقبل السنة ولا ترد من باب عدم التعارض والاندراج تحت القرآن، وهذا من باب "الدور" المرفوض عقلا ومنطقا –نموذجا لذلك انظر مسلك الشيعة مع مبحث الإمامة– إذا فالدليل الأول لا دليل فيه على قبول آخبار الآحاد المنقولة بأي حال بل لا بد من الاندراج تحت القرآن والتطابق معه فهذا الدليل دليل على قبول الثقة في الخبر المباشر فقط.

أما بخصوص الدليل الثاني وهو استدلالهم بقوله تعالى "فتبينوا"فأعجبُ من الاستدلال به فما شأن هذا بخبر الآحاد المنقول؟! فكل ما هنالك أنه يأمرنا بالتبين أو التثبت إذا جاءنا الفاسق بنبأ، أما استدلالهم بأن كثيرا من الأحاديث يقول فيها الصحابي قال رسول الله كذا وكذا وهو لم يسمعه من الرسول بل سمعه من صحابي آخر مثله،وبهذا يكون شهد بغير علم! فنقول: هذا ينبغي أن يكون موطن ضعف وطعن لا موطن استدلال، فكيف تدعون أن خبر الآحاد يفيد اليقين وفيه احتمال أن لا يكون الصحابي –والذي لا يُسأل من رجال الحديث عما يقول أويفعل بخلاف باقي الرجال الذين يُسألون– قد سمع من الرسول أو من صحابي مثله بل ربما سمعه من تابعي؟ وإذا كانوا قد فعلوا فهذا شأنهم فليس فعل بعض الصحابة بحجة ومن يدعي أن فعلهم حجة فعليه أن يأتي بدليل قطعي –من القرآن–! ثم إنه كان لكل منهم منهج في التعامل مع السنة فكيف يكون فعل بعضهم حجة على بعض، فالإمام علي بن أبي طالب كان يستحلف[64]

---

[64] عن الإمام علي بن أبي طالب أنه قال:"كنت إذا سمعت من رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم حديثاً نفعني اللّه به ما شاء أن ينفعني، وإذا حدثني غيري عنه استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر وصدق أبو بكر، قال: قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم: ما من عبد مؤمن يذنب ذنباً فيتوضأ فيحسن الطهور ثم يصلي ركعتين فيستغفر اللّه تعالى إلا غفر اللّه له، ثم تلا: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٣٥﴾] سورة آل عمران ,١٣٥[. أخرجه أحمد

من يحدثه عن رسول الله، وسيدنا عمر وكبار الصحابة كانوا من المقلين لرواية الحديث وكان هو من الداعين إلى الإقلال من روايته والانشغال بالقرآن وصغار الصحابة كانوا من المكثرين للرواية، فهذه مناهج مختلفة لأشخاص لا حجة في قولهم أو فعلهم فكيف يُعمم فعلهم؟!

أما الاستدلال بفعل علماء الحديث فمما يضع المرء أمامه مئات من علامات التعجب، فكيف تستدل على حجية ما تفعله بما فعله أمثالك؟! وهل علماء الحديث –عند أهل السنة– حجة في دين الله؟ ليس قول أي أحد حجة إلا قول الله وقول الرسول الموافق لكتاب ربه، أما علماء الحديث فليسوا الأمة ولا يمثلونها، اللهم إذا كانت الأمة أعطتهم توكيلا فيخرجوه لنا!

أما بخصوص الدليل الرابع وهو استدلالهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ... ﴿١٢٢﴾﴾ [سورة التوبة, ١٢٢] فاستدلال عجيب ولنقرأ الآيات بتدبر لنرى ما تقول: فالآية تتحدث عن نفير المؤمنين لقتال الكفار وتوضح أنه لا ينبغي للمؤمنين أن ينفروا لقتال الكفار ولكن ينفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقه المؤمنون الذين ظلوا في الدين ولينذر النافرون قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون. فما هو الدليل في الآية على حجية خبر الآحاد المنقول؟ فهم في قولهم حجة ولكن لا حجة فيمن يأتي بعد مئات السنين ليدعي كذا وكذا.

أما الدليل الخامس وهو استدلالهم بقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ... ﴿٣٦﴾﴾ [سورة الإسراء, ٣٦] فليس من باب الاستدلال بالآية نفسها ولكن هو من باب ما سبق وهو الاستدلال بفعل المسلمين! وأنهم لا يزالون يقفون أخبار الآحاد ويعملون بها أحكاما وعقائدا. والرد على ذلك جد يسير، فليس فعل المسلمين كلهم إذا لم يكن لهم مستند من الشرع بحجة، هذا إذا صدر الفعل من المسلمين كلهم وكان المسلمون مجتهدين وليسوا مقلدين –كما أفتيتم لهم بذلك– ولكن الأعم الغالب من المسلمين

مقلدون. فالفعل إذا فعل جماعة من علماء الحديث[65] في مذهب أهل السنة، وعدم موافقة الأصوليون لهم والمعتزلة في نفس المذهب ناهيك عن المخالفين لهم من أهل الحديث والأصوليين في الفرق الأخرى من أبين ما يكون، فكيف يُعمم الأمر إذا، ويجعل من فعل المسلمين –المقلدين–؟ فهذا إما تقّول أو من باب تكفير المخالفين والمقلدين وانفراد علماء الحديث بالإسلام؟! ولا اعتقد أن أهل الحديث يرون ذلك.

أما الاستدلال بالدليل السادس وهو قوله تعالى: ﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النحل ,٤٣] فمن العجب العجاب، فمن قال إن سؤال أهل الذكر –وهم أهل الكتب السماوية– لا يفيد علما؟! فهم وإن كانوا أفرادا ولكن قولهم يفيد حتما علم اليقين لأنهم يستندون إلى وحي الله عزوجل –توراة وإنجيلا وقرآنا–، فليس العبرة بتفردهم أو كثرتهم ولكن العبرة باستنادهم إلى العلم الذي يفيد اليقين وهذا هو عين منهجنا في قبول الأحاديث وردها وليس الاستناد إلى الرجال فقط كما يفعل أهل الحديث!

أما استدلالهم بالدليل السابع وهو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [سورة المائدة ,٦٧] فراجع إلى تصورهم لدين الله عز وجل وأنه مكون من قرآن وسنة مكملة لكتاب الله، والإكمال لا يكون إلا للناقص، إذا فكتاب الله ناقص! ويكمله أخبار منقوله عن طريق الظن المرجوح! ولكن السادة علماء الحديث ومن وافقهم يقولون: لا حرج في ذلك فالسنة وحي والقرآن وحي وكلاهما يصدر من مشكاة واحدة! ولكن مهما قالوا وبرروا فلا مدلول لقولهم إلا أن يكون القرآن ناقصا! أما نحن فنرى كتاب الله كاملا والسنة ما هي إلا التطبيق فلا تزيد عنه قدر أنملة! لذا نقلب الطاولة عليهم ونسألهم: وإذا كان كتاب الله الناقص –تبعا لزعمكم– يكمله حديث جاء

(65) الصحابة كانوا يبلغون وينقلون ما رأوه وعاينوه وليس في ذلك أي حرج وكان أكثر جهدهم في تعليم الناس القرآن، أما ما حدث بعد ذلك من اتخاذ قولهم حجة وفعلهم دليلا بأنهم فعلوا كذا وكذا فهذا من باب التعميم و بدعة في دين الله.

عن طريق رواه ثقات شيعة رددتم أنتم روايتهم لبدعتهم! فماذا تقولون لله عزوجل يوم القيامة، فهل أمركم الله برد روايات الثقات من كل الطوائف المخالفة لأهل السنة أم أن هذا من اجتهادكم وتأصيلاتكم البشرية؟! فتبعا لنظركم وتصوركم لدين الله فلا بد أنه ضاع الكثير منه مع الفرق الإسلامية المخالفة لكم، حيث أن كل فرقة تستند إلى بعض الصحابة. أما مسألة تبليغ الرسول لما نزل إليه فهو ما قام به الرسول المعصوم من تبليغه القرآن للصحابة وتطبيقه أمامهم، وهم قاموا بنقل القرآن والتطبيق النبوي له لمن بعدهم وبذلك قامت الحجة عن طريق القرآن المتواتر[66] والأخبار المتطابقة معه والنابعة منه سواءا كانت آحادا أو متواترة، أما ما زادت عليه أو خالفته فمردودة عقلا وشرعا.

أما استدلالهم بالدليل الثامن وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ... ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة, ١٤٣] فاستدلال غير مباشر، فالله تعالى يقسم العالم إلى نصفين نحن وغير المسلمين في الزمن الحاضر أو الماضي ونحن نشهد على أفعال غير المسلمين ولست أدري على أي أساس أو منطلق من فهم يرى بعض الأخوة "وتشهد هذه الأمة الوسط عليه بأن حجة الله بالرسل قامت عليه ويشهد كل واحد بانفراده..." ولست أدري من أين جاء المستدل بأن كل واحد سيشهد بانفراده إلى آخر ما يستدل به، فالله تعالى يتكلم عن شهادة الأمة عن الأمم فيجعلها شهادة أفراد، ثم إن العبرة كما قلنا ونكرر ليست بالأفراد نفسهم سواءا كانوا فرادى أو جماعات فهو لم يروا شيئا ولن يشهدوا بأنفسهم ولكنهم سيشهدوا بما معهم من القرآن على الأمم الماضية والسابقة وأفعالهم ولست أدري ما هو الرابط في إدخال الرواية في آخر هذا الاستدلال، فهل تقوم الحجة على المخالف بالقرآن أم بالسنة؟ بداهة بالقرآن وبما يوافقه، وأنا أسأل الأخوة أهل الحديث قاطبة: ما حكم المسلم الشيعي أو الإباضي الذي يرد سبعة أعشار أحاديث أهل السنة –التشريعية أو غير التشريعية– رافضا

[66] ينبغي أن يعي القارئ أن العبرة بالقرآن ذاته بغض النظر عن تواتره، فحتى ولو لم يتواتر القرآن وجاء بطريق الآحاد – وهو ما لم يحدث يقينا – فهو آية في نفسه شاهد على كونه ليس من عند البشر وأنه من عند الله وهو الدليل على صدق الرسول !، أما السنة فلا تحمل هذا الطابع الإلهي الذي يُميز بواسطته المختلق من غير المختلق، فمن الممكن الدس فيها بسهولة وهذا ما حدث فعلا.

منهجكم في قبول الأحاديث متحججا بأنها تخالف القرآن وأن رواتكم مجسمون مبتدعة؟! هل يمكنكم أن تكفرونهم لذلك[67]؟ بداهة لا يمكن، لأنهم لم يخالفوا أصلا واحدا موجودا في القرآن، إذا كما قلنا: الحجة بالقرآن وما تبعه من أحاديث مطابقة فقط وليس ما استقل.

أما استدلالهم بالدليل التاسع وهو قولهم أن أتباع الفرق والمذاهب يرون ويجزمون بما قاله أئمتهم وهو منقول بطريق الآحاد ثم يردون أخبار الآحاد في العقائد. فنقول: هب أنهم فعلوا، هم جانبوا الصواب في ذلك وليس الخطأ في جانب مبرر للاستمرار فيه في جانب آخر، ولكن من قال إن أحد يجزم؟ أنا مثلا كنت حنفي المذهب في الأزهر ولكن لا أجزم أن أبا حنيفة قال كذا أو لم يقله، المنقول عنه أنه قال كذا أو كذا يحتمل الصدق أو الكذب، بل إني كنت ولا أزال أرى أن أقوال الفقهاء لم يتوفر لها من الصدق والتحري ما توفر للسنة النبوية، لذا فإن اهتمامي دوما بالدليل الذي روي أن أبا حنيفة استدل به وليس قول أبي حنيفة نفسه. وفي جميع الحالات ليس فعلي أو فعل أحد حجة.

أما استدلالهم بالدليل العاشر وهو قوله تعالى: ﴿... إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴿٢٤﴾﴾]سورة الأنفال, ٢٤[فليس فيه دليل على ما يقولون فالمقصود من الرسول هنا هو القرآن بدليل قوله تعالى "دعاكم" ولم يقل "دعاكما"، والاستدلال بهذا الدليل تكرار للسابق وهو يدور حول مسألة البلاغ، وحول تصورهم للسنة أنها مكملة للقرآن وليست مطبقة له.

أما استدلالهم بقوله تعالى: ﴿... فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾] سورة النّور, ٦٣[فهذا خاص بالرسول المعصوم يوم كان حيا

---

[67] من الممكن رميهم بالضلال أو الفسق أو الكفر لأسباب أخرى مثل إدخالهم في دين الله ما ليس فيه مثل القول بالبداء أو الولاية التكوينية لأنها أقوال لا أصل لها في كتاب الله ومذكورة فقط في رواياتهم، وهذا هو عين ما يفعله أتباع الفرق الأخرى في التعامل مع أحاديث أهل السنة التي تعارض القرآن؟

فأول الآية يقول: ﴿لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ قَدۡ يَعۡلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمۡ لِوَاذٗا ... ﴿٦٣﴾﴾ [سورة النّور ,٦٣] أو بالقرآن، أما أن نجعله في السنة المنقولة بطريق الآحاد غير المقترنة بالقرآن فمخالف لمنطوق الآية، لأن المخالف لها معه كل الحق إذ لم يصله دعاء الرسول إلا عن طريق الظن المرجوح.

أما الدليل الثاني عشر وهو قول الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ... ﴿٥٩﴾﴾ [سورة النساء ,٥٩] حيث رأوا أن المراد هو الرسول في حياته والسنة بعد مماته. وكما قلنا من قبل، السنة مطبقة للقرآن وليست مستقلة عنه، فعندما نطيع الرسول في حياته نحن نطيع القرآن وعندما نطيعه بعد مماته فنحن نطيع القرآن أيضا، أما أن ندعي استقلال السنة بالأحكام فلا دليل على ذلك إلا أقوال الرجال.

أما الدليل الثالث عشر وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ... ﴿٤٩﴾﴾ [سورة المائدة ,٤٩] وأن ما حكم به الرسول فهو من الذكر الذي تكفل الله بحفظه، فهذا ليس دليلا لهم فيما يقولون، فالله تكفل بحفظ الذكر نفسه وهو القرآن، وما حكم به الرسول موجود في القرآن، فلو طبقنا القرآن لتوصلنا إلى ما حكم به الرسول، فسواء وصل إلينا الخبر أم لم يصل فالقرآن وصل إلينا وهذا لوحده كاف. أما ادعائهم "ونحن لا ندعي عصمة الرواة بل نقول إن الراوي إذا كذب أو غلط أو سها فلا بد أن يقوم دليل على ذلك ولا بد أن يكون في الأمة من يعرف كذبه وغلطه ليتم حفظه لحججه وأدلته ولا تلتبس بما ليس منها، فإنه من حكم الجاهلية بخلاف من زعم أنه يجوز أن تكون كل هذه الأخبار والأحكام المنقولة إلينا آحاداً كذباً على رسول الله(ص) وغايتها أن تكون كما قاله من لا علم عنده: ﴿... إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُسۡتَيۡقِنِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [سورة الجاثية ,٣٢]، فمستند على الجزء الأول من الدليل وإذا كان الجزء الأول ليس حجة فليس الثاني حجة بالتالي، بل هو دعوى عريضة لا برهان لها، مفداها أن القرآن بذاته لا حجة فيه بل الحجة في السنة، فإذا حدث خطأ أو سهو في الرواي فلا بد أن يتكفل الله بمن يصحح. وأضرب كفا بكف وأحوقل وأسال نفسي:

وأين ذهب القرآن إذا، ألا يكفي للحكم على هذه الروايات؟! ولكنهم لم أعرضوا عن المنهج النبوي القرآني في عرض السنة على القرآن كان حتما ولزاما أن يأتوا بهذه الأقوال العجيبة.

وبعد تصفحنا لأشهر أدلتهم وتفنيدنا لها يظهر لك عزيزي القارئ أن مستندهم كان جد واه، فهو إما روايات آحاد[68] –مظنونة أيضا– يستدل بها على حجية نفسها، أو آيات قرآنية تنزع من سياقها أو يستدل بها على غير منطوقها ومضمونها بشكل عجيب، أو أفعال لبشر يخطيء ويصيب ولا حجة في فعله، وكل هذا لا يكفي لأن يقوم دليلا لتلك الدعوى العريضة وهي: استقلالية السنة عن القرآن أو كفاية خبر الآحاد غير المقترن بالقرآن في العقائد.

نماذج لبعض الأحاديث المردودة المخالفة

فإذا كانت السنة ظنية الثبوت فلا يمكن أن يُؤخذ منها أي "عقيدة"، إلا إذا كانت مطابقة للقرآن وفي هذه الحالة تكون العقيدة مأخوذة من القرآن لا من السنة، أما إذا زادت السنة شيئا عن القرآن فيرد حتما ولزاما لا أن نقبله ثم نتمحك في تأويله كما فعل السادة الفقهاء والمفسرون عند تعاملهم مع روايات مردودة عقلا ولكنها قُبلت بسبب

---

[68] ما اتفق عليه البخاري ومسلم أو ما انفرد به البخاري لا يخرج عن كونه آحادا يفيد الظن، ودعك من تمحكات أهل الحديث من أن ما فيهما يفيد اليقين، بحجة أن الآمة –والتي ليس فيها الشيعة أو المعتزلة أو الأباضية– تلقته بالقبول. فالأمة التي تلقته هي مجموعة من المقلدة تأخذ ما يقوله لها العلماء، إذا فلا حجة لقول علماء مقابل أقوال علماء أخر. كما أن علماء أهل الحديث أنفسهم انتقدوا البخاري كما انُتقِد غيره من كتب الحديث وطعن فيه كثير من أئمة الحديث، وقد أقرّ ابن حجر بوجود مئة وعشرة أحاديث منتقدة على صحيح البخاري، وأهم تلك الانتقادات هي التي وجهها أبو الحسن الدارقطني في كتابه "العلل"، وقد أقرّ ابن حجر بقوة تلك الانتقادات.

وقد أقرّ الإمام الذهبي بوجود كثير من المجاهيل في صحيح البخاري ومسلم!، ففي ترجمته لحفص بن بغيل قال: "قال ابن القطان لا يعرف له حال ولا يعرف" فعلق الإمام الذهبي على تجريح ابن القطان للرجل قائلاً: "ففي الصحيحين من هذا النمط خَلق كثير مستورون، ما ضعّفهم أحد ولا هم بمجاهيل".

منهجهم المعوج. لذا فنحن نرد وبلا أي تحرج الأحاديث التالية بغض النظر عن إسنادها[69]:

نرفض أن يتنكر الله تعالى في صورة لا تليق به، كما ورد في البخاري "... فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فيقول إنا رَبُّكُمْ فَيَقُولُونَ هَذَا مَكَانُنَا حَتَّى يَأْتِيَنَا رَبُّنَا فَإِذَا جَاءَنَا رَبُّنَا عَرَفْنَاهُ فَيَأْتِيهِمْ اللَّهُ فِي صُورَتِهِ الَّتِي يَعْرِفُونَ فيقول إنا رَبُّكُمْ فَيقولون إنتَ رَبُّنَا فَيَتْبَعُونَهُ..."ثم أين وكيف يتبعونه؟!

نرفض أن يكون لله تعالى قدم، ولا نسلك نفس مسلك المؤولين الذين قبلوا الحديث ثم احتاروا كيف يمررونه فأتوا بالعجب العجاب، فالحديث لا أصل له في القرآن فالقول به تقول على الله وحديث بالظن، لذا لا بد من رد حديث البخاري: "عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَا يَزَالُ يُلْقَى فِيهَا ﴿وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ﴾ حَتَّى يَضَعَ فِيهَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَدَمَهُ فَيَنْزَوِي بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ ثُمَّ تَقُولُ قَدْ قَدْ بِعِزَّتِكَ وَكَرَمِكَ وَلَا تَزَالُ الْجَنَّةُ تَفْضُلُ حَتَّى يُنْشِئَ اللَّهُ لَهَا خَلْقًا فَيُسْكِنَهُمْ فَضْلَ الْجَنَّةِ"

نرفض أن يكون لله أصابع! كما يرى ابن خزيمة وأهل الحديث لذا نرد ما ورد في البخاري –وما كان على شاكلته –، مثل: "جَاءَ حَبْرٌ مِنْ الْأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى

---

[69] طبعا التهمة المعلبة جاهزة وهي رد السنة والتهجم عليها وتهميشها ولا بأس من التكفير أو التفسيق. على الرغم من ذلك أقول: أنا من أشد المتمسكين بالسنة النابعة من القرآن والتي لا تعارضها في الأحكام العملية –حتى ولو زادت عن القرآن– والداعين إليها مثل: الابتداء بالميامن والأذكار في مواطنها المختلفة واللحية والشرب على ثلاث وما شابه ومن أشد المعارضين للبدع وأناقش كل ذلك مع المخالفين استنادا إلى السنة من حيث الصحة أو الضعف، فنحن متفقون في الدعوة إلى الأخذ بالسنة في الأفعال العملية.
أما الأحكام الإيمانية –العقيدية– فلا نقبل فيها ولا نؤمن إلا بقول الله تعالى فقط وإلا سنكون من الواقعين في قول الله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۞﴾ [سورة الجاثية ,٦] ومن المتبعين للظن الذي حذرنا الله تعالى منه: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۞﴾ [سورة النجم ,٢٨].
أما الشعارات الرنانة مثل "نأخذ كل ما قاله الرسول"فلا بد من التيقن من صحتها أولا ثم لا بد من ورودها في القرآن – إذا كانت في الإيمانيات–. ثم نحن نسأل السادة المعارضين: هل هذه الأحاديث – والتي تتهموننا من أجلها برد السنة– يعرفها العوام، أو تخبرونهم بها؟ لا بداهة، قلة قلية هي التي تعرفها، فأنتم أيضا تتحرجون من إخبارهم بها لما فيها من شبهة التجسيد، بخلاف أحاديث الأحكام التي تحدثون بها بلا حرج. فإذا كنتم على حرج منها فما المانع إذا من ردها – سدا لباب التقول على الله– وردا لشبهات أتباع الديانات الأخرى والتي يتهمون الإسلام بالوثنية ! والتصورات البدائية للإله!

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللَّهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ وَالْمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ وَسَائِرَ الْخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ فَيقول إنا الْمَلِكُ فَضَحِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الْحَبْرِ ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}"

نرفض أن يكون لله تعالى "أنامل" كما ورد في الترمذي: "... أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُمْ الْغَدَاةَ أَنِّي قُمْتُ مِنْ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي فَاسْتَثْقَلْتُ فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ قُلْتُ لَبَّيْكَ رَبِّ قَالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى قُلْتُ لَا أَدْرِي رَبِّ قَالَهَا ثَلَاثًا قَالَ فَرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ حَتَّى وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فَتَجَلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ..."

نرفض أن يكون لله تعالى صفة الضحك، فما وجدناه في كتاب الله تعالى، بل وجدناه يقول: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ۝٤٣﴾ [سورة النجم,٤٣]، لذا نرد ما ورد في البخاري: "... فَلَا يَزَالُ يَدْعُو حَتَّى يَضْحَكَ اللَّهُ مِنْهُ فَإِذَا ضَحِكَ مِنْهُ قَالَ لَهُ ادْخُلْ الْجَنَّةَ..."

إذا ما وجدناه في كتاب الله عائدا على الله أثبتناه وما زاد رددناه حتى لا نقول على الله ما لا علم لنا به، لذلك نرد صفة "المنكب والحقو عقلة الأصبع والنفَس والساق" وكل ما لم يرد في كتاب الله تعالى. ونعجب ممن يقولون بكل هذه "الصفات" ثم يدعي أنه غير مشبه أو مجسم[70]! فكيف لا يتصور العامي الله بعد كل هذا إلا على صورة إنسان؟!

[70] قد يقول قائل: لقد ورد في القرآن كذلك أن لله تعالى يد وعين وما قد يوحي بالتشبيه. فنقول: لا، شتان بين ما ورد في القرآن وما جاء في هذه الأخبار، فما ورد في القرآن يحتمل –في اللغة– من المعاني الكثير ولا يقود إلى التشبيه إلا مع غلظة في العقل أما الإصبع والمنكب والحقو فتجسيم واضح جلي.

نرفض أن يشارك أحد الله في ربوبيته فنرد ما جاء في طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى "يقول ابن النجاد: "وحدثنا معاذ بن المثنى حدثنا خلاد بن أسلم قال: حدثنا محمد بن فضل عن ليث عن مجاهد كلهم قال في قول الله عز وجل (عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا) قال يجلسه معه على العرش، وسألت أبا يحيى الناقد ويعقوب المطوعي وعبدالله بن أحمد بن حنبل وجماعة من شيوخنا، فحدثوني بحديث محمد بن فضيل عن ليث عن مجاهد. وسألت أبا الحسن العطار عن ذلك؟ فحدثني بحديث مجاهد، ثم قال: سمعت محمد بن مصعب العابد يقول هذا، حتى ترى الخلائق الخلائق منزلته، ثم ينصرف محمد إلى غرفة وجناته وأزواجه، ثم ينفرد عز وجل بربوبيته"!!

إذا نخرج من هذا التأصيل أن السنة تأول القرآن فقط ولا تزيد عليه بله أن تخالفه، وقد يستنكر القارئ هذا المسلك أو يرفضه ولكنه عقلا هو ما ينبغي أن يكون عليه مسلكنا وليس مسلكنا هذا في رد الأحاديث بدعا من القول بل قام به العديد من الصحابة والذين ردوا أحاديث سمعوها من صحابة مثلهم لمخالفة القرآن، فإذا جاز لهم أن يفعلوا ذلك وهم في الجيل الأول فيدل ذلك على عدم قطعية خبر الآحاد وعلى جواز ذلك أيضا لنا. ونذكر للقارئ بعضا من نماذج رد الصحابة للأحاديث لمخالفتها القرآن:

روى الإمام مسلم أن عمر رضي الله عنه رد خبر فاطمة بنت قيس عندما روت أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لم يجعل لها نفقة ولا سكنى، فقال رضي الله عنه: "لا نترك كتاب الله وسنة نبينا صلى الله عليه وسلم لقول امرأة لا ندري لعلها حفظت أو نسيت"

روى الإمام البخاري أن السيدة عائشة رضي الله عنها ردت خبر عمر رضي الله عنه في حديث "تعذيب الميت ببكاء أهله عليه" وقالت: "رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الله ليعذب المؤمن ببكاء أهله عليه"، وقالت: "حسبكم القرآن ﴿... وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ... ۝٧﴾ [سورة الزمر, ٧] وكذا ردت خبر ابنه عبد الله في تعذيب الميت ببكاء أهله عليه، وقالت كما في صحيح مسلم: "يغفر الله

لأبي عبد الرحمن، أما إنه لم يكن ليكذب ولكن نسى أو أخطأ، إنما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم على يهودية يبكى عليها، فقال: إنهم ليبكون عليها وإنها لتعذب في قبرها"

روى البخاري ومسلم أن السيدة عائشة رضي الله عنها ردت خبر ابن عمر رضي الله عنهما الذي فيه أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم اعتمر في رجب فروى البخاري عن طريق مجاهد قال: "دخلت أنا وعروة بن الزبير المسجد فإذا نحن بعبد الله بن عمر فجالسناه، قال: فإذا رجال يصلون الضحى، فقلنا: يا أبا عبد الرحمن ما هذه الصلاة؟ فقال: بدعة. فقلنا له: كم اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "أربعا إحداهن في رجب". قال: فاستحيينا أن نرد عليه. فسمعنا استنان أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، فقال لها عروة بن الزبير: يا أم المؤمنين ألا تسمعين ما يقول أبو عبد الرحمن؟ يقول: اعتمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعا إحداهن في رجب فقالت: "رحم الله أبا عبد الرحمن أما إنه لم يعتمر عمرة إلا وهو شاهدها، وما اعتمر شيئا في رجب "اهـ.

بداهة لن يعجب هذا القول السادة أهل الحديث فسيقولون: كيف ذلك والسنة تفسر القرآن؟!، وتبين ما أجمله القرآن، أما علمت أن الحديث بالنسبة للقرآن على ثلاثة أشكال، كما روى ابن حزم في الإحكام: "قال محمد بن المسرة: الحديث ثلاثة أقسام: فحديث موافق لما في القرآن فالأخذ به فرض وحديث زائد على ما في القرآن[71] فهو مضاف إلى ما في القرآن والأخذ به فرض وحديث مخالف لما في القرآن فهو مطرح"[72]، فكيف ترد ما زاد على القرآن بحجة أنه لم يرد فيه؟

فنقول: أما مسألة أن السنة تفسر القرآن فمرفوضة تماما للأسباب التالية:

---

[71] نلاحظ أن الشيعة و الأباضية والزيدية لا يقولون بزيادة السنة عما في القرآن بل هي تابعة له وهذا صحيح تماما، ولكن نظرا لأن الشيعة لم يشترطوا التطابق بين الروايات والنص القرآني ظهرت عندهم روايات ما أنزل الله بها من سلطان تخالف النصوص القرآنية ويتأولونها على أساس أنها مندرجة تحت النص القرآني!!.

[72] مصطفي السباعي، السنة ومكانتها في التشريع.

أولا: إن السنة المفسّرة للقرآن ما هي إلاّ مفاتيح تُعينُ المتدبّر للقرآن وليست هي التدبّر، وهي بمثابة علامات ودلالات تمكّن الباحث من التأكّد من صحّة نتائج التدبّر وتُضيفُ له بعداً آخرَ أو تفتح له طريقاً آخرَ للتدبّر. فهي نصوصٌ لا تفسّر القرآن وإنّما تشير إلى أبواب تفسيره.

ثانيا: إنّهم قد اجمعوا على أن السنّة يتطرّق إليها الشكُّ في النصّ نفسه وفي سنده. وأمّا القرآن فلا شكّ في نسبته لله تعالى ولا شكّ في آياته وألفاظه.. فكيف يكون ما فيه شكٌّ ويحتاجُ إلى تنقيحٍ أو (تعديلٍ وجُرحٍ) مفسّراً وشارحاً لما ليس فيه شكٌّ؟!

ثالثا: إذا فسرت السنة القرآن كانت بمثابة الحاكم عليه، والمبينة له وهو ما يخالف النصوص الواردة في عرض السنة على القرآن ويخالف قول الله تعالى: ﴿... تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ ... ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل ,٨٩] فالمفترض في الكتاب أن يكون تبيانا للسنة لا العكس. سيعترض الأخوة ويقولون: لم يصح حديث في عرض السنة على القرآن، بل هي أحاديث من وضع الزنادقة؟

أما بخصوص التقسيم الذي ذكروه فنحن نوافقهم في النقطة الأولى ونخالفهم في الاثنتين الآخرتين، فليس كل ما زاد عن القرآن يمكن أن يضاف إليه، فالأحكام العملية من الممكن أن تضاف إليه لاندراجها تحت عمومات القرآن ولأنه يكتفي فيها بالظن الغالب ولأنها قد تدخل في باب النوافل، أما كيف تضاف العقائد إلى القرآن؟ إذا لا يمكن أن يكون هناك أي توسع في الإيمانيات أو أن تُدرج تحت عمومات! فالأحكام العملية فيها نوافل ومكروه وواجب أما في الإيمانيات إما إيمان أو كفر، إما كلام عن الله على بينة أو تقول على الله يدخل تحت الوعيد الشديد ﴿... وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأعراف ,٣٣].

أما الصنف الثالث: وهو الحديث المخالف للقرآن فنرى أن الفقهاء والمفسرين خالفوا القاعدة التي قالوا بها فقبلوا الحديث الذي ينسخ القرآن! ورأوا أنه لا يخالف القرآن!

ولست أدري كيف يتوقعون أن يأتي الحديث المخالف؟! هل سيقول لهم: أنا مخالف للقرآن! أم ماذا؟

أما مسألة أن السنة تخصص ما عممه القرآن وتعمم ما خصصه القرآن أو تنسخ القرآن أو توضح ما أبهمه القرآن فليس عندنا بشيء ولقد وضحنا في كتابنا السابق كيف أن السنة تخضع للقرآن تماما ولا تزيد ولا تخصص ولا تعمم، ومن أراد التفصيل فلينظره هناك.

لذا نحن نسأل السادة العلماء: كيف أصف الله تعالى بصفات مستندا إلى دليل ظني؟ هل يكفي أن أسند القول إلى النبي المعصوم لأرفع من على كاهلي الوزر؟ سيكون الرد: نعم يمكنك ذلك. سنقول: سنغض الطرف عن ظنية خبر الآحاد ونسأل: إذا كان يمكنني ذلك استنادا على السنة، فعلى أي سنة أستند؟ أأستند إلى سنة أهل السنة أم أستند إلى سنة الشيعة الإمامية أم إلى سنة الشيعة الزيدية أم إلى سنة الإباضية؟ فكل فرقة تدعي أن ما لديها هو السنة الصحيحة ولا تأبه بما عند غيرها. سيقول السني: طبعا، السنة الصحيحة لدينا فنحن لدينا أدق منهج في نقد الأخبار. سنقول: على الرغم من أن منهجنا حازم إلا أن تركيزه أكبر ما يكون على الرجال، إذ لا بد من رد الأخبار التي ترد عن طريق الفسقة والكذابين وأصحاب الأخلاق المذمومة وهذا حسن، ولكن لنا أن نسأل: لم لم تؤخذ أحاديث الإباضية وهم من هم في الصدق وعدم الكذب ولم لم تؤخذ أحاديث الصادقين من الشيعة أصحاب الأخلاق الحميدة والسلوك المستقيم؟

إذا قلت إنهم مبتدعون، سيكون قولك هذا من "الدور"، فعلي أي أساس استندت في قولك بابتداعهم؟ فأنت استندت إلى بعض الروايات التي صحت عندك في تفسير بعض الآيات وفي التنبؤ ببعض الأحوال فرأيت أنهم مخالفون فرددتهم، وهم استندوا إلى بعض الأحاديث والتي صحت ايضا عندهم –طبقا لمعاييرهم– فبدّعوكم أنتم أيضا. والله لم يأمر برد أحاديث طائفة معينة وقبول أخرى أو بمنهج معين في قبول الأحاديث بل يقبل فقط قول الصادق، فكان ينبغي أن تُقبل كل الأحاديث الواردة عن طريق الثقات من كل

الفرق وعلى أساسها يمكن القول إن هذه هي سنة النبي المعصوم ولكن الاستناد إلى العقيدة –المستندة إلى الروايات!!!– أدى إلى نتائج عجيبة في التعامل مع تصحيح الحديث أو تضعيفه فوجدنا تضعيف ثقات المخالفين وتوثيق ضعفاء الموافقين ومن ذلك: تضعيف ثقات الشيعة تضعيف سائر المخالفين من العلماء كعلماء المرجئة والقدرية والمعتزلة وتضعيف القائلين بخلق القرآن أو المتوقفين وتضعيف من يخالفونهم في بعض المسائل حتى ضعف بعضهم البخاري ومسلم.

وعلى الرغم من عدم اعتراف كل فرقها بما لدى غيرها من الفرق لاختلافهم في منهجية قبول الحديث، فنجدهم في نهاية المطاف يلجأون إلى القرآن في تضعيف ما عند الآخرين، فنجد أن أهل السنة يضعفون ما عند الشيعة استنادا إلى مخالفته للقرآن، ويشنع الشيعة على أهل السنة مخالفتهم للقرآن استنادا على بعض الروايات والتي لم تصح عند الشيعة بداهة وهكذا الحال مع كل الفرق في تعاملها مع روايات الفرق الأخرى.

عرض السنة على القرآن

لماذا إذا هذا الإصرار من أهل السنة على عدم عرض الحديث على القرآن؟

أولا: يحتجون بأن الأحاديث الواردة في ذلك لم تصح، حتى أنه روي عن يحيي بن معين وعبد الرحمن بن مهدي في شأن أحاديث العرض "هذا حديث وضعته الزنادقة".

ثانيا: وجود بعض الروايات التي صحت عندهم والتي يوجد فيها بعض الأحكام الزائدة على القرآن، فإذا أخذوا بهذا المنهج سيضطروا إلى رد هذه الروايات.

ثالثا: دفاع أهل الحديث عن منهجهم وتمسك التلاميذ بما وجدوا عليه الشيوخ فإنه يعز على الدراسين أن يتنازلوا عن نقطة خلاف جوهرية مع الفرق الأخرى[73]. فكل أتباع مدرسة يرون أن مذهبهم ونهجهم هو الموصل إلى اليقين. فأنا مثلا أرى أن الصياغة القرآنية الربانية المحكمة قمة في البيان والوضوح والدقة في اختيار الكلمات والتي لا فوضى فيها أو عبثية أو ترادف، لذا فأنا أحكم القرآن في السنة. أما عند هؤلاء فالقرآن به حشو وزيادة ومترادفات وتقديم وتأخير وقلب وكلمات ليس لها مدلول وكلمات عامة وليست كذلك، المهم أنه نص فوضوي –مثل كل اللغة– لذا لا بد من الاحتكام إلى الأخبار المحكمة التي توضح المراد من هذه الفوضى، لذا الحل الأكيد هو في اللجوء إلى السنة حتى نضمن عدم الزلل في التعامل مع النص القرآني الذي يحتاج تدبره إلى ما لا يمكن الوصول إليه أبدا إلا عن طريقهم هم.

وردا على أقوالهم هذه نقول[74]:

أولا: علم مصطلح الحديث لا يمكن أن يصل إلى درجة اليقينية بأي حال، فهو يشتمل على بعض نقاط الضعف التي لا يمكن تجاوزها مهما أصل المؤصلون أو حاول المدافعون تقويتها أو رأب صدعها، وسنذكر للقارئ بعضا من نقاط الضعف هذه، وأرجو أن لا يسيء الأخوة فهم هذا العنصر الذي سنذكره على باب السرعة، فليس الغرض منه الطعن في السنة أو ما شابه فأنا كما ذكرت سابقا من الداعين إلى تطبيق السنة العملية والمتحمسين لذلك، والخلاف بيننا حول السنة العقيدية والمُهمشة أصلا، ولكن لما كان بعض إن لم يكن جل دارسي علم الحديث من المتعصبين لمذهبهم أيما تعصب والمنكرين على غيرهم أشد الإنكار لدرجة تصل إلى استحلال الخوض فيهم وسبابهم،

---

[73] لا نريد أن نقول أن للهوى دور في ردة فعلهم هذا فالله أعلم بمكنونات الصدور ولكن سيطرة المنهج جد كاسحة فأنا مثلا أعد نفسي من المدرسة اللغوية والتي ترى القطع الجازم في اللغة، وبداهة في اختيار ألفاظ القرآن من لدن الرحمن لذا فنحن نقدم حروف القرآن على روايات السنة والشيعة معا ومهما حاول غيري أن يقنعني بقوة الروايات فمذهبي الذي أطلت دراسته مترسخ في ذهني وعقلي وقلبي ومقتنع به تمام الاقتناع ومن الصعب جدا أن أتزحزح عنه.

[74] نحن نعاملهم انطلاقا من منهجم من باب إلزام الخصم بما يقول، أما طبقا لمنهجنا فالحديث تابع للقرآن، نابع منه متطابق مع قوله تعالى: ﴿... تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ... ﴿٨٩﴾﴾ [سورة النحل ,٨٩ [ولا يوجد خلل كبير في السند فالحديث صحيح صحيح.

ومن يقرأ كتب مصطلح الحديث لكتّابنا المعاصرين يجدها تُستفتح بصفحات كاملة من السب والذم والطعن وليس هذا من خلق الدين في شيء، لذا نُذّكر الأخوة دارسي علم الحديث أن علمهم هذا علم مؤسس على تأصيلات واجتهادات بشرية لا بد أن يصيبها الخطأ والسهو والتعصب، لذا نرجوا أن يفهم من يقرأ هذا العنصر أنه من باب التذكير وليس الطعن أو الدعوة للتنازل عن السنة ولكنه من باب التذكير بكلمة حق:

علم المصطلح كله ظني لاستناده على العناصر التالية:

1- ظنية أسماء الرواة: فإذا نحن فحصنا أسماء الرواة سنجد أنها كلها تقريبا معتمدة على ذات المنهج الروائي الظني وهو خبر الآحاد، فكيف يصير المظنون قاطعا باعتماده على مظنون مماثل؟!

2- ظنية منهج الاعتماد على جرح وتعديل الرجال: نحن نسأل علماء الحديث: هل كلفكم الله تعالى فحص أسماء نصف مليون مسلم رووا الأحاديث، أم أنكم اجتهدتم فرأيتم أن هذا أسلم طريق لفرز الأحاديث؟ إذا كنتم ترون أن هذا المنهج من عند الله فأخرجوا الدليل على ذلك! وطبعا لا يوجد بل هذا اجتهاد، فما المانع في قبول منهجنا بدلا من تبدعينا أو تفسيقنا؟

3- بدأ فحص أسماء الرجال متأخرا، فقد روى مسلم بصحيحه عن ابن سيرين قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فيُنظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم"، وقال البغدادى بتهذيب الكمال: "أول من تكلم في الرجال شعبة بن الحجاج، ثم تبعه يحيى بن سعيد القطان، ثم تبعه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وشعبة هذا توفي سنة 160 بعد الهجرة!

4- لا يمكن لأحد أن يدعي التجرد التام في الأحكام فهذا لا يحدث في دنيا البشر، وعلماء الحديث يرون مواقف لبعضهم أدت بهم إلى الخطأ في الحكم، فعلى سبيل المثال: رفض النسائي الرواية عن الإمام أحمد بن صالح لرفض الأخير تحديثه، وقال عنه النسائى: "ليس بثقة ولا مأمون"، وذكر أن يحيى ابن معين قال عنه: "كذاب

يتفلسف". قال ابن حجر: "استند النسائى في تضعيفه إلى ما حكاه عن يحيى بن معين، وهو وهم حمله على اعتقاده سوء رأيه في أحمد بن صالح". ثم ذكر ابن حجر أن سبب تحامل النسائى على أحمد هو أن الأخير رفض أن يحدث النسائى لصحبته لقوم من أهل الحديث لايرضاهم أحمد؛ فشنع النسائى عليه من بعدها!

5- اعتراف علماء الحديث بوقوع الخطأ منهم، فهم وإن لم يعترفوا فهم بشر وينبغي أن نؤمن بوقوع الخطأ منهم ولكنهم والحمدلله كفونا ذلك واعترفوا بأنفسهم بوقوع الخطأ منهم ومن ذلك: قال يحيى بن معين: "من قال: إنى لا أُخطئ في الحديث فهو كذاب"، وقال سفيان الثورى: "ليس يكاد يفلت من الغلط أحد" وقال أيضًا: "لو أردنا أن نحدثكم بالحديث كما سمعناه ما حدثناكم بحديث واحد..." وسأل سليمان الدمشقى عبد الرحمن بن مهدى: أكتب عمن يغلط في عشرة؟ قال: نعم! قال: يغلط في عشرين؟ قال: نعم! قيل: فثلاثين؟ قال: نعم! قيل: فخمسين؟ قال: نعم![75]" اهـ

وقد أقرّ أبو سليمان الخطابي بهذه الإشكالية حين قال: "وليس كل الرواة يراعون لفظ الحديث حتى لا يتعدوه، بل كثير منهم يحدث على المعنى، وليس كل منهم فقيه" بل واعترفوا بوقوع الخطأ والنسيان من الصحابة –وهذا هو المنطقي الذي لا يحتاج إلى تفكير، وقد اعترف ابن خزيمة في كتاب التوحيد بجواز نسيان الصحابة لبعض الأحاديث حيث قال: "فأصحاب النبي ربما اختصروا أخبار النبي، إذا حدّثوا بها، وربما اقتصّوا الحديث بتمامه، وربما كان اختصاراً بعد الإخبار، أو بعض السامعين يحفظ بعض الخبر، ولا يحفظ جميع الخبر، وربما نسي بعد الحفظ بعض المتن".

6- عدم تطبيق معاير الجرح والتعديل بدقة وهذا في كل الفرق فنجد التساهل مع الشيوخ الموافقين والتشدد مع المخالفين في المذهب: وهذا واضح عندنا في نقد ورد روايات بعض ثقات المعتدلين من الإباضية والشيعة، وقبول بعض المجروحين من أهل السنة.

---

[75] عبد الله الجديع, تحرير علوم الحديث –بتصرف–.

كانت هذه بعض النقاط السريعة نقدمها للأخوة دارسي الحديث نذكرهم من خلالها ببشرية قواعد وأصول وتطبيق علم مصطلح الحديث وأنه حتما ولزاما لا بد أن يدخله الخلل والعوج لاعتماده على البشر، أما إذا نحن طبقنا المنهج النبوي المنطقي في عرض الحديث على القرآن مع تطبيق منهج الجرح والتعديل انطلاقا من حاكمية القرآن على السنة وليس العكس كما قال بعض السادة الفقهاء مثل قول يحيى بن كثير: "السنة قاضية على الكتاب، وليس الكتاب قاضٍ على السنة". وقول الامام البربهاري: "إن القرآن الى السنة أحوج من السنة الى القرآن"، وبذلك نصل إلى منهج دقيق سليم محكم في التعامل مع الأخبار النبوية. ثانيا: وردت بعض الروايات الصحيحة عند أهل السنة في مسألة عرض الأحاديث على القرآن و تم تجاوزها والإعراض عنها لمخالفتها منهجهم، مثل: "روى ابن عساكر في (تاريخ دمشق)، من طريق أبي كريب، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود، عن زر بن حبيش عن علي بن أبي طالب، قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: "إنها تكون بعدي رواة يروون عني الحديث، فأعرضوا حديثهم على القرآن، فما وافق القرآن فخذوا به، وما لم يوافق القرآن فلا تأخذوا به"

وهذا حديث صحيح الإسناد حسب قواعد المحدثين، فرجاله من الحفاظ الثقات، الذين اعتمد روايتهم أصحاب الصحاح وغيرهم، (...) رواه الطبراني في المعجم الكبير، من طريق يزيد بن ربيعة، حدثنا أبو الأشعث، عن ثوبان: أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "ألا إن رحى الإسلام دائرة" قال ثوبان: فكيف نصنع يا رسول الله؟ قال: "اعرضوا حديثي على الكتاب، فما وافقه فهو مني وأنا قلته" ضعف المحدثون هذه الرواية بيزيد بن ربيعة الدمشقي، قال الهيثمي في مجمع الزوائد: متروك منكر الحديث. ولكن الذي يظهر أنهم لم يتركوا روايته على كل حال، ولكنهم استنكروا ما انفرد به فقط، أما ما وافق فيه غيره فيمكن قبوله، قال ابن حبان في المجروحين: "روى عنه أهل بلده، وكان شيخاً صدوقاً إلا أنه اختلط في آخر عمره فكان يروي أشياء مقلوبة، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وفيما وافق الثقات فهو معتبر به لقدم صدقه قبل

اختلاطه". وقال ابن عدي في الكامل: "لا اعرف له شيئا قد جاوز الحد فأذكره، وأرجو أنه لا بأس به". وقال أبو مسهر: "كان يزيد بن ربيعة تقياً غير متهم"." اهـ[76]

هذا بالإضافة إلى ورود هذا الحديث عند الإباضية، وهم غير متهمين بالكذب عند أهل السنة، فلقد ورد عندهم حديث العرض وهو كالتالي: روى الربيع بن حبيب في مسنده، عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: "إنكم ستختلفون من بعدي، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله، فما وافقه فعني وما خالفه فليس عني".

هذا بالإضافة إلى أن الصحابة وهم في قرب من عهد النبي المعصوم قاموا بتطبيق هذ المنهج فنجد أنهم كانوا يقومون بعرض الحديث على القرآن، فعلى سبيل المثال: وروي عن ابن مسعود أنه قال: إذا حدثتكم بحديث أنبأتكم بِتَصْديق ذلك من كتاب الله تبارك وتعالى، إن العبد إذا قال: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وتبارك الله، أخذهن مَلَك فجعلهن تحت جناحه ثم صَعَد بهنَّ فلا يمر على جمع من الملائكة إلا استغفروا لقائلهن. ثم قرأ عبد الله: ﴿... إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ ... ١٠﴾ [سورة فاطر, ١٠].

وذكر السيوطي في مفتاح الجنة عن ابن عباس قال: إذا حدثتكم بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلم تجدوا تصديقه في الكتاب، أو هو حسن في أخلاق الناس، فأنا به كاذب" وأخرج أبو يعلى: "من صام ثلاثة أيام من كل شهر فقد صام الدهر كله". فقال: قد صمت ثلاثة أيام من كل شهر فلي الشهر كله ووجدت تصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ... ١٦٠﴾ [سورة الأنعام, ١٦٠].

وبخصوص النقطة الثانية وتبعا لمنهجنا فنحن نرفض في مجال الإيمانيات –العقائد–

[76] محمد يحيى سالم عزان، مقال عرض الحديث على القرآن منهج رائد في صيانة السنة النبوية.

التي لا ذكر مباشر صريح لها في القرآن –بخلاف الأحكام العملية التي يقبل فيها التعميم واندراجها تحت الأصول القرآنية ووجود الوسطية فيها بخلاف الإيمانيات التي إما كفر بواح أو إيمان صراح–، ونرد الأخبار الزائدة ولا حرج في رد بعض عشرات الأحاديث التي أدت إلى تفرق المسلمين وتشرذمهم والتي تخالف العقل وكتاب الله، وموقفنا هذا نابع من رغبتنا في الاستناد إلى اليقين عند الكلام عن الله عز وجل بالإضافة إلى ما رأيناه في كتب العقائد، فما زادت تلك الروايات الزائدة عن القرآن في باب الحديث عن الله إلا كل نقص ونقض وتجسيم، وأنا أتحدى الأخوة التي يقبلونها أن يأتوني برواية واحدة لا تُجسم ولا تناقض العقل ولم يتمحكوا من أجل قبولها! فلقد احتوت –ولا تزال تحتوي– كتب العقائد كثيرا من العقائد التي تصف الله عز وجل بما لا يليق من الصفات! وما ذلك إلا لقبولهم تلك الروايات الظنية الزائدة عن القرآن – وجعلها كافية بمفردها[77] –التي تدل على التجسيم أوضح الدلالة والتي يفهمون النصوص القرآنية على أساسها، ومن نماذج هذه الطوام التي بنيت على أسسها –بدلا من القرآن المبين– كتب العقائد صفات الله عزوجل الأحاديث القادمة:

جاء في طبقات الحنابلة: روى عبد الصمد بن يحيى الحنبلي قال: قال لي شاذان: اذهب إلى أبي عبد الله –أحمد بن حنبل– فقل: ترى لي أن أحدث بحديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال: (رأيت ربي عز وجل في صورة شاب)؟! قال: فأتيت أبا عبد الله فقلت له: فقال لي: قل له: تحدث به، قد حدث به العلماء"

وروى عبد الله بن أحمد في السنة –وكل الروايات القادمة من نفس الكتاب– أن الله يقول لداود عليه السلام يوم القيامة: إدنه إدنه حتى يضع بعضه عليه!! وفي لفظ (حتى يأخذ بقدمه)!! تعالى الله عن ذلك. –وروى أيضا بإسناده عن ابن مسعود: "إذا تكلم الله

---

(77) وعلى العكس من المنهج القرآني في الحث على إعمال العقل نجد الإمام البربهاري يقول في الكتاب المشكوك في نسبه إليه شرح السنة: "اعلم رحمك الله: أنه ليس في السنة قياس، ولا يضرب لها الأمثال، ولا تُتبع فيها الأهواء، وانما هو التصديق بآثار رسول الله (ص) بلا كيف ولا شرح، ولا يقال: لم؟ وكيف؟ والكلام والخصومة والجدال والمراء محدث، يقدح الشك في القلب، وإن أصاب صاحبه الحق والسنة".. أي لا بد أن تكون مثل أتباع الديانات الأخرى فتاخذ الدين هكذا بدون تفكر أو تدبر حتى تكون تابعا للسنة!

عز وجل سمع له صوت كجر السلسلة على صفوان"! ويتهم عبد الله بن أحمد من لم يقر بهذا بالجهمية والبدعة!! أن جلد الكافر يوم القيامة أربعون ذراعاً بذراع الجبار!!. وأن السماء ممتلئ بالله عز وجل. وأن الكرسي كالنعل في قدميه. وأن الله يطوف في الأرض. وأن الله يضع يده في يد داود! ويأمره أن يأخذ بحقوه. وأن هذه الرياح من نفس الرحمن. وأن أسباب الزلازل أن الله يبدي بعضه للأرض فتتزلزل! وأنه لا تبقى خيمة من خيام الجنة إلا دخلها ضوء وجهه ويستبشرون بريحه. وأن الوحي ينزل في السلاسل. وأنه لما تجلى للجبل: بسط كفه ووضع إبهامه على خنصره. وأنه ينزل كل عشية ما بين المغرب والعصر ينظر لأعمال بني آدم. وأنه خلق آدم على صورته هو!! وأن عرش الرحمن مطوق بحية. إلخ هذه الترهات والشركيات والأقوال المؤدية حتما إلى تجسيم الرب القدير، لذا لا عجب أن نجد أن الحافظ أبا بكر ابن العربي يقول في العواصم من القواصم: "أخبرني من أثق به من مشيختي أن القاضي أبا يعلى الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظواهر في صفاته تعالى: "ألزموني ما شئتم فاني التزمه إلا اللحية والعورة!!!" اهـ

أما بخصوص النقطة الثالثة فهو أمر مألوف ممن أدام النظر في منهج ما فلا يكاد يستطيع أحد أن يتحرر من ربقة التقليد إلا القلة النادرة التي لا تكاد تذكر، لذا فمن الطبيعي أن يكون هذا الدفاع المستميت عن المنهج كما يفعل أتباع كل مذهب.

وإذا نحن نظرنا إلى سبب الخلاف الرئيس بين المسلمين وجدناه تلك الروايات الزائدة عن القرآن والتي تدعي كل فرقة أن لها أصلا في القرآن أو أنها مقبولة ولو لم يوجد لها أصل في القرآن –كما يرى أهل السنة– وهي السنة الصحيحة التي ينبغي أن يدافع عن بيضتها فهي التي تعطي التصور الصحيح للإسلام –كأن كتاب الله كتاب أعجمي مبين!!–، فتصور معي عزيزي القارئ كيف سيكون حال الأمة لو طُبق المنهاج الصارم الذي نقول به في التعامل مع السنة –عند كل الطوائف الإسلامية–، نحن نجزم بأن الخلاف كان سيحصر في نطاق جد ضيق حيث سترد أحاديث الصفات الواردة في حق الله تعالى والتي لا أصل لها في كتاب الله والتي أدت إلى التجسيم والتشبيه وطعن أتباع

الديانات الوثنية في الإسلام. وسترد كل أحاديث الإمامة والأئمة وبركاتهم وأحوالهم والتي لا أصل صريح لها في كتاب الله إلا تخرصات الأخوة الشيعة. وكذلك ترد أحاديث المهدي اللامنتظر عند كل من أهل السنة والشيعة ونزول عيسى وعجائب آخر الزمان. وترد كل أحاديث الأحكام العملية المخالفة لكتاب الله لدى جميع الفرق ويجعل قول الله –من خلال منهج لغوي صارم لا يقبل الفوضى القائمة– حاكما على أقوال الرجال من صحابة وتابعين لا تبعا لهم حتى ولو أدى ذلك إلى مخالفة كثير من المتفق عليه عندنا أو عند الآخر.

والحق يقال إنه لا يمكن أن تتنازل أي فرقة عما لديها من أحاديث من أجل كتاب الله لأن جل الفرق تحكم الروايات في كتاب الله، كما أنها تراها من الهدي النبوي فكيف يُترك من أجل أفهام لبعض الأفراد في كتاب الله؟! وإذا حدث وتنازل ورد بعض كبار العلماء بعض الأحاديث المفرقة للمسلمين والمخالفة لكتاب الله تعالى ستجد كثيرا من الغوغاء الذين يحسبون أنفسهم الذابين عن بيضة الإسلام يهاجمون فعلهم ويرمونهم بالتقصير والضعف في الإيمان ثم يركزون على إبراز هذه النقاط للعوام مما يجعلها من أسس الإيمان عندهم، ونحن نرى هذا بكل وضوح عندنا وعند الإخوة الشيعة، فلا يرتفع صوت للوحدة إلا ويرتفع أمامه مئات أصوات داعية للفرقة، ظانة بذلك أنها تدافع عن دين الله.

كذلك لا بد من الإقرار أن الالتزام بأخذ العقائد من كتاب الله فقط مطلب نظري جميل عسير التطبيق، فالإيمانيات وإن كانت معروفة والعامي نفسه يفصل ويعرف أن هذه المسألة فقهية وتلك تاريخية وتلك عقدية ولكن التعامل مع العلماء والفقهاء والعامة يتم على ذات المستوى للثلاثة أصناف. فإذا قرأ العالم أو العامي واقعة ذات سند صحيح في السيرة النبوية أو تاريخ الصحابة فإنه "يعتقد" أن هذه الحادثة وقعت ولا شك ولا ريب، ويدافع ويمحص ويأول هذا التصرف لفاعله مع أن الرواية كما قلنا ظنية الثبوت –ومن هذا باب دخلت بعض المسائل التاريخية في الأبواب الإيمانية العقدية وهذا ما سنناقشه في الأبواب القادمة–. لذا فبجوار العقائد الإيمانية المتفق أو المختلف عليها

بين الفرق توجد بعض العقائد التاريخية والتي يُؤتى الإسلام من خلالها. وعلى الرغم من أن هذا الكتاب يناقش العقائد الإيمانية من منظور الظن واليقين فإننا نرى أنه حتما ولزاما علينا أن نتوقف لنناقش أخطر مسألة عقدية تاريخية ظنية وهي مسألة جمع القرآن. حيث يعتقد كثير من المسلمين أن الرسول مات وقد ترك القرآن مفرقا ثم جُمع في عهد الصديق من صدور الرجال والعظام وعسف النخل وبسبب هذه العقيدة التاريخية المظنونة نواجه هجوما كبيرا من أعداء الإسلام على دين الله، ويقف المسلم مكتوف الأيدي أمام هذا الهجوم تساوره الظنون على الرغم من ظنية هذه الروايات فهل هذه العقيدة التاريخية الظنية صحيحة أم أن هناك قول آخر؟ هذا ما سنناقشه في العنصر القادم ولكن قبل أن نناقش هذه المسألة نتوقف قليلا لنوضح خطورة ونتائج ترك المنهج الذي عرضناه وأخذنا به في التعامل مع الأخبار النبوية ثم نعرض لمنهج القرآنيين في التعامل مع السنة النبوية.

نتائج اتباع المناهج المخالفة

عرضنا للقارئ في العنصر المنصرم المنهج المحكم في التعامل مع السنة النبوية وقد يرى القارئ فيه هجوما على السنة أو إنقاصا لها من حقها ولكن الواقع والتاريخ يشهدان أن هذا هو المنهج الأسلم من أجل صيانة دين الله والدفاع عنه –وهو الذي لا يحتاج إلى دفاع– وحتى نوضح للقارئ فشل المناهج الأخرى نعرض للقارئ بعض النتائج الضارة لاتباع المناهج الأخرى وترك المنهج النبوي العقلي:

1– اتاحة الفرصة للمخالفين بالقول بعدم اختلاف الإسلام عن الديانات الأخرى، فدينكم يحتوي الظن المحض –في وثاقة النقل– وهي السنة المنفردة وأدياننا كذلك فما الفرق بيننا وبينكم؟! ومهما حاول أهل الحديث تبيان منهجهم في قبول الأخبار تظل الحقيقة التي لا يجادل فيها إلا هم واضحة وهي أن هذه الأخبار ظنية!

2- السماح بظهور الكثير من الفرق التي تنسب للإسلام والتي أتت بالكثير من الآراء العجيبة، وإذا فتح القارئ أي كتاب من كتب الفرق والتي تتحدث عن الفرق الإسلامية القديمة وقرأ مبادئها[78] فسيرى العجب العجاب من الأقوال الشاذة ومن التجسيم الواضح ومن الحمق الصراح، ويعجب القارئ ويحك رأسه، كيف ظهرت هذه الآراء ووجدت لها مكانا على الساحة الإسلامية؟! وتأتي الإجابة الجلية بأنه ذلك التطبيق الخاطئ بعدم فصل السنة المقترنة بالقرآن عن السنة المنفردة وادعاء بعض السلف أنها حجة بمفردها، فما أسهل على كل صاحب بدعة أن يخترع بعض الأخبار وينسبها إلى النبي وإلى الصحب الأخيار وبذلك تنشأ فرقة جديدة بمبادئ مخالفة مصادمة للقرآن وتستمر على الساحة وتدافع عن وجودها[79]. وعلى الرغم من أن معظم هذه الفرق انقرضت إلا أن بعضها لا يزال موجودا حتى الآن وإن اضطر إلى تغيير بعض مبادئه ليوافق باقي الفرق الإسلامية.

3- إتاحة الفرصة للمخالفين للقول بوجود الخرافة واللامنطق في الإسلام. فإذا نحن فحصنا الروايات التي يطعن فيها مخالفي الإسلام نجد أن جلها من الروايات التي لا أصل لها في القرآن، والتي نبعت من عقول بشرية فاستوجبت الطعن.

4- اتاحة الفرصة للمخالفين للقول باقتباس الإسلام من الديانات السابقة. فنجد من يدعي أن الإسلام خرج من عباءة اليهودية والنصرانية ويستدل على ذلك بتطابق بعض الروايات في السنة مع التوراة والأناجيل.

---

[78] على الرغم من ثقتنا أن هذه الكتب تحتوي الكثير والكثير من الأخطاء وعدم الدقة في النقل عن الفرق الأخرى ولكنها تحتوي جزءا كبيرا من الصواب في ذات الوقت لذا ننصح بقراءة كتب الشيعة القديمة حيث يظهر فيها بوضوح ما قلناه من تأليف وابتداع واضافة.

[79] ولن يفلح المنهج الحديثي المعتمد على السند في رد هذه الفرق، فإذا قلت أن مؤسس الجماعة زنديق مبتدع أتى بكذا وكذا، فلن يقبل الأتباع النقد، لأن هذا القول مبني على مخالفة المؤسس لفرقة أهل السنة فقط لا غير، وتصور مثلا رد فعل الشيعي عندما يطلب إليه سني أن يرد رواية فلان لأنه شيعي مبتدع! وإذا قال إنه يؤول الآيات فسيأتيه الأتباع بقائمة من الآيات التي أولها الفريق المعارض، وبهذا يظل الفريق على الساحة على الرغم من بشاعة ما يقول.

5- اتاحة الفرصة للمخالفين للقول بوجود الأخطاء العلمية في الدين الإسلامي. والأحاديث التي تحتوي الخرافات كثيرة جدا وتنسب إلى دين الله والله ورسوله منها براء، منها على سبيل المثال: طريقة خلق الإنسان والتي عرضت بطريقة عقيمة مماثلة تماما لخرافات التوراة[80].

6- الانقسام الكبير للمسلمين وادعاء كل فرقة أنها صاحبة الحق المتبعة للمنهج النبوي، وبداهة لدى كل فرقة أحاديثها التي تؤيد بها موقفها.

كانت هذه النقاط بعضا من أهم نتائج تطبيق المناهج المخالفة والتي لا زلنا نعاني منها حتى الآن، ومن هذه النتائج كذلك ظهور فرقة القرآنيين والتي تنكر السنة جملة وتفصيلا، وهذه الفرقة سنناقشها استثناءا هنا ونناقش دعواها المزعومة بتحقيقها اليقين على خلاف الفرق الأخرى.

القرآنيون ودعوى اليقين

كرد فعل للمنهج المتزمت والمتشدد لأهل الحديث والذي انعكس بأوضح ما يكون في تعاملهم مع المخالفين والتضييق عليهم والحجر على عقولهم باسم الدين ظهر تيار متشدد آخر هو التيار القرآني والذي يرفض السنة جملة وتفصيلا، فمن هم هؤلاء القرآنيون وماذا يقولون؟ القرآنيون باختصار هم مجموعة من المسلمين الذين رأوا أن القرآن لوحده كاف للتشريع الإسلامي وأنه تبيان لكل شيء ومعه لا يحتاج المسلم إلى شيء وأن السنة لم تحظ بالعناية التي حظي بها القرآن في النقل، ولأنها ظنية الثبوت – والدلالة- لا يمكن الاعتماد عليها حيث خلطها الكثير من الباطل وأقوال الرجال

(80) انظر رأينا في مسألة خلق الإنسان في كتابنا "لماذا فسروا القرآن؟" ففيه قول جديد.

فالاعتماد عليها شرك بالله وكتابه حيث أن كتاب الله يقيني الثبوت والدلالة فلا حاجة للسنة إذا!

ويمكن للمرء أن يقسم القرآنيين إلى معتدلين ومتطرفين، فمنهم من ينكر السنة جملة وتفصيلا في كل الأمور الدينية صغيرها وكبيرها ومنهم من يرد أحاديث الآحاد ويقبل السنة المتواترة فيصلي نفس صلاتنا ويوافقنا في الزكاة ومنهم من يرفض الزكاة بالشكل الذي نؤديه به ويتفق معنا في الصلاة. وطبعا ليس الغرض من هذا العنصر مناقشة النقاط الفقهية ولا العقيدية[81] التي يتفق فيها معنا القرآنيون أو يخالفونا فيها فليس هذا مكانه ولا الغرض منه ولكن الغرض من هذا العنصر هو الرد على القرآنيين الذين يدعون أن منهج الاعتماد على السنة بجوار القرآن أدى إلى تشتت المسلمين وتشرذمهم، أما بالاعتماد على القرآن فسيعود المسلمون إلى الوحدة كما كانوا من قبل، وككل الفرق وجدنا في القرآنيين من يدعي أن منهجهم هذا هو المنهج الأصيل الذي كان عليه المسلمون الأوائل ومنهم من لم يقل بذلك ولكنه يرى أن فعل أحد ليس حجة. ونغض الطرف عن أقوالهم ونناقش مباشرة النقطة التي يدندون ويدورون حولها وهي مسألة ظنية السنة ويقينية القرآن وهل أوصلهم منهجهم هذا إلى اليقين؟

هل اتباع السنة هو من اتباع الظن المذموم؟

الناظر في دعاوي القرآنيين يجد أنها كلها تدور في فلك أن السنة ظنية والقرآن يقيني، فلماذا نترك اليقيني من أجل الظن؟ وبداهة يمكن رد كلامهم بكل سهولة إذا قلنا أننا نتبع السنة النابعة من القرآن الخاضعة له لا الحاكمة عليه المؤولة له فاتباعنا للسنة هو

---

[81] باستثناء عقيدتهم في رفض السنة يمكن القول إن القرآنيين لم يأتوا بجديد في مجال العقيدة فهم متفقون مع أهل السنة في بعض المسائل ويخالفونها في أخر ويتفقون في هذه المسائل مع الفرق الإسلامية الأخرى مثل الشيعة والإباضية، فالاختلاف محصور في مجال الفقه والأحكام الشرعية لذا لم نفرد لها مكانا عند الحديث عن الفرق الإسلامية، فعقائد كل واحد منهم عبارة عن خليط من عقائد الفرق الإسلامية.

في الواقع هو اتباع للقرآن وليس لشيء سواه. قد يقول قائل: وعلى الرغم من ذلك سيظل الأمر يحتمل نسبة من الظن والظن مذموم في كتاب الله تعالى بكل أشكاله. فنقول: لا ليس كل الظن مذموم وليس كل اتباع للظن مذموم، فمن ينظر في كتاب الله تعالى يجد أنه تعالى يعيب على الأقوام اتباعهم للظن المحض وللهوى الخالص والإعراض عن منهجه مثل قوله تعالى: ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [سورة الأنعام, ١١٦]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ... ﴿٣٦﴾﴾ [سورة يونس, ٣٦]، ﴿... إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الـنجـم, ٢٣]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الـنجـم, ٢٨]، ولكنا نجده سبحانه وتعالى يقول: ﴿... قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [سورة آل عمران, ٩٣]، ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة المائدة, ٤٣]، ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ ... ﴿٦٦﴾﴾ [سورة المائدة, ٦٦]،

وهنا يحق لنا أن نسأل السادة القرآنيين: من المعروف بداهة أن التوراة والإنجيل محرفين وفيهما الحق مختلط بالباطل، وأما بخصوص وثاقة النقل فلا يمكن أن يقارنا بالسنة فلقد حظيت السنة بعناية لم يحظ بها واحد من الكتابين السابقين، وإذا كان الله يلوم أهل الكتاب لإعراضهم عن التوراة والإنجيل، ألا يحق لنا أن نستنتج أن ليس كل ظن مذموم بل المذموم هو الظن الخالص كما يظهر في الآيات، فمن ينظر في الآيات يجد أنها كلها تستعمل أسلوب حصر وقصر والذي ينفي وجود أي يقينية في المسألة وينفي في نفس الوقت وجود أي علم كما في آية 28 في النجم، وهذا هو الظن المذموم، أما إذا خلط الظن اليقين وكان اليقين هو الأعم الغالب فلا حرج في ذلك، وهذا هو المنهج الذي نقول به. سيقول القرآني: ولم الرضى بأي نسبة من الظن لما لا نبحث عن اليقين المطلق في الدين؟ نقول: اليقين المطلق موجود في كتاب الله ونحن والحمد لله نتبعه ونقدمه على السنن ونقيسها به، وليس السبب في اختلافنا فليس

السبب الرئيس في ذلك السنة بل هو فهم كتاب الله تعالى، أما دعواكم العريضة أن الاستغناء عن السنة والاعتماد على القرآن فقط سيؤدي إلى الوصول إلى اليقين المطلق فدعوى باطلة لأسباب عدة يشهد بها الواقع: القرآنيون أنفسهم باعتمادهم على القرآن انقسموا انقساما كبيرا في الأحكام أكبر مما انقسم إليه المتبعون للسنة فما نجدهم يتفقون في شيء، فكل تبع لعقله، فعلى الأقل نحن اتفقنا في صلواتنا وحجنا وزكاتنا وكثير من النقاط، أما إذا نظرنا إلى السادة القرآنيين فسنجد العجاب العجاب، فمنهم من يصلي مثلنا الخمس صلوات ومنهم جعل الصلاة ست صلوات ومنهم من جعلها اثنتين ومنهم من جعلها ثلاثة في وقت الفجر والعصر والعشاء ومنهم من جعلها ثلاثة في وقت الفجر والمغرب والعشاء ومنهم من جلعها ثلاثة يضاف إليها يوم الجمعة صلاة الجمعة، أما إذا بحثنا عن كيفية الصلاة عندهم فحدث ولا حرج منهم من جعلها بالوقت ومنهم من جعلها ركعتين ومنهم من جعلها ركعة واحدة ومنهم من ألغى الركوع ومنهم من جعل الركوع بشكل غير ركوعنا ومنهم من يسجد على ذقنه، ومنهم من توقف في الصلاة لأنه لم يعرف كيف يصلي.

وإذا تركنا الصلاة واتجهنا إلى أي حكم فقهي آخر سنجد مثل هذا الخلاف كذلك، فالجنابة مثلا عندهم ليس المقصود بها الجنابة عندنا بل أي شيء يجعلك تجتنب المسجد مثل القذارة الشديدة أو الثابتة أما المني فلا شيء فيه إلا الوضوء! ومنهم من جعل الجنابة هي ممارسة العملية الجنسية أما نزول المني في الاحتلام أو ما شابه فلا غسل فيه، وغير ذلك، هذا إذا غضضنا الطرف عمن قال إن الصلاة ليس المقصود بها الصلاة ولا الزكاة المقصود بها إخراج المال ومن قال إن المساجد هي معامل الأبحاث وأن الجزء المخصص لله ورسوله من المغانم ينفق فيها، وكثير من مثل هذا الهراء الذي تفلت من أي معيار يحكمه وميزان يُرجع إليه إلا عقل وهوى صاحبه ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أسباب وجوب الأخذ بالسنة –التطبيق العملي للقرآن– واتباعها

وهنا نوضح للأخوة القرآنيين أن الأخذ بالوحي التطبيقي واجب وليس بدعا من القول أو الفعل كما يدعون وذلك للأسباب التالية:

1– القرآن نفسه يعول عليها ويأمرنا بالرجوع إليها، فإذا نحن نظرنا في كتاب الله تعالى وجدناه يقول "أقم الصلاة" خمس مرات، ويقول "أقيموا الصلاة" اثنتي عشرة مرة (5 + 12 = 17 عدد الركعات)، فإذا نحن أخذنا آية المزمل –والسورة كلها من أوائل ما نزل من القرآن– التي تقول: ﴿... فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنۡهُۚ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ... ﴿٢٠﴾﴾]سورة المـزّمّـل, ٢٠[أو آية هود: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾] سورة هود, ١١٤[وسألنا الأخوة القرآنيين: كيف طبق الرسول المعصوم إقامة الصلاة، بينما لا يوجد في هذه الآية ولا في غيرها من الآيات كيفية للتطبيق؟! إذا لا بد من وجود وحي تطبيقي يؤول هذه الآيات وإلا تصبح هذه الآيات فاقدة المدلول! وعندما يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿٥٦﴾﴾] سورة النّور, ٥٦[فلا بد من أن تكون الزكاة معلومة للمسلمين، ما هي وكيف تخرج وهذا ما جاء به الوحي التشريعي في السنة، وعندا يقول الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٩﴾﴾] سورة البقرة, ١٩٩[ويقول: ﴿... فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِ ... ﴿١٩٨﴾﴾] سورة البقرة, ١٩٨[وعندما يقول: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞ ... ﴿١٩٧﴾﴾] سورة البقرة, ١٩٧[ويقول: ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ ... ﴿٢٨﴾﴾] سورة الحج, ٢٨[ويقول: ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ... ﴿٢٠٣﴾﴾] سورة البقرة, ٢٠٣[، ففي هذه الحالات كلها يحيل القرآن على الوحي التطبيقي الذي حدد لنا هذه الشهور وهذه الأيام وهذه المواقف، فالقارئ يلاحظ أن الله لم يقل مثلا: اذهبوا

إلى عرفات ثم أفيضوا منه، ولكنه يقول "فإذا أفضتم من عرفات" فمن أين عرف الناس أنهم يقفون في عرفات إلا من الوحي التطبيقي (السنة)؟! وعندما يقول "الحج أشهر معلومات" فمن أين يعرف الناس أشهر الحج إن لم يكن من الوحي التطبيقي، فلو قلب القرآنيون القرآن كله فلن يجدوا ذكرا لماهية هذه الأشهر!

2- من يقرأ قصة سيدنا يوسف يجد أن سيدنا يعقوب يقول: ﴿... قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة يوسف, ٩٦] فهذه الآية قاصمة ظهر للقرآنيين، فهي توضح أن هناك لكل نبي وحي أو إلهام من الله بخلاف رسالته التي يبثها للناس، وهذا الوحي أو الإلهام يحتوي نبؤات أو علوم طبيعية أو ما شابه، فإذا أُهملت السنة ضاع هذا العلم الذي أوحاه الله إلى النبي المعصوم، أم يعتقد القرآنيون أن النبي كان أقل من سيدنا يعقوب؟! وإذا غضضنا الطرف عن قصة سيدنا يعقوب وانتقلنا إلى قصة تحويل القبلة والتي يقول الله تعالى فيها للنبي المعصوم: ﴿... وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ... ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة البقرة, ١٤٣]، وسألنا الأخوة القرآنيين: أين هو في القرآن أن الرسول أُمر بالتوجه إلى بيت المقدس؟ سنجد طبعا إجابات عجيبة من أجل التهرب من هذا المأزق[82]، إذا فقد كان هناك وحي للنبي المعصوم بخلاف القرآن، سواء كان من باب الفتوحات أو الإلهامات، المهم أن المبدأ نفسه موجود، وحتى لا يجادل الأخوة القرآنيون نذكر لهم آية أخرى توضح بطلان قولهم بحصر الوحي في القرآن وعدم وجود غيره لاتطبيقي أو إلهامي، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ... ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٧]

---

[82] تناقشت مع أحدهم في هذه المسألة فقال لي: "جعل" بمعنى "ترك"!، أي "وما تركنا القبلة التي كنت عليها!"، وعلى الرغم من هذا الفهم العجيب الذي يصادم اللغة –والذي اتهمني أني لا أفقهها– يظل السؤال قائما: ولم اتجه الرسول إلى القبلة من الأساس، هل كان من عند نفسه أم من الله عزوجل؟!

ونسألهم: إذا لم يكن هناك أمر من الله للنبي –بأي شكل كان– بأن يأمر زيدا بطلاق زوجه، فما هو معنى الآية؟

3– أخذ القرآن بدون سنة لن يؤدي إلى الوصول إلى أي يقين ولا حتى إلى ظن مرجوح بل سيؤدي إلى فوضى عارمة، نشاهد أثارها الآن على أيدي القرآنيين، فلقد تحرروا تماما من أي قواعد وقيود في التعامل مع النص القرآني، وبعد أن كان المسلمون يأنون في الماضي من التفسيرات الباطنية للنص القرآني التي أتي بها أتباع الديانات الأخرى والفلسفات الغريبة، أصبحنا نحن نشتكي من أمثال هذه التفسيرات الغريبة المريبة والتي تدعي هذه الأيام بكل وقاحة أنها تأخذ بظاهر القرآن! ولست أدري عن أي ظاهر يتحدثونَ؟! فهم تركوا معان اللغة والتطبيق النبوي وانطلق كل واحد بشطحاته يؤصل لدين على مقاس عقله وهواه ويدعي أن هذا الدين هو ما جاء من عند الله تعالى! ولن نصدع أدمغة القرآن بأمثلة لما يقولون، حيث أن اللغة متهاوية تماما مع هؤلاء، فليس الصوم امتناع عن أكل وشرب وليس الوضوء غسل وليس رمضان هو رمضاننا هذا وليس الخنزير حيوان! وكثير من أمثال هذا الغثاء الذي لا ينبغي للإنسان أن يشغل به باله، والغريب أنهم مصرون على أنهم يأخذون بالقرآن فقط!

<u>وهنا كان دور السنة الحاسم في قطع دابر هؤلاء</u>، فالقرآن نص لغوي مبين محكوم بمفرداته وبمدلولاتها التي يعرفها الناس، والتي كانت السنة –بصحيحها وضعيفها– أكبر شاهد موثق على استعمال هذه المفردات اللغوية بتلك المعاني في تلكم الأزمنة بشكل مخصوص، ولولا السنة لقال أي إنسان في معنى أي كلمة ما يشاء بدون حاكم، فإذا كانت المعاجم غير دقيقة والسنة غير صحيحة ومخترعة ووحي شيطاني! فلا يبقى للإنسان المسكين إلا عقله ومجموعة كلمات –القرآن– يفهمها كما يظهر له عقله العبقري! ولتذهب الأمة كلها سنة وشيعة وإباضية إلى الجحيم فكلهم على ضلال مبين إلا هو فهو يوحى إليه –منهم من ادعى ذلك– أو على درجة قريبة جدا من ذلك، فهو ملهم سيأتي للأمة بما لم تستطعه الأوائل، فهي مجموعة من الغافلين ولا حول ولا قوة إلا بالله. فكما أن الأخذ بالسنة له دور هام في إقامة سياج حام حول ألفاظ القرآن

فكذلك له دور جد هام في تحديد تطبيقات القرآن –حتى المبينة في القرآن!– منعا للخلاف، فكما قلنا أن القرآن نص جلي مبين، ولكن الأخوة المجادلين لا عد لهم، فإذا قلت لهم أن هذا يعني كذا وكذا فسيقول لك: لا، يحتمل أن يعني كذا وكذا ويستمر الجدال إلى ما لانهاية! ولكن عندما أقول أن النص يعني كذا وكذا وهذا واضح من السياق وهذا ما طبقه النبي المعصوم وتنقله المسلمون ولم نسمع بغيره، فلن يجادل إلا مكابر –وهذا ما يفعله القرآنيون–، وسيقفل هذا باب كبير للاختلاف وهذا ما حدث فعلا في تاريخ التشريع الإسلامي، فهناك الكثير من الآيات كانت تحتمل أن تفهم بأكثر من شكل، فلما طبقها النبي المعصوم وتناقلها المسلمون على اختلاف طوائفها بنفس الشكل عُلم أن هذا هو التأويل النبوي للأيات وقبلناه على العين وعلى الرأس، وبذلك امتنع الخلاف في هذه المسألة ولم يبق إلا الخلاف في المسائل الفرعية التي استجدت أو اخترعها الناس، فعلى سبيل المثال نجد قول الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖ ... ﴿٢٢٩﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٢٩]، ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ ... ﴿٢٣٠﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٠] وبداهة نعرف كلنا ما تعنيه هذه الآيات من أنها تدور حول تشريع الطلاق وعدد مراته، وكل المسلمين متفقون في ذلك، ولكن يأبى القرآنيون إلا أن يخالفوا إجماع الأمة –السنة والشيعة والإباضية وكل الفرق– ويأتوا بتفسير جديد للآيات ويدعوا أن هذا التأويل المقبول عند كل المسلمين باطل. والحق يقال إن تفسيرهم الذي أتوا به –والذي لن أذكره– ليس جد بعيد أو غريب ولكنه في نفس الوقت غير كاف لجعل التأويل الأول –بدون وجود السنة– باطلا، فما بالنا والمسلمون مطبقون على هذا التأويل النبوي الموجود عند كل الفرق؟!

في نهاية المطاف نخلص إلى أن دعواهم بتحصيل اليقين من خلال القرآن فقط فدعوى يكذبها الواقع، فأتباع السنة مع القرآن اتفقوا على أساسيات واختلفوا في فروع، أما هم فلم يتفقوا في أي شيء، بدءا من الصلاة وانتهاءا بالشهادة –منهم من يرى أنها: أشهد أن لا إله إلا الله، ومنهم من يضيف إليها وأن محمدا رسول الله!–، ثم هم يرموننا في

نفس الوقت بالشرك والكفر! فما الفارق بيننا وبينهم إذا؟ إذا فاتباع المنهج القرآني يعني اتباع للعقل والهوي بدون ضوابط إلا عبقرية الشخص ذاته! ويؤدي في نفس الوقت إلى وقوع الشك في نفس الإنسان المسلم في صيانة القرآن وحفظه، فإذا كانت الصلاة والصيام والزكاة والحج والشهادة والطلاق والزواج وكل الأحكام تقريبا حرفت، بل إن اللغة نفسها حرفت! فما الذي يمنع إذا من حدوث التحريف في القرآن نفسه؟! وما الذي يؤكد أن المعنى الذي يفهمه الإنسان نفسه صحيحا؟! وما الذي يمنع من أن يكون كل ما قرأه الناس في تاريخ العالم مزورا محرفا؟!! إن المنهج القرآني المطلق لم يؤد إلى اليقين بل إلى وقوع الإنسان في فوضى الشك والظن واللاأدرية وإلى تبعية القرآن للعقل وليس العكس، والواقع خير دليل. وبعد أن انتهينا من ابطال دعوى القرآنيين الاعتماد على القرآن فقط وترك السنة بكل أشكالها، المتواتر منها وغير المتواتر، الموافق منها للقرآن وغير الموافق، نعود لتفنيد العقيدة التاريخية الباطلة: عدم جمع القرآن في عصر النبي المعصوم.

العقيدة التاريخية الباطلة: عدم جمع القرآن في عهد النبي(ص)!

من المسلمات عند عوام وعلماء أهل السنة أن النبي المعصوم كان في مجتمع ندرت فيه القراءة والكتابة وكان هو مثل الأغلبية الساحقة[83] لا يستطيع القراءة والكتابة – أمي!– وبسبب ذلك كان له الكثير من كتبة الوحي الذين كتبوا القرآن، وكان هذا القرآن مفرقا بين اللخاف والعظام والجلد ... إلخ من العناصر البدائية. ولحرص النبي المعصوم على عدم ضياع القرآن ولقلة الكتبة اهتم بأن يحفظ القرآن الكثير والكثير من الصحابة ولكنه لم يجمعه بل تركه مفرقا في هذه المواد البدائية ولكنه كان مجموعا في

[83] جاء في بعض الروايات أن الإسلام عندما جاء كان في قريش سبعة عشر رجلا فقط يكتبون وفي المدينة حوالي إحدى عشر رجلا! وهذه الروايات مرجوحة ومغلوطة، فمن ذكرها تكلم بما عرف وأحاط به علما لا أنه كان يتكلم باسم الهيئة العامة للإحصاء بمكة والمدينة وهذا ما سنراه حالا.

صدور الصحابة ثم حدثت عملية الجمع في مصحف واحد بعد النبي المعصوم، واخُتلف في عملية الجمع هذه، فمنهم من قال: 1- إن الجمع كان في عصر النبي (صلى الله عليه وآله). 2- إنه جمع في عهد أبي بكر، بمعنى أنه جمع من الصحف المتفرقة، أو جمع من صدور الرجال بشهادة شهود. 3- إنه جمع في عصر عمر بن الخطاب. 4- إن ابتداء جمعه كان في عصر أبي بكر، وتمامه كان في عصر عمر. 5- إنه جمع في عهد عثمان. والمشهور عند عوام وعلماء أهل السنة هو الرأي الثاني أي أنه جمع في عهد أبي بكر رضي الله عنه، ولكن هل هذا صحيح؟

لما كان منطلقنا في هذه العقيدة التاريخية منطلقا قرآنيا فنحن نرفض هذا التصور تماما وننطلق من منظور آخر يتم معه إعمال آيات القرآن في تخليد وتوصيف هذا الواقع التاريخي الذي ينبغي أن يكون معلوما لكل مسلم، لذا فنحن نرى: أن النبي المعصوم هو من كتب القرآن بيده الشريفة بهذا الخط الإعجازي منقوطا وليس أحدا سواه وأن دور كتبة الوحي كان منحصرا في نقل ما كتبه النبي لا أكثر وأن النبي ما انتقل إلى رفقة الرب العلي إلا بعد أن كان القرآن مجموعا في مصحف واحد ولم يكن هذا المصحف هو المصحف الوحيد الموجود بل كان هناك العديد من المصاحف الموجودة والتي تتراوح بين أربعة مصاحف إلى تسعة عشر مصحف أو أكثر.

قد يبدو هذا التصور جد غريب على آذان القراء ولكنا سنوضح للقارئ ببعض التوضيحات السريعة الموجزة أن ما تصوره عن حالة العرب ووضع الرسول تصور غير صحيح تماما.

أولا: التصور الشائع أن الكتبة في مكة كانوا قلة جدا حتى أن هناك من أحصاهم بسبعة عشر رجلا تصور خاطئ فاستنادا إلى روايات أخرى جاوز عددهم الخمسين رجلا، ونحن نرى أن القراءة والكتابة كانت أمرا مألوفا في مكة والمدن العربية يقبل عليها نسبة معقولة من الرجال الأحرار فقراء كانوا أو أغنياء وليس كما تصور الروايات من ندرة للقراء، ونضرب مثالين فقط على ما نقول نوضح بهما الخطأ التام لهذا التصور: المثال الأول

نجده في سيرة ابن هشام حيث يروي –بالإضافة إلى أن عبد المطلب كان كاتبا: "وكان عبد المطلب بن هشام قد نذر حين لقي من قريش ما لقي عند حفر زمزم، لئن ولد له عشرة نفر، ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرنَّ أحدهم عند الكعبة، فلما توافي بنوه عشرة. وعرف أنهم سيمنعونه، جمعهم ثم أخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء للّه بذلك، فأطاعوه وقالوا: كيف تصنع؟ قال: ليأخذ كل واحد منكم قدحاً ثم يكتب فيه اسمه، ثم ائتوني، ففعلوا... وفي طبقات ابن سعد: فقال: "ليكتب كل واحد منكم اسمه في قدحه، ففعلوا..."، فها نحن ذا نرى عشرة من الأخوة كتبة في بيت واحد! من مكة.

المثال الثاني: الحادثة الشهيرة التي نعرفها كلنا وهي أنه لما كان بعض فقراء أسرى بدر من المشركين لا يستطيعون أن يدفعوا الفداء أمرهم النبي المعصوم أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة القراءة والكتابة ويكون ذلك فداءا عنه. فنلاحظ من هذا المثال أن هناك من فقراء قريش من يعرف القراءة والكتابة فليس الأمر محصورا على السادة والعظماء، ثم نرى أن النبي المعصوم يأمر بتعليم القراءة للصبيان وليس للكبار، فلو كان القراء في المدينة فقط إحدى عشر رجلا فقط كما تدعي الروايات لكان من الأولى تعليم الرجال الذين يباشرون العقود والعهود ويحتاجون إلى الكتابة في تعاملهم بدلا من تعليم الأطفال.

وبالإضافة إلى المثالين السابقين نجد أن المسلمين كانوا يتبادلون الرسائل بشكل مألوف ولم يكن الأمر نادرا، فينقل الواحدي في سبب نزول الآية: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾] سورة العنكبوت ,١-٢[قال: قال الشعبي: نزلت في أناس كانوا بمكة قد أقروا بالإسلام. فكتب إليهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم من المدينة أنه لا يقبل منكم إقرار ولا إسلام حتى تهاجروا. فخرجوا عامدين إلى المدينة فاتبعهم المشركون، فآذوهم فنزلت فيهم هذه الآية، وكتبوا إليهم أن قد نزلت فيكم آية كذا وكذا، فقالوا: نخرج فإن اتبعنا أحد قاتلناه فخرجوا...". لذلك يقول يوسف خليف في "دراسات في الشعر الجاهلي": "القضية التي يبدو أنها أصبحت لا تقبل جدلاً حولها، ولا شكّاً فيها، هي أن العرب في العصر الجاهلي كانوا يعرفون

الكتابة. وهي قضية ثابتة بشهادة الواقع التاريخي من ناحية. وشهادة النصوص الأدبية من ناحية أخرى، فلم تكن الجزيرة العربية في هذا العصر متخلفةً حضاريّاً بالصورة التي كان الباحثون القدماء يتصورونها، ولم تكن بمعزل عن الحضارات الأجنبية التي كانت تحيط بها من كل جانب، وإنما كانت على صلة بها عن طريق الجوار والاحتكاك المباشر. وأيضاً عن طريق تسرب عناصر منها مع القوافل التجارية النشطة التي كانت تجوب أرجاءها شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً، ثم عن طريق محاولات التغلغل السياسي والديني والتي كانت تأتي من ناحية الفرس في الشرق، والروم في الشمال، والأحباش في الجنوب"

وكذلك هناك الكثير من الآيات التي تدل على معرفة العرب بالكتابة وعدم ندرتها عندهم فنجد قول الله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفۡجُرَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَرۡضِ يَنۢبُوعًا... ﴿٩٢﴾ أَوۡ يَكُونَ لَكَ بَيۡتٞ مِّن زُخۡرُفٍ أَوۡ تَرۡقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤۡمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيۡنَا كِتَٰبٗا نَّقۡرَؤُهُۥۗ قُلۡ سُبۡحَانَ رَبِّي هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا ﴿٩٣﴾﴾ [سورة الإسراء, ٩٠-٩٣] فالمشركون يطلبون من الرسول كتابا من السماء ليقرأوه، ولم يقولوا ليقرأه كبراؤنا بل ليقرأوه وهذا يدل على انتشار معرفة القراءة والكتابة. وكذلك يقول الله تعالى ﴿وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ﴿٢﴾ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ﴿٣﴾﴾ [سورة الطور, ٢-٣] فهذه الآية توضح المادة التي كان يكتب عليها القرآن فهو كان يكتب في "رق" وكما هو واضح من الاسم فهو شيء رقيق، والرق جلد رقيق يكتب عليه أو الصحيفة البيضاء.

بالإضافة لذلك يمكننا أن نتذكر قصة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكيف قرأ الرق الذي كان يقرأ منه خباب بن الأرت –خباب الفقير المستضعف أيضا يعرف القراءة–، فهذا دليل على كتابة القرآن في مواد خام خفيفة بسيطة رقيقة. ويقول الدكتور عبد الرحمن عمر محمد في "كتابة القرآن في العهد المكي:

"نجد النبي صلى الله عليه وسلم في أحلك الظروف وأخطر اللحظات من حياته التي تمثل نقطة الانعطاف في مسيرة الدعوة الإسلامية، ألا وهي لحظة الخروج من بيته

مهاجراً إلي المدينة. وقد أحاط المشركون ببيته لينالوا منه، واستمرت مطاردتهم له، وأعلنوا عن مكافأة كبيرة لكل من يأتي به صلى الله عليه وسلم حياً أو ميتاً، مع كل هذه المخاطر نجده صلى الله عليه وسلم يحمل معه ضمن الأشياء القليلة التي حملها معه إلى المدينة كامل أدوات الكتابة، ونجد أن بعض كتاب الوحي بقوا ملازمين له وملتفين حوله لتسجيل كل آية توحى إليه، فنجد أن كلا صاحبيه صلى الله عليه وسلم في الهجرة أبو بكر الصديق وعامر بن فهيرة كانا من الكتبة المعروفين. ويدل على ذلك قصة كتاب الأمان لسراقة بن مالك بن جعشم. فقد روى البخاري في كتاب بدء الوحي، باب هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة على لسان سراقة: ... فناديتهم بالأمان، فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم. ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن اللّه سيظهر أمر رسول اللّه صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديَّة. وأخبرتهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزاد والمتاع، فلم يَرزَآني، ولم يسألاني إلا أن قال: اخف عنّا. فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر عامر بن فهيرة فكتب في رقعة من أدم، ثم مضى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم." اهـ

ويحكي الدكتور عبد الرحمن عمر محمد في نفس الكتاب كلاما يثلج الصدر فنثبته للفائدة: "يقول ابن قدامة المقدسي في كتابه "الاستبصار": قال الأموي: إن رافع بن مالك هو الذي حمل المصحف من مكة إلى المدينة. وهو لاشك كلام مجمل يحتمل معنى نقل القرآن مكتوباً، ويحتمل معنى نقله محفوظاً. (هنا طبعا يشكك ابن قدامة في مدلول كلمة "المصحف" وأنها تعني المصحف المعروف لأنه من المتعارف عليه عندهم أن المصحف لم يكن يجمع أو ينظم في عهد النبي المعصوم –المؤلف–) وينقل لنا تفصيل هذا الخبر ابن حجر العسقلاني في كتابه "الإصابة في تمييز الصحابة" بقوله: روى الزبير بن بكار في أخبار المدينة عن عمر بن حنظلة أن مسجد بني زريق أول مسجد قرئ فيه القرآن، وأن رافع بن مالك لما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعقبة أعطاه ما أنزل عليه في العشر سنين التي خلت فقدم به رافع المدينة، ثم جمع قومه فقرأ عليهم في موضعه قال: وعجب النبي صلى الله عليه وسلم

من اعتدال قبلته –ربما الصحيح قلبه–. (وفي هذا دليل على وجود أكثر من نسخة للمصحف في العهد المكي وإلا كيف يعطي النبي رافعا المصحف ويظل المؤمنون بلا كتاب –المؤلف–)... ويتبين من متابعة سيرة رافع بن مالك، أنه كان يتنقل بين مكة والمدينة قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم بين الحين والآخر، بل كان يجلس مع الرسول صلى الله عليه وسلم في مكة أحياناً. فإضافة إلى ماسبق ذكره، يقال: إنه أول من نقل عدة سور من القرآن المكي إلى المدينة، من ذلك ما حكاه ابن إسحاق: أن رافع بن مالك أول من قدم المدينة بسورة يوسف. وما ذكره ابن الأثير من: أن رافع بن مالك كتب سورة طه وقدم بها المدينة قبل الهجرة. وعليه يحمل ما جاء تحت باب حمل الآيات من مكة إلى المدينة على نقل المكتوب، ففي أغلب الأحيان يكون المقصود من حمل الآيات من مكان إلى آخر، سواء من مكة إلى المدينة أو بالعكس، أو من المدينة إلى الحبشة هو نقل المكتوب منه وليس المحفوظ. مثل الآيات الست من سورة آل عمران التي حملت من المدينة إلى الحبشة، والتي بعثها الرسول صلى الله عليه وسلم لجعفر ليقرأها على أهل الكتاب. وكذا سورة مريم، وما حمل من مكة إلى المدينة مثل سورة الإخلاص، ومن المدينة إلى مكة مثل صدر سورة براءة وآية الربا، وغيرها". هذا بالإضافة إلى الكثير من الأدلة الطافحة أن أدوات الكتابة كانت متوفرة للمسلمين وليس بالشكل التي تصوره بعض الروايات.

وإذا نحن نظرنا في القرآن وجدناه يؤكد أن النبي المعصوم كان يقرأ ويكتب وهو الذي كتب الوحي بإلهام رباني[84] ثم نسخه كتبة الوحي فيما بعد، فنجد الله عزوجل يقول: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [سورة العنكبوت, ٤٨]فالله يخاطب النبي ويذكره أنه لم يكن يتلو أو يخط كتاب

[84] أنا أرى أن النبي المعصوم لم يكن يستطيع القراءة أو الكتابة حتى أمره الله تعالى بقوله "إقرأ" فقرأ النبي المعصوم وكتب، والدليل على كون الكتابة التي كتبها النبي المعصوم كتابة إلهامية أنه كتب حروفا "مشبوكة أو متصلة" بعد أن كانت العرب تكتب الحروف بأشكال مختلفة ولكنها منفصلة، ولو حتى أخذنا بالرأي الذي يقول إنه كان يقرأ ويكتب قبل الوحي فما كانت كتابة القرآن يكتبها العرب بل أتى بها النبي على غير ذات مثال.

بيمينه، فيفهم من دليل الخطاب أنه أصبح يكتب بعد القرآن. قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥﴾ [سورة الفرقان ,٥]
ونلاحظ أن الله تعالى قال "اكتتبها" ولم يقل "استكتبها" فهذ دليل على أنه كتبها بنفسه.
قوله تعالى: ﴿رَسُولٞ مِّنَ ٱللَّهِ يَتۡلُواْ صُحُفٗا مُّطَهَّرَةٗ ۝٢﴾ [سورة البينة ,٢] فهذا دليل على أن النبي كان يقرأ الصحف للصحابة. وبالإضافة إلى الذكر المباشر لكتابة النبي في القرآن نجد في السنة ما يؤكد ذلك فنجد في البخاري: "اعْتَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذِي الْقَعْدَةِ فَأَبَى أَهْلُ مَكَّةَ أَنْ يَدَعُوهُ يَدْخُلُ مَكَّةَ حَتَّى قَاضَاهُمْ عَلَى أَنْ يُقِيمَ بِهَا ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فَلَمَّا كَتَبُوا الْكِتَابَ كَتَبُوا هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ فَقَالُوا لَا نُقِرُّ بِهَا فَلَوْ نَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ مَا مَنَعْنَاكَ لَكِنْ أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قال إنا رَسُولُ اللَّهِ وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ امْحُ رَسُولُ اللَّهِ قَالَ لَا وَاللَّهِ لَا أَمْحُوكَ أَبَدًا فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكِتَابَ فَكَتَبَ هَذَا مَا قَاضَى عَلَيْهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ لَا يَدْخُلُ مَكَّةَ سِلَاحٌ إِلَّا فِي الْقِرَابِ..."

وعند مسلم: "عنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ يَوْمُ الْخَمِيسِ وَمَا يَوْمُ الْخَمِيسِ ثُمَّ جَعَلَ تَسِيلُ دُمُوعُهُ حَتَّى رَأَيْتُ عَلَى خَدَّيْهِ كَأَنَّهَا نِظَامُ اللُّؤْلُؤِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ائْتُونِي بِالْكَتِفِ وَالدَّوَاةِ أَوْ اللَّوْحِ وَالدَّوَاةِ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ أَبَدًا فَقَالُوا إِن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَهْجُرُ"فهذه بعض أدلة من السنة.

أما الأدلة على أن المصحف كان مجموعا في عهد النبي المعصوم فهي الروايات التي تشير إلى عدد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي، وبداهة المقصود من الجمع هو الجمع وليس الحفظ إذ يستحيل أن يكون من حفظ القرآن كله هذا العدد الضئيل على الرغم من تنافس الصحابة في قراءته وحفظه وهمتهم أكثر من أي جيل آخر، لذا نحن نفهم الروايات كما تقول لا كما توحي إليه عقولنا فنفهم أن المقصود من الجمع هو الجمع وخاصة إذا كان هناك عندنا في رواياتنا الكلمة الشهيرة "مصاحف الصحابة" والتي لم نسأل أنفسنا مرة متى كُتبت هذه المصاحف؟! والروايات الواردة في عدد التي

جمعوا القرآن "كمصحف" مختلفة فمنها من جعلهم: أربعة على ما في رواية عبد الله بن عمرو، وأنس بن مالك، وقيل: خمسة كما في رواية محمد بن كعب القرظي، وقيل: ستة كما في رواية الشعبي، وأنهاهم ابن النديم في (الفهرست) إلى سبعة، وليس المراد من الجمع هنا الحفظ، لأنّ حفّاظ القرآن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) كانوا أكثر من أن تُحصى أسماؤهم في أربعة أو سبعة، وفيما يلي قائمة بأسماء جُمّاع القرآن على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهي حصيلة من جميع الروايات الواردة بهذا الشأن، وهم:

1– أُبي بن كعب. **2**– أبو أيوب الأنصاري. **3**– تميم الداري. **4**– أبو الدرداء. **5**– أبو زيد ثابت بن زيد بن النعمان. **6**– زيد بن ثابت. **7**– سالم مولى أبي حذيفة. **8**– سعيد بن عبيد بن النعمان. وفي الفهرست: سعد . **9**– عبادة بن الصامت. **10**– عبد الله بن عمرو بن العاص. **11**– عبد الله بن مسعود. **12**– عبيد بن معاوية بن زيد. **13**– عثمان بن عفان. **14**– عليّ بن أبي طالب. **15**– قيس بن السكن. **16**– قيس بن أبي صعصعة بن زيد الأنصاري. **17**– مجمع ابن جارية. **18**– معاذ بن جبل بن أوس. **19**– أُمّ ورقة بنت عبد الله ابن الحارث. وبعض هؤلاء كان لهم مصاحف مشهورة، كعليّ (عليه السلام) وعبد الله بن مسعود.

ومن الأدلة على أن المصحف كان مجموعا: ما رواه البخاري في صحيحه أن ابن عباس رضي الله عنه سُئِلَ: أترك النبي (صلى الله عليه وآله) من شيء؟ قال ابن عباس: ما ترك إلا ما بين الدفتين. ونطرح سؤالا: لم استعمل ابن عباس هذا التعبير إلا إذا كان يريد الإشارة إلى الهيئة التي كان عليها المصحف؟ وروى البخاري أيضاً عن محمد بن الحنفية أنه سُئِلَ نفس السؤال السابق فأجاب نفس الجواب: ما ترك إلا ما بين الدفتين. أي أن رسول الله (صلى الله عليه وآله) قد ترك القرآن مكتوباً. الحديث الشهير "تركت فيكم ما أن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي" وعند الشيعة "كتاب الله وعترتي" فلو لم يكن القرآن موجودا وبنسخ كثيرة منتشرة لما كان متاحا للناس وفي هذا دلالة على أنه كان مكتوباً مجموعاً، لأنه لا يصح إطلاق الكتاب عليه وهو في

الصدور، بل ولا على ما كتب في اللخاف والعسب والأكتاف، إلا على نحو المجاز، والمجاز لا يحمل اللفظ عليه من غير قرينة، فإن لفظ الكتاب ظاهر فيما كان له وجود واحد جمعي، ولا يطلق على المكتوب إذا كان مجزءاً غير مجتمع، فضلاً عما إذا لم يكتب، وكان محفوظاً في الصدور فقط" اهـ

هنا يطرح السؤال نفسه: ولم كان يجمع أبو بكر الصديق المصحف إذا؟ أم أن الواقعة غير صحيحة؟ الحق يقال إن هذا السؤال كان يحيرني جدا إلى أن وجدت له إجابة مقنعة عند الباحث الشيعي نبيل الكرخي: "بعد أن علمنا أن القرآن الكريم كان مجموعاً في مصاحف منتشرة بين المسلمين على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله)، يظهر التساؤل حول سبب جمع أبي بكر للقرآن الكريم مادام أنه كان مجموعاً مسبقاً؟

إنَّ السبب الأساسي لفعله ذاك هو سبب سياسي، فالمسلمون لديهم مصاحف وجميع أطراف المعارضة التي كانت تعارض حكم أبي بكر كان لديها مصاحف ولا ننسى إن أُبي بن كعب ومعاذ بن جبل وزيد بن ثابت وأبا زيد قيس بن السكن هم من أشهر من جمعوا القرآن الكريم في مصحف على عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهم جميعاً من الخزرج وقد كان زعيم الخزرج سعد بن عبادة من أبرز المعارضين لحكم أبي بكر ومن ثم لحكم عمر بن الخطاب حتى تم اغتياله بعد ذلك في عهد خلافة عمر، وكان زعيم المعارضة الهاشمية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام قد جمع القرآن الكريم أيضاً، وبقي الحزب الحاكم وحده يفتقد وجود مصحف عنده لا سيما بعد مقتل الكثير من أنصاره يوم اليمامة، فكان أن جمع ابو بكر مصحفاً شخصياً له وكلّف زيد بن ثابت ليقوم له بهذه المهمة، ويدل على ذلك أن أبا بكر لم يفعل شيئاً للمصحف الذي جمعه زيد بن ثابت سوى أن أحتفظ به، ثم أحتفظ به الخليفة عمر بن الخطاب من بعده ولو كانت الأمة تفتقر للمصاحف لنشروه قطعا وليس الاكتفاء بالاحتفاظ به" اهـ

ونحن نتفق معه في أن جمع أبي بكر للمصحف كان له هو شخصيا حيث لا تستقيم هذه الروايات مع وجود مصاحف للصحابة والتي لا يمكن التفريط فيها فلقد بُذل فيها

الجهد الكبير في النقل عن النبي المعصوم فلا يمكن أن يتنازلوا عنها لأبي بكر بسهولة لذا اضطر أبو بكر لجمع مصحف له. وأما عثمان بن عفان فقد نشر المصاحف في الأمصار وقد تقبلها الناس بقبول حسن، فالحق أن الناس عاملوا المصحف الذي نشره عثمان بالقبول لأنه مطابق للمصاحف الموجودة عندهم[85]، فلم يعترض أحد من الناس وهم مئات الآلاف عدداً، غاية ما في الأمر أن عثمان منع أن يكتب التفسير مع القرآن داخل المصحف حتى لا يشتبه الأمر على المسلمين، ومنع الناس من القراءة بقراءات دخيلة حيث كان بعض الناس يقرأون القرآن بإبدال كلمات القرآن الكريم بكلمات ذات معنى قريب مثل قرائتهم الآية (إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأ وأقوم قيلا (يقرأونها: وأصوب قيلا) وقرائتهم الآية (إنَّ شجرة الزقوم طعام الأثيم (يقرأونها: طعام الفاجر) وهكذا لا سيما بعد الفتوحات الإسلامية ودخول أقوام متعددون في الإسلام في ذلك الزمن، وكذلك منع عثمان من يكتب قرآناً بترتيب آيات وسور يختلف من مصحف لآخر وفقاً لرغبات الناس وأهوائهم، فمنع عثمان مثل هذا التبديل ونشر المصحف الذي يحتوي على القرآن الكريم كما نزل وتقبله المسلمون لأن غالبيتهم يمتلكون نسخاً مطابقة لنسخة المصحف الذي نشره عثمان. أي بمعنى آخر أن عثمان عمد إلى المصحف المقبول والمنتشر بين المسلمين فأعلنه مصحفاً لا يجوز الإضافة إليه أو الحذف منه أو تبديل كلماته.

وبهذا البحث الصغير المستقى من القرآن والسنة والمطابق للواقع ومتقضيات العقل من العناية الشديدة بالقرآن يتضح لنا أن القرآن كان مجموعا في عهد النبي المعصوم وكان متوفرا بنسخ كثيرة متاحة للراغبين وإن كان لا يشترط أن تكون هذه النسخ كاملة

---

[85] يُلاحظ أن المصاحف كانت منتشرة بشكل كبير جدا والدليل على ذلك هو رفع جيش معاوية المصاحف على أسنة الرماح، في الحرب التي جرت مباشرة بعد مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهي كما وردت في بعض الروايات كانت تبلغ الخمسمائة مصحف! فهل يُعقل أن تظل الأمة كلها بمصحف واحد في عصر أبي بكر وعمر، –فمن أين كانت تنسخ إذا المصاحف التي حرقها عثمان والتي لم تكن من القلة بمكان حيث أن هذا الفعل هيج المسلمين؟– ثم يقفز عدد المصاحف إلى هذا العدد الكبير الذي يبلغ فيه في جيش الشاميين فقط ما يزيد على خمسمائة مصحف؟! فكم هو عدد المصاحف التي تُركت في الشام وكم كان عدد المصاحف في المدينة ومكة إذا؟ الذي تتقبله العقول هو ما قلناه أنه كان هناك عددا كبيرا من المصاحف منذ زمن الرسول المعصوم وكانت هناك حركة منظمة لنسخ المصاحف في الورق بجوار الحفظ في الصدور.

عند الجميع فكان هناك من يكتب السورة والسورتين ومن يكتب أكثر ومن يكتب بعض آيات ولكن كتابة المصاحف الأساسية والمعروفة ب "مصاحف الصحابة" كانت تكتب تحت رعاية وإشراف المصطفي صلى الله عليه وسلم. وبهذا نقضي على أكبر مطعن في وثوق نقل القرآن عن النبي وننهي أهم عقيدة تاريخية ظنية باطلة يُطعن بسببها في دين الله ويتضح لنا أن الكتاب العزيز أُعتني به أتم العناية في زمن الرسول وبعده حتى وصلنا بحمد الله بدون تغيير ولا تبديل منقولا بتواتر في الصدور وفي الكتب. أما مسألة أن النبي المعصوم كتب القرآن منقوطا فليس هذا مكان نقاش هذه النقطة ولكنا نجزم بذلك وقد نناقش هذه النقطة ببحث مستقل خارج هذا الكتاب ويكفينا الوصول إلى كتابته بيد النبي المعصوم بالخط الملهم من لدن الرحمن الرحيم.

الفصل السادس: استحداث عقائد بعد النبيِّ(ص)

من المسلم به أن النبي المعصوم أدى الرسالة وبلغ الأمانة ونصح للأمة فكشف الله به الغمة وتركنا على المحاجة البيضاء، ليلها كنهارها، فبلغ ما أمر الله به أن يُبلغ للكل على سواء، ومات النبي وقد ترك الدين واضحا جليا لمن كان في اليمن كمن كان في مكة، إلا في بعض السنن التي وصلت لاحقا، لذا كان من المنتظر أن يجد المسلم إذا تحدثنا عن الإيمانيات بالذات كل ما يحتاجه في القرآن الكريم بدون حاجة إلى اجتهاد أو إعمال عقل[86]، ولكن العجيب أننا نجد عقائد! ارتبطت بالحوادث التاريخية بعد وفاة النبي المعصوم، ولأسباب تاريخية ولصرعات قبلية وطائفية ومذهبية دخلت هذه الأراء في كتب العقيدة[87]، كما ألحقت مسألة الإمامة مع أنها من أبواب الفقه ولكنه الفعل الشيعي ورد الفعل السني وهكذا.

---

[86] تتميز الإيمانيات بالثبات والمحدودية وعدم القابلية للتغير أو الاستنباط، بخلاف آيات الأحكام (الفقهية) المذكورة في القرآن، والصالحة لكل زمان ومكان ولكنها تحتاج إلى استنباط فيما يجد من الأمور وما يُستحدث من الحالات ﴿...لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ ... ﴾] سورة النساء ,٨٣[أو إلحاق الفروع بالأصول بدون حاجة إلى قياس أو ما شابه.

[87] نذكر للقارئ نماذجا من العقائد الغريبة والتي لا أصل لها من كتاب أو سنة صحيحة أو حتى ضعيفة. والنماذج المذكورة من رسالة عقائد أهل السنة لأبي حاتم الرازي وأبي زُرعة الرازي حيث قالا: أدركنا العلماء في جميع الأمصار حجازاً وعراقاً ومصر وشاما ويمناً فكان من مذهبهم أن : –والقرآن كلام الله غير مخلوق بجميع جهاته،...، وخير هذه الأمة بعد نبيها عليه السلام أبو بكر الصديق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب رضي الله عنهم،...، وهم الخلفاء الراشدون المهديون، (على فرض صحة رواية الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، فمن حددهم بالاسم؟!–المؤلف–)، وأن الله عز وجل بائن من خلقه كما وصف نفسه في كتابه وعلى لسان رسوله (أين؟!!) بلا كيف، أحاط بكل شيء علماً، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير،...، والميزان الذي له كفتان يوزن فيه أعمال العباد حسنها وسيئها حق، ونتبع السنة والجماعة ونتجنب الشذوذ والخلاف والفرقة.،...، والناس مؤمنون في أحكامهم ومواريثهم ولا يدرى ما هم عند الله عزّ وجلّ (!!!)، والمرجئة مبتدعة ضُلاّل –والقدرية مبتدعة ضُلاّل، ومن أنكر منهم أن الله عزّ وجلّ يعلم ما يكون قبل أن يكون فهو كافر (!!!)، وإن الجهمية كفار، وإن الرافضة رفضوا الإسلام، والخوارج مُرَّاق، ومن زعم أن القرآن مخلوق فهو كافر بالله العظيم كفراً ينقل عن الملة ومن شكّ في كفره ممن يفهم فهو كافر ومن شكّ في كلام الله عزّ وجلّ فوقف فيه شاكّاً يقول: لا أدري مخلوق أو غير مخلوق فهو جهمي (ولست أدري من أين أتت هذه العقائد العظيمة في دين الله!!) –ومن وقف في القرآن جاهلاً عُلِّم،ويُبْدَعَ ولم يكفر، ومن قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي أو القرآن بلفظي مخلوق فهو جهمي،...، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل الأثر (السنة) حشوية يريدون إبطال الآثار، وعلامة الجهمية تسميتهم آهل السنة مشبهة ونابتة.، وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر (السنة) مجبّرة.، وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة

ومن أشهر العقائد التي دُست وأُلحقت بدين الله واستحدثت بعد وفاة النبي المعصوم القول بإمامة علي والاثني عشر إماما عند الشيعة، والقول بقدسية الصحابة عند أهل السنة، طبعا هم لم يقولوها ولكن مدلول كلامهم يدل على ذلك، بل إننا بالإضافة إلى ذلك نجد ترتيبا لبعض الصحابة في الأفضلية وهذا مما يجب على المسلم أن يعتقده!، وكذلك مما ألحق واستحدث بعد وفاة النبي نبؤات المهدي المنتظر والتي كانت كرد فعل للفرق المتصارعة على الساحة الإسلامية من أجل إثبات كل فرقة لحقها وكرفع للروح المعنوية للمتصارعين من خلال الوعد بالفارس المؤيد من السماء والذي يهزم كل الأعداء –كما انتظر اليهود ولا يزالون منتظرين– وتعددت المهادي المنتظرة وصار لكل فرقة مهديها المنتظر بل إننا وجدنا عند الشيعة ما يقارب العشرين مهديا! وليس هذا مكان نقاش هذه العقيدة فسنناقشها في مكانها عند نقاش العقائد في الباب الثاني، ولكنا نذكر هنا بعض نماذج لبعض ما استحدث من عقائد.

لنعطي القارئ المعيار الذي يستطيع أن يحكم به على استحداث العقائد، والمعيار جدا بسيط: انظر إلى أهداف الدين والغايات منه واربطها بالعقائد –والتي يجب أن تذكر صراحة في القرآن بدون تعميم–، فإذا استقامت على منوال واحد فهي من العقائد، أما إذا ارتبطت بأشخاص أو أحداث فهي ليست من دين الله في شيء ونطرح على القارئ سؤالنا القادم:

هل جاء دين الله ليقول الناس: آمنوا بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالملائكة وأن الصحابة هم خير الناس وأن هذا الجيل الأول من المسلمين له حصانة خاصة ومكانة في دين الله على وجه الحقيقة، وأن أبو بكر خير من عمر وعمر خير من عثمان وعثمان خير من علي ومن سبهم فهو خارج من الدين؟ ما علاقة دين الله بالأفراد وبالتاريخ؟ دين الله رسالة أنزلت ووصلت إلينا وانتهت في اليوم الذي قال الله تعالى فيه ﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ... ﴿٣﴾﴾ [سورة

ونقصانية، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة."اهـ. هذه نماذج لاجتهادات أدخلت في كتب العقائد لا يجد المرء أي مستند لها في كتاب الله ولا حتى في سنة الرسول وعلى الرغم من ذلك يُكفر بها المسلمون!

المائدة ,٣]، هب أن أبا بكر مات قبل الرسول؟! أو أن عمر هو من تولى الخلافة بعد الرسول، أو أن عليا مات في خلافة عثمان؟! كيف سيصير شكل العقيدة؟ عند هؤلاء ستتغير طبعا وسيصير فلانا أفضل من فلان ويسبق فلانا علانا! هذا هراء لا أساس له من الصحة، الرسالة لم ترتبط إلا بشخص واحد وهو المُبّلغ المصطفي المعصوم أما المستقبلين فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر!

ونسأل الأخوة الشيعة: هل جاء دين الله ليقول للناس ءامنوا بالله ورسله وكتبه وملائكته وباليوم الآخر وأن القرآن كتاب ملغز معقد لا تبلغه عقولكم لذا فقد اصطفينا اثنى عشر أو ثلاث عشر إماما ولم نحددهم لكم[88] لكي نمتحنكم بهم، فإذا آمنتم بالله و هجرتم هؤلاء الأئمة غير المحددين فأنتم من الخاسرين! أما إذا آمنتم بالله وتخبطتم مع المتخبطين واتبعتم من سيحدده التاريخ والظروف وجنود الدول الحاكمة والذي سيختفي آخرهم بعد أن لم يولد فسلمتم له رقابكم فأنتم من الفائزين! ونقول للأخوة السنة والشيعة: هل جاء دين الله ليقول الناس: آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن الأمة سيفسد حالها في آخر زمانها لإعراضها عن كتاب ربها فيبعث الله لها من ينصرها على أعدائها فيغير حالها بين عشية وضحاها مكافئة لها على ضعفها وذللها وذلها وخذلانها لدينها ولمبادئه؟!

المشكلة أن كل فرقة تنظر إلى الدين نظرة ضيقة الأفق جدا وتظن أنه ينبغي بل ويجب على كل الناس أن ينظروا إلى الدين نفس المنظور ولا يتذمروا أو يعجبوا أو يعملوا عقولهم. فإذا كانت كل فرقة قد قبلت بعض العقائد والتصورات لأسباب معينة فلا تتوقع أن يقبل غير المسلمين في عصرنا هذا هذه التصورات! وإذا كانت الأحداث التاريخية قد لعبت دورا في استحداث بعض العقائد فكذلك لعبت السياسة دورا كبيرا في تحديد اتجاه العقائد الإسلامية أو يمكن أن نسميه أيضا استحداثا لعقائد المسلمين، فنجد مثلا أن المؤرخين يكادون يطبقون أن عقيدة الجبر ظهرت وانتشرت في عصر

[88] تخبط الشيعة وتفرقهم بعد كل إمام واختراعهم الأخبار المؤيدة لكل توجه وتبار دليل على عدم وجود تحديد معين للإمام متعارف عليه بين الشيعة.

معاوية حتى أصبحت هي الغالبة في نهاية العصر الأموي. كما استحدثت بعض العقائد في ذم بعض الفرق بعينها وألفت الأوصاف لتنطبق على هذه الفرقة أو تلك بعينها وبذلك يتاح للحاكم أو للفرقة الخصم إبادتها والقضاء عليها باسم الدين وبذلك يُزاح المنافس من الطريق ويظل ملعونا في التاريخ باسم الدين!

وبداهة استحدثت كل فرقة من العقائد ما يحيطها بسياج من الحماية ويضيف عليها من هالات الحق ما لا تستحقه، وكذلك اسُتحدثت بعض العقائد المتعلقة بأوصاف لله تعالى لم يرد لها ذكر في كتابه الكريم فأدت في نهاية المطاف إلى ظهور التجسيم والتشبيه في حق الله عزوجل، وكان لأتباع الديانات الأخرى بداهة اليد الطولى في إدخال هذه العقائد حول الإله والرسول وآيات القرآن حتى يتساوى الدين الإسلامي الحنيف في نهاية المطاف مع ديانتهم وحتى يحصل الشقاق بين أتباع دين الله تعالى، فإذا هم أضافوا بعض الإضافات وجازت على بعض المؤمنين فقبلوها فلا بأس، وإذا انتبه بعض المتمكنين من تعارضها مع كتاب الله تعالى وحكم عليها بالوضع وردها فسيقوم من قبلها بالرد عليهم وجدالهم والبعد عنهم، وبهذا يحدث الشقاق بين المسلمين، وفي جميع الحالات فإن من دس هذه الروايات من الرابحين والمسلمون من الخاسرين.

ولكنا نبشر إخواننا من المسلمين في كل زمان ومكان أنه كما كان للتاريخ دور في استحداث هذه العقائد والقضاء على بعضها، فسيعيد التاريخ نفسه! فمن ينظر في حال المسلمين مع دين الله يجد أنهم لتخليهم عن أهم عنصر في دينهم وهو حاكمية القرآن على السنة –وعلى العقل كذلك– أُدخل في دين الله الكثير والكثير من المعتقدات التي حشرت بجوار القرآن تحت اسم السنة والتي وجدت لها أرضية في عقول المسلمين، ولكن الله قيض لهذه الأمة من علماء الحديث –عند أهل السنة بالذات– من غربل هذه الخرافات وقضى على جزء كبير منها ولكنه سمح لجزء كبير كذلك بالتسلل، فقيض الله علماء الأصول الذين كانوا أصحاب غربال أضيق فمنع وقضى على المزيد من الخرافات، ولكن لما كان علماء الأصول لا يطبقون كل ما يقولون به ولما كان معظمهم خاضع للمنهج السابق المتحكم في القرآن تسربت بعض العقائد من غربالهم واحتلت

مكانة عظمى باقية في دين الله، ولما كانت هذه الأمة لا تخلوا من المتدبرين في كتاب الله فقد قيض الله منهم من يوضح للأمة بطلان وزيف العقائد التي لا أصل لها في القرآن، وبداهة كان الإخباريون والمحدثون لهم بالمرصاد دفاعا عما وجدوا عليه آبائهم وما يحسبوه من دينهم ولكن كما قلنا: المسألة مسألة تاريخ وزمن، فكما احتاج المؤلفون والمؤدلجون إلى حوالي مائتي عام وإلى أمثالها حتى صار فعلهم وأقوالهم جزءا معتمدا من دين الله، فسيحتاج من يبين بطلان هذه الأقوال إلى فترة –أقل– حتى تجد الأفكار والبينات والأدلة مكانها ومستقبلها ومستقبِلها في الأمة، والأيام كما قلنا كفيلة بكشف زيف العقائد التي لا أصل لها في القرآن والتي تهاوت وتتهاوى واحدة تلو الأخرى تحت وطأة الضربات الكاسحة للأدلة القرآنية الصريحة والمتبوعة بالأدلة العقلية الساطعة التابعة للنص القرآني، ومن يعش ير!

كيفية الحفاظ على المذاهب

بعد أن تحدثنا عن ثبات الإيمانيات ومحدوديتها في الدين الإسلامي وكيف أن الأحداث التاريخية لعبت دورا في استحداث بعض العقائد وقبل أن نناقشها في الباب الثاني نود أن نقدم للقارئ الإجابة على السؤال والذي قد يلوح في ذهن بعض من يقرأ في العقائد: لماذا يستمر الشيعي على تشيعه على الرغم من وضوح ضلاله، وكذلك لماذا يستمر السني في تسننه على الرغم من وضوح بطلان مذهبه –من وجهة نظر الشيعي– ولماذا يبقى الأباضي أباضيا والعلوي علويا والأحمدي أحمديا وهكذا؟ هل هو العناد وترك الحق أم هو الجهل أم هو تعمية القائمين على العقيدة؟

فنقول: لكل فرقة طريقتها وأسلوبها في حماية مذهبها وإقناع أتباعها بصحته، سواءا كان ذلك عن طريق الإرهاب الفكري أو التغييب العقلي، فعندنا مثلا في أهل السنة يتم عرض بعض أقوال للأئمة الكبار أمثال أبي حنيفة ومالك وابن حنبل والويل الويل

للمخالف فمن أنت أيها المخالف حتى تقوم لمعارضة هؤلاء الجهابذة وحتى تخالف أمثال هؤلاء العلماء الكبار؟!

وتُوضع كلماتهم هذه في الكتب كتدعيم للأدلة على العقيدة! وعلى الرغم من ذلك نجد أن كثيرا من الأقوال الشهيرة المنسوبة إلى الأئمة غير ثابتة، ونذكر نموذجين على ذلك: نسبوا إلى الإمام أبي حنيفة أنه قال: من قال لا أعرف ربي في السماء أم في الأرض فقد كفر لأن الله يقول: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه ,٥] وعرشه فوق سبع سماوات. وهذا الكلام كذب باطل مصنوع على أبي حنيفة لأن الراوي لهذا الكلام أبو مطيع البلخي وهو كذاب دجال، قال ابن معين: ليس بشيء، وقال مرة ضعيف، وقال أحمد: لا ينبغي أن يروى عنه شيء، وقال البخاري: ضعيف صاحب رأي، وقال النسائي: ضعيف، وقال أبو حاتم: كان مرجئا كذابا. نسبوا إلى الإمام مالك المقولة الشهيرة جدا: "الاستواء معلوم والكيف مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة" وهذا لم يثبت عن مالك من رواية صحيحة ولا حسنة ولا ضعيفة خفيفة الضعف، ومن يدعي خلاف ذلك فعليه أن يوضح لنا ذلك، وإنما جاء عنه بلفظ "الكيف غير معقول والاستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة".

وإذا كان هناك بعض الأئمة الكبار والذين يُعرف عدم تبعيتهم للمذهب فيتم تأويل أقوالهم بشكل يجعلها قريبة من المذهب وكأنها مجرد خلافات لفظية بسيطة يمكن التجاوز عنها أو يُدعى أن الإمام ندم على فعله وأقواله وأراد التحول إلى المذهب الفلاني في آخر حياته أو أنه تحول فعلا كما نُسِب إلى الإمام الغزالي وإمام الحرمين. وبداهة يقوم الفريق المضاد[89] بعرض الروايات أو الأقوال التي توضح أن أئمة المذهب الآخر ندموا على فعلهم أيضا وأرادوا التحول عنه.

[89] ومن تلك الأقوال التي تعرضها الفرق المضادة لأهل الحديث والتي نذكرها للأخوة المتعصبين من أتباع هذه المدرسة والذين يرون علو مذهبهم على المذاهب الأخرى وصحته المطلقة، والأقوال المعروضة كلها من كتاب شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي: يقول الإمام سفيان الثوري: "لوددت أني لم أكن دخلت في شيء منه ولوددت أني أفلت منه، لا عليَّ ولا لي (يقصد الحديث)،" وقال: "ما أخاف على نفسي غير الحديث" وقال: "وددت أن كل حديث في صدري، وكل حديث حفظه الرجال عني،

وليس فقط قول فلان أو علان من الأئمة كافيا لتأييد المذهب فيُدّعى إجماع الأمة[90] على هذه المقولة أو العقيدة، حتى لا يجرؤ أحد على المخالفة، فالأمة كلها في جانب وأنت في جانب آخر أيها الشاذ المبتدع الفاسق إلخ.

ونحن لا نريد أن نخوض في مسألة حجية الإجماع وهل هو من مصادر التشريع أو من الأدلة الشرعية المعتبرة! ولكن السادة الفقهاء جعلوا الإجماع دليلا من الأدلة الشرعية، ونحن نعرض للقارئ غير المتخصص قولا يعرف به موقفنا من الإجماع: إذا كان مستند العلماء إلى دليل قطعي الثبوت والدلالة! فالحجة والعبرة بالدليل ذاته لا بقول العلماء، واجماع العلماء مجرد مقو للاستدلال بالدليل، وإذا كان مستندهم إلى دليل ظني –وهو ما لم يحدث في تاريخ الإسلام أن استدل علماء كل الفرق الإسلامية بدليل ظني– فالأمر قابل للنقاش ولو أجمع –جدلا– كل العلماء على رأي بلا دليل، وهذا لم ولن يحدث! فليس قولهم بحجة وإلا فليخرجوا لنا الدليل الصريح من كتاب الله على ما يقولون –طبعا لديهم من الآيات والأحاديث التي يستنبطون منها! حجية مصدر من مصادر التشريع، ويعجب المرء من مسلك العلماء مع دين يحتاج إلى من يستنبط له مصادر تشريعه! فإذا لم تكن مصادر الاستدلال والحجية من أوضح ما يكون في الدين –وهذا الموجود والحاصل فعلا في كتاب الله– فقل على هذا الدين السلام ونفض يدك منه.

نسخ من صدري وصدورهم". وقال أيضاً: "أرى كل شيء من أنواع الخير ينقص، وهذا الحديث إلى زيادة، فأظن أنه لو كان من أسباب الخير لنقص أيضاً".

بينما يرى شعبة بن الحجاج أن الاستغراق في الحديث يجرّد قلب المسلم من الإيمان الصادق، فقال عن سبب هجره لأهل الحديث: "إن هذا الحديث يصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة، فهل أنتم منتهون"، وقال نادماً على فعله: "ما أنا مقيم على شيء أخوف علّي أن يدخلني النار منه (يقصد الحديث).

أما أبو بكر بن عياش ففارق أهل الحديث وقال: "أصحاب الحديث هم شرّ الخلق".

أما سليمان بن مهران الأعمش فقد كان أكثر هؤلاء نفوراً من الحديث وأهله، فقد قال: "لأن أتصدق بكسرة أحب إليّ من أن أحدّث بسبعين حديثا". وقال موافقاً ابن عياش: "ما في الدنيا قوم شرّ من أصحاب الحديث".

[90] الشيعة وبعض أهل السنة وكذلك من الفرق الأخرى من لا يرى الإجماع من الأدلة الشرعية.

وبخلاف الاستدلال بأقوال الأئمة فإن الإرهاب الفكري لا يزال مطروحا، فهناك الحديث الشهير: "من بدل دينه فاقتلوه"[91]، ونظرا لأن السادة علماء أهل السنة يكفرون من يخالفهم في بعض المسائل مثل القول بعدم رؤية الله تعالى يوم القيامة أو القول بخلق القرآن، فمن سيخالف السادة العلماء فالسيف معلق على رقبته ويمكنهم أن يهووا به، وإذا لم يكن هناك سيف حقيقي فهناك سيف معنوي وهو سيف التضليل والتفسيق ومطالبة الناس بهجره ومقاطعته إلخ، وبذلك يقيم العلماء سياجا حول مسائل الخلاف مع الفرق الأخرى وعلى من يقربه أن يتحمل الأشواك ومن يشك فليظل شكه في نفسه وإلا فالويل كل الويل له. أما عند الأخوة الشيعة الإمامية فالأمر مختلف، فهناك مسلك قريب من مسلك المسيحين يعتمد على زرع الخرافة والحزن والأسى في النفوس منذ الصغر، فإذا نشأ الإنسان بذلك الذنب الذي يشبه الخطيئة الموروثة عند المسيحين مع الخرافة المزروعة بالتوازي تنشأ لدينا نفسية عجيبة لا نجدها إلا عند السادة الشيعة!! فإذا أفلح هذا الأسلوب في خلق جدار حام حول المذهب والعقيدة وتم زرع الأصول بشكل كاف لم ولن يفلح أي شيء في تغييرها ومن يتابع الحوارت بين أي متحاورين من فرقتين من الفرق الإسلامية –بشرط أن يكون هو من فرقة ثالثة أو بلا فرقة أساسا– يجد أنها حوارات للطرشان فكل يبكي على ليلاه ويسخر من الآخر وجهله وبعد انتهاء الحوار يعتقد أن كل واحد منهم أنه قد ألقم المحاور الضال حجرا أسكته به، وهكذا تستمر الحوارات والمناقشات بدون حكم قاطع بالفوز أو الخسران لأي من الفريقين فما السبب في ذلك؟

يرجع السبب في ذلك إلى نقاط جوهرية يندرج تحتها ما عداهما:

---

[91] ناقشنا هذه المسألة بتفصيل جيد في كتابنا السابق ووضحنا حكمها، ولكنا نذكر للقارئ الكريم آية ونرجو منه أن يتدبرها ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [سورة طه ,٩٧] كلنا يعرف أن هذه الآية كانت في حق السامري الذي أضل قوم موسى بأكملهم وجعلهم يعبدون العجل –وليس فقط ارتداد فردي– وعلى الرغم من ذلك فلم يأمر الله تعالى بقتله بل أمر بهجره وطرده من الجماعة. فإذا كان هذا هو حال من يضل أمة بأكلمها فهل يكون عقوبة المرتد عندنا –في دين العقل والاقتناع– أن يقتل؟!!

1- اقتناع كل فريق بالصحة المطلقة لكل ما عنده في المذهب[92] وأنه طريق الهداية والذي يجب عليه حمايته بدون معرفة حقيقية للآخر وبدون قراءة كتب الفرق الأخرى بل التصديق التام بكل ما يكتبه الشيوخ عن المخالفين، فإذا وصل الإنسان إلى هذه الدرجة يظهر التعصب وانغلاق الفكر والدفاع المستميت عن كل صغيرة وكبيرة في المذهب، كأنه إذا خالف الإنسان مذهبه في مسألة فرعية فسيهلك وبذلك يسقط المذهب برمته!

2- وجود تأصيلات عقدية وفقهية مختلفة عند الفرق الإسلامية، فما يُلزم المرء به نفسه عند السنة ليس ملزما عند الشيعة وبالعكس، فالشيعة مثلا يرون أقوال الأئمة حجة وأهل السنة لا يرونها كذلك، وأهل السنة يرون السنة المستقلة عن القرآن حجة والشيعة يرونها كذبا على الله ورسوله ويرفضونها، فآفة الحوارات أن كل فرق يلزم الآخر بما ليس ملزما ويظن بذلك أنه انتصر وحاز فضل السبق!

3- رد كل فريق لآراء الفريق الآخر المخالفة للقرآن، اعتمادا على مصداقية القرآن العليا والتي لو أتى له الفريق المخالف بآلاف الأحاديث التي تؤول النص فسيرفضها لأنه يرى أنها تلوي أعناق الآيات.

ونظرا لاستحالة وجود الحيادية التامة عند البشر ولاعتقاد العاملين على العقائد والحامين لها أنهم بفعلهم هذا يدافعون عن دين الله ويحمون بيضة الإسلام وجدنا تعميم الأحكام على المخالفين ووجدنا الكذب في النقل عن الآخرين أو النقل السليم للاعتماد على المصادر الخاطئة، وما ذلك إلا لحصر المرء نفسه في مذهبه وعدم الإطلاع على كتب الآخرين، ومن يفعل ذلك يجد أن الفرق الإسلامية كلها تشكو الظلم في طريقة عرضها في كتب المذاهب الآخرى وخاصة في الكتب القديمة حيث كانت تتوفر مجموعة من

[92] أعجب ممن يعتقد بصحة كل ما انفردت به فرقته عن باقي الفرق الإسلامية ويصر ضمنيا بذلك على حماقة باقي الفرق وعظمة فرقته، والمتتبع يجد أن معظم ما انفردت به الفرق الإسلامية هو من العقائد الخاطئة وأن الصواب هو ما اتفقت عليه أكثر الفرق.

العوامل تحتم وجود الأخطاء، فإذا افترضنا النزاهة من الكاتب وعدم تعمد الكذب فحتما ولزاما وُجدت الأخطاء للأسباب التالية:

1– عدم توافر النزاهة الكاملة في الكتّاب.

2– سيطرة آراء معيَّنة على الكاتب تجعله غير مستعدٍّ لفهم غيرها، أو حَتَّى مجرَّد مناقشتها.

3– كفاءة الدراسة والتحقيق قد لا تكون عنده بالدرجة التي يفرِّق بها بين الصواب والخطإ.

4– المصادر التي يستقي منها ويعتمد عليها –سواء كانت كتبا أم بشراً– قد تكون مغرضة، وقد تكون مستغلَّة وقد تكون جاهلة لحقيقة ما تثبت.

5– وسائل الاتِّصال التي تساعد على البحث والوصول إلى الحقيقة كالاتِّصال الشخصيِّ المباشر كانت غير سهلة ولا ميسورة.

6– النفرة بين أتباع المذاهب المختلفة وسوء الظنِّ، وشدَّة التعصُّب، وتمسُّك كلٍّ بما عنده، والحكم مسبقاً على الآخرين بالخطإ والضَّلال؛ هذه العراقيل كلُّها أو بعضها تجعل الوصول إلى الحقيقة عسيرا حَتَّى بالنسبة للنزيه الحريص على الحقِّ، فإنَّ سوء الظنِّ يلقي ظلالا من الشكِّ عليه لا تمكِّنه من الإطلاع.

7– الإشاعات الكاذبة، والدعايات المضلِّلة التي تنطلق عن دوافع سياسيَّة غالباً، فتصل إلى ناس موثوق بهم، فتجري على ألسنتهم أو أقلامهم، فتتلقَّفها الآذان دون معرفة مصدرها الحقيقيِّ، والدوافع السياسيَّة الماكرة إلى الإيحاء بها.[93]

ويقول الدكتور محمد عمراني في كتابه "الأصولية الجعفرية": "والظاهر، ومن خلال وقائع وشواهد التاريخ، أن لا دعوى العقلانية!، ولا دعوى التبصر!، ولا دعوى

[93] علي يحي معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية.

الموضوعية! ولا دعوى النزاهة الفكرية!..إلخ.، استطاعت يوما أن تلين من مواقف الفرقاء، ولا أن تزحزحهم عن تلك القناعات التي نشأوا بها أو تربوا عليها، ولا أن تجعلهم ينتقلون من مذاهبهم إلى مذاهب أخرى بسبب من تغير تلك القناعات عندهم، أو من وقوفهم على الحقيقة عند الخصم وتبنيهم لها خروجاً عن مألوفهم، إلا في النادر، وذلك لثلاثة أسباب ليست كلها مستقلة بالضرورة وهي:

1- إما لما جبلوا عليه من أنماط وقوالب فكرية لا يستطيعون الانفكاك عنها،

2- أو لعملهم بالتقليد،

أو بسبب من البغي المتأصل في النفوس، حتى بعد ظهور الحجة والبينة، على ما شنع القرآن بإسهاب على بعض هذه النماذج في تاريخ الأمم توبيخاً وتبكيتاً: "وجحدوا بها واستيقنتها انفسهم ظلماً وعلوا"اهـ

وهذا بالفعل ما يجده المرء عند تصفح أي كتاب من كتب العقائد، فإذا أخذنا كتاب مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين للأشعري أو الملل والنحل للشهرستاني نموذجا لحدوث الخطأ والزلل فسنجد فيهما العجب العجاب على الرغم من نقد المؤلفين لمن لا يتحرى الدقة في النقل وعيبهم عليه[94]، وأنا عندما كنت أقرأ في مقالات الإسلاميين –في مرحلة مبكرة من حياتي– كنت أتعجب من أن تصدر هذه الأقوال من مسلمين، هل وصلت بهم الغفلة إلى هذه الدرجة، ثم اكتشفت فيما بعد أن ليس كل ما في كتاب فهو صحيح، ونضرب للقارئ مثالا على ما نقول من وجود الخطأ وعدم الدقة في النقل وهذا المثال من كتاب مقالات الإسلاميين للأشعري حيث يعرض فيه معتقد الإباضية – كما نمى إلى علم الأشعري– ولكن الإباضية نفسهم يشكون من أن هذه المعلومات كلها خاطئة ولا أساس لها من الصحة، ونعرض من كتاب "الإباضية بين الفرق

[94] فالأشعري مثلا يقول: «ورأيت الناس في حكاية ما يحكون من ذكر المقالات، ويصنِّفون في النحل والديانات، من بين مقصِّر فيما يحكيه، وغالط فيما يذكره من قول مخالفيه، ومن بين معتمدٍ للكذب في الحكاية، إرادة التشنيع على من يخالفه، ومن بين تارك للتقصِّي لروايته فيما يرويه، من اختلاف المختلفين، ومن بين من يضيف إلى قول مخالفيه ما يظنُّ أنَّ الحجَّة تلزمهم به»

الإسلامية" لعلي يحي معمر تعليقه على قول الأشعري الذي يعرضه بين علامات التنصيص ثم يعلق عليه:

"«ومن الخوارج الإباضية: فالفرقة الأولى منهم يقال لهم الحفصيّة كان إمامهم حفص بن أبي المقدام، زعم أنَّ بين الشرك والإيمان معرفة الله وحده، فمن عرف الله سبحانه ثُمَّ كفر بما سواه من رسول أو جنَّة أو نار، أو عمل بجميع الخبائث من قتل النفس، واستحلال الزنى، وسائر ما حرَّم الله من فروج النساء، فهو كافر برئ من الشرك». واستمرَّ الأشعريُّ يذكر أمثال هذه الشنائع لهذه الفرقة ثُمَّ قال: «والفرقة الثانية منهم يسمَّون اليزيديَّة، كان إمامهم يزيد بن أنيسة» ثُمَّ ذكر آراء هذه الفرقة وشنائعها، ومنها: «وزعم أنَّ الله سبحانه سيبعث رسولا في العجم، وينزل عليه كتابا من السماء يكتب في السماء وينزل عليه جملة واحدة ويقول بعد أسطرٍ: «وتولَّى –أبو يزيد هذا– من شهد لمحمَّد (ص) بالنبوءة من أهل الكتاب، وإن لم يدخلوا في دينه، ولم يعملوا بشريعته، وزعم أنَّهم بذلك مؤمنون». ثُمَّ يقول: «والفرقة الثالثة من الإباضية أصحاب حارث الإباضيِّ، قالوا في القدر بقول المعتزلة، وخالفوا فيه سائر الإباضية». وبعد أن يذكر لهم جملة من التشنيعات يقول: «والفرقة الرابعة منهم، يقولون بطاعة لا يراد الله بها، على مذهب أبي الهذيل، ومعنى ذلك أنَّ الإنسان قد يكون مطيعًا لله، إذا فعل شيئًا أمره الله به، وإن لم يقصد الله بذلك الفعل، ولا أراده به».

هكذا بدأ أبو الحسن الأشعريُّ حديثه عن الإباضية فبمجرد ما ذكرهم بدأ في تقسيمهم إلى فرق، وجعل ينسب إلى كلِّ فرقة جملة من الآراء والأقوال.

والقارئ الكريم عندما يبدأ في قراءة ما كتبه الأشعريَّ عن الإباضية ينقسمون إلى أربع فرق كبرى هي هذه الفرق التي ذكرها، وأنَّ بعض هذه الفرق قد انقسم أيضًا إلى فرق أخرى فرعيَّة، وذكر الأشعريُّ أقوالاً أخرى وشنائع أخرى نسب بعضها إلى جميع الإباضية، ونسب بعضها إلى إحدى تلك الفرق.

وعند الرجوع إلى كتب الإباضية التي أُلِّفت في عصر أبي الحسن والتي ألّفت قبله والتي ألفت بعده، فإنَّ القارئ لن يجد فيها شيئًا عن هذه الفرق، ولا عن أسمائها ولا عن آرائها ولا عن أئمَّتها. وخذ ما شئت من كتب السير والتراجم عند الإباضية، التي تتقصَّى أخبار أئمَّتها وعلمائها ومشائخها، فإنَّك لن تجد ولا إشارة عابرة إلى أولئك الأئمَّة الذين ذكرهم الأشعريُّ واعتبرهم أئمَّة لفرق كاملة من الإباضية. واقرأ ما شئت من كتب العقائد عند الإباضية، فإنَّك لن تجد ذكرًا لهذه الفرق ولا لآرائها، وكلُّ ما نستطيع أن نعتذر به عن إيراد أبي الحسن لهذه التفاصيل أنَّه وقع فريسة لبعض المشنّعين، فكان يتلقَّى مقالات الفرق عن ناس يثق بهم، ولكنَّهم ليسوا في المحلِّ الذي يراه لهم ويضعهم فيه من الثقة والصدق. سواء كان نقله عنهم عن طريق الرواية والسماع، أو عن طريق القراءة والاطِّلاع في كتب مدوَّنة. فهو لم يشر إلى أيِّ ذلك على كلِّ حال."اهـ

ثم يواصل المؤلف حديثه فيقول: "ومع هذا فإنَّ أبا الحسن لم يذكر أحدا من أئمَّة الإباضية كجابر بن زيد وجعفر بن السماك العبيديِّ، وأبي سفيان قنبر، وصحار العبدي وأمثالهم من أئمَّتهم في النصف الثاني من القرن الأوَّل ولا ذكر شيئًا من أقوالهم. ولم يذكر أحداً من أئمَّتهم في النصف الأوَّل من القرن الثاني أبي عبيدة مسلم بن أبي كريمة، وضمَّام بن السائب، وأبي نوح صالح الدهَّان، وعبد الله بن يحيى الكندي، والجلندا بن مسعود العماني، وأبي الخطَّاب عبد الأعلى المعافري، وهلال بن عطيَّة الخرساني وأضرابهم، ولا ذكر شيئًا من أقوالهم، ولم يذكر أحدا من علماء النصف الثاني للقرن الثاني أمثال الربيع بن حبيب، وأبي سفيان محبوب بن الرحيل، وأبي صفرة عبد الملك بن صفرة، وعبد الرحمن بن رستم، ومحمد بن يانس، وأبي الحسن الأبدلاني وأضرابهم، ولا ذكر شيئًا من أقوالهم." اهـ

ويشتكي الإباضية أن الأشعري أخذ يسرد القصص التي يسمعها من فلان أو علان وينسبها إلى الإباضية ويشنع بها عليهم، ومن أمثال هذه القصص: «وكان رجل من الإباضية يقال له: إبراهيم، أفتى بأنَّ بيع الإماء من مخالفيهم جائز، فبرئ منه رجل منهم يقال له ميمون، وممَّن استحلَّ ذلك، ووقف قوم منهم فلم يقولوا بتحليل ولا تحريم،

وكتبوا يستفتون العلماء منهم في ذلك فأفتوا بأنَّ بيعهنَّ حلال، وهبتهنَّ في دار التقيَّة حلال، ويستتاب أهل الوقف من وقفهم في ولاية إبراهيم ومن أجاز ذلك، وأن يستتاب ميمون من قوله، وأن يبرأ من امرأة كانت معهم، كانت وقفت فماتت قبل ورود الفتوى، وأن يستتاب إبراهيم في عذره لأهل الوقف في حجدهم الولاية عنه –وهو مسلم يظهر إسلامه– وأن يستتاب أهل الوقف في حجدهم البراءة عن ميمون –وهو كافر يظهر كفره– فَأَمَّا الذين وقفوا ولم يتوبوا من الوقف وثبتوا عليه، فسمُّوا الواقفة، وبرئت الخوارج منهم، وثبت إبراهيم على رأيه في التحليل لبيع الإمام من مخالفيهم وتاب ميمون». اهـ

كان هذا نموذجا لبعض العقائد الموجودة في كتاب من أكثر الكتب اعتمادا –عند أهل السنة– في الحديث على الفرق، فها نحن ذا نرى أن مؤلفه أتى فيه بما ينكره أصحاب العقيدة جملة وتفصيلا. وليس الأمر مقتصرا على الإباضية و أبي الحسن الأشعري فقط فلقد وجدت أيضا في قراءتي في كتب الشيعة الزيدية أنهم يردون على ابن حزم ويتهمونه بأنه لم يعرف المذهب الزيدي ولربما كان يكتب عن مذهب زيدي آخر غير مذهبهم. وليس الآمر مقصورا على الزمن الماضي حيث كانت المعلومات غير متداولة بالشكل الحالي وكان الحصول عليها يعتمد بدرجة كبيرة على الأفراد حيث يصعب الحصول على المراجع من الفرق الأخرى، ولكنا وللأسف الشديد وجدنا نفس الآفة تتكرر في كتبنا المعاصرة، فوجدنا كتب العقائد تكتب عن الجماعة الأحمدية –القاديانية– بطريقة مقززة وتنسب إليها من الأفعال والمعتقدات ما يشيب لهوله الولدان، ونتيجة لذلك لا بد أن يصدر الحكم القطعي بتكفير هؤلاء بل والدعوة إلى اجتثاثهم من على وجه البسيطة. وكل هذا نتيجة عدم النقل من مصادر الفرقة التي سيكتب عليها المرء، وبسبب بعض الأخطاء تشتعل العداوة والبغضاء بين المسلمين وتدور دائرة الفتنة فتأكل الأخضر واليابس بدون أن يعرف هذا فيما قاتل أخاه.

فإذا تركنا نقطة النقل غير الموثق للمعلومات نجد نقطة تعميم الاتهامات والتي تلقى جزافا والتي تُشوه بها صورة الفريق الآخر، ولما كان كل الناس لا يستطيعون أن ينظروا

إلى الأمور من منظور آخر غير منظورهم الذي نشأوا عليه و وُجهوا إليه منذ صغرهم فيفلح هذا الاتجاه أيما فلاح، فنجد تعميما للاتهامات من كل فريق مدعمة بالأدلة، ويعتقد كل فريق بذلك أن يكشف زيغ الآخرين لأهل مذهبه، فنجد اتهاما لأهل السنة من الشيعة أنهم مصابون بالهوس الجنسي وأن فتاويهم طافحة بهذا الأمر! وتجد نفس الأمر عند السنة حيث يتهمون الشيعة أنهم يبيحون إتيان المرأة من دبرها ومنهم من أجاز اللواط! ويلعبون على هذه النقاط الحساسة والتي يثيرون بها عواطف الأتباع! وهنا يلعب الفقه والأحكام الفقهية دورا في مساندة العقيدة، ونعرض للقارئ نماذجا من الأحكام التي تُستخرج وتُنزع من كتب الفقه السنية والتي تُعرض للقارئ الشيعي عرضا معوجا لتشوه صورة المذهب السني فيعرض عنه فقها وعقيدة لأنه مذهب شهواني ممتلئ بالإضافة إلى امتلائه بعقائد التجسيم والتشبيه، ونظرا لأننا لا نريد أن نوغل الصدور وحتى لا يعتقد أحد أننا نتابع الشيعة في الطعن على علمائنا سنحذف اسم الإمام أو العالم ونترك الرأي وإذا احتاج إلى تبرير أو تعليل فسنذكره بعده:

حكم اللواط: وقال بعض أهل الظاهر لا شئ على من فعل هذا الصنيع "المجموع – محيى الدين النووي".– (ولا يعني هذا أن أهل السنة يبيحون اللواط أو يدعون إليه ولكنه لما لم يوجد له حد في كتاب الله ولا في السنة الصحيحة قال العلماء ما قالوا بل وذهب الحاكم والإمام أبو حنيفة إلى أن عقوبته دون عقوبة الزاني وهى التعزير، قالوا لأنه معصية من المعاصي لم يقدر الله ولا رسوله فيه حدا مقدرا.)–

الرخصة في الاستمناء: لما كانت الرأي الغالب الشائع عند الشيعة هو تحريم الاستمناء، فهم يشنعون على السنة أن بعض علمائهم أجازوه، بل ووردت بعض الروايات التي تأمر به، مثل: أخبرنا عبد الرزاق قال أخبرنا ابن جريج قال أخبرني إبراهيم بن أبي بكر عن مجاهد قال: كان من مضى يأمرون شبانهم بالاستمناء، والمرأة كذلك تدخل شيئا. قلنا لعبد الرزاق: ما تدخل شيئا؟ قال: يريد السق. يقول تستغني به عن الزنا. المصنف لعبد الرزاق. وقال... في المحلى: "فلو عرضت فرجها شيئا دون أن تدخله حتى ينزل فيكره هذا ولا إثم فيه. وكذلك الاستمناء للرجال سواء سواء، لأن مس الرجل ذكره بشماله

مباح، ومس المرأة فرجها كذلك مباح بإجماع الأمة كلها، فإذ هو مباح فليس هنالك زيادة على المباح إلا التعمد لنزول المني، فليس ذلك حراما أصلا، لقول الله تعالى (وقد فصل لكم ما حرم عليكم) الأنعام، وليس هذا مما فصل فهو حلال لقوله تعالى (خلق لكم ما في الأرض جميعا) البقرة، إلا أننا نكرهه لأنه ليس من مكارم الأخلاق ولا من الفضائل، وقد تكلم الناس في هذا فكرهته طائفة وأباحته أخرى" اهـ.

وهنا يتحدث الإمام عن حالة خوف الوقوع في الزنا والاجراءات التي يتخذها المرء من أجل أن يقي نفسه شر هذه الكبيرة، لا أن الإمام يدعو ويشجع على فعل هذه الأشياء بدون سبب استجابة لشهوات أهل السنة!!!

وكذلك يعرضون بعض الآراء الشاذة وبعض الهفوات والتي توجد في كل مذهب وزمان ومكان مثل ما ورد في مبحث ما يثبت له حرمة المصاهرة: "ويشترط في النظر أمور:... الثالث: أن يرى نفس الفرج لا صورته المنطبعة في مرآة أو ماء، فلو كانت متكئة و رأى صورة فرجها الداخل في المرآة بشهوة فإنها لا تحرم، وكذا لو كانت كذلك على شاطئ ماء، أما إذا كانت موجودة في ماء صاف فرآه وهي في نفس الماء فإن الرؤيا على هذا تحرم لأنه رآه بنفسه لا بصورته". الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري/كتاب النكاح.
كذلك مثل ما ورد في مسألة النظر إلى المحطوبة: "قال الجمهور لا بأس أن ينظر الخاطب إلى المخطوبة قالوا ولا ينظر وجهها وكفيها وقال الأوزاعي يجتهد وينظر إلى ما يريد منها إلا العورة وقال ابن حزم ينظر إلى ما أقبل منها وما أدبر منها وعن أحمد ثلاث روايات الأولى كالجمهور والثانية ينظر إلى ما يظهر غالبا والثالثة ينظر إليها متجردة وقال الجمهور أيضا يجوز أن ينظر إليها إذا أراد ذلك بغير أذنها" فيتصيدون رأيا من ضمن الآراء وكأنه هو ما أطبق عليه أهل السنة ويطبقونه.

وكذلك يتصيدون التفريعات الفقهية، مثل: "وإذا أطاعت المرأة العاقلة البالغة صبياً غير بالغ، أو مجنوناً و مكنته من نفسها فلا يجب عليها إقامة الحد و لا على من واقعها، لأن الحد يجب على الرجل بعقل الزنا" الفقه على المذاهب الأربعة للجزيري/كتاب

الحدود –زنا العاقل بالمجنون. فهنا علماء السنة يسقطون الحدود من باب درء الحدود بالشبهات فالواجب على القاضي أن يدفع الحدود قدر الإمكان لا أن يتفنن لإيقاعها، ولكنهم يعرضون الأمر وكأن أهل السنة يدعون إلى فعل ذلك ويجوزونه، وكأن سقوط الحد معناه الحِل!! كما قد تتنتزع بعض الكلمات من سياقها، مثل ما نقل بعض الأخوة الشيعة عن القيم قائلا: "ابن القيّم الجوزية يخبركم قائلاً: وإن كانت امرأة لا زوج لها واشتدت غلمتها فقال بعض أصحابنا يجوز لها اتخاذ الاكرنبج وهو شيء يعمل من جلود على صورة الذكر فتستدخله المرأة أو ما أشبه ذلك من قثاء وقرع صغار."اهـ

وليس هذا هو رأي ابن القيم ولكنه يذكر رأي بعض أصحابه الذين راعوا حال المرأة أما هو فقد عقب على هذا الرأي بالعكس وبما ينفيه، ولكن الأخ الناقل اقتطع من السياق ما يحتاجه وهذا خيانة للأمانة العلمية وتجن على أخ مسلم بالكذب ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعلى الجانب الآخر نجد أن السنة تذكر بعض الخرافات وتنسبها إلى كتب الشيعة الموثقة، كأن الشيعة كلهم يؤمنون بها ويدرسونها لأطفالهم، مع أن الأحاديث عند الشيعة ليس لها نفس درجة الوثاقة أو الحاكمية مثل التي عند الشيعة، وعلى الرغم من وجودها فقد لا يعلم بها الكثير والكثير من الشيعة، ونحن عندنا في السنة الكثير من الخرافات الموجودة في كتب الحديث، والتي يمكن أن تتخذ كدليل على الخرافة عند أهل السنة أيضا، لذا نجد من يشنع على الشيعة إيمانهم بخرافات من أمثال ما رواه الكليني في الكافي:

"عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ يَقُولُ: "ألا لا يَسْتَلْقِيَنَّ أَحَدُكُمْ في الْحَمَّامِ فَإِنَّهُ يُذِيبُ شَحْمَ الْكُلْيَتَيْنِ وَلا يَدْلُكَنَّ رِجْلَيْهِ بِالْخَزَفِ فَإِنَّهُ يُورِثُ الْجُذَامَ". عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ ع قَالَ: "الْأَكْلُ عَلَى الشِّبَعِ يُورِثُ الْبَرَصَ".

الاغتسال بإناء من فخار مصر يجعلك ديوثا: عَنْ أَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا قَالَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ وَذَكَرَ مِصْرَ فَقَالَ قَالَ النَّبِيُّ ص: "لَا تَأْكُلُوا فِي فَخَّارِهَا وَ لَا تَغْسِلُوا رُءُوسَكُمْ بِطِينِهَا فَإِنَّهُ يَذْهَبُ بِالْغَيْرَةِ وَ يُورِثُ الدِّيَاثَةَ".

لزوم الحمام يورث السل: عن أبي الحسن الرضا قال: "وَإِيَّاكَ أَنْ تُدْمِنَهُ فَإِنَّ إِدْمَانَهُ يُورِثُ السِّلَّ"

بول الأئمة وغائطهم سبب دخول الجنة: "ليس في بول الأئمة وغائطهم استخباث ولا نتن ولا قذارة بل هما كالمسك الأذفر، بل من شرب بولهم وغائطهم ودمهم يحرم الله عليه النار واستوجب دخول الجنة" (أنوار الولاية لآية الله الآخوند ملا زين العابدين الكلبايكاني)

أكل الجزر يسخن الكليتين ويقيم الذكر: هكذا حكاها الكيني عن أبي عبد الله (الكافي 6/ 372) يسخن الكليتين ويقيم الذكر ويعين على الجماع.

شرب الماء من الليل يورث الماء الأصفر: عن أبي عبد الله قال: "وشرب الماء من قيام بالليل يورث الماء الأصفر".

الكلام أثناء الجماع يورث الخرس: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سِنَانٍ قَالَ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ ع: "اتَّقُوا الْكَلَامَ عِنْدَ مُلْتَقَى الْخِتَانَيْنِ فَإِنَّهُ يُورِثُ الْخَرَسَ"

رمضان اسم من أسماء الله الحسنى: قالوا: إن رمضان اسم من أسماء الله الحسنى!

"آه" من أسماء الله: عن أبي عبد الله قال: "آه اسم من أسماء الله الحسنى. فمن قال آه: فقد استغاث بالله"

أسماء عجيبة للملائكة: يدعي الشيعة وجود ملك من الملائكة اسمه فطرس!!! وهناك ملك آخر اسمه صرصائيل مكتوب على كتفه: تزويج النور من النور (أي علي بفاطمة)"[95] اهـ

وما شابه ذلك من الخرافات. أو من الآراء الفقهية، وكما قلنا قد يعيش السني أو الشيعي ويموت ولم يسمع بهذه الأحاديث أو الأحكام.

وليست المسألة مقتصرة على الجانب الفقهي فقط بل تدخل بعض الزلات (العقيدية) في الموضوع حيث يتم تضخيم أخطاء العلماء وإبرازها بشكل كبير وكأنها تمثل هذا التيار أو ذاك وكل الفرق تلعب على هذا الوتر الحساس، ونرى فيه اتهامات متبادلة بين المسلمين تبدأ بالتضليل وتنتهي بالتكفير والتشبيه باليهود والنصارى بل إن بعض الفرق الإسلامية عند الفرق الأخرى أشر من اليهود والنصارى والمشركين! ونظرا لأن كل الفرق ابتعدت بقدر ما عن كتاب الله فتجد علماء كل فرقة يتصيدون ما زاد عن كتاب الله في روايات الفرقة الأخرى ويشنعون بها عليها وينسبون إليها ما شاءوا من الصفات ويظهرونهم لأتباعهم بمظهر من يجادل عن الباطل ويحميه على الرغم من وضوحه لهم، ونذكر للقارئ الكريم نموذجا من النقد الذي يوجه الشيعة إلى أهل السنة بخصوص مسألة متعلقة بالله عزوجل وهي مسألة الصورة، فبعض أهل السنة يثبت لله صورة! – ولست أدري أين في كتاب الله أن لله صورة، فالله تعالى هو المصور ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡخَٰلِقُ ٱلۡبَارِئُ ٱلۡمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٤﴾] سورة الحشر ,٢٤[– والشيعة يستندون إلى عدم وجود ذلك في كتاب الله وللمشاكل العقلية التي يؤدي إليها القول بالصورة لله عزوجل فيشنعون على القائل بذلك من أهل السنة، ونذكر للقارئ نموذجا من عرضهم للمسألة[96]: "تبين لنا كيف يستقي ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب من حاخامات اليهود، والآن سنبين صورة الفتى الشاب

---

[95] محمد بن يعقوب الكليني، الكافي في الأصول والفروع, (مواضع متفرقة من الكتاب)

[96] من مقال للشيخ محمد الساعدي.

الجميل الذي يقولون عنه أنه ربهم.فهم يؤمنون بإحدى الإسرائيليات في حديث يسمونه حديث أم الطفيل ويقولون بأنهم يكتمونه تقية، سبحان الله يخفون عقيدتهم اليهودية الباطلة بدعوى ان الناس لا تحتمل. وقد صحح أئمتهم ومنهم الالباني مرجعهم في الحديث، حديث أم الطفيل في تعليقه على سنة ابن أبي عاصم برقم (**471**) وجاء فيه أنها سمعت رسول الله(ص) يذكر أنه رأى ربه عز وجل في المنام: (في أحسن صورة، شاباً، موفراً، رجلاه في خضرة، عليه نعلان من ذهب، على وجهه فراش من ذهب. قال إمامهم الذهبي في سير أعلامه:**602/10**: (فأما خبر أم الطفيل، فرواه محمد بن إسماعيل الترمذي وغيره... وبعد أن صحح الحديث ونفي أن يكون مناماً قال) :وقد قال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون. وقد صح أن أبا هريرة كتم حديثاً كثيراً مما لا يحتاجه المسلم في دينه وكان يقول: لو بثثته فيكم لقطع هذا البلعوم، وليس هذا من باب كتمان العلم في شئ، فإن العلم الواجب يجب بثه ونشره ويجب على الأمة حفظه، والعلم الذي في فضائل الأعمال مما يصح إسناده يتعين نقله ويتأكد نشره، وينبغي للأمة نقله، والعلم المباح لا يجب بثه ولا ينبغي أن يدخل فيه إلا خواص العلماء) سير أعلام النبلاء ج **17** ص **656**.... يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة إلى الله وهو جالس على كرسيه. قال ابن تيمية في (تلبيس الجهمية) ص**619**: (قال بعضهم: قد قال الله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾] سورة الأعراف ,١٤٨[فقد ذم الله من اتخذ إلهاً جسداً، والجسد هو الجسم فيكون الله قد ذم من اتخذ إلهاً هو جسم. فيقال له: هذا باطل من وجوه، أحدها: أن هذا إنما يدل على نفي أن يكون جسداً، لا على نفي أن يكون جسماً!! والجسم في اصطلاح نفاة الصفات أعم من الجسد)! وقال في منهاج السنة:**563/2**: (فهذا المصنف الإمامي . يقصد العلامة الحلي في كتابه منهاج الكرامة . اعتمد على طريق المعتزلة ومن تابعهم من أن الإعتماد في تنزيه الرب عن النقائص على نفي كونه جسماً، ومعلوم أن هذه الطريقة لم يرد بها كتاب ولا سنة! ولا هي مأثورة عن أحد من السلف!!

فقد علم أنه لا أصل لها في الشرع)!! وهذه العقائد اليهودية هي التي جعلت أكابر علماء أهل السنة يقولون بأنهم شانوا بها الحنابلة ... والعجيب الغريب وإن كان لا عجب من حشوية الحنابلة أن الحافظ أبا بكر ابن العربي قال في العواصم (2 / 283): "أخبرني من أثق به من مشيختي أن القاضي أبا يعلى الحنبلي كان إذا ذكر الله سبحانه يقول فيما ورد من هذه الظواهر في صفاته تعالى: "ألزموني ما شئتم فاني التزمه إلا اللحية والعورة" قال بعض أئمة أهل الحق وهذا كفر قبيح واستهزاء بالله تعالى وقائله جاهل به تعالى لا يقتدى به ولا يلتفت إليه ولا متبع لامامه الذي ينتسب إليه ويتستر به بل هو شريك للمشركين في عبادة الاصنام فإنه ما عبد الله ولا عرفه، وإنما صور صنما في نفسه تعالى الله عما يقول الملحدون والجاحدون علوا كبيرا. قال الشيخ المحقق محمد السقاف (وهم يتخيلون معبودهم على صورة إنسان وعلى ذلك يقيسون لأن القياس لا يدخل عندهم في العبادات وانما يدخل في العقائد، ولا عجب فقد أظهر لنا بعض مقلديهم في هذا الزمان كتابا سماه "عقيدة أهل الايمان في خلق آدم على صورة الرحمن" فإذا لم يكن هذا تشبيها فما ندري ما هو التشبيه؟!)" اه

وليس الأمر مقتصرا على الفرق المتباينة والمختلفة جذريا بل امتد الأمر ليشمل الفرق المختلفة داخل المذهب الواحد، فنجد الأشاعرة يشنعون على أهل الحديث والعكس كذلك! وكل فريق يصف نفسه بأهل السنة! –وكل المسلمين باستثناء القرآنيين هم أهل السنة– وينتهج نفس منهج تصيد الأخطاء من تضخيم أخطاء أئمة المذهب الآخر –والمشكلة أساسا في تضخيم كل فرقة لأئمتها وعرضهم بأكبر من حجمهم ومما يستحقون[97]– فترى مثلا إبراز قول ابن تيمية أن الله جالس أو جلس، ويتم التركيز على فتوى لإمام معاصر بجواز الصلح الدائم مع إسرائيل أو بخروج أهل الضفة منها وتركها لليهود أو قول ذلك الإمام أنه لا ينفي عن الله الحنجرة أو اللسان لأن أهل السنة لا ينفون عن الله إلا ما نفاه عن نفسه –نسى أن يقول تفصيلا!!– ومع تقديس كل فرقة

[97] من ذلك تسمية كثير من فرق أهل السنة لأئمتهم ب "شيخ الإسلام"، وأنا لا أجرؤ أن أسمي أي إنسان بهذا الاسم إلا النبي المعصوم، أما من بخلاف المصطفي فليس له أي علاقة بالإسلام سوى التبعية والاجتهاد.

لكل ما يقوله أئمتهم يضيع الحق في أذناب التمحكات من أجل تصحيح ما يقوله الإمام. وعلى طول قراءاتي في كتب الفرق المختلفة ما وجدت فرقة اعترفت بخطأ إمامها إلا فيما ندر، ولكن نجد على طول الخط تأويلات لأقوال الإمام حتى لا يصير الإمام من الخاطئين!

من هنا يتضح لنا أن استمرار كل تابع على مذهبه ورده للمذاهب الأخرى ليس من باب العناد أو الإصرار على الباطل ولكنه من باب عدم قناعة الأفراد أو الفرق بالأصول التي أصلها أصحاب الفريق الآخر لمذهبهم، -فإذا وجدت بعض الآراء الغريبة عند فريق ما فهي مألوفة بالنسبة لأصولهم، غريبة بالنسبة لنا نحن-، كذلك لاتفاق الفرق في المنهج العام في تعاملهم مع القرآن وهو منهج حاكمية السنة على القرآن، فإذا كان لدي من الروايات ما يناسب أصول فرقتي ويتفق مع القرآن في جزء كبير ويخالفه في بعض النقاط والتي إما يؤول من أجلها القرآن أو تؤول هي من أجل القرآن وعند الآخرين كذلك، فما الداعي لترك المذهب والانتقال إلى مذهب آخر إذا كنت سأجد نفس هذا المسلك وهذه الطريقة في المذهب الآخر؟! إن من ينتقل من مذهب إلى مذهب آخر لا يفعل ذلك لأنه رأى أن رأي فلان في كذا أو كذا مجانب للصواب ولكنه يفعل ذلك لأنه يرى أن الأصول التي يستند عليها المذهب مجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار، لذا يقرر الترك، أما أن يُترك المذهب من أجل أن الشيخ الفلاني قال كذا أو فعل كذا فلن يحدث أو يكون في يوم من الأيام.

ومن خلال ما عرضناه يتبين لنا أن العقائد التي لا أصل لها في القرآن هي موطن الخلاف الرئيس بين كل الفرق والتي لو أُسقطت -على الأقل في الاعتماد عليها في تضليل الآخرين- لصار الخلاف بين المسلمين خلافا مقبولا في مسائل غير جذرية يمكن التجاوز عنها.

طريقة عرض الفرق المخالفة في كتب العقائد

من الطوام والكوارث التي تقابل القارئ في كتب العقائد وخاصة القديم منها طريقة مؤلفيها في عرض عقائد المخالفين وأحكامهم الفقهية، حتى أن القارئ ليصاب بالعجب الشديد من هؤلاء الناس البله الحمقى، كيف يقتنعون بهذه العقائد الباطلة، وكيف يقولون بهذه الأحكام الفقهية الشاذة المخالفة للطبيعة الإنسانية وكيف يستبيحون خصومهم ولم لا يعاملون الناس بالحسنى؟! ثم يحمد القارئ الله عز وجل أنه لم يجعله من أهل السنة إذا كان شيعيا! أو من الشيعة إذا كان سنيا، أو إماميا إذا كان زيديا وهكذا. والواقع أن عرض بعض الأقوال لبعض العلماء عرضا مبتسرا بدون تبيين الأصول التي يستند إليها القوم في قولهم سيؤدي لا محالة إلى تصور كارثي مجاف للواقع عن المخالفين.

ونظرا لأن القارئ السني اعتاد دوما أن يرى العرض العقيم المشوه لعقائد الآخرين وهو يحسب أنه يرى بذلك عرضا واقعيا لعقائد الآخرين، نقدم للقارئ نموذجا ظريفا استخرجه الشيخ علي يحيي معمر من كتب العقائد عند أهل السنة وقام بتطبيق نفس النهج العقائدي المتبع، فخرج بنتائج سيرى القارئ عند قراءتها أن أهل السنة هم أشد المتطرفين في العالم! وهذا طبعا غير صحيح ولكنه العرض الخاطئ المشوه والذي يبرز جوانب وأقوال شاذة كأنها المذهب، وإلى القارئ النموذج المختار والتعليق عليه بطريقة كاتبي العقائد القدامى:

"يقول البغدادي في كتاب الفرق بين الفرق ص 357 ما يلي: «وأمَّا أهل الأهواء من الجاروديَّة والهاشميَّة والنجاريَّة والجهميَّة والإماميَّة الذين كفروا خيار الصحابة، والمعتزلة عن الحقّ والبكريَّة المنسوبة إلى بكر بن أخت عبد الواحد، والضراريَّة، والمشبهة كلَّها، والخوارج فإنّنا نكفرهم كما يكفرون أهل السنَّة ولا تجوز الصلاة خلفهم، واختلف في التوارث قال بعضهم نرثهم ولا يرثوننا والصحيح أنَّ أموالهم فيء، ولا توارث بينهم وبين السنِّي، واستشهد على هذه الأحكام بأقوال نسبها إلى بعض الأئمة فقال: إنَّ الحارث

المحاسبي لم يأخذ من ميراثة في أبيه شيئًا لأنَّ أباه كان قادريا. وذكر أنَّ الشافعي أشار إلى بطلان صلاة من صلَّى وراء من يقول بخلق القرآن ونفي الرؤية، وروى عن محمَّد بن الحسن أنَّه يعيد الصلاة، وذكر أنَّ أبا يوسف سئل عن المعتزلة فقال هم الزنادقة، وذكر الشافعي أشار في كتاب القياس إلى عدم قبول شهادة المعتزلة وسائر أهل الأهواء. وذكر عن مالك أنَّه قال في المعتزلة زنادقة لا يستتابون بل يقتلون.» بعد هذه الشهادات قال: «أما المعاملة معهم بالبيع والشراء فحكم ذلك عند أهل السنَّة كحكم عقود المفاوضة بين المسلمين الذين في أطراف الثغور وبين أهل الحرب، وإن كان قتلهم مباحا ولا يجوز أن يبيع المسلم منهم مصحفا ولا عبدا مسلما في الصحيح من مذهب الشافعي، واختلف أصحاب الشافعي في حكم القادريَّة المعتزلة فمنهم من قال حكمهم حكم المجوس، فعلى هذا القول يجوز أخذ الجزية منهم، ومنهم من قال: حكمهم حكم المرتدين وعلى هذا لا تؤخذ منهم جزية بل يستتابون فإن لم تابوا وإلاَّ وجب على المسلمين قتلهم». ولو أردنا أن نلخِّص هذه الأحكام على أسلوب كتاب المقالات أو على أسلوب البغدادي نفسه لقلنا: إنَّ أهل السنَّة: يكفرون مخالفيهم. لا يجيزون الصلاة عليهم ولا الصلاة خلفهم. قال بعضهم أنَّ السني يرث مخالفيه والمخالف لا يرث وقال الآخرون بل لا توارث بين السني ومخالفيه لأنَّ أموال المخالفين فيء لأهل السنَّة. يجوز أن يتعامل السني مع مخالفيه كما يتعامل مع أهل الحرب في الثغور. قتل مخالفيهم مباح. لا يجوز للسني أن يبيع لهم مصحفا أو عبدا مسلما. حكم المعتزلة حكم المجوس، قال بعضهم يجوز أخذ الجزية منهم وقال آخرون بل يعاملون معاملة المرتدِّين يستتابوا فإن تابوا وإلاَّ قتلوا، وآخرون قالوا: بل هم زنادقة لا يستتابون بل يقتلون. هذه هي الصورة التي يأخذها القارئ من كتاب (الفرق بيت الفرق) عن معاملة أهل السنَّة لمخالفيهم من أهل القبلة، فإذا وضعت هذا في مقابل أشد مخالفيهم تطرفا على ما يقوله كتاب المقالات فجئت بأقوال نافع بن الأزرق المتطرفة التي كانت سبب الخلاف بينه وبين رفاقه، والتي وجَّهت إليه نقمة الأمَّة المسلمة جمعاء، فما هو الفرق الذي تجده بينهما؟ نافع يقول بأنَّ مخالفيه مشركون يباح دمهم ومالهم، والبغدادي يتردد في الحكم على مخالفيه بين أن يعتبرهم في حكم المجوس أو حكم المرتدِّين أو حكم

الزنادقة، ويحكم بأنَّ دمهم حلال وأنَّ مالهم فيء، أمَّا التعامل معهم فهم كالتعامل مع المحاربين يقع بينهم البيع والشراء ولكن لايجوز أن يباع لهم مصحف أو عبد مسلم. فهل كان نافع بن الأزرق في تطرُّفه وتشدُّده –حسب الصورة التي رسمت له– أكثر غلوًّا من البغدادي، وقد كتب رأيه وأحكامه بقلمه، مع ذلك فإن العالم الإسلامي كله ساخط على الأزارقة بسبب ذلك التطرُّف، ولكن البغدادي يعتبر إماما من الأئمة وكتابه يوضع في قائمة المراجع الهامة في تاريخ العقائد، والدنيا حظوظ.[98]" اهـ

وأرجوا من القارئ أن يضع هذا المثال أمام عينيه وهو يقرأ في باب العقائد عن أي فرقة بأقلام مخالفيها، أما إذا قرأ لكتّابها فليتذكر دوما أن أي فرقة تجمع تيارات واتجاهات شتى وليست تيارا وتوجها واحدا، فلا يحكم على الفرقة إلا من خلال قراءة أكبر قدر ممكن لجميع التيارات المعتبرة في هذه الفرقة، فلا يقرأ مثلا لأهل الحديث والحنابلة ويقول إن هؤلاء هم أهل السنة، فهم جزء صغير ذو توجه معين داخل أهل السنة ولكن هناك يجوارهم أشاعرة وماتريدية ومعتزلة ومفكرين حداثيين إلخ. فالحكم لا يكون من كتاب أو مقالة ولكن من قراءة ممنهجة للقارئ حتى يصل إلى حكم قاطع بنفسه.

أزمة التكفير

يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [سورة النحل, ٦٤]، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة البقرة, ١٧٦]

على الرغم من تأكيد الله تعالى على وضوح القرآن ونزوله بالحق المبين وأنه نزل رفع الخلاف بين الناس وأنه هدى لقوم يؤمنون، أبى الناس إلا أن يؤمنوا بجواره بأشياء عدة

[98] علي يحيي معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية.

فصدق فيهم قول الله تعالى ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف, ١٠٦]، ولما جعلت كل الفرق بجوار الله ما يجب الإيمان به واتباعه كان لا بد من حصول هذا الخلاف، لأن جل الفرق جعلت القرآن تابعا لما عندها وليس حاكما عليه فنشأ الخلاف واستفحل.

وعلى الرغم من ذم الخلاف في كتاب الله كما عرضنا في الآيتين السابقتين وفي كثير من الآيات الأخر وجدنا كثيرا من العلماء يبررون قابلية الخلاف ويعدونه من مرونة الشريعة الإسلامية ومحاسنها، حيث أنها احتوت من مرونتها الكثير من النصوص التي تحتمل العديد من التفسيرات والتي لو كانت لا تحتمل إلا تفسيرا واحدا لشق ذلك على الناس!

وأقف متعجبا أمام هذا المنطق العجيب الذي يتكلم به هؤلاء السادة العلماء و أسأل نفسي: عندما أنزل الله تعالى كتابه هل كان مراده كل هذه الأقوال التي قال بها الفقهاء، أم أن مراده كان واحدا، وبيان كتابه كان واضحا جليا؟! بداهة كان مراد الله واحدا وحكمه كذلك، ولكن لما حكّم الناسُ السنة وأقوال العلماء والعقل في وفوق القرآن حدث ما حدث من ذلك الخلاف العجيب، والأعجب من ذلك تأصيلهم اللغوي الغريب، حيث وُضع النص القرآني جنبا إلى جنب مع أقوال الشعراء والبلغاء! بل وقُدمت هذه الأقوال والأبيات الشعرية –المختلقة أحيانا– على القرآن وقِيس القرآن عليها بدلا من العكس، ثم وجدنا السادة البلاغاء يتفنون في تمجيز –جعله مجازا– القرآن واكتشاف الكلمات بل والجمل المحذوفة في كتاب الله[99]!

---

[99] نذكر للقارئ نموذجا لذلك: ورد في كتاب إعراب القرآن لأبي الحسن سالم بن الحسن بن إبراهيم الخازمي: "وقد ذكر سيبويه حذف المضاف في الكتاب في مواضع، فمن ذلك قوله حكاية عن العرب اجتمعت اليمامة، أي أهل اليمامة؛ وقوله "صدنا قنوين"، أي وحش قنوين فمما جاء في التنزيل قوله تعالى "مالك يوم الدين" والتقدير مالك أحكام يوم الدين وقدره الفارسي تقدير حذف المفعول(!!)، أي مالك يوم الدين الأحكام؛ فتكون الأحكام المفعول، فلا يكون على قوله من هذا الباب(!!) ومن ذلك قوله تعالى "لا ريب فيه" أي في صحته وتحقيقه ومنه قوله تعالى: "ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم" أي على مواضع سمعهم، فحذف؛ لأنه استغنى عن جمعه، لإضافته إلى الجمع؛(!!).

ثم جعلوا النص القرآني نص فوضوي فيه تقديم وتأخير وحذف وإطناب بل وحشو ومن الكوارث اللغوية ما لا يخفي على نصف لبيب والتي ذكرنا بعضها للقارئ في طيات هذا الكتاب، وبهذا التأصيل اللغوي العجيب سُلطت مباضع التأويل –بالمعنى الدارج الخاطئ– على القرآن فلم يبق فيه آية إلا ودخلها التأويل، ثم وللعجب الشديد وجدنا كل فرقة ترمي الأخرى بالكفر الصراح! لم؟ لأنها خالفت الآيات المحكمات في كتاب الله تعالى غير القابلة للتأويل!

ويحق لنا أن نسأل: وما هي الآيات غير القابلة للتأويل، وما الفرق بينها وبين القابلة للتأويل؟! وما هو المعيار الذي على أساسه يُقبل التأويل أو يُرفض؟ طبعا كل الفرق ترجع ذلك المعيار إما إلى عقولها والتي ترى أن العالم كله معها فيما تراه، فهذا من البدهيات! أما ما تقوله الفرق الأخرى ففيه مخالفة للعقل والمنطق واسأل كل عقلاء العالم فسيتفقون معنا! وإذا خالف الناس فرقة ما، فما ذلك إلا لخفاء هذه اللطيفة على عقولهم والتي يسر الله لهم ووضحها وفهمها لهم من خلال كتابه الكريم! وتتهاوى دعاوى التكفير من كل فرقة على رؤوس أتباع الفرقة الأخرى، والدليل: مخالفة صريح القرآن وصحيح السنة الموافقة له! والعجيب أن الدعوى عند كل الفرق! ويصح لنا أيضا أن نكفر من يحلو لنا من كل الفرق بنفس الحجة! بداهة ليس هذا هو غرضنا فلسنا من هواة التكفير أو من الباحثين عنه بمنظار معظم، من أجل التقاط ذرة ملقاة على الأرض نكفر بها خلق الله، ولكن كان هذا للأسف مسلك السادة العلماء في التعامل مع المخالفين وهو الاتهام بالكفر –مع أن الكفر في كتاب الله كما قلنا مرتبط بخمسة أصناف ذكرناها سابقا–. ولما كان هناك بعض من العلماء المنصفين الذين رأوا أن الأدلة التي يستند إليها أي فريق لا تكفي لتكفير الآخر، أرادوا أن يظهروا بمظهر المنصف الذي يعطي الخصم حقه ولا يسرف في دعوى التكفير، فماذا قالوا؟ اكتفوا بتفسيق الخصم! لم؟ لأن الأدلة التي يستندون إليها غير قطعية الدلالة بالدرجة الكافية التي تؤدي إلى تكفير الخصم. لذا من الأفضل حتى لا يتقول الإنسان على الله ودينه ويرمي إخوانه بالكفر أن يكتفي بتفسيقهم لمخالفتهم الأدلة!

ونسى هؤلاء المفسقون أو المكفرون أن الآخر لديه أيضا من الأدلة ما يُكفّر أو يفسق بها، فهو لم يقل: إنني أرفض آيات الله ولكنه فهمها بشكل مخالف لما فهمتوه بها ومستنده في ذلك اللغة والسنة! فكيف يكون التكفير صوابا إذا؟ وكيف يكون للتفسيق سببا وجيها في أي منطق أو تحت أي مبرر؟! إن بدعة "التفسيق" هذه بدعة لا أصل لها في كتاب الله، فعلى الرغم من أن التكفير ليس من حق أي إنسان، ولكن يمكن القول إن فلانا كافرا إذا كانت أعماله تدل على الكفر، أما مسألة التفسيق في المسائل العقيدية فمن العجب العجاب، فالتفسيق أو الفسق في دين الله مرتبط بالأعمال وليس بالقلوب[100]، فإذا نحن تتبعنا وصف الله تعالى لأصناف معينة من البشر بالفسق وجدنا أن الوصف مترتب على فعل يدل على إعراض وتمرد، وهذا نابع من المعنى الأصلي للكلمة، فهي كما وردت في مقاييس اللغة: "الفاء والسين والقاف كلمة واحدة، وهي الفِسْق، وهو الخروج عن الطَّاعة. تقول العرب: فَسقَتِ الرُّطَبَةُ عن قِشْرها: إذا خرجَتْ، حكاه الفَرَّاء. ويقولون: إنَّ الفأرة فُوَيْسِقة، وجاء هذا في الحديث. قال ابنُ الأعرابيِّ: لم يُسْمع قطُّ في كلامِ الجاهليَّة في شعر ولا كلامٍ: فاسق. قال: وهذا عجبٌ، هو كلامٌ عربيٌّ ولم يأتِ في شعرٍ جاهليٍّ." اهـ

وإذا نحن تتبعنا موارد قوله تعالى "هم الفاسقون" في القرآن لوجدنا التالي:

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ٨٢] —إعراض عن الإيمان—

﴿... وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة النّور, ٥٥] —ترك للإيمان —

[100] ربما كان مستند القائل بالتفسيق أن مخالفه في الرأي مكذب بآيات الله ! ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [سورة الأنعام, ٤٩]، وفي هذا سوء ظن بالمسلمين بلا مستند، وإذا لم يكن هذا هو قصده فلا مستند لرميه بالفسق.

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١٩﴾ [سورة الحشر, ١٩]

﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرًا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ١١٠﴾ [سورة آل عمران, ١١٠][101]

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧﴾ [سورة التوبة, ٦٧]

﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤٧﴾ [سورة المائدة, ٤٧] –تمرد وإعراض عن أمر الله–

﴿وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةٗ وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدٗاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٤﴾ [سورة النور, ٤] –خروج عن طاعة الله–

فلكي أصف مسلما بالفسق فيعني هذا أني أجزم بكفره وبنفاقه، وأنى لي ذلك، فما أطلعنا على بواطن الناس فلنا ظاهرهم، والظاهر يقول إن الدليل الذي استند عليه غير قطعي، إذا فالأمر قابل للخلاف! فلا يحق أن أرمي فيه المخالف بكذا أو كذا وإلا فله الحق في نفس الوصف، ونذكر للقارئ نموذجا للعقائد المظنونة[102]! باعتراف العلماء وهو عذاب القبر، وليس الغرض هنا التعرض لعذاب القبر بنفي أو بإثبات ولكن لأن له ذكرى خاصة معي، –حيث أنه أول موطن من مواطن العقيدة التي اكتشفت أنه طُعن فيه، فعندما كنا ندرس التوحيد في الأزهر قالوا لنا أن منكر عذاب القبر يفسق ولا يكفر،

(101) هذه الآية غير مرتبطة بالتوصيف "هم الفاسقون" ولكنها أتت من أجل الربط مع آية سورة التوبة والمرتبطة بوصف المنافقين الآمرين بالمنكر.

(102) اعلم أن أي عقيدة لا يكفر مخالفها لا يصح أن توصف بالعقيدة لأن معتمدها الظن والظن مذموم في دين الله.

فتعجبت من ذلك-،: جاء في فتوى أحد دور الإفتاء العربية ردا على سؤال سائل: ما حكم منكر عذاب القبر؟: "ثبت عذاب القبر في القرآن بطريق الإشارة في قوله تعالى في شأن فرعون وآله ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٦﴾] سورة غافر ,٤٦[، وثبت صراحة في أحاديث صحيحة وكثيرة حتى قيل بتواترها، فيجب الإيمان بثبوته فمن أنكره فهو فاسق ولا يحكم بكفره، لأن عذاب القبر وإن قيل بتواتره فهو ليس من الأمور التي علمت من الدين بالضرورة، وعلى الحاكم أن يعلّم ذلك ويكشف شبهته، فإن أصر بعد كشف الشبهة يُؤدب، ولا سيما إن كان يدعو لإنكار عذاب القبر. والله أعلم."اهـ

فإذا قُبل الخلاف في المسائل الفقهية استنادا إلى ظنية أدلة كل فريق فلما لا يقبل الخلاف في المسائل العقيدية اعتمادا على نفس المبدأ؟!

نخرج من هذا المبحث بأن المسائل العقيدية لا وسط فيها وهي إما كفر أو إيمان، أما القول بالتفسيق فهو من سوء الظن بالمسلمين ومن الاعتماد على الأدلة الظنية في إصدار الأحكام القطعية في حق الغير وهو مرفوض في حميع الأعراف.

الباب الثاني

العقائد

تمهيد

بعد أن تحدثنا في الباب الأول عن تأصيل عقائد الإسلاميين وكيف جرى التقعيد لها وإدخالها في زمرة العقائد الواجب الإيمان بها، مع أن جلها واقعة في دائرة الظنيات، عن السبب الأهم في وقوع الخلاف بين الفرق الإسلامية وهو جعلهم جلهم القرآن تابعا لما عندهم سواء كان روايات أو بعض المعارف العلمية أو المعتقدات العقلية، وعلى ضوء هذه المعارف والمعتقدات غير المسببة تم تأويل القرآن وإهماله وإبراز عقائد أخرى أخذت الصدارة في التأليف والتصنيف عند اتباع الفرق المختلفة والشيع المتناحرة.

ونظرا لأن جل هذه العقائد مستحدث بعد وفاة الرسول ومنها بعد انقضاء زمن الصحابة والتابعين فلقد كان للعناصر التاريخية دورا هاما في استحداث هذه العقائد، ولأن هذا الكتاب لا يود مناقشة نشأة الفرق الإسلامية والأطوار التاريخية التي مرت بها، وإنما يود التركيز على ثلاث نقاط رئيسة وهي:

1- وحدة المنهج بين كل الفرق الإسلامية، -بداهة ما عدا طائفة القرآنيين المستحدثة- فعلى الرغم من أن كل فرقة ترمى باقي الفرق بالضلال إلا أنها كلها – مشتملة المعتزلة- تتبع نفس المنهج في استخلاص العقائد الإسلامية، بداهة مع وجود بعض الفروق الطفيفة بين كل فرقة والأخرى، وسيلاحظ القارئ من خلال عرضنا لعقائد كل فرقة وحدة المنهج هذه وأنه ما رميت فرقة أخرى بالضلال لسبب إلا وعندها ما يماثله.

2- ظنية جل عقائد الإسلاميين، والظن يختلف باختلاف سببه، فمنه ظنية الثبوت وهذا ما سنجده في كثير من العقائد عند الفرق الإسلامية مثل المهدي والدجال والإمامة، ومنه ظنية الاستدلال، فعلى الرغم من وجود بعض العقائد يقينة الثبوت إلا أن الاستدلال بأدلتها يجري بطريقة غير صحيحة.

3- الدور الرئيس لموقف الفرقة من الحاكم أو السلطان في افتراق الفرق، فعلى الرغم من إقرارنا بوجود الاختلافات بين الفرق والطوائف الإسلامية، إلا أن الناظر يجد أن أمثال هذه الاختلافات أو أكبر منها موجود بين أتباع الطائفة نفسها، إلا أنه بسبب وحدة موقفهم من السلطان –واستغلال السلطان هذا الموقف في توحيدهم وعدم تفريقهم وإثارة العداوة بينهم– أصبحوا فريقا واحدا يجمعهم اسم واحد، على الرغم من وقوع الشقاق بينهم فيما مضى، ولكنهم أصبحوا الآن أكثر تسامحا في المسائل الخلافية الفقهية والعقدية على حد سواء ويعدونها من المسائل التي يتجاوز عنها ويُقبل الخلاف فيها بعد أن كان الخلاف فيها أشد ما يكون وأدى إلى تكفير الآخر أو تفسيقه.

ونضرب للقارئ أمثلة على ما نقول: كان التفاخر بين أتباع المذاهب بأئمتهم أشد ما يكون، حتى أننا وجدنا أنَّ المالكيَّة يقولون الشافعي غلام مالك والشافعيَّة يقولون أحمد بن حنبل غلام الشافعي، والحنابلة يقولون الشافعي غلام أحمد بن حنبل وقد ذكره أبو الحسن القرافي في الطبقات من أتباع أحمد!، والحنفيَّة يقولون إن الشافعيَّة غلام أبي حنيفة، لأَنَّهُ غلام محمَّد بن حسن، ومحمد غلام أبي حنيفة. قالوا لولا أنَّ الشافعي من أتباع أبي حنيفة لما رضينا أن ننصب معه الخلاف: وحتى أنَّ الشافعيَّة يطعنون بأنَّ أبا حنيفة من الموالد وأنَّه ليس قرشيًّا، وأحوج ذلك الحنفيَّة إلى الطعن في نسب الشافعي، وأنَّه ليس قرشيًّا بل من موالي قريش، ولا إمامًا في الحديث لأنَّ البخاري ومسلمًا أدركاه ولم يرويا عنه مع أنَّهما لم يدركا إمامًا إلاَّ روي عنه!! وبخلاف التفاخر والتعصب بالأئمة وجدنا خلافات هائلة في الفقه، فعلى سبيل المثال:

1- سئل شافعي عن طعام وقعت فيه قطرة نبيذ فقال: يرمى للكلب أو حنفي.

2- سُئل حنفي هل يجوز للحنفي أنَّ يتزوَّج شافعيّة فقال: لا. لأَنَّهُ يُشكُّ في دينِها.

3- أفتى حنفي بأنَّه يجوز للحنفي أن يتزوَّج شافعيَّةً قياسًا على أهل الكتاب، لأنَّ الزواج من أهل الكتاب جائز بالاتفاق.

4- سمع حنفي مأمومًا يقرأ الفاتحة فضربه على صدره حتَّى أوقعه أرضا.

5- قال مالكي إنَّ من حلف على أنَّ جميع ما في موطإ مالك من الأحاديث صحيح لا يحنث أمَّا من حلف أنَّ ما في البخاري أو مسلم من الأحاديث كلّه صحيح فإنَّه يحنث[103].

6- قال أبو الحسن الكرخي: "كلّ آية أو حديث تخالف ما قرّره علماء مذهبنا فهي إمَّا مؤوَّلة أو منسوخة."

هذا كان نموذجاً من بعض الخلافات الفقهية المذهبية والتي ظهرت في عصور الجمود والتحجر والتخلف ولكن على الرغم من ذلك ظل كل الفرق يعد الآخرين من أهل السنة، لم؟ لأن مرسوم العقيدة القادرية[104] عدهم كذلك!، ولكي يعرف القارئ كيف

---

[103] لم يأخذ صحيح البخاري هذه المنزلة منذ ظهوره، وإنما أخذها لاحقا وكان العلماء يفاضلون بينه وبين الموطأ.

[104] الوثيقة القادرية أو الاعتقاد القادري: هي وثيقة أصدرها الخليفة العباسي القادر بالله سنة 408هـ، حددتْ المعتقدات التي يجب على المسلمين اعتقادها، وتمنع معتقدات أخرى تحت طائلة العقوبة والنكال، وقد منعت هذه الوثيقة الاجتهاد؛ فكانت السبب في تأخر المسلمين؛ وهو تأخر لا زال إلى اليوم، وهذا هو نص العقيدة القادرية: يجب على الإنسان أنْ يعلم أنَّ الله جل جلاله وحده، لا شريك له، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولم يكن له شريك في الملك، وهو أول لم يزل، وآخر لا يزال، قادر على كل شيء، غير عاجز عن شيء، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، غنيّ غير محتاج إلى شيء، لا اله إلاَّ هو الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، يُطْعِمُ ولا يُطْعَمُ، لا يستوحش من وُحْدَةٍ، ولا يأنس بشيء، وهو الغني عن كل شيء، لا تخلفه الدهور والأزمان، وهو خالق الدهور والأزمان، والليل والنهار، والضوء والظلمة، والسماوات والأرض وما فيها من أنوع الخلق، والبر والبحر وما فيهما، وكل شيء حيٍ أو موات أو جماد، كان ربنا وحده، لا شيء معه، ولا مكان يحويه، فخلق كل شيء بقدرته، وخلق العرش لا لحاجته إليه، فاستوى عليه كيف شاء وأراد، لا استقرار راحة؛ كما يستريح الخلق، وهو مدبر السماوات والأرضين، ومدبر ما فيهما، ومن في البر والبحر، ولا مدبر غيره، ولا حافظ سواه، يرزقهم ويمرضهم ويعافيهم ويميتهم ويحييهم، والخلق كلهم عاجزون والملائكة والنبيون والمرسلون والخلق كلهم أجمعون، وهو القادر بقدرة، والعالم بعلم أزلي غير مستفاد، وهو السميع بسمع، والمبصر ببصر، يعرف صفتهما من نفسه، لا يبلغ كنههما أحد من خلقه، متكلم بكلام لا بآلة مخلوقة كآلة المخلوقين، لا يوصف إلاَّ بما وصف به نفسه، أو وصفه به نبيه صلوات الله عليه وكل صفة وصف بها نفسه؛ أو وصفه بها رسوله صلى الله عليه وسلم؛ فهي صفة حقيقية لا مجازية، ويُعلم أنَّ كلام الله تعالى غير مخلوق؛ تكلم به تكليما؛ وأنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم على لسان جبريل؛ بعد ما سمعه جبريل منه؛ فتلاه جبريل على محمد؛ وتلاه محمد على أصحابه؛ وتلاه أصحابه على الأمة، ولم يصر بتلاوة المخلوقين مخلوقا؛ لأنه ذلك الكلام بعينه الذي تكلم الله به؛ فهو غير مخلوق [فبكل] حال] الكلمة مطبوعة في المنتظم كما هي بين القوسين والأمر خطأ مطبعي أو خطأ في اللغة فلا بد أنْ تكون الكلمة "في كل حال"] وهنا يتواصل الكلام: متلوا ومحفوظا ومكتوبا ومسموعا، ومن قال: إنَّه مخلوق على حال من الأحوال؛ فهو كافر حلال الدم بعد الاستتابة منه، ويعلم أنَّ الإيمان قول وعمل ونية؛ وقول باللسان وعمل بالأركان والجوارح؛ وتصديق به يزيد وينقص: يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية،

كان ينظر أتباع الفرق السنية إلى أتباع الفرقة الأخرى السنية نذكر للقارئ نماذجا لذلك, والنماذج المذكورة من كتاب: "المسلك المحمود في معرفة الردود لسعيد بن تعاريت الجربي":

1- قال أبو الفرح بن الخطيب الحنبلي: المنتسبون في زماننا –القرن الثامن الهجري– إلى أهل السنَّة والجماعة من أتباع الأئمة الأربعة ثلاث طوائف، أشعريَّة، وماتريديَّة، وأثريَّة، فجمهور المالكيَّة وأكثر الشافعيَّة أشعريَّة، وغالب الحنفيَّة ماتريديَّة، وجمهور الحنابلة أثريَّة.

2- قال الصلاح الصفدي: غالب الشافعيَّة أشاعرة، والغالب في الحنفيَّة المعتزلة، والغالب في المالكيَّة قدريَّة، والغالب في الحنابلة حشويَّة...

وهو ذو أجزاء وشعب، فأرفع أجزائه لا اله إلاَّ الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الأيمان، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، والإنسان لا يدري كيف هو مكتوب عند الله، ولا بماذا يختم له، فلذلك يقول: مؤمن إن شاء الله، وأرجو أنْ أكون مؤمنا، ولا يضره الاستثناء والرجاء، ولا يكون بهما شاكا؛ ولا مرتابا، لأنه يريد بذلك ما هو مغيب عنه، من أمر آخرته وخاتمته، وكل شيء يتقرب به إلى الله تعالى؛ ويعمل لخالص وجهه من الطاعات: فرائضه، وسننه، وفضائله، فهو كله من الإيمان منسوب إليه، ولا يكون للإيمان نهاية أبدا؛ لأنه لا نهاية للفضائل؛ ولا للمتبوع في الفرائض أبداً، ويجب أنْ يحب الصحابة من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كلهم، ونعلم أنهم خير الخلق بعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنَّ خيرهم كلهم وأفضلهم بعد رسول الله ـ صلى الله علية وسلم ـ أبو بكر الصدِّيق، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان، ثم علي بن أبي طالب، رضي الله عنهم، ويشهد للعشرة بالجنة، ويترحم على أزواج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن سب سيدتنا عائشة ـ رضي الله عنها ـ فلا حظ له بالإسلام، ولا يقول في معاوية ـ رضي الله عنه ـ إلاَّ خيرا، ولا يدخل في شيء شجر بينهم، ويترحم على جماعتهم، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٞ رَّحِيمٌ ١٠﴾ [سورة الحشر ,١٠] وقال فيهم : ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ٤٧﴾ [سورة الحجر ,٤٧] ولا يكفر بترك شيء من الفرائض غير الصلاة المكتوبة وحدها، فإنه من تركها من غير عذر وهو صحيح فارغ حتى يخرج وقت الأخرى فهو كافر؛ وإنْ لم يجحدها، لقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: (بين العبد والكفر ترك الصلاة). فمن تركها فقد كفر، ولا يزال كافرا حتى يندم ويعيدها، فأنْ مات قبل أنْ يندم ويعيد أو يضمر أنْ يعيد، لم يصلَّ عليه وحشر مع فرعون وهامان وقارون وأبي بن أبي خلف، وسائر الأعمال لا يكفر بتركها، وإنْ كان يفسق حتى يجحدها، ثم قال: هذا قول أهل السنة والجماعة؛ الذي من تمسك به كان على الحق المبين؛ وعلى منهاج الدين والطريق المستقيم، ورجا به النجاة من النار؛ ودخول الجنة إنْ شاء الله تعالى، وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: وعلم الدين النصيحة، قيل: لمن يا رسول الله؟ قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين ولعامتهم. وقال عليه السلام: أيما عبد جاءته موعظة من الله تعالى في دينه، فإنها نعمة من الله سيقت إليه، فإن قبلها يشكر، وإلاَّ كانت حجة عليه من الله؛ ليزداد بها إثماً ويزاد بها من الله سخطا) جعلنا الله لألائه من الشاكرين؛ ولنعمائه ذاكرين، وبالسنة معتصمين، وغفر لنا ولجميع المسلمين.

3- ذكر الصفدي أنَّ العلاَّمة الماوردي الذي يحسبه الناس من أكابر الشافعيَّة من فضلاء المعتزلة.

4- قال الصفدي أيضًا: وأصحاب الرأي والتأويل الذين منهم أبو حنيفة وأصحاب الأشعري هم ضدَّ أصحاب الظاهر كالحنابلة وأتباع داود بن علي.

5- ذكر الشعراني أنَّ الوليد بن مسلم قال: لي مالك: أيذكر أبو حنيفة عندكم قلت: نعم، فقال: ما ينبغي لبلادكم أن تسكن.

6- ذكر السعد والراغم أنَّ الإمام أبا حنيفة من المرجئة.

7- قال ابن حبيب المالكي: في شرح غريب كتاب الجامح في حديث مالك، وقد سئل عن الداء العضال، قال أخبرنا مظرف أنَّهم سألوا مالكًا عن الداء العضال فقال: هو أبو حنيفة وأصحابه. وذلك أنَّه ضلَّل الناس بوجهين: الارجاء، ونقض السنن بالرأي، فهو عندنا، أشأم مولود في الاسلام ضلَّ به خلق كثير.

8- قال ابن حبيب: وقد كان من الرأي الزائغ على الحق أبي حنيفة وأصحابه، قتل المسلم بالكافر المعاهد.

9- قال الغزالي: كلّ فرقة تكفِّر مخالفتها فتنسبها إلى تكذيب الرسول عليه السلام. فالحنبلي يكفِّر الأشعري، زاعما إن كذب الرسول عليه السلام في إثبات الفوق لله تعالى، وفي الاستواء على العرش، والأشعري يكفّره زاعمًا أنَّه شبّه و كذب الرسول عليه السلام لأنَّه تعالى «ليس كمثله شيء».

10- ذكر ابن الشحنة أنَّ الحنابلة حكموا بكفران الأشعري وبإباحة دمه، وطمس قبره خوفاً عليه من أن ينشبوه وكذلك الحنيفية خطَّأُوا الأشعري.

11- قال القاضي عياض بتفكير الإمام الغزالي، وذلك أنَّه ذكر قول الجاحظ وتمامه ثمَّ قال: وقد نحا الغزالي قريبا من هذا المنحنى في كتابه التفرقة، وقائل هذا كلّه كافر.

12- قال الشيخ عليش عن الفخر الرَّازي: ولقد استرقوه في بعض العقائد فخرج فيه إلى قريب من شنيع أهوائهم (أي الفلاسفة) ولذا حذَّر الشيوخ من النظر في كثير من تآليفه.

13- كتب ابن الحداد كتابا في الرد على الشافعي وكان سيِّئ الرأي في أبي حنيفة.

14- قال الشافعي: ما رأيت كأهل مصر إتَّخذوا الجهل علما، لأنَّهم سألوا مالكا عن مسائل فقال لهم: ما أعلمها، فهم لا يقبلونها مِمَّن يعلمها لأنَّ مالكا قال لا أعلمها.

15- قال صاحب الفتاوي الخافية: إذا قال شافعي المذهب: إلاهي ما عرفناك حقَّ معرفتك، أو يقول: أنا مؤمن إن شاء الله تعالى أو يقول العمل في الإيمان، أو يقول الإيمان يزيد وينقص، لا تجز الصلاة خلفه.

16- قال القاضي عيَّاض: وكان الظهور في بني عبيد بإفريقيا لمذهب الكوفيّين لموافقتهم إياهم في مسألة التفضيل فكان فيهم القضاء والرئاسة وتشرَّف قوم منهم ميلاً من مسايلتهم واصطيادًا لدنياهم، وأخرجوا أضغانهم عن المدنيين فجرت المالكيَّة في تلك المدن محن.

17- ذكر صاحب المبسوط أنَّ الصلاة خلف الشافعي غير جائزة إذا كان متعصِّبا في مذهبه.

18- قال عمر بن الفضل: "من قال: الإيمان مخلوق لا تجوز الصلاة خلفه". وأُخرج الإمام البخاري من بخارى بسسب هذه المسألة.

19- نقل الشيخ علي القارئ أنَّه لا يصحُّ اقتداء الشافعي بالحنفي ولو حافظ على جميع الواجبات.

20- عرّض ابن الهمام بالمالكيَّة فاعتبرهم في قسم الجهل المركَّب حيث قال: وجهل من عارض مجتهدة الكتَّاب كحل متروك التسمية عمدًا،... والسنَّة المشهورة كالقضاء المشهور مع (واليمين على من انكر) والتحليل بلا وطء مع حديث العسيلة، فلا ينفذ القضاء في شيء منها...اهـ

هذه كانت بعض نماذج للخلافات بين المذاهب السنية –لاحظ التسمية مذاهب، فهي مذاهب داخل فرقة، أما الآخرين ففرق ضالة–، حيث نرى أن الخلاف بينها لم يكن يسيرا أو بسيطا ولكنهم على الرغم من ذلك اجتمعوا في فرقة واحدة يترحمون على بعضهم ولا يضللون إخوانهم، أما الآخرون فهم في ضلال مبين في كل ما خالفونا فيه.

ونبدأ الآن بعرض عقائد الفرق الإسلامية وتوضيح تشابهها ووحدة منهجها، ونود أن نوضح للقارئ أننا لن نتعرض لكل الفرق الإسلامية التي ظهرت وبادت حيث أننا لا نجد كتبها ولا نعرف ما تدعيه تحديدا فلا نستطيع أن نحكم عليها بناءً على ما ورد في كتب الخصم، ناهيك عن أن هذا العمل يتطلب عملا موسوعيا قد لا يقبل عليه كثير من القراء، ولا يستطيع غيري ولا أنا أن نأتيه بموضوعية تامة، ناهيك عن أنه انطلاقا من فقه الأولويات فمن الأولى أن نوفر للقارئ كتابا عن عقائد الفرق الإسلامية المعاصرة التي يسمع عنها ولا يعرف ما مبادئها وإلى ما تدعوا وما هو سبب الخلاف بيننا و بينها، وهل هناك سبب حقيقي لهذا التشتت ولتلك النزعات أم أنها عصبيات لمسميات تخلو من المضامين الحقيقية، كما لن نعرض للفرق التي نشأت في عصرنا الحديث، حيث أن نشأتها المتأخرة أكبر دليل على بطلانها أو لأنها لم تأت بجديد في جانب العقائد وإنما كان جل همها الجانب السياسي أو الفقهي فلا حاجة للتعرض لها، ما عدا فرقة الأحمدية فسنعرض لها، حيث سنوضح للقارئ كيف أن العقائد الفاسدة تنقلب على أصحابها وتستغل استغلالا ما كان يخطر لواضعه على بال.

ونبدأ الآن بعرض العقائد، وكم كنت أتمنى عندما أكتب أنا أو يكتب غيري عن العقائد أن تكون الكتابة عن العقائد فقط وهي ما تُستقى من الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فقط وما وافقه وتبعه من السنة الصحيحة، ولكن للأسف الشديد سيجد القارئ نفسه مضطرا للخوض في مسائل تاريخية متعلقة بأشخاص وأفراد حُشروا حشرا في كتب العقائد، ولما صار لهم هذا المكان وتلكم المكانة كان حتما ولزاما علينا أن نعرض ما يقوله الآخرين وأن نعرض كذلك لنشأة كل فرقة وللتعريف بها، ولكن سيكون التعريف قصيرا ولن تطيل فيه. وحرصا منا على الموضوعية

سنقوم بعرض التعريف بالفرق و بعقائدها من خلال كتب الفرق نفسها والتي يقدمونها لأتباعهم وللآخرين وكيف يرى الآخرون هذه العقائد وما السبب في رفضهم لها وإذا احتاج الأمر إلى النقد منا فسننقد. وليس الغرض من هذا الكتاب تطبيق قاعدة من لسانك أدينك ولا إثبات أن أهل السنة هي أصح الفرق وأن غيرها من الفرق باطلة المبنى عديمة المعنى ولكن أن نوضح أن المنهج المتبع عند جل الفرق منهج واحد، وبسبب هذه المنهج غير الصحيح في بعض نقاطه كان لا بد أن تقع كل الفرق في بعض الأخطاء العقيدية –من باب الزيادة– وتهاجمها الفرق الأخرى ناسية أو متناسية أنها تتبع نفس المنهج.

وقبل أن نبدأ في عرض الأقوال لا بد أن نذكر القارئ بقاعدة أساسية وهي: النقاش العقيدي الذي يدور في أي كتاب هو نقاش كتابي فقط، بمعنى أنه يوجد لدى العامة وهم كثير، في كل الفرق –ما عدا طائفة المعتزلة– معتقدات باطلة تخالف المسطور في الكتب، كما أنه توجد بعض العقائد التي عفا عليها الدهر وتبرأ منها العلماء الكبار ولكن يوجد بعض شيوخ الزوايا الذين لا يزالون يحيون هذه العقائد ويبثونها في الناس لاعتقادهم أن كل ما سطره الأقدمون هو من الحق البين المبين، أما علماء هذا الزمان فهم من الضائعين المضيعين، كما أنه يوجد الكثيرين ممن لم يسمعوا بهذه العقائد أو يعرفوا عنها شيئا، كما أنه يوجد طائفة عريضة من المثقفين في كل فرقة ترفض بعض العقائد المسطورة في كتب فرقهم وتقبل عقائد آخر تبعا لما تنكره وتقبله عقولهم. فليتذكر القارئ هذه القاعدة بالذات عندما نعرض لعقائد الشيعة ولأهل السنة بالذات. ولأننا في بلاد سنية سنعرض أولا لأهل السنة وما يندرج تحتها من فرق لا يزال لها أتباعها حتى أيامنا هذه وهم: أهل الحديث، الأشعرية، الماتريدية، المعتزلة والصوفية. ثم نعرض بعد ذلك لأهم فرقتين من فرق الشيعة وهما الإمامية والزيدية ثم نتحول بعد ذلك إلى الإباضية ثم ننتهي بالأحمدية.

لمّا كان لكل فرقة نقطة أساسية يدور حولها الجدل مع الفرق الآخرى وتتميز بها حتى أنه لا تكاد تذكر إلا وتذكر معها هذه المسألة أو أن هذه المسألة تكون مرتكزها الرئيس

والتي تتميز به عن غيرها من الفرق فمن البدهي والمنتظر أن تتم مناقشة هذه النقطة بتركيز أكبر من باقي المسائل مع هذه الفرقة، فعلى سبيل المثال سيتم التركيز على مسألة الإمامة عند الشيعة الاثنى عشرية أكثر من غيرها من مسائلهم العقيدية، كذلك سيتم تسليط الضوء على مسألة الخروج على الحاكم[105]!!! عند الحديث عن الإباضية كما سيتم التركيز على عقيدة المهدي المنتظر ونزول عيسى عند الحديث عن فرقة الأحمدية. ومن خلال هذا التركيز سيتضح للقارئ إذا كان الصواب مع هذه الفرق أو أنه جانبها في عقائدها هذه.

ونظرا لأن عقائد أهل السنة غير مجهولة بالنسبة للقارئ السني فسنعرض العقائد بشكل إجمالي كسرد بسيط ثم نقوم بعد ذلك عند التعرض لعقائد الفرق المخالفة بعرض أدلة أهل السنة تفصيلا من أجل المقارنة بين ما يقوله ويراه أهل السنة وبين ما تراه الفرق الأخرى. كذلك لن يتم التركيز بشكل كبير على الخلافات في الجزء المتعلق ب "ذات" الله عزوجل، حيث أن كثيرا من هذه الخلافات يخرج من جانب الاستدلال بالأدلة الشرعية إلى زاوية النقاشات الفلسفية والتي ستكون بالنسبة للقارئ غير المتخصص أشبه بالأحجيات والتي لن يخرج منها برأي نافع ناجع كما أنها لا تفيد في تقوية الإيمان في نفس الإنسان، كما أنها لم تلعب الدور الرئيس في الشقاق والخلاف بين المسلمين، بالإضافة إلى مجهوليتها عند الجمهور العريض من المسلمين بجميع طوائفهم، حتى الدارسين منهم بخلاف العقائد الأخرى التي يتمسكون بها ويعضون عليها بالنواجذ.

وبعد هذه المقدمة نبدأ بالتعريف بالفرق الإسلامية وعقائدها.

---

(105) ما علاقة هذه المسألة بالعقائد؟!!

الفرقة الأولى: أهل السنة والجماعة

أهل السنة والجماعة[106] هي أكثر الفرق الإسلامية عددا وأعرضها انتشارا، وتجمع تحتها الكثير من الطوائف أشهرها أهل الحديث، الأشاعرة والماتريدية وهم يمثلون الاتجاه الأثري الروائي المذهب، وكذلك المعتزلة وهم يمثلون التيار العقلاني في الفرقة، ثم الصوفية[107] وهي تمثل التيار الخرافي الابتداعي، وصفها بما يحلو لك من الصفات السلبية فستجدها مجتمعة فيها. وسبب اجتماع هذا الخليط العجيب هو العقيدة القادرية والتي سبق ذكرها للقارئ، والتي بسببها أدخلت المعتزلة في أهل السنة مع أنها كانت مرفوضة تمام الرفض من كل الطوائف المذكورة في أهل السنة. وسموا بأهل السنة: لأنهم الآخذين بسنة النبي صلى الله عليه وسلم العاملين بمقتضاها والمتمثلين لقول النبي صلى الله عليه وسلم من الشرع والدين والهدى الظاهر والباطن وتلقاه عنهم التابعون ثم تابعوهم ثم أئمة الهدى العلماء والعدول المقتدون بهم ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين وسموا بالجماعة فلأنهم اجتمعوا على الحق وأخذوا به واقتفوا أثر جماعة المسلمين المستمسكين بالسنة من الصحابة والتابعين وأتباعهم، ولأنهم اجتمعوا على الحق وعلى اتباع جماعة أهل السنة والحق، ولأنهم يجتمعون على أئمتهم ويجتمعون على الجهاد وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ويمكن القول إن الرابط العجيب بين هذه الطوائف كلها هو الموقف من إمامة علي وأنها لم تكن بالنص من الرسول بل تركها الرسول شورى للمؤمنين.

---

[106] إذا سألنا أي مسلم سني: ما هو سبب التسمية؟ أليس من الأولى أن نسمي أنفسنا مسلمين فقط؟ أو حتى أهل القرآن؟ فسنجد نفس الإجابة التي سنسمعها من كل أتباع الفرق الأخرى: نحن مسلمون فقط وما رضينا بهذه التسمية إلا من باب التمييز عن الآخرين المخالفين لنا من أهل البدع والأهواء والضلال. أي أنها تسمية سلب، والعجيب أن كل الفرق الإسلامية تقبل هذه المميزات السالبة وتترك المائز الإيجابي "مسلم" فقط.!

[107] شتان ما بين الزهد وهو مسلك إسلامي حميد وبين التصوف والذي هو خليط من ديانات وأفكار أرضية فلسفية، وهذا ما سيجده القارئ عند التعرض لعقائد الصوفية.

وقبل أن نعرض لعقائد أهل السنة[108] لا بد أن نوضح أن هذا الفصل الحاد بين السنة والشيعة لم يكن موجودا منذ بداية عصر الخلفاء الراشدين بل ظهر لاحقا في عصور متأخرة وفي هذا يقول أحمد الكاتب: "إن المسلمين في القرون الثلاثة الأولى لم يكونوا يعرفون الانقسام الطائفي الحاد، حيث لم يكن اسم "أهل السنة" يطلق إلا على مجموعة صغيرة من "أهل الحديث" ولم يكن اسما عاما على طائفة مقابل "الطائفة الشيعية". حيث كان يوجد تداخل كبير بين تيارات الشيعة المختلفة من محبي أهل البيت من الزيدية والإمامية والمعتزلة وأهل الحديث، من العلويين والعباسيين وغيرهم، بصورة يصعب فيها إطلاق وصف شيعي أو سني على أي شخص، فضلا عن إطلاقه على عامة الناس. ولعل أبرز مثل على ذلك هو الامام الشافعي الذي اعتبر بعد وفاته أنه إمام من أئمة أهل السنة، بينما كان يتهم في حياته بأنه شيعي أو رافضي. وكذلك المؤرخ الطبري، الذي صُنِّف مؤخرا على أنه شيعي، بينما كان المتطرفون من أهل السنة، أي الحنابلة، يتهمونه بالتشيع والرفض. وفيما اعتبر الإمامية أئمة أهل البيت، أئمة خاصين بهم، كان عامة "أهل السنة" يعتبرونهم أئمة لهم ويوالونهم ويحبونهم." اهـ [109]

ونبدأ الآن بعرض عقائد أول فرقة من فرق أهل السنة وهي عقيدة أهل الحديث، وسنجد أن جزءا كبيرا من عقائد باقي طوائف أهل السنة –وكذلك غير أهل السنة– يشترك مع هذه العقائد، لذا عند الحديث عن هذه الطوائف سيتم ذكر نقاط الخلاف بين هذه الفرق وبين هذه العقائد حتى لا يؤدي ذلك إلى تكرار، وكالعادة قبل عرض عقائد الفرقة نقوم بالتعريف بها: أهل الشيء أخص الناس به، وجاء في اللغة: أهل الرجل أخص الناس به. فأهل الحديث: هم أخص الناس به وأكثرهم تمسكاً به، واتباعاً له قولاً وعملاً في الأخلاق والسلوك والعبادة والمعاملة، وفي الاعتقاد ظاهراً وباطناً، ويدخل فيهم دخولاً

[108] هذه التسمية غير مانعة الإطلاق، فكل الفرق ترى أنها أهل السنة، فلا نجد أي فرقة من الفرق الإسلامية ردت السنة –إلا القرآنيين– ولكن كان هناك اختلاف في منهج التلقي والتصحيح والتضعيف بين الفرق الإسلامية.

[109] أحمد الكاتب، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ.

أولياً من كان مشتغلاً به سماعاً وجمعاً وكتابةً وتعليماً، رواية ودراية، تصحيحاً وتضعيفاً[110].

عقيدة أهل الحديث[111]

– يرى أهل الحديث أن "مصدر العقيدة هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وإجماع السلف الصالح.". ولنا هنا أن نتساءل: أين الدليل على حجية الإجماع من الكتاب أو السنة الصحيحة،سواءً كان للسلف الصالح أو الخلف الطالح؟! وإذا كان من الممكن قبول الإجماع في مسائل الفقه التي تُبنى وتؤسس على قواعد كلية مستنبطة، فإنه لا يساوي جناح بعوضة في مسائل الاعتقاد الإيمانية.

– "كل ما ورد في القرآن الكريم هو شرع للمسلمين وكل ما صَحَّ من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب قبوله وإن كان آحادًا."

وهنا يختلف أهل الحديث عن غيرهم من أتباع أهل السنة، حيث أن أهل الحديث لا يفرقون بين أخبار الآحاد والمتواتر في قبول العقائد أيضا بخلاف الأشاعرة والمعتزلة والذين يشترطون حصول التواتر وإلا يكون اتباعا للظن.

– أصول الدين كلها قد بينها النبي صلى الله عليه وسلم فليس لأحد تحت أي ستار، أن يحدث شيئًا في الدين زاعمًا أنه منه.

---

[110] العجيب أن يقرأ المرء أقوالا مثل قول ابن تيمية: "–وأهل الحديث هم الفرقة الناجية فمن لم ينج باتباع الحديث فبما ينجو؟ "أحقّ الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية أهل الحديث والسنة الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله (صلى الله عليه وسلم)"، ومثل قول الإمام أحمد عن الطائفة المنصورة: "إن لم يكن هم أصحاب الحديث فما أدري من هم!".!! ونقول للإمام ابن تيمية: النجاة في اتباع القرآن بدون تعصب بل بامتثال وخضوع تامين نابعين من يقين بصدق المحتوى وعلو المقام. ولست أدري كيف لا يعرف الإمام أحمد أنهم أهل القرآن، ولكن كل هذا نابع من علو السنة عندهم على القرآن غير المبين!!

[111] نقلا عن موسوعة الأديان والمذاهب العالمية، إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي، منقول بتصرف كبير.

– التسليم لله ولرسوله فلا يعارض شيء من الكتاب أو السنة الصحيحة بقياس ولا ذوق إلخ.

– العقل الصريح موافق للنقل الصحيح ولا تعارض قطعيًّا بينهما وعند توهم التعارض يقدم النقل على العقل.

– يجب الالتزام بالألفاظ الشرعية في العقيدة وتجنب الألفاظ البدعية (هل طبقوا هذه القاعدة؟!)

– العصمة ثابتة للرسول، والأمة في مجموعها معصومة من الاجتماع على ضلالة، أما آحادها فلا عصمة لأحد منهم... (والأمة في نظرهم هي أهل الحديث أو مع كثير من الكرم أهل السنة بدون المعتزلة أما الشيعة والإباضية فنفض يدك منهم فليسوا منها بشيء!!)

– كل محدثة في الدين بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

– التوحيد العلمي الاعتقادي: الأصل في أسماء الله وصفاته: إثبات ما أثبته الله تعالى لنفسه أو أثبته له الرسول الله المعصوم من غير تمثيل؛ ولا تكييف ونفي ما نفاه الله تعالى عن نفسه أو نفاه عنه رسوله من غير تحريف ولا تعطيل، كما قال تعالى: "ليس كمِثْلِه شيءٌ وهو السميع البصير" مع الإيمان بمعاني ألفاظ النصوص، وما دلّت عليه. (كيف يجتمع هذا مع البلكفة ومع استخراج الصفات من الأفعال؟)

– الإيمان بالملائكة الكرام إجمالاً، وأما تفصيلاً، فبما صحّ به الدّليل من أسمائهم وصفاتهم، وأعمالهم بحسب علم المكلف.

– الإيمان بالكتب المنزلة جميعها، وأن القرآن الكريم أفضلها، وناسخها، وأن ما قبله طرأ عليه التحريف، وأنه لذلك يجب إتباعه دون ما سبقه.

– الإيمان بأنبياء الله، ورسله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ وأنهم أفضل ممن سواهم من

البشر، ومن زعم غير ذلك فقد كفر. (المقطع الأخير ردا على قول بعض الشيعة الإمامية والذين يقولون بأفضلية الأئمة على الرسل!!)

– الإيمان بانقطاع الوحي بعد محمد المصطفي وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، ومن اعتقد خلاف ذلك كَفَر.

– الإيمان باليوم الآخر، وكل ما صح فيه من الأخبار، وبما يتقدمه من العلامات والأشراط. (مثل ظهور الدجال والمهدي المنتظر ونزول عيسى بن مريم، وطلوع الشمس من مغربها)

– الإيمان بالقدر، خيره وشره من الله تعالى، وذلك: بالإيمان بأن الله تعالى علم ما يكون قبل أن يكون وكتب ذلك في اللوح المحفوظ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فلا يكون إلا ما يشاء، والله تعالى على كل شيء قدير وهو خالق كل شيء، فعال لما يريد.

– الإيمان بما صحّ الدليل عليه من الغيبيات، كالعرش والكرسي، والجنة والنار، ونعيم القبر وعذابه، والصراط والميزان، وغيرها دون تأويل شيء من ذلك.

– الإيمان بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم وشفاعة الأنبياء والملائكة، والصالحين، وغيرهم يوم القيامة.(وأن النبي (ص) والمؤمنون يخرجون عصاة المؤمنين من النار!)

– رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة في الجنة وفي المحشر حقّ، ومن أنكرها أو أوَّلها فهو زائغ ضال، وهي لن تقع لأحد في الدنيا.

– كرامات الأولياء والصالحين حقّ، وليس كلّ أمر خارق للعادة كرامة، بل قد يكون استدراجًا. وقد يكون من تأثير الشياطين والمبطلين، والمعيار في ذلك موافقة الكتاب والسنة، أو عدمها. (كذلك يؤمن أهل الحديث بوجود الجن وأنه كائن عاقل مكلف مخلوق من النار، له القدرة على التشكل والظهور للإنسان وعلى الإتيان بالأعمال الخارقة وأن عاصيه في النار واختُلف في الطائع منهم، ماذا يكون ثوابه)

– التوحيد الإرادي الطلبي (توحيد الألوهية).

– الله تعالى واحد أحد، لا شريك له في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه، وصفاته وهو رب العالمين، المستحق وحده لجميع أنواع العبادة.

– لا يعلم الغيب إلا الله وحده، واعتقاد أنّ أحدًا غير الله يعلم الغيب كُفر، مع الإيمان بأن الله يُطْلع بعض رسله على شيء من الغيب

– الإيمان قول، وعمل، يزيد، وينقص، فهو: قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح.

– مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، فهو في الدنيا مؤمن ناقص الإيمان، وفي الآخرة تحت مشيئة الله إن شاء غفر له وإن شاء عذبه، والموحدون كلهم مصيرهم إلى الجنة وإن عذِّب منهم بالنار من عذب، ولا يخلد أحد منهم فيها قط.

– لا يجوز القطع لمعيَّن من أهل القبلة بالجنة أو النار إلا من ثبت النص في حقه. (النص الظني وهو رواية الآحاد طبعا!، فلم يأت النص القطعي على دخول أي مؤمن الجنة! وهذا القول نابع من اعتقادهم بجواز تخلف الوعيد على الله، فهم يرون أن الله لا يخلف وعده ولكن من الجائز أن يخلف وعيده، لذا فمهما عصى الموحد فمن الممكن أن يُدخل الجنة!)

– القرآن والكلام: القرآن كلام الله (حروفه ومعانيه) مُنزل غير مخلوق؛ منه بدأ؛ وإليه يعود، وهو معجز دال على صدق من جاء به صلى الله عليه وسلم. ومحفوظ إلى يوم القيامة.

– القدر: من أركان الإيمان، الإيمان بالقدر خيره وشره، من الله تعالى.

– العباد وأفعالهم من مخلوقات الله تعالى، الذي لا خالق سواه، فالله خالقٌ لأفعال العباد، وهم فاعلون لها على الحقيقة.

– إثبات الحكمة في أفعال الله تعالى، وإثبات الأسباب بمشيئة الله تعالى."اهـ

هذه كانت أهم عقائد أهل الحديث والتي سنجد لها مخالفا عند بعض أو كل الفرق الأخرى. والأدلة على معظم هذه العقائد هي من مشتهرات الإسلام وأسسه فلا تحتاج إلى التدليل عليها فأدلتها معروفة لدى العامة والخاصة. ولكن لما كان من الضروري عرض بعض العقائد و الأدلة عليها حتى لا يقال إن عقائد أهل السنة تعرض كلها بلا أدلة، ولما كان فعلا بعض العامة لا يعرفون ما هي أدلة هذه العقائد ومرتبتها في الشرع فسنقوم بعرض الأدلة على بعض العقائد مثل نعيم القبر وعذابه والصراط والميزان والحوض وزيادة الإيمان ونقصانه، أما أدلة أهل السنة في المسائل الخلافية مثل رؤية الله وما شابه فسنذكرها عند الرد أو التعليق على عقائد الفرق الأخرى:

1– عذاب القبر ونعيمه

يؤمن أهل السنة بوجود حياة في القبر يطلقون عليها الحياة البرزخية، يتنعم فيها الإنسان ويعذب قبل يوم القيامة ولكن هناك خلاف هل هذا النعيم أو العذاب بالجسد والروح أم بالروح فقط؟ أما أهل الحديث فيرون أنه بالروح والجسد بطريقة وكيفية يعلمها الله تعالى لأنه من الغيبيات، وأدلتهم على عذاب القبر ونعيمه من القرآن: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ٤٦﴾ [سورة غافر, ٤٦]، **وقوله تعالى:** ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ١٢٤﴾ [سورة طه, ١٢٤]، **وقوله:** ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ ... ٢٧﴾ [سورة إبراهيم, ٢٧] **وقوله:** ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٢١﴾ [سورة السجدة, ٢١]

ونلاحظ عند النظر في هذه الآيات أنه لا دليل صريح فيها على ما يقولون، فكلها بلا استثناء لا تشير إلى عذاب في القبر أو ما شابه، فالإعراض عن ذكر الله يوجِد معيشة ضنكا في الدنيا هذا بدهي، والتثبيت بالقول الثابت في الحيوة الدنيا وعجبا لمن يجعل الحيوة الدنيا هي الحياة في القبر، والحياة الدنيا في القرآن كله هي الحياة العادية والدليل أنه قرنها في الآية بالآخرة فيكون حتما المقصود الدنيا التي نحياها وإلا هل سيثبت الله الذين ءامنوا في القبر وفي الآخرة ويتركهم في الدنيا، وأما الاستدلال بآية السجدة فهو ما يضحك الثكلى فالله تعالى يقول في آخر الآية: "لعلهم يرجعون", وهذا أكبر دليل على أنه في حياتهم، ولكن على الرغم من ذلك نجد من يلوي أعناق الآية ليجعلها في القبر واقرأ إن شئت تعليق ابن القيم على هذه الآية. طبعا لم يبق إلا الآية الأولى والتي يرونها الدليل القاطع على عذاب القبر والناظر في تفسيرات القوم يجد أن جلها إن لم يكن كلها قلبت الآية تماما، فالله تعالى يقول: ﴿ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗاۚ ... ﴿٤٦﴾﴾ [سورة غافر ,٤٦] ولكن السادة المفسرين يصرون باستماتة أنها تعني "النار تعرض عليهم"! فهل تفسيرهم هو ما قاله القرآن؟!

سيقول القارئ: بغض النظر عن عرضهم أو عرض النار، ألا تشير الآية إلى عذاب في القبر؟ نقول: لا، الآية صريحة على أن هذا العرض كان في الدنيا، أما التفصيل في توضيح ذلك فليس هذا مكانه فليس غرضنا هنا إثبات عذاب القبر أو نفيه ولكن كل ما نقصد مناقشة أدلة كل فريق فيما يستدلون به. أما أدلتهم من السنة فهناك الكثير من الأحاديث والتي زعموا أنها وصلت درجة التواتر! وبعض هذه الأحاديث والروايات هو السبب في تفسير هذه الآيات هذا التفسير العجيب، لذلك نجدهم عندما يستدلون بهذه الآيات يشعرون أن الاستدلال بها بعيد عما يرومون لذلك يبررون ذلك بأن هذا هو استدلال النبي المعصوم، فعلى سبيل المثال يقول محمد بن عبد الرحمن الخميس عند حديثه عن آية إبراهيم: "وقد استدل بها النبي صلى الله عليه وسلم على إثبات عذاب القبر، فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب وفيه قوله صلى الله

عليه وسلم: «المسلم إذا سئل في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾"اهـ[112]

كما يستدلون ببعض الأحاديث مثل حديث نافع عن ابن عمر مرفوعا –في البخاري–: «إن أحدكم إذا مات عُرض عليه مقعده بالغداة والعشي، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، فيقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة» وغيره كثير من الأحاديث. ونخرج من هذا بأن عذاب القبر لا أصل صريح له في القرآن والعمدة فيه هو السنة فقط.

2– الصراط

يؤمن أهل الحديث بالصراط وهو جسر ممدود على ظهر جهنم من يعبره ويجوزه فقد فاز ودخل الجبة وإلا فيسقط في النار ويصير من الخاسرين، وأدلتهم على ذلك من القرآن: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [سورة مريم, ٧١-٧٢]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم ... ﴿١٢﴾﴾ [سورة الحديد, ١٢] وغير ذلك من الآيات. والناظر في كل ما يستدلون به من القرآن يجد أنه لا علاقة له بالوصف الذي يرونه في الصراط فالآيات لا تذكر ذلك البتة. فيكون أساس كل معتقدهم في هذه المسألة هو السنة، وأما عند الحديث عن أدلتهم من السنة فيقولون: "فيه أحاديث كثيرة منها: قوله صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة: «يؤتى بالجسر فيجعل بين ظهري جهنم"، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: "مدحضة مزلة عليه خطاطيف وكلاليب وحسكة مفلطحة لها شوكة عُقيفاء تكون بنجد، يقال لها السعدان،

[112] محمد بن عبد الرحمن الخميس، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث.

يمر المؤمن عليها كالبرق وكالريح وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحبا». الحديث في الصحيح، وقال أبو سعيد رضي الله عنه: بلغني أن الجسر أدق من الشّعرة وأحد من السيف"اهـ[113]

نخرج من هذا بأن الصراط بالوصف الذي يقولون به لا أصل ولا دليل له في القرآن والاعتماد فيه على السنة فقط.

3- الميزان

كما يؤمن أهل السنة بميزان الأعمال يوم القيامة، والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب ومن السنة، فمن القرآن قوله تعالى في الأعراف: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٨﴾ [سورة الأعراف, ٨] وقوله تعالى في الأنبياء: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ۝٤٧﴾ [سورة الأنبياء, ٤٧]، ومن السنة ما رواه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني عن النبي صلى الله عليه وسلم: "الميزان بيد الرحمن، يرفع قوما ويضع قوما ..."، وغير ذلك من الأحاديث. ولا خلاف بين عموم المسلمين في مسألة الميزان ولكن الخلاف في شكل هذا الميزان وهيئته، فلقد ورد في الحديث "أنه له لسان وكفتان" وهذا يسبب إشكالا كبيرا، فكيف يوزن بمثل هذا الميزان الأعمال وهي حتما غير مادية. والذي تطمئن إليه النفس أن هذه الرواية غير صحيحة وأن الميزان والموازين يوم القيامة ستكون بشكل يعلمه الله تعالى، فإذا نحن استطعنا الآن أن نقيس الحرارة بالمدراج –الترمومتر– وما كان يتصور أحد في الماضي أن الحرارة تقاس،

[113] حافظ بن أحمد حكمي، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة.

فكذلك ستوزن الأعمال يوم القيامة بشكل يعلمه الله تعالى. نخرج من هذا أن الوزن ثابت بالكتاب والسنة ولا مراء فيه.

4- الحوض

كما يؤمن أهل الحديث والسنة بحوض النبي المعصوم يوم القيامة وهو حوض يشرب منه المؤمنون يوم القيامة ولكن اختلف في موضعه، هل هو قبل الوزن أم بعده، قبل العبور على الصراط أم بعده. ولا دليل على الحوض في القرآن الكريم وإنما كل الأدلة من السنة النبوية، وزعموا أيضا أنها بلغت حد التواتر، من هذه الأحاديث: مَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ قَدْرَ حَوْضِي كَمَا بَيْنَ أَيْلَةَ إِلَى صَنْعَاءَ مِنَ الْيَمَنِ، وَإِنَّ فِيهِ مِنَ الْأَبَارِيقِ كَعَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ». وَعَنْهُ أَيْضًا عند مسلم عنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِي، حَتَّى إِذَا عَرَفْتُهُمُ اخْتَلَجُوا دُونِي، فَأَقُولُ: أُصَيْحَابِي، فَيَقُولُ: لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ».

ولكن ما هو وصف هذا الحوض؟ يقولون: "وَالَّذِي يَتَلَخَّصُ مِنَ الْأَحَادِيثِ الْوَارِدَةِ فِي صِفَةِ الْحَوْضِ: أَنَّهُ حَوْضٌ عَظِيمٌ، وَمَوْرِدٌ كَرِيمٌ، يُمَدُّ مِنْ شَرَابِ الْجَنَّةِ، مِنْ نَهْرِ الْكَوْثَرِ، الَّذِي هُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَبْرَدُ مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَطْيَبُ رِيحًا مِنَ الْمِسْكِ، وَهُوَ فِي غَايَةِ الِاتِّسَاعِ، عَرْضُهُ وَطُولُهُ سَوَاءٌ، كُلُّ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ مَسِيرَةُ شَهْرٍ. وَفِي بَعْضِ الْأَحَادِيثِ: أَنَّهُ كُلَّمَا شُرِبَ مِنْهُ وَهُوَ فِي زِيَادَةٍ وَاتِّسَاعٍ، وَأَنَّهُ يَنْبُتُ فِي حَالٍ مِنَ الْمِسْكِ وَالرَّضْرَاضِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ قُضْبَانَ الذَّهَبِ، وَيُثْمِرُ أَلْوَانَ الْجَوَاهِرِ، فَسُبْحَانَ الْخَالِقِ

الَّذِي لَا يُعْجِزُهُ شَيْءٌ. وَقَدْ وَرَدَ فِي أَحَادِيثَ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا، وَإِنَّ حَوْضَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْظَمُهَا وَأَحْلَاهَا وَأَكْثَرُهَا وَارِدًا»اه [114].

إذا نخرج من هذا بأن الحوض مستنده السنة فقط وليس القرآن.

5- زيادة الإيمان ونقصانه

كذلك يؤمن أهل الحديث بأن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص وفي هذا يقول محمد بن عبدالرحمن الخميس: "هذا هو قول أهل السنة والجماعة في مسألة الإيمان، وهو ما قرره الحافظ أبو بكر الإسماعيلي في كتابه اعتقاد أئمة أهل الحديث، حيث قال: "ويقولون إن الإيمان قول وعمل ومعرفة، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، من كثرت طاعته أزيد إيمانا ممن هو دونه في الطاعة ".

وكذا شيخ الإسلام أبو عثمان إسماعيل الصابوني في كتابه عقيدة السلف أصحاب الحديث حيث قال: "ومن مذهب أهل الحديث أن الإيمان قول وعمل ومعرفة يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية ". فالأدلة من الكتاب والسنة متضافرة على أن الإيمان قول واعتقاد وعمل، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأجمع عليه أهل العلم، قال تعالى: ﴿... وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾] سورة البقرة ,١٤٣[. قال الحليمي في كتابه المنهاج: "أجمع المفسرون على أنه أراد صلاتكم إلى بيت المقدس فثبت أن الصلاة إيمان وإذا ثبت ذلك فكل طاعة إيمان إذ لم أعلم فارقا فرق في هذا التسمية بين الصلاة وسائر الطاعات". (وإجماعهم على فرض تحققه ليس بحجة، فالإيمان في الآية هو الإيمان، وليس المراد به الصلاة بأي حالا، فهذا مما لا يقبل عقلا! –المؤلف–) وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ

---

[114] علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية.

وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾] سورة الأنفال ,٢[. وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «الإيمان بضع وستون شعبة، والحياء من الإيمان». أخرجه البخاري، زاد مسلم في رواية «فأفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». قال ابن منده: "فجعل الإيمان شعبا بعضها باللسان وبعضها بالقلب وبعضها بسائر الجوارح". وعقد البخاري باب (زيادة الإيمان ونقصانه) وقول الله تعالى: ﴿... وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾﴾] سورة الكهف ,١٣[، ﴿... وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ... ﴿٣١﴾﴾]سورة المدّثّر ,٣١[. وقال: ﴿... ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ﴿٣﴾﴾] سورة المائدة ,٣[. فإذا ترك شيئا من الكمال فهو ناقص".[115] اهـ

وهناك من قال إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهو قول المرجئة، وهناك من قال إن الإيمان يزيد ولا ينقص، واستدل بنفس الأدلة التي استدل بها أهل الحديث، ثم قال إن الآيات تتحدث عن زيادة في الإيمان ولم تذكر النقص فلا يقال إلا ما في النص، كما أن الإيمان لو نقص لصار فسقا وفي هذه الحالة ينتزع منه مسمى الإيمان.

كانت هذه بعض نماذج لمعتقدات أهل الحديث وأهل السنة وذكرنا معتمدهم فيها عند تأصيلهم لهذه العقائد، فوجدنا منها ما له أصل في الكتاب والسنة ومنها ما له أصل غير صريح في القرآن وله أدلة من السنة ومنها ما ليس له أصل في القرآن وكل معتمده السنة. إلا أننا وبخلاف كل هذا نجد بعض المسائل والتي لا دليل عليها من كتاب أوسنة مثل مسألة خلق القرآن، وتحشر حشرا في مسائل العقائد، فعلى الرغم من أن كل فرق أهل السنة ترفض القول بأن القرآن مخلوق بل وقد وصل الأمر إلى القول بتكفير القائل بخلق القرآن، إلا أن المرء لا يجد على ذلك دليلا صريحا من الكتاب أو حتى أي دليل من السنة ولا ذكر لهذه المسألة فيهما أساسا ولست أدري متى كان الاختلاف في المسائل العقلية التي لا نص فيها إثباتا أو نفيا يؤدي إلى تكفير المخالف؟!. ويلاحظ الناظر في مذهب أهل الحديث أنهم من أشد الناس تمسكا بقولهم وثباتا على أقوالهم،

[115] محمد بن عبد الرحمن الخميس، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث.

فلم نر ذلك التغير الكبير بين متقدميهم ومتأخريهم، وإن كانت نزعة التجسيم الموجودة عند أهل الحديث قد خفتت كثيرا وتم تجاوز نصوص التجسيم الواردة في السنة والسكوت عنها بشكل كبير. وبعد أن تكلمنا عن أهم معتقدات أهل الحديث ننتقل للحديث عن الأشاعرة.

الأشاعــرة

وكالعادة نبدأ بالتعريف بالفرقة ثم الحديث عن أهم عقائدها.

الأشاعرة فرقة كلامية تنتسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري وتنتهج أسلوب أهل الكلام في تقرير العقائد والرد على المخالفين. ومؤسس الفرقة هو الإمام أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. وكان الأشعري في صغره وشبابه معتزلياً, حيث لازم الأشعري زوجِ أمه شيخ المعتزلة في زمنه أبي علي الجبائي، فعنه أخذ الاعتزال حتى تبحر فيه وصار من أئمته ودعاته. ثم تحول بعد ذلك عن الاعتزال حيث مكث فترة تناهز الخمسة عشر يوما معتزلا الناس ثم خرج إلى الناس في المسجد الجامع، وأخبرهم أنه انخلع مما كان يعتقده، كما ينخلع من ثوبه، ثم خلع ثوبا كان عليه.

وعند الحديث عن عقائد الأشاعرة نجد أن هناك من يفرق بين أشعرية الأشعري وأشعرية المتأخرين حتى أن بعض العلماء قال: "لو حُدّث الأشعري عمن له إلى رأيه انتماء لقال أخبرهم بأني مما يقولونه براء "لما رأه من التباين والاختلاف الظاهرين بين أقوال المتأخرين وما كانت عليه عمدة المذهب في أول نشأته ويمكن التمثيل لهذه المسائل بمثالين[116]: المثال الأول: القول في الصفات الخبرية كصفة الوجه واليدين والعينين، فقد كان رأي الإمام أبي الحسن رحمه الله في هذه الصفات موافقا لرأي الكلابية الذين يثبتون هذه الصفات لله عز وجل، وقد نص أبو الحسن رحمه الله على إثباتها في الإبانة وفي رسالته لأهل الثغر، في حين ذهب متأخروا الأشعرية إلى تأويل تلك الصفات، يقول الإيجي في صفة اليد: "الخامسة اليد: قال تعالى: ﴿... يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡ ... ﴾]سورة الفتح, ١٠[، ﴿... مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ ... ﴾] سورة ص, ٧٥[فأثبت الشيخ صفتين ثبوتيتين زائدتين وعليه السلف وإليه ميل القاضي في بعض كتبه، وقال الأكثر إنها مجاز عن القدرة فإنه شائع، وخلقته بيدي أي بقدرة

---

(116) منقول بتصرف عن مقال في صفحة www.islamweb.net

كاملة". المثال الثاني: صفة العلو والاستواء[117] حيث أثبت الأشعري رحمه الله صفة علو الله واستوائه على عرشه، كما جاء في الإبانة: "إن قيل ما تقولون في الإستواء؟ قيل له: نقول: إن الله عز وجل يستوى على عرشه استواء يليق به.. كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه ,٥] وقال في مقالات الإسلاميين: "جملة ما عليه أهل الحديث والسنة الإقرار بالله وملائكته وكتبه ورسله.. وأن الله سبحانه على عرشه، كما قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه ,٥]اهـ.

بل إنه رحمه الله رد على من أوّل استواءه سبحانه بالقهر، فقال في الإبانة: "وقد قال قائلون من المعتزلة والجهمية والحرورية إن معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه ,٥] أنه استولى وملك وقهر وأن الله تعالى في كل مكان وجحدوا أن يكون الله عز وجل مستو على عرشه كما قال أهل الحق وذهبوا في الاستواء إلى القدرة، ولو كان هذا كما ذكروه، كان لا فرق بين العرش والأرض السابعة لأن الله تعالى قادر على كل شيء "فهذا كان رأي الإمام الأشعري، أما متأخروا الأشاعرة، فيقول الإيجي في مواقفه "الصفة الثالثة: الإستواء لما وصف تعالى بالإستواء في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ ۝٥﴾ [سورة طه ,٥] اختلف الأصحاب فيه، فقال الأكثرون: هو الاستيلاء ويعود الاستواء حينئذ إلى صفة القدرة،كما قال الشاعر:

قد استوى عمرو على العراق　　من غير سيف ودم مهراق

وبداهة لم تظهر الأشعرية كفرقة أو مذهب إلا بعض وفاة الإمام الأشعري واقتناع بعض العلماء بأفكاره واتباعهم لها مع إجراء بعض التعديلات والتحويرات على أفكار

[117] كما أسلفنا الذكر فالاستواء ليس وصفا لله عزوجل ولكنه فعل فعله الله، ولا يمكن أن يصير الفعل صفة ! كما نُذّكر بالآيات التي تتحدث عن وجود الله في السماء مثل "ءأمنتم من في السماء" والتي أولت بمعنى "على السماء"!! والتي تتحدث عن وجوده في السماوات والأرض –بدون اتحاد أو حلول– والمذكورة بكثرة في القرآن. فالله كان ولم يكن شيء معه، وبعد خلق السموات والأرض لا يزال كما هو.

الأشعري لذا لا ينتظر القارئ أن يجد "فرقة الأشاعرة" في كتاب مقالات الإسلاميين لأبي الحسن! ونحن عندما نذكر عقائد الأشعرية سنذكر للقارئ بعضا من أهم عقائد المتأخرين منهم وهي التي صارت العمدة في المذهب والمتعارف عليها كعقيدة أشعرية.

أصول المذهب الأشعري

1- تقديم العقل على النقل: وهو منهج يقوم على افتراض التعارض بين الأدلة النقلية والعقلية، ما يستدعي ضرورة تقديم أحدهما، فصاغ الأشاعرة للتعامل مع هذا التعارض الموهوم قانونا قدموا بموجبه العقل، وجعلوه الحكم على أدلة الشرع، بدعوى أن العقل شاهد للشرع بالتصديق، فإذا قدمنا النقل عليه فقد طعنا في صدق وصحة شهادة العقل، مما يعود على عموم الشرع بالنقض والإبطال. وليس هذا المسلك بغريب فهذا المسلك هو الذي أدى إلى القول بالتأويل عند التعامل مع النصوص الشرعية وهو المسلك الذي لم تنج منه أي فرقة أو طائفة إسلامية حتى السلفية منها.!

2- نفيهم أن تقوم بالله أمور تتعلق بقدرته ومشيئته: أي نفي ما يتعلق بالله من الصفات الاختيارية التي تقوم بذاته، كالاستواء والنزول والمجيء والكلام والرضا والغضب، فنفوا كلام الله ورضاه وغضبه باعتبارها صفة من صفاته، وادعوا أن نسبة هذه الصفات لله تستلزم القول بأن الله يطرأ عليه التغير والتحول، وذلك من صفات المخلوقات.

3- إثبات سبع صفات لله عز وجل وتأويل أو تفويض غيرها، فالصفات التي يثبتونها هي الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام النفسي، أما غير هذه الصفات فهم يتأولونها كتأولهم صفة الرضا بإرادة العقاب، وصفة الرحمة بإرادة الثواب، واستواء الله على العرش بقهره له واستيلائه عليه، إلى آخر تأويلاتهم لصفات الله. والأشاعرة بإثباتهم الكلام النفسي أرادوا الهروب من إثبات الكلام الذي أثبته أهل

الحديث فوقعوا في الكلام النفسي ولست أدري ما دليلهم الشرعي علي هذا الكلام النفسي؟!

4- حصرهم الإيمان في التصديق القلبي: فالإنسان –وفق مذهبهم- إذا صدق بقلبه، ولو لم ينطق بالشهادتين عمره، ولم يعمل بجوارحه أيا من الأعمال الصالحة، فهو مؤمن ناج يوم القيامة، يقول الإيجي في المواقف بعد أن ذكر معنى الإيمان في اللغة: "وأما في الشرع.. فهو عندنا وعليه أكثر الأئمة كالقاضي والأستاذ التصديق للرسول فيما علم مجيئه به ضرورة، فتفصيلا فيما علم تفصيلا، وإجمالا فيما علم إجمالا".

وهناك الكثير من العقائد الأخرى لدى الأشعرية لم نذكرها هنا وسنذكرها عند التعرض لمناقشة ومقارنة آراء الفرق الأخرى.

ومن أشهر علماء الأشاعرة الإمام أبو الحسن الطبري وأبو بكر الباقلاني ومحمد بن الحسن بن فورك وأبو المعالي إمام الحرمين عبدالملك بن عبدالله الجويني وأبو حامد محمد بن محمد الغزالي وأبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الرازي.

الماتريديـــة

الماتريدية فرقة كلامية، تنسب إلى أبي منصور الماتريدي، قامت على استخدام البراهين والدلائل العقلية والكلامية في محاججة خصومها، من المعتزلة والجهمية وغيرهم، لإثبات حقائق الدين.

ظهرت الفرقة أول ما ظهرت في سمرقند ثم توسعت وانتشرت انتشارا كبيرا مع الفتوحات العثمانية وذلك لمناصرة الدولة العثمانية لهذه العقيدة، فكان سلطان الماتريدية يتسع تبعا لسلطان الدولة العثمانية، فانتشرت في: بلاد العرب، والهند والترك، وفارس، والروم وشرق الأرض وغربها.

أهم الأفكار والمعتقدات

قسم الماتريدية أصول الدين حسب التلقي إلى:

الإلهيات (العقليات): وهي ما يستقل العقل بإثباتها والنقل تابع له، وتشمل أبواب التوحيد والصفات.

الشرعيات (السمعيات): وهي الأمور التي يجزم العقل بإمكانها ثبوتاً ونفياً، ولا طريق للعقل إليها مثل: النبوات وأمور الآخرة علماُ بأن بعضهم جعل النبوات من العقليات.

وبناءً على هذا التقسيم فإن موقفهم من الأدلة النقلية في مسائل الإلهيات كالتالي: إن كان من نصوص القرآن الكريم والسنة المتواترة مما هو قطعي الثبوت قطعي الدلالة، أي مقبولاً عقلاُ، خالياً من التعارض فإنهم يحتجون به في تقرير العقيدة. وأما إن كان قطعي الثبوت ظني الدلالة فإنه لا يفيد اليقين، ولذلك تؤول الأدلة النقلية بما يوافق الأدلة العقلية أو تفوض معانيها إلى الله تعالى.

وإن كان من أحاديث الآحاد فإنها تفيد الظن عندهم ولا تفيد العلم اليقيني ولا يعمل بها في الأحكام الشرعية بل وفق قواعدهم وأصولهم التي قرروها، وأما في العقائد فإنه لا يحتج بها، ولا تثبت بها عقيدة. لذلك قالوا بوجوب معرفة الله تعالى بالعقل قبل ورود السمع، واعتبروه أول واجب على المكلف، ولا يعذر بتركه ذلك، بل يعاقب عليه ولو قبل بعثة الأنبياء والرسل. وبهذا وافقوا المعتزلة. وقالوا أيضاً بالتحسين والتقبيح العقليين، حيث يدرك العقل حسن الأشياء وقبحها –مثل المعتزلة!–، إلا أنهم اختلفوا في حكم الله تعالى بمجرد إدراك العقل للحسن والقبح. فمنهم من قال: إن العباد يعاقبون على أفعالهم القبيحة ولو لم يبعث إليهم رسول ومنهم من قال بعكس ذلك.

ومفهوم التوحيد عند الماتريدية هو إثبات أن الله تعالى واحد في ذاته، واحد في صفاته، لا شبيه له، واحد في أفعاله لا يشاركه أحد في إيجاد المخلوقات. فأثبتوا لله تعالى أسماءه الحسنى وقالوا: لا يسمى الله تعالى إلا بما سمى به نفسه، وجاء به الشرع. وقالوا بإثبات ثماني صفات لله تعالى فقط، على خلاف بينهم وهي: الحياة، القدرة، العلم، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، التكوين. وعلى أن جميع الأفعال المتعدية ترجع إلى التكوين، أما ما عدا ذلك من الصفات التي دل عليها الكتاب والسنة من صفات ذاتية، أو صفات فعلية، فإنها لا تدخل في نطاق العقل، ولذلك قالوا بنفيها جميعاً.

قولهم بأن القرآن الكريم ليس بكلام الله تعالى على الحقيقة، وإنما هو كلام الله تعالى النفسي، لا يسمع وإنما يسمع ما هو عبارة عنه، ولذلك فإن الكتب بما فيها القرآن مخلوق (وبذلك وافقوا أيضا المعتزلة وعلى الرغم من ذلك فهم مقبولون أما المعتزلة ف...!!).

ترى الماتريدية أن الإيمان هو التصديق بالقلب فقط، وأضاف بعضهم إلى ذلك الإقرار باللسان ولا يرون زيادة الإيمان أو نقصانه، وقالوا بتحريم الاستثناء فيه، ويرون أن الإسلام والإيمان مترادفان لا فرق بينهما فوافقوا المرجئة في ذلك –وهم مقبولون على الرغم من ذلك في أهل السنة!!–

أثبتوا رؤية الله تعالى في الآخرة ولكن مع نفي الجهة والمقابلة هروبا من الاستحالة العقلية لرؤية الله. كما وافقت الماتريدية أهل السنة والجماعة في اعتقادهم! في أفضلية الصحابة تبعا لترتيب خلافتهم، وأن ما وقع بينهم كان خطأً عن اجتهاد منهم لذا يجب الكف عن الطعن فيهم كما يرون أن الخلافة في قريش وتجوز الصلاة خلف كل بر وفاجر، ولا يجوز الخروج على الإمام الجائر (لذلك أدخلوا في أهل السنة وتم التجاوز عن مخالفاتهم ويُترحم عليهم وتُقبل أخطاءهم ولا يصوفون بالضلال بخلاف المعتزلة!).

وافقوا أهل السنة في القول بالقدر والقدرة على أن كل ما يقع في الكون بمشيئة الله تعالى وإرادته، وأن أفعال العباد من خير وشر من خلق الله تعالى.

ما الفروق العقيدية بين الأشاعرة والماتريدية؟

كتب كثيرون عن الفروق بين الفرقتين ومن أفضل من كتب في ذلك ابن كمال باشا رحمه الله تعالى حيث قال عن الفروق بين الفرقتين:

"اعلم أن الشيخ أبا الحسن الأشعري إمام أهل السنة ومقدمهم، ثم الشيخ أبو منصور الماتريدي، وإن أصحاب الشافعيّ وأتباعه تابعون له، أي لأبي الحسن الأشعري في الأصول وللشافعيّ في الفروع. وإن أصحاب أبي حنيفة تابعون للشيخ أبي منصور الماتريدي في الأصول، ولأبي حنيفة في الفروع، كما أفادنا بعض مشايخنا رحمه الله تعالى، ولا نزاع بين الشيخين وأتباعه إلا في اثنتي عشر مسألة.

الأولى: قال الماتريدي: التكوين صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى كجميع صفاته، وهو غير المكوّن، ويتعلق بالمكوّن من العالم، وكل جزء منه بوقت وجوده كما أن إرادة الله تعالى أزلية يتعلق بالمرادات بوقت وجودها، وكذا قدرته تعالى الأزلية مع مقدوراتها. وقال الأشعريّ: إنها صفة حادثة غير قائمة بذات الله تعالى، وهي من الصفات الفعلية عنده لا

من الصفات الأزلية، والصفات الفعلية كلها حادثة كالتكوين والإيجاد، ويتعلق وجود العالم بخطاب كن.

المسألة الثانية: قال الماتريدي: كلام الله تعالى ليس بمسموع، وإنما المسموع الدال عليه. وقال الأشعريّ: مسموع كما هو المشهور من حكاية موسى عليه السلام قال ابن فورك: المسموع عند قراءة القارئ شيئين: صوت القارئ وكلام الله تعالى وقال القاضي الباقلاني: كلام الله تعالى غير مسموع على العادة الجارية، ولكن يجوز أن يسمع الله تعالى من شاء من خلقه على خلاف قياس العادة من غير واسطة الحروف والصوت. قال أبو إسحاق الإسفرايني ومن تبعه: أن كلام الله تعالى غير مسموع أصلا، وهو اختيار الشيخ أبي منصور الماتريدي كذا في البداية.

المسألة الثالثة: قال الماتريدي: صانع العالم موصوف بالحكمة سواء كانت بمعنى العلم أو بمعنى الإحكام. وقال الأشعري: إن كانت بمعنى العلم فهي صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى، وإن كانت بمعنى الإحكام فهي صفة حادثة من قبيل التكوين، لا يوصف ذات الباري بها.

المسألة الرابعة: قال الماتريدي: إن الله يريد بجميع الكائنات جوهرا أو عرضا طاعة أو معصية، إلا أن الطاعة تقع بمشيئة الله وإرادته وقضائه وقدرته ورضائه ومحبته وأمره، وإن المعصية تقع بمشيئة الله تعالى وإرادته وقضائه لا برضائه ومحبته وأمره. وقال الأشعريّ: إن رضاء الله تعالى ومحبته شامل بجميع الكائنات كإرادته.

المسألة الخامسة: تكليف ما لا يطاق ليس بجائز عند الماتريدي، وتحميل مالا يطاق عنده جائز، وكلاهما جائزان عند الأشعريّ.

المسألة السادسة: قال الماتريدي: بعض الأحكام المتعلقة بالتكليف معلوم بالعقل، لأن العقل آلة يدرك بها حسن بعض الأشياء وقبحها، وبها يدرك وجوب الإيمان وشكر المنعم، وإن المعرف والموجب هو الله تعالى، لكن بواسطة العقل كما أن الرسول معروف الوجوب والموجب الحقيقي هو الله تعالى لكن بواسطة الرسول صلى الله عليه

وسلم حتى قال: لا عذر لأحد في الجهل بخالقه، ألا يرى خلق السموات والأرض؟! ولو لم يبعث رسولا، لوجب على الخلق معرفته بعقولهم. وقال الأشعري: لا يجب شيء ولا يحرم إلا بالشرع لا بالعقل، وإن كان للعقل أن يدرك حس بعض الأشياء، وعند الأشعريّ جميع الأحكام المتعلقة بالتكليف تلقاه بالسمع.

المسألة السابعة: قال الماتريدي: قد يسعد الشقيّ وقد يشقى السعيد. وقال الأشعريّ: لا اعتبار بالسعادة والشقاوة إلا عند الخاتمة والعاقبة.

المسألة الثامنة: العفو عن الكفر ليس بجائز. وقال الأشعريّ: يجوز عقلا لا سمعا.

المسألة التاسعة: قال الماتريدي: تخليد المؤمنين في النار، وتخليد الكافر في الجنة لا يجوز عقلا، ولا سمعا. وعند الأشعري: يجوز.

المسألة العاشرة: قال بعض الماتريدية: الاسم والمسمى واحد. وقال الأشعريّ: بالتغاير بينهما وبين التسمية، ومنهم من قسم الاسم إلى ثلاثة أقسام: قسم عينه، وقسم غيره، وقسم ليس بعينه ولا بغيره، والاتفاق على أن التسمية وغيرها وهي ما قامت بالمسمى، كذا بداية الكلام.

المسألة الحادية عشر: قال الماتريدي: الذكورة شرط في النبوة، حتى لا يجوز أن يكون الأنثى نبيا. وقال الأشعريّ: ليست الذكورة شرطا فيها، والأنوثة لا تنافيها، كذا في بداية الكلام.

المسألة الثانية عشر: قال الماتريدي: فعل العبد يسمى كسباً لا خلقاً، وفعل الحق يسمى خلقاً لا كسباً، والفعل يتناولهما. وقال الأشعري: الفعل عبارة عن الإيجاد حقيقة، وكسب العبد يسمى فعلاً بالمجاز، وقد تفرد القادر خلقاً وما لا يجوز تفرد القادر به كسباً"[118]. اهـ

[118] شمس الدين بن كمال باشا, مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والماتريدية.

وهناك بعض الخلافات الأخرى بينهما مثل الخلاف حول وجود الله، هل هو عين الذات أم زائد على الذات؟ حكاه المرتضى الزبيدي عن السبكي في:"اتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين". بل صار خلافًا بين الأشاعرة أنفسهم فقد قال الرازي بأن وجود الله زائد على ذاته مخالفًا بذلك الأشعري نفسه. وكذلك أيضا: اخلاف الله للوعيد فيرى الماتريدية امتناع أن يخلف الله وعيده ووعده، وذهب الأشاعرة إلى جواز إخلاف الله لوعيده دون وعده.

المعتزلة

فرقة المعتزلة من الفرق سيئة السمعة عند كل الفرق الإسلامية حتى أن الانتساب إلى هذه الفرقة يعد عند كثير من الناس ضلال مبين يكاد يخرج من الملة، –فعلى الرغم من أن كل الفرق الأخرى حتما ضالة! ولكن هذه بالذات هي الأشد ضلالا بين أهل السنة!! لأنهم يتعاملون مع النصوص الشرعية بعقولهم ويقدمون العقل على النقل!!– وعلى الرغم من اشتراك المعتزلة مع الأشاعرة والماتريدية والشيعة الإمامية والزيدية والخوارج والإباضية في كثير من العقائد إلا أنها هي التي تميزت بتلك السمعة السيئة وهي رد السنة وتقديم العقل على النقل كما زاد من السمعة السيئة للمعتزلة مسألة محنة خلق القرآن وتعذيب العلماء لحملهم على رأيهم في هذه المسألة. كالعادة يشتكي المعتزلة –مثل كل الفرق الإسلامية– من الظلم الواقع عليهم عند عرض عقائدهم وأفكارهم ومواقفهم، لأن القارئ يقرأ عنهم من كتب خصومهم ولا يقرأ لهم أنفسهم.

وعندما قرأت أنا شخصيا في كتب المعتزلة وفي كتابات المعتزلة الجدد وجدت أنها لا تختلف بتاتا عن أي فرقة إسلامية فهي تأخذ نفس النهج المتبع من التزام المرجعية الإسلامية, فلا يمكن أن نقارنهم بأي حال بالليبراليين أو من يزعمون أنهم حداثيون مجددون، أما إذا رجعنا إلى القدامى فسنجدهم يكتبون كتبا في طبقات رجالهم يصنفون فيها رجال المعتزلة كما يفعل أهل السنة في كتب الرجال، ولكن بدون خوض في جرح ولا تعديل فنجدهم مثلا في كتاب طبقات المعتزلة لأحمد بن يحيي بن المرتضى يذكرون في الطبقة الأولى من رجالهم عليا وأبا بكر وعمر وعثمان، ويرون على ذلك الروايات التي يستخرجون منها موافقة هؤلاء العظماء لهم، فيرون مثلا قصة سؤال الشيخ لعلي بعد انصرافه من صفين أكان مسيره بقضاء الله وقدره، وكذلك يذكرون عبد الله بن عمر وابن عباس، ويذكرون في الطبقة الثانية الحسنين ويذكرون لذلك كتاب الحسن إلى أهل البصرة، وكذلك محمد بن الحنفية، وسعيد بن المسيب وطاووس اليماني، ومن أصحاب الإمام علي أبو الأسود الدؤلي ومن أصحاب ابن مسعود علقمة والأسود وشريح، وفي

الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن وابنه عبدالله بن الحسن وأولاده النفس الزكية وغيره، وزيد بن علي ومحمد بن سيرين بن محمد والحسن البصري وغيرهم وهكذا في باقي الطبقات.

وعندما ننظر إلى المقولة الخطيرة التي يُرمون بها, وهي: تقديم العقل على النقل, نجد أننا لا نخالفهم في هذه المسألة البتة فهم يرون أن العقل مقدَّمٌ على النص، ولكنهم لا يقولون: إن العقل مقدّم على النص تقديم (تفضيل)! ولكنه مقدّم على النص تقديم ترتيب وهناك فرق لا شك بين الترتيب والتفضيل. حيث يرون أن النص يحتاج إلى العقل وهذه بدهية. وهنا نسأل إخواننا من أي فرقة كانوا من الفرق الإسلامية: لماذا سيدخل الله الكفار النار؟ سيقول: لأنه جاءهم القرآن من عند الله فلم يؤمنوا به؟ فنقول: وهل كان مع القرآن آيات حسة تدل على أنه من عند الله؟ سيقول: لا. فنقول: وكيف عرف أنه من عند الله إذن؟ سيقول: بما فيه من الأدلة والبراهين التي يدل العقل بداهة على استحالة كونه من عند غير الله.! وهذا ما يقول به المعتزلة! فهم يرون أن للعقل دلالة مستقلة ينفرد بها عن غيره؛ وهذا أمر معلوم بالضرورة، فالعقل يعلم يقيناً أن الجزء أكبر من الكل، وأن الثلاثة أصغر من الأربعة، وأن الجسم لا يمكن أن يكون ساكناً ومتحركاً معاً في آن واحد، وأن الجسم الواحد لا يمكن أن يكون في مكانين في زمان واحد، وأن حاصل ضرب اثنين في اثنين يساوي أربعة. إذا ثبت هذا، وعلمنا أن للعقل دلالة مستقلة ينفرد بها، فلا مشاحة، وهم يرون أن النص محتاجٌ إلى العقل في أمرين مهمين:

الأول: أن النص محتاج إلى العقل ليثبت أولاً، ولتثبت دلالته.

الثاني: أن النص محتاج إلى العقل ليفهم، وليعقل المراد منه.

وعلى هذا فإن قول المعتزلة: "إن العقل مقدَّم على النص" ليس بهذه الخطورة التي يظنها بعض الناس، وعلى هذا أيضاً فإن قول المعتزلة: "إن العقل دليل مستقل وهو أوّل الأدلة" ليس أمراً منكراً. بعد هذه المقدمة عن المعتزلة نأتي كالعادة إلى التعريف بالاسم، ولا بد من التنبيه أولا أنه قد أطلق على المعتزلة أسماء مختلفة منها: المعتزلة والقدرية والعدلية

وأهل العدل والتوحيد والمقصد والوعيدية والاسم الذي ارتضوه لأنفسهم هو العدلية نقيضا للجبرية.ولكن الاسم المشتهر هو المعتزلة، فما سبب هذه التسمية وما أصلها؟

كالعادة اختلف المؤرخون في سبب إطلاق هذه التسمية، ونظرا لأن القارئ يقرأ دوما أقوال مؤرخي غير المعتزلة في نشأتها، فنذكر للقارئ على لسان أحد المعتزلة الجدد وهو الأستاذ أمين نايف ذياب رحمه الله كيف يرون نشأة المعتزلة التاريخية:

النشأة التاريخية للمعتزلة

"اختلفت رؤية مؤرخي الفرق المعادية للمعتزلة في تدوين أسباب ظهور الاعتزال، واتجهت هذه الرؤية وجهتين:

الوجهة الأولى: أن الاعتزال حصل نتيجة النقاش في مسائل عقدية دينية –الأصل أنْ توصف بالإيمانية كالحكم على مرتكب الكبيرة، والحديث في القدر، بمعنى هل يقدر العبد على فعله أو لا يقدر، ومن رأي أصحاب هذا الاتجاه أن اسم المعتزلة أطلق عليهم لعدة أسباب:

1– أنهم اعتزلوا المسلمين بقولهم بالمنزلة بين المنزلتين. وهو كلام لا مصداقية له ولا واقع من تاريخ وفكر المعتزلة يدل على ذلك، فالمسلمون كانوا على اختلاف في هذا الأمر: بين وعيدي مكفر، وبين مرجئ يرى صاحب المعصية مؤمنا، وبين من وصفه بالنفاق والنفاق كفر فكان قول المعتزلة حل لمسألة خلافية.

2– أنهم عرفوا بالمعتزلة بعد أن اعتزل واصل بن عطاء حلقة الحسن البصري، وشكل حقله خاصة به لقوله بالمنزلة بين المنزلتين فقال الحسن: "اعتزلنا واصل". والحقيقة أن واصل وعمرو بن عبيد جلسا عند اسطوانة منه مسجد البصرة لنقاش موضوع المنزلة بين المنزلتين، أو أنهم قالوا بوجوب اعتزال مرتكب الكبيرة ومقاطعته. ولا تدل هذه

الأسباب على قول يمكن أن يأخذ على محمل الجدية، ذلك أنه يجعل الاعتزال ناشئا عن حدث نقاشي في مسجد البصرة، ويهمل واقع الحسن البصري من كونه موصوفا بأنه قَدَرِيٌ أي عدلي، أي غير قائل بالجبر، فالاختلاف تم بين منْتَمِيَيْن للقول بالعدل، فهو مجرد بلورة للموضوع، وهو موضوع أشغل ذهن المسلمين في تلك الفترة، وهو وضع مرتكب الكبيرة، والمقصود بمرتكب الكبيرة الوضع السياسي لحكام بني أمية، من حيث الولاء والبراءة، أو الثورة عليهم، لوضع الأمور في نصابها. (نلاحظ دور السلطان مرة أخرى في الأمر) والوجهة الثانية: أن الاعتزال نشأ بسبب سياسي، حيث أن المعتزلة من شيعة علي رضي الله عنه اعتزلوا الحسن عندما تنازل لمعاوية، أو أنهم وقفوا موقف الحياد بين شيعة علي ومعاوية، فاعتزلوا الفريقين. قاصدين بذلك من وقف على الحياد أثناء محاربة الإمام علي عليه السلام للناكثين بيعته طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين. وهذا الكلام باطل أيضا، فمن أذاع هذه الشبهة فإنه يعالج موضوع الحكم في الإسلام من زاوية ضيقة جدا. إن الذين اعتزلوا القتال هم سعد بن مالك بن أبي وقاص وأسامة بن زيد وعبد الله بن عمر بن الخطاب ومحمد بن مسلمة الأنصاري.

أما القاضي عبد الجبار الهمذاني –مؤرخ المعتزلة– فيدون قوله: إنَّ الاعتزال ليس مذهباً جديداً، أو فرقة طارئة، أو طائفة، أو أمراً مستحدثاً، وإنما هو استمرار لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وقد لحقهم هذا الاسم بسبب اعتزالهم الشر لقوله تعالى ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ... ﴿٤٨﴾﴾ [سورة مريم ,٤٨] ولقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (من أعتزل الشر سقط في الخير). والحق الذي لا يمارى فيه في نشأة المعتزلة هو قول القاضي عبد الجبار.

إذن فهم يرون أنفسهم فرقة غير حادثة أو طارئة بل هم الأصل في الإسلام –مثلما يرى أهل السنة والشيعة!–، ولكنهم يفرقون بين الظهور الممنهج للفرقة وبين كون المسلمين على أفكارهم فيقولون –والكلام لا يزال على لسان الأستاذ أمين نايف–: "لا بد من التفريق بين أصل فكر التوحيد والعدل، وهما أساس الإسلام وبين نمو هذين الأصلين، وهو تاريخ فكر المعتزلة عبر الزمان والمكان، فالمؤرخ –أي مؤرخ– كان همه الكتابة

عن تاريخ الاعتزال وليس عن جذر الاعتزال، والقاضي في فكرته أكد جذر الاعتزال والواقع أن نشأة فكر الاعتزال كان ثمرة تطور تاريخي: لمنهج وقواعد ومبادئ فكرية، وأسس عقدية -أي مواضيع إيمانية- وليدة النظر العقلي والتفكير، ومحاولة الفهم الصحيح للنصوص الإسلامية: أي البلاغ: وهو القرآن؛ والبيان وهو السنة، وقد اقتضى هذا الموقف تأسيس أسس في كيفية التعامل مع الأدلة أمران:

الأول: محاولة حكام بني أمية تسويغ جورهم بفهم القدر فهما جبريا، فوقف المعتزلة في وجه هذا الانحراف، وقالوا: المعاصي ليست بقدر، وهذا ما يدركه أي قارئ مبتدئ يقرأ عن المعتزلة، حتى من مصادر خصومها.

الثاني: الدفاع عن الإيمان الإسلامي، والتدليل على قضايا الإيمان الإسلامي بالحجة العقلية، والبرهان الصادق، والدليل الواضح، والبينة الدالة، وكان من نتاج هذا الموقف إنشاء علمٍ إسلاميٍ خالص، هو علم الكلام، ولقصور الخصوم عن القدرة على الوقوف في وجه طريقة المعتزلة، زعموا كاذبين أنَّ المعتزلة تأثرتْ بالفلسفة اليونانية، والهندية تارة أخرى، والعقائد اليهودية أو النصرانية في قول ثالث، أو الخلط بين هذه الأقوال، فيقول الخصوم تأثر المعتزلة بمجموعها، دون إقامة الدليل على أي من هذه الأقوال."اهـ

أشهر ممثلي المعتزلة

اشتهر من رجالات المعتزلة في التاريخ الإسلامي الكثير والكثير, ومن أبرز هذه الأسماء: واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل محمد بن الهذيل العلاف وعثمان بن خالد الطويل وإبراهيم بن سيار بن هانئ النظام وبشر بن المعتمر الهلالي أبو سهل -وله قصيدة من 40000 بيت رد فيها على جميع المخالفين!!-، ومعمر بن عباد السلمي وعمرو بن بحر أبو عثمان الجاحظ وأبو الحسين بن أبي عمر الخياط والقاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني.

وبعد هذه المقدمة عن سبب التسمية وأهم رجال المعتزلة نأتي للحديث عن أصول المعتزلة والتي جمعت ملخص أقوالهم والتي هي شرط لمن يكون معتزليا ولو خالف بعد ذلك في أي مسألة. وهذا الأصول خمس أصول وأشهرها الأصلان الأول والثاني.

أصول المعتزلة

1- التوحيد. 2- العدل. 3- صدق الوعد والوعيد. 4- المنزلة بين المنزلتين.
5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ونقدم شرحا ملخصا من أقوالهم لما يقصدون بهذه الأصول الخمسة:

1- التوحيد: وخلاصته برأي المعتزلة: هو أن الله تعالى منزه عن الشبيه والمماثل ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى, ١١] وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص, ٤] وقوله تعالى في معرض مدح ذاته: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [سورة الأنعام, ١٠٣] وهذه الآيات محكمة، لا تنازعها الآيات المتشابهة، ولا بأي حال من الأحوال، والله تعالى – دل العقل وقرر ذلك النص– بأنه ليس جسما، ولا يحويه الزمان، ولا يحيط به المكان، وهو الغني المهيمن فلا ينازعه أحد في سلطانه ولا يجري عليه شيء مما يجري على الخلق كله.

2- العدل: ومعناه عند المعتزلة: أن الله تعالى لا يفعل القبيح، ولا يظهر المعجز على يد الكذابين، وهو مكلف للعباد بما فيه صلاحهم، فالله لا يخلق أفعال العباد، ولا يحب الفساد، بل إن العباد يفعلون ما أمروا به، وينتهون عما نهوا عنه، بالقدرة التي جعلها الله لهم، وركبها فيهم، وأنه لم يأمر إلا بما أراد، ولم ينه إلا عما كره، وأنه تعالى ولي كل حسنة أمر بها، بريء من كل سيئة نهى عنها، لم يكلفهم ما لا يطيقون، ولا أراد منهم ما

لا يقدرون عليه. وذلك لوضوح التفريق عندهم بين إرادة الله تعالى الكونية وإرادته الشرعية، فالمعتزلة تقول بكل قوة في باب الإرادة الشرعية يقع من خلق الله المكلفين ما لا يريده، ولكنه ليس عن عجز بل على مقتضى حكمة التكليف.

3- صدق الوعد والوعيد: فلا يخلف الله وعده ولا وعيده، وهذا يعني أن يجازي الله المحسن إحساناً ويجازي المسيء سوءاً، ولا يغفر لمرتكب الكبيرة إلا أن يتوب في دنياه.

4- المنزلة بين المنزلتين: وتعني أن مرتكب الكبيرة له اسم بين الاسمين، وحكم بين الحكمين، أي في منزلة بين الإيمان والكفر، فليس بمؤمن ولا كافر.

5- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لقد قررت المعتزلة هذا الأصل العظيم، الثابت عقلا، والمطلوب شرعا، وهو وجوب ذلك على المؤمنين: نشراً لدعوة الإسلام، وهداية للضالين، وإرشاد للغاوين، كل بما يستطيع: فذو البيان ببيانه، والعالم بعلمه، وذو السيف بسيفه وهكذا. ومن حقيقة هذا الأصل أو ما يترتب عليه وجوب الخروج على الحاكم إذا خالف وانحرف عن الحق.

هذه كانت أصول المعتزلة المعتمدة عندهم، وقبل التفصيل في أقوالهم وما استندوا إليه لا بد من وقفة مع مسألة المحنة واختبار العلماء، فهذه النقطة تشوه تاريخ المعتزلة كثيرا والذين يرون أنفسهم أصحاب عقول نيرة داعية إلى حرية الرأي، فكيف فعلوا ذلك عندما أسند الأمر إليهم؟!

جُلنا قرأ أو سمع عن هذه المحنة ولكن من منا قرأ للمعتزلة حول هذه المسألة، كيف يبرأون أنفسهم أو يبررون هذه الفعلة؟

كالعادة يشكون من عدم الحياد فيقول الأستاذ أمين نايف المعتزلي: "قضية محنة خلق القرآن جرت الكتابة فيها من قبل الحنابلة بداية فقط، ثم كتب فيها غيرهم، ومصدرهم أقوال الحنابلة، وكانوا ولا زالوا يسجلون الصراع على غير حقيقته، يزورون المقال

ويخفون الكثير من الأوراق، فمثلا لم يسأل واحد عن الزمن الذي جرى فيه القول بخلق القرآن، هل يعود القول بخلق القرآن إلى زمن المحنة أي: 218–232هـ أم أنه قبل ذلك بكثير، وإذا كان القول يعود إلى زمن قبل زمن المحنة بأكثر من قرن من الزمان على الأقل، فلماذا لم تحدث محنة فيه قبل ذلك؟ فمدونة أهل الحديث (الحنابلة) تقول إن أبا حنيفة ت 150هـ استتابه أصحابه من القول بخلق القرآن... أما إعلان تبرئة المعتزلة من صنع المحنة، فقد تكفل به كتاب الدكتور فهمي جدعان (المحنة جدلية الديني والسياسي) وكتاب الدكتور جدعان أزال الستارة عن وجه المحنة [119]"اهـ

كيف يرى المعتزلة هذه محنة خلق القرآن؟

أولا: هم يرون أن المأمون هو الذي ابتدع هذه المسألة وهو لم يكن معتزليا وإنما كان من أهل التوحيد والجبر وليس العدل، أي أنه كان مجبرا، وأن الاعتزال لم يكن مذهبا رسميا للدولة، وكل ما هنالك أن الوزير أحمد بن أبي دؤاد والذي كان من المعتزلة قد اشترك في هذه المهزلة وهم يعتبون عليه ذلك، ولقد وُلي الوزارة بناءا على مشورة القاضي يحيي بن أكثم السني الحنبلي التي قدمها للمأمون.

بداهة كل هذا لا ينفي الشبهة عن المعتزلة، فلم يبتدع المأمون هذه المسألة إن لم يكن منهم، وما مصلحته في ذلك؟ يقولون: إن هذا راجع إلى أسباب تاريخية بحتة متعلقة بالسيطرة على السلطة، ولذلك لا بد من الرجوع إلى التاريخ حتى نفهم لم حدث ما حدث: "في عام 197هـ هاجم المأمون أخاه الأمين في بغداد وضرب أهلها بالمنجنيق وأحرق بيوتها بالنفط، فقُتل الأمين في محرم عام 198هـ، وقام الجنود بقطع الطريق وأخذ الغلمان والنساء علانية من الطرق، ولما رأى الناس أن الوالي لا يمنعهم تقدم بعض أهل الحديث للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومحاربة جنود الوالي، وتصادف

[119] أمين نايف ذياب، المحنة وقضية خلق القرآن، الواقع والتاريخ قراءة تحليلية.

ذلك مع وصية المأمون لعلي بن موسى بن جعفر من أحفاد علي بن أبي طالب، فرفض قسم كبير من أهل بغداد هذه الوصية وأعلنوا خلعهم للمأمون ومبايعة إبراهيم بن المهدي العباسي، وكما يحدث دائماً فإن المعارضة للدولة ورجالها لا تتمكن في نفوس الناس إلا إذا ارتبطت برموز ونماذج وشعارات تعيّن "البديل"، وإذا كانت الشيعة قد اتخذت فكرة "المهدي المنتظر" رمزاً ربطت به أتباعها، فإن قسماً كبيراً من أهل الحديث قد ظل على ارتباط عاطفي بالأمويين، فظهرت فكرة "السفياني". ولكن بسبب خيانة الجند هرب إبراهيم وبايع الجند للمأمون، ودخل المأمون بغداد عام 204هـ. وحين استتبت الأمور للمأمون بدأ بتتبع أهل الحديث بعد أن ادرك خطورة اتساع نفوذهم السياسي بين العامة، بالإضافة إلى دورهم الهام في تقوية الأمويين خصوم أسرته التقليدين. أما قضية دور المعتزلة في "المحنة" فقد تعرضت لنوع من التواطؤ التاريخي الغريب، فبسبب رغبة الدولة وأهل الحديث تحويل معركتهم السياسية إلى صراع ديني، وبسبب رغبة أهل الحديث تصوير اضطهاد الدولة لهم سببه ديني بحت، وجه أهل الحديث أصابع الاتهام إلى المعتزلة وأنهم هم الذين زينوا للمأمون القول بـ "خلق القرآن"، وأن رجال المعتزلة الذين استوزروا للمأمون والمعتصم والواثق هم المدبرون للمحنة والمشرفين على تنفيذها"اهـ [120].

بهذا العرض التاريخي يبرر المعتزلة محنة خلق القرآن، ويرون أن مرجعها سياسي بحت وهو الرغبة في السيطرة على مقدرات الأمور. وسواء قبلنا تبريرهم أو رفضناه إلا أنه لا يمكن القول إنه تبرير وجيه له مكانته.

ونصل الآن إلى الحديث التفصيلي عن المسائل التي خالف فيها المعتزلة أهل السنة، والناظر يجد أن المعتزلة خالفت أهل السنة في كثير من الأصول والفروع إلا أنها حُشرت معها تمييزا للفريقين عن الشيعة، فما هي نقاط الاختلاف هذه؟

---

[120] زكريا بن خليفة المحرمي، قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث.

ونحن لا ندعي أننا سنقوم بسرد إحصائي شامل محيط بكل نقاط الخلاف ولكننا سنذكر المشتهر منها والعام.

أهم مسائل الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة:

1- خلق القرآن

يأتي في المرتبة الأولى بلا نزاع مسألة خلق القرآن, حتى أنه لا تُذكر المعتزلة إلا ويقفز إلى الذهن خلق القرآن وذلك بسبب المحنة سابقة الذكر، وليست المعتزلة فقط هي من قالت بخلق القرآن بل الزيدية والإمامية والإباضية أيضا يقولون إنه مخلوق ومن أهل السنة الماتريدية والأشاعرة وابن حزم، ولكن يزعمون ان القرآن الكريم المنزل هو حكاية كلام الله تعالى لكلامه النفسي فهو مخلوق على هذا الوجه، أمَّا الكلام النفسي فهو غير مخلوق.

فإذا نحن نظرنا إلى موقف الفقهاء والمحدثين من هذه المسألة وجدناه متشددا بطريقة غريبة مريبة، فلقد كفروا من قال بخلق القرآن ولعنوا أو كفروا من توقف كذلك في الحكم! بل وكفروا من قال "لفظنا بالقرآن مخلوق! ولست أدري إلى أي أصل شرعي استندوا في حكم التكفير هذا! وهذا التكفير يعني تكفير الشيعة الإمامية والزيدية والمعتزلة والإباضية وكل المسلمين ما عدا الحنابلة! فهل هذا التشدد نشأ بسبب المحنة أم أنه كان من قبلها؟ لا يهمنا الإجابة عن هذا السؤال بقدر ما يهمنا معرفة: هل القول بخلق القرآن يؤدي إلى الكفر فعلا أم أنها مسألة خلافية مقبولة؟

إذا نحن نظرنا في آراء المسلمين في القرآن وجدنا أنها آراء متعددة وليست ثلاثة أو أربعة فقط وفي هذا يقول الشيخ عبدالله بن عبد الرحمن الجبرين: "وقد افترق الناس في مسألة الكلام على تسعة أقوال: أحدها: أن كلام الله هو ما يفيض على النفوس من

معانٍ، إما من العقل الفعال عند بعضهم، أو من غيره، وهذا قول الصابئة والمتفلسفة. وثانيها: أنه مخلوق خلقه الله منفصلاً عنه. وهذا قول المعتزلة. وثالثها: أنه معنى واحد قائم بذات الله هو الأمر والنهي والخبر والاستخبار، وإن عبر عنه بالعربية كان قرآناً، وإن عبر عنه بالعبرانية كان توراة، وهذا قول ابن كلاب ومن وافقه كالأشعري وغيره. ورابعها: أنه حروف وأصوات أزلية مجتمعة في الأزل، وهذا قول طائفة من أهل الكلام ومن أهل الحديث. وخامسها: أنه حروف وأصوات، لكن تكلم الله بها بعد أن لم يكن متكلماً، وهذا قول الكرامية وغيرهم. وسادسها: أن كلامه يرجع إلى ما يحدثه من علمه وإرادته القائم بذاته، وهذا يقوله صاحب المعتبر، ويميل إليه الرازي في المطالب العالية. وسابعها: أن كلامه يتضمن معنى قائماً بذاته هو ما خلقه في غيره، وهذا قول أبي منصور الماتريدي رحمه الله. وثامنها: أنه مشترك بين المعنى القديم القائم بالذات وبين ما يخلقه في غيره من الأصوات. وهذا قول أبي المعالي ومن اتبعه. وتاسعها: أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلم به بصوت يسمع، وأن نوع الكلام قديم وإن لم يكن الصوت المعين قديماً، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة[121]."اهـ

لماذا نشأت هذه المسألة؟[122]

إن نشوء هذه المسألة لم يكن أساساً نتيجة خلاف فكري وقع ابتداء بين فريقين من المسلمين، ولا كان مجرد ترف فكري أو إرضاء للأهواء كما لازال يتصوره الكثيرون اليوم ويرددونه تبعاً لاتهامات أسلافهم، وإنما هو في الحقيقة –التي لازالت خافية وغائبة عن الكثيرين– نتيجة الخلاف الرئيسي بين الإسلام و المسيحية، المتمثل في الاعتقاد بألوهية المسيح عيسى بن مريم عليه وعلى نبينا افضل الصلاة وأتم التسليم، وكان الخوض فيها من قبل فريق من علماء ومتكلمي المسلمين ضرورة فرضها واجب الدفاع عن العقيدة الإسلامية، والحاجة الماسة إلى صياغة ثوابتها ومضامينها القرآنية المجملة

[121] عبد الله بن عبد الرحمن الجبرين, شرح العقيدة الطحاوية.

[122] من مقال للأستاذ ماجد بن هاشم المتوكل، منقول بتصرف كبير.

ومواقفها الحاسمة من ذلك الاعتقاد بالنسبة للمسيحية، ومن سائر المعتقدات الضالة والباطلة بالنسبة للديانات الأخرى، صياغة فكرية كلامية وإثباتها بأدلة عقلية في مواجهة الحملة الفكرية الشرسة –الظاهرة والخافية والمتنوعة الوسائل والأساليب– التي تعرض لها الإسلام والمسلمون آنذاك من قبل أصحاب الديانات الأخرى بعد تغلبه على بلدانهم، ودخول الكثير من أبنائها في الإسلام، ليواجه تلك المعتقدات التي كان من بينها –فيما يخص موضوعنا– صلب العقيدة المسيحية المتمثل في الاعتقاد بألوهية المسيح عليه السلام.

أما علاقة ذلك بمسألة (كلام الله) هل هو مخلوق أم قديم؟ فيعود إلى كون المشكلة الأساسية التي واجهتها المسيحية على إثر ظهور القول بألوهية المسيح عليه السلام، وإقراره في عهد الدولة الرومانية من قبل المجامع المسكونية فيما عرف بمجمع (نيقية) الذي انعقد عام 325هـ، هي أن من صفات الإله أنه قديم وأزلي، ولم يُسبق بعدم، وأيما شيء سُبق بعدم فهو مخلوق محدث، والقول بألوهية المسيح عليه السلام يلزم منه أن يكون المسيح قديماً وأزلياً، في حين انه عليه السلام ذو طبيعة إنسانية محدثة لا يمكن إنكارها ولدته أنثى جزئية محدثة مخلوقة (السيدة مريم عليها السلام)، أي انه ليس له وجود سابق على مولده فكيف تلد إلهاً والإله قديم أزلي؟!

ناهيك عن الإشكالات الأخرى.. وكان الأساس الذي انطلقوا منه وبنوا عليه فكرة قدم المسيح وأزليته وبالتالي ألوهيته ما علموه من قبل وبلغهم أمره وهو ما خُص به نبي الله عيسى عليه السلام دون سواه –نتيجة خصوصية مولده أصلاً ومعجزة ولادته من غير أب– من وصفه بأنه كلمة الله التي مثلت بالنسبة لهم العلم الأقنوم الثاني –باعتبارها مظهراً له– واعتبروها دالة على قدم المسيح وأزليته ومن ثم ألوهيته!..! حيث (أجمع المسيحيون على أن كلمة الله في دلالتها على السيد المسيح قديمة). وقد استغل بعض رجالات النصارى وعلمائهم –الذين بقوا على دينهم وآلمهم تغلب الإسلام على بلدانهم ودخول الكثير من المسيحين في دين الله أفواجاً استغلوا ما جاء في القرآن الكريم من وصف المسيح بأنه كلمة الله وإقرار المسلمين جميعا بذلك، في إثارة مسالة كلمة الله

هل هي مخلوقة أم غير مخلوقة؟ والترويج لفكرة قدم (كلمة الله) في أوساطهم ودفعهم إلى تبنيها والإقرار بها بشكل أو بآخر، لاسيما أن المسلم سينفر –عند مجادلته وطرح الأمر عليه– من القول بأن كلمة الله مخلوقة،أو تصور أن الله كان ولا كلمة معه، لا بخلفية دلالتها على قدم المسيح بالطبع ولا إدراك ما يترتب عليه بهذا الخصوص، وإنما بخلفية دلالتها تلقائياً على (كلام الله) المتمثل بدوره في القرآن، وما يتبادر إلى الذهن من قيامها بقولنا (علم الله) الذي لا يجوز أن يكون مخلوقاً محدثاً، ناهيك عن أن لفظ مخلوق سيبدو وكأنه منافٍ لقدسية كلام الله وللقرآن تحديداً، ومعارض لكونه منزلاً ومصاناً من التحريف أو التبديل... الخ، ما يجعل فكرة القدم أقرب إلى الأذهان وأسرع نفاذاً وتقبلاً!!

ومن هنا كان ظهور الرأي الإسلامي المعارض من قبل المتكلمين الأوائل الذين جادلوا بعض علماء النصارى وأدركوا أبعاد ذلك الطرح وانطلقوا من عقيدة التوحيد الثابتة وحقيقة بشرية المسيح عليه السلام وكونه عبد الله ورسوله في مواجهة فكرة قدم الكلمة لدى النصارى وإبطال ما يترتب عليها من الحكم بقدم المسيح عليه السلام وبالتالي ألوهيته، وذلك خلال إنكار قدم الكلمة والقول بأنها مخلوقه والتأكيد بأن الله سبحانه وتعالى كان ولم يكن معه شيء في الأزل لا كلمة ولا غيرها، وكل كلامه مخلوق محدث، وكان من الطبيعي أن ينصرف هذا القول في بداياته الأولى لدى بعض من تسامعوا به من المسلمين إلى القرآن الذي هو كلام الله، ويقال بأن هذا يعني بأن القرآن مخلوق؟ ليأتي الرد بالإيجاب بالطبع، ويصبح القرآن هو عنوان المسألة البارز والمتناقل بعد ذلك في أوساط المسلمين هنا وهناك، ليواجه القول بخلقه نفوراً واستنكارا منذ البداية، ويجد القائلون به أنفسهم أمام مواجهة ومعارضة ضمن الدائرة الإسلامية نفسها ولأسباب فكرية تخص العقلية المسلمة الغالبة، والنظرة للقرآن الذي بات مقاومة القول بقدمه والتأكيد على خلقه –بالنسبة لأولئك المتكلمين– أمراً يدفعهم إليه ما يحمله هذا القول من مضاهاة لقول النصارى في المسيح، وإشراك القرآن مع الله في القدم، وتمكين

النصارى –في حال الحكم بقدم كلام الله– من إقامة الحجة من كتاب الله على قدم المسيح الذي وصفه القرآن بأنه كلمة الله."اهـ

إذا فإن سبب نشأة هذه المسألة هو الخلاف والنقاش بين المسلمين والمسيحيين حول كلمة الله تعالى وهل هي مخلوقة أم غير مخلوقة، ولأهل السنة طبعا أدلتهم العقلية التي يستدلون بها على أن القرآن قديم وللمعتزلة وللشيعة وللإباضية كذلك أدلتهم العقلية، وكنت قد فكرت في عرض نماذج من أدلة كل فريق والتعليق على الأخطاء، إلا أني وجدت أن هذا العرض والترجيح لن يقدم أو يؤخر، فالمسألة غير ذات بال في حياتنا المعاصرة فليست محل تفريق بين المسلمين، وأنا أربأ بنفسي أن أكتب حول خلافات تنظيرية لا نفع لها في أرض الواقع أو انعكاس في سلوك المسلمين، إلا أننى من أجل تقليل حدة التوتر والتشدد عند من يقول بقدم القرآن ويطعن في إيمان القائل بالخلق أذكره بأن الفريق الثاني القائل بالخلق يمتلك غير الأدلة العقلية أدلة من القرآن على أن القرآن مخلوق وهي: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ۝٢﴾ [سورة الأنبياء, ٢]، ﴿وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٍ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ مُحۡدَثٍ إِلَّا كَانُواْ عَنۡهُ مُعۡرِضِينَ ۝٥﴾ [سورة الشعراء, ٥]، ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ ءَا۬عۡجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّۗ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوۡنَ مِن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ ۝٤٤﴾ [سورة فصّلت, ٤٤]، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [سورة الشورى, ٥٢]، ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣﴾ [سورة الزخرف, ٣] فهنا يصف الله تعالى القرآن بالجعل وبأنه محدث. فهذه أدلة نقلية تساند أدلتهم العقلية، طبعا سيجادل القائل بالقدم في الاستدلال بالآيات، أما أنا فأقول ما قاله القرآن من أنه محدث ومجعول ولا أقول أكثر من ذلك –أرجو أن يتذكر القارئ ما ذكرناه في أول الكتاب عن استحداث ألفاظ جديدة لها مقابل قرآني وأثرها في تأجيج الخلاف–.

ويعجبني قول الإمام الشوكاني رحمه الله في هذه المسألة، حيث قال في تفسيره فتح القدير عند تناول آية: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ... ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٢]: "«من» لابتداء الغاية. وقد استدلّ بوصف الذكر لكونه محدثاً على أن القرآن محدث، لأن الذكر هنا هو: القرآن. وأجيب بأنه لا نزاع في حدوث المركب من الأصوات والحروف، لأنه متجدد في النزول. فالمعنى محدث تنزيله، وإنما النزاع في الكلام النفسي. وهذه المسألة أعني قدم القرآن وحدوثه، قد ابتلي بها كثير من أهل العلم والفضل في الدولة المأمونية والمعتصمية والواثقية، وجرى للإمام أحمد بن حنبل ما جرى من الضرب الشديد والحبس الطويل وضرب بسببها عنق محمد بن نصر الخزاعي، وصارت فتنة عظيمة في ذلك الوقت وما بعده. والقصة أشهر من أن تذكر، ومن أحبّ الوقوف على حقيقتها طالع ترجمة الإمام أحمد بن حنبل في كتاب النبلاء لمؤرخ الإسلام الذهبي. ولقد أصاب أئمة السنّة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع، ولكنهم رحمهم الله جاوزوا ذلك إلى الجزم بقدمه ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف وإرجاع العلم إلى علام الغيوب، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول في هذه المسألة شيء من الكلام، ولا نقل عنهم كلمة في ذلك، فكان الامتناع من الإجابة إلى ما دعوا إليه، والتمسك بأذيال الوقف، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه هو الطريقة المثلى، وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله، والأمر لله سبحانه."اهـ

نخرج من هذا كله إلى أنه لا دليل لمن يقول بكفر القائل بخلق القرآن ولا حتى لمن يرميه بالضلال، فالمسألة كما رأينا نشأت وظهرت من أجل الدفاع عن الوحدانية في الإسلام، فحتى لو أخطأ القائل بخلق القرآن يمكننا أن نحتسب له أجرا واحدا عند الله، كما نحتسب ذلك للمخالفين المتفقين معنا في المسائل العقيدية، أم أن الاحتساب حل لنا محرم عليهم؟!

2- رؤية الله تعالى

يخالف المعتزلة أهل السنة كذلك في مسألة رؤية الله تعالى، فهم ينفون رؤية الله تعالى في الدنيا وفي الآخرة، أما أهل السنة فينفونها في الدنيا ويثبتونها في الآخرة. وسنعرض لهذه المسألة عند الحديث عن عقائد الإباضية. كما يخالف المعتزلة أهل السنة في تصورهم لله تعالى والعلاقة بين "ذاته وصفاته"، فالسنة يثبتون لله ثلاث عشرة صفة والمعتزلة -والشيعة- يثبتون لله ثمان صفات والسنة يرون أن لله ذات مجردة وأن علاقة الصفات بالذات أنها ثابتة له زائدة على الذات، أما المعتزلة -والشيعة- فيرون أن صفات الله ثابتة له لكن علاقتها بذات الله أنها عين ذات الله وليست زائدة على الذات.

3- علم الله

ومن أهم ما خالف فيه المعتزلة أهل السنة علم الله تعالى، حتى أنه يمكن القول إن كل الخلافات المتعلقة بالأجل وبالقضاء والقدر وإرادة القبيح وفعله وأفعال العباد مرتبطة بهذه المسألة، فأهل السنة يرون أن الله علم ما كان وما يكون إلى يوم القيامة وما لم يكن لو كان كيف يكون وأنه لا إمكانية لتغيير هذا العلم، فما علمه الله تعالى حتما واقع، ثم يرون أنه على الرغم من هذا العلم فإنه لا يجبر الإنسان على فعل شيء أو تركه، بل كل ما في الأمر أنه سبق علم من الله عزوجل. ويستدلون على ذلك ببعض الآيات من كتاب الله تعالى وبعض الروايات من السنة مثل ما روي عن المصطفي "واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطأك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك"، وما شابه من الروايات بهذا المعنى، حتى أن موقف "حزب التحرير" كما جاء في كتاب الفكر الإسلامي كان: "ولكن يجب أن يكون واضحا، أن الدعاء لا يغير ما في علم الله، ولا يدفع قضاءا ولا يسلب قدرا، ولا يحدث شيئا على غير سببه، لأن علم الله متحقق حتما، وقضاء الله واقع حتما، إذ لو دفعه الدعاء لما كان قضاءا، والقدر أوجده الله فلا يسلبه الدعاء،

والله خلق الأسباب ومسبباتها، وجعل السبب ينتج المسبب حتما، ولو لم ينتجه لما كان سببا، ولذلك لا يجوز أن يعتقد: أن الدعاء طريقة لقضاء الحاجة، حتى لو استجاب الله وقضيت الحاجة بالفعل لأن الله جعل للكون والإنسان والحياة نظاما تسير عليه، وربط الأسباب بالمسببات، والدعاء لا يؤثر في خرق أنظمة الله، ولا في تخلف الأسباب، وإنما الغاية من الدعاء تحصيل الدعاء بامتثال أمر الله" اهـ

والخلاف حول مسألة العلم نابع عن تصور أهل السنة والمعتزلة لله فالمعتزلة يرون أن صفات الله قائمة بذاته، أي أنه عليم بذاته، سميع بذاته، بصير بذاته، وهكذا، أما أهل السنة فيرون أن صفات الله زائدة عن الذات[123]، لذلك عندما خاض الأشاعرة في هذه المسألة ماذا قالوا؟ قالوا: "إنه عالم بعلم أزلي لا هو هو و لا هو غيره، بل هو علمه الكلي الشامل، الذي يترتب عليه، انه تعالى يعلم الأشياء قبل وقوعها، و ما يعلم انه يقع لا بد ان يقع، و انه لا يقع شيء إلا ما علمه،"، ولست أدري إذا لم يكن هو هو ولا هو غيره، فماذا يكون إذا؟! أما المعتزلة فقد كان لهم رأي آخر في هذه المسألة، حيث نظروا إليها من منظور مخالف، وفي هذا يقول أمين نايف ذياب في مقالة: الله عالم لا يجهل:

"هل يصح القول بأنَّ الله عالم بعلم؟ علم الله ليس هو الله يقينا، ولا صفته الذاتية إذ صفته الذاتية أنه عالم، فهل يكون العلم وهو اسم معنى منذ الأزل؟ فيكون في هذه الحالة وجود [قديمين] الله وعلمه، أو أنَّ الله مفتقر مثل خلقه لصفة زائدة عن ذاته، تضيف إليه الكمال –تعالى الله عن ذلك– أليس من الحق القول بأنَّ الله عالم بالمعلومات؟ والمعلومات متعلقة بالأشياء والوقائع والحوادث، والله عالم بالمعلومات عن الأشياء والوقائع والحوادث على الإحاطة –أي على ما هي عليه في ذاتها وليس على ما عليه ستكون– والزيادة عن هذا الفهم، هي حالة تنطع يراد منها فهم الله ذاتا،

[123] يجد المرء في بعض الأحايين بعض الكاتبين في مجال العقيدة يدعون أن المعتزلة تنفي عن الله تعالى صفة السمع أو البصر! فهل قالت المعتزلة أن الله لا يسمع أو لا يعلم أو لا يبصر؟! كل ما هنالك أن التصور مختلف، فإذا قلنا : بصفة زائدة عن الذات، وهم قالوا: لا، بالذات نفسها، فلم هذا الخلاف الشاسع، ألا نتفق في نهاية المطاف أن الله سميع وبصير.. إلخ ؟!

والمشكلة أنهم لا يفرقون بين العالم بعلم –أي يكتسب المعلومات والمعارف والمهارات ثم يستعملها– وبين ذات العالم الذي لا يجهل،... لا بد من اليقين عند المؤمن، أنَّ الله عالم لا يجهل، ولا يكون الله عالما عن تحصيل، بل عالما على الإحاطة، أي ليس عالماً بعلم أزلي، وليس عالماً بعلم على سبيل الاكتساب والحدوث"اهـ.

كذلك يرى المعتزلة أنه لو كان علم الله علما أزليا ثابتا غير قابل للتغيير، لكان الله –وليس فقط الإنسان– مجبرا، فلن يتحقق لله الإختيار في الفعل أو الترك، بل عليه أن يفعل ما وجد في علمه! أي أنه أجبر نفسه على تحقيق علمه!

كما أنهم يتساءلون عن الحكمة من وجود الملائكة التي تكتب أعمال العباد إذا كانت واقعة حتما، ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾]سورة الجاثية, ٢٩[، وما الفائدة من الحيوة الدنيا من الإساس إذا كان ما علمه الله منذ الأزل واقع واقع، حيث أن التبرير السلفي من إقامة الحجة على العبيد لا وزن له، بأن يخلقهم فينفذوا ما كان في علمه فيدخلهم الجنة أو النار عن فعل لا عن سبق علم!! وما الفارق ما دام الأمر تحصيل حاصل؟! كما استدلوا على عدم ثبات وأزلية علم الله ببعض الآيات القرآنية مثل: ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ٣٩﴾ [سورة الرّعد, ٣٩]، و﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ٢٩﴾ [سورة الـرحـمـن, ٢٩]، إذا الشاهد أن علم الله عند المعتزلة علم شامل محيط بكل ما كان ويكون والخلاف هو فيما سيكون، فهم يرون أن الإنسان قادر على تحديد قدره بيده ومسؤول عن ذلك لأنه لا شيء مكتوب فلا قسمة ولا نصيب، أما أهل السنة فينظرون إلى المعتزلة كأنهم يدعون أن الإنسان قادر على تغيير قدره الذي قدره الله! وما من أحد يدعي أنه يستطيع أن يغير قدر الله، فالمهم أن يكون الله قد قدره فعله، وهذا هو السؤال الحقيقي؟!!

والحقيقة أن مسألة علم الله من أكثر المسائل تعقيدا في تاريخ الفلسفة والفكر البشريين، وكما ذكرت فلقد خضت فيها مسبقا ثم رجعت وأقررت بالعجز، وعلى الرغم من قوة رأي المعتزلة في المسألة إلا أنه لا يزال يحوي الكثير والكثير من الثغرات التي لا يجيب عليها، فهل علم الله أزلي كما يرى أهل السنة، أم كما يرى المعتزلة، أم أنه سابق مرحلي وليس أزلي ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [سورة الدخان ,٣-٤] وكيف يمكن على قول المعتزلة تبرير النبوءات الموجودة في الكتب السماوية، وكيف يرى الإنسان رؤيا بل رؤى كثيرة وتتحقق بالضبط كما رأها الإنسان؟!

أسئلة كثيرة لا يستطيع العقل البشري مهما عظم أن يجيب عليها، لأنه لو استطاع لأدرك ذات الله وفي هذه الحالة لا يصيرا إنسانا بل يصير إلها. لذا على الإنسان أن يرضى بمقداره من العلم وأن يعلم يقينا أن علم الله لا يجبره على فعل أو ترك وهذا هو بيت القصيد.

4- مفهوم القضاء

كذلك خالفوا في مفهوم القضاء والقدر فقالوا إن ذلك بمعنى العلم والكتابة لا الأمر وفي هذا يقول القاضي عبدالجبار بن أحمد الأسد أبادي المعتزلي في كتابه "الأصول الخمسة": "فإن قيل أتقولون أن الله قضى كل شيء وقدره من خير وشر وحلو ومر؟ ثم قيل له تقول إن الله تعالى قضى ما خلقه من الرخاء والشدة وغيرهما. فأما المعاصي والكفر فمعاذ الله أن يكون عزوجل خلقها وقضاها وقدرها إلا بمعنى أنه أعلمناها وأخبرنا عنها كما قال عز وجل وقضينا إلى بني إسرائيل يمعنى أعلمناهم. فإما أن يقال في ذلك أن قضى بمعنى خلق وألزم فمحال. وكيف يصح أن يكون قد قضى الكفر ثم يعاقب

عليه؟ وكيف يجوز في قضاء الله عزوجل ولا يحل الرضى به، وقد ثبت من الأمة الرضاء بقضاء الله؟"اهـ

وكذلك يعلق الإمام المؤيدي على هذه المسألة قائلا: "ثم إن أهل القبلة اتفقوا على إثبات القضاء والقدر في جميع أفعال العباد بمعنى العلم والكتابة، واتفقوا على نفيه بمعنى الأمر بكل أفعال العباد، واختلفوا في هل قضاء أفعال العباد وقدرها بمعنى خلقها، فأنكره أهل العدل ومنعوا إطلاق القول بأن أفعال العباد بقضاء الله وقدره، ولقولهم بثبوته بمعنى العلم والكتابة،ومنعوا القول أيضاً من إطلاق نفي كونها بقضاء الله وقدره. وأما المجبرة فلإثباتهم معنى الخلق أجازوا إطلاق القول بأنه بقضائه وقدره، والدليل على ذلك هو أنه لا يصح إطلاق القول: أن إطلاقه يوهم المعنى الفاسد، وهو أنه تعالى خلقها كما يقوله المجبرة، وذلك لا يجوز؛ لأنا قد بينا بالدليل القاطع فيما تقدم من مسألة خلق الأفعال أن أفعالهم منهم لا منه تعالى). اهـ [124]

5- الأجل

خالف المعتزلة كذلك في مسألة الأجل، فقالوا إن للإنسان أجل قطعه عليه القاتل بقتله، لذلك يقتل القاتل بالمقتول، يعني أنهم يرون أن القاتل لو لم يقتل المقتول لجاز أن يمتد عمره إلى ما يشاء الله. أما أهل السنة فيرون أن القاتل لو لم يقتل المقتول لمات حتما في هذه اللحظة! لأن الله قدر له هذا الأجل. والمعتزلة يستندون في هذه المسألة إلى العقل، لأنه لو لم يكن القاتل قد قطع على المقتول أجله فلم يعاقب أو يقتص منه؟! كما يستندون إلى ظواهر الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سورة فاطر, ١١] **"كما**

[124] إبراهيم بن محمد بن أحمد المؤيدي، الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح.

يستندون إلى ظواهر الأحاديث التي تقول إن فعل بعض الأعمال مثل صلة الرحم يطيل العمر. والخلاف في هذه المسألة خلاف مبني على مسألة علم الله.

6- خلق أفعال العباد

كذلك خالف المعتزلة في مسألة خلق أفعال العباد وهذا من أصول مذهبهم، حيث أنهم يرون أن الإنسان حر تماما في فعله، وهذا من عدل الله تعالى، فالمعتزلة يرون أن الإنسان يخلق أفعاله بنفسه، أما أهل السنة فيرون أن الله هو الذي خلق الأفعال والإنسان يكتسبها فقط. وعلى الرغم من الخلاف في هذه المسألة إلا أن أهل السنة على الرغم من قولهم أن الله هو الذي يخلق أفعال العباد إلا أنهم يرون أن الإنسان غير مجبور على فعله وهو محاسب على ما تقترفه يداه!، فهم لا يقولون إن الإنسان كالورقة في مهب الريح تحركها حيث شاءت. إذا فالفريقان على الرغم من اختلافهما لا يقولان أن الإنسان مجبر أو مسير بل مسؤول عن أعماله. والشاهد أن المعتزلة يرون أن قول أهل السنة هو جبرلا محالة مهما حاولوا أن يبرروا أو يوجدوا التفسيرات المنطقية، ويناقش الإمام إبراهيم بن محمد بن أحمد المؤيدي –الزيدي– في كتابه: الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح, رأي أهل السنة فيقول:

"إن أفعال العباد جميعها الحسن منها والقبيح والمبتدئ والمتولد غير مخلوقة بل هي منهم ونسبتها إليهم حقيقة لا من الله تعالى. وهذا مذهب أكثر أهل القبلة وغيرهم من أهل الأديان الكفرية. وقال أهل الجبر: هي من الله تعالى، وإنما سُموا جبرية لمذهبهم في هذه المسألة، وقولهم بأن العبد مجبور على هذه الأفعال، ولا اختيار له فيها، ثم اختلفوا بعد ذلك فقال جهم: هم لها كالظروف، وإضافتهم إليها كإضافة ألوانهم، وكإضافة حركة الشجرة إليها، وسَوَّا في ذلك بين المباشر والمتعدي. وقال ضرار: هي من الله تعالى حدوثاً ومن العبد اكتساباً، ولم يفرق بين المباشر والمتعدي، وبه قال الأشعري في المباشر، فأما المتعدي فالله متفرد به عنده. وقال المدعون للتحقيق منهم

كالجويني والغزالي والقاضي أبي بكر الباقلاني وغيرهم من مشاهير علماء هذا المذهب: الفعل يقع بقدرة العبد ولكنها موجبة ففاعلها هو فاعل الفعل؛ لأن فاعل السبب فاعل المسبب. قال بعض المحققين: والأقرب أن هذه الأقوال في التحقيق تعود إلى قول جهم؛ لأن أهل الكسب لا بد أن يجعلوا العباد كالظروف لها في الحدوث، وأما الكسب فهو إما أن لا يكون فعلاً فذكره هنا بطالة وهذيان؛ لأن كلامنا في الأفعال، وإما أن يكون فعلاً فهو إما أن ينفرد الله به، وهو مذهب جهم، وإما أن يحتاج إلى كسب آخر فيعود السؤال، وكذلك المثبتون للقدرة الموجبة لا بد أن يجعلوا العباد كالظروف لأفعالهم؛ لأنه لا اختيار لهم في السبب ولا في المسبب، ويصير الحال فيه كالحال في الشجرة التي يوجد الله فيها اعتماداً توجب الحركة، فإن ذلك لا يخرج الشجرة عن كونها كالظرف للحركة الموجبة عن الاعتماد، فظهر بذلك أن المجبرة كلهم جهيمة في التحقيق. والدليل على ذلك المذهب الصحيح، وهو مذهب أهل العدل ومن وافقهم: العلم بأنا محدثون لأفعالنا ضروري؛ لأنه لا مجال للشك فيه؛ لأن العقلاء يعلمون بعقولهم أنه يحسن أمرهم ببعضها ونهيهم عن بعض وثوابهم ومدحهم على الحسن الذي يستحق عليه الثواب، وعقابهم على القبيح منها، ويعللون ذلك بكونه فعله، وكل ذلك فرع على أنهم المحدثون لها، وإنما قلنا على الحسن الذي يستحق عليه الثواب؛ لأن بعض الحسن لا يستحق عليه ثواب، كالمكروه والمباح فإنهما حسنان عند المحققين ولا ثواب فيهما، فلو كانت من الله لما حسن شيء من ذلك كما لم يحسن شيء من ذلك على صورهم وألوانهم، فإذا حسن ثوابهم وعقابهم، ومدحهم وذمهم، على أفعالهم، ولم يحسن شيء من ذلك على صورهم وألوانهم علمنا) الفرق بين أفعال العباد وبين الصور والألوان ودل ذلك على أن أفعالهم منهم لا من الله تعالى، وذلك مقرر في عقل كل عاقل."اهـ

وبداهة يستدل المعتزلة والزيدية في هذه المسألة بأدلة نقلية من الكتاب والسنة كما يستدل أهل السنة، ولا نريد أن ندخل القارئ في متاهات رد أهل السنة عليهم وكيف ردوا على أهل السنة، لأنني أعتقد على الرغم من شيوع فكرة الحتمية في علم الله عند

كثير من الناس إلا أنه لا ينكر أحد منهم مسؤوليته عن أفعاله ولا يعترض على ثواب أو عقاب الله له عليها وهذا كاف في هذه المسألة.

7- التحسين والتقبيح العقليان

كذلك قال المعتزلة بالتحسين والتقبيح العقليين، أي أن العقل يدرك قبح الأشياء وحسنها بغض النظر عن ورود الشرع، وملخص الخلاف كالتالي: "يرى الأشاعرة أن الحسن والقبح لا يثبتان إلا بالشرع، فحسن الفعل ينشأ من أمر الشارع به وقبحه ينشأ من نهي الشارع عنه، فإن الفعل ليس به صفة محسنة أو مقبحة، لذا بداهة فلا عقاب على من لم تصله الرسالة.

ويرى المعتزلة أن الحسن والقبح عقليان، يثبتان للفعل لذاته أو لصفة من صفاته، فالحسن كون الفعل بحيث يحمد فاعله عاجلا ويثاب آجلا، والقبيح كون الفعل بحيث يذم فاعله عاجلا ويعاقب آجلا، ويكون هذا في المعاملات مع الناس طبعا أم العبادت الشعائرية فلا يعرف العقل كيف هي إلا بأمر من الشارع، فيحاسب الناس على فعلهم القبيح وإن لم يكن هناك رسل.

ويرى بعض الأحناف وبعض المالكية وبعض الشافعية وابن القيم: أن الحسن والقبح عقليان وأن الحسن ما كان حسنا لذاته أو لصفة من صفاته، والقبيح ما كان قبيحا لذاته أو لصفة من صفاته، ولكن التكليف لا يكون إلا بعد البعثة، فلا عقاب بدون إرسال رسل.

وكما نرى فقد قام الرأي الثالث بعمل خليط من الرأيين السابقين، وخرج بما مفاده أن الحسن والقبح عقليان –كما يقول المعتزلة–، ولكن لا عقاب لمن لم يأته رسول –كما يرى الأشاعرة." اهـ[125]

والغرض من هذه المسألة الوقوف على حال من لم تصله الرسالة أو الرسول كيف يحاسبه الله عز وجل هل يدخله الله تعالى الجنة أم يحاسبه على ما اقترفته يداه؟

وأدلة القائلين بالتحسين والتقبيح العقليين من المعتزلة والإمامية هي كما يقول الشيخ جعفر السبحاني: "الأوّل: بداهة العقل: كلّ إنسان يجد في نفسه حسن العدل وقبح الظلم، وإذا عَرَضَ الموضوعين على وجدانه، يجد في نفسه نزوعاً إلى العدل واستحساناً له، وتنفراً عن الظلم وتقبيحاً له، وهكذا سائر الأفعال التي تعد من مشتقات العدل والظلم. الثاني: عدم ثبوتهما مطلقاً لو قلنا بالشرع فقط. إنّ نفاة القول بالتحسين والتقبيح العقليّين ذهبوا إلى أنّ التعرّف على حسن الأفعال وقبحها رهن بيان الشرع، فما حسّنه الشارع فهو حسن وما قبحه فهو قبيح، وليس للعقل سبيل إلى معرفة حسن الأفعال وقبحها، ولكنّهم غفلوا عن مضاعفات هذا القول، إذ لازمه عدم ثبوت الحسن والقبح مطلقاً حتّى الشرعي منهما. بيان ذلك: أنّه لو قلنا بأنّه لا سبيل للعقل إلى معرفة حسن الفعل أو قبحه ولا يُعرفان إلاّ بتصريح الشرع بأنّ العدل حسن أو الظلم قبيح، لا يحصل الجزم بقوله، لتجويز الكذب عليه وبالتالي نحتمل أن يكون ما وصفه بالحسن، قبيحاً واقعاً، وما وصفه بالقبح، حسناً كذلك. ولو افترضنا انّ الشارع أضاف إلى ما ذكره قوله: الصدق حسن والكذب قبيح، لا ينفعنا في الجزم بما حكم على العدل والظلم، من تحسين الأوّل وتقبيح الثاني لتجويز الكذب عليه في كلّ ما يخبر حتى قوله: "الصدق حسن" الثالث: إنكارهما يلازم امتناع إثبات الشرائع السماوية: من ادّعى السفارة من اللّه سبحانه وكونه نبيّاً مبعوثاً عنه، لا يمكن لنا تصديقه إلاّ في ظل القول بالحسن والقبح العقليّين، لأنّ الدليل الوحيد أو المؤثر على عامة الطبقات، كونه مبعوثاً

---

[125] عمرو الشاعر، لماذا فسروا القرآن، القرآن بين التفسير والهجران.

بالمعاجز والبيّنات، فيستدلُّ بها على أنّه كان مبعوثاً من اللّه سبحانه لهداية الناس، هذا من جانب. ومن جانب آخر انّ المعاجز لا تفيد اليقين بأنّه مبعوث من اللّه سبحانه إلاّ إذا ثبت أصل في باب النبوة وهو: انّه سبحانه لا يزوِّد الكاذب بقدرة خارقة ليضلّ الناس عن طريقه لأنّه أمر قبيح عقلاً لا يصدر منه سبحانه، فلو لم يثبت هذا الأصل بحكم العقل لا يمكن الإذعان بصدق دعواه لاحتمال انّ المزوَّد بالمعاجز، مدّع كاذب، إذ لم يثبت بعدُ قبح تسلط الكاذب على المعاجز والبيّنات. الرابع: الحسن والقبح العقليان في الذكر الحكيم: من سبر القرآن الكريم وأمعن في دعوته إلى الصلاح والفلاح يقف على أنّ القرآن يتّخذ وجدان الإنسان قاضياً ليحكم في قضايا كثيرة بشيء يرجع إلى الحسن والقبح، فالآيات التي نتلوها عليك تُسلّم انّ الإنسان الحرّ المجرّد عن سائر النزعات، قادر على درك حسن الفعل أو قبحه، ولذلك يترك القضاء فيها إليه ويقول: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة ص ,٢٨]، ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة القلم ,٣٥]، ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [سورة الرحمن ,٦٠] [126] اهـ

ورد عليهم الأشاعرة وأهل الحديث بردود منها أنه لو كانت المسائل العقلية بدهية لما اختلف فيها اثنان، كما استدلوا بآيات عدم التعذيب إلا بعد بعث الرسل. والذي أراه في هذه المسألة أن في الأمر تفصيل أكبر من ذلك، فهناك أمور سيسأل عنها الإنسان عقلا حتى ولو لم يصل إليه الوحي، وأهمها بداهة الإله ومثل الظلم والسرقة والقتل والاغتصاب والزنا مع المتزوجة –لمن لم يصله الوحي– فهذه مسلمات بدهية يشعر فيها الإنسان بالخطأ وهو يرتكبها، وهناك أمور سيحاسب عنها تبعا لوجود الشرع، فإن لم يوجد فكيف يسأل عنها؟

[126] الشيخ جعفر السبحاني، التحسين والتقبيح العقليان ومكانتهما في العقيدة والشريعة.

وكذلك أرى أن آيات ضرورة الرسل تكون في المشركين أي من يشرك مع الله فيتخذ معه الشريك أو يعبد أشياءً أو مظاهر الطبيعة و يرى أنها تقربه إلى الله، فهؤلاء من لا بد من إقامة الرسل لهم حتى لا يتحججون يوم القيامة، أما الملحدين وعباد الأصنام أو الحيوانات أو الطبيعة ذاتها فهؤلاء في النار. فمن المسلم به أن من أنكر وجود الإله وإن لم يأته رسول فهو في النار، لأن هذا من المسلمات العقلية. ومن عبد الأصنام فقط أو قدسها، فهو في النار.

8- الإحباط

كذلك خالفت المعتزلة بقولهم بالإحباط، والإحباط هو بطلان ثواب العمل بالسيئة المتأخرة، أي كما أن الحسنات يذهبن السيئات، فكذلك الشرك والكفر والكبائر يحبطن الحسنات!، وقال جمهور المعتزلة: إن المؤمن المطيع يسقط ثوابه المتقدم بكامله إذا صدرت منه معصية متأخرة، حتى أن من عبد الله طول عمره، ثم شرب جرعة من خمر فهو كمن لم يعبد الله أبداً، وكذا الطاعة المتأخرة تسقط الذنوب المتقدمة، وهذا هو معنى الإحباط. واتفق الامامية والاشاعرة على بطلان الإحباط، وقالوا: إن لكل عمل حسابه الخاص، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي، ولا المعاصي بالطاعات، والإحباط يختص بالجاحدين الذين لا يؤمنون بالله ولا بالرسول واليوم الآخر، كما دلت الآية الكريمة: "لئن أشركت ليحبطن عملك، ولتكونن من الخاسرين"، لأن الجحود سيئة لا تقبل معه حسنة، وليس بعد الشرك إلا العذاب، أما من أساء وأذنب، وهو يؤمن بالله، فيوازن بين حسناته وسيئاته، فإن كانت الإساءة أكثر كان كمن لم يحسن، وإن كان الإحسان أكثر كان كمن لم يسيء، إذا الأكثر ينفي الأقل، وإن تساوياً كان كمن لم يصدر عنه شيء، وقال صاحب المواقف: إن الذي تتساوي حسناته مع سيئاته يجوز أن يثاب، ترجيحاً لجانب الثواب على العقاب.

9- عدم إرادة الله للمعاصي

وكذلك خالف المعتزلة بقولهم: إن الله لا يريد شيئا من المعاصي ولا يحبها ولا يرضاها. وعللوا ذلك فقالوا: "والدَّلِيْلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الله لَوْ أَرَادَ شَيْئًا مِنْهَا لَمَا حَسُنَ مِنْهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ عَلَيْهَا، كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ أَرَادَ مِنْهُمُ الطَّاعَةَ لَمْ يَحْسُنْ مِنْهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ عَلَى فِعْلِهَا، بَلْ وَجَبَ عَلَيْهِ أَنْ يُثِيبَهُمْ عَلَى فِعْلِهِمْ لِلطَّاعَاتِ لِمَا بَيَّنَّا مِنْ أَنَّهُ تَعَالَى لاَ يُخِلُّ بِشَيْءٍ مِنَ الْوَاجِبَاتِ، وَقَدْ قَالَ الله تَعَالَى: ﴿... وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١﴾ [سورة غافر, ٣١]، وقَالَ تَعَالَى: ﴿... وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ... ۝٧﴾ [سورة الزمر, ٧]، وقَالَ: ﴿... وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [سورة البقرة, ٢٠٥]."[127]

ويعلق الإمام المؤيدي الزيدي على هذه المسألة قائلا: "ذهب سائر فرق المجبرة من الأشعرية والكُلابية والنجارية إلى أن الله تعالى مريد لجميع ما حدث من الكائنات، طاعة كان أو معصية، وأنه لا كائن في عالمه إلا وهو متعلق بإرادته، وما لم يحدث منها فإنه لا يريده طاعة كان أو معصية، والدليل على ذلك الذي ذهب إليه أهل العدل أن الرضى والمحبة يرجعان إلى الإرادة، فإذا قد قام الدليل على عدم الرضى، وعدم المحبة للقبيح كان غير مريد لهما، وبيانه أن الرضى والمحبة من جنس الإرادة وإن كانا لنوعين مخصوصين منها فالرضى اسم للإرادة المتقدمة المتعلقة بفعل الغير بشرط وقوع ذلك الفعل، والمحبة اسم للإرادة التي تطابق الداعي وقد يخلق الله فينا إرادة بما لاداعي لنا إليه كدخول النار فإنه يسمى إرادة ولا يسمى محبة. فقول الشارح المحقق بترادفهما فيه ما فيه، والذي يدل على ذلك الذي ذهبنا إليه من العقل أن إرادة القبيح قبيحة، والله تعالى لا يفعل القبيح والعلم بذلك ضروري، وهو مما لا خلاف فيه في الشاهد عند زوال اللبس ووجوه الشبه، ولهذا أن العقلاء يذمون من أراد القبيح كما يذمون من فعله، وتسقط منزلة المريد للقبيح كما تسقط منزلة من فعله، وما ذاك إلا لكونه قبيحاً ولا وجه

[127] أحمد بن حسن الرصاص، مصباح العلوم، الثلاثين مسألة.

لقبحه إلا كونه إرادة للقبيح، لأنا عند العلم بذلك نعلم قبحه وإن جهلنا كل أمر، وعند الجهل بذلك لا نعلم قبحه. ولنا على ذلك أيضاً أن الله تعالى لو كان مريداً للمعاصي لكان الفاعل لها مطيعاً؛ لأن من فعل ما أراده المطاع وصفه أهل اللغة بأنه مطيع، وقولهم بل المطيع من فعل ما أمر به المطاع غير مسلم؛ لأن العبد يوصف بأنه مطيع لسيده وإن لم يصدر منه أمر حيث فعل مراده، وإن سلمنا فلا ينجيهم؛ لأن الأمر لا يكون أمراً إلا بالإرادة. و أما الدليل على ذلك من السمع: فإنه قد جاء السمع بذلك حيث قال تعالى: ﴿... وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ... ۝٧﴾ [سورة الزمر, ٧] وقال تعالى: ﴿... وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ۝٣١﴾ [سورة غافر, ٣١] ﴿... وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ۝٢٠٥﴾ [سورة البقرة, ٢٠٥] ونحو: ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ... ۝١٨٥﴾ [سورة البقرة, ١٨٥] أي ما يؤدي إلى اليسر من الطاعة، ولا يريد بكم العسر وهو ما يؤدي إلى العسر من المعصية، هكذا فسره بعضهم. وقال فيما رواه مسلم: "إن الله يقول للعبد العاصي إذا جاء يوم القيامة أردت منك أيسر من ذلك" فصرح بأنه أراد منه الطاعات التي لم يفعلها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [سورة الذاريات, ٥٦] وهذه لام الغرض بلا شبهة، والغرض والإرادة واحدة في الأغلب بلا خلاف، وقوله تعالى: ﴿... تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ... ۝٦٧﴾ [سورة الأنفال, ٦٧] إلى غير ذلك من الآيات." اهـ [128]

10– عدم فعل القبيح من الله

كذلك خالفوا أهل السنة بقولهم: إن الله لا يفعل القبيح، وفي هذا يقول الإمام الجشمي البيهقي: "عندنا: يقدر على القبيح ولا يفعله، وعند المجبرة: يفعله ولا يقبح منه (!!)، وعند النظام: لا يقدر على فعل القبيح، وقد ثبت أنه قادرٌ لذاته فلا جنس إلا وهو

[128] إبراهيم بن محمد بن أحمد المؤيدي، الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح.

مقدورٌ له، ولأن القبيح من جنس الحسن، فإذا قدر على الحسن قدر على القبيح.فأما الكلام في أنه لا يفعل القبيح، فيقال لهم: أليس هو تعالى عالم بقبح القبيح وبغناه عنه، فلا بد من: بلى، فيقال: فمن هذه حاله لا يختار القبيح البتّة إذ كان حكيماً، كالواحد مناً إذا استوى عنده الصدق والكذب في النفع والضر فإنه لا يختار إلا الصّدق. ويقال: الحكيم الذي يقصد الفعل ويفعله مع العلم به لا يفعله إلا لداعي وغرض أو يفعل لا لداعي وغرض؟. فإن قال: يفعل لا لداعي وغرض كابر العقول، وإن قال لا بد من غرض وداعي. قلنا: فالقبيح لا داعي فيه إذا علم قبحه وغناه بل قبحه، وإنما الداعي إليه الحاجة والجهل بحاله وهذا لا يجوز عليه، وإنما يقال لهم: إذا خلق الظلم والكذب وسائر القبيح أيحسن منه أم يقبح ويفعله وأي ذلك كان جاز أن تظهر المعجزة على يد كذّاب ويبعث رسولاً يدعو إلى الكفر والكذب؛ لأن ذلك دون خلق الكفر والكذب. ويقال لهم: أيقدر أن يظهر المعجز على يدي كذاب أم لا؟ فإن قالوا لا فقد وصفوه بالعجز... فإن قالوا: يقدر، قلنا: فما تنكر أن جميع ما ظهر على أيدي الأنبياء إنما كان كذلك." اهـ[129]

11- تصور السحر والحسد

خالفت المعتزلة أهل السنة كذلك في تصور السحر والحسد، فهم لم ينكروهما كما يدعي بعض المدعين ولكنهما يفهمونهما بشكل آخر غير الذي نفهمه، فهم يرون أن الحسد هو تمني زوال نعمة الغير وليس وجود قوى فوق طبيعية تصدر من الحاسد فتؤثر في المحسود. ويستندون في ذلك إلى أن الآيات الواردة في القرآن عن الحسد كلها تدور في إطار هذا المعنى وليس لها علاقة بقوى خارقة تصدر من الحاسد أو ما شابه. أما مسألة العين وأن العين حق وأن نصف من في المقابر من العين فيردونها لأن ما ورد

[129] الإمام الحاكم أبو سعيد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، تحكيم العقول في تصحيح الأصول.

في هذه المسألة هو من أخبار الآحاد والتي لا مستند لها من عقل أو من نص في القرآن العظيم.[130]

كذلك يرون أن السحر ما هو إلا تخييل للرائي ولا يستطيع الساحر تحويل أو تغيير طبائع الأشياء وإلا صار السحرة أغنى الناس وما احتاجوا إلى العمل، ولتحكموا في العباد والبلاد! لذلك تنفي المعتزلة ما قيل في سحر الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا تقيم اعتبارًا لما ورد في هذا المقام من تكذيب لكتاب الله الذي أثبت العصمة لنبيه، ولما خالف العقل في امتهان رسوله وتسليط زبالة الإنس والجن عليه، وتركه فترة من الزمان حائرًا شاكيًا لا يدري ما به وماذا يفعل، تحت دواعي واهية تافهة في أنها ابتلاء وامتحان، وإثبات لبشريته، وكأن هذه الأمور لا تحدث إلا إذا أُهين عليه السلام وذهب عقله. ويكفي دليل زمن نزول المعوذتين اللتين زعموا أنهما نزلا في سحره، فالسورتان مكيتان وأسلوبهما مكي، والسحر المزعوم حدث في المدينة، من هنا نفهم سبب محاولة البعض التشكيك في زمن نزولهما.

12– الجن

يؤمن المعتزلة بوجود الجن الشبحي ولم ينكروا ذلك البتة، كل ما هنالك أن تصورهم لعلاقة الجن بنا مختلفة تماما عن تصور أهل السنة، ولا أعتقد أن هذا كاف للادعاء بأنهم ينكرون الجن. أما تصور علاقة الجن بنا فهي كالتالي:

ينكر المعتزلة تماما إمكانية التواصل مع الجن عبر أي واحدة من الحواس لقوله تعالى: ﴿... إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف ,٢٧]

[130] أصبحت مسألة الحسد هذه متكئا لكل اضطراب في حياة أي إنسان، فما أن يظهر عليه أي اضطراب أو تصيبه أي مصيبة حتى يسارع الأهل –من العوام– بالادعاء أنه محسود وأصابته العين! ويعجب المرء! أليس هذا ناتج فعله؟ وإذا لم يكن أليس هناك ابتلاءات من الله عزوجل أم أن العين هي التي أصبحت تسّير هذا العالم!

ينكر المعتزلة قدرة الجن على التأثير في حياة الناس، خاصة في موضوع المرض والشفاء.

ينكر المعتزلة إمكانية تسخير الجن من قبل بعض الناس، ولكنهم يؤمنون بما ورد في القرآن الكريم من تسخير الجن لسليمان عليه السلام، بقدرة الله، على سبيل المعجزة الخاصة بسليمان، والمعجزة لا تتكرر، إذ أي تكرار لها يسحب عنها برهان المعجزة.

ينكر المعتزلة إمكانية معرفة الجن الغيب، لأنهم يرون أن القرآن الكريم أنكر ذلك بوضوح قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سورة سبإ, ١٤] فالجن لا يعلم الغيبَ كُلاً أو بعضاً، فها هم في زمن سليمان مسخرون على خلاف طبيعتهم، في أشد الشوق للعودة لطبيعتهم، ويموت سليمان وهم يشاهدونه قائما، ولا يعلمون أنه ميت.

ينكر المعتزلة قدرة الجن على التحول أو التمثل بالناس أو الحيوانات، حيث يرون أن أحاديث الآحاد غير كافية فكيف إذا عارضت القرآن! كذلك ينكر المعتزلة إمكانية التزاوج بين الإنس والجن. ويمكننا أن نلخص رأي المعتزلة في الجن من خلال ما يقوله الأستاذ أمين نايف المعتزلي المعاصر: "أنَّ الخواص التي عليها الجن هي:

1– رؤيتهم للناس من حيث لا يمكن للناس أن تراهم أفرادا أو جماعات قال تعالى: ﴿... إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ٢٧] وحرف "من" الزائد ورد لتوكيد عدم رؤية الناس للجن، بأي حال من الأحوال.

2– إنهم يستمعون لكلام الناس، ولكن الناس لا تسمع منهم، ولا تستمع إليهم، قال تعالى في صدر سورة الجن: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ [سورة الجن, ١] فالقرآن ينص بمنطوقه: إنَّ علم استماع الجن للقرآن، إنما أخبر به الرسول محمد وحياً، ولم يعلمه مشاهدة، ولا معاينة، أي لم تقع

عليهم رؤية العين، وهذا رد واضح بين على من يزعم أنه يَسمعُ الجن وَيُسْمِعُهُم، فالرسول لم يحصل على هذه الخصيصة.

3- ليس للجن سلطان على أحد من البشر، وسلطان الجن على البشر يكون على من رضي باختياره متابعته، أي بارتكابه من ذاته، وبناءاً على دوافعه، ووفق رأيه ومباشرته للفعل بكل اختيار، أعمال المعاصي والفسق، والكفر، فالجن غير متمكن، وفاقد للاستطاعة بإجبار أي واحد من البشر على معتقد أو مسلك، وهذا ما يصرح به القرآن واضحا جلياً، بلا لُبس أو غموض، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة إبراهيم, ٢٢]، الجن لا يدخل جسم الإنسان، ولا يقدر على لمسه، ولا يدخل عقل الإنسان، أو دماغه أو قلبه، أو صدره، أو أي جزء من جسم الإنسان، فالجن عالَمٌ مفصولٌ تمام الفصل عن الإنس، في كل أمر، الجن يوسوس للناس، الجن يزين المعصية للناس، ليس بمقدور البشر معرفة الكيفية، التي تجري فيها الوسوسة والتزيين، ولهذا لا ضير من القول إن الشيطان يباشر فعلاً الوسوسة والتزيين، على شرطين: الأول: أنَّ موضوع كيفية ذلك غير معروف، الثاني أنهما -أي الوسوسة والتزيين- ليسا سبب العدول عن الاستقامة، بل عدل الإنسان عنها من ذاته، فلا يلومَنَّ غير نفسه."اهـ

وكما نرى فإن بعض أدلتهم في مسألة الجن قوية يمكن قبولها وبعضها ليست بالنص الصريح فيما يقولون به. وبعد قراءة رأيهم في الجن يسأل المرء نفسه: ما هو الجن إذا وما دوره في الحياة؟ فلقد أثبتوه من ناحية ونفوه عنه أي فاعلية من ناحية أخرى! كذلك خالفوا في بعض المسائل منها: أن الله لا يكلف نفسا إلا ما تطيق، وقال أهل السنة بجواز ذلك، وخالفوا كذلك في بعض المسائل المشتركة مع الفرق الأخرى وسنناقشها عند التعرض لها عند مناقشة آراء الفرق الأخرى.

وبعد عرض أهم آراء المعتزلة والمسائل التي خالفوا فيها يخرج القارئ بتصور عام عنهم، وهو أنهم كانوا يريدون تأسيس منهج إسلامي عقلي في التعامل مع النصوص الشرعية قائم على حرية الإنسان وعدم جبره، تُحدد فيه الأدوار ويتحمل كل فرد مسؤلية أعماله وجزاء ما تقترفه يداه، فلا يتداخل فعل الله مع فعل البشر ولا ينسب فعل البشر إلى الله أو العكس. أما منهجهم في التعامل مع السنة فهم لم يردوا أحاديث الآحاد كلية ولكن إذا خالفت المعقول وخالفت المنصوص عليه في القرآن فتُرد ولا تقبل لأنها ظنية الثبوت بخلاف القرآن الثابت ثبوتا قطعيا ولكنه ظني الدلالة لذلك يلجأون إلى تأويل النصوص حتى تتوافق مع المعقول.

وليس هذا مسلكهم وحدهم فكل الفرق الإسلامية أولت النص القرآني! لكي يتوافق مع رواياتها الحديثية ومع المعقول ومع العلم أيضا والشواهد على ذلك طافحة في كتب التفسير.

وقد لا تعجب طريقة عرضي لعقائد المعتزلة لأنها عرضت في الغالب بدون الرد عليها أو التعليق عليها! –كما أنها لن تعجب المعتزلة الجدد لأنها عرضت عرضا ملخصا– ولكن طريقة العرض هذه متعمدة! فكثيرا ما قرأنا آرائهم في كتبنا، والتي عرضتها عرضا مبسطا ثم قامت بتفنيدها تفنيدا مطولا! فليس من الظلم أن تعرض بدون رد إذا كانت تعرض ملخصة بدون تطويل. أما الاختصار في العرض فلسببين:

أولهما: أن فرقة المعتزلة ومبادئها لم يعد لهما التأثير والدور الكبيران في المجتمع، والمرء يقرأ عنهما في الكتب فقط، فلا نريد أن نناقش أفكارا نظرية مناقشة مطولة ولا ممثلين لها على أرض الواقع.

ثانيهما: أننا إذا توغلنا في نقاش آراء المعتزلة فسيشعر القارئ أننا في كتاب عن الفلسفة الإسلامية وليس عن العقائد الإسلامية، فالقارئ ينتظر عند الحديث عن العقائد أن يكون الجدل والحوار مركزين أيما تركيز على الأدلة من الكتاب والسنة وصحة الاستدلال بهذا الدليل من عدمه وأين أخطأ الفريق الآخر في الاستدلال والدور التاريخي

في تطور مبادئ فرقة ما، أما تلك النقاشات العقلية الجافة التي لا يكاد يظهر فيها للنص الشرعي أي دور فلا تعطي القارئ أي انطباع أن هذا نقاش عقدي بقدر ما هو فلسفي محض، وهذا ما لا نريده في هذا الكتاب بأي حال، بل نريد أن نقدم تصورا مبسطا للقارئ غير المتخصص عن العقائد الإسلامية.

وبعد أن انتهينا من ذلك العرض السريع الموجز لعقائد المعتزلة ننتقل إلى التعريف بالصوفية وعرض عقائدها.

الصوفيــة

على الرغم من أن الصوفية تصنف عادة من ضمن فرق أهل السنة، إلا أنه يمكن القول إنها توجه موجود في كل المذاهب في كل الأديان وليس في الإسلام فقط، فنجدهم في كل فرقة باسم مختلف والمضمون واحد، فعندنا الصوفية وعند الشيعة أهل العرفان، وهم في بعض الديانات الأخرى الزهاد أو النساك أو العباد أو الرهبان أو... إلخ هذه الأسماء التي تشترك في المسمى. فما حقيقة هذه الفرقة الضالة المبتدعة التي يلفها الغموض الكائنة في كل الأديان؟ هل يمكن تصنيفها داخل أهل السنة أم أنها إلى التشيع أقرب؟ أم أنه من الأولى تصنيفها في المذاهب المنادية بوحدة الوجود؟ هذا ما سيعرفه القارئ بنفسه بعد أن يقرأ عن هذه الفرقة ولا يتعجل القارئ فيرفض وصفنا لها بالضلال ويراه تحاملا على الفرقة ويقول إن فيها الطيب والرديء. فنقول: المشهور عن هذه الفرقة الدعوة إلى الزهد والإكثار من ذكر الله، وهذان مسلكان حميدان لا غبار عليهما، ولكن هل التزمت هذه الفرقة بما تدعو إليه وتتشدق به أم أنها دخلت في باب الابتداع في الدين من أوسع أبوابه، على الرغم من أنهم يدعون –مثل كل الفرق– أنهم متمسكين بالكتاب والسنة؟ سيرى القارئ من خلال العرض أن هذه الفرقة ابتدعت في دين الله ما لم تسبق إليها ووجهت العباد توجها يخالف التوجيه الرباني الوارد في القرآن.

وكالعادة نبدأ بمناقشة الاسم وأسباب الظهور التاريخية في عجالة سريعة ثم نلج إلى العقائد. ولكن قبل أن نناقش منشأ الاسم يحق لنا أن نسأل لماذا للصوفية هذا البريق ولم تنجح في اجتذاب الجماهير العريضة؟ يجيب الدكتور محمد جميل غازي على هذا السؤال قائلا: "إن شغف الناس بالأساطير، وولع الجماهير بالأمور الغيبية التي يسمعون أن بعض الآدميين سيطروا عليها، وأخضعوها لرغباتهم... هذه الأخبار تستولي على وجدانهم وتترسب في أعماق النفسية الجماعية لهم، وتكمن داخل كل فرد.. لا إيماناً فقط بالمكشوف عنهم الحجاب، ولا حباً لهم.. ذلك الحب الذي يفوق كل تعصب.. لكن لرغبات تنطوي عليها جوانحهم .. فلا يستطيعون الكشف عنها!!

تلك هي آمالهم في أنهم قد يملكون يوماً ما هذه القدرة! مادامت قد منحت لبشر مثلهم لا يزيدون عنهم باصطفاء، ولا باجتباء فهم من آباء مثل آبائهم، وأمهات مثل أمهاتهم، ويركز هذا الأمل في أعماقهم، ويدعمه أنهم يسمعون من شيوخهم.. أن ذلك ليس ببعيد أن يصيبهم.. بشرط واحد هو أن ينصاعوا، وأن يذعنوا، وأن يقدموا مزيداً من الطاعة لشيوخهم، وكثيراً من الهبات الدسمة، وأن لا يتوانوا عن ترديد هذه الخزعبلات.. فكل هؤلاء الأقطاب .. كانوا مثلهم مريدين صغاراً.. ثم تدرجوا!! النفسية الجماعية المريضة هي الأصل!!" اهـ[131]

ما هو أصل كلمة "صوفي"؟

كالعادة اختلف العلماء من المتصوفة وغيرهم في تحديد مصدر اشتقاق هذا الاسم ومن أين أتى، ولكن من ابرز ما ذكر عن سبب التسمية ب "الصوفية" ما يلي: سموا بذلك نسبة إلى أهل الصفة، وكان لقبا لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول المصطفي ممن لم تكن لهم بيوت تأويهم، فأمر الرسول ببناء فناء ملحق بالمسجد لهم، وهذا يوضح ادعاء المتصوفة بأن التصوف بدأ في عصر النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل سموا بذلك نسبة إلى الصفاء: أي أن الصوفية صافية من الشرور وشهوات الدنيا، وهذا الاشتقاق غير صحيح لغويا فالنسبة الى الصفاء: صفوي أو صفاوي أو صفائي وليس صوفيا. وقيل: سموا بذلك نسبة إلى الصوف، وهذا رأي أكثرية المتصوفة المتقدمين والمتأخرين، كما يرون ان لبس الصوف دأب الأنبياء والصديقين وشعار المساكين، وهذا الرأي هو ما أميل إليه. وقيل سموا بالصوفية نسبة إلى **Sophia**، اللفظة اليونانية والتي تعني الحكمة، ولكنهم يرفضون هذا الرأي الذي يُرجع نشأتهم إلى أصول وثنية غير إسلامية وغير عربية، وقيل سموا صوفية نسبة إلى الصف الأول، لحرصهم على الصلاة

[131] محمد جميل غازي وسعيد عبد العظيم، الصوفية الوجه الآخر الصوفية طريق الهاوية.

فيه! وقيل نسبة إلى الصفوة! وظهرت آقوال عدة في هذه المسألة، أرجحها النسبة إلى الصوف.

وإذا نحن توقفنا عند تسمية الصوفية فسنجد أنها هي الفرقة الوحيدة التي أتت باسم عجيب، فنحن اسمنا أهل السنة والشيعة ينسبون أنفسهم إلى أهل البيت والمعتزلة إلى اعتزال الشر والوقع في الخير، والإباضية يسمون أنفسهم أهل الحق والاستقامة، وكلهم متمسكون بالكتاب والسنة والنهج الرباني في الحياة، أما هؤلاء فركنوا إلى الدعة والكسل وفيهم يقول الإمام ابن الجوزي في كتابه الرائع "تلبيس إبليس": "كانت النسبة في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام. فيقال: مسلم ومؤمن، ثم حدث اسم زاهد وعابد، ثم نشأ أقوام تعلقوا بالزهد والتعبد، فتخلوا عن الدنيا، وانقطعوا إلى العبادة، واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها، وأخلاقا تخلقوا بها، ثم قال: وهذا الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين، ولما أظهره أوائلهم تكلموا فيه، وعبروا عن صفته بعبارات كثيرة، وحاصلها أن التصوف عندهم رياضة النفس، ومجاهدة الطبع بردّه عن الأخلاق الرذيلة، وجعله على الأخلاق الجميلة من الزهد والحلم والصبر والإخلاص والصدق إلى غير ذلك من الخصال الحسنة التي تكسب المدائح في الدنيا والثواب في الأخرى... وعلى هذا كان أوائل القوم، فلبّس عليهم إبليس في أشياء، ثم لبس على بعدهم من تابعيهم فكلما مضى قرن زاد طمعه في القرن التالي فزاد تلبيسه عليهم إلى أن تمكن من المتأخرين غاية التمكن. وكان أصل تلبيسه عليهم أنه صدهم عن العلم وأراهم أن المقصود العمل فلما أطفأ مصباح العلم عندهم تخبطوا في الظلمات. فمنهم من أراه أن المقصود من ذلك ترك الدنيا في الجملة فرفضوا مايصلح أبدانهم. وشبهوا المال بالعقارب، ونسوا أنه خلق للمصالح وبالغوا في الحمل على النفوس حتى أنه كان فيهم من لا يضطجع وهؤلاء كانت مقاصدهم حسنة غير أنهم على غير الجادة. وفيهم من كان لقلة علمه يعمل بما يقع إليه من الأحاديث الموضوعة وهو لا يدري. ثم جاء أقوام فتكلموا لهم في الجوع والفقر والوسواس والخطرات وصنفوا في ذلك مثل الحارث المحاسبي. وجاء آخرون فهذبوا مذهب التصوف وأفردوه بصفات ميزوه بها من

الاختصاص بالمرقعة والسماع والوجد والرقص والتصفيق وتميزوا بزيادة النظافة والطهارة. ثم مازال الأمر ينمى والأشياخ يضعون لهم أوضاعا ويتكلمون بواقعاتهم. ويتفق بعدهم عن العلماء لا بل رؤيتهم ما هم فيه أوفي العلوم حتى سموه العلم الباطن وجعلوا علم الشريعة العلم الظاهر. ومنهم من خرج به الجوع إلى الخيالات الفاسدة فادعى عشق الحق والهيمان فيه فكأنهم تخايلوا شخصا مستحسن الصورة فهاموا به. وهؤلاء بين الكفر والبدعة ثم تشعبت بأقوام منهم الطرق. ففسدت عقائدهم. فمن هؤلاء من قال بالحلول ومنهم من قال بالإتحاد. وما زال إبليس يخبطهم بفنون البدع حتى جعلوا لأنفسهم سننا وجاء أبو عبد الرحمن السلمي فصنف لهم كتاب السنن وجمع لهم حقائق التفسير فذكر عنهم فيه العجب في تفسيرهم القرآن بما يقع لهم من غير إسناد ذلك إلى أصل من أصول العلم. وإنما حملوه على مذاهبهم. والعجب من ورعهم في الطعام وانبساطهم في القرآن... وصنف لهم أبو طالب المكي قوت القلوب فذكر فيه الأحاديث الباطلة ومالا يستند فيه من أصل من صلوات الأيام والليالي وغير ذلك من الموضوع وذكر فيه الاعتقاد الفاسد... فالتصوف مذهب معروف يزيد على الزهد ويدل على الفرق بينهما. أن الزهد لم يذمه أحد وقد ذموا التصوف على ما سيأتي ذكره وصنف لهم عبد الكريم بن هوازن القشيري كتاب الرسالة فذكر فيها العجائب من الكلام في الفناء والبقاء، والقبض، والبسط، والوقت، والحال، والوجد والوجود، والجمع ووالتفرقة، والصحو والسكر، والذوق، والشرب، والمحو، والإثبات، والتجلي، والمحاضرة والمكاشفة، واللوائح والطوالع، واللوامع، والتكوين، والتمكين والشريعة، والحقيقة. إلى غير ذلك من التخليط الذي ليس بشيء وتفسيره وأعجب منه. اهـ

من أجل هذا نعيب على الصوفية فعلهم، "فالقضية ليست قضية سلوك وإنما هي أساليب مستحدثة مخترعة أعجمية في الرياضات الروحية أدت إلى الشطح والقول على الله بغير على فغاية الصوفية الاتصال بالله –بزعمهم– والبعد عن الناس، وهذا مضاد لمنهج الأنبياء الذين لم يبعثوا إلا ليهزوا أركان العالم ويوقظوا الناس من سباتهم، ولذلك فنحن لا نعتبر أعلام الزهاد والعباد كإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض وأمثالهم

داخلين في الصوفية بهذا المعنى الذي نقرره، فضلاً عن أن نعتبر أمثال الحسن البصري ومن قبله كما يحاول الصوفية أن يقرروا وبدون حياء كما يصفهم ابن الجوزي، وكل فرقة تحاول التمويه على الناس وتنسب إليها أعلام أهل السنة، فكل الأحاديث الباطلة والمضحكة عند الشيعة الإمامية تنسب إلى جعفر الصادق وهو بريء منها وهو من أئمة أهل السنة"اهـ [132]

نشأة التصوف

لا يعلم على وجه التحديد من ومتى بدأ التصوف في الإسلام، وهذا ما لا يمكن تحديده بأي حال من الأحوال، إذ أن هذا السلوك لا يُلاحظ إلا بعد أن يصير ظاهرة في المجتمع، أما أن يسجل الناس أول من بدأ بهذا المسلك فهذا ما يأباه العقل ويرفضه التاريخ. وعلى الرغم من ذلك ظهرت بعض الأقوال التي تحاول أن تحدد أول من بدأ هذا المسلك الممنهج في التصوف بعيدا عن الزهد الإسلامي، فقيل إن التصوف أول ما ظهر كان في الكوفة بسبب قربها من بلاد فارس، والتأثر بالفلسفة اليونانية بعد عصر الترجمة، ويقول شيخ الاسلام ابن تيمية: "أن أول من عرف بالصوفي هو ابوهاشم الكوفي سنة 150هـ"، وقيل إنه نشأ أول ما نشأ بالبصرة، وأول من بنى ديرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصري رحمه الله. وقد صاحب هذه الحركات مظاهر كاذبة مخادعة مثل سقوط بعضهم مغشيا عليه عند سماع القرآن، ولن نقول أن حكمنا هذا لأن الرسول والصحابة الأبرار رضوان الله عليهم –والذين هم حتما لا يقارنون بهم– لم يصدر منهم هذا، بل لأن منزل الكتاب نفسه وصف تأثير كتابه بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ

[132] محمد العبدة، طارق عبدالحليم، دراسات في الفرق، الصوفية نشأتها وتطورها.

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٢٣﴾] سورة الزمر ,٢٣[، فما يفعله هؤلاء حتما هو من باب الادعاء الممقوت.

وعلى الرغم من ذلك فيمكننا القول إن منهج غالبية المتقدمين تميز بالرجوع إلى والتمسك بالكتاب والسنة، واعتبارهما مصدري التلقي والاستدلال الوحيدين، ويروى في ذلك النصوص الكثيرة، فمنها قول أبي القاسم الجنيد: "مذهبنا هذا مقيد بالأصول الكتاب والسنة" وقال أيضا: "علمنا منوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ الكتاب ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به" وقال أبو سليمان الداراني: "ربما تقع في نفسي النكتة من نكت القوم أياما فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة"، وقال سهل بن عبدالله التستري: "مذهبنا مبني على ثلاثة أصول: "الاقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النية في جميع الأعمال". ولكن على الرغم من ذلك فلقد تسلل إلى هذا المذهب تدريجيا الترهات والخرافات حتى صارت هي هو، وهو هي!

الصوفية والابتداع

إذا أردنا الحديث عن الابتداع في الصوفية فيمكننا أن ندخل الصوفية من الألف إلى الياء في باب الابتداع في دين الله فهي كلها تقليد لمذاهب وطرق غير إسلامية. وأرجو أن لا يخلط القارئ بين الزهد والصوفية، فالزهد الفردي النابع من داخل الإنسان مقبول من الإسلام، أما تلك التمارين الروحانية والمسالك الشاذة التاركة للدنيا المعرضة عنها، المقدسة للرجال، المغيبة للعقول، المؤصلة للخرافة فليست من الإسلام في شيء، وحتى لا يظن القارئ أننا نتقول على الصوفية أو ندعي عليها ما ليس فيها، نذكر بعضا من أوجه التشابه بين الصوفية وإخوانها من الحركات المشابهه في الديانات الأخرى:

1- التشابه في المنظور العام للصوفية مع إخوانها في الديانات الأخرى من حيث طريقة التأسيس والتنظير الأسطوري لها، حتى أن الناظر في قصص القوم يكاد يجدها واحدة منقولة بالنص، فنجد على سبيل المثال في البوذية بوذا يترك الملك ويبحث عن الحقيقة وإبراهيم بن أدهم الذي كان ملكا على بلخ يترك الملك ويبحث عن الحقيقة كذلك، مع تشابه كبير في أحداث القصتين.

ويذكر الأستاذ العلامة إحسان إلهي ظهير بعض نماذج للتشابه بين الصوفية والمظاهر المتطرفة في الديانات الأخرى قائلا: "ويقول رسول المسيحيين في رسالته إلى أهل كورنتوس: "وأما من جهة الأمور التي كتبتم عنها فحسن للرجل أن لا يمس امرأة". وكذلك يقول: "أقول لغير المتزوجين والأرامل: إنه حسن لهم إذا لبثوا كما أنا". ويقول: "فأريد أن تكونوا بلاهم. يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب. وأما المتزوج فيهتم في ما للعالم كيف يرضى امرأته. إن بين الزوجة والعذراء فرقا. غير المتزوجة تهتم في ما للرب لتكون مقدمة جسدا وروحا. وأما المتزوجة فتهتم في ما للعالم كيف ترضى رجلها. هذا أقوله لخيركم ليس لكي ألقى عليكم وهقا، بل لأجل اللياقة والمثابرة للرب من دون ارتباك. ولكن إن كان يظن أنه يعمل بدون لياقه نحو عذرائه إذا تجاوزت الوقت، وهكذا لزم أن يصبر فليفعل ما يريد. إنه لا يخطئ فيتزوجا. وأما من أقام راسخا في قلبه وليس له سلطان على إرادته، وقد عزم على هذا في قلبه أن يحفظ عذراء فحسنا يفعل. إذن من زوج فحسنا يفعل. ومن لا يزوج يفعل أحسن". هذا ومثل هذا كثير. هذه هي تعاليم المسيحية، المنقولة منهم تجاه الزواج، ومن هذه التعاليم تأثر وليّ من أولياء المسيحية اوريغن (ORIGEN) الذي يعدونه أحد القديسين، العائش ما بين 185 و254، وجبَّ ذكره. والجدير بالذكر أن أحد المتصوفة أتى بمثل هذا العمل، وفعل فعلته فيه... وأما التزام الصوفية لبس الصوف لكونه شعارا وعلامة لهم فأيضا مأخوذ من رهبنة المسيحية لأنه كان زيهم الخاص بهم كما أقر بذلك الصوفي المشهور في طبقاته عن أبي العالية أنه كان يكره للرجل زي الرهبان من الصوف، ويقول: "زينة المسلمين التجمل بلباسهم".

ومثل ذلك نقل ابن عبد ربه في (العقد الفريد) عن حماد بن سلمة أنه قال لفرقد السنجي حينما رآه لابسا الصوف: "دع عنك هذه النصرانية". وأما قضية المصطلحات التي روجوها بين الناس، واستعملوها فيما بينهم فلا يشك أحد في كونها أجنبية في الإسلام ولغة الإسلام العربية، ومقتبسة مأخوذة من المسيحية بحروفها وألفاظها، معانيها ومدلولاتها مثل: "ناموس، رحموت، رهبوت، لا هوت، جبروت، رباني، روحاني، نفساني، جثماني، شعشعاني، وجدانية، فردانية، رهبانية، عبودية، ربوبية، ألوهية، كيفوية".

وأما كون التصوف وتعاليمه وفلسفته، أوراده وأذكاره، وطرق الوصول إلى المعرفة، والمؤدية إلى الفناء، مأخوذة مستقاة من المذاهب الهندية والمانوية، والزرادشتية أيضا فلا ينكرها منكر، ولا يردها أحد، ولا يشك فيها شاك، بل إن كبار الكتاب عن التصوف والباحثين فيه من المستشرقين والمسلمين، وحتى الصوفية أقروا بذلك حيث لم يسعهم إلا الاعتراف بهذه الحقيقة الظاهرة الجلية التي لا يمكن تجاهلها ولا إغفالها البتة.

وأوجه الشبه التي ذكرها البيروني بين العقائد الهندية والعقائد الصوفية هي تتلخص في أمور ثلاثة: أولا: الأرواح. ثانيا: في طريق الخلاص. ثالثا: الغاء التمايز ومحو الإشارة[133].

هذا والقارئ لأقوال الصوفية، والعارف بأحوالهم ورياضاتهم ومجاهداتهم يلاحظ بنفسه تشابها كبيرا بين هؤلاء وأولئك، وخاصة في تعذيب النفس، وتحمل المشاق، والتجوع، وحبس النفس، وإماتة الشهوات، والهروب من الأهل والأولاد، والجلوس في الخلوات، مراقبة صورة الشيخ، طرق الذكر، وكثير من العادات والتقاليد والرسوم، حيث لا يرى فيها إلا مشابهة تامة بتلك المذاهب وأصحابها، كمالا يرى فيها أي أثر للإسلام وتعاليمه، ولا ثبوت من حاملي رايته، ومتمسكي سبيله، متبعي طريقه.

ثم بيّن طريق التدرّب على الجوع، وهي تشبه تماما طريقة يوجا الهندية حذو القذة بالقذة، وطبق النعل، فيقول: "وقد اتفق مشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على أربعة

(133) انظر لذلك كتاب تاريخ التصوف الإسلامي للدكتور قاسم غني ترجمة عربية لصادق نشأت، وكتاب مدخل إلى التصوف الإسلامي للدكتور التفتازاني.

أشياء: قلة الطعام وقلة المنام وقلة الكلام والاعتزال عن الناس،... وكذلك التعري لم يأخذه الصوفية إلا من البوذية والجينية ... والمعروف أن التسول والاستجداء والوقوف على أبواب الناس، وحمل المخلاة والكشكول من لوازم الديانة البوذية، ومن نصائح بوذا الثمانية المشهورة التي نصح بها دراويشه ورهبانه، كما أنه ألزمهم سير البراري وقطع الصحاري أو المكوث في الخانقاوات والانشغال فيها بالذكر. وأما قضية وحدة الوجود والحلول والاتحاد، والعقائد التي نادى بها الحلاج وابن عربي وجلال الدين الرومي وغيرهم ممن سلك مسلكهم، ونهج منهجهم. فلم يشك أحد في كونها مأخوذة مقتبسة بتمامها من (فيدانتا) الهندية. ومن قرأ آراء شري شنكر أجاريا في فلسفة (فدانتا) عرف جيدا أنها عين ما قاله الحلوليون والاتحاديون وأصحاب وحدة الوجود، وأن ما بيّنه شنكر، وفصّل القول فيه في شرح فلسفة وحدة الوجود أو فيدنتا هي التي توجد في كتب الوجوديون بكلياتها وجزئياتها".[134] فماذا بقى للصوفية إذا ولم تبتدعه؟!!

نماذج لمصطلحات الصوفية

2- استحداث مصطلحات غريبة ليس لها أصل في الكتاب أو السنة أو حتى اللغة، فالمصطلحات الصوفية تستعمل بطريقة لا يعرفها ولا يفهمها إلا من درس مذهبهم، لذلك فهم يلوموننا ويعيبون علينا أننا لا نفهم حقا ما يقصدونه بمصطلحاتهم، حتى أن المرء يحتاج إلى معاجم مخصوصة للمصطلحات الصوفية، حتى يفهم ماذا يريد ويقصد السادة الصوفية من كلامهم هذا، وهذا ليس في دين الله البسيط الميسر للذكر في شيء، ونذكر للقارئ بعض نماذج لمصطلحات الصوفية، ولم نختر له نماذج معقدة بل اخترنا نماذج بسيطة بعيدة عن الشطحات، منقولة بتصرف من كتاب: حقيقة الصوفية, حتى يتفكر القارئ إذا كان هذا هو البسيط فكيف بالبعيد المعقد:

---

(134) إحسان إلهي ظهير، التصوف المنشأ والمصادر.

"الحال: قيل: هو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب اكتساب من طرب أو حزن أو بسط أو فيض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج فالأحوال مواهب والمقامات مكاسب.

القبض والبسط: وهما حالتان بعد ابتعاد العبد عن حالتي الخوف والرجاء فالقبض للعارف بمنزلة الخوف للمبتدىء بالطريق إلى الله والبسط للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف. ومن أدنى موجبات القبض أن يرد على قلبه وارد موجبه إشارة إلى عتاب أو رمز باستحقاق تأديب فيحصل في القلب قبض. وقد يكون موجب بعض الواردات إشارة إلى تقريب أو إقبال فيه لطف وترحيب فيحصل للقلب بسط.

الوجد: ما يصادف قلبك ويرد عليك بلا تكلف. قال المشايخ: "الوجد هو المصادفة والمواجيد ثمرات الأوراد".

الغيبة والحضور: غيبة القلب وحضوره. فالغَيبة هي غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه، ثم يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب. ويقال لرجوع العبد إلى إحساسه بأحوال نفسه وأحوال الخلق: إنه رجع عن غيبته، فهذا يكون حضورا بخلق والأول يكون حضورا بحق وقد تختلف أحوالهم في الغيبة فمنهم لا تطول غيبته ومنهم من تدوم غيبته.

المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة: فالمحاضرة حضور القلب، ثم بعدها المكاشفة وهي: حضوره بنعت البيان ثم المشاهدة وهي: الحضور من غير بقاء تهمة.

القرب والبعد: فالقرب هو القرب من طاعته والبعد هو التدنيس بمخالفته والتجافي عن طاعته. فقرب العبد أولا بايمانه وتصديقه ثم قربه من الحق بإحسانه وتحقيقه، ولا يكون قرب العبد القرب المعنوي من الحق إلا ببعده عن الخلق وهذه من صفات القلوب دون أحكام الظواهر والكون وأول البعد بعد عن التوفيق ثم عن التحقيق، وأما القرب بالذات فتعالى الله الملك الحق عنه فإنه متقدس عن الحدود والأقطار والنهاية والمقدار، ما اتصل به مخلوق وما انفصل عنه حادث مسبوق.

الشريعة والحقيقة: فالشريعة التزام بالعبودية، والحقيقة طريقة الوصول، فكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير مقبول فالشريعة قيام بالأمر والحقيقة شهود لما قضى وقدر وأخفي وأظهر." اهـ

3- استحداث الطرق الصوفية ودرجاتها ومراتبها، ونبدأ أولا بالطريقة الصوفية ما هي؟ وهل لها أصل شرعي؟ على الرغم من صعوبة تحديد المراد بالطريقة والوصول لمفهوم موحد لجميع الطرق الصوفية إلا أنه يمكن القول إن الطريقة الصوفية تعني الانتساب الى شيخ يزعم لنفسه الترقي في ميادين التصوف والوصول الى رتبة الشيخ المربي ويدعي لنفسه رتبة صوفية من مراتب الأولياء. كما وصفها الشيخ الجزائري بقوله: إنها تعني اتصال المريد بالشيخ وارتباطه به حيا أو ميتا وذلك بواسطة ورد من الأذكار يقوم به المريد بإذن من الشيخ أول النهار وآخره، ويلتزم به بموجب عقد بينه وبين الشيخ، وهذا العقد يعرف بالعهد، وصورته ان يتعهد الشيخ بان يخلص المريد من كل شدة ويخرجه من كل محنة متى ناداه مستعينا به، كما يشفع له يوم القيامة في دخول الجنة. ويتعهد المريد بان يلتزم بالورد وآدابه فلا يتركه مدى الحياة كما يلتزم بلزوم الطريقة وعدم استبدالها بغيرها من سائر الطرق.!

ويلاحظ أن الطرق الصوفية تختلف في أذكارها وأورادها وطريقة الذكر والطرق المتبعة في التدرج كنوع من التجديد للمريدين! والاختلاف عن الآخرين –نحن نختلف!–، وإلا فليظل كل شيخ في طريقته ولا يخرج منها ويبتدع طريقة أخرى! ويمكن القول إن أوجه التشابه بين الطرق الصوفية تنحصر في بعض النقاط، من أهمها:

الاحتفال بدخول المريد في الطريقة بطقوس دقيقة مرسومة. التقيد بزي خاص، فلابد أن يكون هناك نوع خاص من الزي يمثل رمز أصحاب الطريقة الذي يلبسونه فيميزهم عن غيرهم. اجتياز المريد مرحلة شاقة من الخلوة والصلاة والصيام وغير ذلك من الرياضات الروحية. الاكثار من الذكر مع الاستعانة بالموسيقى والحركات البدنية المختلفة التي تساعد على الوجد والجذب. الاعتقاد في القوى السرية الخارقة للعادة التي يكتسبها

المريدون بالمجاهدات وهي القوى التي تمكنهم من أكل الجمر، والتأثير على الثعابين، والإخبار بالمغيبات. احترام شيخ الطريقة الى درجة التقديس.

أما عند الحديث عن الأصل الشرعي للطرق الصوفية فيجد المرء العجب العجاب، ولا حرج في ذلك، إذا كان للنص الشرعي ظاهر وباطن وهم يأخذون بالباطن، لذلك نجد بعضهم يستدل بقول الله تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ١٦﴾]سورة الجن ,١٦[!!، كما يدعون أن ذلك يرجع إلى عهد النبي المصطفى، حينما خص كل صحابي بورد مخصوص، فأخذ سيدنا علي بن أبي طالب بالنفي والإثبات وأخذ أبوبكر بالإثبات إلخ هذه الدعاوى!! ونسأل: بفرض صحة ما يقولون، هل كانت هناك طرق صوفية بالشكل الحالي في زمن النبي، من وجود شيخ ومريدين وحلقة وتلقين وتدرج، أم أن الأمر كان مجرد ذكر فقط؟!

وبعد الحديث عن الطريقة الصوفية نتحدث عن ابتداعهم لمراتب ما أنزل الله بها من سلطان، حددوا بها طبقاتهم ومنازلهم، ولست أدري كيف يفعلون ذلك والله تعالى يقول: ﴿... فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ٣٢﴾] سورة النجم ,٣٢[، ولكن كما زكّى أهل الحديث أفرادا ذكوا هم أيضا أنفسهم، وإليك عزيزي القارئ مراتب الصوفية[135]: "الأبدال، والأقطاب، والأوتاد، والعرفاء، والنجباء، والنقباء، وسيدهم الغوث. وعرّفهم الجرجاني في تعريفاته قائلا: القطب، وهو الغوث: عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان ومكان، وهو على قلب إسرائيل عليه السلام.

الإمامان: هما شخصان، أحدهما عن يمين الغوث ونظره في الملكوت، والآخر عن يساره، ونظره في الملك، وهو أعلى من صاحبه، وهو الذي يخلف الغوث.

الأوتاد: عبارة عن أربعة رجال منازلهم على منازل أربعة أركان من العالم: شرق وغرب وشمال وجنوب، مع كل واحد منهم مقام تلك الجهة.

(135) منقول بتصرف من: موسوعة الفرق، في موقع الدرر السنية.

البدلاء: هم سبعة، ومن سافر من القوم من موضعه وترك جسدا على صورته حتى لا يعرف أحد أنه فقد، فذلك هو البدل لا غير، وهم على قلب إبراهيم عليه السلام.

النجباء: أربعون، وهم المشغولون بحمل أثقال الخلق فلا يترفون إلا في حق الغير.

النقباء: هم الذين استخرجوا خبايا النفوس، وهم ثلاثمائة." اهـ وعلى الرغم من رغبتنا في التركيز على العقائد إلا أنه لا بد من تعريف القارئ ببعض الطرق الصوفية من خلال ذكر نبذة سريعة عن أشهر الطرق الصوفية وأشهر أعلامها:

أشهر الطرق الصوفية وأشهر أعلامها

تشعبت وتعددت الطرق الصوفية, ورغما عن ذلك فهناك طرق رئيسة اشتهرت عن غيرها, ولقد أجمل الأستاذ إبراهيم داود الداود أشهر الفرق الصوفية معرفا بها, فقال:

"الطريقة القادرية وتسمى الجيلانية: أسسها عبدالقادر الجيلاني المتوفي سنة 561هـ، يزعم اتباعه انه أخذ الخرقة والتصوف عن الحسن البصري عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما، كما نسبوا إليه من الأمور العظيمة فيما لا يقدر عليها إلا الله تعالى من معرفة الغيب، وإحياء الموتى وتصرفه في الكون حيا أو ميتا، بالإضافة إلى مجموعة من الأذكار والأوراد.

الطريقة الرفاعية: تنسب إلى أبي العباس أحمد بن أبي الحسين الرفاعي وهي تستخدم السيوف ودخول النيران في اثبات الكرامات. قال عنهم الشيخ الألوسي "وأعظم الناس بلاء في هذا العصر على الدين والدولة مبتدعة الرفاعية، فلا تجد بدعة إلا ومنهم مصدرها وعنهم موردها فذكرهم عبارة عن رقص وغناء وعبادة مشايخهم".

الطريقة البدوية: وتنسب إلى احمد البدوي 634هـ ولد بفاس، حج ورحل الى العراق، واستقر في طنطا حتى وفاته، له فيها ضريح مقصود، حيث يقام له كغيره من اولياء

الصوفية احتفال بمولده سنويا يمارس فيه الكثير من البدع والانحرافات العقدية من دعاء واستغاثة وتبرك وتوسل ما يؤدي الى الشرك المخرج من الملة، وأتباع طريقته منتشرون في بعض محافظات مصر، ولهم فيها فروع كالبيومية والشناوية وأولاد نوح والشعبية.

الطريقة الدسوقية: تنسب إلى إبراهيم الدسوقي 676هـ المدفون بمدينة دسوق في مصر، يدعي المتصوفة أنه أحد الأقطاب الاربعة الذين يرجع إليهم تدبير أمور الكون!!.

الطريقة الأكبرية: نسبة الى الشيخ محيي الدين بن عربي الملقب بالشيخ الأكبر 638هـ، وتقوم طريقته على عقيدة وحدة الوجود والصمت والعزلة والجوع والسهر.

الطريقة الشاذلية: وهي طريقة صوفية تنسب إلى أبي الحسن الشاذلي. يؤمن أصحابها بالمعتقدات الصوفية وإن كانت تختلف في أسلوب سلوك المريد وطرق تربيته، إضافة الى اشتهارهم بالذكر المفرد "الله أو مضمرا"، ويفضلون اكتساب العلوم عن طريق الذوق وهو تلقي الأرواح للأسرار الطاهرة في الكرامات وخوارق العادات، كذلك معرفة الله تعالى معرفة يقينية ولا يحصل ذلك إلا عن طريق الذوق أو الكشف.

الطريقة البكداشية: كان الأتراك العثمانيون ينتمون إلى هذه الطريقة، وهي لا تزال منتشرة في ألبانيا، كما أنها أقرب الى التصوف الشيعي، وكان لهذه الطريقة أثر بارز في نشر الإسلام بين الأتراك والمغول.

الطريقة النقشبندية: تنسب إلى الشيخ بهاء الدين محمد بن البخاري الملقب بشاه نقشبند 791هـ وهي طريقة تشبه الطريقة الشاذلية، انتشرت في فارس وبلاد الهند.

الطريقة الملامتية: أسسها أبوصالح حمدون بن عمار المعروف بالقصار 271هـ، أباح بعضهم مخالفة النفس بغية جهادها ومحاربة نقائصها، وقد أظهر الغلاة منهم في تركيا حديثا بمظهر الإباحية والاستهتار وفعل كل امر دون مراعاة للأوامر والنواهي الشرعية.

الطريقة التيجانية: طريقة صوفية يؤمن أصحابها بجملة الأفكار والمعتقدات الصوفية ويزيدون عليها الاعتقاد بإمكانية مقابلة النبي مقابلة مادية واللقاء به لقاء حسيا في هذه

الدنيا، وأن الرسول قد خصهم بصلاة "الفاتح" التي تحتل لديهم مكانة عظيمة. أسس هذه الطريقة أبو العباس أحمد التيجاني 1230هـ، الذي ولد بالجزائر ويدعي أنه التقى النبي لقاء حسيا ماديا وانه تعلم منه صلاة الفاتح وانها تعدل قراءة القرآن ستة آلاف مرة. ويلاحظ على اصحاب هذه الطريقة شدة تهويلهم للامور الصغيرة وتصغيرهم للامور العظيمة على حسب هواهم ما أدى إلى أن يفشو التكاسل بينهم لما شاع بينهم من الأجر العظيم على أقل عمل يقومون به، وقد بدأت هذه الطريقة في مدينة فاس وصار لها أتباع في السنغال ونيجيريا وشمال افريقيا ومصر والسودان.

الطريقة البريلوية: وهي فرقة صوفية نشأت في شبه القارة الهندية الباكستانية في مدينة بريلي بالهند في زمن الاستعمار البريطاني وقد اشتهرت بمحبة وتقديس الانبياء والأولياء بعامة، والنبي بخاصة. مؤسس هذه الطريقة هو أحمد رضا خان 340هـ ولقد سمى نفسه عبدالمصطفى!، ويعتقد أبناء هذه الطائفة بأن الرسول لديه القدرة التي يتحكم بها في الكون، ولقد غالوا في نظرتهم إلى النبي حتى أوصلوه الى قريب من مرتبة الألوهية، يقول أحمد رضا خان "أي يا محمد لا استطيع أن اقول لك الله، ولا أستطيع أن افرق بينكما، فأمرك إلى الله هو اعلم بحقيقتك" كما أن هذه الطائفة لديها عقيدة الشهود حيث أن النبي في نظرهم حاضر وناظر لأفعال العباد في كل زمان ومكان، كما أنهم يشيدون القبور ويعمرونها ويتبركون بها، وأعظم اعيادهم هو ذكرى المولد النبوي.وهم يكفرون المسلمين لأدنى سبب."[136]اهـ

سرد بأشهر أعلام الصوفية

نقدم للقارئ سردا بأشهر أعلام الصوفية، المتقدمين منهم والمتأخرين، المعتدلين منهم والمتطرفين: 1- أبو محمد رويم بن أحمد ت 303هـ، 2- أبو العباس أحمد بن محمد

(136) من مقال طويل مفصل له عن الصوفية على موقع: صيد الفوائد.

الآدمي ت 309هـ كان من كبار مشائخ الصوفية وعلمائهم، وكان من أقران الجنيد. 3- أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم ت 161هـ كان من أبناء الملوك، فخرج عن حاله تلك وتصوف، حتى صار مقدما في الصوفية. 4- أبو الفوارس شاه بن شجاع الكرماني (توفي قبل 300هـ، كان من أولاد الملوك. 5- أبو القاسم الجنيد بن محمد ت 297هـ: من أقواله: "الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفي أثر الرسول عليه الصلاة والسلام". وقال: "من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث، لا يقتدي به في هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة". 6- ذو النون المصري أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري ت: 245هـ. 7- أبو حفص عمر بن مسلمة الحداد ت 260هـ كان أحد أئمة الصوفية من أقواله: "من لم يزن أفعاله وأحواله في كل وقت بالكتاب والسنة ولم يتهم خواطره فلا تعده في ديوان الرجال". 8- أبي يزيد البسطامي، ت: 261هـ من أقواله الصالحة: "لو نظرتم إلى رجل أعطي الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداء الشريعة". 9- الحسين بن منصور الحلاج: تبرأ منه سائر الصوفية والمشايخ والعلماء،.. ومنهم من نسبه إلى الحلول ومنهم من نسبه إلى الزندقة وإلى الشعبذة.. وقد تستر به طائفة من ذوي الضلال والانحلال وانتحلوه وروجوا به على الجهال نسأل الله العصمة في الدين" وأورد الإمام الذهبي وغيره في ترجمته حكايات عنه فيها شعبذة ومخاريق، واشتهر بالقول بوحدة الوجود وهي من أشنع البدع وأقبحها على الإطلاق.

4- ونعود مرة أخرى لأوجه التشابه بين الصوفية الإسلامية ونظائرها في الديانات الأخرى, فنقول: إن أهم وأخطر ما ابتدعته الطرق الصوفية هي العقائد الصوفية والشطحات التي لا أصل لها في الإسلام، وهذا ما سنذكره في عنصر مستقل عند الحديث عن عقائد الصوفية.

5- تقسيم الدين إلى شريعة تلزم العامة من صلاة وصوم وزكاة وما شابه، وحقيقة تلزم الخاصة، فالشريعة هي ما يسمونه العلم الظاهر، والحقيقة هي ما يدعونه العلم الباطن، فالعلم الظاهر والذي يمثل الشريعة معلوم المصدر وهو الكتاب والسنة، أما علم

الحقيقة، علم الباطن فهذا يدعي الصوفية أنهم يأخذونه عن الحي الذي لا يموت، فيقول أحدهم: حدثني قلبي عن ربي، وذهب بعضهم إلى القول بأنه يأخذ عن ملك الإلهام، كما تلقى الرسول صلى الله عليه وسلم علومه عن ملك الوحي، وزعم بعضهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو من يخبرهم بما يتوجب عليهم من عبادة وذكر، وأنهم يلتقون بالأنبياء ويسألونهم عن قصصهم، وقال آخر إذا طالبوني بعلم الورق، برزت عليهم بعلم الخرق. وإذا سألت القوم ما مستندهم في هذا التقسيم، وأعلمتهم أنه لا يصح شرعا، نظروا إليك شزرا، وهزوا رؤوسهم شفقة بك، فأنت أيها المسكين لا تعلم ولا تفهم، ولمّا تذق بعد، فلو ذقت لعرفت، ثم يقولون: أما قرأت قصة الخضر عليه السلام مع سيدنا موسى عليهما السلام؟! إذا فهذا هو مربط الفرس عند القوم، الخضر عليه السلام وما حيك حوله من خرافات وأساطير. فبسبب هذه القصة أخذوا يحكون عن العلم اللدني والتلقي والاكتساب. وأما مستندهم في هذه المسألة فمستند واه، فالخلاف بين العلماء منذ قديم الزمان موجود، فهل هو ولي أم نبي؟[137] وعلى فرض أنه ولي –نلاحظ أن القرآن استعمل تعبير "عبدا من عبادنا" ولم يقل "وليا من أولياؤنا" على الرغم من ورود لفظ ولي وأولياء في القرآن–، فمن أخبرهم أن هذه الرياضات الروحية تؤدي بهم إلى مرتبة الولاية، وما أدراهم أنها لا تقودوهم إلى أوسع أبواب الغواية؟! بعبارة أخرى: ما مستندهم في أن علم العبد الصالح كان مكتسبا وليس موهبة من الله تعالى؟ وبعد أن

[137] هناك من يرى أن العبد "الخضر" كان من الملائكة ولم يكن من البشر ابتداءً، والإشارات على ذلك في القصة كثيرة، أهمها إغفال القرآن لعنصر رد الفعل ممن قابلهم موسى والعبد، فهم يركبون السفينة ويخرقونها ثم ينصرفون بدون أن يلومهم أحد من المساكين أصحاب السفينة، وهم يقتلون الغلام ولا يجدون حاجة للهرب أو التخفي، بل كما "انطلقا" بعد خرق السفينة انطلقا بعد قتل الغلام. ويرى هذا الرأي أن الغرض من لقاء موسى عليه السلام بالعبد هو تعليمه وإيانا الفارق بين علم الملائكة –اللدني– وبين علمنا البشر المحدود وكذلك تعليمنا وتعريفنا بأحوال الملائكة وأدوارهم في تصريف الأمور في هذا الكون، فالعبد –الملك– عندما علل لموسى عليه الصلاة والسلام خرق السفينة قال: "فأردت أن أعيبها"، فهي إرادة نابعة من نفسه ومن علمه –بواسطة أمر الله، تدبر قول الله "وما فعلته عن أمري"– برحمة الله بهؤلاء المساكين، فأراد أن ينجيهم فعاب السفينة، وأما الغلام فأردنا –أي الملائكة – أن يبدلهما ربهما خير منه زكوة وأقرب رحما، ومن المعلوم أن من أدوار الملائكة قبض أرواح العباد، لذلك لا اعتراض على فعل العبد، وأما الجدار فأراد ربك...، فهنا الحديث عن إرادة الرب العلي، وهذا يوضح أنه كان ملك يوحى إليه وليس بشرا، فهو يتحدث عن إرادته وإرادة جماعية ثم إرادة ربانية! فمن أين له ذلك إن لم يكن ملكا له علم من عند الله و يوحى إليه بطريقة غير الطرق الثلاثة التي يوحى بها إلى البشر.

جعلوا هذه القصة هي عمدتهم أخذوا في نسج القصص على أساسها، فقالوا إن الخضر لم يمت ولا يزال حيا، وألفوا قصصا في مقابلة مشايخهم للخضر عليه السلام إلخ هذه الترهات. ثم ادعوا بعد ذلك أن العبادة مطلوبة حتى الوصول إلى درجة اليقين وبعدها يرفع التكليف، وهذا التقسيم تقسيم غريب، ذو مستند واه، وهو دعوى تحقق الوصول إلى اليقين ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ۝﴾ [سورة الحجر, ٩٩]. فمفهوم الآية الواضح لكل ذي عينين أن الله يطلب إلى العبد أن يعبده حتى يصل إلى اليقين بالله، فتكون العبادة على يقين وليست مبنية على الظن والتخرص، أما أن يعبده حتى يصل إلى اليقين ثم يقلع فهذا فهم عجيب ليس له أصل في الكتاب ولا السنة، وهو إبطال لشرائع الإسلام ورفع لها بدعاوى متهافتة، وهي مسبة لرسول الله تعالى كذلك، فهي تعني أنه مات بدون أن يأتيه اليقين –تبعا لتفسيرهم– لأنه ما انقطع عن العبادة حتى مات! فهل وصلوا هم ووقف الرسول؟!!!

6– دعواهم إلى عبادة الله المبنية على الحب، وليس هربا من النار ولا طمعا في الجنة. وقد يظن القارئ أن هذا هو قمة العبودية، فهو يعبد الله عبادة صافية. فنقول: الله تعالى أعلم بنفوس عباده، فعندما وعدهم بالجنة وخوفهم بالناركان يعلم أن هذا هو أمثل حال لهم، أما من يعبد الله على محبة فقط ولا يرهب النار ولا يطمع الجنة، فستجد حتما أنه متهاون في الواجبات والأمور الشرعية، بل ومقترف للآثام والبدع،– وأحوال القوم وبدعهم خير شاهد على ما أقول–. لم؟ لأنه يشعر أنه يحب الله والله يحبه، وللمحب على المحبوب دلال، فهل من الممكن أن يعذب الحبيب حبيبه؟ لا يمكن، فيأتيه الشيطان من هذا المدخل، فيتهاون ويعصي، أما إذا اجتمع عنصرا الخوف والرجاء في نفس المسلم التزم بأوامره وامتنع عن نواهيه وعن البدع.

7– عبادة الله بواسطة السماع والغناء: يتفشى في الأوساط الصوفية ما يسمى بالسماع والتغني بالأشعار بالإضافة إلى دق الطبول ولامانع من وجود العود!. وبغض النظر عن الحكم الشرعي للمعازف، ولكن هل العبادة بهذه الصورة من تعاليم الإسلام؟ هل يبحث الإسلام عن أي طريقة يثير بها القلوب إلى قبول الحق، حتى ولو كانت باطلة أم أنه له

منهجه الخاص به في إثارة العقول وتنشيط القلوب، ونظرا لأن السادة الصوفية ليسوا من أرباب النظر في كتاب الله، تراهم قد يتأثرون بالموسيقى والسماع أكثر من القرآن، وفي أحدهم يقول الشعراني: "وكان إذا سمع القرآن لا تقطر له دمعة، واذا سمع شعرا قامت قيامته"... ويعلق الإمام بن تيمية رحمه الله في الفتاوى على مسلك السماع من الصوفية قائلا: "ولو كان هذا مما يؤمر به ويستحب وتصلح به القلوب للمعبود لكان ذلك مما دلت الأدلة الشرعية عليه" ويقول كذلك: "إنما عبادة المسلمين الركوع والسجود، أما العبادة بالرقص وسماع الأغاني فبدعة يهودية تسربت إلى المنتسبين إلى الإسلام".

8- ابتداعهم منهج خاص بالتربية ليس له مستند في الشرع، وإنما يقوم على إلغاء شخصية المريد وجعلها تبعا للشيخ في كل ما يقول، حتى أنه ينبغي أن يكون "كالميت بين يدي المغسل"، فبعد أن يدخل المريد في دائرة الصوفية ويُركز على إلغاء قانون السببية لديه وعلى إعلاء الخرافة والكرامات، ثم الترهيب من سطوة الولي وسلطته، ثم الترغيب في الوصول إلى المنازل التي وصلوا إليها. وعلى الرغم من أنهم يدعون أنهم يعبدون الله للعبادة نفسها وليس من أجل الوصول إلى مرتبة أو ما شابه، وإنما هذه المراتب هي ثمرات العبادة، إلا أن من يرى أحوالهم ويقرأ كتبهم يستطيع أن يحكم بنفسه على هذا القول، هل هو حقيقي أم؟!

العقائد الصوفيـة

عندما يود المرء الحديث عن عقائد الصوفية فإنه يجب على المرء ألا يقع في دائرة التعميم، فيقول إن الصوفية تقول كذا أو تؤمن بكذا ولكن عليه أن يحاول التحلي بالموضوعية قدر الإمكان، لذا فنحن نود الإشارة أن الحديث هنا عن عقائد الصوفية المتأخرين، بعدما أخذ التصوف مظهر العلم المؤطر المقعد والذي استفاد تمام الاستفادة من الفلسفات الغربية الغريبة، أما عقائد غالب المتقدمين منهم فيمكننا الجزم أنها لم تكن مخالفة لعقائد أهل السنة في شيء.

وقبل الحديث عن الصوفية لا بد من التذكير بأن مصدر العقيدة الوحيد في الإسلام هو القرآن الكريم، ثم ما جاء موافقا له تابعا له في السنة النبوية المكرمة، أما عندهم فللمعرفة الدينية وللعقائد مصادر عدة، منها: الإلهام وعروج الروح الى السماوات والوحي المزعوم إلى الأولياء! والاتصال بالجن الذين يسمونهم الروحانيين، وبالفناء في الله، وبالكشف، وبربط القلب بالرسول المصطفي حتى يستمد العلوم منه!!. بداهة يمكننا القول إن عقائد الصوفية هي نفس عقائد أهل السنة، حيث أنه يمكن القول إن الصوفية تمثل تيارا إخباريا متطرفا يكاد يقبل الأخبار كلها، يضاف إلى عقائد أهل السنة المذكورة بعضا من العقائد التي تسربت إلى الصوفية على مر الزمان:

1- القول بالحلول والاتحاد

وهي بدعة كفرية أخذوها عن الفلسفات الهندية، ومعناها أن الله حالٌّ في مخلوقاته فلا انفصال بين الخالق والمخلوق، وليس في الوجود إلا الله، فما الكون إلا الله العلي، إلا أنه لطف فسمي حقا، وكثف فسمي خلقا، وعليه فكل ما نراه في هذا الكون تبعا لقولهم هو المولى عزوجل –تعالى عن قولهم–، حتى قال بعضهم: وما الكلب والخنزير إلا إلهنا وما الله إلا راهب في كنيسة

ومن خلال اعتقاد الصوفي الباطني أو الظاهر بعقيدة الاتحاد يسعى الصوفي إلى التدرج في مراتب العبادة حتى تفنى ذاته في ذات الله تعالى، وبذلك تفتح له مفاتح الغيب وييسر له التصرف في الكون! وحتى لا يظن القارئ أننا نبالغ سنذكر له الكثير من أورادهم من طرق مختلفة معاصرة ولا تزال مستعملة حتى لآن، والتي تحتوي عقيدة وحدة الوجود بشكل واضح حتى لا يبقى للقارئ مثقال ذرة من الشك وحتى لا يدعي بعضهم أن هذه الأذكار عند الآخرين وليست معتبرة أو مذكورة لديهم: "من أوراد الطريقة القادرية: "...الاسم الثالث (هو)، عدد تلاوته أربعة وأربعون ألفاً وستمائة مرة، وتوجهه: يا من هو الله لا إله إلا أنت هو هو هو، إلهي حقق باطني بسر هويتك، وأفن مني أنانيتي

إلى أن تصل إلى هوية ذاتك العلية، يا من ليس كمثله شيء، أفنِ عني كل شيء غيرك، وخفف عني ثقل كثائف الموجودات، وامحُ عني نقطة الغيرية لأشاهدك ولا أدري غيرك، يا هو يا هو يا هو، لا سواك موجود، لا سواك مقصود، يا وجود الوجود."، ومنها:..إلهنا فطهر قلوبنا من الدنس لنكون محلاً لمنازلات وجودك، وخلصنا من لوث الأغيار لخالص توحيدك، حتى لا نشهد لغير أفعالك وصفاتك وتجلي عظيم ذاتك. ومنها:..رباه رباه غوثاه، يا خفياً لا يظهر، يا ظاهراً لا يخفى، لطُفَتْ أسرار وجودك الأعلى فتُرى في كل موجود، وعلت أنوار ظهورك الأقدس فبدت في كل مشهود."

ومنها: "رب أشهدني مطلق فاعليتك في كل مفعول حتى لا أرى فاعلاً غيرك، لأكون مطمئناً تحت جريان أقدارك، منقاداً لكل حكم ووجود عيني وغيبي وبرزخي،.. وألحق فعلي وفعل الفاعلين في أحدية فعلك..."

"إلهي عم قِدَمُك حَدَثي ولا أنا، وأشرق سلطان نور وجهك فأضاء هيكل بشريتي فلا سواك، فما دام مني فبدوامك، وما فني مني فبرؤيتي إليك، وأنت الدائم لا إله إلا أنت، أسألك بالألف إذا تقدَّمَتْ، وبالهاء إذا تأخرت، وبالهاء مني إذا انقلبت لاماً، أن تفنيني بك عني، حتى تلتحق الصفة بالصفة، وتقع الرابطة بالذات."

ومنها: "اللهم صل وسلم على من له الأخلاق الراضية...الأنيس بك والمستوحش من غيرك، حتى تمتع من نور ذاتك، ورجع بك لا بغيرك، وشهد وحدتك في كثرتك"

ومنها: "... وطهِّرنا من قاذورات البشرية، وصفّنا بصفاء المحبة الصديقية من صدأ الغفلة ووهم الجهل، حتى تضمحل رسومنا بفناء الأنانية ومعاينة الطمسة الإنسانية في حضرة الجمع، والتحلية، والتحلي بألوهية الأحدية، والتجلي بالحقائق الصمدانية في شهود الوحدانية، حيث لا حيث ولا أين ولا كيف، ويبقى الكل لله وبالله ومن الله وإلى الله ومع الله غرقاً بنعمة الله في بحر منة الله.

ومن أوراد الطريقة الرفاعية من صلاة الأنس: "...اللهم صل على ألف إنس إنسان الأزل، بحكمة باء برهان من لم يزل، أصل الأشياء الكلية، آدم في حقيقة البداية، أثر

السر في آثار خفايا المظاهر الخفية، أول الكل في أول الأولوية...المتجلّي في سماء المعرفة بظهور مظهر شهادة الرحمن، محمدي الذات، المدلي إلى قاب الوحدة بتجلي موكبَي العناية والإحسان...أصل السبب في الإيجاد، فالكل منه والكل إليه، خزانة الأسرار، فالوارد والذاهب عنه وإليه"

ومنها: "اللهم بك توسلت.. أن تصلي عليه صلاة أبدية ديمومية قيومية إلهية ربانية، تصفينا بها من شوائب الطبيعة الآدمية بالسحق والمحق، وتطمس بها آثار وجودنا الغيرية عنا في غيب غيب الهوية، فيبقى الكل للحق في الحق بالحق"

ومن الأدعية التيجانية: "اللهم حققني بك تحقيقاً يسقط النسب والرتب والتعيينات والتعلقات والاعتبارات والتوهمات والتخيلات، حيث لا أين ولا كيف ولا رسم ولا علم ولا وصف ولا مساكنة ولا ملاحظ، مستغرقاً فيك بمحو الغير والغيرة بتحقيقي بك من حيث أنت كما أنت وكيف أنت، حيث لا حس ولا اعتبار إلا أنت بك لك عنك منك، لأكون لك خالصاً وبك قائماً وإليك آيباً وفيك ذاهباً بإسقاط الضمائر والإضافات".

فما ذكرناه لك عزيزي القارئ هو غيض من فيض، حتى لا نطيل عليك في ذكر أمثال هذه الشطحات، وحتى لا يظن القارئ أن هذه مجرد أوراد فقط، ننقل للقارئ من أقوال شيوخهم الكبار المعظمين المقدسين ما يدل على ذلك: يقول أبو يزيد البسطامي: "غبتُ في الجبروت، وخضت بحار الملكوت، وحُجُبَ اللاهوت، حتى وصلتُ إلى العرش، فإذا هو خالٍ، فألقيت نفسي عليه، وقلت: سيدي أين أطلبك؟ فكشف، فرأيت أني أنا، فأنا أنا، أوّلي فيما أطلب، وأنا لا غيري فيما أسير". وقال عندما تجلى له هذا النور: "سبحاني ما أعظم شأني"!

ويقول الحلاج: وأي الأرض تخلو منك حتى تعالوْا يطلبونك في السماء، تراهم ينظرون إليك جهراً وهم لا يبصرون من العماء. ويريد بقوله: "ينظرون إليك جهراً"، أي: أن كل ما يرونه هو أنت. ويقول: سبحان من أظهر ناسوته سرّ سنا لاهوته الثاقب ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب حتى لقد عاينه خلقُه كلحظة الحاجب

بالحاجب ويقول: رأيتُ ربي بعين قلب فقلتُ من أنت قال إنت فليس للأين منك أينٌ وليس أينٌ بحيث أنت في محو اسمي ورسم جسمي سألتُ عني فقلتُ: أنت. ويقول: عقد الخلائقُ في الإِله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه ويقول: فالحقيقة، والحقيقةّ خليقة، دع الخليقة لتكون أنت هو، أو هو أنت من حيث الحقيقة. ويقول: وما كان في أهل السماء موحد مثل إبليس، حيث إبليس تغيّر عليه العين، وهجر الألحاظ في السير، وعبد المعبود على التجريد

وكتب كتاباً هذه نسخته: بسم الله الرحمن الرحيم، المتجلي عن كل شيء لمن يشاء. السلام عليك يا ولدي، ستر الله عنك ظاهر الشريعة، وكشف لك حقيقة الكفر، فإن ظاهر الشريعة كفر خفي، وحقيقة الكفر معرفة جليلة. أما بعد، حمداً لله الذي يتجلى على رأس إبرة لمن يشاء، ويستتر في السماوات والأرضين عمن يشاء، حتى يشهد هذا بأن لا هو، ويشهد ذلك بأن لا غيره، فلا الشاهد على نفيه مردود، ولا الشاهد بإثباته محمود، والمقصود من هذا الكتاب أني أوصيك أن لا تغتر بالله ولا تيئس منه. وإياك والتوحيد، والسلام.

وقال:...يا إِله الآلهة، ويا رب الأرباب، ويا من لا تأخذه سنة ولا نوم، رُدّ إلي نفسي لئلا يفتتن بي عبادك، يا من هو أنا وأنا هو، لا فرق بين أنّيتي وهويتك إلا الحدث والقدم
يقول جلال الدين الرومي، مؤسس الطريقة المولوية:

نَفْسي، أيها النور المشرق، لا تَنْءِ عني لا تَنْءَ عني

حبي، أيها المشهد المتألِّق، لاتَنْءَ عني لاتَنْءَ عني

انظرْ إلى العمامة أحكمتُها فوق رأسي

بل انظر إلى زنار زرادشت حول خصري

أحملُ الزنار، وأحمل المخلاة

لا بل أحمل النور، فلا تَنْءَ عني، لا تَنْءَ عني

مسلمٌ أنا، ولكني نصراني وبرهمي وزرادشتي

توكلتُ عليك أيها الحق الأعلى، فلا تَنْءَ عني لا تَنءَ عني

ليس لي سوى معبدٍ واحد، مسجداً كان أو كنيسة أو بيت أصنام

ووجهك الكريم فيه غاية نعمتي، فلا تَنْءَ عني لاتَنْء عني

ويقول الششتري أيضاً:

محبوبي قد عم الوجود وقد ظهر في بيض وسود

وفي النصارى مع اليهود وفي الخنازير مع القرود

وفي الحروف مع النقط أفهمني قط أفهمني قط

عرفته طول الزمان ظهر لي في كل أوان.

2- الغلو في تقديس البشر

وعلى رأسهم سيد الخلق المصطفى، حيث تعتقد غالية الصوفية أن النبي هو قبة الكون، وأن الخلق ما خلق إلا لأجله ومن نوره، ويقل منسوب الغلو عند بعضهم فيرى أن النبي صلى الله عليه وسلم بشراً رسولا، إلا أنهم يستغيثون به طالبين المدد والعون ولا يستغاث إلا بالله جل جلاله كاشف الضر ورافعه، ومن شدة مغالة الصوفية في النبي

أنهم ابتدعوا ما يسمى بالحقيقة المحمَدية[138]، ويمكننا أن نصف الحقيقة المحمدية قائلين أنها "شعبة من شعب الغلو الذي وقعت فيه الصوفية بل من شعب الكفر، وهو مزيج من الغلو في رسول الله صلى الله عليه وسلم والتأثر بالفلسفة اليونانية في تقريرها لأول مخلوق، والتأثر بالنصرانية التي أضفت صفات الربوبية على المسيح عليه السلام.

والمشكلة أن هذه التي يسمونها الحقيقة المحمدية هي غموض كامل وعماء في عماء، ولأنها نشأت في الأصل من خيال مريض وأوهام ليس لها أي رصيد في الواقع، ولذلك نلاحظ أن أقوالهم في تعريفها أو الكلام عنها غامضة أيضاً، فالرسول صلى الله عليه وسلم أول موجود وأول مخلوق وهو القطب الذي تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره، وهو الذي منه انشقت الأسرار ولا شيء إلا وهو به منوط، وهو عين الإيمان والسبب في وجود كل إنسان. وكأن الصوفية لم يستسيغوا أن يقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كما وصفه القرآن الكريم بشراً رسولاً وقد جعلوا أقطابهم تتصف بما وصف الله سبحانه وتعالى نفسه، فكيف برسول الله صلى الله عليه وسلم فابتدعوا ما أسموه الحقيقة المحمدية وعلى أساس هذه النظرية ندرك مغزى ما يقول البوصيري: وكل آي أتى الرسل الكرامُ بها فإنما اتصلت من نوره بهم وقوله: وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من العدم. وقول ابن نباته المصري: لولاه ما كان أرض ولا أفق ولا زمان ولا خلق ولا جبل وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشى على أمته من الغلو فقال صلى الله عليه وسلم محذراً: "لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، إنما أنا عبد الله ورسوله". ولكن الذي فعله هؤلاء هو أكبر من الغلو، إنه الشرك والضلال، و إلا كيف تفسر قول الشيخ الدباغ "إن مجمع نوره لو وضع على العرش لذاب" وقول أبي العباس المرسي: "جميع الأنبياء خلقوا من الرحمة ونبينا هو عين الرحمة" قال تعالى: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين". فانظر إلى هذا الاستنتاج

---

[138] كنت أتضايق كثيرا عندما أجد أن المستشرقين يطلقون على المسلمين لقب المحمديين، وكنت أقول أنهم ابتدعوا هذه التسمية من أجل أن يعموا على الأوروبيين فيقنعونهم بأننا نعبد محمدا كما يعبدون هم عيسى، ثم اكتشفت لاحقا أن السادة الصوفية هم الذين ابتدعوا هذا الاسم عندما أطلقوا على المسلمين لقب المحمديين ومنهم أخذ المستشرقون التسمية!!

العجيب. إنها المضاهات بعينها، فإذا كان المسيح ابن الله عند النصارى فلماذا لا يخترع الصوفية الحقيقة المحمدية، وهذا ناتج نظريتهم في وحدة الوجود"اهـ[139].

يقول ابن عربي شيخ الصوفية كما جاء في كتاب الفتوحات: "بدأ الخلق الهباء، وأول موجود فيه الحقيقة المحمدية الرحمانية الموصوفة بالاستواء على العرش الرحماني وهو العرش الإلهي، ولا أين يحصرها لعدم التميز وممن وجد؟.. وجد من الحقيقة المعلومة التي لا تتصف بالوجود ولا بالعدم، وفيما وجد؟ في الباء، وعلى أي مثال وجد؟ على المثال القائم بنفس الحق المعبر عنه بالعلم به، ولما وجد؟ لإظهار الحقائق الإلهية".

كذلك يعتبر الإمام الجيلي فإنه يعتبر الحقيقة المحمدية أصلاً للكون ولكل شيء فيقول: "إن العقل الأول المنسوب إلى محمد(ص) خلق الله جبريل عليه السلام منه في الأزل، فكان محمد(ص) أبا لجبريل وأصلاً لجميع العالم"!

ومن وجوه المغالاة والتناقض عند الصوفية كذلك الغلو في صالحيهم والأولياء، حتى روي عن بعضهم قوله: "خضنا بحرا وقف الأنبياء بساحله"، ويلقبون قادتهم ومعلميهم بالأقطاب والأوتاد، ويجعلون لهم تصريف الكون أرضه وسماءه، في منطق يجمع بين الجهل والسخف وقلة العقل والدين. ولا بد من التوقف عند موقف الصوفية من أولياؤهم، حتى نرى هذا الموقف العجيب من تقديسهم للولي، فبينما ابتدع بعضهم الحقيقة المحمدية، نجد أن آخرين جعلوا الأنبياء أولهم وآخرهم وخاتمهم لا يقاربونهم ولا يصلون إلى درجتهم! فمن هو الولي؟ وهل حقا له هذه الدرجة من القداسة في الشرع؟

من ينظر في كتاب الله يجد أن أولياء الله لا يتمتعون بأي مزايا خاصة، بل هم أناس مؤمنون متقون فقط، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾ [سورة يونس, ٦٢-٦٣] أما عند السادة

[139] محمد العبدة، طارق عبدالحليم، دراسات في الفرق، الصوفية نشأتها وتطورها.

الصوفية فالولي هو: "من يتولى الله تعالى أمره فلا يكله إلى نفسه لحظة، ومن يتولى عبادة الله وطاعته، فعبارته تجري على التوالي من غير أن يتخللها عصيان" ولذلك فإن الولي عند الصوفية يسلب جميع الصفات البشرية ويتحلى بالأخلاق الإلهية ظاهرا وباطنا! وبسبب هذه العقيدة الفاسدة ظهر القول بعصمة الولي ومساواته للنبي المصطفى، بل وتجاوزه أحيانا، ونذكر نماذج على هذا الغلو في مكانة ومنزلة الأولياء عند الصوفية: "يقول الصوفي الكبير عبد القادر الحلبي المعروف بابن قضيب البان: "كل ما خصّت به الأنبياء، خصّت به الأولياء". وما هي اختصاصات الأنبياء غير الوحي، ونزول الملائكة، وكلام الربّ معهم، وإخبارهم عن الغيب، وكونهم معصومين عن الخطأ والزلل في تبليغ رسالات الله، التي يريد ابن البان إشراك غيرهم معهم من الصوفية؟

وهل لسائل أن يسأل: أو بعد مشاركة الغير يبقى الاختصاص اختصاصا؟ ذكر الشعراني: فإن قلت: قد ذكر الغزالي في بعض كتبه: إن الفرق بين تنزّل الوحي على قلب الأنبياء وتنزله على قلوب الأولياء نزول الملك، فإن الوليّ يلهم ولا ينزل عليه ملك قط، والنبي لا بد له في الوحي من نزول الملك به، فهل هذا صحيح؟

فالجواب كما قاله الشيخ في الباب الرابع والستين وثلاثمائة: أن ذلك غلط... قال الشيخ: وسبب غلط الغزالي وغيره في منع تنزل الملك على الوليّ عدم الذوق، وظنهم أنهم قد علموا بسلوكهم جميع المقامات، فلما ظنوا ذلك بأنفسهم ولم يروا ملك الإلهام نزل عليهم أنكروه، وقالوا: ذلك خاص بالأنبياء، فذوقهم صحيح وحكمهم باطل، مع أن هؤلاء الذين منعوا قائلون بأن زيادة الثقة مقبولة، وأهل الله كلهم ثقات.

وبمثل ذلك قال الدباغ، وبعبارة أكثر وضوحا من هذه العبارات: "وأما ما ذكروه في الفرق بين النبي والوليّ من نزول الملك وعدمه فليس بصحيح، لأن المفتوح عليه سواء كان وليا أو نبيا لا بد له أن يشاهد الملائكة بذواتهم على ما هم عليه، ويخاطبهم ويخاطبونه، وكل من قال: إن الوليّ لا يشاهد الملك ولا يكلمه فذاك دليل على أنه غير مفتوح عليه".

ونقل النفزي الرندي عن بعض المشائخ أنه قال: "إن الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم عليّ فأسمع تسليمها". وليس عامة الملائكة فحسب، بل جبريل أيضا كما ينص على ذلك الشعراني ناقلا عن الشيخ عبد الغفار القوصي أنه قال في كتابه المسمّى بالوحيد: "أنّ الشيخ تاج الدين بن شعبان كان إذا سأله إنسان في حاجة يقول له: اصبر حتى يجيء جبريل". ويذكر الصوفي القديم المشهور عزيز الدين النسفي عن عروج المتصوفة إلى السماء: "إن بعض الصوفية يعرجون إلى السماء الأولى ويطوفون حولها، وبعضهم يتجاوزون من السماء الأولى... وبعضهم يصلون إلى العرش إذا أمكن لهم".

هذا بالنسبة للعروج، وأما من ناحية مكالمة الربّ لهؤلاء المتصوفة فللأهمية ننقل عبارة الجيلي كاملة، فيقول تحت عنوان "تجليّ الصفات": "ومن المكلمين من يذهب به الحق من عالم الأجسام إلى عالم الأرواح وهؤلاء أعلى مراتب. فمنهم من يخاطب في قلبه، ومنهم من يصعد بروحه إلى سماء الدنيا، ومنهم إلى الثانية والثالثة كل على حسب ما قسم له، ومنهم من يصعد به إلى سدرة المنتهى فيكلمه الله هناك، وكل من المكلمين على قدر دخوله في الحقائق تكون مخاطبات الحق له ولأنه سبحانه وتعالى لا يضع الأشياء إلا في مواضعها. ومنهم من يضرب له عند عند تكليمه إياه نور له سرادق من الأنوار. ومنهم من ينصب له منبرا من نور. ومنهم من يرى نورا في باطنه فيسمع الخطاب من تلك الجهة النورية، وقد يرى النور كثيرا وأكثر مستديرا ومتطاولا. ومنهم من يرى صورة روحانية تناجيه، كلّ ذلك لا يسمى خطابا، إلا إنْ أعلمه الله أنه هو المتكلم، وهذا لا يحتاج فيه إلى دليل، بل هو على سبيل الوهلة فإن خاصية كلام الله لا تخفى، وأن يعلم أن كل ما سمعه كلام الله فلا يحتاج هناك إلى دليل ولا بيان، بل بمجرد سماع الخطيب يعلم العبد أنه كلام الله،... "إلخ هذه الترهات. وأما تسوية الصوفية بين الولاية والنبوة، بل وتفضيلهم الولاية على النبوة والرسالة، والأولياء على أنبياء الله ورسله، مثل الشيعة، فتدل عليه عبارات القوم وتصريحاتهم، فيقول لسان الدين ابن الخطيب: الولاية: أن يتولى الله الواصل على حضر قدسه، بكثير مما تولى به النبي، من حفظ وتوفيق، وتمكين واستخلاف وتصريف.

فالولي يساوي النبي في أمور، منها: العلم من غير طريق العلم الكسبي، والفعل بمجرد الهمة، فيما لم تجر به العادة أن يفعل إلا بالجوارح والجسوم، مما لا قدرة عليه لعالم الجسوم... وقال ابن عربي بصراحة لا تحتمل التأويل: "وما يراه أحد من الأنبياء والرسل إلا من مشكاة الرسول الخاتم[140]، ولا يراه أحد من الأولياء إلا من مشكاة الوليّ الخاتم، حتى أن الرسل لا يرونه –متى رأوه– إلا من مشكاة خاتم الأولياء: فإن الرسالة والنبوة – أعني نبوة التشريع ورسالته– تنقطعان، والولاية لا تنقطع أبداً. فالمرسلون، من كونهم أولياء، لا يرون ما ذكرناه إلا من مشكاة خاتم الأولياء، فكيف من دونهم من الأولياء؟ وإن كان خاتم الأولياء تابعا في الحكم لما جاء به خاتم الرسل من التشريع، فذلك لا يقدح في مقامه ولا يناقض ما ذهبنا إليه، فإنه من وجه يكون أنزل كما أنه من وجه يكون أعلى (!!)... لما مثل النبي صلى الله عليه وسلم النبوة بالحائط من اللبّن وقد كَمُلَ سوى موضع لبِنَة، فكان صلى الله عليه وسلم تلك اللبنة. غير أنه صلى الله عليه وسلم لا يراها كما قال لبِنَة واحدة. وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤيا، فيرى ما مثله به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويرى في الحائط موضع لبِنَتين، واللبن من ذهب وفضة. فيرى اللبنتين اللتين تنقص الحائط عنهما وتكمل بهما، لبنة ذهب ولبنة فضة، فلا بد أن يرى نفسه تنطبع في موضع تينك اللبنتين، فيكون خاتم الأولياء تينك اللبنتين. فيكمل الحائط. والسبب الموجب لكونه رآها لبنتين أنه تابع لشرع خاتم الرسل في الظاهر وهو موضع اللبنة الفضة، وهو ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام، كما هو آخذ عن الله في السر ما هو موضع اللبنة الذهبية في الباطن، فإنه أخذ من المعدن الذي يأخذ من الملك الذي يوحى به إلى الرسول.. فإن فهمت ما أشرت به فقد حصل لك العلم النافع بكل شيء. فكل نبي من لدن آدم إلى آخر نبي ما منهم أحد يأخذ إلا من مشكاة خاتم النبيين، وإن تأخر وجود طينته، فإنه بحقيقته موجود، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "كنت نبياً وآدم بين الماء والطين". وغيره من الأنبياء ما كان نبيا إلا حين

[140] يستعمل ابن عربي وغيره من الصوفية كلمة "الخاتم" استعمالا غير صحيح لغويا، وهذا ليس بالجديد في المصطلحات الصوفية، ولكن سيأتي ميرزا غلام أحمد فيتلقف هذا الاستعمال ويستدل به، وستلعب مسألة "الخاتم" هذه دورا كبيرا في نشأة فرقة الأحمدية، وهذا ما سنناقشه عند الوصول إلى مبادئ الفرقة الأحمدية.

بُعثَ، وكذلك خاتم الأولياء كان وليا وآدم بين الماء والطين، وغيره من الأولياء ما كان ولياً إلا بعد تحصيله شرائط الولاية من الأخلاق الإلهية في الاتصاف بها من كون الله تعالى تسمى "بالولي الحميد"... وأما الحكيم الترمذي الذي منه أخذ ابن عربي تلك الفكرة في أخذ النبي العلم والمعرفة من الملك، وأخذ الوليّ بدون واسطة، فيقول في جواب سؤال: ما الفرق بين النبوة والولاية؟: "الفرق بين النبوة والولاية أن النبوة كلام ينفصل من الله وحيا، ومعه روح من الله فيقضي الوحي ويختم بالروح... والولاية لمن ولى الله حديثه على طريق أخرى، فأوصله إليه فله الحديث، وينفصل ذلك الحديث من الله عز وجل، على لسان الحق معه السكينة، تتلقاه السكينة في قلب المحدّث، فيقبله ويسكن إليه".

ثم يذكر خاتم الأولياء فيقول: "لما قبض الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم صيّر في أمته أربعين صديقا بهم تقوم الأرض، وهم آل بيته، فكلما مات واحد منهم خلفه من يقوم مقامه، حتى إذا انقرض عددهم وأتى وقت زوال الدنيا إبتعث الله وليا اصطفاه واجتباه، وقرّبه وأدناه، وأعطاه ما أعطى الأولياء، وخصّه بخاتم الولاية، فيكون حجة الله يوم القيامة على سائر الأولياء فيوجد عنده بذلك الختم صدق الولاية على سبيل ما وجد عند محمد صلى الله عليه وسلم من صدق النبوة فلم ينله العدو، ولا وجدت النفس إليه سبيلا إلى الأخذ بحظها من الولاية. فإذا برز الأولياء يوم القيامة واقتضوا صدق الولاية والعبودية وجد الوفاء عند هذا الذي ختم الولاية تماما، فكان حجة الله عليهم وعلى سائر الموحدين من بعدهم، وكان شفيعهم يوم القيامة، فهو سيدهم، ساد الأولياء، كما ساد الأنبياء، فينصب له مقام الشفاعة، ويثني على الله تعالى ثناء ويحمده بمحامد يقرّ الأولياء بفضله عليهم في العلم بالله تعالى. فلم يزل هذا الولي مذكورا في البدء، أولا في الذكر، وأولا في العلم، ثم هو الأول في المشيئة، ثم هو الأول في اللوح المحفوظ، ثم الأول في الميثاق، ثم الأول في المحشر، ثم الأول في الجوار، ثم الأول في الخطاب،

ثم الأول في الوفادة، ثم الأول في الشفاعة، ثم الأول في دخول الدار ثم الأول في الزيارة، فهو في كل مكان أول الأولياء" اهـ[141]

وأعتقد أن ما ذكرناه من نماذج قليلة أكثر من كاف للتدليل على شطحاتهم وغلوهم في تقديس البشر وهو ما يناف التوجه الإسلامي في إضفاء التنزيه والقداسة على الله عزوجل فقط، أما باقي البشر فمهما عظم قدرهم فهم بشر. هذا بغض الطرف عما في كتابات الصوفية من دعاو كاذبة أن الصوفية يتحكمون في الكون ويسيرونه كما يفعل بعد الأقطاب عندهم.

ولقد كنت أظن أن هذه الآراء قد درست وانمحت وأن الصوفية الجدد سيتبرأون من هذه الأقوال ويقولون إنها كانت من شطحات السابقين، ولكن عند زيارتي لمواقعهم على الشبكة المعلوماتية وجدنا أنهم لا يزالون يقولون نفس الأقوال ويبررونها بتبريرات عجيبة، فعلى سبيل المثال برر أحد القائمين على أحد مواقع الصوفية تحكم الأولياء في المظاهر الكونية بأن الله سيعطي الدجال! القدرة على إنزال المطر وإحياء الموتى، ومن ثم فما العجب في أن يعطي الله الأولياء هذه القدرة، وهم من هم في التقوى والالتزام بأمر الله تعالى. فانظر أخي كيف يستعان بالباطل في تمرير الباطل، فما الدجال إلا خرافة كبيرة مجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار وسنثبت للقارئ بطلانها عند الوصول إليها، ولكن كل الباطل مؤيد لبعضه ومساند، وعند السقوط كله بإذن الله هاو، فيستدل بخرافة على إثبات خرافة أخرى. وليس الغلو في البشر مقتصرا على الأنبياء والأولياء ولكن يظهر ذلك الغلو في تقديس الأموات في الفكر الصوفي، حتى وصل الأمر إلى الاعتقاد برجعة الأولياء إلى الحياة –كما عند الشيعة–، هذا ويظهر تقديس الأموات بصورة جلية من خلال تقديس المشاهد والبناء على القبور وتجصيصها واتخاذها مساجد، وقد تساهل المسلمون في ذلك كثيرا حتى أنها عمت كثيرا من بلاد المسلمين وصار تقديس المشاهد والبناء على القبور شائعا وكأنه معلم من معالم الدين الاسلامي،

[141] إحسان إلهي ظهير، التصوف: المنشأ والمصادر.

هذا وقد شرعت لها مناسك كمناسك الحج، فنرى الصوفية يذهبون فيطوفون بالمقابر ويقدمون لها النذور ويتمسحون بها ويقدمون فروض الطاعة والولاء ولاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

3- إبطال قانون السببية

قد يعجب القارئ من ذكر هذا العنصر من ضمن عناصر عقائد الصوفية، ولكن هذا هو الواقع، فالناظر في أحوال القوم يجد أن انتشار الخرافة في الفكر الصوفي وإيمانهم بتلك الخرافات من أكبر الدلائل على انتفاء قانون السببية عندهم، فالأشياء لا تتعلق بمسبباتها ولكن كل شيء بإرادة الله وأمره -وهي كلمة حق أريد يها باطل-، حتى أن واحدا من كبار منظري الصوفية وهو الإمام أبوحامد الغزالي مال إلى نفي السببية!، وعامية الصوفية لا يعرفون رأي الغزالي أو تأصيله للخرافة، ولكنهم يأخذون الخرافة لأنهم نشأوا ورُبوا على إلغاء العقول. ولكن ما الغرض من إبطال قانون السببية؟ الغرض هو المبالغة في تقديس الشيوخ وطاعتهم وتنفيذ أوامرهم من خلال نشر الخرافة وإلغاء التفكير العلمي القائم على النظر وربط الأمور بعلاتها، وبذلك إذا حكوا ما يحلوا لهم من الخرافات في كرامات الأولياء فلا مانع عقلي عند السامعين من المريدين المعدين لذلك! ونذكر للقارئ بعض النماذج من الخرافات الموجودة عند القوم، والتي لا يجدوا أي حرج في قبولها، فكلٌ جائز بأمر الله تعالى!!: جاء في كتاب الجوهر الشفاف في مناقب وكرمات السادة الأشراف لأبي محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن علي الأنصاري:"روى المشايخ رضي الله عنهم أن شيخ شيوخنا الشيخ الفقيه محمد بن علي رضي الله عنه قال: تخلفت سنة من السنين عن زيارة قبر النبي هود على نبينا وعليه السلام، فبينما أنا جالس في مكان متعال سننه إذ دخل علي النبي هود عليه السلام وهو مطأطئ رأسه كيلا يصيبه السقف، فلما وصل إلي قال لي: يا شيخ إن لم تزرنا زرناك، فقلت له: من أين أتيت هذه الساعة قال من عند ابني هادون!!". وجاء فيه أيضا: "ومن

جملة ما كتب شيخ شيوخنا الشيخ محمد بن علي بن أبي علوي أنه عرج بي إلى سدرة المنتهى سبع مرات في ليلة واحدة، وفي رواية سبع وعشرين، وفي رواية سبعين مرة".

جاء في كتاب الفيوضات الربانية لعبدالقادر الجيلاني: "فائدة في الاستغاثة بواسطة حضرة الغوث قدس سره: وهي إذا كان لك مهم أيها الطالب الصادق الراغب وكان ذلك المهم دنيويا أو أخرويا فانهض في ليلة الثلاثاء قبل الفجر وأسبغ الوضوء وصل لله تعالى ركعتين بنية صلاة الحاجة وتقرأ في الأولى بعد الفاتحة الكافرون إحدى عشرة مرة وفي الثانية بعد الفاتحة الإخلاص إحدى عشرة مرة وبعد السلام تقرأ الإخلاص أيضا إحدى عشرة مرة وتذكر حضرة الغوث قدس سره إحدى عشرة مرة بهذه الصفة يا سيدي عبد القادر محيى الدين وتخطو إلى جهة الشرق إحدى عشرة خطوة وتقول في كل خطوة يا شيخ عبد القادر يا جيلاني ثم تكرر البيتين ثلاث مرات وهما: أيُدرِكني ضيمٌ وأنت ذخيرتي وأُظلمُ في الدنا وأنت نصيري وعارٌ على راعي الحِمى وهو في الحمى إذا ضاع في البيدا عقال بعيري.

ومما جاء في هذا الكتاب أن للشيخ عبد القادر الجيلاني أكثر من تسعين اسماً!!".

جاء في كتاب الطراز المعلم والسر الملهم المسمى "السلسلة القدوسية المتصلة بالخرقة العيدروسية المتعلقة بكبار أئمة الصوفية المتصلة إلى سيد البرية": "اجتمعت بالشيخ عبد الله العيدروس، وقلت له: وددت الاجتماع بك جهاراً في عدن فلم تأت. فقال: قد كان. فقلت: متى.؟ قال: أما تذكر يوم أتاك السائل إلى المكان الفلاني في اليوم الفلاني وقت الضحى، وسألك أن تعطيه كذا وكذا، فانتهرته وذهبت عنه فتبعك فانتهرته ثانياً، وغدوت إلى أصحابك وشكوته إليهم وهو يضحك. فقلت: نعم. فقال رضي الله عنه: أنا ذلك الفقير أتيتك في صورة السائل. فقلت: لم لا آتيتني ظاهراً في صورتك هذه.؟ فقال: لو فعلت مسكتني وأعلمت الناس بي. قلت: ولا تستبعد ذلك منه رضي الله عنه، إذ هو القائل لو أردت أن أنظر إلى مشارق الأرض ومغاربها من حلقة خاتمي هذا لفعلت، ولو أردت أن أدخل في حلقة خاتمي هذا وأدخل في وسط كل

حضرة لفعلت، والقائل أيضاً: ما يخفي عليّ باطن أحد من الخلق وديارهم وغيرها، وما يجتمع اثنان إلا وأنا ثالثهما!!!".

جاء في كتاب طبقات الشعراني وهو من أهم مراجع الخرافة في كتب الصوفية: "الشيخ حسين أبو علي رضي الله عنه، كان هذا الشيخ رضي الله عنه من كمل العارفين وأصحاب الدوائر الكبرى، وكان كثير التطورات تدخل عليه بعض الأوقات تجده جنديا، ثم تدخل فتجده سبعاً، ثم تدخل فتجده فيلاً، ثم تدخل فتجده صبياً وهكذا، ومكث أربعين سنة في خلوة مسدودة بابها ليس لها غير طاقة يدخل منها الهواء وكان يقبض من الأرض ويناول الناس الذهب والفضة، وكان من لا يعرف أحوال الفقراء يقول هذا كيماوي سيماوي".

وقال أيضاً: "فدخلوا على الشيخ فقطعوه بالسيوف وأخذوه في كيس ورموه على الكوم وأخذوا على قتله ألف دينار ثم أصبحوا فوجدوا الشيخ حسيناً رضي الله عنه جالساً فقال لهم: غركم القمر. وكانت النُّمُوس تتبعه حيث مشى في شوارع وغيرها فسموا أصحابه بالنموسية وكان رضي الله عنه بريئاً من جميع ما فعله أصحابه من الشطح الذي ضربت به رقابهم في الشريعة".

جاء في كتاب طبقات الشاذلية في ترجمة "الأستاذ تاج الدين النخال": "وكان الشيخ رضي الله عنه إذا دخل الخلوة وذكر الله سبحانه وتعالى، يتجلى عليه الحق، فيذوب كما يذوب الملح في الماء، ويفنى حتى لم يبق منه إلا النطفة، فلما دخل عليه ولده وهو جالس في المحراب حطّ يده على رأس أبيه، فسقطت العمامة على الثياب، فنزلت في أعين الأستاذ –أي العمامة على أعين الأستاذ من النطفة!– فعورتهما، فلما أفاق الأستاذ من غيبته، قام كفيفاً، لم يجد عينيه فخرج على أهله، وقال لهم: من دخل عليّ في خلوتي قصمَه الله تعالى، فسكتوا، قال: فإذا بالولد صرخَ صرخة ووقع ميتاً، فقالوا له بعد ذلك: هذا ولدك الذي دخل عليك. فقال: نفذ أمر الله، وغسله وكفنه رحمه الله، وعاش الأستاذ بعد ذلك كفيفاً".

جاء في كتاب جامع كرامات الأولياء ليوسف بن إسماعيل النبهاني: "قال سيدنا أبو السعود بن الشبل البغدادي رضي الله عنه عاقل زمانه، وقد سأله بعض من لا يكتمه من حاله شيئاً: هل أعطاك الله التصرف –التصرف بالكون– وهو أصل الكرامات.؟ فقال: نعم منذ خمسة عشر سنة، وتركناه تظرفاً، فالحق يتصرف لنا". وقال: "وفي حين تقييدي هذا الوجه من هذه النسخة، خاطبني الحق في سري: من اتخذني وكيلاً فقد ولاني، ومن ولاني فله مطالبتي، وعلي إقامة الحساب فيما ولاني فيه".

كانت هذه بعضا من نماذج الخرافة، والتي هي أساس المذهب وعمدته، ولو نزعت الخرافة من المذهب لم يبق فيه الشيء، فلو سلط عليه معول –وليس معاول– العقل والنقد لانهار المذهب من أصوله.

وهناك الكثير من الخرافات التي يأباها العقل وذلك مثل دعواهم أن وليا مكث أربعين سنة لم يأكل ولم يشرب، وآخر نام سبع عشرة سنة! وآخر قال لعصاه التي يتوكأ عليها: كوني إنسانا، فتكون إنسانا، فيرسلها تقضي له الحوائج ثم تعود كما كانت! وأن أحد أوليائهم أمر الشمس بالوقوف فوقفت، حتى قطع المرحلة الباقية من سفره، ثم أمرها بالغروب، فغربت وأظلم الليل في الحال! ومثل هذا وأكثر موجود و هو أساس المذهب.

4– اعتقادهم في شفاعة الأولياء وإخراجهم لأتباعهم من النار

استمرارا لتقديس الأولياء والمبالغة في منازلهم، ادعى الصوفية أن الأولياء يشفعون في مريديهم يوم القيامة ولهم في ذلك كلمات يشيب من هولها الولدان. ولست أدري ما دليلهم على دعواهم. والملاحظ أن اتباع كل فرقة تبالغ في تقديس أئمتهم، ومن أهم منازل التقديس إنجاء الأتباع يوم القيامة، وكل في دعواه واهم، وموعدنا يوم القيامة يوم لا ينفع الندم، حيث يعلم كل مدع لشفاعة إمامه ومولاه أن دعواه باطلة، وإنه لقريب!

5- اعتقادهم وحدة الأديان

وهي عقيدة مخالفة تماما لعقائد الإسلام وذات تأثير سلبي على معتقِدها، يُظهر أن معتقدها لا خبر الإسلام ولا عرفه، لذلك لا يرى فارقا بين الإسلام وغيره من الديانات الأخرى فالكل سواء، ويعجبني قول العبدة: "خرافة كبيرة من خرافات الصوفية، وشطحة من شطحاتهم الكثيرة، وهي لا تخرج إلا من خيال مريض يظن أنه يتسامح إنسانياً، ولكنها في نفس الوقت فكرة خطيرة لأنها تصادم سنن الله في الكون والحياة ومنها سنة الصراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، والجمع بين الكل على قد المساواة هو خبث مركز لهدم الإسلام أو هذيان مقلد لا يدري ما يقول، وإلا فكيف نسوي بين من يعبد الله سبحانه وتعالى وحده وبين من يعبد البقر، أو حرف كتب الله وعبد أنبيائه، كيف نجمع بين الإيمان والكفر هذا لا يكون إلا ممن يؤمن بوحدة الوجود كابن عربي وتلامذته الذين يعتقدون أن كل موجود على الأرض صحيح ولا داعي للتفرقة، والله أوسع من أن يحصره عقيدة معينة فالكل مصيب "وأما عذاب أهل النار فهو مشتق من العذوبة!!... ويترجم ابن عربي هذه العقيدة شعراً فيقول:

لقد صار قلبي قابلاً كل صورة فمرعى لغزلان ودير لرهبان

وبيت لأوثان وكعبة طـائف وألواح توراة ومصحف قرآن

أدين بدين الحب أنّى توجـهت ركائبه فالحب ديني وإيـماني"[142]

---

[142] محمد العبدة، طارق عبدالحليم: الصوفية نشأتها وتطورها.

التشابه بين الصوفية والشيعة

كنا قد ألمحنا في بداية حديثنا عن الصوفية أنها على الرغم من كونها معدودة من فرق أهل السنة إلا أنها إلى الشيعة أقرب، ونذكر هنا للقارئ نماذج تبين هذه العلاقة، وعلى الرغم من أن الشيعة تنفي علاقة الصوفية بها وترى أنها مذهب وتوجه مستقل، رأي وضوح أدلة اتباع أهل البيت فعظمهم، وعلى الرغم من نفي الصوفية لتبعيتهم للشيعة، إلا أن علاقتهم بهم أوضح من أن تحتاج إلى نظر أو تدبر، ونذكر للقارئ بعضا من أهم أوجه الشبه بين الشيعة والصوفية:

1- استمرار الوحي –غير التشريعي– بعد ومع النبي المصطفي وفي هذا يقول العلامة إحسان إلهي ظهير: "وبعد هذا نرجع إلى أفكار الصوفية الأخرى ومعتقداتهم الخاصة بهم، لنرى التشيع المتستر الظاهر فيها، وتأثيره خفيا جليا ليرى الباحث والقارئ منهل التصوف ومنبعه، مصدره ومأخذه. فإن الشيعة يرون[143] بأن النبوة لم تختم على محمد صلوات الله وسلامه عليه، حيث لم يكن وحده في زمانه الذي كان ينزل عليه الوحي، ويأتي إليه الملك، ويكلمه الله من وراء حجاب، بل كان هناك شخص آخر في زمانه وبعده، كان له تلك الأوصاف كلها، بل وأكثر منها. حيث أن رسول الله محمد صلوات الله وسلامه عليه لم يكن يكلمه الله إلا وحيا، أو من وراء حجاب، أو بإرسال رسول، فيوحي بإذنه ما يشاء. وأما الإمام فكان ينزل عليه الوحي، ويرسل إليه رسول، ويكلمه الله ويناجيه بلا حجاب، وقد أعطى خصالا لم يسبقه إليها أحد، ثم توارث هذه الأوصاف من خلفه بعده إلى خاتم الأئمة. ونقل محمد بن حسن الصفار شيخ الكليني وأستاذه، الذي يعدّونه من أصحاب إمامهم الحادي عشر –حسب زعمهم– روايات كثيرة في صحيحه لإثبات نزول الوحي على أئمتهم، ونزول الملائكة عليهم تحت عناوين كثيرة في أبواب شتى، منها ما رواها عن حمران بن أعين أنه قال: "قلت لأبي عبد الله (جعفر) عليه السلام: جعلت فداك، بلغني أن الله تعالى قد ناجى عليا عليه السلام؟ قال: أجل،

---

[143] بغض النظر إذا كان الشيعة كلهم أو بعضا منهم يرون هذا الرأي أو حتى ينكرونه جملة، فالرأي ظهر عندهم وخرج منهم!

قد كان بينهما مناجاة بالطائف نزل بينهما جبريل"[144]. وفي هذا المعنى يقول ابن عربي في الفتوحات المكية: "ويجمع النبوة كلها أم الكتاب، ومفتاحها: بسم الله الرحمن الرحيم. فالنبوة سارية إلى يوم القيامة في الخلق. وإن كان التشريع قد انقطع، فالتشريع جزء من أجزاء النبوة[145]، فإنه يستحيل أن ينقطع خبر الله وأخباره من العالم، إذ لو انقطع لم يبق للعالم غذاء يتغذى به في بقاء وجوده (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مددا)، (ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله)، وقد أخبر الله أنه ما من شيء يريد إيجاده إلا يقول له: كن، فهذه كلمات الله لا تنقطع، وهي النداء العام لجميع الموجودات. فهذا جزء واحد من أجزاء النبوة لا ينفد، فأين أنت من باقي الأجزاء التي لها".

2- الشيعة تقول بحتمية وجود الحجة وأن الأرض لا تخلو من وجود الحجة وهو الإمام بداهة، أما الصوفية فوضعوا الولي بدلا من الحجة، حتى أنهم يستعملون نفس التعبيرات الشيعية للتدليل على دعواهم الباطلة، ومن أمثال ما يدعون قول أبي طالب المكي في كتاب قوت القلوب في معاملة المحبوب: "لا تخلو الأرض من قائم لله تعالى بحجة، إمّا ظاهر مكشوف، وإمّا خائف مقهور لئلا تبطل حجج الله تعالى وبيّناته".

3- قالت الشيعة بعصمة أئمتهم وبعلمهم للغيب وأنهم ولاة أمر الله، وراوياتهم بذلك في المذهب طافحة، وبمثل ذلك قال الصوفية، فقالوا بعلم الأولياء للغيب وبتصرفهم في الكون وبعصمتهم من المعاصي.

4- القول بتقسيم الشريعة إلى ظاهر وباطن وعام وخاص، وهذا القول أول ما ظهر ظهر في الشيعة وخاصة الطائفة الإسماعيلية منها. حيث يعتقدون أن لكل ظاهر باطنا، وقد اختص بمعرفة الباطن عليّ رضي الله عنه، وأولاده، فسمّوا أنفسهم –أي الشيعة–

(144) إحسان إلهي ظهير، التصوف: المنشأ والمصادر.

(145) سيستغل الميرزا أقوال الصوفية هذه في تأسيس دعواه والتدليل عليها. انظر الفصل الخاص بالأحمدية في هذا الكتاب!

بالخاصة، وأهل السنة بالعامة. وأخذت الصوفية بنفس هذا التقسيم فقالوا: "العلوم ثلاثة: ظاهر، وباطن، وباطن الباطن، كما أن الإنسان له ظاهر، وباطن، وباطن الباطن. فعلم الشريعة ظاهر وعلم الطريقة باطن وعلم الحقيقة باطن الباطن"، وقال الإمام الطوسي أبونصر السراج في اللمع" إن العلم ظاهر وباطن... ولا يستغني الظاهر عن الباطن، ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال الله عز وجل (ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فالمستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث وغير ذلك... فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن!!"

5- مرجع الطرق الصوفية كلها –ما عدا واحدة تقريبا ترجع إلى أبي بكر– هو علي بن أبي طالب أو الحسن ابنه، فكل الفرق الصوفية ترجع أفعالها إلى السنة! وأنهم أخذوا تلك الأوراد والمجاهدات عن شيوخهم والتي أخذوها عن شيوخهم وهكذا حتى يصلوا إلى علي بن أبي طالب!!، أفلا يعد هذا ناقوسا كبيرا على تأثر الصوفية بالشيعة، أما ابتداع فكرة الأقطاب والأبدال فهو من تأثيرات الشيعة الإسماعيلية.

الصوفية المعاصرون

هل اختلف موقف الصوفية المعاصرين عن سلفهم؟ لا يمكن لأحد أن يدعي أن صوفية هذه الأيام مثل صوفية الزمن الماضي، فأحوال الناس تغيرت والظروف الاقتصادية والاجتماعية أدت إلى تشكيل وعي ثقافي اجتماعي موجه إلى اتجاه محدد –بغض النظر عن صوابه أو ضلاله– فكان على الصوفية أن تطور من نفسها لتواكب هذا التطور، فما عدنا نسمع عن دعوات إلى اعتزال الحيوة والإقامة بالخلوات أو القيام بالتسول من أجل الحصول على لقمة العيش أو الدعوى إلى هجر النساء تماما والتزام أقل القليل من الطعام ولكن صار التركيز والاهتمام منصبين على مجاهدة النفس والأخلاق الحميدة. قد يقول القارئ: ألا يعد هذا التطور نقطة تحسب للصوفية؟ نقول: لا، ولكن من الممكن

القول إن مقدار السوء والتطرف في المذهب وفي الطُرق قد خفت قليلا إلا أن الإطار العام للمذهب لا يزال موجودا، فما لا يقال في المدن نراه بأعيينا ونسمعه بآذاننا في القري والكفور والنجوع، ونفس الأفكار والمبادئ لا تزال موجودة ومخطوطة ومسطورة في كتبهم بدون اعتراض أو تعديل من شيوخهم، مما يعني الموافقة المبدئية عليها، وهي ستؤثر حتما ولزاما على عقلية وفكر من يقرأها.

ولكن إذا غضضنا الطرف عن كل هذا وقبلنا التغيرات الحادثة كنقطة إيجابية فسنجد أن المذهب لا يزال يحتوي نفس نقاطه الأساسية وهي تأسيس الخرافة والبناء عليها، فلا تزال كتب القوم طافحة بالخرافات المنكرة والمرفوضة عقلا ودينا وفلسفة وبكل شكل من أشكال التفكير السليم، ولا تزال الأقوال والأذكار المؤصلة لوحدة الوجود والمؤسسة عليها كما هي بدون اعتراض، كما لا تزال الأذكار المبتدعة كما هي. وبغض النظر عن هذا وذاك فإن التصوف سلوك متطرف من وجهة النظر الإسلامية، فالإسلام أتى ليبني ذلك الإنسان المتوازن الذي يعمل ويبني ويجاهد ويتزوج ويمزح، أما ذلك الإنسان السلبي المنعزل عن العالم الغارق في لذات الجلسات الصوفية وخدرها فليس هو إنسان القرآن ولا إنسان الإسلام!

طبعا سيدعي الصوفية أنهم مذهب متوازن وأن التصوف لا يمنع أيا من ذلك، فكل ما هنالك أن هناك تطهيرا للنفس وتنقية لها من الشوائب. وردنا ببساطة: إذا خالف أكثر المطبقين النظرية فمن البدهي أن النظرية غير صالحة ولا صحيحة وبحاجة إلى تغيير، ومن ينظر إلى حال الصوفية الآن تجد أن جلهم –ولا نقول كلهم– مخالفون لما في كتب القوم –الصوفية–، فإذا كان بعض أفراد من أتباع الصوفية ينكرون على القاعدة العريضة والتي ترى أنها على صواب وأن المنكرين هم المبتدعون، فلا قيمة لهذا الإنكار ولا وزن له، فالمذهب غارق في الضلال والغواية وبحاجة إلى العودة إلى أصول الزهد الإسلامي الفردي، والذي يجده ويشعر به كل إنسان بمفرده فهذا هو المطلوب.

وفي نهاية هذا المبحث الصغير أوجه رسالة إلى كل صوفي أو من يرغب في التصوف:

إن البشرية كلها خاضعة لأمر الرب القدير الذي أرسل رسلا ليعلموا وليعرفوا الناس بأمر ربهم، فأصبح لهؤلاء الرسل سلطانا ومنزلة عند الناس جميعا، والبشرية كلها تشعر بالنقص في مقابل كمال الله الواحد الأحد، ولكن لما كان هناك فريق منذ قديم الزمان لا يريد أن يخضع لسلطان الرب القدير ويريد أن يتخلص من عقدة النقص هذه التزم منهجا خاصا به، يدعي ويزعم أنه يحرره من ربقة النقص والعبودية ولما تطور الأمر شطحت بهم أفكارهم إلى الوصول إلى مرتبة الرسولية ثم المشاركة في الألوهية والربوبية وتسيير الكون وتسخيره، وبذلك يكونوا قد أنهوا عقدة النقص ووصلوا إلى ما ترنوا إليه قلوبهم المريضة.

ومسألة النقص البشري مسألة مترسخة في النفس البشرية، حيث أنها من أدلة وجود الله عزوجل وهي: معرفة الإنسان بنقصه وشعوره بوجود الكمال وهو الله تعالى، ونحن لا نزعم أن من يتجه إلى التصوف يكون هذا الرأي في خاطره أو باله، ولربما ما جال بخاطره قط، ولكن من يدريه أنه ليس كامنا في باطنه الشعور بالنقص ويتخذ التصوف بدون أن يدري كوسيلة إلى الكمال. فنحذر إخواننا أن يكونوا ممن يتبعون خطى الضلال ويتركون خطى الرشاد، فنهج الإسلام واضح ومسلكه قويم وصراطه مستقيم، غني عن كل فلسفة وتعاليم. فلنلزم نهج الإسلام كما هو في القرآن والسنة الصحيحة ونبتعد تماما عن البدع، فدين الله كامل تام ميسر لذكر كل ذاكر وشكر كل شاكر ولا يحتاج إلى شيخ أو ولي يتمحك به المرء، بل على المرء أن يسجد ويقترب بنفسه وذاته وبذلك يصل إلى المراد من رب العباد من غير واسطة عبد من العباد.

وبعد أن أنهينا حديثنا عن الصوفية نكون قد أنهينا الحديث عن أهم فرق السنة والتي لا يزال لها وجود وتأثير في أيامنا هذه وننتقل إلى الحديث عن الفرق الإسلامية الأخرى من غير أهل السنة ونبدأ بالشيعة الإمامية.

الفرقة الثانية: الشيعة الإمامية

الشيعة ذلك المجهول!

على الرغم من أننا في القرن الخامس عشر بعد الهجرة المعطرة إلا أن ذلك الاسم "الشيعة" لا يزال يمثل غموضا بالنسبة لكثير من المسلمين غير الشيعة، ويرتبط عندهم بالمجهول والخوف والخيانة وبمعان سيئة كثيرة مثل تحريف القرآن بل والإلحاد –ربما لتشابه الاسم مع الشيوعية!– وكثيرون هم من سبقوني في الكتابة عن الشيعة، إمامية كانت أو زيدية أو حتى إسماعيلية، وتفاوتت وجهات نظر كل كاتب تبعا للفريق الذي ينتمي إليه، فالشيعي الإمامي ينتصر لإماميته الجعفرية والشيعي الزيدي ينتصر لمذهبه الزيدي ويخطأ الإمامية في النقاط التي اختلفوا فيها، أما الكاتب السني فيخطّأهما الاثنين، وإن كان يحمل على الشيعة الإمامية أكثر من الزيدية لقرب الزيدية الشديد من أهل السنة، ويقف القارئ حائرا بين هذه التوجهات المتباينة، فبين مكفر من أهل السنة للشيعة، وبين صارخ من الشيعة بسبب لافتراءات والكذب من أهل السنة عند عرضهم للمذهب الشيعي وبين معتدل يحاول أن يقرب من وجهات النظر بين الفريقين.

ونحن إذ نكتب عن الفرق الإسلامية فإننا نكتب من أجل عرض الموضوع من زاوية مختلفة، وهي التركيز على وحدة المنهج عند كل الفرق الإسلامية –مع وجود خط انحرافي تزيد درجته أو تقل تبعا للفرقة–، وبسبب هذا الخط الانحرافي ظهرت الفرق الإسلامية واختلفت وحدث الشقاق المرفوض في دين الله، كما نركز على أن الفروق بين الفرق الإسلامية قاطبة موجود مثلها أو أكثر داخل طوائف كل فرقة، وما اجتمع هؤلاء وافترق أولئك إلا بسبب موقفهم من السلطان والذي استغل هذا العنصر أمثل استغلال فلعب عليه من أجل مصالحه الشخصية.

ونحن إذ نعرض مبادئ الشيعة الإمامية أو الجعفرية فنحن نعرض مبادئ وعقائد أكثر الفرق بعدا عن أهل السنة –مقارنة بالشيعة الزيدية والإباضية– وعلى الرغم من ذلك

فسيجد القارئ أنه ما قالت الشيعة قولا وشطحت فيه إلا ولدينا في أهل السنة مثله بدرجة قد تقل عنها بكثير أو قليل ولكنه موجود ناهيك عما في كتبنا ولم يقولوه هم، ثم نزعم بعد ذلك أن الشيعة في ضلال مبين، من باب "رمتني بدائها وانسلت"، فكل فريق يعرض لأتباعه أفضل وأروع ما لديه من تراث فكري، أما عند التعامل مع الفريق الآخر فيعرض أسوأ ما لديه، وهذا ما نفعله فنعرض المساوئ ونفخمها ونهولها وهم يعرضون من كتبنا كوارث وطوام، وكل يصرخ لأتباعه: أنظروا ماذا في كتب الآخر من ضلال مبين، نحن لا نتقول عليهم بل هي أقوالهم من كتبهم، فهل ظلمناهم؟ والتابع غير المتخصص يهز رأيه موافقا لما يقولون، فإذا كان هذا في كتب الخصم فهو حتما في ضلال مبين وويل له من رب العالمين، أما نحن والحمد لله فعلى الصراط المستقيم، ملتزمون لمنهج الوسط بلا إفراط ولا تفريط –والعجيب أني وجدت هذه الدعوى بالحرف عند كل الفرق– فلم نفرط كما فعل... ولم نغال كما فعل...

وبعد هذه المقدمة القصيرة نبدأ في عرض مقالات الشيعة كما يعرضون أنفسهم لأتباعهم وكما يبررون أقوال قدمائهم لأتباعهم، مع التقليل قدر الإمكان في التعليق أو النقد من جانبنا، لأننا نرى أن الرأي الضال واضح البطلان فلا يحتاج إلى كثير من التعليق أو التفنيد، أما ذلك الرأي الذي يحتاج من أجل تفنيده إلى الصفحات الطوال فليس على الناس حرج في قبوله، فإذا كان العلماء يتكبدون المشاق من أجل التفنيد، فما بالنا بالعوام!!

وكالعادة نبدأ بالتعريف بالاسم ونعرض نبذة تاريخية عن المذهب، ولن تكون النبذة قصيرة هذه المرة لارتباط تطور المذهب الشيعي بالأحداث التاريخية بشكل كبير، وسيلاحظ القارئ أن باب العقائد سيتقاطع مع فصل التاريخ لوجود ذلك التقاطع الفعلي والذي لا يمكن لأحد إلغاؤه، وفي أثناء العرض نعرض التشابه مع مذهب أهل السنة.

التعريف اللغوي للفظة "شيعة"

شيع كما جاء في المقاييس لابن فارس: "الشين والياء والعين أصلان، يدلُّ أحدُهما على معاضدة ومساعفة، والآخر على بَثٍّ وإشادة. فالأوّل: قولُهم شَيَّعَ فلانٌ فلاناً عند شُخوصه. ويقال آتِيكَ غداً أو شَيْعَه، أي اليوم الذي بعده، كأنَّ الثاني مُشَيِّع للأوّل في المضيّ.... ويقول ناس: إنَّ الشَّيْع المِقدار، في قولهم: أقام شهراً أو شَيْعَه. والصَّحيح ما قلته، في أنَّ المشيِّع هو الذي يُساعِد الآخَر ويقارنه. والشِّيعة: الأعوان والأنصار. وأما الآخر [فقولهم]: شاع الحديث، إذا ذاع وانتشر. ويقال شَيَّع الراعي إبلَه، إذا صاح فيها..."[146] ويقول ابن دريد في جمهرة اللغة: "فلان من شيعة فلان أي: ممن يرى رأيه، وشيعت الرجل على الأمر تشييعاً إذا أعنته عليه، وشايعت الرجل على الأمر مشايعة وشياعاً إذا مالأته عليه". اهـ

وجاء في النهاية لابن الأثير: "وأصل الشيعة الفرقة من الناس وتقع على الواحد والاثنين والجمع والذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد وقد غلب هذا الاسم على كل من يزعم أنه يتولى علياً رضي الله عنه وأهل بيته حتى صار لهم اسماً خاصاً فإذا قيل من الشيعة عرف أنه منهم وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم وتجمع الشيعة علي شيع وأصلها من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة" اهـ

[146] تبعا لهذين الأصلين وهما المساندة والمعاضدة والانتشار جاءت مادة "شيع" في القرآن في الاثني عشر موضع التي ذكرت فيها، وليس كما ذكر ابن الجوزي رحمه الله من أنها وردت على أربعة معان والتي هي: الفرق والأهل والنسب وأهل الملة والأهواء المختلفة. وإذا تتبع القارئ مواضع ذكرها في القرآن فسيجد أن ما قلناه هو الصواب بإذن الله تعالى.

التعريف الاصطلاحي لكلمة "الشيعة"

هناك تعريفات عدة للشيعة سواء من داخل الفريق أو من خارجه، ونذكر للقارئ تعريفين من هذه التعريفات أحدهما لشيعي والآخر لسني:

تعريف شيخ الشيعة القمي –كما جاء في كتاب: المقالات والفرق–: "الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي صلى الله عليه وسلم وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته"

تعريف ابن حزم كما أورده في كتابه: الفِصل في الملل والأهواء والنحل: "ومن وافق الشيعة في أن علياً –رضي الله عنه– أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعياً"اهـ

ونظرا لأن التعريف الاصطلاحي يأخذ جانبا واحدا من الكلمة ويخصصه في استعمال محدد فهو يخالف اللغة لا محالة، ولكن مع الوقت قد ينتشر التعبير الاصطلاحي حتى يصير هو الأعم الغالب ويندثر الاستعمال اللغوي أو يكاد، وهذا ما نجده مع لفظة "شيعة"، فلقد كانت تستعمل بمعنى المعاون والنصير مطلقا، فكان يقال شيعة عثمان وشيعة معاوية وشيعة علي وهكذا، ومما ورد في صحيفة التحكيم بين علي ومعاوية: "وأن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس، ورضي معاوية وشيعته بعمرو بن العاص.." وكذلك "وإن مات أحد الأميرين قبل انقضاء الأجل المحدود في هذه القضية فلشيعته أن يختاروا مكانه رجلاً يرضون عدله".

فهذا دليل على عدم قصر الاستعمال على شيعة علي فقط، ولكن مع ظهور شيعة علي وتواري الآخرين اشتهروا بهذا الاسم.

وأرجوا أن يلاحظ القارئ أننا سنتحدث طيلة الفصل القادم عن الشيعة الإمامية فقط وليس عن كل فرق الشيعة، وللشيعة الإمامية عدة أسماء منها: الشيعة الاثنى عشرية

وذلك لقولهم بإثني عشر إماما منصوص عليهم من النبي المصطفى. وتسمى كذلك بالجعفرية نسبة إلى الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه، والذي تفرغ للتعليم وقعّد أصول المذهب، وعلى أقوال وفتاويه –المفترض فيها العصمة– أسس للمذهب فقها وعقيدة. وتسمى كذلك بالرافضة، وهم الذين رفضوا الإمام زيد بن علي حين سألوه عن أبي بكر وعمر فترحم عليهما، فقالوا: إذن نرفضك. فقال: اذهبوا فأنتم الرافضة[147]. وسموا بالإمامية لأن الإمامة من أصول المذهب عندهم وبسببها اختلفوا وتفرقوا عن الفرق الإسلامية.

ويعرف الدكتور عبد الهادي الفضلي مذهب الإمامية قائلا: "مذهب الإمامية هو أحد المذاهب الإسلامية الكلامية والفقهية.. يرجع في انتمائه العقيدي والفكري إلى أئمه أهل البيت(ع)، وبه سمى بالإمامى واتباعه بالإمامية، وقد يسمى بالمذهب الجعفرى نسبه إلى الامام السادس من أئمه أهل البيت(ع): أبى عبدالله جعفر بن محمد الصادق(ع) المتوفي سنة 148هـ، وذلك لوفرة عطائه الفكرى بالنسبه إلى بقية الأئمة من أهل البيت(ع)، ولأنه عاش فتره انطلاقه الفكر الكلامى والخلافات الفكرية في مفاهيم العقيدة وشؤونها الأخرى، وبروز أعلام الفكر الكلامى ومدارسه الأولى كالجبرية والمعتزلة، وفترة توسع الفكر الفقهى وظهور أصحاب المذاهب الفقهية أمثال: مالك بن أنس وأبى حنيفة، حيث كان المسلمون آنذاك يتمايزون بالانتماء فيقال هذا من أتباع المذهب الكلامى المعين أو المذهب الفقهى المعين. ويعرف هذا المذهب أيضا بمذهب الإماميه الاثنى عشرية في مقابلة المذهبين الشيعيين الآخرين: الزيدي والإسماعيلي الذين تستمر الإمامة –في اعتقادهما– متجاوزة الحصر بعدد معين. ويطلق

---

(147) عندنا في مصر سُبة قد تكون غير معلومة المعنى عند كثير من الناس وهي قولنا "يا ابن الرفضي". فبعضنا يسب ولا يعلم ما المقصود من قوله "الرفضي"، والرفضي هي تحريف لكلمة "رافضي". واستعملت هذه الكلمة بعد خروج الفاطميين من مصر بسبب البدع التي أتوا بها وبسبب سبهم للصحابة، ومن المعلوم أن الفاطميين كانوا من الشيعة الإسماعيلية.

عليه –غالبا– المذهب الشيعي لكثرة أتباعه مقارنة بأتباع المذهبين الشيعيين الآخرين الزيدي والإسماعيلي." اهـ [148]

التيارات الفكرية في الشيعة الإمامية

بدأ المذهب الشيعي كمذهب أخباري صرف، يجمع كل ما ينقل عن الأئمة، ولذلك تضخم المذهب وتناقض بشكل لا يمكن التوصل فيه لحلول وسطية تحمع الآراء الموجودة. وفي الناحية الأخرى كان يوجد المذهب الأخباري الآخر وهو أهل السنة ولكنهم كانوا قد بدأ يقعدون القواعد ويأصلون الأصول في قبول الروايات وردها واستخراج الأحكام منها، فأصبح العلم الديني علما ممنهجا على عكس الفوضى الأخبارية عند الشيعة، فظهر التيار الأصولي في الشيعة، وكأي جديد قوبل التيار الأصولي بالرفض، ثم ساد وانتشر وأصبح هو المذهب السائد، ولكن عاد المذهب الأخباري للظهور مرة أخرى.

وبغض النظر عن هذه المقدمة يمكننا القول إن التيارات الموجودة في الشيعة الإمامية هما تياران كبيران: الأخبارية وتفرع منها المشيخية وهي أكثر غلوا من الأخبارية! والأصولية. واسما التيارين واضحان جدا في الدلالة على مضمونهما. ونعرف تعريفا سريعا بالأخبارية ثم نعرض الفرق بينهما: الأخبارية أو الإخبارية ظهرت أوائل القرن الحادي عشر الهجري على يد الميرزا محمد أمين الاسترابادي وإن لم تعد هي السائدة كما كان الحال في بداية ظهور المذهب.

وينحصر الخلاف بين الطائفتين في موقف الفريقين من الأخبار الموجودة في الكتب الشيعية، فترى الأخبارية أن الاعتقاد السليم يقوم على العمل بالأخبار المنقولة عن

[148] عبد الهادي الفضلي، مذهب الإمامية.

المعصومين بدون النظر إلى أي شيء آخر. فهم إذاً لا يعتمدون إلاّ على متون الأخبار التي تروى عن أئمتهم، ويتمسكون بظاهر الحديث، ولا يرون الأدلة الشرعية إلاّ الكتاب والحديث، وهم بذلك يمنعون الاجتهاد وإعمال العقل.

ويمكننا القول إن نقاط الاختلاف بين التيارين تنحصر في نقاط أربع هي:

1- تنويع الحديث إلى صحيح، وحسن، وموثق، وضعيف. فالإخباريون يعتبرون أن الأحاديث أو الأخبار الموجودة في الكتب الأربعة كلها صحيحة، ولا داعي للبحث عن إسنادها، وجعلوها المصدر الوحيد في أدلتهم الشرعية، وقد اعتبر الشيخ مرتضى الأنصاري أن تسمية الاخباريين من باب:

أ- كونهم عاملين بجميع الأقسام من الأخبار (الصحيح، الحسن..) دون تفريق بينهما.

ب- أنهم خصوا الدليل الشرعي بالخبر، وأنكروا الأدلة الثلاثة الأخرى عند الشيعة وهي القرآن، والإجماع والعقل.

2- لا يجيز الأخباريون الاجتهاد، ويعتبرونه من "الظن" ويوجبون على الناس بالرجوع إلى الإمام فيما روي عنه، أما الأصوليون فيوجبون على المكلفين الاجتهاد، عيناً أو كفاية، وأوجبوا على العامي تقليد المجتهد.

3- يرى الأصوليون أن الأدلة هي الكتاب والسنة والإجماع والعقل، في حين ينكر الأخباريون دليلي الإجماع والعقل، ويحصرونها بالكتاب والسنة (الخبر). ومنهم من اعتبر أن الدليل فقط هو السنة أو الخبر، كما تقدم.

4- تقليد الميت: فالأصوليون يرون أن الميت تبطل فتواه ولا يجوز تقليده أما الأخباريون، فيعتقدون بجواز تقليد الميت، ويقولون إن الحق لا يتغير بالموت والحياة.

وبشكل عام فإن الفارق بين التياريين ليس كبيرا، فكلا التياريين يعتمد الروايات الموجودة في كتبهم ويقدمها على كتاب الله ويجعلها حاكما عليه. مع أن رواياتهم لا

يمكن الحكم فيها بصحة أو ضعف بأي حال، وهذا ما سنعرضه للقارئ بعد صفحات. لذا يمكننا القول إن الشيعة الإمامية كلها تيار إخباري صرف يقدم الروايات على الكتاب، ولولا هذا الكم المهول من الروايات لما اختلفت الشيعة الإمامية عن غيرها من الفرق –الشيعية على الأقل– ولما تمحورت حول ذاتها وأخذت ذلك التيار الانعزالي عن باقي المسلمين.

متى ظهر التشيع "لعلي"؟

اختلفت الآراء بين السنة والشيعة في نشأت التشيع لعلي رضي الله عنه، فوجدنا بعض الآراء المتطرفة عند الشيعة تقول إن التشيع قديم من قبل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه ما من نبي إلا وقد عرض عليه الإيمان بولاية علي.. وكالعادة رووا في ذلك الروايات، فمنها ما جاء في أصول الكافي للكليني عن أبي الحسن قال: "ولاية علي مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولاً إلا بنبوة محمد –صلى الله عليه وآله–، ووصية عليّ عليه السلام"[149]، ورووا عن أبي جعفر في قوله الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [سورة طه ,١١٥] قال: "عهدنا إليه في محمد والأئمة من بعده فترك ولم يكن له عزما.!"

وقال بعض علماء الشيعة مثل النوبختي في كتابه "فرق الشيعة " والخميني في "الحكومة الإسلامية " إنه ظهر مبكرا في زمن الرسول وعلى يديه، حيث كان يدعو إلى التوحيد ومشايعة علي جنبا إلى جنب، واستدلوا على ذلك ببعض الروايات الضعيفة عندنا! وقيل إنه ظهر في معركة الجمل، حين تواجه علي وطلحة والزبير، وقد قال بهذا القول ابن النديم في الفهرست. وقيل إنه ظهر يوم معركة صفين. وهو قول لبعض علماء الشيعة

[149] أرجوا أن يقارن القارئ بين ما جاء في هذه الرواية وبين ما ورد عندنا من أنه ما من نبي إلا حذر أمته الدجال، فإذا كان كل نبي يحذر أمته الدجال، فلم لا يبشر كل نبي بعلي مع النبي؟!!!

كالخونسابوري، أبو حمزة، أبو حاتم كما قال به أيضا غيرهم من العلماء مثل: ابن حزم وأحمد أمين. وقيل إنه كان بعد مقتل الحسين رضي الله عنه وقيل إنه ظهر في آخر أيام عثمان وقوي في عهد علي.

هذه هي أهم الآراء في نشأة التشيع، والشيعة على أن التشيع كان في زمن النبي المصطفى، ولكن تواجههم مشكلة عويصة وهي أن التاريخ لم يرو عن ذلك شيئا، لذلك يحاولون قدر الإمكان أن يبرروا عدم وجود الشيعة أو ظهورهم بأي شكل من الأشكال، ومن ذلك ما يقوله محمد باقر الصدر: "والذي دعا –فيما أظن– كثيرا من هؤلاء الباحثين إلى هذا الافتراض والاعتقاد، بأن "التشيع" ظاهرة طارئة في المجتمع الاسلامي، هو أن الشيعة لم يكونوا يمثلون في صدر الاسلام إلا جزءا ضئيلا من مجموع الأمة الإسلامية. فقد أوحت هذه الحقيقة شعورا بأن اللاتشيع كان هو القاعدة في المجتمع الاسلامي، وأن التشيع هو الاستثناء والظاهرة الطارئة التي يجب اكتشاف أسبابها من خلال تطورات المعارضة للوضع السائد. ولكن اتخاذ الكثرة العددية والضآلة النسبية أساسا لتمييز القاعدة والاستثناء أو الأصل والانشقاق، ليس شيئا منطقيا،..."!! اهـ[150]

حتما اتخاذ الكثرة العددية هو المنطقي في مثل هذه الوقائع التاريخية، لذا فيمكننا أن نجزم أن التشيع ما كان له وجود في عهد النبي المصطفي وأنه ظهر بعد ذلك وتطور تبعا للأحداث، فأضيفت له وحذفت منه بعضا المبادئ تبعا لمجريات العصر. أما القول بميل الصحابة إلى نصرة علي في معركته فهذه مسألة أخرى وهي مما لا ينتطح فيها عنزان.

(150) محمد باقر الصدر، نشأة التشيع والشيعة

نبذة عن أهم كتب القوم

نظرا لأن المذهب الشيعي تحيط به ضبابية عند أهل السنة –ما عدا دارسي مقارنة الأديان أو الباحثين في هذا التخصص– نقدم للقارئ في عجالة نبذة عن أهم كتب القوم وإلى ما يستندون في أبحاثهم وأقوالهم:

أولا: كتب التفسير:

من أشهر كتب التفسير لديهم تفسير علي بن إبراهيم القمي، الذي قالوا عنه بأنه أصل أصول التفاسير عندهم، وكذلك تفسير العياشي وهو من علماء القرن الثالث الهجري، وكذلك تفسير فرات بن إبراهيم بن فرات الكوفي، من شيوخهم في القرن الثالث وأوائل القرن الرابع، كذلك تفسير التبيان للطوسي، ومجمع البيان للطبرسي، وكذلك تفسير الصافي لمحمد محسن المعروف بالفيض الكاشاني، وكذلك البرهان في تفسير القرآن لهاشم بن سليمان البحراني –وهو من المتأخرين–، ومرآة الأنوار ومشكاة الأسرار، أو مقدمة البرهان لأبي الحسن بن محمد العاملي الفتوني.

ثانيا: كتب الحديث –عن أئمتهم!–:

1- كتاب "الكافي" لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني البغدادي (ت: 328 هـ) ويحتوي على مجموعة خبرية تصل إلى حوالي 16121 (يذكر بعضهم 16199) رواية بالمكررات والمراسيل.

2- كتاب "من لا يحضره الفقيه" للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي (ت: 381 هـ) المعروف بلقب الصدوق!، ويحتوي على 5963 من الأخبار المسندة و2050 من المراسيل.

3- كتاب: "تهذيب الأحكام" لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (385 هـ - 460 هـ)، ويحتوي على حوالي 12590 رواية. وهو شرح على كتاب "المقنعة في الفقه" للشيخ المفيد.

4- كتاب "الاستبصار فيما اختُلف فيه من الأخبار" للطوسي أيضاً، وفيه حوالي 5511 رواية بالمكررات والمراسيل. ومجموع الأخبار في هذه الأصول الأربعة يفوق الإحدى وأربعين ألف خبراً.

هذا، عدا ما ورد في كتب أخرى، مثل: بصائر الدرجات في علوم آل محمد وما خصهم الله به "لأبي جعفر محمد بن الحسن بن فروخ الصفار الأعرج القمي (ت: 290 هـ)، و"إكمال الدين"، و"عيون أخبار الرضا"، و"التوحيد"، و"الأمالي"، و"الخصال"، و"علل الشرائع"، و"ثواب الأعمال"، و"عقاب الأعمال"، وكلها للصدوق. و"أوائل المقالات"، و"الإرشاد"، و"الاختصاص"، وكلها للشيخ المفيد (ت: 413 هـ)، "وما جمعه محمد بن الحسن: الحر العاملي (ت: 1104هـ) في موسوعته الحديثية: "وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة"، ومحمد باقر: المجلسي الكبير (ت: 1111هـ) في موسوعته: "بحار الأنوار"، وتلميذه الشيخ عبد الله بن صالح البحراني (ت: 1135هـ) في كتاب: "المعالم"، والسيد حسين بن علي البروجردي (ت: 1380 هـ/1960م) في "جامع أحاديث الشيعة" وهو الأكثر جمعاً وشمولاً لحديثهم..[151]

ثالثا: كتب العقائد:

1- اعتقادات ابن بابويه.

2- تصحيح الاعتقاد للمفيد.

3- ونهج المسترشدين لابن المطهر الحلي.

4- والاعتقاد للمجلسي.

---

[151] محمد عمراني، الأصولية الجعفرية.

ومن المعاصرين: عقائد الإمامية للمظفر وعقائد الإمامية الاثني عشرية للزنجاني.

كما نقدم للقارئ السني سردا بأسماء الأئمة وكناهم وألقابهم وسنة الميلاد والوفاة:

اسم الإمام	كنيته	لقبه	سنة ميلاده ووفاته
1- علي بن أبي طالب	أبو الحسن	المرتضى	23 قبل هـ - 40 بعد هـ
2- الحسن بن علي	أبو محمد	الزكي	2-50هـ
3- الحسين بن علي	أبو عبد الله	الشهيد	3-61هـ
4- علي بن الحسين	أبو محمد	زين العابدين	38-95هـ
5- محمد بن علي	أبو جعفر	الباقر	57-114هـ
6- جعفر بن محمد	ابو عبد الله	الصادق	83-148هـ
7- موسى بن جعفر	أبو إبراهيم	الكاظم	128-183هـ
8- علي بن موسى	أبو الحسن	الرضا	148-203هـ
9- محمد بن علي	أبو جعفر	الجواد	195-220هـ
10- علي بن محمد	أبو الحسن	الهادي	212-254هـ
11- الحسن بن علي	أبو محمد	العسكري	232-260هـ
12- محمد بن الحسن	أبو القاسم	المهدي	يزعمون أنه ولد سنة 255 أو 256هـ ويقولون بحياته إلى اليوم

أصول الدين عند الشيعة الإمامية

للدين الإسلامي عند الشيعة أصول أساسية خمسة على كل مسلم أن يعرفها ويعتقد بها دون تقليد وهي:

"أولاً: التوحيد: يتصور بعض الناس خطأ أنه عزَّ وجلَّ أوجد هذا العالم ثم تركه وشأنه، فإنَّ حركة الكون وفعالياته واستمرارها واستمرار الوجود إنَّما يتمُّ بقدرته ومشيئته، فلا شيء يمكن وجوده ودوامه بدون إذنه وإرادته، فالموجد والمبقي والحاكم هو الله عزَّ وجلَّ.

ثانياً: العدل: لما عرَفنا أن الله عزَّ وجلَّ هو خالق مطلق قدير عزيز كريم، يفضي على عباده وسائر مخلوقاته بالنِّعَم الوفيرة والألطاف الكثيرة، وله الوحدانية المطلقة، ولا إله سواه، فبذا تتحقق عدالته لسائر البشر، ولا حاجة له بالظلم –معاذ الله– وإنَّما يحتاج إلى الظلم الضعيف، والظلم هو حصيلة الجهل والضعف والمنافسة والخوف والحرمان والعجز، وتعالى الله سبحانه عن هذه علوّاً كبيراً فعرف حتما أن الله عادل في كل فعله.

ثالثاً: النبوَّة: إن الأنبياء والرسل –عليهم السلام– بشر تميَّزوا على سائر البشر بقدراتهم الذاتيَّة وصفاتهم الشخصيَّة النبيلة، من تربية طيِّبة صالحة، وأخلاق سامية، وسريرة حسنة، وانقياد للحقِّ والإنصاف والعدل، لذا نجد الأمانة والصدق وطيبة القلب وحبُّ الخير لكلِّ البشر هي من جملة صفاتهم الحميدة فأرسلهم الله ليعرفوا الناس بمراده.

رابعاً: الإمامة: لا بُدَّ للأمة الإسلامية من قائدٍ حكيم نزيه كُفء، يقوم مقام النبيِّ (صلى الله عليه وآله) بأزمَّة الأمور، كي لا يتصدَّع أو يتهدَّم ذلك الكيان العظيم، وتذهب جهود النبي (صلى الله عليه وآله) أدراج الرياح. والشيعة يعتقدون أنَّ رحمةَ الله الواسعة، وحكمتَه البالغة، ورأفتَه بعباده، أوجبت أن لا يبقى الناس تائهين مهمَلين بدون قائد حكيم معصوم عالم، ممَّا يضمن عدم انحرافه مُطلقاً في قولٍ ولا عمل ويستمر على النهج الرباني.

خامساً: المعاد: لقد صرَّحت جميع الأديان السماوية بحقيقة ثابتة، وهي أن الإنسان لا يفنى بعد الموت، بل ينتقل من هذا العالم إلى عالم آخر، حيث يُثاب أو يجازى على أعماله الحسنة أو السيِّئة." اهـ

هذه هي أصول الدين عند المذهب الشيعي الاثنى عشري، ونلحظ أنها كلها تشترك مع الأصول عند أهل السنة إلا في مسألة الإمامة، فليست عندنا في الأصول بل من الفروع. وإذا أردنا التدليل على أي أصول من أصول الإسلام فسنجد أدلته واضحة صريحة في القرآن الكريم لا تحتاج إلى إعمال عقل أو استنباط وحتى لو استغنيا عن السنة فيها فسنجد أن أدلة القرآن كثيرة وأكثر من واضحة، ولكن إذا نظرنا إلى هذا الأصل المخالف عند الشيعة الإمامية وبحثنا عنه في القرآن فلن نجد آية واحدة صريحة فيما يقولون. نعم سنجد الكثير من الآيات التي يستنبط منها ويستخرج منها الأدلة، ولكن أصول الدين لا تحتاج إلى استنباط بل ينبغي أن تكون صريحة الدلالة فيما ترمي إليه، ونظرا لأن الأدلة من القرآن على الإمامة غير صريحة فأكثر الشيعة من وضع الروايات في هذه المسألة، كما قاموا بالاستدلال على الإمامة بالأدلة العقلية! وكما قلنا فإن هذا دليل على ضعف أدلتهم من القرآن، إذ لو كان هناك نص واحد صريح في القرآن على ما يذهبون إليه لكفاهم عناء الاستدلال العقلي والإكثار من الاستدلال بالروايات. ونبدأ بعرض أدلتهم العقلية على مسألة الإمامة ثم نعرج على الأدلة النقلية لنر إذا ما كان هناك ما ينهض للاستدلال به في هذه المسألة:

الأدلة العقلية على الإمامة والرد عليها

أولاً: قالوا: إن اللطف واجب على الله تعالى، وتنصيب الإمام لطف فيجب على الله تعالى. والرد: إذا سلمنا أن اللطف واجب على الله تعالى، فما أدرانا أن تنصيب الإمام هو ألطف ما يقوم به الله تعالى، نحن نرى أنه من لطف الله بنا أن فرض لنا الشورى في كتابه الكريم.

ثانياً: إن الإمام يجب أن يكون حافظاً للشرع عالماً بجميع أحكام الله المودعة في كتابه لانقطاع الوحي بموت الرسول –صلى الله عليه وسلم– وقصور ما يفهم الناس من الكتاب والسنة عن جميع الأحكام. والرد: ما حدث هذا القصور إلا نتيجة لتحكيم العقول والروايات في كتاب الله تعالى واتباع منهج غير صحيح في التعامل مع القرآن وعدم الإيمان ببيانه.

ثالثاً: إن فعل الأصلح واجب على الله تعالى ووجود الإمام أصلح للعباد لا يتم انتظام أمر العباد في المعاش والمعاد والدين والدنيا إلا بنصب الإمام. والرد: يعتبر هذا الدليل تكرارا للأول والرد عليه مثل الرد على الأول، هذا مع ملاحظة الاختلاف في مسألة وجوب الأصلح على الله تعالى، فليس هذا من البدهيات التي يجب أن يسلم ويقر بها كل إنسان بدون فكر.

رابعاً: إن مرتبة الإمامة كالنبوة وكما لا يجوز للناس اختيار نبي فلا يجوز لهم اختيار إمام ولا تعيينه لأنهم قاصرون عن معرفة ما يصلح به حالهم. والرد: من قال إن مرتبة الإمامة كالنبوة، فشتان بين الاثنين، والواقع يكذب من يقول هذا، ثم ما الدليل على أن الناس قاصرين عن معرفة ما ينصلح به حالهم؟!! الواقع يكذب هذه الدعوى والتاريخ يكذبها!

خامساً: كان النبي –صلى الله عليه وسلم– إذا سافر عين على المدينة خليفة، فلا يجوز له أن يرحل عن الدنيا من غير أن يعين إماماً يرجع إليه الناس في جميع شئونهم الدينية والدنيوية. والرد: هذا جائز في كل الأعراف، فالحاكم يعين نائبا له يقوم بمهامه إذا سافر إلى أي مكان أو انشغل بطارئ، أما في حالة موته فالناس بعده –في الدول الشورية– هم من يختارون الحاكم وليس هو الذي يختار لهم. والنبي المعصوم عندما مات ما تنازع الناس في مكانة النبوة، لأنهم علموا بانقطاعها ولكنهم اختلفوا في تنصيب الحاكم.!

ومن ذلك ما يقوله الفقيه الأصولي محمد تقي المدرسي: "كما لا تكمل الرسالة بدون الرسول صلى الله عليه وآله، كذلك لا تتم الشريعة بدون إمام. ذلك لأن طبيعة البشر تهوي به إلى الأسفل ولا يكفيها وجود شريعة محفوظة في الأسفار، بل لابد من تجسيد تلك

الشريعة في إنسان يتمتع بتفوق تشريعي يعطيه صلاحية تطبيق الشريعة على الناس، إذ لابد لكل قانون من مطبق نافذ الكلمة وإلاّ عاد القانون حبراً على ورق. ولقد شاء الله تبارك وتعالى أن يسعد الإنسان في الحياة بدون أن يجبره على ذلك فيسلبه كرامته وحريته، وهكذا كان ينبغي عليه أن يوفر له كل وسائل السعادة حتى إذا شاء أخذ بها، فشرع له الشرائع وعبَّد له المناهج ثم بعث رسولاً يبين له وينذره ويبشره ويدعوه الى تطبيق ذلك ويشرف على تنفيذه، وكان عليه أن لا يترك الخلق فوضى دون منفذ للشريعة بعد الرسول صلى الله عليه وآله؛ بل كان ينبغي أن يعين لهم أئمة يتمتعون بما يتمتع به الرسول من صلاحيات، ويقومون بما يقوم به الرسول من مهمات. كل ذلك إتماماً للنعمة وتحقيقاً للحكمة وتوفيراً لوسائل السعادة، ولكن كما لم يشأ الله أن يُكره الناس على الهدى في عهد الرسل إبقاءً لهم على النعمة الكبرى الموهوبة لهم، وهي نعمة الحرية، فكذلك لم يشأ أن يجبرهم على إتباع الإمام جبراً. وهكذا أبقى على الإمام الأخير صاحب الزمان عجل الله فرجه إتماماً لحجته على خلقه وتوفيراً لمنتهى ما يمكنهم أن يبلغوه من سعادة الدنيا والآخرة."[152] اهـ

كما يقول أيضا: "إن الإنسان الذي يعتقد بـ (الوحي) الذي هو تجلٍ من تجليات قدرة الله تعالى ورحمته بالإنسان، لابد له أن يعتقد بالإمام الحجة عليه السلام، لأن الذي ربط الأرض بالسماء بفضل الوحي تأبى رحمته، ويأبى فضله العميم على الإنسان، ويأبى لطفه أن يترك البشرية دون رابط يربطها بالسماء بعد وفاة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد صلى الله عليه وآله. فالأرض ومنذ أن وُجد فيها الإنسان وحتى مبعث النبي الأعظم صلى الله عليه وآله لم تخلُ من حجّة إلهية، فكيف يترك الله جلّت أسماؤه، هذه الأرض من غير حجة، وهل كانت البشرية في السابق أقرب إليه تعالى لكي يبعث لها مائة وأربعة وعشرين ألف نبي عدا الأوصياء وثم يتركنا بعد وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله دون أن تكون له حجة عليها؟"اهـ

---

[152] محمد تقي المدرسي، الوجيز في أصول العقائد وأحكام التقليد والبلوغ.

وهو كلام انشائي جميل ولكن الواقع لا يؤيده ولا يسانده، كما أنه لا يراعي أفضلية الرسالة الخاتمة وعالميتها، ولا يعطي القرآن الكريم حقه ويتشابه في مبناه ومعناه مع دعاوي الأحمدية!

هذه هي أهم الأدلة العقلية على مبدأ الإمامة، وحتى لو تركناها بغير رد، فكما قلنا لا يجوز أن يدلل على أصول الدين بالأدلة العقلية لغياب النقلية، بل ينبغي أن يظهر الدليل النقلي جليا واضحا في مواضع كثر، وهذا ما ينقص دعواهم نقصا صارخا. وننتقل إلى الأدلة النقلية لنر بما يستدلون وهل هي صريحة في دعواهم أم أنها محملة بما لا تطيق.

الأدلة على النص على "علي" عند أهل السنة

عمدة أدلة الشيعة على مسألة الإمامة هو السنة فقط، فعلى أساسها يفهمون النص القرآني فهما معينا لا ينبع من النص ذاته!، وكما وضحنا من قبل أن السنة تابعة للقرآن وليست حاكمة عليه ولا مفسرة له، لأن القرآن لا يحتاج إلى تفسير، كما أسلفنا الذكر وأطلنا النفس في كتابنا السابق! ولديهم الكثير من الأدلة في رواياتهم! ولكنهم يستدلون على إمامة علي بأدلة موجودة في كتب أهل السنة، سواءا كتب التفسير أو كتب الأحاديث، ونبدأ بأدلتهم من الكتاب تبعا لتأويل السنة للآيات! ثم نأتي بعد ذلك على أدلتهم من السنة فقط.

عمدة أدلتهم من القرآن قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [سورة المائدة, ٥٥]، حيث يروون أن سبب نزول الآية هو أن الإمام علي رضي الله عنه أخرج خاتمه وهو يصلي، ففيه نزلت الآية. ونحن نطلب إلى القارئ أن يقرأ الآية ليرى بنفسه هل تدل الآية على ما يقولون؟ والرد على دليهم كالتالي: يقول السادة علماء الأصول: أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فعلى فرض صحة الرواية –وهي ضعيفة سندا مردودة متنا– فالعبرة

بلفظ الآية لا ما نزلت فيه. وعندما أنظر إلى تلك الرواية التي ألفها بعض المتعصبين إلى علي وتقّول بها على الله ورسوله أعجب من سطحية نظره إلى الآية، فالله تعالى يصف المؤمنين نعتين اثنين لا يمكن أن يحدث تقاطع بينهما، وهما: 1- يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. 2- هم راكعون. فأتى السيد مؤلف الرواية ففهم أن المؤمنين يؤتون الزكاة وهم راكعون فوضع هذه الرواية لسيدنا علي رضي الله عنه. ولست أدري لم عزل الصلاة ولم يجعله يصلي ويزكي وهو راكع! إن الركوع في اللغة يأتي يمعنى الإنحناء كما نفعل في الصلاة، ويأتي بمعنى الخضوع والنزول على أمر الأمر، وهذا هو حال المؤمنين فهم يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم خاضعون دوما -لوجود الصيغة الاسمية في الآية- نازلون على أوامر الله عزوجل. هذا بغض النظر عن أن الآية تصف حال المؤمنين، حال واحد منهم فقط!

كما يستدلون بآية الأحزاب المعروفة بآية التطهير، وهي قوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [سورة الأحزاب, ٣٣] حيث يقولون: إن أهل البيت هم علي وفاطمة والحسن والحسين بدلالة حديث الكساء! ما هو حديث الكساء؟ حديث الكساء ترويه أم المؤمنين عائشة!! ويخرجه الإمام مسلم، تروي السيدة عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم جاءه علي فأدخله في عباءته -في كساءه- ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء الحسن فأدخله ثم جاء الحسين فأدخله ثم جللهم أي غطاهم صلوات الله وسلامه عليه بالكساء ثم قال: (اللهم هؤلاء أهل بيتي اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا)، فقالوا هذا الحديث يفسر الآية وهو قول الله تبارك وتعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ٣٣﴾ [سورة الأحزاب, ٣٣]. ثم الاستدلال الآخر وهو أن إذهاب الرجس والتطهير أي العصمة! فيكونون بذلك معصومين فيكون علي رضي الله عنه معصوماً وكذا الحسن والحسن وفاطمة رضي الله عنهم، فإذا كان الأمر كذلك فهم أولى بالإمامة من غيرهم!.

والرد على هذا الاستدلال بسيط جدا، فأطلب من القارئ الكريم أن يفتح المصحف ويقرأ آيتين قبل هذه الآية وآية واحدة بعدها ليعلم بداهة أن أهل البيت المذكورين في الآية هم أزواج النبي المصطفى، وحتى نريح القارئ فسنثبتها له نحن هنا: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٠-٣٤].

وأعتقد أن الآيات أوضح رد على ما يقولون، فالسياق واضح جلي أن المراد من أهل البيت هم أزواج النبي المصطفي وليس علي وفاطمة وأولادها، ومن يتتبع مصطلح "أهل البيت" في القرآن يجد أنه ورد مرتين فقط، مرة مع النبي، وكما هو واضح من السياق فإن الحديث يدور عن أزواج النبي، ومرة مع سيدنا إبراهيم ويستعمل بنفس المعنى، كما جاء في قوله تعالى ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [سورة هود, ٧٣]، والخطاب كما هو معلوم هو لزوج النبي إبراهيم عليه السلام.

كما وردت بنفس الاستعمال عند الحديث على لسان إمراة العزيز ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة يوسف, ٢٥]، ومن المعلوم بداهة أن المراد من "أهله" هنا إمرأته. ونحن لا ننكر أن يكون لفظ "أهل" قد ورد في القرآن بالمعنى العادي لكلمة أهل، فقد ورد بهذا المعنى في أكثر من آية، منها على سبيل المثال ما جاء في سروة يوسف أيضا: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ

أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾] سورة يوسف, ٩٣[، ولكن السياق هو الذي يحدد من المراد في الآيات، ومن البين أن المراد من "أهل البيت" في الأحزاب هم نساء النبي.

ومع بعض التجاوز يمكننا أن نفهم أن أهل البيت هم الرجل وزوجه وعياله، أما أن نخرج الأزواج من الآية لنحشر عليا وأولاده في الآية، ونقول كما جاء في الرواية المكذوبة أن أم سلمة أرادت أن تدخل معهم، فلم يوافق النبي المصطفي وقال لها: أنت على خير! لأن هؤلاء هم أهل البيت فقط فهذا ما لا تطاوعنا فيه الآية بأي حال. أما بخصوص الأحاديث والتي هي واجبة الرد لمخالفتها القرآن فنقول لمن يريد أن يتأكد من ضعفها سندا أن يقرأ تضعيف الأستاذ محمد عمراني حبشي لهذه الأحاديث في موقعه الحوار المحضر، فلقد أطال فيه النفس، وليس هذا الكتاب هو المكان المناسب لهذه التخريجات الحديثية التي لا يفهم القارئ فيها شيئا!!

يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾] سورة الشعراء, ٢١٤.[حيث يرون في سبب نزولها الحديث المعروف بحديث الدار أو حديث الإنذار يوم الدار، مثلما أورد الشيخ الصدوق في "علل الشرائع": أنه لما نزل قول الله جل وعلا: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾] سورة الشعراء, ٢١٤[جمع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أقاربه كما روي عن علي الذي قال "لما نزلت وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ" ورهطك المخلصين دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بني عبد المطلب وهم إذ ذاك أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً فقال: "أيكم يكون أخي ووصيي ووارثي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي" فعرض عليهم ذلك رجلاً رجلاً كلهم يأبى ذلك حتى أتى عليّ فقلت أنا يا رسول الله فقال: "يا بني عبد المطلب هذا أخي ووارثي ووصيي ووزيري وخليفتي فيكم بعدي" قال: فقام القوم يضحك بعضهم إلى بعض ويقولون لأبي طالب: قد أمرك وتطيع لهذا الغلام " اهـ

والرواية –بغض النظر عن ضعفها– مناقضة للقرآن، فالله تعالى يطلب إلى النبي أن ينذر عشيرته الأقربين لا أن يخبرهم بخليفته بعده أو أن يخيّرهم من يتولى الأمور بعده. ثم إن

هذا الحديث مناقض للروايات التي تزعم أن هناك نص واختيار من الله عزوجل لعلي بن أبي طالب للولاية بعد النبي، فهذه الرواية توضح أن كل ما في الأمر أن علي وافق على عرض النبي، فليس في الأمر –على فرض صحته– وصية ونص، بل عرض وموافقة. وهذا ديدن المؤلفين المفترين يناقض بعضهم بعضا!!

كما يستدلون بحصر النبوة في نسل سيدنا إبراهيم ونبوة يشوع غلام موسى والذي صار نبيا بعده. وليس في هذه الأمور بداهة قياس، وحتى إذا أخذنا بالقياس فإنه سيكون قياسا مع الفارق كما يقولون، فنبوات الأنبياء كلهم قبل المصطفي كانت نبوات ممهدة مرحلية، أما نبوة المصطفي فكانت النبوة الخاتمة لكل البشرية، فلا يمكن أن نقيس هذا على ذلك في أصل من أصول الدين!، ثم إن هذه الأمور لا تؤخذ بالقياس بل لا بد من النص الصراح. كانت هذه أهم أدلتهم من الكتاب والتي يفهمونها بسب ورود بعض الروايات فهما موجها، ونتجه الآن إلى روايات السنة التي يستدلون بها، وعلى الرغم من أن السنة المستقلة لا تؤصل حكما إلا إذا كان من باب السنة أو المندوبات، أما الفروض ناهيك عن أصول الدين فلا يمكن أن تستقل بها، ولنر ما يستدلون به من السنة هل هو صحيح صريح أم غير ذلك؟

روى الإمام البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب فقال النبي صلى الله عليه وسلم "هلمَّ أكتب لكم كتاباً لا تضلون بعده"، فقال عمر: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله. فاختلف أهل البيت فاختصموا؛ فمنهم من يقول قرّبوا يكتب لكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر؛ فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله رسول الله صلى الله عليه وسلم "قوموا". قال عبيد الله فكان يقول ابن عباس: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم"، وليس في هذا الحديث ما يدل أن الرسول كان سيكتب لهم بوصاية علي ولو كان الأمر كذلك لفعل بعد ذلك، فالرسول لم يمت في هذا اليوم بل مات بعده بحوالي ثلاثة أيام، فلو

أراد أن يكتب ويوصي لفعل بعد ذلك! كذلك يستدلون بحديث الثقلين والذي رواه الإمام مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "وأنا تارك فيكم الثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله وأستمسكوا به، قال زيد: فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: "وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي"

وعلى فرض صحة الحديث بهذه الرواية فليس فيها أكثر من تذكير الناس ببيت النبي(ص)، وليس فيه ما يراه أي عاقل أنه يعلمهم بهذه الصيغة أن عليا سيصير وليا من بعده! فهذه الصيغة صيغة رجاء وطلب أكثر منها أمر أو توجيه إرشادي في مسألة ما! وإذا نحن أخذنا بعض الروايات الأخرى فسنجد أن الرسول ما ذكر إلا القرآن فلم يذكر السنة أو أهل البيت، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه في صحيح مسلم (وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده أبداً إن إعتصمتم به، كتاب الله)، وفي هذا الحديث أن السنة لا بد أن تكون مطابقة للقرآن تابعة له، أما أن تزيد عليه أو تنسخه فهو زخرف باطل فتأمل!

ومن الأدلة التي يستدلون بها كذلك ما يسمى بحديث الغدير.. أي غدير؟ غدير خم وهو غدير قريب من الجحفة بين مكة والمدينة، وكان هذا في حجة الوداع عند رجوع النبي صلى الله عليه وسلم من الحج قبيل وفاته بحوالي ثلاثة أشهر.

هذه الحادثة أخرجها الإمام مسلم في صحيحه من حديث زيد بن أرقم قال: [قام رسول الله فينا خطيباً بماء يُدعى خما بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذَكّر ثم قال: (أما بعد ألا يا أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله وأستمسكوا به) قال: فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال): وأهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي) قال حصين الراوي عن زيد ومن أهل بيته يا زيد أليس نساءه من أهل بيته قال: نعم ولكن أهل بيته من حُرم الصدقة

بعده. قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس. قال: كل هؤلاء حُرم الصدقة؟، قال: نعم.] أخرجه الإمام مسلم في صحيحه.

وجاءت زيادات لهذا الحديث عند أحمد والنسائي في الخصائص والترمذي وغيرهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في ذلك المكان: (من كنت مولاه فعلي مولاه) وجاءت كذلك زيادات أخرى منها (اللهم والي من ولاه وعاد من عاداه وأنصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار)، لذا فيمكننا أن نقسم هذا الحديث إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: ما جاء في حديث مسلم وهذا ليس فيه: "من كنت مولاه فعلي مولاه".

القسم الثاني: الزيادة خارج مسلم وهي كما قلنا عند الترمذي وأحمد والنسائي وغيرهم وهي التي فيها زيادة (من كنت مولاه فعلي مولاه).

القسم الثالث: زيادة أخرى عند الترمذي وأحمد وهي (اللهم والي من ولاه وعاد من عاداه).

القسم الرابع: وهي زيادة عند الطبراني وغيره (وأنصر من نصره وأخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار).

أما القسم الأول فهو في صحيح مسلم وهو مقبول ولا مطعن فيه. أما القسم الثاني وهو (من كنت مولاه فعلي مولاه) فهذا حديث صحيح عند الترمذي وأحمد، أما زيادة (اللهم والي من ولاه وعاد من عاداه) فهذه إختلف فيها أهل العلم، هناك من أهل العلم من صححها وهناك من ضعفها، حتى أن هناك من ضعف الزيادة الأولى وهي قوله (من كنت مولاه فعلي مولاه) مثل: إسحاق الحربي وبن تيمية وبن حزم وغيرهم. وبفرض صحة نص الحديث كاملا كما يدعون، هل هو صريح في هذه المسألة، لم لم يقل الرسول: إن علي خليفتي بعدي فاسمعوا له وأطيعوا، أو لم لم يأخذ الرسول البيعة لسيدنا علي ويحل هذا الإشكال؟! كما يستدلون يحديث الطير وهذا نص الحديث: "أهدي إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم أطيارا، فقسمها وترك طيرا، فقال: اللهم ائتني بأحب خلقك إليك يأكل معي هذا الطير، فجاء علي بن أبي طالب، فدخل يأكل معه من ذلك الطير". وعلى فرض صحة الحديث، -وهو ضعيف لا محالة- فهل في الحديث ما يدل على أنه نص إلهي على كون علي خليفة للنبي المصطفى؟ ليعذرني الإخوة الشيعة فيما أقول، ولكن كل استدلاتهم واستنباطتهم من روايات السنة مردودة عليهم، لأنه في مثل هذه الأمور لا يحتاج الأمر إلى كثير من العبقرية لكي يعرف الرسول الصحابة أن عليا منصوص عليه بالولاية بعده، فبدلا من أن يخطبهم في خم أو حتى في المدينة، كان عليه أن يقول للناس في حجة الوداع: إن عليا خليفتي بعدي عليكم، اللهم قد بلغت، اللهم فاشهد!

كلمة واحدة صريحة في موقف واحد تنهي هذا الإشكال، أما أن نستخرج ونستنبط من أقوال الرسول -على فرض صحتها- فهذا مذهب معوج لا يتأتى إلا لمن يعوزه الدليل، ولو بلغوا الثريا فلن يجدوه إلا في رواياتهم -التي ألفوها- وعلى أساسها بنوا مذهبهم الذي انعزلوا به عن عامة المسلمين. وكما رأينا فإنه لا يقوم دليل صريح واحد من الكتاب أو السنة -إلا سنتهم هم- على مسألة أصل الإمامة هذه من الأساس، بغض النظر عن تحديد علي بالإشارة أو بالنص، ناهيك عن النص على الأئمة الإحدى عشر الذين سيأتون بعده بالإسم وبالترتيب! هذا الرد تبعا للروايات الموجودة عند أهل السنة، إلا أن الناظر يجد أن كتب الشيعة تثبت بعض الروايات التي تنص على أن الرسول ما اختار أحدا قبل وفاته ولا نص على إثني عشر إماما، ومن ذلك: يروي الشريف المرتضى في نهج البلاغة أن العباس بن عبد المطلب خاطب أمير المؤمنين في مرض النبي(ص) أن يسأله عن القائم بالامر بعده، فإن كان لنا بينه وإن كان لغيرنا وصى بنا، وأن اميرالمؤمنين قال: دخلنا على رسول الله(ص) حين ثقل، فقلنا: يارسول الله.. استخلف علينا، فقال: لا، إني اخاف أن تتفرقوا عنه كما تفرقت بنو إسرائيل عن هارون، ولكن إن يعلم الله في قلوبكم خيرا اختار لكم". كما يروي الكليني في الكافي عن الامام جعفر بن محمد الصادق:أنه لما حضرت رسول الله(ص) الوفاة دعا العباس بن عبدالمطلب

وأمير المؤمنين فقال للعباس: ياعم محمد.. تأخذ تراث محمد وتقضى دينه وتنجز عداته؟.. فرد عليه فقال: يارسول الله بأبي انت وأمي إني شيخ كبير كثير العيال قليل المال من يطيقك وأنت تباري الريح. قال فأطرق هنيهة ثم قال: يا عباس أتأخذ تراث محمد وتنجز عداته وتقضي دينه؟.. فقال كرد كلامه.. قال: أما اني سأعطيها من يأخذها بحقها، ثم قال: ياعلي يا أخا محمد أتنجز عدات محمد وتقضي دينه وتقبض تراثه؟ فقال: نعم بأبي انت وامي ذاك علي ولي.. وهذه الرواية -على فرض صحتها- مثل رواية الإنذار، حيث تعرض الأمر على أنه عرض في آخر حياة النبي وقبول من الإمام علي وليس نصا إلهيا. وكذلك روى الإمام الصادق عن أبيه عن جده أنه لما استخلف أبو بكر جاء أبو سفيان إلى الإمام علي وقال له: أرضيتم يا بني عبد مناف أن يلي عليكم تيم؟ ابسط يدك أبايعك، فوالله لأملأها على أبى فصيل خيلا ورجلا، فانزوى عنه وقال: ويحك يا أبا سفيان هذه من دواهيك، وقد اجتمع الناس على أبى بكر. ما زلت تبغي للإسلام العوج في الجاهلية والإسلام، ووالله ما ضر الإسلام ذلك شيئا حتى ما زلت صاحب فتنة ".

النص على اثنى عشر إماما

تدعي الشيعة الإمامية أن النبي نص على اثنى عشر إماما من بعده وذكرهم بالإسم[153]، وهم الإئمة الاثني عشر الذين ذكرناهم في الجدول السابق، وبداهة ليس لهذه الدعوى أي أصل في القرآن، أما عندهم فكالعادة وضعوا فيها الروايات الطوال الكثر، وحتى يكون لرواياتهم وزن وحجة يستدلون على ما عندهم بما عند السنة من روايات. ولكن للأسف لم يوجد عند السنة مثل هذه الروايات صراحة فتعلقوا برواية من الإسرائيليات

[153] وكعادة المذهب لا بد من وجود رواية تناقض ما ذهبوا إليه، فوجدنا روايات تقول إن الأئمة ثلاثة عشر إماما! منها ما رواه الكليني في "أصول الكافي"، عن زرارة بن أعين قال: سمعت أبا جعفر (الباقر) يقول: الاثنى عشر إمام من آل محمد، كلهم محدث من ولد رسول الله، ومن ولد علي، فرسول الله وعلي هما الوالدان"!!

أدرجت في كتب أحاديث أهل السنة وهي رواية الاثنى عشر خليفة، وجاءت الرواية في البخاري ومسلم والترمذي وأحمد وأبي داود، واللفظ للبخاري: عن عبد الملك سمعت جابر بن سمرة قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وآله) يقول: "يكون اثنا عشر أميراً فقال كلمة لم أسمعها فقال أبي: انه يقول: "كلهم من قريش". فاستدلوا بهذه الرواية على مسألة الاثنى عشر إماما عندهم، على الرغم من أن الحديث لا يقول بما يقولون – بفرض صحته–، فهو يتكلم عن حكام من قريش، ولا يتكلم عن أئمة من أهل البيت لم يحكم منهم إلا علي والحسن فقط!!

قد يتعجب القارئ ويسأل: وما العلاقة بين هذا الحديث والإسرائيليات؟ فلا ظهور للإسرائيليات فيه! فنقول للقارئ: إن الإسرائيلية واضحة جدا في الحديث، ومتمثلة في الاثنى عشر السبطية اليهودية، فمن مشكاة الاثنى عشر الأسباط اليهودية خرجت الاثنى عشر الحوارية عند المسيحين والاثنى عشر الإمامية عند الشيعة والاثنى عشر القرشية عند السنة! فتأمل ولاحظ عزيزي القارئ خطورة الدس اليهودي!

ولأن هذه المسألة مسألة تاريخية فسيكون الرد عليها تاريخيا أيضا، وعلى الرغم من أنه لا مستند صريح من الكتاب أو من السنة –إلا سنتهم– فلا يستحق الأمر أكثر من أن نسقط المسألة من حسابنا، إلا أنه من باب زيادة إثبات عدم وجود هذه النصوص عند الشيعة نذكر بعض الحوادث التاريخية التي تكذب مثل هذا الإدعاء بوجود قائمة بأسماء الأئمة[154]: "عندما جاء المهاجرون والأنصار إلى علي وقالوا: امدد يدك نبايعك!، دفعهم، فعاودوه، ودفعهم ثم عاودوه، فقال: دعوني والتمسوا غيري واعلموا أني إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم،وإن تركتموني فأنا كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم وأنا لكم وزيرا خير لكم مني أميرا. ومشى إلى طلحة والزبير فعرضها عليهما، وقال: من شاء منكما بايعته، فقالا: لا الناس بك أرضى، وفي نهاية المطاف قال لهم: فإن أبيتم فإن بيعتي لا تكون سرا، ولا تكون إلا عن رضا المسلمين ولكن

(154) هذه الأمثلة منقول بتصرف مما أورده الأستاذ أحمد الكاتب في "نشرة الشورى" والصادرة في رمضان 1416 هـ.

اخرج إلى المسجد فمن شاء أن يبايعني فليبايعني.". فلو كان هناك نص عليه وعلى الأئمة ما كان له أن يدفعهم.

عندما خرج على الإمام علي طلحة والزبير احتج عليهما بالبيعة وقال لهما: "بايعتماني ثم نكثتما بيعتي", ولم يشر إلى موضوع النص عليه من رسول الله، وعندما احتج على معاوية قال له: "أما بعد.. فان بيعتي بالمدينة لزمتك وأنت بالشام لأنه بايعني القوم الذين بايعوا أبابكر وعمر وعثمان، فلم يكن للشاهد ان يختار ولا للغائب أن يرد. وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، إذا اجتمعوا على رجل فسموه إماما كان ذلك لله رضا". وذكر ابن ابي الحديد في (شرح نهج البلاغة) أنه لما توفي علي (ع) خرج عبدالله بن العباس بن عبد المطلب الى الناس فقال: إن أمير المؤمنين توفي، وقد ترك خلفا، فان أحببتم خرج إليكم، وإن كرهتم فلا أحد على أحد فبكى الناس وقالوا: بل يخرج إلينا. يروي الصدوق في عيون أخبار الرضا عن الإمام الرضا عن أبيه الكاظم عن أبيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن علي بن الحسين عن الحسين بن علي عن أبيه عن جده رسول الله(ص) والذي يقول فيه: من جاءكم يريد أن يفرق الجماعة ويغصب الأمة أمرها <u>ويتولى من غير مشورة</u> فاقتلوه، فان الله عزوجل قد اذن ذلك. وروي أيضا على لسان سعيد السمان وسليمان بن خالد: أن الإمام الصادق كان جالسا في ثقيفة له إذ استأذن عليه أناس من أهل الكوفة فأذن لهم فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا عبدالله إن أناسا يأتوننا يزعمون أن فيكم أهل البيت إمام مفترض الطاعة؟. فقال: لا، ما أعرف ذلك في أهل بيتي. قالوا: يا أبا عبدالله، إنهم أصحاب تشمير وأصحاب خلوة وأصحاب ورع. وهم يزعمون: أنك أنت هو؟.. فقال: هم أعلم وما قالوا. ما أمرتهم بهذا. ويروي الإمام الباقر حديثا عن رسول الله حول شروط الحاكم ولا يشير إلى مسألة النص فيقول: قال رسول الله: لا تصلح أمتي إلا لرجل فيه ثلاث خصال: ورع يحجزه عن معاصي الله، وحلم يملك به غضبه وحسن الولاية على من يلي حتى يكون لهم كالوالد الرحيم. فكل هذا يدل على مبدأ الشورى وليس على النص.

ومما يدل على سرية هذه النظرية الاثنى عشرية وأنها كانت تعد في الخفاء وتنتشر بعيدا عن أعين وآذان أئمة أهل البيت ما رواه الكليني في أصول الكافي: قال زيد بن علي لأبي جعفر: "يا أبا جعفر كنت أجلس مع أبي على الخوان فيلقمني البضعة السمينة، ويبرد لي اللقمة الحارة حتى تبرد، شفقة عليّ، ولم يشفق عليّ من حر النار، إذ أخبرك بالدين ولم يخبرني به؟ فأجابه شيطان الطاق: جعلت فداك، من شفقته عليك من حر النار لم يخبرك، خاف عليك أن لا تقبله فتدخل النار، وأخبرني أنا، فإن قبلت نجوت، وإن لم أقبل لم يبال أن أدخل النار..." فهذا دليل أكبر من واضح ولكن القوم يصدقون أقواما مثل شيطان الطاق هذا ويكذبون بأقوال أئمتهم وصحابة نبيهم، ويفسرونها كما يتفق مع أصول مذهبهم!

ويذكر الأستاذ محمد عمراني نماذجا على هذا الاختلاف النابع من عدم وجود نص يحدد الإمام: "لما حضرت الوفاة محمد بن الحنفية سنة 81 هـ، عهد إلى ابنه عبد الله، الملقب بأبي هاشم، بأمر الدعوة لآل البيت، التي كان ينضوي تحتها كل الهاشميين، وبدون استثناء، بما فيهم أبناء العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، عم النبي(ص). وهذا واقع تاريخي مسطور في كتب كل المؤرخين للمرحلة من أصحاب التواريخ والسير، على اختلاف مشاربهم العقدية. وخلا أبو هاشم، عبد الله بن محمد بن الحنفية من العقب، فأوصى لما حضرته الوفاة إلى علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب (ت: 125هـ) بأمر الدعوة لآل البيت. (...) ثم جاءت بعد ثورة يحيى بن زيد بثلاث سنوات، ثورة أخرى على ذات النهج، قام بها عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر الطيار، من ذرية أخ علي بن أبي طالب: جعفر الطيار، المتزوج من علية بنت علي زين العابدين، التي قادها من أصبهان سنة 128هـ وامتدت إلى العراقين: العربي والعجمي، ودعا إليها كل الطالبيين، إلا لتفشل بدورها. قلت: وهذا الخروج لهذا الفرع الخامل، غير المنتسب لعلي، وإنما لأخيه جعفر الطيار، وحصول مثل هذه السابقة تاريخياً، وحصوله على تأييد باقي الطالبيين، يثبت بما لا يدع مجالاً للشك، أن تنظير الزيدية بحصر الإمامة في ذرية الحسن والحسين وحدهما، أو حصر الإحدى عشرية لها

في ذرية الحسين وحده، تحكمات نظرية لاحقة، أقل ما يمكن أن يقال عنها، هي أنها تفتقر إلى الإجماع، حتى بين الأطراف الشيعية المعنية، بل، وضمن هذا الفرع الحصري الطالبي من ذرية أبي طالب!. وهو أساس وجيه في بطلان الدعوى العلوية من أساسها، مادام بعض المبرزين من أعضائها لم يؤمنوا بها... وعندما توفي إسماعيل بن جعفر الصادق في حياة والده، بعد أن كان قد تقرر من قبل بأنه هو الوصي! بالإمامة خلفاً لأبيه، على ما جرت به الأقدار في تكذيب مثل هذا التخريف المرة تلو المرة، استحدث هذا الحزب، للخروج من هذا المأزق التوقعي الخلفي الكاذب، القول بمفهوم: "البداء"، أي: ظهر لله في إسماعيل غير ما كان مقرراً في علم الله السابق!

ودخل هذا المفهوم الجديد القاموس التداولي لهذا الحزب وألفت في موضوعه المؤلفات بدوره وسيسجل التاريخ على لسان المتكلم الزيدي الشهير سليمان بن جرير، زعيم الفرقة الزيدية السليمانية، أحد أكبر المآخذ على هذه النزعة المغالية في الجدل السفسطائي، حين قال بعد أن خبر أساليبها ميدانياً: إن الرافضة قد وضعوا مقالتين لشيعتهم لا يظهر أحد قط عليهم!: إحداهما: القول ب "البداء"، فإذا أظهروا قولا أنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهور، ثم لا يكون الأمر على ما أخبروا قالوا: بدا لله تعالى في ذلك! وادعى بعض أشياع آل بيت الحسين إمامته، إلا أنهم اختلفوا بعد وفاته، فمنهم من خرج ب "الإمامة" عن ابنه محمد الباقر (ت: 114هـ)، إلا أن الأكثرين سيثبتونها له. وهؤلاء المثبتون، سيختلفون لاحقاً فيما بينهم. فمنهم من قال بعدم موته!، أي أنهم: (1) ادعوا "مهدويته"!، على غرار "مهدوية" ابن الحنفية! والأغلبية أثبتوا وفاته. والمثبتون ضمن هذه الأغلبية الحصرية، سيختلفون بدورهم. فمنهم من قال بأن "الإمامة" هي لأخيه زيد بن علي (ت: 122هـ)، ومنهم من جعلها لعبد الله (الكامل) بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب (ت: 145هـ)، زعيم الطالبيين في عصره، ومنهم من قال هي: لأبي منصور العجلي، والأكثرون قالوا بإمامة ابنه جعفر الصادق (ت: 148هـ). واختلف هؤلاء في الصادق بعد موته، فقالت "الناووسية": (2) إنه لم يمت، بل هو "المهدي" الذي غاب في "غيبة"! وسيرجع في "رجعة"!، كما

ستكرر الكثير من الفرق عند وفاة كل إمام، بما يمكن أن نصطلح على تسميته ب "التناذر المهدوي" الجعفري." اهـ[155]

كل هذا التخبط يثبت عدم وجود أي نص على الإمام وإلا لما رأينا شيئا من ذلك، ولما رأينا إلا تسليما من الصحابة منذ أول الأمر، ولكنها آفة التمسك بالموروث ومحاولة تبريره بأي شكل وأسلوب، ويعلق الأستاذ أحمد الكاتب على هذه المسألة قائلا: "وبالرغم من نفي المتكلمين الإمامية لإمامة بعض من ادعوا الإمامة كمحمد بن الحنفية وعبد الله الأفطح لعدم وجود نصوص صريحة عليهم بذلك، وقول الشيخ المفيد بعدم جواز إثبات الإمامة لمن لا نص عليه ولا دليل على إمامته، وذلك لأن العصمة لا تعرف إلا بالنص كما يقول الشيخ المفيد والطوسي، بالرغم من ذلك.. فإن مؤرخي الإمامية لم يستطيعوا إثبات أي نص حول إمامة الائمة الآخرين، وخاصة الإمام علي بن الحسين، الذي يشكل حلقة الوصل بين الإمام الحسين، وبين بقية الأئمة إلى يوم القيامة. ولذلك فقد ذهب منظروا فلسفة الإمامة الإلهية إلى الاعتماد على وسائل أخرى غير النص في إثبات الإمامة للأئمة الآخرين، وهي الوصية والعقل والمعاجز وما إلى ذلك. ومن هنا، ونظرا لضعف النصوص التي يرويها الإمامية حول النص بالخلافة على أهل البيت، فقد اعتمد المتكلمون الأوائل بالدرجة الأولى على العقل في تشييد نظريتهم. يقول الشيخ المفيد: فان قال قائل من أهل الخلاف: إن النصوص التي يروونها الإمامية موضوعة والأخبار بها آحاد، وإلا فليذكروا طرقها أو يدلوا على صحتها بما يزيل الشك فيها والارتياب.. قيل له: ليس يضير الإمامية في مذهبها الذي وصفناه عدم التواتر من أخبار النصوص على أئمتهم، ولا يمنع من الحجة لهم بها كونها أخبار آحاد، لما اقترن إليها من الدلائل العقلية فيما سميناه وشرحناه من وجوب الإمامة وصفات الأئمة، لأن الأدلة العقلية لو كانت باطلة على ما يتوهم الخصوم لبطل بذلك دلائل العقول الموجبة لورود النصوص على الأئمة بما بيناه (...) ونظراً لأن نظرية الإمامة كانت في بدء نشوئها ممتدة إلى يوم القيامة ولم تكن محددة في عدد معين من قبل، فقد كانت النظرية تقول

(155) محمد عمراني، الأصولية الجعفرية.

بأن النص قد حدث على الإمام علي فقط، وأن النص على الأئمة الآخرين يتم من قبل الأول للثاني وهكذا إلى يوم القيامة وكانت النظرية أيضا تعترف بعدم وجود النص الصريح من بعض الأئمة على بعض، فكانت تتشبث بالوصية العادية وتعتبرها دليلا على الإمامة، ولما لم تكن توجد أية وصية على بعض الأئمة كالإمام السجاد من آبائهم، أو كانت مشتركة بين عدد من إخوتهم، فقد كانت النظرية تقول بأن دليل الإمامة هو المعاجز وعلم الغيب، أو الكبر، أو العلم، أو حيازة سيف رسول الله[156]، بل إن روايات كثيرة تشير إلى عدم معرفة الأئمة أنفسهم بإمامتهم أو إمامة الإمام اللاحق من بعدهم إلا قرب وفاتهم، فضلا عن الشيعة الإمامية أنفسهم الذين كانوا يقعون في حيرة واختلاف بعد وفاة كل إمام، وكانوا يتوسلون لكل إمام أن يعين اللاحق بعده ويسميه بوضوح لكي لا يموتوا وهم لا يعرفون الإمام الجديد، وإنهم كثيرا ما كانوا يقعون في الحيرة والجهل وهناك أحاديث أخرى كثيرة يذكرها الحر العاملي والكليني والصفار تعالج مسألة التعرف على الإمام الجديد من خلال مواصفات عديدة ككبر السن أو طهارة المولد أو حسن

[156] مثل ما أورده ابن بابوبه في "الإمامة والتبصرة": "لما قتل الحسين بن علي، أرسل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين فخلا به، ثم قال: يا ابن أخي، قد علمت أن رسول الله(ص) كان جعل "الوصية!" و"الإمامة"! من بعده لعلي بن أبي طالب، ثم إلى الحسن!، ثم إلى الحسين! عليهما السلام، وقد قُتل أبوك ولم يُوص، وأنا عمُّك وصِنو أبيك ووِلادتي من علي، في سِنّي وقِدَمي، أحقُّ بها منك في حداثتك، فلا تنازعني الوصية والإمامة، ولا تخالفني. فقال له علي بن الحسين: يا عمُّ، اتق الله!، ولا تَدّعِ ما ليس لك بحق! إني أعظك أن تكون من الجاهلين!، يا عم، إن أبي أوصى! إليّ قبل أن يتوجّه إلى العراق!!، وعهد إليّ في ذلك، قبل أن يستشهد بساعة!!، وهذا سلاح رسول الله(ص) عندي!!، فلا تعرض لهذا، فإني أخاف عليك نقصَ العمر، وتَشَتُّت الحال. إن الله تعالى –لما صنع الحسن مع معاوية ما صنع، بدا لله!، فالآن أبى أن يجعل الوصية والإمامة إلا في عقب الحسين!، فإن أردت أن تعلم ذلك، فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك!!!.قال أبو جعفر (الباقر): وكان الكلام بينهما وهما – يومئذ بمكة!–، فانطلقا حتى أتيا الحجر، فقال علي بن الحسين لمحمد: إبدأ، فابتهل إلى الله وسله أن ينطق لك، ثم سله، فابتهل محمد في الدعاء، وسأل الله، ثم دعا الحجر، فلم يجبه!، فقال عليّ : أما أنك –يا عم– لو كنت وصياً! وإماماً! لأجابك!!!. فقال له محمد: فادع أنت، يا بن أخ، وسله. فدعا الله علي بن الحسين بما أراد، ثم قال: أسألك بالذي جعل فيك ميثاق العباد!، وميثاق الأنبياء والأوصياء!، لما أخبرتنا –بلسان عربي مبين!– مَنِ الوصِيُّ والإمامُ بعد الحسين بن علي فتحرك الحجر! حتى كاد أن يزول من موضعه!، ثم أنطقه الله بلسان عربي مبين، فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن علي، إلى علي بن الحسين! ابن فاطمة ابنة رسول الله(ص). فانصرف محمد بن علي بن الحنفية، وهو يتولى علي بن الحسين !!.

المنشأ أو عدم اللهو واللعب أو الوصية الظاهرة أو الفضل أو علم الغيب والهداءة والاطراق والسكينة." اهـ [157]

وهكذا، فبعد أن قالت الشيعة بالنص على الإمام علي بالإشارة والوصف دون التحديد، ثم بالنص بالاسم، ثم بالإمامة في ذريته في نسل الحسن والحسين ثم عمودية في نسل الحسين[158] وذلك في الأكبر فالأكبر، وعدم جواز انتقالها إلى أخ أو ابن أخ، أو عم أو ابن عم، واستندوا في ذلك على آية ﴿... وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ... ٧٥﴾ [سورة الأنفال, ٧٥]، وهنا تبرز إشكالية جديدة وهي كيف اجتمعت الإمامة في الحسن والحسين وهما أخوان؟ وكالعادة جاءت الإجابة من عند الأئمة! فروى الكليني والصدوق والمفيد والطوسي أحاديث عن الإمام الصادق تشير إلى قانون الوراثة العمودية وامتداد الإمامة إلى يوم القيامة، قال لا تجتمع الإمامة في أخوين بعد الحسن والحسين، إنما هي في الأعقاب وأعقاب الأعقاب، هكذا أبدا إلى يوم القيامة". وبسبب هذا التضييق التأصيلي أدى ذلك إلى وقوع أزمة كبرى بعد وفاة الإمام الحسن العسكري ولم يعقب! فكيف تجاوز الشيعة هذه الإشكالية؟ يجيب الأستاذ محمد عمراني على هذا السؤال قائلا: "وقد تمثلت الإشكالية الاستخلافية بعد الحسن العسكري في أربعة سيناريوهات رئيسية من بين أربعة عشر إخراج واقعي ممكن، كان لكل واحد منها اعتباره وأنصاره ودعاته وهي:

1– إما الوقوف على الإمام الذي قضى، وبالتالي القول بعدم موته! وبغيبته! وانتظار رجعته!، وهو النمط الأثير كمعراج أمثل للطيران مع كل طائر، منذ أن ادعيت

---

[157] أحمد الكاتب، تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه.

[158] لا يوجد تبرير منطقي لحصر الإمامة في نسل الحسين دون الحسن فكلاهما من نسل علي وفاطمة، فلما قابل منظري الشيعة هذه الإشكالية، قاموا بوضع الروايات على ألسنة أهل البيت والتي فيها تبرير هذا الحصر حتى يتم تجاوز الإشكالية، فرووا عن أبي عمرو الزبيري رواية يقول فيها انه سأل الإمام الصادق عن سر خروج الإمامة من ولد الحسن إلى ولد الحسين، كيف ذلك؟..وما الحجة فيه؟.. فقال له: لما حضر الحسين ما حضره من امر الله لم يجز ان يردها الى ولد أخيه، ولا يوصي بها فيهم، يقول الله أولوا الأرحام بعضهم اولى ببعض في كتاب الله. فكان ولده اقرب رحما من ولد أخيه، وكانوا اولى بالامامة، واخرجت هذه الاية ولد الحسن منها فصارت الامامة الى الحسين، وحكمت بها الاية لهم، فهي فيهم الى يوم القيامة.

"المهدوية" و"الرجعة" و"الغيبة" في محمد بن علي بن أبي طالب، الشهير بلقب ابن الحنفية (ت: 81 هـ) من طرف فرقة الكيسانية. وهو النمط الأسطوري الأول.

2- أو ادعاء انتقال الإمامة أفقياً إلى أحد إخوته الأحياء، ليس بالتمرير الأفقي الذي منع منه التنظير العمودي المتأخر، بكون الإمامة لا تصلح في أخوين بعد الحسن والحسين!، ولكن بالأصالة في الأخ، لظهور فساد إمامة الحسن العسكري لخلوه من العقب، وبالتالي وجب كشط اسمه من سجل الأئمة، والقول بإمامة أخيه جعفر بوصية أبيه مباشرة إليه!. وهو النمط الأسطوري الثاني.

3- أو الرجوع القهقرى إلى إمام سابق على المتوفي والقول بمهدويته حسب الإخراج الأول أعلاه، وهو ما ادعته فرقة في أخ الحسن العسكري، محمد (ت: 253 هـ) الذي كان قد توفي في حياة أبيه علي الهادي (ت: 254 هـ)، فأنكروا وفاة محمد هذا وقالوا بأن والده كان قد أشار إليه ونصبه إماماً ونصّ على اسمه، وهذا ما يتفق عليه الجميع، ولا يجوز أن يشير الإمام إلى غير إمام بالوصية وهو معصوم!...وإذن، فهو الإمام ولا أحد سواه، وهو لم يمت في الحقيقة! كما هو ظاهر، بل أخفاه والده خوفاً عليه (ما أخفي جعفر الصادق ابنه إسماعيل، حسب قول الإسماعيلية، التي ستنجح بمثل هذا التخريف في إقامة دولة العبيديين بالقيروان سنة 296 هـ، بعد أربعين سنة فقط من موت العسكري!)، وبالتالي فمحمد بن علي الهادي هو المهدي المنتظر لا محالة!. وقد عرفت هذه الفرقة بالفرقة المحمدية. وقالوا بأن إمامة الحسن العسكري كانت غلطاً فاحشاً، وأن ادعاءه الإمامة كان باطلاً وانتحالاً. إلا أن ما أفشل عليهم تخريجهم بدورهم، هو أن محمد بن علي الهادي، لم يعقب، كما عقب إسماعيل بن جعفر الصادق!، وبالتالي فهو لا يصلح للإمامة من هذه الجهة، وهو النمط الأسطوري الثالث.

4- أو تمريرها عمودياً إلى البكر من أبناء الإمام الراحل، على ما استقر عليه التنظير العمودي الجعفري المتأخر. وهو النمط الأسطوري الرابع.

وهكذا سيؤسطر المؤسطرون، وعلى غرار الفطحية الأولى كنمط، أن قد ولد للحسن العسكري ولد في السر! من جارية لم يتفقوا حتى على اسمها!، ثم قالوا بأنه قد غاب في سرداب وهو ابن خمس سنين،! وأنه المهدي!، وأن اسمه محمد!، بما لا جدة فيه ضمن تنظير الطائفة العقيم نمطاً وشكلاً ومضموناً وتخريفاً وأسطرةً وفحوى!." اهـ[159]

وهكذا أدى تنظيرهم الخرافي إلى الوصول إلى طريق مسدود، أجبرهم على اختراع إمام لم يولد ودخل سرداب وسيخرج منه فيصلح حال العالم بين ليلة وضحاها! ومرت الأيام والسنون والقرون وانتقل الحال من غيبة صغرى إلى غيبة كبرى، ولا يزال الشيعة ينتظرون المهدي –عجل الله فرجه!–، وسينتظرون طويلا ولن يأتي، والقرون بيننا!! وعلى الرغم من عدم وجود الدليل الصريح على إمامة كل إمام منهم بمفرده أو على إمامتهم مجتمعين، إلا أننا نجد موقفا متطرفا من منظري الشيعة تجاه منكري الأئمة والإمامة، فما هو حكم منكر الإمامة؟

حكم منكر إمام من الأئمة عند الشيعة

نظرا لأن باب الإمامة هو محور الخلاف الرئيس بين الإمامية وغيرها من الفرق الإسلامية، ونظرا لأنه –كما رأينا– لا يستند إلى أصل صريح في القرآن، مما يعني سهولة التنازع فيه ورده وتهوين أمره، رأينا الشيعة يحصنون هذا الاعتقاد بالأدلة العقلية! ثم قاموا بتحصينه –بالنسبة لأتباعهم– بالإرهاب الفكري، من خلال المبالغة في حكم منكر الإمامة، حيث غالوا كثيرا في حكم منكر مسألة لم يقم النص الصريح عليها[160]، فما هو حكم منكر إمامة من الأئمة أو منكر الأئمة كلها، أو منكر مسألة الإمامة من بابها عند الشيعة الإمامية: "قال ابن بابويه: "واعتقادنا فمن جحد إمامة أمير المؤمنين

[159] محمد عمراني، الأصولية الجعفرية.

[160] سنلاحظ أن الأحمدية قالت بحكم مماثل في من ينكر مهدوية ونبوة ميرزا غلام أحمد، على الرغم من عدم وجود النص الصريح فيه كذلك.

والأئمّة من بعده أنّه بمنزلة من جحد نبوّة الأنبياء"!. وجاء في: الاعتقادات في بحار الأنوار: "واعتقادنا فيمن أقر بأمير المؤمنين وأنكر واحدًا من بعده من الأئمة أنه بمنزلة من آمن بجميع الأنبياء ثم أنكر نبوة محمد صلى الله عليه وسلم". وقال شيخهم الطّوسي في تلخيص الشافي: "ودفع الإمامة كفر، كما أنّ دفع النّبوّة كفر، لأنّ الجهل بهما على حدّ واحد".

ويبدو أن الشيعة رأت أن حكم التكفير هذا –الذي صدر بالفعل من منظري المذهب ووضع على لسان أئمتهم كذلك– حكم مبالغ فيه، كما أنه سيؤدي إلى عزلة الشيعة الإمامية عن باقي المسلمين وإلى أن يعاملونهم بالمثل من التكفير واستحلال الدماء، فقاموا يبررون حكم التكفير الذي وجد في كتبهم[161]، ومن ذلك ما ذكره الشيخ مرتضى الباشا في الرد على دعوى! أن الإمامية يكفرون منكر الإمامة أو أحد الأئمة: "الشيعة تقسم المخالفين إلى قسمين: القسم الأول: الذي عرف أن الحق مع الشيعة ولكن متعصب معاند، فهذا حكمه لا شك في دخوله النار لأنه خالف الحق بعد قيام الحجة عليه. القسم الثاني: المستضعف، وهو الذي لم تتم الحجة عليه، فهو لم يسمع صوت الحق ولم يمكنه أن يبحث في المصادر ليعرف الحق. و هذا مرجى لرحمة الله تعالى فإنها واسعة. إذا عرفت ذلك فافهمه واحفظه جيداً حتى لا يغرر بك المدلسون.[162]" اهـ

وما الحكم إذا في غير المعاند وغير المستضعف والذي لم يقتنع بأدلة الشيعة، لعدم وجود الدليل من القرآن ابتداءً، ولأن روايات الشيعة في هذا الشأن لا تقبل؟! المشكلة أنهم مهما برروا فهم مقتنعون أن أدلتهم التي يستدلون بها في مسألة الإمامة كافية للقول بتكفير المخالف لو اطلع عليها ولم يؤمن بها! فنجد أن المجلسي يقول: "وأما غير

[161] من الملاحظ أن الحكم بتكفير المخالف كان موجودا في كل الفرق، سنية كانت أو شيعية أو إباضية، ومن الملاحظ أن كل الفرق تقبل تأويل أقوال أئمتها بأن قولهم بكفر المخالف هو من باب كفر دون كفر! أو كفر غير مخرج من الملة! أو كفر نعمة! أما أقوال أئمة الفرق الأخرى فالمقصود منها حتما الكفر المخرج من الملة! فالإباضي يقصد تكفيرنا حتما! والشيعي كذلك! فإما أن يقبل أتباع كل الفرق تأويل أقوال كل الأئمة بهذه المعاني المذكورة وبذلك تكون كل الفرق سواء في عدم تكفير المخالف، أو يعترفون بأنهم كانوا يعنون تكفير المخالف فعلا، وبذلك تتساوى الفرق مرة أخرى في استحلال دم المخالف!

[162] ذكر ذلك في موقعه الشخصي على الإنترنت: https://www.albasha.org

الشيعة الإمامية من المخالفين وسائر فرق الشيعة ممن لم ينكر شيئا من ضروريات دين الإسلام فهم فرقتان: إحداهما المتعصبون المعاندون منهم ممن قد تمت عليهم الحجة فهم في النار خالدون. والأخرى: المستضعفون منهم وهم الضعفاء العقول مثل النساء العاجزات والبله وأمثالهم ومن لم يتم عليه الحجة ممن يموت في زمان الفترة (!!)، أو كان في موضع لم يأت إليه خبر الحجة فهم المرجون لا الله، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فيرجى لهم النجاة من النار (...) ثم قال [العلامة]: المحارب لعلي عليه السلام كافر لقول النبي صلى الله عليه وآله: "حربك يا علي حربي" ولا شك[163] في كفر من حارب النبي صلى الله عليه وآله وأما مخالفوه في الإمامة فقد اختلف قول علمائنا فيهم، فمنهم من حكم بكفرهم لأنهم دفعوا ما علم ثبوته من ضرورة وهو النص الجلي الدال على إمامته مع تواتره، وذهب آخرون إلى أنهم فسقة وهو الأقوى ثم اختلف هؤلاء على أقوال ثلاثة: أحدها أنهم مخلدون في النار لعدم استحقاقهم الجنة، الثاني قال بعضهم: إنهم يخرجون من النار إلى الجنة، الثالث ما ارتضاه ابن نوبخت وجماعة من علمائنا أنهم يخرجون من النار لعدم الكفر الموجب للخلود، ولا يدخلون الجنة لعدم الايمان المقتضي لاستحقاق الثواب[164]"اهـ.

كذلك قال الشيخ المفيد في كتاب المسائل: "اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحد من الائمة وجحد ما أوجبه الله تعالى له من فرض الطاعة فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار. وقال في موضع آخر: اتفقت الإمامية على أن أصحاب البدع كلهم كفار وأن على الإمام أن يستتيبهم عند التمكن بعد الدعوة لهم وإقامة البينات عليهم[165]، فإن تابوا من بدعهم وصاروا إلى الصواب وإلا قتلهم لردتهم عن الإيمان، وأن

[163] ولا شك أن هذا خبر آحاد لا أصل له في القرآن، فلا يستخرج منه حل أو حرمة، فما بالنا بمن يكفر طوائف المسلمين استنادا على هذا الخبر المظنون؟!!

[164] محمد باقر المجلسي, بحار الأنوار.

[165] إن القول بقتل المرتد في الإسلام كما قلنا لم يقم عليه دليل من القرآن، بل القرآن ناف لهذا الحكم في آيات كثر، وعلى الرغم من ذلك فالحكم مقبول عند أهل السنة والشيعة! واستغلته كل فرقة كالمقصلة ضد خصومها، ولربما ما نراه في العراق الآن من تقتيل لأهل السنة وإستباحة لدمائهم من الشيعة هو استنادا إلى أمثال ما قاله الشيخ المفيد، من أن الإمام يستتيبهم فإن لم يتوبوا يقتلهم لردتهم عن الإيمان! ولقد شوه هذا الحكم صورة الإسلام والمسلمين كثيرا.

من مات منهم على ذلك فهو من أهل النار. (...) واعلم أن جمعا من علماء الامامية حكموا بكفر أهل الخلاف، والأكثر على الحكم بإسلامهم، فإن أرادوا بذلك كونهم كافرين في نفس الأمر لا في الظاهر فالظاهر أن النزاع لفظي، إذ القائلون بإسلامهم يريدون ما ذكرناه من الحكم بصحة جريان أكثر أحكام المسلمين عليهم في الظاهر لا أنهم مسلمون في نفس الأمر، ولذا نقلوا الإجماع على دخولهم النار، وإن أرادوا بذلك كونهم كافرين ظاهرا وباطنا فهو ممنوع ولا دليل عليه بل الدليل قائم على إسلامهم ظاهرا لقوله صلى الله عليه وآله: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله"اهـ

ومن هذه النصوص ومن كثير من أشباهها استخرجنا أن الشيعة يقولون بكفرنا ويرون ذلك، ولكن بعض المتأخرين رجح عندهم كما قلنا بشاعة هذا القول وعدم استناده إلى مستند صريح فقاموا بتأويل أقوال السابقين حتى يخرجوها من ربقة التكفير، وهذا مسلك حميد في حد ذاته، وفي هذا يقولون[166]:

"الكفر في اللغة: ستر الشيء وتغطيته، ومنه سمي الليل كافرا؛ لأنه يغطي كل شيء بسواده. والكفر قد استعمل في القران في معانٍ عديدة منها:

أولاً: في مقابل الشكر قال تعالى: ﴿... هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾ [سورة النمل ,٤٠]. وهو ما يعبر عنه بكفر النعم.

ثانياً: في مقابل الإيمان، قال الله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ۝٢٩﴾ [سورة الكهف ,٢٩]، وهو ما يعبر عنه بكفر الجحود، وهذا الجحود تارة يكون بلا معرفة فيجحد ربوبية الرب وتارة يكون مقارناً مع المعرفة، فالأول مثل قول القائل: لا رب و لا جنّة ولا نار. والثاني من قبيل المعنى في قوله تعالى: ﴿...

[166] يمكن للقارئ الكريم أن يأخذ تبرير الشيعة لأقوال أئمتهم بكفر المخالف ويضعه لكل فرقة يروى عنها أن أئمتهم قالوا بكفر المخالف، فلن يختلف الأمر كثيرا حتى يحتاج إلى تكرار.

وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾] سورة البقرة , ٨٩[فقد استعمل القران كلمة كفر وأراد بها من أنكر وجحد ما كان به على معرفة وعلم، فهو جحود بعد استقرار في النفس ويقين.

ثالثاً: في مقابل الولاية، وهو ما يعبر عنه بكفر البراءة و ذلك قوله عزّ وجلّ يحكي قول إبراهيم ﴿... كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ... ﴿٤﴾] سورة الممتحنة , ٤[فمعنى الكفر هنا: أننا تبرأنا منكم. (...)

رابعاً: في مقابل الطاعة، وهو ما يعبر عنه بكفر ترك الأمر الإلهي وهو قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾] سورة البقرة , ٨٤-٨٥[

فنلاحظ أن الكفر له أكثر من معنى ولا ينحصر معناه في المعنى المتعارف والذي ينصرف إليه اللفظ وهو الكفر الذي يقابل الإسلام. ونلاحظ أيضاً أن المعنى الرابع من المعاني للكفر هو المعنى الذي قالت به الشيعة في حق المخالف للإمامة، فان ترك طاعة الأمر الإلهي يعد كفراً ويستحق فاعله النار حاله حال كثير من المعاصي التي توجب دخول النار وقد استعمل في الآية المباركة لهجة شديدة في تصوير العقاب لمن فعل ذلك فيرد إلى أشد العذاب يوم القيامة. وهذا المعنى من الكفر للمتتبع في الروايات يجده قد استعمل كثيراً فيمن ترك أمر الله تعالى أو أتى بما نهى عنه، من قبيل ما روي عن النبي في صحيح البخاري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر" أو في مسالة ترك الصلاة مثلاً، فقد روي بسند صحيح: "أن بين العبد والكفر ترك الصلاة"، فقد رواه مسلم والترمذي والنسائي وغيرهم، وروى الترمذي من

طريق شقيق بن عبد الله العقيلي–المتفق على جلالته– قال كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرون من الأعمال شيئا تركه كفر إلا الصلاة (...) ومن هنا نقول: إن مسألة الإمامة من المسائل التي نعتقد بكونها لا تقلّ أهمية عن الإيمان بالصلاة، فكما أن الصلاة تعدّ من شعب الإيمان وشرائطه كذلك نعتقد أن الاعتقاد بالإمامة من شرائط الإيمان ومن ثمراته. بل تعتقد الشيعة أن مسالة الإمامة أهم من مسالة الصلاة في سلم الأهميات (!!)؛ لكونها تمثل الوظيفة التي تحفظ بها كل الأوامر الإلهية الربانية.

فالشيعة تعتقد إن أمر الله تعالى بالإمامة واضح من خلال النص القرآني ومن خلال الروايات، وأدلتها موكولة إلى محلها... فمن يخالف ذلك الأمر الإلهي فهو كافر مستحق ما للكفار من عذاب شديد يوم القيامة؛ لكونه قد استنكف واستكبر ولم يخضع لأمر النبي صلوات الله عليه بالإمامة، ورفضُ الخضوع للنبي هو رفضُ الخضوع لله تعالى، ورفض الخضوع لله كفرٌ كما صرح به القرآن الكريم: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ۝٧٢ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ۝٧٣ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٧٤﴾ [سورة ص , ٧١-٧٤]. وليس بدعاً من القول ادعاء حال مخالف الإمامة كحال تارك الصلاة بأنه كافر وأنه يحشر مع قارون وهامان فيكون مستحقاً للخلود في النار كما في الاعتقاد القادري[167]."اهـ

هكذا إذا يبررون أقوال علمائهم بكفر المخالف وهو كما قلنا مسلك حسن يسعى لتخفيف حدة التوتر بين المسلمين ونزع لفتيل القتال بين المسلمين. ولكن هل يقبل شيوخ الزوايا والمساجد هذه التبريرات ويأخذون بها، أم أنهم يرون أنها من باب التقية؟! أم أنها من باب التفريط في الدين والتنازل من علماء السلطة؟!، كما نسمع من شيوخ

(167) السيد محمد حسيني القزويني, نقد كتاب أصول مذهب الشيعة لمؤلفه الدكتور السلفي: ناصر بن عبد الله القفاري. (منقول بتصرف مع تقديم وتأخير).

وعامة أهل السنة عندما يسمعون رأيا لعالم كبير مخالف لما استقر عليه العرف وجرت عليه العادة، فيكون الرمي بتبعية السلطة ولا تغير هذه الفتوى من واقع الحكم شيئا على أرض الواقع، ويظل التعامل جاريا على الحكم القديم، فهل غيرت هذه التبريرات شيئا على أرض الواقع الشيعي؟!!

الأئمة عند الشيعة الإمامية

إن القارئ لكتاب الله يجد أنه يرنو من خلال محكم آياته إلى تقليل الغلو في تقديس البشر والصالحين، ومعاملتهم على أساس بشريتهم وأنه ما من بشر يستحق التقديس –حتى الرسل–، وإنما القداسة لله عزوجل وحده، فليست لنبي أو ملك مقرب. ولكن منذ متى كانت المذاهب الإخبارية مثل الشيعة –أو حتى أهل السنة– تلتفت إلى أمثال هذه الغايات القرآنية أو الاستنباطات العامة؟!، فالعبرة دوما بالسنة الواردة في هذا الشأن والتي يجب علينا تجاهها أن نلغي عقولنا وتدبرنا للقرآن ونتبعها قائلين: سمعنا وأطعنا!

ومن أبرز ما خالفت فيه الشيعة الإمامية تقديسهم للأئمة بطريقة يشعر معها المرء لا محالة أن تقديسهم للرسول نابع من قربه من الأئمة لا العكس، ونظرا لسيطرة التوجه الإخباري الاختلاقي في المذهب وجدنا روايات تقديس في حق الأئمة يشيب لهولها الولدان، مع وجود بعض الروايات التي تنفي عنهم هذا التقديس المبالغ فيه، فكيف يرى الشيعة أئمتهم إذا؟ نظرا لأنه لا توجد رواية في المذهب الشيعي إلا وهناك ما يناقضها –هذا باعتراف أئمتهم– فسنجد التوجهات المختلفة في نظرهم إلى الأئمة فسنجد أن بعضهم يرى أن الأئمة يوحى إليهم ويلهمون ويأتيهم الملك ولهم القول الفصل في تحديد الأحكام الشرعية[168]!، كما جاء في بحار الأنوار عن جعفر الصادق أنه قال: "إن

[168] قريبا من مثل هذا الغلو رأيناه عندنا في أهل السنة، فالفقهاء مختلفون في حجية قول الصحابي! هل هو حجة أم لا؟!! كذلك هم يقدمون الخليفتين أبا بكر وعمر رضوان الله عليهما ويعتبران أفعالهما من ضمن السنة "عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي"، ويعتبرونهما أفضل الناس بعد النبي(ص) وأن هذا من السنة!!

منا لمن ينكت في أذنه، وإن منا لمن يؤتى في منامه، وإن منا لمن يسمع صوت السلسلة تقع على الطشت (كذا)، وإن منا لمن يأتيه صورة أعظم من جبرائيل وميكائيل"

وهناك من يرى أن هذه النسبة غير صحيحة إلى الشيعة، لأن أحاديث الشيعة متظافرة عن أئمتهم في أن كل ما يقولونه إنما هو بروايتهم عن رسول الله(ص) مثل قول الباقر: يا جابر إنا لو كنت حدثتكم برأينا وهوانا لكنا من الهالكين، ولكنا نحدثكم بأحاديث نكنزها عن رسول الله(ص) كما يكنز هؤلاء ذهبهم وفضتهم، وفي رواية محمد بن شريح عن الصادق: "والله ما نقول بأهوائنا ولا نقول برأينا ولا نقول الا ما قال ربنا." وروايات الشيعة في هذا المعنى كثيرة جدا ونسبة خلافها إلى أئمة أهل البيت كذب وافتراء. وبنفس ما استدل به أهل السنة على وجود وجي تشريعي في السنة غير ما في القرآن استدل الشيعة على دعواهم في الأئمة فيقول محمد جواد مغنية: "قول المعصوم وأمره تماماً كالتنزيل من الله العزيز العليم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [سورة النجم ,٣-٤]، ويقول الإمام الخميني في (الحكومة الإسلامية): "إن تعاليم الأئمة كتعاليم القرآن يجب تنفيذها واتباعها".

هناك من يرى أن الأئمة مؤيدون بروح القدس وبذلك يعلمون الغيب،وبواسطة روح مصاحبة تنتقل إلى الأئمة بعد موت الأنبياء "فإذا قبض النبي –صلى الله عليه وآله– انتقل روح القدس إلى الإمام"، "وبروح القدس"عرفوا ما تحت العرش إلى ما تحت الثرى"، وبروح القدس يستطيع أن يرى الإمام "ما غاب عنه في أقطار الأرض وما في عنان السماء"، "وقد أفرد أبو جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت: 328هـ)، الذي تطلق عليه الجعفرية لقب "ثقة الإسلام"، مع أنه من الأخبارية العتاة، المؤمنين الجازمين بتحريف القرآن!، في كتابه: "الأصول من الكافي"، بتحقيق علي أكبر غفاري، ط. رابعة 1392 هـ/1972م، منشورات المكتبة الإسلامية، أبواباً لهذه المسألة. وهكذا نجد في "الكافي" (1: 227): "باب أن الأئمة يعرفون جميع الكتب على اختلاف ألسنتها!"، وفي "الكافي" (2: 5): "باب أن الأئمة يعلمون جميع العلوم التي يعلمها الملائكة والأنبياء والرسل"، وفي "الكافي" (2: 8): "باب أن الأئمة يعلمون متى يموتون! وأنهم

لا يموتون إلا باختيارهم!"، وفي "الكافي" (2: 10): "باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون!، وأنه لا يخفي عليهم شيء"،..إلخ. بل غلوا في الأئمة وقالوا على ألسنتهم الكفر البواح، مما نعلم من سيرتهم استحالة صدور مثله عنهم، مثل ما جاء في "أصول الكافي" (1: 197) على لسان عليّ بن أبي طالب برأه الله من إفكهم: {أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب الحصاد الميسم، ولقد أقرت لي جميع الملائكة! والروح! بمثل ما أقرت لمحمد(ص).}، وغيرها من الدواهي، مثل ما جاء في "الكافي" (2: 128) من: "أن الإمام لا يخفي عليه كلام أحد من الناس ولا طير ولا بهيمة ولا شيء فيه روح!!"، و"أن حديثهم لا يحتمله ملك مقرب ولا نبي مرسل!!" كما في "الكافي" (2: 343)،.. إلخ "[169]

ولكنا نجد أيضا في رواياتهم رواية تسند إلى أبي عبدالله أن جارية اختبأت في المنزل فلم يدر أين هي!! وهذا يدل على مدى الاختلاف الكثير في المذهب وأنه من عند غير الله.

كذلك قالت الشيعة الإمامية بعصمة الأئمة، واستدلوا على ذلك بالأدلة العقلية والتي هي مبنية أساسا على وجوب الإمامة وعلى الأصول التي أصلوها هم سابقا، واستدلوا بأدلة من القرآن ومن سنتهم. أما سنتهم فلن نناقشها أساسا لأنهم يرون أنها لا بد من أن تكون موافقة للقرآن حتى تنهض للمحاجة، فما هي أدلتهم من القرآن؟

العجيب في استدلالهم بالقرآن العظيم في مسألة الإمامة أنه استدلال مبني على القياس ولولا القياس لما قام دليل واحد من أدلتهم، والعجيب أن يأتي هذا الاستدلال من الشيعة الإخبارية والذين كانوا يشنعون على من يأخذ بالقياس ويعمل به! وأدلتهم من القرآن من أمثال ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قال إنى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾] سورة البقرة, ١٢٤[، كما يستدلون بآية التطهير السابقة الذكر في الأحزاب وأن إذهاب الرجس ملازم للقول بالعصمة، ويستدلون

---

[169] محمد عمراني، الأصولية الجعفرية.

بقوله تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ٥٩﴾ [سورة النساء, ٥٩]. وكما يرى القارئ العزيز اللبيب فإنه لا يوجد دليل صريح فيما يقولون به، بل كلها استنتاجات مبنية على رأي مسبق يبحث عن دليل في القرآن، وهذا مخالف لأدلة العقيدة الصريحة المبثوثة في القرآن بثا!

وهناك من يرى أن الأئمة أفضل من الأنبياء!، ويذكر الدكتور ناصر القفاري بعض نماذج على هذه النقطة قائلا: "وفي بحار الأنوار للمجلسي عقد بابًا بعنوان" باب تفضيلهم عليهم السّلام على الأنبياء وعلى جميع الخلق وأخذ ميثاقهم عنهم وعن الملائكة وعن سائر الخلق، وأنّ أولي العزم إنّما صاروا أولي العزم بحبّهم صلوات الله عليهم". وقد ألّف بعض شيوخهم في هذا المذهب مؤلّفات [مثل كتاب تفضيل الأئمّة على الأنبياء، وكتاب تفضيل علي عليه السّلام على أولي العزم من الرّسل (كلاهما لشيخهم هاشم البحراني، المتوفي سنة 1107)، وتفضيل الأئمّة على غير جدّهم من الأنبياء لشيخهم محمّد كاظم الهزار، وتفضيل أمير المؤمنين علي على من عدا خاتم النّبيّين/ لمحمّد باقر المجلسي"[170]

بل ومنهم من فضل عليا على النبي(ص) ومن ذلك ما جاء في بحارالأنوار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت ثلاثًا وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي ثلاثًا ولم أشاركه فيها، فقيل يا رسول الله: وما هي الثلاث التي شاركك فيها علي عليه السلام؟ قال: لي لواء الحمد وعلي حامله، والكوثر لي وعلي ساقيه، ولي الجنة والنار وعلي قسيمهما (!!)، وأما الثلاث التي أعطيها علي ولم أشاركه فيها فإنه أعطي ابن عم مثلي ولم أعط مثله، وأعطي زوجته فاطمة ولم أعط مثلها، وأعطي ولديه الحسن والحسين ولم أعط مثلهما."

---

[170] ناصر بن عبدالله بن علي القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية.

وهناك من يغالي في مقام الأئمة يوم القيامة، حتى أنهم سيكونون في منزلة أعلى من رسول الله(ص)[171]، ولا عجب في ذلك فلديهم الروايات الصادقة من الأئمة المعصومين! فالآخرة عندهم والصراط والميزان والجنة والنار للأئمة، مثل ما جاء في أصول الكافي "الآخرة للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء جائز له ذلك من الله"، وما جاء في رجال الكشي عن أبي عبدالله: "إلينا الصّراط وإلينا الميزان وإلينا حساب شيعتنا"– وهذا كذب صراح فهي لله فقط، وهذه الرواية تقّول على الله بغير علم تدخل في وعيد "وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون".

وهناك الكثير من الخرافات في روايات الشيعة عن الأئمة –وأرجوا أن يقارنها القارئ بما عند الصوفية!– مثل أن الأئمة تذهب إلى عرش الرحمن كل جمعة لتطوف به فتأخذ من العلم ما تشاء.

وجاءت كثير من الروايات التي توضح أن الله عزوجل ناجى عليا! كما أن الإمام إذا أراد أن يعلم علم! ومن ذلك ما جاء في أصول الكافي، حيث عنون المؤلف باب تحت اسم: "باب أن الأئمة عليهم السلام إذا شاؤوا أن يعلموا علموا". فما أروع هذا الإمام الذي يأتيه الوحي متى شاء. وليس مثل الرسول الذي كان ينتظر جبريل ويشق عليه تأخر، فياليته نال هذه المرتبة العظيمة!

وبسبب هذه المرتبة العظيمة جعلوا نصوص القرآن عن الإيمان بالله وعبادته وحده في الأئمة، فجاء في الكافي للكليني عند تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [سورة الزمر ,٦٤-٦٦]. "يعني إن أشركت في الولاية غيره". وقد جاء في سبب نزولها عندهم كما في البرهان: "... إن الله عز وجل حين أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليًا

[171] من العجيب أن الله عز وجل عندما تكلم عن موقف النبي(ص) يوم القيامة، لم يذكر إلا ﴿... عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الإسراء ,٧٩]، أما الروايات عند الشيعة فتجعل له الجنة والنار، وكل ما للرسول أو أكثر فهو للأئمة!

للناس علمًا اندس إليه معاذ بن جبل فقال: أشرك في ولايته الأول والثاني (يعنون أبا بكر وعمر) حتى يسكن الناس إلى قولك ويصدقوك، فلما أنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ... ٦٧﴾ [سورة المائدة, ٦٧] شكا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبرائيل فقال: إن الناس يكذبوني ولا يقبلون مني، فأنزل الله عز وجل: ﴿... لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [سورة الزمر, ٦٥] كما أن الولاية هي أصل قبول الأعمال، كما جاء في بحار الأنوار أن جبرائيل نزل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، السلام يقرئك السلام ويقول: "خلقت السماوات السبع وما فيهن، والأرضين السبع وما عليهن، وما خلقت موضعًا أعظم من الركن والمقام، ولو أن عبدًا دعاني هناك منذ خلقت السّماوات والأرضين ثم لقيني جاحدًا لولاية علي لأكبته في سقر"، كما أنه لا يقبل دعاء إلا بواسطة الإمام!

كما أن الأئمة لها حق التحليل والتحريم عندهم، لوجود الوحي بعد النبي(ص) والذي يأتي إلى الأئمة، ويقول الدكتور ناصر القفاري حول هذه المسألة: "والشيعة تزعم في رواياتهم (كما في الكافي) أن الله سبحانه وتعالى "خلق محمّدًا وعليًّا وفاطمة فمكثوا ألف دهر ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوّض أمورهم إليها، فهم يحلّون ما يشاءون ويحرّمون ما يشاءون".

وقد بين شيخهم المجلسي بعض فقرات هذا النص فقال: "وأجرى طاعتهم عليها، أي أوجب وألزم على جميع الأشياء طاعتهم حتى الجمادات من السّماويّات والأرضيّات، كشقّ القمر وإقبال الشّجر وتسبيح الحصى وأمثالها ممّا لا يحصي، وفوّض أمورها إليهم من التّحليل والتّحريم والعطاء والمنع..". ثم بين أن ظاهر هذا النص يدل على تفويض الأحكام "أحكام التحليل والتحريم إليهم".

وجاءت الرواية عندهم صريحة بهذا فيما ذكره المفيد في الاختصاص، والمجلسي في البحار وغيرهم عن أبي جعفر قال: "من أحللنا له شيئًا أصابه من أعمال الظّالمين

[الظّالمون في معتقدهم هم خلفاء الدّولة الإسلاميّة، ما عدا أمير المؤمنين عليًّا وابنه الحسن رضي الله عنهما؛ لأنّ بقيّة أئمّتهم لم يتولّوا الخلافة ولا يومًا واحدًا، وكلّ خليفة من غيرهم هو ظالم غاصب لحقّ الأئمّة على حدّ زعمهم.] فهو حلال لأن الأئمة منا مفوض إليهم، فما أحلوا فهو حلال، وما حرموا فهو حرام". هكذا يصرحون بأن للأئمة حق التشريع والتحليل والتحريم فما أحلوه من بين مال المسلمين فهو حلال، وما حرموه فهو حرام... فجعل هؤلاء من أئمتهم أربابًا من دون الله، لأن جعلهم جهة تحريم وتحليل وتشريع هو شرك في توحيد الربوبية، لأن الحاكمية والتشريع لله، كما أن طاعتهم في تشريعهم المخالف لشريعة رب العالمين، والتي قد تنسخ أو تقيد أو تخصص ما جاء به خاتم النبيين هو عبودية لهم من دون الله..وحق التشريع لا يملكها إلا رب العباد، والرسل عليهم الصلاة والسلام إنما هم مبلغون[172] عن الله سبحانه لا يحرمون ولا يحلون إلا ما يأمرهم الله به، ويوحيه إليهم."[173]

ودعوى نسخ القرآن أو تخصيصه أو الإتيان بتشريع جديد تحت دعوى أقوال الرسول أو أهل البيت كان مدخلا أكثر من رائع لأتباع الديانات الأخرى من أجل تقييد أو إلغاء أحكام القرآن كما يحلو لهم، وللأسف وقعت الشيعة في شراك هذا الفخ، ووقعنا نحن في شراك فخ القول بالنسخ في القرآن!

وإذا أردنا أن نستقصي الروايات الواردة في أحوال وأهوال وأفضال أئمة الشيعة لما كفانا أمثال هذا الكتاب، ولكننا نختم هذه النماذج بمسألة الولاية التكوينية عند الشيعة والتي يتشابه معها مسألة تصرف أولياء الصوفية في الكون –كله بإذن الله طبعا!!–، فما هي الولاية التكوينية؟ وهل هي من معتقدات الشيعة حتى الآن؟

---

[172] لما أجاز أهل السنة أن ينسخ خبر الآحاد الظني آيات القرآن المتواترة، ولما قالوا إن للسنة تشريعا مستقلا بجوار القرآن، مما يعني بداهة أن القرآن كتاب ناقص، –بخلاف القول إن السنة تابعة للقرآن مؤولة له–، تلقف الشيعة هذا القول ونفخوا فيه حتى أتوا بمثل هذه المناكير التي تخالف تأصيلاتهم الفقهية من أن أقوال الرسول والأئمة لا بد أن تكون موافقة للقرآن تابعة له، ولكن دوما الأصوليون في واد والإخباريون في واد آخر.

[173] ناصر بن عبدالله بن علي القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية.

الولاية التكوينية

وهي تعني أن الله تعالى قد فوض للأئمة بمستوى من مستويات التفويض أمر إدارة العالم!، فما هو رأي الشيعة في هذه المسألة؟ يقول آية الله العظمى! السيد كاظم الحائري: "فإن كان المقصود بالولاية التكوينية، خرق نواميس الطبيعة، فإنّ الإمام عليه السلام يخرق أحياناً نواميس الطبيعة ويأتي بما يسمى بالمعجز، فيشق القمر، أو يجعل الحصى تُسبّح ويمنع النار عن الإحراق وما الى ذلك من الأُمور التي هي خرق لقوانين الطبيعة، فإنّ سُمّي هذا بالولاية التكوينية، فهو معقول ومقبول وثابت في الكتاب والسنة المتواترة، فلا شكّ ولا ريب أنّ الأئمة عليهم السلام أظهروا من المعاجز ما لا يحصى[174]، والمعجز هو خرق قانون الطبيعة، إلّا أنّ هذا ليس شيئاً جديداً حتى يطلق عليه مصطلح جديد باسم (الولاية التكوينية)، وليس هو إلّا تطبيقاً لأحد القانونين اللذين أشرنا إليهما، فلو آمنا بمبدأ العليّة، وبأنّ هذا المبدأ لا يتخلف –استحالة انفكاك المعلول عن العلة–، فعندئذٍ يكون خرق قوانين الطبيعة بمعنى أنّ اللّه تعالى هدى رسوله والأئمة المعصومين عليهم السلام الى علل غائبة عنا، فهم يعرفونها ونحن لا نعرفها، فيتدخل الإمام وفق تلك العلل الغائبة عنا[175]" اهـ

وأما الشيخ عبد الرضا معاش فيرى في رد له على سؤال موجه له على الانترنت –ترجمة: علي البامياني– أن لا حرج في هذه المسألة فيقول: "أما الولاية التكوينية فهي عبارة عن تسخير الكائنات الإمكانية تحت إرادة أولياء الله تعالى ومشيئتهم بحيث تصير في طاعتهم واختيارهم وينفذ أمرهم فيها ولكن بحول الله وقوته وإذنه بأن تكون ولايتهم على الكون طولية لا عرضية بمعنى أن ولايتهم مستمدة من ولايته عز وجل، فما المانع أن

---

[174] العجيب أن القرآن ينفي دوما أن يكون الرسول قد أتى بآية –معجزة– حسية، ولكن على الرغم من ذلك نجد أن الشيعة يزعمون أن الأئمة أتوا من المعاجز ما لا يحصى –لم وأين ومتى ؟!!– وأن هذا ثابت في السنة المتواترة !!

[175] كاظم الحائري, الإمامة وقيادة المجتمع.

تكون ولاية النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة إلى الكون ما دامت بإذن الله تعالى وجعله.!!!

ونكتفي بذكر مجموعة من الآيات التي تدل على الولاية التكوينية للأنبياء والأوصياء. فنقول: أنه قد تحدثت آيات الكتاب العزيز عن عدة أنبياء بأن لديهم قدرة الولاية التكوينية كإبراهيم وموسى وداود وسليمان وعيسى (عليهم السلام) وغيرهم ... وهذه معاجز صدرت من موسى (عليه السلام) فلو لم تكن له ولاية على هذه الأشياء لما انقلبت العصا إلى حية ولما تفجر من الصخر الماء، ولما انشق البحر إلى قطع بينها يسلكها بني إسرائيل إلى جانب الآخر وهم آمنون على أنفسهم من الغرق. وأما داود (عليه السلام) فقد سخر سبحانه له الطير والجبال يسبحن معه والرياح ولين له الحديد بدليل الآيات التالية: (وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين). وقال تعالى: (فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب). وقال تعالى: (يا جبال أوبي معه والطير وألنّا له الحديد). فالمستفاد من هذه الآيات أن الله سبحانه أعطى داود تلك الولاية التكوينية بحيث إذا أراد داود (عليه السلام) في أي ساعة تسخير الرياح لجرت بأمره، ولا يريد إلا ما أراده وتسخير الكائنات لداود (عليه السلام) لم يكن حالة استثنائية تفرد بها داود، بل هي عامة تشمل الأنبياء والأوصياء (عليهم السلام).وليس داود أفضل من النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وعترته الطاهرة حتى يسخر له ما لم يسخر للنبي وعترته (عليهم السلام). فالثابت عند الفريقين أن النبي (صلى الله عليه وآله) أفضل من الأنبياء والمرسلين على الإطلاق فإذا ثبت تسخير الكائنات إلى ما دونه بالفضيلة ثبت بطريق أولى إلى نبينا وعترته الطاهرة، وقد أعطى النبي وعترته أكثر مما أعطي آل داود من المعاجز والهيمنة المطلقة على الأشياء. وقد ورد بسند صحيح عن هارون بن موفق مولى أبي الحسن (عليه السلام) قال: قال أبو الحسن (عليه السلام) في حديث طويل: (لم يعط داود وآل داود شيء إلا وقد أعطي محمد وآل محمد أكثر)... وكيف كان فقد ثبت مما ذكرناه أن الولاية التكوينية من لوازم مقام النبوة والإمامة، فاتهام الشيعة بأنهم يعتقدون بالولاية التكوينية للأئمة من آل البيت ليس إلا

تضليلاً إعلاميا ضدهم، إذ ليس مرادهم من الولاية التكوينية ولاية تفويضية من الله إلى الأئمة (عليهم السلام)، بمعنى أن الله قد فوض أمر الكون إليهم بعد خلقه، بل مرادهم منها أنهم يتصرفون بعوالم التكوين بإذن الله سبحانه" اهـ

من خلال هذين الرأيين للسيد كاظم الحائري وعبد الرضا معاش يمكن القول إن المراد من الولاية التكوينية عند الشيعة هي القدرة على إجراء المعاجز كما كان يفعل كل الأنبياء السابقين بأمر الله وإذنه وليس التصرف في الكون، وبغض النظر عن قياسهم العجيب في هذه المسألة حتى تثبت المعجزة لآل محمد من باب أولى! فإننا نقول: إن النبي شُرف بالقرآن وأنه أتى مخاطبا للعقل، وبالنبي المصطفي انتهى دور الآيات الحسية في الإيمان، وبدأ عصر العقل، ولكن السادة الشيعة المقتنعين برواياتهم سيصدقون ما ورد فيها لا محالة[176]. ولكن هل يمكن القول إن الإعتقاد بأن الشيعة يقولون بتفويض الأئمة في إدراة الكون هو من باب التضليل الإعلامي الذي لا وجود له عندهم؟

لن نرد على هذا السؤال بنعم أو بلا، ولكن سنذكر للقارئ قولا لأحد الشيعة وهو أحمد الكاتب والذي ينقد ظاهرة الغلو عند الشيعة فيقول: "ويمكننا أن نأخذ أمثلة على ظاهرة الغلو الجديدة بعدد من المشايخ من أمثال: الشيخ محمد حسين الوحيد الخراساني، مدرس علم الأصول في قم، والذي يقول بصراحة بتفويض الله تعالى للأئمة الخلق والرزق وما إلى ذلك من أعمال الله تعالى، وأن الأئمة هم وسائط فعاليات مخلوقاته، ويدعي أن هذا تفويض صحيح لا ينافي الايمان بالله تعالى. ومما يقوله الخراساني:"إن الأئمة هم فاعلو ما به الوجود، وأن الله منه الوجود. وأن إمام العصر صار عبدا، وعندما صار عبدا صار ربا، فالعبودية جوهرة كنهها الربوبية، فمن ملك هذه الجوهرة تحققت ربوبيته بالله تعالى لا بالاستقلال، بالنسبة الى الأشياء الأخرى!!"[177]

---

[176] على الرغم من اعتراف كتب الشيعة بكثرة الكذب على أهل البيت، حتى قال جعفر الصادق: ".. إن الناس أولعوا بالكذب علينا.."، فإننا نجد أن بعض علماء الشيعة قاموا بتوثيق الأربعة آلاف راو عن الإمام الصادق، ثم يعيبون علينا توثيقنا للصحابة رضوان الله عليهم!!

[177] أحمد الكاتب ومحمد عمارة، السنة والشيعة، وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ.

فهل يمكن بعد هذا القول إن من يقول إن الشيعة يقولون بالولاية التكوينية للأئمة يفتري عليهم؟ وما يمكنني الجزم به أن الشيعة مثل أهل السنة وأي فريق آخر يوجد به العديد من التوجهات، فهناك من يفهم الروايات الواردة في هذا الشأن على أنها من باب المعاجز وهذا لاشيء فيه، وهناك من يفهم الروايات بظاهرها كما هي فيقول بالولاية التكوينية! وسواء قلنا بهذا أو ذاك فهو غلو غير مقبول، لأنه إنشاء لعقيدة مخالفة للعقل – الأصل عدم وجود المعاجز – بدون دليل قطعي! وخوض فيما لا ليس للإنسان به علم، "قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا"

بعد كل هذا يمكن للقارئ أن يجزم أن أئمة الشيعة –عندهم– يقدرون على كل شيء وبيدهم مقاليد كل شيء –على الرغم من تاريخهم العسير وما ابتلوا به من مصائب–، فهم صورة مصغرة من الإله إلا أنهم حتما ليسوا بآلهه! ويجزم أن الشيعة شطوا في تقديسهم لأئمتهم إلى درجة تكاد تقارب من تقديس المسيحيين ليسوعهم، مستندين إلى حديث خرافة يا أم عمرو!!

ولكن لا يمكننا الإدعاء في نفس الوقت أن كل تيارات الشيعة تقبل هذه الخرافات والتخرصات والمبالغات، فهناك من يرفض هذا التوجه المبالغ فيه في تقديس الأئمة وإعطاءهم من مظاهر القوة ما لم يعط لنبي مرسل أو لملك مقرب، وإن كانوا قلة لا تذكر!

وقبل أن نترك هذه النقطة نذكر بأن الشيعة يقولون: إن كنا نحن قد غالينا في أهل البيت فإن أهل السنة قد أهملوا تراثهم أيما إهمال، فلم يرووا عنهم من الأحاديث إلا القليل[178]، كما أنهم و تاريخهم غير معروفين بالنسبة لأهل السنة.

---

[178] دعوى قلة روايات أهل البيت عند أهل السنة دعوى باطلة، ونورد للقارئ هنا سردا لأعداد روايات أهل البيت عند أهل السنة، قام به الأخ أبو عبدالله الحربي: روايات علي بن أبي طالب في البخاري مع المكرر (98) وغير المكرر (34) ورواياته رضي الله عنه في صحيح مسلم (38) حديثا. وعندما نعمل عملية حسابية يسيرة نرى أن الناتج هو =72 رواية في أصح الكتب عند أهل السنة بينما أحاديث علي رضي الله عنه المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أصح كتب الشيعة وهو الكافي =66،... هذا بغض النظر عن صحة الروايات في كتاب الكافي وأكثرها كذب على علي رضي الله عنه عند وضع أسانيدها على طاولة البحث

ونحن نتفق معهم في هذه النقطة، فأئمة أهل البيت على الرغم من دورهم العظيم في التاريخ وفي الفقه الإسلامي إلا أنهم لا يحظون بأي تركيز إعلامي أو معرفي يضاهي الذي يحظى به بعض صغار التابعين أو كبار علماء الفقه مثل أبي حنيفة أو مالك أو ابن حنبل أو الشافعي. ولذا فنحن ندعوا علماء أهل السنة إلى أن يرفعوا التراب عن تراث أهل البيت ويعلموه لأولادهم وشبابهم، أم أنهم يخشون تعارض منهج أهل البيت في الخروج على السلطان الجائر مع منهجهم الداعي إلى الدعة والاستكانة للحاكم الظالم ما لم يظهر كفرا بواحا للناس فيه من الله برهان، ومن هذا الأحمق الذي سيظهر الكفر البواح؟!!

وقبل أن ننهي كلامنا عن منزلة الأئمة عند الشيعة لا بد من التعريج على الإمام الثاني عشر، والذي هو المهدي المنتظر عند الشيعة! ولن نطيل الكلام هنا عن هذا المهدي لأننا سنتكلم بالتفصيل الممل عن المهادي المنتظرة عند تفنيد تلك العقيدة الباطلة عند الحديث على عقائد الطائفة الأحمدية، فمن المعلوم أن معتمد نشأة تلك الفرقة هي تلك الأحاديث الكاذبة التي وضعتها السنة وتبعتهم في تأليف أمثالها وأضعافها الشيعة في وجود ما يسمى بالمهدي المنتظر، فإذا بطلت تلك العقيدة انهار كل الصرح الذي يبنيه الأحمديون بدون الحاجة إلى الخوض في كثير من جدل أو لجج.

العلمي، بل لا أخفيكم حديثاً إن قلت أن روايات علي رضي الله عنه أكثر من مرويات أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم مجتمعين!!! فأي انصاف بعد هذا؟ وأما فاطمة رضي الله عنها فلها حديث واحد في البخاري برقم (4462) بينما ليس لها ولا حديث واحد مرفوع في كل الكافي وهو عندي 9 مجلدات!! وأما الحسين رضي الله عنه فله حديثان عن أبيه علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب الجمعة برقم (1127) وكتاب فرض الخمس برقم (3091) من صحيح البخاري ومثله في صحيح مسلم.. أي أربعة، بينما في الكافي رواية واحدة وكذا عن الحسن رضي الله عنه

فهل يصح بعد هذا أن نقول: أن صاحب الكافي وهو اصح كتاب عند الشيعة قد جفا سيدا شباب أهل الجنة؟

نأتِ الآن إلي الإمام محمد الباقر رحمة الله عليه ذاك الإمام الكبير الفذ المحدث الكبير: فروايته في الكتب التسعة (240) رواية... بل إن مرويات الباقر رحمه الله وجمعنا به في جنات النعيم في سنن النسائي فقط(56)

بينما مرويات الصديق رضي الله عنه (22) فهل يصح لمنصف أن يرمي أهل السنة بالجفاء لتراث آل البيت!! نأتِ الآن إلى مرويات ذاك الإمام الفذ جعفر الصادق رحمه الله ورضي عنه، فهي في الكتب التسعة (143)...

وقد أخرج أصحاب الكتب السنة المعتمدة عند أهل السنة (مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه) للإمام جعفر الصادق عدا البخاري فقد أخرج له حديثان في الأدب.

ونحن إذ نذكر هذا الإمام الثاني عشر المزعوم عند الشيعة الإمامية نذكره من باب التنبيه على قاعدة مهمة وهي: إن الإيمان بعقيدة واحدة باطلة في دين الله يؤدي حتما إلى الإيمان بعدة عقائد باطلة أخرى ويوقع في إشكاليات أخر[179]، لأن الزيف في العقيدة واضح جلي من خلال عدميتها في كتاب الله ومخالفتها له، فيُنّظر من أجل الدفاع عنها عدة من العقائد الباطلة الأخرى، فتتراكم العقائد الباطلة في دين الله من أجل نصرة بعضها، ولكن إذا انهارت العقيدة الباطلة الأم فلا حاجة لمناقشة الباقي لانهيارها لزاما خلفها. و بعد ذكر هذه القاعدة نعرج على ذكر هذا الإمام المزعوم؟

الإمام الثاني عشر

من هو الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية؟ ومتى ولد وأين ولد؟ الإمام الثاني عشر عند الشيعة الإمامية يفترض أنه هو محمد بن الإمام الحسن العسكري، لأن التاريخ يقول إن الإمام العسكري مات ولم يعقب! ولقد ذكرنا مسبقا لم اضطرت الشيعة إلى هذا الإخراج المسرحي لولادة الإمام الثاني عشر حتى ينجو من المأزق الذي أوقعوا فيه أنفسهم بأيديهم. ويفترض أن هذا الإمام غائب حي منذ ما يزيد عن ألف عام وسيخرج في آخر الزمان! –اختفي هذا الإمام المزعوم منذ عام 260 إلى عام 329 هـ وهذه هي الغيبة الصغرى، أما الغيبة الكبرى فهي من العام المذكور إلى أن يظهر!– وبغض النظر عن التاريخ وأحداثه وما يقول، هل اتفقت الروايات الشيعية على إحداثيات هذا الإمام؟

بداهة لا، ومثل أي اختلاق لا بد أن ينتج اختلاف، فاختلفوا في كل شيء متعلق به، فاختلفوا في تحديد هوية أمه، وإن كانت أرجح الروايات عندهم أنها جارية للإمام

---

[179] أدى القول بالإمام الثاني عشر وبغيبته إلى عديد من الإشكاليات الفقهيه عند الشيعة مثل ما هو حكم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد في غيبة الإمام؟ فمُنع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد إلا دفاعا عن النفس، وقيل بالامتناع عن صلاة الجمعة ثم العودة إليها ثم الامتناع ثم العودة، وتطور الزكاة من استحباب الخمس إلى وجوب أعطائها للفقيه، ثم يتطور الأمر إلى ولاية الفقيه. وكل هذا نابع من عقيدة واحدة باطلة!

العسكري اسمها نرجس. واختلفوا في تحديد تاريخ مولده، فقالوا إنه ولد في الثامن من ذي القعدة سنة 257 أو 258 كما عند الشيخ المفيد في رسالة مولد الأئمة وكان له عند وفاة أبيه سنتان واربعة اشهر. ولكنه يقول في الفصول المختارة أنه ولد في النصف من شعبان من سنة 255، و في رواية أخرى: انه ولد سنة 252 هـ وكان سنه عند وفاة أبيه ثماني سنوات!. أما الشيخ الصدوق فيقول في (إكمال الدين): إن مولده كان في 8 شعبان سنة 256! أما الشيخ الطوسي فيقول في (الغيبة): انه ولد في النصف من رمضان. دون إن يحدد السنة، ويتفق في رواية أخرى مع الشيخ المفيد: في انه ولد في النصف من شعبان سنة 255!!

كما اختلفوا في مكان الغيبة فمعظم الروايات عن الغيبة تشير إلى أنه كان في بيت أبيه في (سرّمن رأى) عاصمة الخلافة العباسية يومئذ، وان الذين شاهدوه في حياة أبيه شاهدوه فيها، وتقول بعض الروايات: انه خرج للصلاة على جثمان أبيه الذي توفي ودفن في (سامراء) وانه التقى بعد ذلك بوفد قم الذي جاء يبحث عن الإمام الجديد، وانه ظل مقيما في البيت إلى أعوام طويلة حتى دهمته قوات المعتضد فغاب في (السرداب). وقد بنى الخليفة العباسي الناصر بالله قبة على ذلك السرداب، لا تزال موجودة حتى اليوم. ونظرا لأن قصة مختلقة كهذه لا تثبت أمام العقل قاموا بالاستدلال على الإمام الثاني عشر من القرآن! ولكن القرآن يخلو من أي إشارة إلى مثل هذه الترهات، ولكن متى التزمت الفرق الإخبارية بمنطوق القرآن، فالتفسير الإشاري المعتمد على فهم الرسول والأئمة! وعلى أسباب النزول المزعومة[180] حجة لا تبارى، ومن أنت حتى تجادل في فهم الرسول والأئمة، فاقتطعت بعض الآيات ليُزعم أنها في الإمام، وسنذكر للقارئ الآيات بدون تعليقات السادة الشيعة حول هذه الآيات ليعرف مدى دقة القوم في الاستدلال بالآيات!!، استدلوا بآيات من أمثال: 'وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب ولتعلن علوا كبيرا فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا

[180] ذكرنا في كتابنا السابق أنه لا يوجد شيء اسمه أسباب نزول للقرآن ولكن هناك مناسبات للنزول، وشتان بين الاثنين، حيث أن هذا الأدعاء مرتبط عند السادة علماء السنة والشيعة بكيفية نزول القرآن حيث يرون أنه نزل آيات مفرقة على رسول الله!!!

خلال الديار وكان وعدا مفعولا ثم رددنا لكم الكرة عليهم!!"، ومثل "حتى يتبين لهم أنه الحق"، ومثل "فاستبقوا الخيرات أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا"، ومثل "فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه ومساكنكم لعلكم تسألون"، ومثل "ولتعلمن نبأه بعد حين" ومثل "وقل جاء الحق وزهق الباطل"!!، ومثل "وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض"، ومثل "ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين".

وكثير من أمثال هذه الاستدلالات العجيبة والتي لا علاقة لها بمنطوق الآيات ولكنه سلطان الروايات العجيب التي يتحكم في القرآن وفي العقول! وإذا كان السادة علماء الشيعة قد استدلوا بهذه الآيات مستندين على روايات مختلقة في إثبات هذه العقائد فلا عجب أن تُختلق الروايات في المهدي بعيدا عن القرآن والروايات الواردة في ذلك كثيرة، مثل:""المهدي يخرج في آخر الزمان" و"القائم لا يقوم حتى ينادي منادي السماء..." و"لا تذهب الدنيا حتى يلي هذه الأمة رجل من أهل بيتي يقال له المهدي" و"المهدي من ولد فاطمة" و"المهدي من ولد الحسين".. واختلاق الروايات لا يوجد ما هو أسهل منه خاصة في المذهب الإخباري الشيعي. ولكن القول بالغيبة مناف وهادم للأسس التي بُني عليها المذهب الشيعي، فهل سيقبلون ذلك؟ بداهة ستتخذ الإجراءات اللازمة لتثبيت هذه العقيدة الجديدة مثل الاستدلال على وقوع الغيبة من الكتاب والسنة وأنها كانت معلومة وواقعة! ولها حكم كثيرة يغفل عنها السطحيون، أما استدلالاتهم من القرآن على وقوع الغيبة فمثل استدلالاتهم على القائم المهدي، فاستدلوا بآيات كما في أصول الكافي مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [سورة الملك, ٣٠]، أي: إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد، وكما في تفسير العياشي في قوله سبحانه: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ ... ۝٣﴾ [سورة التوبة, ٣]. قال: "خروج القائم وأذان دعوته إلى نفسه"!. ومثل ما جاء عند القمي في تفسير قوله تعالى ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ [سورة عبس, ٢٣]، أي لم يقض أمير المؤمنين ما قد أمره، وسيرجع حتى يقضي ما أمره"!

وبسبب الظلم والاضطهاد الشديدين الذين كانا يقعان على الشيعة ظهرت بعض الروايات التي تصف المهدي بالقسوة الشديدة في معاملة الخصوم من المسلمين عند ظهوره، مثل ما جاء في بحار الأنوار "لو يعلم الناس ما يصنع القائم إذا خرج لأحب أكثرهم ألا يروه مما يقتل من الناس، حتى يقول كثير من الناس: ليس هذا من آل محمد، لو كان من آل محمد لرحم"!

أما الاستدلال على المهدي من سنتهم فيسير كثير، مثل: "المهدي من ولدي تكون له غيبة وحيرة!" و"إن الثابتين على القول بالمهدي في زمان غيبته لأعز من الكبريت الأحمر!" و"المهدي له غيبة وحيرة تضل الخلق عن أديانهم!" و"لا بد لصاحب هذا الامر من عزلة أو غيبة" و"إن لصاحب هذا الامر غيبتين إحداهما تطول حتى يقول بعضهم مات، وبعضهم يقول: قتل، وبعضهم يقول: ذهب، فلا يبقى على أمره من أصحابه إلا نفر يسير". وهذه الروايات توضح مدى الحيرة التي وقعت فيها الشيعة عند انقطاع الأئمة وظهور هذا النظرية العجيبة في الغيبة فحاولوا أن يثبتوا أتباع المذهب بأمثال هذه الروايات. ولكن المشكلة أن الروايات وحدها غير كافية لإثبات هذه العقيدة العجيبة المتناقضة مع أصول المذهب، فأخذوا يأصلون للعقيدة الجديدة! تأصيلات عقلية تخرجهم من ورطة ضعف الأدلة النقلية، والمشكلة أن تنظيراتهم العقلية أوهى من استدلالاتهم النقلية، فقال بعض الإخباريين منهم أن الحكمة من الغيبة حكمة مجهولة! تقصر عنها العقول وأنه علينا التسليم بالعقيدة كما هي بدون البحث عن الإسباب والاعتماد على المعقول في قبولها أو ردها –نلحظ نفس المسلك في الدفاع عن العقائد في المذهب السلفي–، ومنهم من قال بنظرية الخوف وأنه أُخفي حفاظا على حياته كما نجى الله موسى بأن أنشأه في بيت فرعون! ومنهم من قال بنظرية التمحيص وأن الله أخفي المهدي من أجل أن يمحص المؤمنين به! وهذه التبريرات كلها كانت مرتبطة بالخروج العاجل للمهدي حيث أن مدة الغيبة في بداية القول بها كانت تتأرجح بين أيام وشهور أو سنين لا تتجاوز عدد أصابع اليدين، كما تقول روايات كثيرة يذكرها الكليني في:(الكافي) والطوسي في:(الغيبة). بينما قالت بعض الروايات أنها ستطول حوالي

ثلاثين أو أربعين عاما. ونقل الطوسي رواية أخرى عن الإمام الباقر (ع): إن صاحب هذا الامر لا يتجاوز الأربعين وقالت روايات أخرى إن عمره قد يجاوز المائة والعشرين. ولكن لما طال الأمد عن المأمول والمرجو قالوا بنظرية الغيبة الكبرى! أي أن الفترة الأولى كانت غيبة صغرى وانتهت لإنتهاء أسبابها من أمثال مراقبة سفراء المهدي الذين كانوا ينقلون توقيعات وفتاوى الإمام إلى الأمة وعدم إمكانية المحافظة على السرية في الاتصال بالمهدي وأصبحت الأمة معدة للخيبة الكبرى، ثم أخذوا يبررون أسباب الغيبة الكبرى مثل ما قرأته لبعض كتابهم من أن الغيبة الكبرى كانت من أجل أن تصل البشرية إلى مستوى متقدم من التقدم العلمي والتكنولوجي والذي يسهل الإتصال بالإمام المهدي من أي مكان على وجه البسيطة، بخلاف الأزمنة الغابرة والتي كان الاتصال فيها بالمهدي سيستغرق شهورا من أجل مسألة أو ما شابه! ولكن ما الحاجة إلى التطور التكنولوجي مع وجود الولاية التكوينية والمعاجز للأئمة؟ وردهم جاهز: إن المعاجز لا تجرى عبثا وإنما لأسباب وغايات عظمى من إثبات لنبوة الأنبياء أو ولاية الأولياء وإمامة الأئمة أما أن تجرى من أجل الاستعمال العادي اليومي فلا!!

وهكذا انشغل المذهب الإمامي في التأصيل لتلك الخرافة من خلال تثبيت الخرافة بواسطة آلاف الروايات التي وضعت فيها!! –والعجيب أن بعضهم يستدل على مسألة الانتظار عند الشيعة بأن أهل السنة ينتظرون مهديهم وأن الأخبار استفاضت عندهم في ذلك! ومن البدهي أنهم يردون كل هذه الأخبار المستفيضة عند أهل السنة لأنها حتما مكذوبة ونحن كذلك نرد آلاف رواياتهم المفبركة!– وانشغل بالدفاع عن أسباب الغيبة الصغري ولماذا انتهت ثم بدأت الكبرى؟ ومن خلال الحديث عن أسباب تأخر ظهور المهدي وعن أسباب تعجيل الخروج، ومن خلال رد التناقضات الناتجة من اختفاء ذلك المهدي المزعوم، وأبرزها: لماذا اختفي الإمام إذا كان الغرض من وجود الائمة هو وجود حجة لله على وجه الأرض، فها أنتم أصبحتم مثل المذاهب الأخرى تأخذون بقول الفقهاء المجتهدين، كما أخذوا بالدفاع عن استحالة استمرار حياة المهدي لهذه الفترة الطويلة جدا مستندين إلى حياة المسيح –على الرغم من أن القرآن ما ذكر وفاة نبي

أكثر من ذكره لوفاة عيسى!- وإلى حياة سيدنا نوح وأنها استمرت ما يزيد عن الألف سنة! وأن الله أطال عمر أهل الكهف وإلى الرأي القائل بحياة الخضر إلى الآن وأن الدجال كان حيا في زمن الرسول وأنه سيخرج في آخر الزمان -وعلى الرغم من تناقض روايات داخليا ومعارضتها للقرآن عامة، وهذا ما سنبين بطلانه لاحقا، هل يؤمن الشيعة بهذا الدجال، أم أن المسألة: إذا كان عندي من الخرافات فعندك مثلها فاصمت وإلا؟!!- واستندوا إلى أن يأجوج ومأجوج سيخرجون آخر الزمان -ولست أدري أين ذكر القرآن أن يأجوج ومأجوج سيخرجون آخر الزمان!!!-. وهكذا دخل المذهب في نفق الدفاع المستميت عن عقائد لا أصل لها في الكتاب! ولكنه التمذهب الممقوت والانتصار لما وجد عليه الآباء.

ومشكلة المذهب الإمامي أن المنظرين له صعّبوا المسألة على المتعامل معه في إبطال أقوالهم عن طريق الالتفاف على الأدلة النقلية وقبولها على الرغم من ضعفها استنادا إلى الأدلة العقلية! ومن البدهي أن العقيدة إذا خرجت من الاستدلال النقلي واستندت على العقلي[181] بالدرجة الأولى في تبريرها وإثباتها فقد أسقطت نفسها بنفسها. وقبل أن ننهي الحديث عن هذه النقطة نذكر كلمة للأستاذ أحمد الكاتب الشيعي الجعفري حول هذه المسألة: "لقد كان المتكلمون في البداية في القرن الثالث الهجري يحاولون إثبات صحة فرضية وجود الإمام الثاني عشر ابن الحسن ولم يكونوا يتحدثون عن (المهدي والمهدوية) إذ انهم كانوا بحاجة إلى إثبات وجود العرش قبل إثبات النقش.. ولكن الأزمة التي وقعوا فيها بعد القول بوجود (ابن الحسن) وهي: (عدم ظهور الإمام للقيام بمهمات الإمامة) دفعتهم إلى البحث والتنقيب في تراث الفرق الشيعية القديمة كالكيسانية والواقفية، والتفتيش عن مخرج للأزمة والحيرة، ووجدوا في أحاديث المهدوية القديمة أفضل حل للخروج من أزمة عدم الظهور، ودليلاً جديداً على إثبات

[181] نحن نفرق بين العقليات المتفق عليها مثل وجود الإله ووحدانيته وكماله واختلافه عن مخلوقاته وبين النظريات التي تؤصل ثم يبحث لها عن تبرير عقلي، فهذه ليست من المعقولات التي يتوصل إليها أي إنسان، فليس من البدهي أن يكون هناك أئمة بعد النبي وأن يكون لآخرهم غيبة طويلة!

فرضية (وجود ابن الحسن) في نفس الوقت... وأعتقد أن القاريء العادي لا يحتاج إلى أن يتجشم عناء درس علم الرواية والدراية حتى يقيّم تلك الروايات التاريخية الواردة حول مولد الإمام محمد بن الحسن العسكري أو أن يكون من العلماء المختصين في التاريخ.. فان المؤلفين الذين أوردوا تلك الروايات في كتبهم أراحوا أنفسهم من تهمة الاعتماد على هكذا روايات ضعيفة وقالوا في البداية: إننا نثبت وجود الامام الثاني عشر بالطرق الفلسفية العقلية الاعتبارية النظرية، ولسنا بحاجة الى الروايات التاريخية، وانما نأتي بها من باب الاسناد والتعضيد والتأييد. وألقوا عن انفسهم عبأ المناقشة العلمية لتلك الروايات والتأكد من سندها والنظر الى متنها. واعتقد انهم كانوا يوردونها من باب (الغريق يتشبث بكل قشة) وإلا فإنهم أعرف الناس بضعفها وهزالها." اهـ

عقيدة الشيعة في النبي المصطفى

قد يعجب القارئ من إيرادي النبي (ص) بعد الأئمة عند الشيعة، وكان من المفترض أن يذكر قبلهم! فنقول: من يتتبع مذهب الشيعة يعلم أن الأئمة يحتلون الصدارة وأن الاهتمام كل الاهتمام بهم، حتى أن المرء ليشعر أن النبي يكرم من أجل أهل البيت لا العكس!

بداهة لن يعجب هذا الشيعة ولكن عليهم أن يظهروا للناس ما يشعرهم بخلاف ذلك، أما أن يكون جل اهتمامهم بالحسين وبثورته والدروس المستفادة من حياته –أما الحسن فليس له عندهم حظ– وكذلك بعلي وأقواله وأفعاله ثم باقي الأئمة، فحتما ولزاما سيأخذ الناس هذا الانطباع. وبغض النظر عن الانطباعات الشخصية، ما هي عقيدة الشيعة في النبي(ص)؟

يقول الأستاذ صالح الورداني: "يعتقد الشيعة أن الرسول صلى اللّه عليه و آله وسلم معصوم عصمة كلية من ولادته وحتى مماته، فلا تجوز عليه الكبيرة ولا الصغيرة لا

بالعمد ولا بالسهو ولا بالتأويل ولا بالنسيان..ودليلهم على ذلك أنه لو عهد منه السهو والنسيان لارتفع الوثوق منه عند اخباراته، ولو عهد منه خطيئة لنفرت العقول من متابعته فتبطل فائدة البعثة (...) وتتجلى عصمة الرسول في مراحل ثلاث: مرحلة تلقي الوحي وحفظه وأدائه إلى الأمة، مرحلة القول والفعل، وعلى ذلك فهو من عباده المكرمين الذين لا يعصون اللّه ما أمرهم وهم بأمره يعملون، مرحلة تطبيق الشريعة وغيرها من الأمور المربوطة بحياته صلى اللّه عليه وآله وسلم لا يسهو ولا يخطئ في حياته الفردية والاجتماعية (...) ويقول الشيخ محمد جواد مغنية: الأنبياء معصومون عن الذنوب، كبيرها وصغيرها، قبل النبوة وبعدها. لا يصدر عنهم ما يشين لا عمدا ولا سهوا. وأنهم منزهون عن دناة الآباء وعهر الأمهات، وعن الفظاظة والغلظة، وعن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام، بل وعن كثير من الأعمال المباحة المنافية للتعظيم والتوقير كالاكل في الطريق ونحوه."[182] اهـ

وهذا الرأي نلمح فيه التوجه الشيعي العام في التزيد في تقديس الأفراد، أما عندنا نحن في أهل السنة فهناك اختلاف في الأراء في مسألة صدور المعصية من النبي قبل البعثة أو بعدها، والأكثرية على امتناع الكبائر قبل البعثة وبعدها، أما الصغائر ففيها خلاف. والأدلة على ذلك من الكتاب كثيرة، منها عتاب الله عزوجل على النبي(ص) في عدد من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الإسراء, ٧٤-٧٥]، كما صرح الله عزوجل بذكر الذنب مع النبي المصطفي فقال: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾﴾ [سورة الفتح, ٢].

(182) صالح الورداني، عقائد السنة والشيعة: التقارب والتباعد. (وهو كاتب مصري معاصر اعتنق المذهب الشيعي فترة، وهذا الكتاب مكتوب في هذه الفترة، ثم تركه وأخذ يدعو إلى عدم المذهبية والتعصب)

ومهما أوّل الشيعة فهم هذه الآيات، فإنها وغيرها مما لم نذكر صريحة على الأقل في إمكانية وقوع الذنب من النبي. ونحن لا نقصد بذكرنا هذه الآيات الانتقاص من قدر النبي المصطفى، فنحن نراه أعظم البشر وأجلهم، ولكن لا بد من عرض الآراء الواردة في كل المسائل، والانتصار لما ورد في القرآن، وعرض المبادئ الواردة في القرآن كما هي، ومن أهم تلك المبادئ: عدم المغالاة في البشر، لذلك –والله أعلم– يذكر لنا المولى عزوجل بعضا من قصص الأنبياء –ومنهم محمد عليه الصلاة والسلام–، والتي حصل فيها أن الأنبياء أخطأوا وآبوا إلى الله عزوجل، لذلك فلا تقديس في الإسلام إلا لمن له الكمال وهو الله عزوجل.

الشيعة الإمامية والقرآن

من أهم العقائد المرتبطة بالشيعة عقيدتهم في القرآن، فلا يكاد تُذكر الشيعة إلا ويقفز إلى الذهن أن الشيعة تؤمن بتحريف القرآن، وأنه نقص منه الكثير والكثير، وأنه لدى الشيعة قرآن أخر غير قرآن المسلمين، وأنهم يؤمنون بوجود ما يسمى بمصحف فاطمة، فما حقيقة عقيدة الشيعة تجاه القرآن، هل يؤمن الشيعة الإمامية بتحريف القرآن فعلا، أم أنها تهمة باطلة ألصقت بهم؟

بادئ ذي بدأ لا بد من التنبيه أنه لا يمكن لأحد أن يدعي أن هذا القول ملصق بالشيعة ومفترى عليهم وأنه من قول طائفة شاذة من علمائهم، فالأخبار الدّالة على التحريف تزيد على ألفي حديث![183]، وادعى استفاضتها جماعة كالمفيد، والمحقق! الدماد، والعلامة!

[183] لو طبقت الشيعة الإمامية المنهج التي استخدمته في نقد روايات تحريف القرآن وردها مع باقي روايات المذهب وخاصة روايات المهدي لاختفت خرافة المهدي ولانتهى المذهب من بابه ولن يبقى إلا أقل القليل من مواطن الخلاف المقبولة ! وفي هذا يقول أحمد الكاتب: وقد تسنى لي القيام بنقد مجموعة من الروايات (حوالي مائة رواية) حول موضوع الاثني عشرية والإمامة الإلهية، على ضوء التاريخ وعلم الرجال الشيعيين، فوجدتها كلها ضعيفة أو مختلقة لا توجد فيها رواية واحدة صحيحة. وهو ما دفعني الى تقبل الفقه الجعفري (المنسوب الى الامام جعفر الصادق عليه السلام، ورفض النظرية الإمامية الاثني عشرية بما فيها

المجلسي وغيرهم، وكثير من علمائهم آمنوا بتلك الفرية ومنهم: الميرزا حسين بن محمد تقي النوري المازندراني الطبرسي صاحب كتاب "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب"!، والذي أقام الدنيا ولم يقعدها تجاه الشيعة والذي أصبح مرجعا رئيسيا لكل طاعن في كتاب الله، بل سيؤلف كتابا لاحقا يرد فيه على من انتقد كتابه الأول، وسماه "رد بعض الشبهات عن فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب"!. وقد سرد النوري قائمة طويلة بأسماء ومؤلفات القائلين بالتحريف أو التغيير أو التبديل أو الزيادات أو النقصان، في كتاب الله، أمثال:

(1) محمد بن خالد البرقي(؟) في كتابه "التنزيل والتغيير"، وابنه، (2) أبي جعفر أحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت: 274هـ) في كتاب "التحريف!"، (3) ومحمد بن الحسن بن فروخ الصفار (ت: 290 هـ) في كتاب "بصائر الدرجات"، (4) وأبي الحسن علي بن الحسن بن علي بن فضال (نحو 290هـ) في كتاب "التنزيل من القرآن والتحريف!"، (5) وشيخ الطائفة: أبي القاسم، سعد بن عبد الله بن أبي خلف الأشعري القمي (ت: 299هـ) في كتاب "ناسخ القرآن ومنسوخه"، (6) وأبي الحسن علي بن إبراهيم بن هاشم القمي في تفسيره، (7) وأبي النضر محمد بن مسعود بن عياش السمرقندي السلمي العياشي (ت: 320هـ) في تفسيره، (8) وأبي القاسم فرات بن إبراهيم الكوفي(؟)، وهو شيخ لعلي بن الحسين بن بابويه، في تفسيره، (9) وابن الحجام: محمد بن العباس بن علي بن مروان الماهيار(؟) في تفسيره، (10) ومحمد بن الحسن الصيرفي في "التحريف والتبديل"، (11) وأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني (ت: 328هـ)، (12) وتلميذه محمد بن إبراهيم بن أبي زينب الكاتب النعماني(؟) في تفسيره، وأبي القاسم (13) علي بن أحمد بن موسى الكوفي (ت: 352هـ) في "الاستغاثة في بدع الثلاثة" ويقصد بهم: الخلفاء الراشدين الثلاثة!، (14) والشيخ المفيد (ت: 413هـ) في "أوائل المقالات"، (15) وأبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب

موضوع فرضية الإمام الثاني عشر "محمد بن الحسن العسكري" الذي لم أعثر على أي دليل معتبر على ولادته ووجوده واستمرار حياته الى اليوم منذ القرن الثالث الهجري.

الطبرسي (ت: حوالي 560هـ) في كتاب "الاحتجاج!! على أهل اللجاج!"، (16) والشيخ أحمد بن محمد الأردبيلي (ت: 993هـ) في "حديقة الشيعة"، (17) ومحمد بن باقر المجلسي (ت: 1111هـ) في "مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول"، (18) ونعمة الله بن عبد الله الجزائري (ت: 1112هـ) في "الأنوار! النعمانية"، (19) وأبي الحسن بن محمد طاهر الفتوني العاملي (ت: 1138هـ) في "تفسير مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار"، (20) ومحمد بن حيدر الجنابذي الخراساني (من علماء القرن الرابع عشر) في "بيان السعادة في مقدمات العبادة"،...إلخ

وقد جزم الأخباري النوري، بأنه لم يشذ عن هذا القول المجمع عليه بين أساطين المذهب، سوى أربعة أشخاص من المتأخرين نسبياً وهم: (1) الشيخ الصدوق (ت: 381هـ) في كتاب "العقائد"، (2) والشريف علي بن الحسين المرتضى (ت: 436هـ)، في "جواب المسائل الطرابلسيات"، (3) وشيخ الطائفة محمد بن الحسن الطوسي (ت: 460 هـ) في "التبيان في تفسير القرآن"، (4) وأبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي المشهدي، ويعرف بالطبرسي الكبير (ت: 548هـ) في تفسيره "مجمع البيان في تفسير القرآن".

إذا يمكن التسليم أن المذهب الشيعي في بداياته قال بهذه الفرية وأخذ بها مهما جادل المجادلون، ولكن ما الذي دفع المذهب الشيعي للقول بهذه الفرية؟ بخلاف القول برغبة أتباع الديانات الأخرى في الطعن في الإسلام، فإن السبب الرئيس في ظهور هذا القول بالتحريف هو المأزق الذي وقع فيه الشيعة عند ابتداعهم وتأليفهم لعقائدهم الجديدة[184] والتي لا أصل لها في القرآن، فلقد كان المخالفون يستدلون عليهم دوما بعدم وجود هذه العقائد والأقوال في القرآن، فمن أين أتوا بها إذن؟ ولم يجد التعساء من هذا المذهب بابا للهروب من هذا المأزق إلا الطعن في كتاب الله تعالى، فقالوا إنه حرف، وبذلك يخرجون من هذا المأزق، بل ويكسبون نقاطا في صراعهم مع أهل السنة

(184) من ذلك ما ورد في أصول الكافي "نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام"، "نزل القرآن على أربعة أرباع: ربع فينا، وربع في عدونا، وربع سنن وأمثال، وربع في فرائض وأحكام"

عندما يضيفون القول بالتحريف إلى بعض الصحابة، وبذلك يكونوا قد زادوا المطاعن التي وجهت إلى الصحابة مطعنا، وهو أنهم حرفوا كتاب الله تعالى، أما الشيعة وأئمتهم فهم المحافظون على القرآن من أجل الأمة ونصرتها!!

فإذا قلنا أن متقدمي الشيعة قالوا بذلك القول فعلا وانتشر بينهم، فما هو موقف الشيعة من هذه الفرية ومن القائلين بها ومن الروايات الواردة في كتبهم بهذا الشأن؟ الأغلبية الساحقة من الشيعة الآن يؤمنون بعصمة القرآن وعدم وقوع التحريف فيه، ولا يكاد يوجد من يقول بهذا القول إلا قلة قليلة من متعصبي الإخبارية ولقد سمعتها بأذني من أحدهم، وهؤلاء لا يعتد بهم والعبرة بالجمهور العريض من الشيعة وهم الآن والحمدلله يقولون بعدم وقوع التحريف في القرآن، وكتبوا في ذلك الكتب الكثيرة مثل:

عبد الجليل القزويني الرازي (من القرن السادس الهجري) في كتاب "النقض"، (2) وعلي بن موسى بن جعفر الشهير بلقب: ابن طاووس (ت: 664هـ) في كتاب: "سعد السعود"، (3) والعلامة الحلي: جمال الدين، الحسن بن يوسف بن علي بن المطهر (ت: 726هـ/1325م) في "أجوبة المسائل المهنائية"، (4) والفيض الكاشاني (ت: 1091هـ) في تفسير "الصافي"، (5) وإبراهيم بن الحسين بن علي الدنبلي الخوئي (ت: 1325هـ/1907م) في كتاب: "البيان في تفسير القرآن"، (6) وأحمد بن علي بن الرضا بن موسى بن جعفر، الملقب بكاشف الغطاء (ت: 1344هـ/1926م) في "كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء"، (7) والشيخ محمد جواد بن حسن بن طالب بن عباس البلاغي النجفي الرّبَعي (ت: 1352هـ/1933م) في تفسيره: "آلاء الرحمن"، (8) والشيخ محمود بن أبي القاسم الطهراني في: "كشف الارتياب في رد فصل الخطاب"، (9) وآية الله الشيخ حسن حسن زادة آملي في كتاب: "فصل الخطاب في عدم تحريف كتاب رب الأرباب"، حيث يردان مباشرة على كتاب الميرزا النوري في كتابه: "فصل الخطاب"، (10) ومحمد حسين الشهرستاني في: "رسالة في حفظ الكتاب الشريف عن شبهة القول بالتحريف"، (11) ومحمد هادي معرفة في: "صيانة القرآن من التحريف"، (12) وعلي الميلاني في كتاب: "التحقيق في نفي

التحريف"، (13) ومحسن بن عبد الكريم بن علي الأمين الحسيني العاملي (ت: 1371هـ/1952م) في كتاب: "أعيان الشيعة"، (14) ومحمد حسين الطباطبائي في: "الميزان في تفسير القرآن".. إلخ. ونجد أنهم قد أصدروا إصدارا جديدا لصحيح الكافي، قام بتجريده محمد الباقر البهبودي، حذف فيه الروايات المتعلقة بالتحريف، كما حذف أبوابا تحتوى بعض العقائد التي تنتقد عليها الشيعة، وهذا مسلك حسن يحمدوا عليه!

ولكن هل تبرأ الشيعة الإمامية من سلفهم القائل بتحريف القرآن؟ واستنكروا هذه الروايات وردوها؟ وتأتي الإجابة المنتظرة والمتوقعة ب: لا، لم يفعلوا، وهذا دأب أي إنسان متمذهب، يدافع عن أقوال سلفه حتى آخر رمق ويبحث لها عن التأويلات والتخريجات بأي شكل من الأشكال وبأي طريقة كانت[185]، ومن ذلك ما قام به محمد هادي معرفة في كتابه "صيانة القرآن من التحريف"، حيث يصنف الروايات التي استدل بها النوري في كتابه "فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب" فيقول: "أما الروايات الخاصة، والتي استند إليها –المحدث النوري– لإثبات التحريف سواء أكانت دالة بالعموم على وقوع التحريف أم ناصّة على مواضع التحريف، فهي تربو على الألف ومائة حديث (1122)، منها (61) رواية دالة بالعموم و(1061) ناصة بالخصوص، حسبما زعمه. لكن أكثريّتها الساحقة نقلها من أصول لا إسناد لها ولا اعتبار، من كتب ورسائل، إما مجهولة أو مبتورة أو هي موضوعة لا أساس لها رأساً. والمنقول من هذه الكتب تربو على الثمانمائة حديث (815)، وبقي الباقي (307) وكثرة من هذا العدد ترجع إلى اختلاف القراءات مما لا مساس لها بمسألة التحريف وهي (107) والبقية الباقية (200) رواية، رواها من كتب معتمدة، وهي صالحة للتأويل إلى وجه مقبول أو هي غير دالة على التحريف وإنما أقحمها النوري إقحاما في أدلة التحريف"اهـ

---

[185] ونفس هذا المسلك يسلكه المتمذهبون عندنا في أهل السنة، فيدافعون عن أقوال السابقين بكل وسيلة ويلتمسون لها التأويلات والمبررات، كأن السابقين ليسوا بشرا ولا تنازعهم الأهواء ولا تصدر منهم الأخطاء!!

والناظر في تبريرات الشيعة للروايات الواردة في تراثهم يجد أنها تدور على محورين اثنين: المحور الأول: ليس المراد من الروايات التحريف بمعنى الحذف والإضافة، وإنما المراد تحريف التفسير والتأويل، وهذا ما حدث فعلا من بعض العلماء، وكمثال على ذلك يقول فتح الله المحمدي في كتابه: سلامة القرآن من التحريف وتفنيد الافتراءات على الشيعة الإمامية، بعد أن يذكر التعريف اللغوي والاصطلاحي للتحريف: "وإذا أردنا تقسيم التّحريف تقسيماً اجمالياً، فإنّ تحريف الكلام ومن ضمنه تحريف القرآن ينقسم إلى قسمين: 1- التّحريف المعنوي 2- التّحريف اللفظي. والمراد من التّحريف المعنوي هو، التحليل والاستنتاج الخاطئ والتفسير والتبرير لكلام معين بما يخالف المقصود الحقيقي للمتكلم، وبالتأكيد فإن القرآن الكريم قد تعرض لمثل هذا النوع من التّحريف، إذ نرى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة يشكو إلى الله سبحانه وتعالى من حدوث مثل هذا التّحريف فيقول عليه السلام: «إلى الله اشكو من معشر يعيشون جُهّالاً ويموتون ضُلاّلاً ليس فيهم سلعة أبورُ من الكتاب إذا تُلي حقَّ تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حُرّف عن مواضعه" "والروايات الكثيرة الواردة عن الأئمة بإضافة بعض الكلمات للآيات وقولهم أنها نزلت هكذا، المراد منه أنهم كانوا يذكرون الآية وتفسيرها كما فعل بعض الصحابة عندما كتبوا التفسير النبوي لبعض الآيات في مصاحفهم التي أحرقها عثمان بن عفان رضي الله عنه.
المحور الثاني: لا يستلزم خطأ المتأول تكفيره، وإذا كان بعض المتأولين عندنا قد أخطأوا في تأويلهم لآيات معينة فلا يستلزم هذا كفرهم بل هم معذرون في تأويلهم، كما يُعذر المتأول عند أهل السنة، -أم أنها مسألة مخصوصة بأهل السنة فقط؟!-. ونظرا لأن قبول قول مثل التحريف عسير على أي مسلم التمسوا بعض التبريرات في عدم تكفيرهم القائل بتحريف القرآن من سلفهم مثل ما يقوله أبو عمر صادق العلائي: "مناقشة أسباب التكفير:

السبب الأول: القول بتحريف القرآن يلزم منه تكذيب الله عز وجل فيما أخبر به في كتابه[186]. ويرد عليه أن المخالفة لكتاب الله عز وجل شيء، والتكذيب والجحد له شيء آخر، فالتكذيب بمعنى أن يعلم المكلف بما أخبر الله عز وجل به ولكنه لا يصدقه ولا يقتنع به، فهذا كفر، وأما لو أخطأ في فهم ما أخبر به الله عز وجل وصار إلى غيره مع كونه يرجو موافقة كلام الله عز وجل، فهذا خالف كتاب الله عز وجل لجهله وهذا لا يكفر، والإخبارية هم من هذا القسم بالنسبة للآيتين، وهذا لأمرين: 1- عدم حجية الظاهر عندهم.[187] (...) 2- قالوا بعدم دلالة ظاهر الآيتين على المطلوب. فالآية الأولى غاية ما تدل عليه أن الله عز وجل تكفل بحفظ القرآن ولكنها ساكتة عن حفظه عند جميع الناس فلعل الله عز وجل لم يقصد بالحفظ حفظه عند كل المسلمين بل أراد حفظه عند سيد المسلمين وإمامهم، فمن أين استفدنا حفظه عند كل المسلمين من الآية!!! (وما الفائدة إذا؟!!) والآية الأخرى تدل على منع استعلاء شيء عليه ولا يطرأ طارئ يظهر عليه فيبطل مضمونه ومحتواه من العلوم والمعارف سواء مما سبقه كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها من الكتب السابقة أو مما يأتي به الناس من علوم،... لذا الآيتان في نظرهم لا تدلان على المدعى.

السبب الثاني: خالف ما هو معلوم من الدين بالضرورة. حتى يتضح الحق في هذه الدعوى يجب تقديم مقدمتين: المقدمة الأولى: ما هو ضابط كون الشيء معلوما من

---

[186] **يقصد قوله تعالى:** ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾] سورة الحجر ,٩[، **وقوله:** ﴿... وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ... ۝٤٢﴾] سورة فصّلت ,٤١-٤٢[.

[187] **كان بعض الأخباريين في الزمن الأول يشكك في حجية العمل بظواهر القرآن، فلا يجيز التعامل المباشر معه وفهمه إلا من خلال روايات أهل البيت، -ويبرر الشيعة المعاصرون هذا المسلك بشعور الشيعة الأوائل بعلو القرآن على قولهم فلم يأخذوا أي تفسير له إلا ما ورد عن الرسول أو أهل البيت! أما أن يكون الغرض هو تحييد القرآن وتثبيت ما يحلو لهم من العقائد، فهذا لم يخطر ببال الشيعة الأوائل بأي حال !!!!- لأن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم ! وعلي كان هذا القيم، وكانت طاعته مفترضة وحجة بعد الرسول! ولكن نشوء المدرسة الأصولية (الاجتهادية) في القرن الخامس الهجري على يدي المشايخ الثلاثة المفيد والمرتضى والطوسي، وسيادة هذه المدرسة في القرون الأخيرة، أدى الى تراجع الأخباريين وتراجع القول بعدم حجية القرآن أو عدم جواز التعامل المباشر معه. وتعزيز القول باعتبار القرآن المصدر الأول والأساس للدين باعتباره مصدرا قطعيا متواترا لا يضاهيه أي مصدر آخر.**

الدين بالضرورة؟ المعلوم من الدين بالضرورة هو ما لا يحتاج انتسابه للدين إلى دليل ولا يشك فيه أحد من المسلمين، فيكون انتسابه للدين بديهيا بين الناس، كوجوب الحج أو الصلاة في الإسلام، لذا ما يتوقف إثباته على الدليل لا يكون ضروريا ومعلوما بالبديهة.

المقدمة الثانية: هل يكفر المسلم بمجرد إنكاره للضروري أم بقيد وشرط؟ لو أنكر مسلم أمرا معلوما من الدين بالضرورة، فإن آل إنكاره إلى إنكار الألوهية أو الرسالة فإنه يكفر بلا ريب، وأما لو لم يرجع إنكاره لإنكار الألوهية والربوبية أو الرسالة كمن طرأت له شبهة أو حصل له لبس أدى بالمنكر إلى تلك النتيجة فإنه لا يكفر... قال السيد اليزدي رضوان الله تعالى عليه:"والمراد بالكافر من كان منكرا للألوهية أو التوحيد أو الرسالة أو ضروريا من ضروريات الدين مع الالتفات إلى كونه ضروريا بحيث يرجع إنكاره إلى إنكار الرسالة "... قال الشيخ الوحيد الخراساني حفظه الله تعالى: "والكافر وهو المنكر لله أو رسالة خاتم النبيين صلى الله عليه وآله وسلم أو المعاد أو الشاك في الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم أو المشرك بالله أو الشاك في وحدانيته، نجسٌ، وكذلك الغلاة –أي القائلين بألوهية أحد الأئمة عليهم السلام أو القائلين بحلول الله تعالى في أحدهم عليهم السلام– والنواصب –وهم أعداء أحد الأئمة عليهم السلام أو أعداء فاطمة الزهراء سلام الله عليها–، والمنكر لإحدى ضروريات الدين –كالصلاة والصيام– مع علمه بأنها من ضروريات الدين "... (يذكر بعد ذلك عدة أقوال لعلمائهم في تعريف الكافر) وعلى هذا فلو لم يعلم المنكر أن ما أنكره جزء من الدين بل نفي كونه منه لشبهة ولبس، مع إيمانه في قرارة نفسه أنْ لو ثبت عنده مجيء النبي صلى الله عليه وآله وسلم بما أنكره لاتبعه ولأخذ به بكل انقياد وتسليم فإن إنكاره –في هذه الحالة– لا يؤول إلى إنكار الألوهية أو الرسالة أو تكذيب النبي صلى الله عليه وآله وسلم والعياذ بالله، فلا يحكم بكفره... وبعد ما قدمنا يتضح أن دعوى تكفير من قال بتحريف القرآن لإنكاره ضروريا كلام ساقط من رأس وجرأة على الله ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم، لأمرين:

1- لم يثبت أن من ضروريات الدين الاعتقاد باحتواء مصحفنا لكل كلمات القرآن التي نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وسلم. فلو سئل أهل الإسلام في بقاع الأرض عما إذا كان هذا المصحف الذي في بيوتنا اليوم قد اشتمل على كل كلمة وحرف نزل من السماء قبل أكثر من أربعة عشر قرنا ولم تخف كلمة أو حرف عمن جمعه أو لم يتلاعب به أحد من بعدهم، فلا يعد الجواب على هذا السؤال بديهيا لا يشك فيه، وليس هو كبداهة سؤال المسلم لأخيه عما إذا كانت الصلاة واجبة في الإسلام، ولذا عندما يتطرق علماء الشيعة وأهل السنة لإثبات صيانة القرآن من التحريف يعتمدون الدليل لإثبات مدعاهم كآية الحفظ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [سورة الحجر, ٩]، فاستدلالهم هذا على عدم وقوع التحريف في القرآن يناقض كونه من بديهيات الدين التي لا يحتاج لإقامة الدليل.

2- من قال بتحريف القرآن فإن قوله لا يؤول إلى إنكار الألوهية أو الرسالة أو تكذيب النبي صلى الله عليه وآله سلم. فقد مر سابقا أن من قال بالتحريف لا يرى أن الله عز وجل تكفل بحفظ القرآن في مصاحف المسلمين، لأن الآيتين في نظره لا تدلان عليه فضلا عن قبوله لحجية ظاهريهما، ولا يرى أن النبي صلى الله عليه وآله سلم قد أخبر بحفظ القرآن في مصاحف المسلمين بل على العكس هو يرى أن الرسول وأهل بيته صلى الله عليهم أجمعين صرحوا بأن التحريف وقع فيه وأنه بُدل وتلاعبوا به.

السبب الثالث: خالف ما هو مجمع عليه (...) أما كون سلامة القرآن من التحريف أمرا مجمعا عليه لذا يكفر من خالفه، فهذا السبب للتكفير أسخف من سابقيه، لأمور:

1- هذه الدعوى فيها إلزام للشيعة بتكفير بعض علمائهم لأن عدم التحريف أمر مجمع عليه عند أهل السنة!!.

2- دعوى الإجماع على صيانة القرآن من التحريف لم تتحقق عند أهل السنة[188] فضلا عن الشيعة، وسيأتي ذكر كلمات من قال من علماء أهل السنة بتحريف القرآن.

3- الإجماع ليس دليلا عند الشيعة في قبال الأدلة الأخرى وإنما هو مجرد كاشف عن الدليل، فلا تكون معارضته معارضة للدليل الشرعي بل معارضة للطريق، لذا المنكر قد ينكر كاشفية الطريق لا ما يكشف عنه. وقال العلامة ابن نجيم الحنفي في البحر الرائق: "أنها -البسملة- من الفاتحة ومن كل سورة ونسب إلى الشافعي ووجه الأصح إجماعهم على كتابتها مع الأمر بتجريد المصحف وقد تواترت فيه وهو دليل تواتر كونها قرآنا وبه اندفعت الشبهة للاختلاف وإنما لم يحكم بكفر منكرها لأن إنكار القطعي لا يوجب الكفر إلا إذا لم يثبت فيه شبهة قوية فإن ثبتت فلا كما في البسملة". وقال أيضا: "ويكفر إذا أنكر آية من القرآن أو سخر بآية منه إلا المعوذتين ففي إنكارهما اختلاف والصحيح كفره، وقيل لا، وقيل إن كان عاميا يكفر وإن كان عالما لا". وكذا نقل لنا الإمام البروسوي قول الإمام ابن عوض الحنفي وغيره من العلماء في عدم تكفير من أنكر المعوذتين لنفس السبب الذي ذكرناه سابقا وهو حصول الشبهة لدى المنكر سببها إنكار ابن مسعود لهما، قال: "وفي نصاب الاحتساب: لو أنكر آية من القرآن سوى المعوذتين[189] يكفر، انتهى". "وفي الأكمل عن سفيان بن سختان قال:

---

[188] وردت بعض الروايات أيضا عند أهل السنة تقول بنقصان القرآن عما كان عليه في زمن الرسول، وعلى الرغم من قناعتي الشخصية من أن من ألفوا هذه الروايات هم من الشيعة المستترين وبغض النظر عن صحة الروايات أو ضعفها فإن ورودها عند أهل السنة يعتبر قبولا من صاحب الكتاب على محتوى الرواية وعدم إنكاره لما فيها، ومن تلك الروايات ما رواه ابن أبي شيبة والطبراني في الأوسط وأبو الشيخ والحاكم وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه قال: التي تسمّونها سورة التوبة هي سورة العذاب والله ما تركت أحداً إلا نالت منه ولا تقرؤون منها مما كنا نقرأ إلا ربعها"، وروي أيضا عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: كانت سورة الأحزاب تقرأ في زمن النبي صلى الله عليه وسلم مائتي آية فلما كتب عثمان المصاحف لم نقدر منها إلا ما هو الآن"، ومثل ما جاء في الدر المنثور عن ابن عمر قال: لا يقولن أحدكم قد أخذت القرآن كله! ما يدريه ما كله؟! قد ذهب منه قرآن كثير، ولكن ليقل قد أخذت ما ظهر منه"!، وكذلك ما ذكر ابن جرير الطبري عن سفيان الثوري: "قال سفيان: وبلغني أن ابن عباس كان يقرؤها (حتى تستأذنوا وتسلموا)، وقال: إنها خطأ من الكاتب"

[189] قول العلماء هذا من أكبر الأدلة على تحكم الروايات -عند علماء أهل السنة- في القرآن وعلوها عليه، فلمجرد ورود بعض الروايات عن ابن مسعود أنه كان يرى أن المعوذتين رقية وليست من القرآن، قُبل النزاع في قرآنية هاتين السورتين، ثم يستغل الشيعة أمثال هذا الموقف من بعض علمائنا في تبرير أقوال علمائهم.

من قال إن المعوذتين ليستا من القرآن لم يكفر لتأويل ابن مسعود رضي الله عنه كما في المغرب للمطرزي. وقال في هدية المهديين: وفي إنكار قرآنية المعوذتين اختلاف المشايخ والصحيح أنه كفر"اهـ[190]

فانظر عزيزي القارئ كيف صار عدم إنزال القرآن المنزلة التي يستحقها من بعض علماء أهل السنة متكئا يتكأ عليه الشيعة في تبرير أقوال علمائهم، فكما عندكم خلاف فعندنا، كل ما في الأمر أن الروايات عندنا كثيرة بعض الشيء! لذلك فنحن لا نكفر علمائنا ولا نبرأ منهم إلا إذا فعلتم أنتم أهل السنة مع علمائكم[191]! وبداهة أهل السنة لن يكفروا سلفهم من العلماء ولو طارت عنزة، فكل مقدس لأقوال سلفه[192] وعنها منافح كأنها دين الله ولا حول ولا قوة إلا بالله. ونخرج من هذا كله أن الشيعة الآن لا تقول بتاتا

---

[190] أبو عمر صادق العلائي، إعلام الخلف بمن قال بتحريف القرآن من أعلام السلف!

[191] يوجد لدينا في كتب العقائد كثير من الأقوال التي لا تؤدي حتما إلى تجسيم الله تعالى وجعله بشرا ولولا التزام أهل الحديث بمنهجهم في قبول كل روايات من يرونه ثقة لمارأينا أمثال هذه الأقوال في كتب الأحاديث أو العقائد! والشيعة ينسبون إلى أهل السنة –وخاصة الحنابلة– تجسيم الله عزوجل فيعيبون عليهم قولهم بأنّ الباري عز وجل في صورة شاب أمرد، وقولهم أن الله تعالى يستلقي في حديث الاستلقاء المنكر! وقولهم أنّ الباري تعالى عما يصفون يجلس على الكرسي أو السرير وقول بعضهم –مثل ابن قتيبة وابن البنا الحنبلي– أنّ صورة الباري تعالى تشبه صورة الإنسان، وكذلك قبولهم بخرافة الأوعال وهي تحدد المسافة إلى العرش! وقولهم بقعود المولى عزوجل على العرش، وقولهم أن الله عز وجل يتكلم بذاته بالحرف والصوت وقول بعضهم أن صفة صوت المولى عز وجل أنه كجر السلسلة وصوت الرعد والصواعق الفصل العاشر: ما رووه بأنّ صوت الباري عز وجل يشبه صوت الصواعق وقولهم بأن الله محدود بحد تعالى عما يقولون علواً كبيراً، وكذلك تجويزهم رؤية المولى عز وجل في المنام أو كذلك قولهم بأنه لو دلى أحد حبلاً إلى الأرض السابعة لوصل إلى الباري عز وجل، كذلك قولهم بصفة الهرولة لله عزوجل، وقولهم بأطيط العرش تحت الله! وقولهم أن الله يبدي بعضه للأرض، وقولهم بصفة الوجه والعينين واليدين والأصابع والكف والقدمين والذراعين والصدر واللهوات والأضراس والفم والحقو والساق والظهر! ألا يعد كل هذا من باب التجسيم الواضح والتي لو أخذنا منهج المكفرين في البحث عما يكفرون به خصومهم، ألا يحق لنا إذن أن نكفر من يقول بكل هذه الصفات التجسيمية لأنه يعبد جسدا وليس الله الذي ليس كمثله شيء؟!!!

[192] مما تنتقده الشيعة على أهل السنة كذلك –ومعهم كل الحق– قولنا –تقليدا لمن سبقنا– بنسخ آيات من كتاب الله تعالى! اعتمادا على ورود بعض الروايات الظنية التي تقول إن هناك آيات أنزلت ثم رفعت ! وقبول هذه الروايات وتبريرها مخالف لمنهج المسلمين في تلقي القرآن، فلقد أجمع المسلمون على أن آيات القرآن لا تثبت إلا بالتواتر، فأي جملة نسبت للقرآن ولم يتواتر نقلها كقرآن فهي ليست من القرآن قطعا، إذا كيف أثبت أهل السنة بأخبار آحاد قرآنية هذه الجمل مع أنها ليست من القرآن في نظرهم لأنها من أخبار الآحاد التي لا يثبت بها القرآن قطعا؟! والشيعة يعلقون على هذا المسألة قائلين: سلمنا جدلا أن أهل السنة أثبتوا قرآنية كل تلك الجمل بالتواتر –ولن يثبتوا– فلماذا لم تكتب في المصحف ؟! فإن قيل: نسخت تلاوته!، نقول: أين تواتر نسخها الذي هو شرط لوقوع النسخ حتى لا تثبت في المصاحف؟! وحيث أن شرط النسخ غير متحقق فيثبت تحريف القرآن بالنقيصة!، لأن مصحفنا اليوم لا يحوي تلك الجمل التي ادعى الرواة قرآنيتها!!

بتحريف القرآن ولكن كأي مذهب متمذهب لا بد له من الدفاع عن أقوال سلفه بأي حال والتماس الأعذار كما يفعل المقلدة في أي فريق على وجه الأرض.

أما مسألة أن الشيعة لديهم مصحف غير القرآن يسمى مصحف فاطمة فأمر منكر ولا وجود له، نعم وردت عندهم بعض الروايات التي تقول بوجود هذا المصحف ولكن لا وجود لما يسمى بمصحف فاطمة وقرآنهم قرآننا ولا خلاف في ذلك، فكل المسلمين والحمدلله مجمعين على كتاب الله عزوجل، أما من يدعون خلاف ذلك فهم من مثيري الفتن ولا يعتد بقولهم لذلك يقول الشيخ محمد الغزالي رحمه الله رحمة واسعة: "سمعت من هؤلاء يقول في مجلس علم: أن للشيعة قرآنا آخر يزيد وينقص عن قرآننا المعروف! فقلت: أين هذا القرآن؟! ولماذا لم يطلع الإنس والجن على نسخة منه خلال هذا الدهر الطويل؟ لماذا يساق هذا الافتراء ,,, ولماذا هذا الكذب على الناس وعلى الوحي".

ويقول الشيخ الدكتور محمد علي الزعبي: "لقد اتفق المسلمون –ويحز في قلبي الألم حين أصفهم بالسنة والشيعة بعد أن دعاهم الله مسلمين ورضي لهم الإسلام دينا– اتفقوا على عصمة القرآن وحفظه منذ عهد نزوله حتى الآن فالسنيون على تعداد مذاهبهم الفقهية المعروفة، والتي أصبحت في ذمة التاريخ، والشيعة، سواء أكانوا إمامية اثني عشرية أو زيدية أو إسماعيلية: بهرة أم موحّدين أم آغاخانية ... جميعهم ينظرون كتاب الله الموجود بين أيدي الناس معصوما محفوظا كما أنزل، ويعتقدون أنه هو نفسه الذي أنزله الله لرسوله محمد صلى الله عليه وآله وسلم ووصل الناس دون زيادة أو نقص، نعم هذا ما اتفق عليه مسلمو العالم في جميع عصورهم وهذا ما سجله مؤلفوهم ومحققوهم ومخلصوهم ولو أردنا أن نقول للقارئ راجع كتاب كذا وصفحة كذا لأذهبنا سجلا بأسماء الكتب".

ويقول البهنساوي: "إن الشيعة الجعفرية الاثني عشرية يرون كفر من حرّف القرآن الذي أجمعت عليه الأمة منذ صدر الإسلام ... وإن المصحف الموجود بين أهل السنة هو

نفسه الموجود في مساجد وبيوت الشيعة وأنه لا يوجد منهم في عصرنا من يقول بما جاء في بعض كتبهم القديمة عن مصحف فاطمة بل يقولون إن هذه روايات غير صحيحة مردودة كما أن أئمة الشيعة في عصرنا يؤكدون ذلك".

ويقول الأستاذ محمد المديني عميد كلية الشريعة بالجامعة الأزهرية: "وأمّا أن الإمامية يعتقدون نقص القرآن، فمعاذ الله. إنما هي روايات رويت في كتبهم، كما روي مثلها في كتبنا. وأهل التحقيق من الفريقين قد زيّفوها، وبينوا بطلانها وليس في الشيعة الإمامية أو الزيدية من يعتقد ذلك كما أنه ليس في السنة من يعتقده".

ويقول الشيخ رحمة الله الهندي –مؤلف الكتاب الشهير إظهار الحق–: "القرآن المجيد عند جمهور علماء الشيعة الإمامية الاثني عشرية محفوظ من التغيير والتبديل ومن قال منهم بوقوع النقصان فيه،فقوله مردود غير مقبول عندهم".

الشيعة والقراءات

قد يكون العنوان جديدا بعض الشيء بالنسبة للقارئ، لأن غالبية الكتاب عندما يتكلمون عن موقف الشيعة من القرآن لا يتعرضون تقريبا إلا لنقطتين اثنين وهما قول الشيعة بتحريف القرآن وبمصحف فاطمة، أما تعرضهم لموقف الشيعة من القراءات فلم أجده إلا نادرا وبدون تفصيل كبير ربما لكون الموضوع من المواضيع الشائكة التي يتردد أي كاتب قبل أن يدلي فيها بكلمة، لذا سنتوقف قليلا لنناقش هذه المسألة، لنر ماذا تقول الشيعة في هذه المسألة وهل يتفقون معنا فيها أم يخالفون؟

من المشهور أن أهل السنة يسلمون بوجود قراءات مختلفة للقرآن وأشهرها وأصحها سبع قراءات، ويصل الخلاف بين بعضها في بعض الأحيان إلى حذف حروف وإثباتها وكذلك تغيير بعض الكلمات مثل نشرا بدلا من بشرا وهكذا، وهم يرون أن هذه القراءات كلها منقولة عن النبي(ص) بالتواتر، وأن النبي كان يقرأ على أصحابه الآية

بشكل ثم يعود فيقرأها بشكل آخر وآخر! ويستدل أهل السنة على مسألة القراءات بروايات سنعرض حالا كيف ينقدها الشيعة. أما الشيعة فيرون أن القرآن أُنزل على حرف واحد من عند الواحد ويقولون بوجود قراءة واحدة للقرآن، هي ما قرأها النبي المصطفي والتي يقرأ بها المسلمون الآن والتي تعرف –كخطأ منهجي نابع من تحديد المؤلفين في علم القراءات لكل قراءة بنسبتها إلى شيخ معين!– بقراءة حفص عن عاصم، وهي ليست قراءة قارئ معين بل هي قراءة الرسول والتي أخذها عنه سائر المسلمين، وتناقلوها جيلا بعد جيل إلى أن وصلت إلينا بحفظ الله تعالى، ويرون على ذلك الروايات عن أئمة أهل البيت، ومن ذلك ما ورد في الكافي للكليني:

1– "عن الفضيل بن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: إن الناس يقولون: إن القرآن نزل على سبعة أحرف. فقال: كذبوا أعداء الله، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد".

2– "عن حماد بن عيسى عن جابر بن عبد الله قال: قيل لأبى عبد الله عليه السلام إن الناس يقولون: إن القرآن على سبعة أحرف. فقال: كذبوا، نزل حرف واحد من عند رب واحد إلى نبي واحد".

3– "عن أبى جعفر عليه السلام قال: قلت له قول الناس نزل القرآن على سبعة أحرف فقال: واحد من عند واحد".

4– "عن زرارة بن أعين قال: سأل سائل أبا عبد الله عليه السلام عن رواية الناس في القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: كذبوا الناس في رواياتهم، بل هو حرف واحد من عند واحد نزل به الملائكة على واحد". اهـ

وأول سؤال ينبغي أن يطرحه الإنسان في هذه المسألة هو: هل قرأ الرسول المعصوم هذه القراءات كلها؟ وإذا لم يكن فكيف يبرر الشيعة إذا وجود هذه الاختلافات الطفيفة بين القراءات؟ يرد الشيخ أبوعمر صادق العلائي على هذا التساؤل موضحا رأي الشيعة قائلا: "هل قرأ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بهذه القراءات؟ قلنا سابقا إن منشأ

الاختلاف في بداية أمر القراءات هو اجتهاد وتفنن بعض الصحابة في قراءة القرآن[193]، وسار على دربهم بعض التابعين وهكذا، وليس للشرع أدنى مدخلية في تلك القراءات سواء في نشأتها أو في استمرارها وبقائها، وفي عقيدة شيعة أهل البيت عليهم السلام إن كتاب الله عز وجل أنزله جبرائيل عليه السلام على قلب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم بلغة عربية فصيحة لا خلل فيها ولا زلل ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾] سورة الزمر ,٢٨[وكان نزوله على صورة واحدة وهيئة واحدة بلا تغيير أو تبديل، وكان يعرض على الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في كل عام مرّة وفي آخر حياته الشريفة مرّتين، وفي كل مرّة كانت القراءة كسابقتها، لا تزحزح عنها بحرف أو حركة أو إعجام أو بنبر أو همز أو شيء من هذا القبيل، ولو حصل هذا –كما يزعم المشهور من غير الشيعة– لاشتهر وذاع، ولصار حديث الساعة بين الصحابة، فلا تفتأ الأخبار تذكر الوقت الذي تغيّرت فيه القراءة، وفي أي شهر ومن أية سنة جاء جبريل عليه السلام مغيرا بعض الكلمات والأحرف، ولسارت بهذا الركبان وتناقلته الكبار والصغار، ولطبّل المشركون له أيما تطبيل ولأثاروا هذا الأمر ووجهوه طعنة قوية وقاتلة في قلب القرآن والدعوة الإسلامية، وكما هو معلوم لا شيء من هذا وصلنا، لا من أهل التاريخ ولا من أرباب السير ومدوني المصنفات ولا حتى من أصحاب المسانيد والجوامع، فحيث لم يصلنا أي خبر عن تغيير الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قراءته يوما ما نعلم وبلا ريب أن قراءة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم للقرآن طيلة حياته كانت على صورة واحدة ثابتة لم تتغير ولم تتبدل [194]" اهـ

---

[193] هناك رأي آخر يقول بأن سبب نشأة القراءات هو إجازة النبي(ص) قراءة القرآن بلهجة القبيلة لمن يعسر عليه نطق حروف معينة. فمن المعلوم أن بعض القبائل كانت تنبر بعض الحروف وبعضها لا بنير، وهكذا. وفي هذه الإجازة تخفيف على من يدخل الإسلام من غير العرب،فالأوروبيون مثلا لا ينطقون حرف الحاء، فلو دخل بعضهم في الإسلام –وكثيرا ما يحدث– وتعلم العربية وأراد أن يقرأ القرآن ستقابله مشكلة وهي أنه لا يستطيع أن ينطق بعض الحروف مثل حرف الحاء أو العين، فهل يأثم إذا قرأ الحاء هاءا؟ وهل يعد هذا من باب التحريف؟ بداهة لا، هذا من باب التيسير والسعة في دين الله، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها، ولكن لا يعني هذا أن ما يقرأه هذا الأوروبي قراءة جائزة للقرآن –واردة عن رسول الله– يمكن أن يقرأ بها غيره من الأوروبيين بل هي من باب الضرورة ومن استطاع أن يقرأ بالحروف الأصلية فعليه أن يفعل، و هذا هو سبب نشأة مسألة القراءات التي توسعت بعد ذلك!

[194] أبو عمر صادق العلائي، إعلام الخلف بمن قال بتحريف القرآن من أعلام السلف.

أما مسألة وجود قراءة واحدة ثابتة مشهورة عن النبي ترجع إليها القراءات الأخرى فأمر بين لا يحتاج إلى التدليل عليه ولكن يذكر الشيخ أبوعمر العلائي بعض الأدلة على ذلك:

1- عندما كتب المصحف في زمن عثمان لم ينقل لنا التاريخ توقف الكتبة إلا في مواضع قليلة وهي (تابوت) و(يتسنه) و(منسأته) وهذا يعني أن الموارد الأخرى كانت واضحة ومعلومة، وحتى هذه الموارد لا يدل توقفهم فيها على عدم وضوحها بل كان الخلل في الكتبة لا أكثر من ذلك، لذلك بين حالها أبي بن كعب بكل سهولة ويسر.

2- التغيير الذي حدث على خط القرآن الكريم بتشكيل حروفه وتنقيطها دليل على وجود قراءة متواترة تم التنقيط والتشكيل على أساسها.(وإلا لما كان هناك أولوية في الأخذ بقراءة معينة في التشكيل والتنقيط عن قراءة أخرى، فكلها يفترض أنها ثابتة عن النبي فلم لم تثبت كلها إذا؟!) فهذا أبو الأسود الدؤلي نقّط المصحف نقط إعراب ولا يمكن أن يتسنى له ذلك لو لم يجد عند المسلمين قراءة ثابتة ومشهورة. وكذلك تلميذه يحيى بن يعمر العدواني فقد نقطه نقط إعجام، فكيف قدر على أن ينقط المصحف مع وجود التغاير والاختلاف في قراءة الكلمة الواحدة الناشئ من اختلاف مواضع النقط؟![195]

3- إن حصر وتحديد موارد اختلاف بعض الصحابة في القراءة واشتهارهم بهذه المخالفات من دون الجميع، يثبت لنا وجود قراءة متواترة ومشهورة تقاس عليها الشواذ وإلا لو كان لكل صحابي قراءة خاصة لما صح تميّز هذا الصحابي بالقراءة لولا أنه كان يقرأ بعض كلمات القرآن بشكل غير معهود ومعروف.

---

(195) على الرغم من عدم اقتناعنا بمسألة تنقيط المصحف هذه على يد أبي الأسود الدؤلي، -فنحن نؤمن بأن الرسول المصطفي ترك المصحف منقوطا، أما التشكيل فنحن لا نخوض فيه- ولكن نحن نقل ما يسلم به الناس.

4- كثير من الروايات تذكر استشهاد الصحابة والتابعين ومن بعدهم بآيات القرآن الكريم المختلف في قراءتها بين القراء فنجدها مطابقة لما نقرؤه اليوم وكما هي مثبتة في المصحف."[196] اهـ

بداهة هذه الأدلة أكثر من كافية في هذه المسألة، ولكن القارئ السني سيتردد كثيرا في قبول هذه الأدلة، فالمسألة مترسخة في وجداننا وتراثنا، فهل من المعقول أن كل هذا التراث باطل أو لا حاجة إليه؟ وحتما هناك خطأ في رأي الشيعة في هذه المسألة، فمستند علماء أهل السنة في القول بالقراءات كثير من الأحاديث والروايات التي تعطي رأيهم وزنا لا يمكن رده بمثل هذه الأقوال، فما هو رد الشيعة إذن على هذه الروايات وأقوال العلماء؟ سنعرض للقارئ الكريم رد علماء الشيعة على هذه الأقوال وكيف يظهرون أنها متناقضة وأن الروايات الواردة في هذه المسألة متناقضة تناقضا كان يوجب سقوطها كلها وعدم الاحتجاج بها، ولكن -وبقدرة قادر- قُبلت الروايات المتناقضة كلها!! وأسس عليها علم كامل! ونعرض للقارئ الكريم الروايات وأقوال العلماء ليرى بنفسه كم هي متناقضة حائرة: أولا: كم هو عدد أحرف القرآن؟

الشائع والمشهور أنها سبعة أحرف، ولكن هل هذا ما تقوله الروايات؟ لا، لقد وردت الروايات بأعداد مختلفة للأحرف التي عليها القرآن!، منها: حرفٌ واحد، كما في كنز العمال: "أتاني جبريل فقال: اقرأ القرآن على حرفٍ واحد". نزل على ثلاثة أحرف، كما في المستدرك على الصحيحين للحاكم وكما في غيره: "عن سمرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: أنزل القرآن على ثلاثة أحرف". أربعة أحرف كما في كنز العمال: "أنزل القرآن على أربعة أحرف: حلالٌ وحرام، لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب". (هنا توضيح للمعنى المقصود بالحرف) خمسة أحرف كما جاء في تفسير الطبري: "عن عبد الله بن مسعود قال: إن الله أنزل القرآن على خمسة أحرف:

---

[196] المرجع السابق.

حلالٌ وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال فأحل الحلال وحرّم الحرام واعمل بالمحكم وآمن بالمتشابه واعتبر بالأمثال".

نزل على سبعة أحرف كما في صحيح البخاري ومسلم: "عن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: سمعت هشام بن حكيم بن حزام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرأها وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرأنيها، وكدت أعجل عليه ثم أمهلته حتى انصرف ثم لببته بردائه فجئت به رسول الله صلى الله عليه (وآله) وسلم فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها، فقال لي: أرسله. ثم قال له: أقرأ، فقرأ. قال: هكذا أنزلت، ثم قال لي: اقرأ. فقرأت، فقال: هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر".

ونظرا لشعور مؤصلي هذه المسألة باختلافها عن كل الكتب المنزلة سابقا، وجدنا رواية في مستدرك الحاكم تشير إلى هذا: "عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف".!!! عشرة أحرف كما في كنز العمال: "أنزل القرآن على عشرة أحرف، بشير ونذير وناسخ ومنسوخ وعظة ومثل وحكم ومتشابه وحلال وحرام".

وهذا أول وجه من وجوه التضارب في الأدلة، ولا قيمة لرأي ترجيحي في هذه المسألة، لأنها ترجيحات ورد لروايات أخرى! لذا لا يعترض بأن أهل السنة اتفقوا على أنها سبعة أحرف، لأن بعضها تدعي خلاف ذلك وهي صحيحة السند. ثم إن هذه الروايات لا تشير إلى أن المقصود من الحروف هي القراءات بل يظهر أن المقصود منها هو تقسيم القرآن! كما أن الروايات نفسها متعارضة المعنى والمبنى والمضمون، وفي هذا يقول أبو عمر: "اختلفت الروايات في المقصود من الحرف إلى معنيين: المعنى الأول: نزول آيات القرآن على سبعة أشكال مترادفة في المعنى، ويدل على هذا المعنى الغريب كثيرٌ من الروايات الصحيحة في مصنفات أهل السنة، وهو الرأي المشهور بين علماء أهل

السنة، ولننقل هنا الروايات عليه: "عن سليمان بن صرد عن أبي بن كعب قال: قرأت آية وقرأ ابن مسعود قراءة خلافها فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فقلت: ألم تقرأني آية كذا وكذا؟ قال ابن مسعود: ألم تقرأنيها كذا وكذا؟ قال: بلى. قال: كلاكما محسن مجمل. قلت: ما كلانا أحسن ولا أجمل! فضرب في صدري وقال: يا أُبي! أقرئت القرآن، فقيل لي: على حرف أم على حرفين؟ فقال الملك الذي معي: على حرفين. فقلت على حرفين؟ فقيل لي: على حريفين أم ثلاثة؟ فقال لي الملك: الذي معي على ثلاثة. فقلت: ثلاثة؟ حتى بلغ سبعة أحرف، قال: ليس فيها إلا شاف كاف. قلت: غفور رحيم، عليم حليم، سميع عليم،عزيز حكيم "... عن أبي بكرة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال أتاني جبرئيل وميكائيل عليهما السلام فقال جبريل عليه السلام اقرأ القرآن على حرف واحد فقال ميكائيل استزده فقال اقرأه على سبعة أحرف كلها شاف كاف ما لم تختم آية رحمة بعذاب أو آية عذاب برحمة ". ورواية أخرى عن أبي بكرة توضح مقصود السابقة: "قال–صلى الله عليه وآله وسلم–: كل شاف كاف ما لم تختموا آية عذاب برحمة أو آية رحمة بعذاب نحو قولك تعال، وأقبل، وهلم، واذهب، وأسرع، وأعجل"[197]. هذه الروايات تعطي للأحرف السبعة معنى صريحا لا يقبل التأويل،

---

[197] كنت أنتظر أن يكثر علماء أهل السنة من الانكار على هذه الروايات ولكن للأسف لم نجد –تقريبا– من أغلظ القول في ردها –كما يجب على كل مسلم– إلا الإمام بن حزم رحمه الله رحمة واسعة حيث قال في كتابه "الإحكام في اصول الأحكام: "وأما من حدّث وأسند إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقصد التبليغ لما بلغه عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يحل له إلا أن يتحرى الألفاظ كما سمعها لا يبدل حرفاً مكان آخر وإن كان معناهما واحداً، ولا يقدّم حرفاً و لا يؤخر آخر، وكذلك من قصد تلاوة آية أو تعلمها و تعليمها ولا فرق، وبرهان ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم علم البراء بن عازب دعاء فيه (ونبيك الذي أرسلت)، فلما أراد البراء أن يعرض ذلك الدعاء على النبي صلى الله عليه وسلم قال (وبرسولك الذي أرسلت) فقال النبي عليه السلام: لا، ونبيك الذي أرسلت، فأمره عليه السلام كما تسمع ألا يضع لفظة (رسول) في موضع لفظة (نبي) وذلك حق لا يجيل معنى وهو عليه السلام رسول ونبي، فكيف يسوغ للجهال المغفلين أو الفساق المبطلين، أن يقولوا: إنه عليه السلام كان يجيز أن توضع في القرآن مكان (عَزيزٌ حكيم) (غفورٌ رحيمٌ) أو (سميعٌ عليمٌ) وهو يمنع من ذلك في دعاء ليس قرآنا، والله يقول مخبراً عن نبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿... مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلۡقَآيِٕ نَفۡسِيٓ ... ﴿١٥﴾﴾] سورة يونس ,١٥[. وقال في موضع آخر: "فحرام على كل أحد أن يظن أن شيئا أخبر رسول الله صلى الله عليه أمته لا تطيق ذلك، وأن عثمان حمل الناس عليه فأطاقوه، ومن أجاز هذا فقد كذب رسول الله صلى الله عليه في قوله لله تعالى (إن أمته لا تطيق ذلك)، ولم ينكر الله تعالى عليه ذلك ولا جبريل عليه السلام وقال هؤلاء المجرمون: إنهم يطيقون ذلك، وقد أطاقوه فيا لله ويا للمسلمين! أليس هذا اعتراضا مجردا على الله عز وجل مع التكذيب لرسوله صلى الله عليه وسلم؟ فهل الكفر إلا هذا؟ نعوذ بالله العظيم أن يمر بأوهامنا فكيف أن نعتقده؟!"

وهو إمكان قراءة القرآن بألفاظ متعددة متغايرة على سبعة أنحاء وكلها من القرآن، وقد ذهب لهذا الرأي جمهور علمائهم سلفا وخلفا وسيأتي ذكر بعض منهم بإذنه تعالى، وعلى أي حال فرواياتهم في هذا المعنى صريحة. المعنى الثاني: الآيات القرآنية مدارها على سبعة مضامين: ذكرت بعض رواياتهم في معنى الأحرف السبعة أن آيات القرآن مفرزة إلى سبعة أقسام من المعاني والمضامين، وكما ترى فإن هذا المعنى متضارب مع المعنى السابق ومباين له، ولا بأس باستعراض شيء منها: عن ابن مسعود رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: نزل الكتاب الأول من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجراً، وآمراً، وحلالاً، وحراماً، ومحكماً، ومتشابهاً، وأمثالاً فأحلوا حلاله وحرموا حرامه وافعلوا ما أمرتم به وانتهوا عما نهيتم عنه واعتبروا بأمثاله وعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه وقولوا أمنا به كل من عند ربنا "كلماتهم في معنى الأحرف السبعة: كلمات بعض المتخبّطين: وصلت استمزاجات القوم في تفسير معنى الأحرف السبعة إلى أربعين قولا وذلك إلى زمان العلامة جلال الدين السيوطي، والله العالم إلى إي عدد وصلت اليوم! (...)

ولننقل هنا ما في الإتقان من وجوه الاختلاف والتضارب في معناها: "قال ابن حبّان: اختلف أهل العلم في معنى الأحرف السبعة على خمسة وثلاثين قولاً! فمنهم من قال: هي زجر وأمر وحلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال. الثاني: حلال وحرام وأمر ونهي وزجر وخبر ما هو كائن بَعْدُ وأمثال. الثالث: وعد ووعيد وحلال وحرام ومواعظ وأمثال واحتجاج. الرابع: أمر ونهي وبشارة ونذارة وأخبار وأمثال. الخامس: محكم ومتشابه وناسخ ومنسوخ وخصوص وعموم وقصص. السادس: أمر وزجر وترغيب وترهيب وجدل وقصص ومثل. السابع: أمر ونهي وحدّ وعلم وسرّ وظهر وبطن. الثامن: ناسخ ومنسوخ ووعد ووعيد ورُغم وتأديب وإنذار. التاسع: حلال وحرام وافتتاح وأخبار وفضائل وعقوبات. العاشر: أوامر وزواجر وأمثال وأنباء وعتب ووعظ وقصص. الحادي عشر: حلال وحرام وأمثال وأنباء ومنصوص وقصص وإباحات. الثاني عشر: ظهر وبطن وفرض وندب وخصوص وعموم وأمثال. الثالث عشر: أمر ونهي ووعد ووعيد وإباحة وإرشاد

واعتبار. الرابع عشر: مقدّم ومؤخّر وفرائض وحدود ومواعظ ومتشابه وأمثال. الخامس عشر: مفسَّر ومجمل ومقضيّ ونَدْب وحتم وأمثال. السادس عشر: أمر حتم وأمر ندب ونهي حتمْ ونهي مرشد ووعد ووعيد وقصص. السابع عشر: أمر فرض ونهي حتم وأمر ندب ونهي مرشد ووعد ووعيد وقصص. الثامن عشر: سبع جهات لا يتعدّاها الكلام: لفظ خاصّ أريد به الخاصّ، ولفظ عام أريد به العام، ولفظ عامّ أريد به الخاص، ولفظ خاص أريد به العام، ولفظ يستغْنى بتنزيله عن تأويله، ولفظ لا يعلَم فقهه إلاَّ العلماء، ولفظ لا يعلم معناه إلاَّ الراسخون. التاسع عشر: إظهار الرُّبوبية وإثبات الوحدانية وتعظيم الأُلوهيّة والتعبّد لله ومجانبة الإشراك والترغيب في الثواب والترهيب من العقاب. العشرون: سبع لغات، منها خمس من هوازن واثنتان لسائر العرب. الحادي والعشرون: سبعة لغات متفرِّقة لجميع العرب، كلّ حرفٍ منها لقبيلة مشهورة.! الثاني والعشرون: سبع لغات، أربع لعجُز هوازن: سعد بن بكر وجُشم بن بكر ونصْر بن معاوية، ثلاث لقريش.!! الثالث والعشرون: سبع لغات: لغة قريش ولغة اليمن ولغةُ لجرْهم ولغة لقُضاعة ولغة لتميم ولغة لطيّئ. الرابع والعشرون: لغة الكعبيين: كعب بن عمرو وكعب بن لؤيّ ولهما سبع لغات. الخامس والعشرون: اللغات المختلفة لأحياء العرب في معنىً واحد، مثل: هلمّ وهات وتعال وأقبل. السادس والعشرون: سبع قراءات لسبعة من الصحابة: أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ –عليه السلام– وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب رضي الله عنهم. السابع و العشرون: همز وإمالة وفتح وكسر وتفخيم ومدّ وقصر. الثامن والعشرون: تصريف ومصادر وعروض وغريب وسجُع ولغات مختلفة كلُّها في شيء واحد. التاسع والعشرون: كلمة واحدة تُعْرَب بسبعة أوجه، حتى يكون المعنى واحداً، وإن اختلف اللفظ فيه. الثلاثون: أُمّهات الهجاء: الألف والباء والجيم والدال والراء والسين والعين لأن عليها تدور جوامع كلام العرب. الحادي والثلاثون: أنّها في أسماء الربّ مثل: الغفور الرحيم، السميع البصير، العليم الحكيم. الثاني والثلاثون: هي آية في صفات الذات، وآية تفسيرُها في آية أُخرى، وآية بيانها في السنّة الصحيحة، وآية في قصّة الأنبياء والرُّسل، وآية في خلْق الأشياء، وآية في وصف الجنّة، وآية في وصف النار. الثالث والثلاثون: آية في وصف الصانع، وآية في إثبات الوحدانيّة له، وآية في

إثبات صفاته، وآية في إثبات رسله، وآية في إثبات كتبه، وآية في إثبات الإسلام، وآية في نفي الكفر. الرابع والثلاثون: سبع جهات من صفات الذات لله التي لا يقع عليها التكييف. الخامس والثلاثون: الإيمان بالله ومباينة الشِّرك وإثبات الأوامر ومجانبة الزّواجر والثبات على الإيمان وتحريم ما حرّم الله وطاعة رسوله "!!.[198] اهـ

فانظر أخي مقدار التخبط في تحديد معنى الحروف للاختلاف الشديد للروايات الورادة فيها واستحالة الخروج منها بمعنى محدد، حتى أن الإمام بن الجزري –وهو من هو في العلم– يقول في كتابه: النشر في القراءات العشر: "ولا زلت أستشكل هذا الحديث –الأحرف السبعة– وأفكر فيه وأمعن النظر من نحو نيف و ثلاثين سنة حتى فتح الله علي بما يمكن أن يكون صوابا إن شاء الله تعالى، وذلك إني تتبعت القراءات صحيحها وضعيفها وشاذها فإذا هي يرجع اختلافها إلى سبعة أوجه"! اهـ

فالحديث مشكل باعتراف أكابر العلماء، وما أقوالهم إلا محاولة للتوفيق! وعلى الرغم من ذلك تقبل الروايات وتفسر بأي شكل كان، المهم ألا ترد، بل إن هناك تفسيرات أخرى لهذه الحروف السبعة، وهو ما فقد ذهب إليه ابن قتيبة وبعض المتأخرين، فيقول ابن قتيبة: "إن المراد بالأحرف السبعة، الأوجه التي يقع بها التغاير:

فأولها: ما تتغير حركته ولا يزول معناه ولا صورته، مثل "ولا يُضارَّ كاتِبٌ" بفتح الراء وضمها.

وثانيها: ما يتغيّر بالفعل مثل "بَعَّدَ و باعِدْ" بلفظ الطلب والماضي

وثالثها: ما يتغير باللفظ مثل "نُنْشِرها و نُنْشِزُها" بالراء المهملة والزاي المعجمة.

ورابعها: ما يتغيّر بإبدال حرفٍ قريب المخرج مثل "طلحٍ منضود و طلعٍ منضود".

وخامسها: ما يتغيّر بالتقديم والتأخير مثل "جاءت سكرة الموت بالحق، وجاءت سكرة الحق بالموت.

---

[198] المصدر السابق.

وسادسها: ما يتغير بالزيادة والنقصان مثل "وما خلق الذكر والأنثى" بنقص لفظ "ما خلق"

وسابعها: ما يتغير بإبدال كلمة بأخرى مثل "كالعهن المنفوش، وكالصوف المنفوش[199]"اهـ

وكما نرى فقد حاول الإمام بن قتيبة تفسير الحديث بشكل مقبول ولكن الملاحظ أن تفسيره مخالف لما جاء في الأحاديث، فليس هو من باب المعاني المترادفة! ولا من باب أقسام القرآن! ولكن كل رأي في تفسير الأحاديث ولو كان بعيدا فهو جائز حتى لا ترد الروايات التي صحت وقُبلت –بلا مستند من القرآن!–. ولأنه ليس هناك ما يمكن به تحديد القراءة الصحيحة من غير الصحيحة –والتي يفترض في كل واحدة منها التواتر وجدنا الإمام ابن الجزري يقول: "كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا، وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أُطلق عليها ضعيفة، أو شاذة، أو باطلة سواء كانت من السبعة أم عمن هو أكبر منهم. هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف."اهـ

فهل يمكن قبول هذا القول؟ للأسف وجدنا أن العلماء قبلوا هذا القول وجعلوه عمدتهم! مع أنه محكّم للبشر في كتاب الله ويجعله تابعا لهم في قبوله أو رده!، مناقض للتواتر الذي يؤمنون به فكيف يكون هناك تواتر وسند في آن واحد؟!، فاتح لباب رد كتاب الله بحجة مخالفة العربية!

أما الأدلة على بطلان هذه الأقوال فواضحة جلية ولا تحتاج من المرء إلى استدلال إلا لاستغلاق أدمغة المقلدة على ما جبلوا عليه، لذا لا بد من التفصيل في كل بدهية، لذا نعرض الأدلة على ذلك:

---

[199] محمد عبد العظيم الزرقاني, مناهل العرفان في علوم القرآن.

"1- لا دليل يمكن التمسك به لإثبات هذا الأصل، وقد مرّ ذكر الروايات وتبيّن لنا أنها متعارضة في بيان عدد تلك الأحرف، وهي على خمسة أقسام، وبعد أن رجّحنا ما رجحه أهل السنة سبعناها لهم، ثم حصل التعارض من جديد في معنى هذه السبعة وانقسمت الروايات إلى قسمين، كل قسم لا يلتقي مع القسم الآخر....

2- المعارضة لصريح القرآن، فهذا المعنى من الأحرف السبعة يعني جواز نسبة ألفاظ ليست في مصحفنا للقرآن بدعوى أن لها معنى واحد تمسكا بما ادُّعي أنه قول للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: "كل شافٍ كافٍ ما لم تختم آية عذاب برحمة أو رحمة بعذاب، نحو قولك: تعالَ وأقبل وهلمّ واذْهب وأسرع وعجِّل"، وهذا اللفظ رواية أحمد، وإسناده جيد ". وهذا الأصل المنحرف والمستند المائل يتعارض مع صريح الآيات التي تحظر على الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم التصرف في ألفاظ الآيات الكريمة وتغيرها من تلقاء نفسه، وتوجب عليه اتباع ما يوحى إليه بلا زيادة ولا نقصان ولا تبديل، وإلاّ لاستوجب العذاب الأليم جزاء للكذب على الله عز وجل –والعياذ بالله– ونسبة ما ليس منه إليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة يونس ,١٥-١٧]. فهذه الآية تناقض ذلك الأصل الذي يجوِّز افتراء الكذب على الله عز وجل فيدعي كل قارئ قرآنية كل ما يحلو له، فيصبح ويقول إن هذه الآية قالها الله عز وجل هكذا، ويمسي ويقول قالها بشكل آخر وهكذا، فيغير ألفاظ القرآن ويبدلها بدعوى أن هذا التبديل إنما هو من تلك الأحرف، وكله كذب على الله وافتراء فإن قول فلان ليس هو قول الله، ثم ما يدريه أن هذا هو قول الله عز وجل بعينه؟! ثم ما نفعل بمثل الآيات التي يستفاد منها عدم تغيير آيات الله وتبديل كلماته بغيرها كقوله تعالى:

﴿وَٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدٗا ٢٧﴾]سورة الكهف ,٢٧[.

3 – امتراء نفر من التابعين في القراءة: "أخرج سعيد بن منصور والطبراني عن الأخنس قال: امترينا في قراءة هذا الحرف (ويعلم ما يفعلون) أو (تفعلون) فأتينا ابن مسعود فقال (تفعلون)"[200] اهـ

فلو كانت هناك قراءات مختلفة لما حدث هذا التماري ولا الاختلاف ولبرر أحدهم فعله على الأقل بقوله: أليست قراءة، ألا يمكن قراءتها بهذا الشكل!، ولكن لم يحدث هذا بل وجدنا أن النبي(ص) ينهي عن ذلك وكذلك الصحابة ينفون ذلك، ففي مسند أحمد عن ابن مسعود قال: "تمارينا في سورة من القرآن فقلنا خمس وثلاثون آية، ست وثلاثون آية قال: فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوجدنا عليا رضي الله تعالى عنه يناجيه، فقلنا: إنا اختلفنا في القراءة. فاحمر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال علي رضي الله تعالى عنه: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمركم أن تقرؤوا كما علمتم".

نخرج من هذا كله أن رأي الشيعة في هذه المسألة هو الراجح بإذن الله وأن عقيدتهم أن القرآن واحد من عند الواحد صحيحة بإذن الله، وإذا لم يقبلها أهل السنة فلا يُنكر على الشيعة فيها لقوة أدلتهم فيها.

الشيعة والسنة النبوية

بعد أن تحدثنا عن موقف الشيعة من القرآن، ننتقل لنتحدث عن موقف الشيعة من السنة النبوية، هل يأخذون بها، وما هي شروط تقبلهم لها؟ يختلف منهج الشيعة عن منهج أهل

[200] المرجع السابق.

السنة في تلقي الروايات والآثار، فعندنا في أهل السنة تُقبل الروايات من أي صحابي كان عن النبي المصطفى، وتؤخذ أقوال وأفعال النبي كجزء متمم للقرآن في التحليل والتحريم، بل وتؤخذ أقوال وأفعال الصحابة –والتابعين أحيانا!– كحجة، إذا لم يوجد الدليل في الكتاب والسنة –وهذا من المستحيلات عقلا ونقلا، ولست أدري كيف أصل أهل السنة لقاعدة عدم وجود دليل في كتاب الله على مسألة من المسائل؟!!–، كما يلتزم أهل السنة نقد الحديث سندا ومتنا، والتركيز في نقد السند عند أهل السنة أكبر من نقد المتن، لذا توجد عند أهل السنة بعض المناكير في الحديث ويتوقف علماء الحديث فيها ولا يردونها، لأن الحديث صح عندهم سندا.

أما الشيعة فلا يقبلون الروايات إلا إذا كانت من طريق أهل البيت عن النبي(ص) أو من أقوالهم أنفسهم، لأنهم أئمة معصومون وما يقولونه فهو حتما ولزاما من عند الله ويرون أنهم توارثوه كابرا عن كابر، مع أنهم في هذا مثل غيرهم، حيث أخذوا ما رواه الصحابة والتابعون رضوان الله عليهم والشيعة لا تقبل روايات الصحابة من غير أهل البيت لأنهم واحد من اثنين: إما من قاتل الإمام علي فهو كافر لا تؤخذ رواياته أو لم يكن من المقاتلين في مجهول الحال ولا دليل على تزكيته فيتوقف في قبول رواياته، لذا فلا تؤخذ الرواية إلا من أهل البيت.

وهذا تصور كهنوتي يوحي بأن النبي المصطفي خص أهل بيته بشيء من العلم ولم يكن عند غيرهم! كما أن الشيعة لا يهتمون كثيرا بنقد سند الأحاديث لأن عندهم قاعدة أخرى –لا يطبقونها للأسف الشديد وإن كانوا ولا يزالون يدعون أنهم لها من المطبقين– وهي عرض الأحاديث على القرآن، فما وافقه أخذوه وما عارضه أو زاد عليه فهو زخرف لورود الروايات الصيحيحة عن أهل البيت في هذا الشأن بحتمية العرض منها: عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "إن على كل حق حقيقة، وعلى كل صواب نورا، فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه".، وعن أبي عبدالله عليه السلام قال: خطب النبي صلى الله عليه وآله بمنى فقال: أيها الناس ما جاء كم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاء كم يخالف كتاب

اللّه فلم أقله."، وعن عبد اللّه بن أبي يعفور، قال: سألت أبا عبد اللّه عليه السلام عن اختلاف الحديث يرويه من نثق به ومنهم من لا نثق به؟ قال: إذا ورد عليكم حديث فوجدتم له شاهدا من كتاب اللّه أو من قول رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله، وإلا فالذي جاء كم به أولى به."، وعن أيوب بن الحر قال: سمعت أبا عبداللّه عليه السلام يقول: "كل شئ مردود الى الكتاب والسنة، وكل حديث لا يوافق كتاب اللّه فهو زخرف".[201]

ولو طبق الشيعة هذه الأحاديث لاختفت كل المنكرات في مذهبهم ولكن للأسف لم يطبقوا هذا المبدأ كما ينبغي ولا حتى خمس ما ينبغي، ولكنه مبدأ موجود للتعامل مع روايات المخالفين فقط، أما رواياتهم هم فتدخل من أوسع الأبواب. ولكن الملاحظ أن الشيعة لم تستمر على هذا المنهاج الذي كان يتبعه الأخباريون في بادئ الأمر من قبول أي رواية تنسب إلى أهل البيت، بل أخذوا في إنشاء علم مصطلح الحديث الخاص بهم على غرار أهل السنة، ولكن هذا العلم نشأ متأخرا، فلم يكن للشيعة كتاب في أحوال الرجال حتى ألف الكاشاني في المائة الرابعة كتابا لهم في ذلك، وهو كتاب غاية في الاختصار، وقد أورد فيه أخبارا متعارضة في الجرح والتعديل وليس في كتب رجالهم الموجودة إلا حال بعض رواتهم كما أن المتتبع لأخبار رجالهم يجد أنه كثيرا ما يقع غلط واشتباه في أسماء الرجال أو آبائهم أو كناهم أو ألقابهم. وقد كان التأليف في

[201] يقول المحدث الشيعي المعاصر هاشم معروف الحسيني في كتابه: الموضوعات في الآثار والأخبار: "وبعد التتبع في الأحاديث المنتشرة في مجامع الحديث ك "الكافي"، و"الوافي" وغيرهما، نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمة الهداة، لم يتركوا باباً من الأبواب إلا ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمة والإساءة إلى سمعتهم. وبالتالي رجعوا إلى القرآن الكريم، لينفثوا عن طريقه سمومهم ودسائسهم، لأنه الكلام الوحيد، الذي يتحمل ما لا يتحمله غيره، ففسروا مئات الآيات بما يريدون وألصقوها بالأئمة الهداة زوراً وتضليلاً، وألف علي بن حسان وعمه عبد الرحمن بن كثير، وعلي بن حمزة البطائني كتباً في التفسير، كلها تخريف وتحريف وتضليل ولا تنسجم مع أسلوب القرآن وبلاغته وأهدافه."اهـ

ويعلق الأستاذ محمد عمراني على هذه النقطة قائلا: ولا يخفى أن كل ما نقل عن أئمة آل البيت، لا يمكن أن يخالف بحال، القرآن الكريم، ولا ما أجمع عليه المسلمون. لذلك كان قولهم بإرجاع كل ما نقل عنهم، إلى رائزية ومعيارية القرآن الكريم، في فرز صحيح الأخبار من سقيمها، قولا لا شبهة فيه، وذلك لدرء مفاسد هذه الظاهرة الملفتة للنظر بالذات، التي تفشت بين الغلاة، في اجترائهم على الافتراء والكذب عليهم. فكان أن طلع الغلاة بسلاح جهنمي مضاد، وهو القول ب "تحريف القرآن"!، ليسدوا طريق النجاة والرجعة على أكثر هؤلاء البسطاء، والغمر المغفلين.

أصول الحديث وعلومه معدوما عندهم حتى ظهر زين الدين العاملي الملقب عندهم بالشهيد الثاني (ت 965هـ).

أما تقسيم الشيعة للأحاديث إلى صحيح وضعيف فلم يكن إلا في القرن السابع، كما يقول الحر العاملي: "أن هذا الاصطلاح مستحدث، في زمان العلامة أحمد ابن طاوس، كما هو معلوم،" أما سبب الظهور المتأخر لهذا العلم فهو رغبة الفرقة في تحصين المذهب أمام أهل السنة، فلم يعد من الممكن الاعتماد فقط على الروايات –الخرافية– كما كان الحال في الماضي وخاصة بعد ظهور العديد من الكتب عند أهل السنة التي قعدت الأصول التي يتحرك على أساسها المذهب مثل ووجود العلوم الممنهجة التي يتحرك تبعها طالب العلم السني، وليس كما عند الشيعة من وجود أخبارمتناثرة متعارضة يشكو منها أهل الطائفة نفسها، كما قال شيخهم محمد بن الحسن الطوسي في تهذيب الأحكام: "لا يكاد يتفق خبر إلا وبإزائه ما يضاده، ولا يسلم حديث إلا وفي مقابلته ما ينافيه"، وكما اشتكى الشيخ الفيض الكاشاني صاحب الوافي "تراهم يختلفون في المسألة الواحدة على عشرين قولاً أو ثلاثين قولاً أو أزيد؛ بل لو شئت أقول لم تبق مسألة فرعية لم يختلفوا عليها أو في بعض متعلقاتها". ولكن الظهور المتأخر جدا سبب إشكالية كبيرة لهذا العلم عند الشيعة، فأتى مهلهلا يصعب جدا أن يوصف بأنه علم، ويعلق الأستاذ المحدث عمراني عن إشكالية علم مصطلح الحديث عند الشيعة قائلا: "الإشكال هنا جاء من التوثيق نفسه الذي لا يقوم على أساس سليم، وذلك لعدة أسباب منها:

أولاً: أن أبا العباس أحمد بن علي النجاشي (ت: 450هـ)، والشيخ أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت: 460هـ) وهما عمدة الجرح والتعديل لدى الإحدى عشرية، إنما يوثقان رجالهما بالحدس والتخمين! وليس بالشهادة والمعاصرة والحس، فكلاهما، لم يعاصرا الأئمة ليوثقا الرواة عنهم، وقد جاءا بعدهم بقرنين من الزمان وزيادة، ولا أنهما يسندان قولهما في التوثيق إلى أحد قبلهما!. وهذا يعني أن مصطلح "ثقة" كما نعت به الرواة هنا، لا دلالة له في واقع الأمر، ولا يشير إلى مدلول بعينه!.

ثانياً: أن كتب الرجال عندهما سواء فيما يخص فهرست النجاشي أو رجال الطوسي أو فهرسته، هي جميعها فهارس بمؤلفات المؤلفين فحسب، وليست بكتب في علم الرجال في الجرح والتعديل أو التوثيق الاصطلاحي للرواة!، حتى وهما يشيران عرضاً وبين الفينة والأخرى لأحد هؤلاء المؤلفين، بأنه ثقة، أو ثقة عين، أو ما شابه ذلك!. فهذا من جانبهما تصرف من باب الاستطراد، وليس حكماً على الرجل بما في نفس الأمر!، لأن غرضهما في هذين المؤلفين هو الوصول إلى مصنفات المؤلف وليس البحث والتنقيب والتفتيش في حال المؤلف وشخصه.

ثالثا: إن كثيراً من الرواة لم يكونوا مؤلفين، وبالتالي فلا ذكر لهم في هذين المؤلفين. وسنجد كتب رجال المتأخرين مثل رجال الاسترابادي أو الشيخ عبد الله المامقاني أكثر استيعاباً، لإيرادهما لأسماء المتأخرين وإن لم تكن كتبهم الرجالية هذه، بأكثر غنية في مجالها، لأنها لا تستطيع أن تضيف جديداً على ما قاله النجاشي أو الطوسي قبلهما!.

رابعاً: حتى فيما يخص التصنيف في "الطبقات" وهو عمل ضروري للتيقن من تحمل التلاميذ عن المشايخ، فهو لم يكن موجوداً أو معمولاً به لدى قدماء المفهرسين الإحدى عشرية، لأنه كان خارج أغراضهم، ولن يستحدث كمصطلح ولأول مرة سوى من طرف آية الله السيد البروجردي في خمسينيات القرن العشرين. وهو إجراء ضروري في النقدية التاريخية، ويستعمل عادة كرائز في غربلة الإرسال والتدليس، خصوصاً في الأخبار المعنعنة، أو أخبار أولئك الذين لم يقف أئمة الجرح والتعديل على تواريخ ولادتهم أو وفياتهم، على ما تبين لك من نجاعتها أثناء تشغيلنا لها فيما تقدم من أمثلة، أو للتفريق بين الأسماء المشتركة وغيرها من النكت والدقائق النقدية، كما تطورت ومنذ القرن الثاني الهجري لدى السنة، كما نجد ذلك مبكراً عند محمد بن سعد بن منيع الزهري (168هـ – 230هـ)، في "طبقاته الكبرى".

قلت: وبالرغم من كون الشيخ الطوسي قارب مثل هذا العمل في كتابه: "الفهرست" حيث قسم الرواة بحسب من روى منهم عن الرسول(ص) أو الأئمة الواحد تلو الآخر،

إلا أنه لم يستعمل قط مصطلح "الطبقات"، مع أنه كان شائعاً لدى السنة ومنذ أواخر القرن الثاني الهجري وبداية القرن الثالث!. بل لن يبدأ التفكير في التأليف في موضوع الطبقات عند الإحدى عشرية، سوى عند المتأخرين، كما نجد عند المولى محمد بن علي الأردبيلي (ت: 1100هـ) في "جامع الرواة"، وعند السيد أبي القاسم إبراهيم بن حسين الدنبلي الخوئي (ت: 1325هـ/1907م) في: "معجم رجال الحديث، أو في "طبقات" السيد حسين بن علي البروجردي (ت: 1380هـ/1960م)، التي طبعت مع كتابه: "تجريد الأسانيد".اهـ [202]

فهذا يوضح كم أن هذا العلم عند الشيعة لا يصلح لأن يوصف بأنه علم بأي حال من الأحوال. أما إذا نظرنا في عجالة سريعة لمراتب الحديث عندهم فسنجد أنها كالتالي:

"الصحيح: وعرفوه بأنه هو ما اتصل سنده إلى المعصوم (أحد أئمة الإحدى عشرية) بنقل "الإمامي" العدل عن مثله في جميع الطبقات. *قلت*: وهو تعريف طائفي ضيق، يحصر الصحة في داخل الطائفة، ولا قيمة له خارجها، كما لا يخفى!، زيادة على أنه تعريف ذوقي، للأسباب التي ذكرنا في دلالة مفهوم مصطلح "الثقة"الذي يظل بدون حمولة واقعية في نفس الأمر!.

الحسن: وهو ما اتصل سنده إلى المعصوم! بإمامي ممدوح من غير نص على عدالته، مع تحقق ذلك في كل الطبقات. *قلت*: وهو تعريف طائفي أيضاً ويعتوره ما يعتور التعريف قبله!.

الموثق: ويقال له: القوي أيضاً، وهو ما دخل في طريقه مَن نَصَّ الأصحاب (الإحدى عشرية) على توثيقه!!، مع فساد عقيدته!، بأن كان من إحدى الفرق الإسلامية المخالفة للإمامية، وإن كان من الشيعة. *قلت*: والحقيقة، هي أنهم لم يستطيعوا توثيق رجالاتهم الأصليين، فما بالك في توثيق المخالفين وبأي معيار!!. أضف إلى هذا، أن التعريف لن

[202] محمد عمراني، الأصولية الجعفرية.

يدخل فيه سوى عتاة الشيعة، من غلاة الرواة، سواء أكانوا من الزيدية، ويطلقون عليهم اسم "البترية"، أو ممن تشظوا من الإحدى عشرية نفسها، إما بالإقرار بإمامة أئمة آخرين، غير أئمة الإحدى عشرية، حال الفطحية التي آمنت بأن الإمام بعد جعفر الصادق، هو ابنه عبد الله الأفطح (ت: 148هـ)، وبه كان يتلقب الصادق (أي أبو عبد الله)، أو من الواقفية، الذين توقفوا في الاعتراف بأحد أئمة الإحدى عشرية في الطريق، حال الذين توقفوا عند جعفر الصادق، دون تعدية الإمامة إلى أحد من أبنائه، أو الذين توقفوا على موسى الكاظم،...أو على الحسن العسكري بعد وفات كل واحد منهم! *قلت*: وأهل السنة لا يدخلون هنا بحال!، لكونهم من "العامة" الذين تجب مخالفتهم دائماً، حسب ما أوردوا من أخبار، على لسان جعفر الصادق، تحثهم على ذلك، على ما تقدم لنا.

الضعيف: وهو ما لا تجتمع فيه إحدى الشروط الثلاثة المتقدمة، كأن يكون الراوي مجروحاً بفسق أو غيره، أو مجهول الحال، أو وضاعاً." اهـ [203].

ومما زاد المذهب الشيعي الإمامي غربة على غربة اشتراطهم شرط غريب جدا في قبول الروايات وهو: بعد الروايات ومخالفتها للعامة –أي أهل السنة–، ويعلق الدكتور ناصر القفاري على غلو الشيعة في هذه النقطة قائلا: "حيث تعدى ذلك إلى القول بأن مخالفة إجماع المسلمين فيه الرشاد، وصار مبدأ المخالفة أصلاً من أصول الترجيح عندهم، وأساساً من أسس مذهبهم، وجاءت عندهم نصوص كثيرة تؤكد هذا المبدأ وتدعو إليه.

ففي أصول الكافي سؤال أحد أئمتهم يقول: "إذا وجدنا أحد الخبرين موافقاً للعامة (يعني أهل السنة) والآخر مخالفاً لهم بأي الخبرين يؤخذ؟ فقال: ما خالف العامة ففيه الرشاد، فقلت (القائل هو الراوي): جعلت فداك، فإن وافقها الخبران جميعاً؟ قال: ينظر إلى ما هم إليه أميل حكامهم وقضاتها فيترك ويؤخذ بالآخر، قلت: فإن وافق حكامهم الخبرين جميعاً؟ قال: إذا كان ذلك فارجئه حتى تلقى إمامك، فإن الوقوف عند الشبهات خير من الاقتحام في الهلكات" وذكر ثقتهم الكليني أن من وجوه التمييز عند

[203] المرجع السابق.

اختلاف رواياتهم قول إمامهم: "دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم". وقال أبو عبد الله –كما يفترون–: "إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما يخالف القوم".

وعن الحسن بن الجهم قال: قلت للعبد الصالح [هذا اللقب المراد به الإمام.] –رضي الله عنه–: "هل يسعنا فيما ورد علينا منكم إلا التسليم لكم؟ فقال: لا والله لا يسعكم إلا التسليم لنا، فقلت: فيروى عن أبي عبد الله شيء، ويروى عنه خلافه فأيهما نأخذ؟ فقال: خذ بما خالف القوم (إشارة لأهل السنة) وما وافق القوم فاجتنبه". ويعللون الأخذ بهذا المبدأ بما يرويه أبو بصير عن أبي عبد الله قال: "ما أنتم والله على شيء مما هم فيه، ولا هم على شيء مما أنتم فيه، فخالفوهم فما هم من الحنيفية على شيء". اهـ [204]

ولكن يمكننا القول إن نزعة الغلو هذه في مخالفة أهل السنة قد خفت كثيرا، فأصبح القوم يشيرون إلى الأحاديث الواردة عندنا –حتى في الكتابات الموجهه إلى بني جلدتهم– ويستعملونها بدون ذلك التحرج الكبير الذي كان موجودا سابقا –نعم ليس الاستعمال من باب الاستدلال المستقل ولكن من باب الإستئناس بالأدلة عند الآخرين والإكثار من الأدلة النبوية حول هذا الباب–. وهذا مسلك حسن يقرب المسلمين ويوحدهم ونحمدهم على ذلك الفعل، ونرجو من الله أن يستمر التقارب وتلغى الحواجز بين المسلمين في يوم من الأيام.

الله في العقيدة الشيعية

الناظر في كتب الشيعة العقائدية يجد أن التصور الشيعي العام لله عزوجل –باستثناء بعض النقاط التي ظهرت قديما مثل قولهم بالبداء ثم تأويلهم لمفهومه– متفق معنا في كثير من النقاط –بداهة لأنه دين واحد وإله واحد–، بل ويمكننا القول إن العقيدة

---

[204] ناصر بن عبدالله بن علي القفاري، أصول مذهب الشيعة الإمامية.

الإلهية عند الشيعة أرقى بعض الشيء من عقيدة مجسمة أهل السنة، حيث أنهم لم يقعوا في فخ التجسيم الذي سقط فيه الكثير من الفرق الإسلامية. وحتى لا نخوض بالقارئ في كتب العقائد القديمة للشيعة والتي قد يكون أسلوب كتابتها عسيرا بعض الشيء، نذكر للقارئ ملخصا لعقيدة الشيعة في الله عزوجل بأسلوب معاصر من كتب أحدهم وهو الأستاذ صالح الورداني والذي يقول:

"يعتقد الشيعة أن اللّه تعالى متصف بجميع صفات الكمال منزه عن جميع صفات النقص وعن كل ما يقتضي الحدوث. وأن صفاته الثبوتية ثمان: قادر مختار. عالم. حي. مريد كاره.مدرك. قديم أزلي باق ابدي. متكلم. صادق. أما الخالق والرازق والمحيي والمميت وأمثالهما فهي من صفات الأفعال. وصفاته السلبية سبع: ليس بمركب. ليس بجسم. ليس محلا للحوادث. ليس بمرئي لا في الدنيا ولا في الآخرة. ليس له شريك. ليس بمحتاج. نفي المعاني والصفات عنه. ومعنى حياته أنه ليس مثل الجمادات لا أنه ذو روح. ومعنى مدرك أنه يبصر لا بعين ويسمع لا بأذن بل يدرك جميع المبصرات والمسموعات. ومعنى متكلم أنه ينطق لا بلسان بل يوجد الكلام في بعض مخلوقاته كالشجرة حين كلم موسى وكجبريل حين أنزله بالقرآن. ومعنى أنه ليس محلا للحوادث: أي للأمور والصفات الحادثة. ومعنى نفي المعاني والصفات عنه أن صفاته ليست مغايرة لذاته بل هي عين ذاته لئلا يلزم تعدد القدماء. ويعتقدون أن اللّه تعالى منزه عن المكان والجهة والأعضاء والجوارح والشم والذوق واللون وكل لوازم الجسم وعن اللذة والألم. ويعتقدون أن كل ما ورد من النقل مما ظاهره خلاف ذلك مثل قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) (إلى ربها ناظرة) (وجاء ربك) (يد اللّه فوق أيديهم) (ومكروا ومكر اللّه) (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض) (ولو شاء اللّه ما اقتتلوا..) وغير ذلك، يجب تأويله ورده إلى ما حكم به العقل أو يكال علمه إليه تعالى).

إن الشيعة ينفون التشبيه والتجسيم والرؤية ونسبة القبح إلى اللّه كما ينفون الجهة والتكلم. يقول الامام علي عن الرؤية: "لم تره العيون بمشاهدة الابصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان". وقال الصادق: "لا جسم ولا صورة.. ولا يحس ولا يجس. ولا

يدرك بالحواس الخمس. لا تدركه الأوهام، ولا تنقصه الدهور ولا تغيره الأزمان.. إن اللّه تعالى لا يشبه شيئا. ولا يشبهه شيء. وكل ما وقع في الوهم فهو بخلافه". وقال: "هو سميع بصير. سميع بغير جارحة وبصير بغير آلة، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه". وقال الرضا: "كلام الخالق لمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق. ولا يلفظ بشق فم ولسان". وقال الإمام علي حين سمع رجلا يقول: والذي احتجب بسبع طباق. فعلاه بالدرة، ثم قال: "يا ويلك، إن اللّه أجل من أن يحتجب عن شيء، سبحان الذي لا يحويه مكان، ولا يخفي عليه شيء في الارض ولا في السماء". وقال الصادق: "إن اللّه تبارك وتعالى لا يوصف بزمان. ولا مكان ولا حركة ولا انتقال ولا سكون. بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والانتقال". وقال الكاظم: "إن اللّه تبارك وتعالى أجل وأعظم من أن يحد بيد أو رجل أو حركة أو سكون أو يوصف بطول أو قصر أو تبلغه الأوهام أو تحيط بصفته العقول"[205] اهـ

فكما نرى فإن تصورهم لله عزوجل تصور راق، لا تخالطه شبهة تجسيم أو شرك بالله عزوجل، قد يرميهم أهل السنة بالتعطيل ولكن كما أسلفنا الحديث عند المعتزلة، فقلنا إنهم لا ينفون الصفات مثل السمع أو البصر فيقولون: إن الله غير سميع! معاذ الله فما يصدر ذلك عن مسلم، ولكنه الفرق في التصور، فأهل السنة يقولون إن السمع بواسطة صفة زائدة عن الذات، أما الشيعة والمعتزلة فيقولون بواسطة الذات نفسها!

وكما لاحظ القارئ فإن الشيعة الإمامية –والزيدية كما سيأتي– تشترك مع المعتزلة في كثير من العقائد، حتى أن أهل السنة والفرق الأخرى رمتها بأنها أخذت تاصيل عقائدها من المعتزلة، ولكن الشيعة الإمامية ترفض هذا الاتهام وترى أن عقائدها مأخوذة عن الإمام علي وأهل البيت وأن المعتزلة تبعا لهم في ذلك، وهذا ما يقر به المعتزلة أحيانا في أن عقائدهم لها أصل من الحديث كما في أقوال الأئمة بخلاف وجودها في القرآن. هذا بالإضافة إلى أن الشيعة الإمامية تقول إنه يوجد الكثير من الفروق بين المعتزلة

---

(205) صالح الورداني، عقائد السنة والشيعة: التقارب والتباعد.

والشيعة الإمامية، فما هي هذه الفروق؟ نذكر للقارئ الكريم الفروق التي يرونها بينهم وبين المعتزلة، حيث يقول الشيخ جعفر السبحاني.

الفرق بين الشيعة الإمامية والمعتزلة

رغما عن وجود نقاط تقاطع واتفاق بين الشيعة الإمامية والمعتزل, فثمة العديد من الفروقات والاختلافات بينهما, ونذكر هنا أهم هذه الاختلافات من منظورنا:

1- الشفاعة: أجمع المسلمون كافة على ثبوت أصل الشفاعة وأنها تقبل من الرسول الأكرم (صلى الله عليه وسلم)، إلا أنهم اختلفوا في تعيين المشفع، فقالت الإمامية والأشاعرة: إن النبي يشفع لأهل الكبائر بإسقاط العقاب عنهم أو بإخراجهم من النار، وقالت المعتزلة: لا يشفع إلا للمطيعين، المستحقين للثواب، وتكون نتيجة الشفاعة ترفيع الدرجة.

2- مرتكب الكبيرة: هو عند الإمامية والأشاعرة مؤمن فاسق، وقالت المعتزلة: بل منزلته بين المنزلتين، أي بين الكفر والإيمان.

3- الجنة والنار: قالت الإمامية والأشاعرة: إنهما مخلوقتان الآن بدلالة الشرع على ذلك، وأكثر المعتزلة يذهب إلى أنهما غير موجودتين.

4- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: اتفق المسلمون على وجوبهما، فقالت الإمامية والأشاعرة: يجبان سمعا، ولولا النص لم يكن دليل على الوجوب، خلافا للمعتزلة الذين قالوا: بوجوبهما عقلا.

5- الإحباط: اتفقت الإمامية والأشاعرة على بطلان الإحباط، وقالوا: لكل عمل حسابه الخاص، ولا ترتبط الطاعات بالمعاصي ولا المعاصي بالطاعات، والإحباط يختص

بذنوب خاصة كالشرك وما يتلوه، بخلاف المعتزلة حيث قالوا: إن المعصية المتأخرة تسقط الثواب المتقدم، فمن عبد الله طول عمره ثم كذب فهو كمن لم يعبد الله أبدا.

6- الشرع والعقل: تشددت المعتزلة في تمسكهم بالعقل، وتشدد أهل الظاهر في تمسكهم بظاهر النص، وخالفهما الإمامية والأشاعرة، فأعطوا للعقل سهما فيما له مجال القضاء، نعم أعطت الإمامية للعقل مجالا أوسع مما أعطته الأشاعرة...

7- اتفقت الإمامية والأشاعرة على أن قبول التوبة بفضل من الله ولا يجب عقلا إسقاطها للعقاب، وقالت المعتزلة: إن التوبة مسقطة للعقاب على وجه الوجوب.

8- اتفقت الإمامية على أن الأنبياء أفضل من الملائكة، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك.

9- اتفقت الإمامية على أن الإنسان غير مسير ولا مفوض إليه، بل هو في ذلك المجال بين أمرين، بين الجبر والتفويض، وأجمعت المعتزلة على التفويض.

10- اتفقت الإمامية والأشاعرة على أنه لا بد في أول التكليف وابتدائه من رسول، وخالفت المعتزلة وزعموا أن العقول تعمل بمجردها عن السمع."اهـ[206]

الفرق بين الشيعة الإمامية والأشاعرة

وبما أننا ذكرنا نقاط الاختلاف بين الشيعة والمعتزلة لا بد من أن نعرج بذكر نقاط الاختلاف بين الشيعة الإمامية والأشاعرة، من كتبهم كذلك، فيقول الشيخ جعفر السبحاني: "هناك أصول خالفت الإمامية فيها الأشاعرة، مخالفة بالدليل والبرهان وتبعا لأئمتهم، ونذكر المهم منها:

[206] جعفر السبحاني، أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم.

1- اتحاد الصفات الذاتية مع الذات: إن لله سبحانه صفات ذاتية كالعلم والقدرة، فهي عند الأشاعرة صفات قديمة مغايرة للذات زائدة عليها، وهي عند الإمامية والمعتزلة متحدة مع الذات.

2- الصفات الخبرية الواردة في الكتاب والسنة، كالوجه والأيدي والاستواء وأمثالها، فالشيعة الإمامية يؤولونها تأويلا مقبولا لا تأويلا مرفوضا، أي أنها تأخذ بالمفهوم التصديقي للجملة لا بالمفهوم التصوري للمفردات، فيقولون: إن معنى: ﴿... بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ... ﴿٦٤﴾﴾ [سورة المائدة, ٦٤] معناه: أنه برئ من البخل، بل هو باذل وسخي، وقادر على البذل. وأما الأشاعرة فهم يفسرونها بالمفهوم التصوري ويقولون: إن لله سبحانه يدين، إلا أنهم يتهربون عن التجسيم والتشبيه بقولهم: بلا كيف.

3- أفعال العباد عند الإمامية صادرة من نفس العباد، صدورا حقيقيا بلا مجاز أو توسع، فالإنسان هو الضارب، هو الآكل، هو القاتل، هو المصلي، هو القارئ وهكذا، وقد قلنا: إن استعمال كلمة "الخلق" في أفعال الإنسان استعمال غير صحيح، فلا يقال: خلقت الأكل والضرب والصوم والصلاة، وإنما يقال: فعلتها، فالصحيح أن يقال: إن الإنسان هو الفاعل لأفعاله بقدرة مكتسبة من الله، وإن قدرته المكتسبة هي المؤثرة بإذن من الله سبحانه. وأما الأشاعرة فذهبوا إلى أن أفعال العباد مخلوقة لله سبحانه، فليس للإنسان فيها صنع ولا دور، وليس لقدرته أي تأثير في تحقق الفعل، وأقصى ما عندهم أن إرادة الإنسان للعقل تقارن إيجاد الله سبحانه فعله في عالم التكوين والوجود. إلا أنهم وتحاشيا من الذهاب إلى الجبر في تلك الأفعال وبالتالي إقصاء الإنسان عن أفعاله، ومن ثم براءته من مسؤوليتها عمدوا إلى ابتداع نظرية الكسب المعقدة فقالوا: إن الله هو الخالق والإنسان هو الكاسب، إلا أنها نظرية غريبة غير مفهومة، ومليئة بالألغاز التي عجز عن فهمها وإيضاحها حتى مبتدعوها أنفسهم.

4– إن الاستطاعة في الإنسان على فعل من الأفعال تقارنه تارة، وتتقدم عليه أخرى، فلو أريد من القدرة العلة التامة فهي مقارنة، ولو أريد العلة الناقصة فهي متقدمة، خلافا للأشاعرة فقد قالوا بالتقارن مطلقا.

5– رؤية الله بالأبصار في الآخرة: فهي مستحيلة عند الإمامية والمعتزلة، ممكنة عند الأشاعرة.

6– كلامه سبحانه عند الإمامية هو فعله، فهو حادث لا قديم، وهذا خلافا للأشاعرة: فكلامه عبارة عن الكلام النفسي[207] القائم بذاته، فهو قديم كقدم الذات.

7– التحسين والتقبيح العقليان: ذهبت الإمامية إلى أن العقل يدرك حسن بعض الأفعال أو قبحها، بمعنى أن نفس الفعل من أي فاعل صدر، سواء أكان الفاعل قديما أو حادثا، واجبا أو ممكنا، يتصف بأحدهما، فيرى مقابلة الإحسان بالإحسان أمرا حسنا، ومقابلته بالإساءة أمرا قبيحا، ويتلقاه حكما مطلقا سائدا على مر الحقب، والأزمان، لا يغيره شئ، وهذا خلافا للأشاعرة، فقد عزلوا العقل عن إدراك الحسن والقبيح، وبذلك خالفوا الإمامية والمعتزلة في الفروع المترتبة عليه. هذه هي الأصول التي تخالف فيها الإمامية الأشاعرة، وربما توافقهم المعتزلة في جميعها أو أكثرها."اهـ[208]

---

[207] حاولت الأشاعرة بقولها بالكلام النفسي لله عزوجل الهروب من المأزق الذي وقعت فيه المجسمة بقولها بالكلام العادي لله عزوجل والهروب من مأزق التعطيل أو التأويل –كما يرون– الذي قالت به المعتزلة والشيعة، لذا قالت بالكلام النفسي لله والكلام النفسي هو المعنى القائم بالنّفس، وهو الصّفة التي تتّصف بها الذّات وتسمّى كلاما. وقرّبوا هذا الأمر، فقالوا: إنّ الإنسان يجد من نفسه معنى عند قوله لخادمه: "ائتني بطعام أو اسقني بماء"، وكذا في سائر أقسام الكلام. وهذا المعنى الذي يجده الإنسان من نفسه هو الكلام النّفسيّ، وهو ما تدلّ عليه العبارات وما تنبّه إليه الإشارات، ويجوز في اللّغة تسمية هذا المعنى المشار إليه هنا بالكلام، ولا وجه لمن أنكر تسميته بذلك، وذلك لأنّه يصحّ في اللّغة أن يقال: في نفسي كلام، وفي نفس فلان كلام، ومنه قوله تعالى (ويقولون في أنفسهم...). والأشاعرة بقولهم بالكلام النفسي لم يستطعوا الهروب من الاعتراضات التي وجهت إلى القائلين بكلام الله بحروف وصوت. وليس هذا موضع ذكر مواطن انتقاد نظرية الكلام النفسي ولكن نعلق فقط على استدلالهم على وجود الكلام النفسي عند الإنسان بقوله تعالى: (ويقولون في أنفسهم) فنقول: الله قال "يقولون" ولم يقل "يتكلمون" والقول في كتاب الله تعالى هو غير الكلام حتما، بدليل مراجعة المواطن التي ذكر فيها القول والكلام، فالذي ذكر في المواطن التي تحتمل الكلام النفسي أو كلام غير العاقل هو القول فالنار تقول والإنسان يقول في نفسه أما الكلام فما يكون إلا بصوت من عاقل، فتأمل!

[208] المرجع السابق.

وبعد أن ذكرنا أهم الفروق بين الشيعة والمعتزلة، والشيعة والأشاعرة ننتقل إلى النقطة الأهم وهي الفرق بين الشيعة الإمامية وسائر الفرق، وكذلك هنا سنلتزم ما يقرون هم به من وجود الفروق بينهم وبين غيرهم من الفرق الإسلامية، مع التعليق على ما يقولون به.

الفرق بين الشيعة الإمامية وسائر الفرق

تعتقد الشيعة الإمامية وتعترف بوجود بعض الاختلافات العقيدية بينها وبين كل الفرق الإسلامية الأخرى، وأنها تميزت بهذه الاختلافات عن غيرها من الفرق الإسلامية، فما هي هذه الفروق وكيف يبررونها ويرونها؟ المسائل التي خالفت فيها الشيعة الإمامية سائر الفرق الإسلامية هي: وجوب تنصيب الإمام على الله عزوجل، عصمة الإمام، الإمام المنتظر –وهو غير المهدي المنتظر عند أهل السنة–، التقية، البداء، الرجعة[209]. وقد كان للأحداث السياسية الدور الكبير في ظهور هذه العقائد وانتشارها، ثم البحث لها عن أدلة من الروايات وتأويل الآيات من أجل موافقة هذه العقائد، ليكون لها أدلتها من الكتاب والسنة، ونعرض للقارئ نماذجا من أقوال علماء الشيعة حول هذه العقائد والتعليق عليها: يقول الشيخ جعفر السبحاني: "الفرق بين الشيعة الامامية وسائر الفرق الإسلامية:

---

[209] يقول الشيخ المفيد في أوائل المقالات مقررا ما أجمعت عليه الطائفة إلى زمنه: واتفقت الإمامية على وجوب رجعة! كثير من الأموات إلى الدنيا! قبل يوم القيامة، وإن كان بينهم في ذلك من جهة السمع! اختلاف!. واتفقوا على إطلاق لفظ "البداء" في وصف الله تعالى، وأن ذلك من جهة السمع! دون القياس!. واتفقوا على أن أئمة الضلال (يعني بهم الخلفاء الثلاثة: أبو بكر، وعمر، وعثمان) خالفوا في كثير من تأليف القرآن وعدلوا فيه عن موجب التنزيل وسنة النبي(ص). وأجمعت المعتزلة، والخوارج، والزيدية، والمرجئة، وأصحاب الحديث على خلاف الإمامية في جميع ما عددناه.!!

المسألة الأولى: وجوب تنصيب الإمام على الله سبحانه

تتفق جميع الفرق الإسلامية على وجوب نصب الإمام، سوى العجاردة من الخوارج، ومنهم حاتم الأصم أحد شيوخ المعتزلة (ت 237) قد شذوا عن ذلك، واعتقاد المسلمين بذلك يفترق إلى مذهبين اثنين في ماهية هذا الوجوب، فالشيعة يذهبون إلى وجوبه على الله تعالى، وباقي الفرق على الأمة، فوجوب نصب الإمام لا خلاف فيه بين المسلمين، وإنما الكلام في تعيين من يجب عليه ذلك. وليس المراد من وجوبه على الله سبحانه، هو إصدار الحكم من العباد على الله سبحانه، حتى يقال: ﴿... إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِ ... ﴿٤٠﴾﴾ [سورة يوسف, ٤٠] بل المراد كما ذكرنا غير مرة: أن العقل –حسب التعرف على صفاته سبحانه، من كونه حكيما غير عابث– يكشف عن كون مقتضى الحكمة هو لزوم النصب أو عدمه.

المسألة الثانية: عصمة الإمام

تفردت الإمامية من بين الفرق الإسلامية بإيجابها عصمة الإمام من الذنب والخطأ، مع اتفاق غيرهم على عدمها. قال الشيخ المفيد: إن الأئمة معصومون كعصمة الأنبياء، ولا تجوز عليهم صغيرة إلا ما قدم ذكر جوازه على الأنبياء، ولا ينسون شيئا من الأحكام، ولا يدخل في مفهوم العصمة سلب القدرة عن المعاصي، ولا كون المعصوم مضطرا إلى فعل الطاعات، فإن ذلك يستدعي بطلان الثواب والعقاب...

المسألة الثالثة: الإمام المنتظر

إن الاعتقاد بالإمام المهدي المنتظر عقيدة مشتركة بين جميع المسلمين، إلا من أصمه الله، فكل من كان له إلمام بالحديث يقف على تواتر البشارة عن النبي وآله وأصحابه، بظهور المهدي في آخر الزمان لإزالة الجهل والظلم، ونشر أعلام العلم والعدل، وإعلاء كلمة الحق، وإظهار الدين كله، ولو كره المشركون، وهو بإذن الله ينجي العالم من ذل العبودية لغير الله، ويبطل القوانين الكافرة التي سنتها الأهواء، ويقطع أواصر التعصبات القومية والعنصرية، ويميت أسباب العداء والبغضاء التي صارت سببا لاختلاف الأمة واضطراب الكلمة، ومصدرا خطيرا لإيقاد نيران الفتن والمنازعات"[210] اهـ

ونتوقف هنا قليلا لنناقش هذه الأقوال في عجالة: أما الرأي الأول فالحمدلله فقد كفانا الشيخ السبحاني مؤنة الرد عليه إذ قال: "أن العقل –حسب التعرف على صفاته سبحانه، من كونه حكيما غير عابث– يكشف عن كون مقتضى الحكمة هو لزوم النصب أو عدمه"، فهذا يعني أنه لا دليل شرعي من الكتاب على وجوب المسألة، أما مسألة استخدام العقل في إيجاب الأمور فهذا ما يقبله، ثم إن العقول ليست بحجة على بعضها، فما بال عقول أصحاب الفرق الأخرى لم يهتدوا إليها. أما المسألة الثانية فقد تكلمنا عنها عندما كنا نتحدث عن الأئمة عند الشيعة. أما المسألة الثالثة فسنطيل النفس في إبطالها بإذن الله عند الحديث عن طائفة الأحمدية.

المسألة الرابعة: التقية

وهي تنطق كما ننطق نحن المصريين بالعامية كلمة "طاقية" مع تخفيف الطاء طبعا. فما هو مفهوم التقية وما هو المقصود به عند الشيعة الإمامية؟ التقيه لغه: الحذر والحيطة من

---

[210] المرجع السابق.

الضرر، والاسم: التقوى، وأصلها: اوتقى، يوتقى، فقلبت الواو الى ياء للكسرة قبلها، ثم أبدلت إلى تاء وأدغمت، فقيل: اتقى، يتقى. وعن ابن الاعرابى: التقاه، والتقية، والتقوى، والاتقاء كله واحد. أما المقصود منها فهو: إظهار الكفر وإبطان الإيمان، أو التظاهر بالباطل وإخفاء الحق، وتستعمل من أجل صيانة وحفظ النفس والعرض والمال، وذلك عند الظروف القاهرة التي لا يستطيع فيها الإنسان المؤمن أن يعلن فيه عن رأيه، خشية أن يترتب على ذلك مضار وتهلكة كالنفي والقتل والتنكيل ومصادرة الأموال.

أما أدلتها من الكتاب:

1- **قوله تعالى:** ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ١٠٦﴾]سورة النحل, ١٠٦[**وفيها جواز إظهار الكفر كرها ومجاراة للكافرين خوفا بشرط أن يكون القلب عامرا بالإيمان**

2- **قوله تعالى:** ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ[211] وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨﴾] سورة آل عمران, ٢٨[**وكلمات المفسرين حول الآية تغنينا عن أي توضيح**

3- **قوله تعالى:** ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ

[211] أعجب كثيرا من استدلال المفسرين بهذه الآية على مبدأ التقية –فعلى الرغم من اعتراضي على المبدأ القرآني–، إلا أني أرى أن الآية ليست في هذا الشأن، فالآية تنهى المؤمنين عن مولاة الكافرين دون المؤمنين وأنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء إلا أن يأخذ حذره وما يقيه من الكافر –لأن الغالب في أفعال الكفار الغدر بالمؤمنين–، ومن الأفضل ألا يوالي الكفار في كل حال، أما أن تكون الآية تنهى المؤمنين عن موالاة الكافرين إلا أن تكون هناك إظهار لخلاف ما يبطنه المرء، فلم يواليهم المسلم إذا كان في قوة؟ وإذا كان في ضعف فهو يخضع لهم، وعليه أن يعد ما يحميه منهم، أما أن يواليهم على ضعف، ثم تكون هذه الموالاة سببا في أن يظهر خلاف ما يبطن فهذا ما أرفضه، وأرى أنه لا يتفق مع النسق العام للآية.

صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾
]سورة غافر ,٢٨[

والتقية بهذا المفهوم لا يختلف عليها اثنان، حتى أن بعض الكتاب الشيعة كتب عن تشابه تعريف التقية بين أهل السنة والشيعة فقال: "لا يختلف تعريف التقية عند أهل السنة عن تعريفها عند الشيعة الإمامية لا في قليل ولا في كثير إلا من حيث فنية التعبير وصياغة الألفاظ في تصوير المعنى الإصطلاحى للتقية، وهذا إن دل على شيء إنما يدل على اتفاقهم من حيث المبدأ على أن التقيه ليست كذبا، ولا نفاقا، ولا خداعا للآخرين. فقد عرفها السرخسى الحنفي بقوله: (والتقية: أن يقى نفسه من العقوبة بما يظهره، وإن كان يضمر خلافه). وعرفها ابن حجر العسقلانى الشافعي بقوله: (التقية: الحذر من إظهار ما في النفس من معتقد وغيره للغير). وقال الألوسى الحنبلى الوهابى في تفسير قوله تعالى: (إلا أن تتقوا منهم تقاة) (وعرفوها أى التقية: بمحافظة النفس أو العرض أو المال من شر الأعداء)."[212]

ثم يذكر الكاتب الحالات التي لا تصح فيها التقية فيقول: "حالات الإكراه التى لا تصح فيها التقية: ويراد بها حالات الإكراه المتعلقة بأفعال القلوب، والتى لا سبيل للمكره إلى علمها في قلب المكره، وبالتالى فلا يصح إلتجاء المكره إلى شيء منها، كما لو أكره المسلم على بغض المومنين، أو حب الكافرين حقيقة، أو على الاعتقاد بعقيدة فاسدة، أو على إنكار ما ثبت أنه من الدين إنكارا قلبيا، ونحو ذلك. فهذا و أمثاله لا تصح فيه التقيه قطعا،"[213] وهنا نسأل: إذا كانت التقية بهذا المعنى الذي يعرضه الشيخ ثامر، فلم وكيف تفردت بها الشيعة الإمامية؟ إن التقية بهذا الشكل مطلوبة ومسموح بها شرعا في كتاب الله وعقلا في داخل كل إنسان يحمل غريزة البقاء والحفاظ على النفس، إذا لا بد من أنها تحمل معنى يختلف عما يقول به سائر المسلمين. فعلى سبيل المثال سنجد

[212] ثامر هاشم حبيب العميدى، واقع التقية عند المذاهب والفرق الإسلامية.

[213] المرجع السابق.

أن الشيخ المفيد يعرف التقية بقوله: "التقية كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضررًا في الدين أو الدنيا"، حيث أن الشيخ المفيد –وأيضا بعض فقهاء أهل السنة– تعريفا هلاميا للتقية، مما فتح الباب لكل من هب ودب أن يفهم التقية كما يحلو له، حتى أنها كانت تستعمل في بعض المواطن لا يكون فيها الإنسان مكرها ومجبرا على استعمالها،حتى أنه لم يعد هناك فارق كبير عند العامة بين النفاق والتقية[214]، فكانت تستعمل أحيانا في تعاملات الشيعة مع أهل السنة!! وكأن أهل السنة كانوا معلقين للمشانق للشيعة. والعجب كل العجب أن يأتي بعض الناس ويقولون إن فلانا فعل كذا أو كذا تقية، كما فعل السادة علماء الشيعة في تفسير بعض الروايات المتعلقة بالأئمة والتي قالوا فيها بما يخالف مذهب الشيعة –الأدق أن الشيعة خالفت ما قال به الأئمة!–، فما أدراهم أنه فعل كذا تقية، لم لا تكون الرواية الأخرى باطلة وهذه صحيحة؟! ولم لا يكون الأخرى هي التقية وهذه هي الأصل؟! ثم ما الدافع لأن يتقي الأئمة فيما قالوه؟ المتابع لتفسيرات أقوال الأئمة عند علماء الشيعة يجد أنهم قالوا في مواطن كثيرة جدا أن الأئمة قالوا ذلك على سبيل التقية!! فإذا كانت كل هذه المواطن الكثيرة من باب التقية، فهل كلها من باب الإكراه، ومن أدراكم أن الأخرى كانت من باب الأمن؟!!

نخلص من هذه النقطة أن التقية أول ما ظهرت استعملت استعمالا خاطئا، أما الشيعة المعاصرة فيرفضون فهمنا!! للتقية ويرون أنهم يستعملونها بنفس المعنى الذي استعمله سلفهم والذي يستعمله أهل السنة! ونحن نحسن الظن بعلماء الدين الشيعة[215] ونرى أنهم تراجعوا حقا عن المفهوم والاستعمال القديمين للتقية، والتقوا مع أهل السنة في

---

(214) يفترض في التقية أنها حالة استثنائية لا تستعمل إلا في الحالات الطارئة القاهرة، لذا فإن الإنسان الطبيعي يدعوا الله أن لا يعرضه لموقف يضطر فيه لاستعمالها، إلا أن السادة مؤلفي الروايات الشيعية رووا عن أبي جعفر أنه قال: "التقية ديني و دين إبائي ولا إيمان لمن لا تقية له"، كأنه يفترض في الإنسان العامي العادي أن يستعمل التقية فهي جزء من الدين أو أن يبحث عن مواضع يتقي فيها!!

(215) المشكلة في صغار المشائخ وخطباء المساجد الذين ينقلون من الكتب كحاطبي ليل، فينقلون أفكارا وروايات قديمة متطرفة لعامة الشيعة، فيلغون كثيرا مما يقول به كبار علماء الشيعة المحترمين!

مواطن استعمالها وهي الحفاظ على الدين أمام الكفار، وعلى النفس أو المال أو العرض أو العقل.

المسألة الخامسة: البداء

النقطة الخامسة في مواطن الخلاف بين الشيعة الإمامية وباقي الفرق الإسلامية هي قولهم بالبُداء، فما هو البداء؟ البداء هو بمعنى الظهور بعد الخفاء، كما في قوله تعالى: ﴿... وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الزمر ,٤٧]، أو بمعنى: نشأة رأي جديد لم يكن من قبل كما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْآيَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة يوسف ,٣٥]، وكلا المعنين غير جائز مع الله تعالى لأن كليهما مستلزم للجهل وهو مستحيل على الله عند كل المسلمين لإجماعهم على القول بكمال الله.

وهم الآن يقدمون البداء بما لا يخالف التصورات الإسلامية العامة والخلاف كل الخلاف في الاستعمال الأول لهذه الكلمة وسبب ظهورها، فنحن أهل السنة نرى أن سبب ظهور مصطلح البداء كان بسبب مخالفة الواقع للأخبار التي نسبوها إلى الأئمة، والأئمة عندهم يعلمون الغيب!، فكان لا بد من اختراع مخرج من هذا المأزق فكان القول بالبداء وأنه ظهر لله ما جعله يغير فعله! وليس هذا الفهم حادث أو من عندنا نحن أهل السنة فقط، فهذا الفهم لهذه العقيدة قديم ولقد أسلفنا ذكر قول المتكلم الزيدي الشهير سليمان بن جرير، زعيم الفرقة الزيدية السليمانية، الذي قال في حق الشيعة الإمامية بعد أن خبرهم –وهو شيعي–: "إن الرافضة قد وضعوا مقالتين لشيعتهم لا يظهر أحد قط عليهم!: أحداهما: القول ب "البداء" وإجازة التقية"، فإذا أظهروا قولا أنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهور، ثم لا يكون الأمر على ما أخبروا قالوا: بدا لله تعالى في ذلك!

ثم إن هذا الفهم الذي تقول به أهل السنة نابع من روايات القوم الموجودة في كتبهم – بغض النظر عن ضعفها أو صحتها– فمن هذه الروايات ما نسبوه لجعفر الصادق في أصول الكافي: (ما بدا لله بداء كما بدا له في إسماعيل ابني... إذ اخترمه قبلي ليعلم بذلك أنه ليس بإمام بعدي)، ومن ذلك ما جاء في الكافي:

"عن أبي هاشم الجعفري قال: كنت عند أبي الحسن عليه السلام بعد مضي ابنه أبي جعفر، وإني لأفكر في نفسي أريد أن أقول: كأنهما –أعني أبا جعفر وأبا محمد– في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابني جعفر بن محمد عليهم السلام، وإن قصتهما كقصتهما، إذ كان أبو محمد المرجي بعد أبي جعفر عليه السلام، فأقبل عليَ أبو الحسن قبل أن أنطق فقال: نعم يا أبا هاشم! بدا لله في أبي محمد بعد أبي جعفر عليه السلام ما لم يكن يعرف له، كما بدا له في موسى بعد مضي إسماعيل ما كشف به عن حاله، وهو كما حدثتك نفسك وإن كره المبطلون).

ويبدو القول بالبداء واضحاً فيما نقل الكليني عن أبي حمزة الثمالي في الكافي: "قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: "يا ثابت، إن الله وقَّت هذا الأمر –أي خروج المهدي– في السبعين، فلما قتل الحسين صلوات الله عليه اشتد غضب الله تعالى على أهل الأرض فأخّره إلى أربعين ومائة، فحدّثناكم فأذعتم الحديث، فكشفتم قناع الستر ولم يجعل الله له بعد ذلك وقتا عندنا، "يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب". اهـ

وكأي عقيدة مفتراة يوضع في فضلها الروايات التي تتناقض مع ما ينبغي أن تكون عليه، فلذلك وجدنا بعض الروايات التي تقول: "ما عُبد الله بمثل البداء" و"عن الريان بن الصلت قال: سمعت الرضا عليه السلام يقول: ما بعث الله نبيا إلا بتحريم الخمر وأن يقر لله بالبداء!"، فالمفترض أن يوضع في الحديثين مكان البداء التوحيد، ولكن المؤلفين لهم رأي آخر!!

وأعتقد أن فيما ذكرناه الدليل القاطع على أنهم كانوا يرون البداء بالمعنى الذي تفهمه السنة وهو أنه ظهر لله ما لم يكن يعلم! ولكن الشيعة ينكرون هذا الفهم ويرون أن أهل

السنة –وكل الفرق الإسلامية!– أخطأت في فهم مقصد الشيعة من هذه العقيدة! إذا ماذا تقصد الشيعة بهذا القول؟ نقدم للقارئ السني من كتب الشيعة تفسيرهم الحديث لقول قدمائهم بالبداء والذي يقدمونه على أنه عقيدتهم والتي لم تتغير مذ نشأتها، والحق أنه –هذا التفسير الجديد– تفسير جيد لذا سنطيل قليلا النقل فيه!!:

يقول الشيخ جعفر السبحاني في كتابه: أضواء على عقائد الشيعة الإمامية:

"كما دلت الآيات والأحاديث على أنه سبحانه لم يفرغ من أمر الخلق والإيجاد، والتدبير والتربية، دلت على أن مصير العباد يتغير، بحسن أفعالهم وصلاح أعمالهم، من الصدقة والإحسان وصلة الأرحام وبر الوالدين، والاستغفار والتوبة وشكر النعمة وأداء حقها، إلى غير ذلك من الأمور التي تغير المصير وتبدل القضاء، وتفرج الهموم والغموم، وتزيد في الأرزاق والأمطار والأعمار والآجال، كما أن لمحرم الأعمال وسيئها من قبيل البخل والتقصير، وسوء الخلق وقطيعة الرحم وعقوق الوالدين والطيش، وعدم الإنابة وكفران النعمة وما شابهها تأثيرا في تغيير مصيرهم بعكس ذلك من إكثار الهموم والقلق ونقصان الأرزاق والأمطار والأعمار والآجال وما شاكلها. فليس للإنسان مصير واحد، ومقدر فارد، يصيبه على وجه القطع والبت.

البداء في القرآن الكريم: منها قوله سبحانه حاكيا عن شيخ الأنبياء: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [سورة نوح, ١٠-١٢]. ترى أنه (عليه السلام) يجعل الاستغفار علة مؤثرة في نزول المطر، وكثرة الأموال والبنين، وجريان الأنهار إلى غير ذلك،... وقوله سبحانه: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿١١﴾﴾ [سورة الرّعد, ١١]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الأنفال, ٥٣]، وقوله سبحانه:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ٩٦].

البداء في الروايات: وروى الشيخ الطوسي في أماليه عن الباقر قال: "قال أمير المؤمنين: أفضل ما توسل به المتوسلون الإيمان بالله، وصدقة السر، فإنها تذهب الخطيئة، وتطفئ غضب الرب، وصنائع المعروف، فإنها تدفع ميتة السوء وتقي مصارع الهوان". (...)

ب- أثر الاستغفار في الرزق: روى الصدوق في الخصال عن أمير المؤمنين (عليه السلام) قال: "الاستغفار يزيد في الرزق"(...)

ج- الدعاء وآثاره: روى الحميري في قرب الإسناد عن الصادق (عليه السلام): "إن الدعاء يرد القضاء، وإن المؤمن ليأتي الذنب فيحرم به الرزق". وروى الصدوق عن أمير المؤمنين: "ادفعوا أمواج البلاء عنكم بالدعاء قبل ورود البلاء "... وأما من طرق العامة فقد أخرج الحاكم عن ابن عباس -رضي الله عنه- قال: "لا ينفع الحذر عن القدر، ولكن الله يمحو بالدعاء ما يشاء من القدر "...

د- أثر صلة الرحم: روى الكليني عن أبي الحسن الرضا قال: "يكون الرجل يصل رحمه فيكون قد بقي من عمره ثلاث سنين، فيصيرها الله ثلاثين سنة، ويفعل الله ما يشاء". وروى أيضا عن أبي جعفر قال: "صلة الأرحام تزكي الأعمال، وتنمي الأموال وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسئ في الآجال". ومن طرق العامة وردت روايات متعددة في هذا المنحى، نكتفي منها بما رواه السيوطي في الدر المنثور عن علي (رضي الله عنه): أنه سأل رسول الله عن هذه الآية: ﴿يَمْحُو اللّهُ﴾ فقال له: "لأقرن عينيك بتفسيرها، ولأقرن عين أمتي بعدي بتفسيرها: الصدقة على وجهه، وبر الوالدين، واصطناع المعروف يحول الشقاء سعادة، ويزيد في العمر، ويقي مصارع السوء"... وكما أن للأعمال الصالحة أثرا في المصير وحسن العاقبة، وشمول الرحمة وزيادة العمر وسعة الرزق، كذلك الأعمال الطالحة والسيئات لها من التأثير المعاكس الذي لا يخفي على

أحد في مسيرة حياة الإنسان. ويدل على ذلك من الآيات قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [سورة النحل, ١١٢]. وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ... ﴿٥٣﴾﴾ [سورة الأنفال, ٥٣] (...)

أما الروايات في ذلك فحدث عنها ولا حرج منها ما روي عن أمير المؤمنين علي (عليه السلام) عندما قال في خطبة له: "أعوذ بالله من الذنوب التي تعجل الفناء" فقام إليه عبد الله بن الكواء اليشكري، فقال: يا أمير المؤمنين أو تكون ذنوب تعجل الفناء؟ فقال: "نعم ويلك! قطيعة الرحم". وقال أيضا: "إذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار" (...) وأيضا ما ورد في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مثل ما روي عن أبي الحسن الرضا (عليه السلام) من أنه قال: "لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر، أو لتستعملن عليكم شراركم، فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم". (...) ورد عن رسول الله (صلى الله عليه وآله): "لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء" إلى غير ذلك من درر الكلمات التي نقلت عن معادنها.

فقد تحصل مما ذكرنا:

أولا: أن علمه سبحانه يعم كل الأشياء، ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وثانيا: أنه سبحانه كل يوم هو في شأن.

وثالثا: أن لأفعال العباد تأثيرا في حسن العاقبة وسوئها، ونزول الرحمة والبركة، أو العقاب والنقمة. إذا وقفت على هذه المقدمات الثلاث فاعلم: أنه يقع الكلام في البداء في مقامين:

1- البداء في مقام الثبوت: أي تغيير المصير بالأعمال الصالحة أو الطالحة.

2- البداء في مقام الإثبات: أي الإخبار عن تحقق الشئ علما بالمقتضي مع خفاء المانع.

البداء في مقام الثبوت: إن حقيقة البداء أنه سبحانه -على خلاف ما اعتقده اليهود والنصارى في حقه من فراغه عن أمر الخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، والتوسيع والتقدير في الرزق، والتعمير والتنقيص، إلى غير ذلك مما يرجع إلى الكون والإنسان- هو القائم دائما بالأمر والتدبير، وهو القيوم على كل شئ، وكل يوم في شأن، وليست يداه مغلولتين، بل يداه مبسوطتان (في كل شئ) يمحو ويثبت حسب مشيئته الحكيمة وإرادته النافذة، فهو المتجلي في كل زمان بأسمائه الحسنى وصفاته العليا، كالخالقية والرازقية، والإحياء والإماتة، إلى غير ذلك من أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى. ومن شعب هذا الأمر هو أنه سبحانه: يزيد في الرزق والعمر وينقص منهما، وينزل الرحمة والبركة، كما ينزل البلاء والنقمة، حسب مشيئته الحكيمة، النافذة، ولا تصدر عنه الأمور جزافا واعتباطا، بل حسب ما تقتضيها حال العباد من حسن الأفعال وقبحها، وصالح الأعمال وطالحها. فربما يكون الإنسان مكتوبا في الأشقياء، ثم يمحى فيكتب من السعداء، أو على العكس بسبب ما يقوم به من أعمال. وبالجملة: فالبداء في عالم الثبوت مخالف لزعم اليهود والنصارى المشار إليه في قوله سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ... ٦٤﴾ [سورة المائدة, ٦٤]، وقد رد سبحانه تلك العقيدة اليهودية الباطلة في هذه الآية كما هو واضح. ولأجل أن يديه سبحانه مبسوطتان، يزيد في الخلق ما يشاء -وفي العمر- وينقص منه، حسب مشيئته الحكيمة قال سبحانه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ... يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ١﴾ [سورة فاطر, ١]. قال سبحانه: ﴿... وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

يَسِيرٌ ﴿١١﴾] سورة فاطر ,١١[. وبناء على ذلك فالبداء بهذا المعنى مما يشترك فيه كل المسلمين، على مذاهبهم المختلفة، من دون اختصاص بالشيعة، فليس أحد من المسلمين ينكر أنه سبحانه كل يوم هو في شأن، وأنه جل وعلا يبدئ ويعيد، ويحيي ويميت، كما أنه سبحانه يزيد في الرزق والعمر وينقص، إلى غير ذلك حسب المشيئة الحكيمة، والمصالح الكامنة في أفعاله سبحانه." اهـ[216]

بهذا التصور الجديد الجيد الجميل للبداء يمكن القول إن الشيعة الإمامية لا تخالفنا في هذه المسألة، ونرجو من الله أن يثبتوا على هذه العقيدة ويعملوا على ترسخها في وجدان أتباعهم، ويعرضوها للناس في كل مكان فهي عقيدة إسلامية حقة من عند الله الواحد. ونأتي إلى نقطة الخلاف الأخيرة وهي ليست مما أجمع عليه الشيعة، ولكن الاختلاف في هذه العقيدة أنهم لا يؤولونها كما فعلوا مع العقائد سابقة الذكر، بل هم منها فريقان، فريق ينكرها ويرى أن الروايات الواردة فيها روايات آحاد لا أصل لها في القرآن وأنها ليست من أصول المذهب، وفريق يقبلها ويقر بها. فما هي عقيدة الرجعة هذه؟

المسألة السادسة: الرجعة

نتقل للقارئ تعريفهم وفهمهم للرجعة من كتبهم، يقول الشيخ محمد رضا المظفر: "إنّ الذي تذهب إليه الامامية –أخذاً بما جاء عن آل البيت عليهم السلام– أنّ الله تعالى يعيد قوماً من الأموات إلى الدنيا في صورهم التي كانوا عليها، فيعزّ فريقاً ويذلّ فريقاً آخر، ويديل المحقّين من المبطلين والمظلومين منهم من الظالمين، وذلك عند قيام مهدي آل محمّد عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام. ولا يرجع إلاّ من علت درجته في الإيمان، أو مَن بلغ الغاية من الفساد، ثمّ يصيرون بعد ذلك إلى الموت، ومن بعده إلى النشور وما يستحقّونه من الثواب أو العقاب، كما حكى الله تعالى في قرآنه الكريم تمنّي

[216] جعفر السبحاني، أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم.

هؤلاء المرتَجَعينَ –الذين لم يصلحوا بالارتجاع فنالوا مقت الله– أن يخرجوا ثالثاً لعلّهم يصلحون: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ ١١﴾ [سورة غافر, ١١][217].

إذا فالشيعة يرون أن هناك قوم سيحيهم الله عزوجل قبل يوم القيامة ليقتص منهم! ومن هم هؤلاء القوم إذا؟ هم وللعجب صحابة الرسول! الذين ظلموا عليا وأهل البيت واغتصبوا حقهم، فيقيمهم مهدي آل البيت ليقتص منهم، ثم يموتون مرة أخرى! وهذه العقيدة ما هي إلا بعض تصورات حمقاء لبعض متطرفي الشيعة، الذين أرادوا أن يصّبروا أنفسهم بهذه الترهات فاخترعوا مثل هذه الأقوال ونسبوها إلى أهل البيت، كما أنها خلاصية زراديشتية فارسية عرفتها المنطقة قبل أن تقول بها غلاة الكيسانية!، وهي أقوال لا تستحق المرء أن يناقشها لسطحيتها، وهم يشعرون بطفحان الطابع الخرافي الحقدي في هذه الروايات، لذلك يحاولون أن يبرروا إحياء الموتى بأي شكل، فقالوا إن هذا حدث قبل ذلك كمعجزات للأنبياء، فالله أحيى الطير لإبراهيم وعيسى أحيي الموتى وأهل الكهف ماتوا ثم استيقظوا وكذلك الذي مر على قرية فمات مائة عام، وبغض النظر عن تفسيرهم لهذه الآيات فإن هذه الوقائع كلها ثابتة الوقوع جلية الحكمة، أما ما تقول به الشيعة من الرجعة فتصور طائفي ضيق، يأن مما يحمله من الخرافة، حتى أن الشيخ رضا المظفر ينقل لنا بعض تأويلات الشيعة الذين لم يرتأوا أن يردوا الروايات، ولكنهم في نفس الوقت لم يقبلوها بالشكل السطحي الذي يغلب عليه الطابع الروائي الدرامي فأولوها حتى تُقبل، يقول الشيخ محمد رضا المظفر:

"نعم، قد جاء القرآن الكريم بوقوع الرجعة إلى الدنيا، وتظافرت بها الأَخبار عن بيت العصمة، والإِمامية بأجمعها عليه إلاّ قليلون منهم تأوّلوا ما ورد في الرجعة بأنّ معناها رجوع الدولة والأمر والنهي إلى آل البيت بظهور الامام المنتظر، من دون رجوع أعيان الأَشخاص وإحياء الموتى وكم من معتقدات لباقي طوائف المسلمين هي من الأَمور

[217] محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية.

المستحيلة، أو التي لم يثبت فيها نص صحيح، ولكنّها لم توجب تكفيراً وخروجاً عن الاسلام، ولذلك أمثلة كثيرة، منها: الاعتقاد بجواز سهو النبي أو عصيانه، ومنها الاعتقاد بقدم القرآن، ومنها: القول بالوعيد، ومنها: الاعتقاد بأنّ النبي لم ينص على خليفة من بعده."[218] اهـ

ولست أدري أين جاءت أدلة الرجعة في القرآن الكريم، وسأذكر للقارئ بعد سطور أدلتهم من القرآن، والتي يستدلون بها على وقوع الرجعة في الدنيا، ليعلم لأي مدى ترتبط الأدلة بما يستدلون عليه.

أما محاولة تبريره استحالة هذه العقيدة بنماذج من عقائد المسلمين، والتي يرى هو وطائفته أنها من المستحيلات أو مما لم يثبت فيها نص! فمما يضحك الثكلى، فهذه العقائد كلها ثابتة قرآنيا وتاريخيا! وهذا يثبت أن المتمذهب يرى بعين مذهبه وليس بعينه هو! والآن نقدم للقارئ الكريم بعضا من الآيات التي يستدلون بها على وقوع الرجعة،و الحق يقال إني ذهلت عندما وجدت ذلك العدد من الآيات التي يستدلون بها، والتي ليست لها كلها أي علاقة بما يقولون! وإليك أيها القارئ الآيات:

1- قوله تعالى: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ۝٩٥﴾ [سورة الأنبياء ,٩٥]

2- قوله تعالى حاكياً عن الكفار: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ۝١١﴾ [سورة غافر ,١١]

3- قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨﴾ [سورة آل عمران ,١٥٧-١٥٨]

4- قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ... ۝٣﴾ [سورة البقرة ,٣]!!!

[218] المرجع السابق.

5- قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾ [سورة البقرة ,٥٦]

6- قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ... ۝٥٧﴾ [سورة العنكبوت ,٥٧]

7- قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٨ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰذِبِينَ ۝٣٩﴾ [سورة النحل ,٣٨-٣٩]

8- قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ۝٨٣﴾ [سورة النمل ,٨٣]

ونكتفي بهذا القدر من الآيات، والتي كما يرى القارئ لا علاقة لها بما يقولون، ولقد اختصرت في ذكر أدلتهم من القرآن فحذفت ما يقرب من عشرين آية أو يزيد، وكلها لا علاقة لها بما يقولون. أما أدلتهم من سنتهم فحدث ولا حرج فهي كثيرة، فعلى الرغم من أن سنتهم هي السبب في تأويلهم القرآن ذلك التأويل العجيب ولولاها لما رأينا شيئا من تلك التأويلات، إلا أنهم عادوا فألفوا روايات مستقلة لا تدخل في تأويل القرآن، وجعلوا هذه الروايات كتأكيد للعقيدة من باب تضافر الأدلة وتكاتفها من أجل إثبات الحقيقة الباطلة.!!!

وبهذه العقيدة نكون قد أنهينا العقائد التي تفردت بها الشيعة الإمامية، وكان من المفترض أن نغلق فصل الشيعة بهذا الموضع عن الرجعة، إلا أنه من باب مراعاة الواقع واهتمام القراء بهذه المسألة، وإعطائها أكبر من حجمها رأينا عرضها في آخر الفصل الذي يحكي عقائد الشيعة الإمامية.

ما هو موقف الشيعة من الصحابة؟

من أكثر النقاط حساسية بين الشيعة وأهل السنة موقف الشيعة من الصحابة، فعلى الرغم من أهل السنة يترحمون على أهل البيت ويحبونهم ويجلونهم، فإن موقف الشيعة من الصحابة كان مغايرا لذلك تماما، فلقد اشتهر عنهم قولهم بتكفير الصحابة إلا نفرا يسيرا، قالوا إنهم ثلاثة كما ورد في الكافي: (عن أبي جعفر عليه السلام:كان الناس أهل ردة بعد النبي صلى الله عليه وآله إلا ثلاثة. فقلت: من الثلاثة؟ فقال: المقداد بن الأسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي). وعندما نناقش هذه النقطة لا بد أن نفرق بين الثلاث مراحل الشيعية في موقفهم من الصحابة: الموقف الأول: حيث كانوا يلتقون فيه مع أهل السنة في إجلال الصحابة وتقديرهم وتقديم على على أبي بكر وعمر ولكن مع إجلال الشيخين واحترامهما، وهناك من يرى أن الشيعة في الصدر الأول كانت تقدم الشيخين على علي!. الموقف الثاني: وهو ذلك الموقف المتطرف الذي قالوا فيه بارتداد الصحابة إلا ثلاثة أو خمسة! الموقف الثالث: وهو الموقف الحالي، والذي يأولون فيه أقوال قدمائهم في الصحابة ويفهمونها فهما خف فيه الغلو كثيرا. كما لا بد أن نفرق بين تعريف الصحابي عندهم و تعريفه عندنا حتى يكون هناك بعض نقاط الالتقاء، وحتى لا يكون النقاش نقاش طرشان!

ونحن لن نخوض الآن كثيرا في تعريف الصحابي فسنترك هذه النقطة لنناقشها بتوسع أكبر عند الحديث عن الشيعة الزيدية، ولكنا نود القول إن الشيعة الإمامية لا يرون أن الصحابي هو من رأى النبي المصطفي حال البعثة وأمن به ومات على الإسلام، وإنما يرون أن المراد بالصحابة الممجدين هم الذين صحبوا النبي (صلى الله عليه وآله) آمنوا به، وماتوا على هديه ودينه. أما أهل السنة فتوسعوا كثيرا في إثبات الصحبة وإعطائها من المنازل والدرجات ما يكاد يقارب ما أنزله الشيعة أئمتهم! فلم يقبلوا أن يتكلم فيهم أحد

إلا بكل خير، ويلزموا الجميع بالسكوت عن الخوض في الفتن التي حدثت بينهم[219] ويترحمون عليهم كلهم بحجة أنهم مجتهدون في فعلهم، أما من ينقدهم فليس مجتهدا بل زنديق! وجعلوا من يسب صحابة الرسول كافرا، ولست أدري من أين أتوا بهذا الحكم صراحة؟!،بل وألغوا طائفة المنافقين، التي نص عليها القرآن والسنة! وفي هذا يقول أحمد الكاتب: "ومع توسيع أهل السنة لمصطلح (الصحابة) فإنهم يضيقون دائرة المنافقين إلى أصغر درجة، ويعتبرون جميع الصحابة داخلين في دائرة الإيمان إلا ما ثبت باليقين أنه منافق، وكما رأينا فقد أدخلوا في دائرة الصحبة حتى من ارتد عن الإسلام ثم عاد إليه، ويعتقدون أن من أعلن إسلامه في أي ظرف فإنه مسلم وصحابي وثابت على الإيمان إلى الأبد، ولا يحتملون انخفاض درجة الإيمان لدى "الصحابي" أو انقلابه إلى الشرك والكفر، أو سقوطه في حب الدنيا إلى درجة النفاق والردة، حتى لو ارتكب الكبائر من أجل ذلك، أو أراق الدم المعصوم، أو قتل عامدا متعمدا كبيرا من كبار الصحابة، كما في حالة أبي الغادية الذي قتل عمار بن ياسر، رغم وجود حديث صريح وصحيح عن النبي الأكرم(ص) يقول فيه: "ويح عمار تقتله الفئة الباغية.. قاتل عمار وسالبه في النار" الذي يرويه السعد من عدة مصادر، ولكنه يعترف بشطر من الحديث، وهو: "ويح عمار تقتله الفئة الباغية" ويشكك بالشطر الآخر: "قاتل عمار وسالبه في النار"[220] اهـ

---

(219) ينقل ابن أبي الحديد –شيعي إمامي–، في كتابه شرح نهج البلاغة عن بعض الزيدية المعتزلة، قولهم: "إنا رأينا الصحابة أنفسهم ينقد بعضهم بعضا، بل ويلعن بعضهم بعضا، ولو كانت الصحابة عند نفسها بالمنزلة التي لا يصح فيها نقد ولا لعن لعلمت ذلك من حال نفسها، لأنهم أعرف بمحلهم من عوام أهل دهرنا. وهذا طلحة والزبير وعائشة ومن كان معهم وفي جانبهم لم يروا أن يمسكوا عن علي. وهذا معاوية وعمرو بن العاص لم يقصروا دون ضربه وضرب أصحابه بالسيف. وكالذي روي عن عمر من أنه طعن في رواية أبي هريرة وشتم خالد بن الوليد وحكم بفسقه، وخون عمرو بن العاص ومعاوية ونسبهما الى سرقة مال الفيء واقتطاعه. وقل أن يكون في الصحابة من سلم من لسانه أو يده. الى كثير من أمثال ذلك مما رواه التاريخ... وكان التابعون يسلكون بالصحابة هذا المسلك ويقولون في العصاة منهم هذا القول، وانما اتخذهم العامة –يقصد أهل السنة وخاصة أهل الحديث– أربابا بعد ذلك. والصحابة قوم من الناس، لهم ما للناس وعليهم ما عليهم، من أساء منهم ذممناه، ومن أحسن منهم حمدناه، وليس لهم على غير هم كبير فضل إلا بمشاهدة الرسول ومعاصرته لا غير، بل ربما كانت ذنوبهم أفحش من ذنوب غيرهم. لأنهم شاهدوا الأعلام والمعجزات فمعاصينا أخف لأننا أعذر."

(220) أحمد الكاتب، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ.

ونبدأ القول بأن الشيعة كما قلنا في أول الأمر كانت تجل الشيخين أبا بكر وعمر ولا تخوض في الصحابة، والأدلة على ذلك ليست بالقليلة, منها ما أورده القاضي المعتزلي عبد الجبار الهمداني في كتاب (تثبيت دلائل النبوة) أن أبا القاسم نصر بن الصباح البلخي قال في (كتاب النقض على ابن الراوندي): أن سائلا سأل شريك بن عبد الله فقال له: أيهما أفضل أبو بكر أو علي؟ فقال له: أبو بكر. فقال السائل: تقول هذا وأنت شيعي؟ فقال له: نعم، من لم يقل هذا فليس شيعياً. والله لقد رقي هذه الأعواد علي فقال: "ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر".

وسواء كانت هذه الرواية صحيحة أم غير صحيحة، فإنه من الثابت تاريخيا أن الشيعة في القرن الأول كانوا يحترمون الشيخين ويوقرونهما أشد التوقير، ولم تكن لهم مؤاخذات إلا على بعض الصحابة الذين حاربوا الإمام علي. ثم ولأسباب تاريخية كثيرة يطول ذكرها، منها الاضطهاد والقمع الشديدان اللذان واجههما الشيعة، ودخول بعض الموتورين في الإسلام والذين أرادوا تشويه سمعة صحابة رسول الله(ص)، ومن أهم الأسباب: تطور التأصيلات الفقهية للمذهب، فلقد وصلت تلك التأصيلات الجديدة – والتي لم يكن لها أي وجود مسبق– إلى القول بالإمامة الإلهية لعلي بن أبي طالب وللأئمة من بعده، وإذا كان الإمام معينا مع عند الله، فما حكم من ينكره ويسلبه حقه؟ حتما ولزاما هو كافر مرتد، وأشد من غصب حق الإمام هما الخليفتان! أبو بكر وعمر، لذا انصبت اللعنات وأدعية المحق واللعنة على رأسيهما المشرفين. وهكذا وصلت الشيعة إلى القول بتكفير الصحابة الأطهار! ولكن الحكم على جيل كامل بالكفر مما لا يقبل عقلا، ثم ما هو الدليل على كفره؟

هنا أخذ الشيعة الإمامية في البحث في التاريخ السني! عن الأفعال التي أتى بها الصحابة والتي يمكن أن يشانوا بها، ويستغلوها في تشويه صورتهم، فأخذوا يقولون إن عثمان خالف هدي النبي المصطفي وفعل كذا وكذا، وأنه كان هناك من الصحابة من كذب وهناك من قبل امرأة... إلخ أنواع المعاصي، وكل ذلك حتى يبرروا قولتهم، ويردوا مقالة عصمة الصحابة عند أهل السنة، ويعجبني رد القاضي عبدالجبار المعتزلي عليهم،

حيث قال في كتابه الرائع: تثبيت دلائل النبوة: "وكثيرًا تسأل الإمامية عما كان من عثمان في تولية أقاربه وغير ذلك، وفي سير طلحة والزبير وعائشة إلى البصرة..؛ لأن عثمان لو لم يول أقاربه ولم يصنع ما صنع لكان كافرًا مشركًا عندهم بادعائه الإمامة لنفسه ولأبي بكر وعمر، ولو كان طلحة والزبير وعائشة في عسكر أمير المؤمنين وفي المحاربين معه ما كانوا إلا مشركين باعتقادهم إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، فمن يكلم الإمامية في إثارتهم لهذه المسائل كمن يكلم اليهود في وجوب النية في الطهارة، أو يكلم النصارى في استحلالهم الخمر، وإنما يكلم في هذا من قال: لا ذنب لعثمان إلا ما أتاه من الحمى، وتولية الأقارب، ولولا ذلك لكان مثل عمر، ومن قال: لا ذنب لطلحة والزبير وعائشة إلا مسيرهم إلى البصرة، ولولا ذلك لكانوا مثل أبي عبيدة وعبد الرحمن وابن مسعود. فاعرف هذا ولا تكلمهم فيه البتة، وكلمهم فيما يدعونه من النص فهو الأصل"اهـ

وهو رد أكثر من جدير بالاحترام والتقدير.

والحمد لله لقد انقضت موجة الغلو هذه وانتهى القول بالتكفير، وإن كان هذا لا يمنع أن كثيرا من المواقع الشيعية على الشبكة المعلوماتية لا تزال تسب الصحابة وتكفرهم، وإن كان أكثرهم يكتفي بنقدهم استنادا إلى الروايات ولا يصل الأمر إلى مرتبة التكفير.

ونحن الآن في المرحلة الثالثة من موقف الشيعة من الصحابة، فما هو موقفهم منهم؟ لا يزالون مختلفين في هذه المسألة بين مكفر –وإن أصبحوا قلة– ومضلل أو مخطأ، ولكنا سنذكر التوجه العام الحالي لكبار علمائهم، يقول الشيخ التيجاني: "وإذا بحثنا موضوع الصحابة بتجرد وبدون عواطف نجد أن الشيعة أنزلوهم بمنازل القرآن والسنة النبوية وما أوجبه العقل، فلم يكفروهم بمجموعهم كما فعل الغلاة، ولم يقولوا ببعد التهم جميعاً كما فعل "أهل السنة والجماعة"... يقول الإمام شرف الدين الموسوي في هذا الموضوع:

"إن من وقف علي رأينا في الصحابة علم أنه أوسط الآراء، إذ لم نفرط فيه تفريط الغلاة الذين كفروهم جميعاً، ولا أفرطنا إفراط الجمهور الذين وثقوهم جميعاً، فإن الكاملية ومن كان في الغلو على شاكلتهم قالوا بكفر الصحابة كافة، وقال "أهل السنة" بعدالة كل فرد ممن سمع النبي أو رآه من المسلمين مطلقاً واحتجوا بحديث (كل من دب أو درج منهم أجمعين أكتعين). أما نحن وإن كانت الصحبة بمجردها عندنا فضيلة جليلة لكنها بما هي من حيث هي غير عاصمة، فالصحابة كغيرهم من الرجال فيهم العدول وهم عظماؤهم وعلماؤهم، وفيهم البغاة وفيهم أهل الجرائم من المنافقين، وفيهم مجهول الحال، فنحن نحتج بعد ولهم و نتولاهم في الدنيا و الآخرة. أما البغاة على الوصي وأخي النبي صلى الله عليه وآله وسلم و سائر أهل الجرائم كابن هند وابن النابغة وابن الزرقاء وابن عقبة وابن أرطأة و أمثالهم، فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم، ومجهول الحال نتوقف فيه حتى نتبين أمره."[221]. اهـ

وإذا كان هذا هو موقف الشيعة من الصحابة، فماذا يقولون إذا في روايات التكفير الواردة في كتبهم؟ كالعادة ستسلط عليها مباضع التأويل –ونرجو من الله أن تسلط هذه المباضع على كل ما يخالف كتاب الله سواء عندنا أو عندهم–، فيقولون: أما ما يتعلق بارتداد الصحابة فالنصوص الشيعية التي تذكر ذلك المضمون لا تقصد الارتداد بمعنى الخروج عن الدين وبمعنى الكفر، بل المقصود بها ما قصد من الرواية الواردة في البخاري عن ابن عباس قال: قال النبي(ص): "لا ترتدوا بعدي كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض"، وكذلك قوله (ص) "سباب المسلم فسوق وقتاله كفر"، فإذا كان عندكم أهل السنة كفر دون كفر، وكفر غير مخرج من الملة، فما نقوله في الصحابة هو من هذا النوع، وإلا عليكم بالقول بكفر طلحة والزبير وعائشة ومعاوية وعلي لأنهم كلهم ارتدوا وكفروا لأنهم تقاتلوا؟!! وهل نحكم بكفر من يؤمن بصحة هذه الرواية؟ أم يجب تأويل كلمة الارتداد وكلمة الكفر الواردة في أحاديث الباب المذكور في صحيح البخاري إلى الكفر بالحق لا الكفر بالشهادتين. إذا فهم يرون أن المراد من الكفر في

[221] محمد التيجاني السماوي، الشيعة هم أهل السنة.

الروايات هو كفر –مخالفة– الأمر وليس كفر الشهادة، وهذا تأويل مقبول بشرط أن يكونوا هم أنفسهم يصوروا الأمر كذلك لعوامهم!

أما لماذا لا يقول الشيعة بعدالة كل الصحابة ولا يقدسونهم مثل أهل السنة! فهم يرون أن ذلك مخالف للقرآن وللسنة النبوية –أما تقديس الأئمة فمقبول ولا شيئ فيه!!– ويستدلون على ذلك بالقرآن وبالسنة، ونبدأ بعرض بعض أدلتهم من القرآن ثم نثني بعرض أدلة السنة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ٢٩﴾ [سورة الفتح, ٢٩]، فهذه الآية وإن كان فيها ثناء للصحابة ولكنه ليس لكلهم، فلم يقل الله تعالى "وعدهم"، وإنما قال: وعملوا الصالحات منهم "وهذا يعني وجود غير المؤمنين عاملي الصالحات. قال تعالى: ﴿فَأَعۡقَبَهُمۡ نِفَاقٗا فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ يَلۡقَوۡنَهُۥ بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ٧٧﴾ [سورة التوبة, ٧٧] وهذا دليل على وجود النفاق واستمراره حتى بعد وفاة الرسول، فليس ثمة دليل على أن كل المعنيين في الآية قد هلكوا في زمن الرسول المصطفي المعصوم!. قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ [سورة التوبة, ٩٧]، وهم من الصحابة عند أهل السنة والحديث، وهم أشد نفاقا يعني أن هناك من هو أقل كفرا ونفاقا منهم، والنفاق حتما لا يكون إلا في طائفة المؤمنين!. قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [سورة التوبة, ١٠١]، وهذا يعني أنهم سيموتون كذلك على النفاق، وما من دليل على موتهم كلهم في زمن الرسول(ص). قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيۡتَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودٗا ٦١﴾ [سورة

النساء ,٦١]، وهذا يوضح مسالك المنافقين في صحابة الرسول وصدهم عنه. قوله تعالى: ﴿بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ١٣٨﴾ [سورة النساء ,١٣٨]، يعني سيموتون على النفاق! قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ١٤٣﴾ [سورة النساء ,١٤٢-١٤٣].

ويعلق الأستاذ أحمد يعقوب على هذه المسألة قائلا: "نظرية عدالة كل الصحابة تتعارض مع النصوص القرآنية القاطعة. شاعت ظاهرة النفاق في زمن النبي، وبرز المنافقون كقوة حقيقية يحسب حسابها، والمنافقون هم فئة آمنت بالظاهر، فهم بأفواههم يشهدون أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ويرددون نفس الألفاظ والمصطلحات التي يرددها المسلمون خداعا واستهزاء: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ٩﴾ [سورة البقرة ,٨-٩] وهم يجاهرون بذلك ويحرصون على أن يسمعه النبي والذين آمنوا: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا ... ١٤﴾ [سورة البقرة ,١٤]. ولا تقتصر ظاهرة النفاق على القول بل تتعداها إلى العمل، فقد كانوا يصلون وينفقون ويقدمون الأعذار إذا تخلفوا عن الخروج مع النبي، ويكررون مزاعمهم بالإيمان. سلوك الإنسان يعكس عاجلا أم آجلا حقيقة اعتقاده، لكن النوايا لله، والنبي يعنى بالظاهر والسلوك ويكل البواطن لله، وهو بطبيعته رؤوف رحيم خلوق ونموذج فرد للإنسان الكامل. ولكنهم تجاوزوا الحدود فبدأت الآيات القرآنية تتنزل وتكشف حقائق هذه الفئة. من ذلك: ﴿... وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ٩﴾ [سورة البقرة ,٨-٩]، ﴿... وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾ [سورة البقرة ,١٤]، ﴿... وَلَا يَأۡتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمۡ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ٥٤﴾ [سورة التوبة ,٥٤]، ﴿... وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ ... ٤٦﴾ [سورة التوبة ,٤٦]، ﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا

زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ... ﴿٤٧﴾]سورة التوبة, ٤٧[، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾] سورة التوبة, ٥٦[، ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ... ﴿٤٩﴾] سورة التوبة, ٤٩[."[222]

فهذه بعض أدلة من القرآن على وجود النفاق والمنافقين والعاصين بين الصحابة الذين جعلهم أهل السنة عدول كلهم، نعم هناك أدلة تمدحهم وتثني عليهم مثل قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾] سورة الفتح, ١٨[، وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾] سورة التوبة, ١٠٠[، وقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾] سورة آل عمران, ١١٠[، وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ... ﴿١٤٣﴾] سورة البقرة, ١٤٣[– مع أن الآيتين الآخيرتين ليستا في الصحابة فقط قطعا– فهذه الآيات –مجتمعة مع الأخرى– تشير إلى وجود فريقين بين الصحابة، وهذا أقصى ما تطمح إليه الشيعة، وهو أن تسقط نظرية عدالة كل الصحابة. أما أدلة الشيعة على ذلك من السنة، فمنها: ما أخرجه الترمذي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: ويؤخذ من أصحابي برجال ذات اليمين وذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فإنهم لا يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول: كما قال العبد الصالح: أن تعذبهم فإنهم عبادك"، وبما ورد في السير أن صحابيا كان يقاتل مع النبي(ص) فأصابه سهم، فلم يحتمل الألم فقتل نفسه، فأخبر النبي المصطفي أنه في النار. وغير ذلك توجد الكثير من الروايات التي يذكر فيها أخطاء أو معاصٍ للصحابة. ومن أهم

[222] أحمد حسين يعقوب، نظرية عدالة الصحابة والمرجعية السياسية في الإسلام.

الأدلة على عدم وجود هذه المرتبة للصحابة هو عدم وجود رواية واحدة تقول إن صحابي اعترض على سباب أو قتال صحابي آخر له بحجة أنه صحابي! وإنما كانوا يتعاملون بشكل عادي لا يظهر فيه أي مظهر من مظاهر القدسية أو المنزلة الخاصة كأفراد مخصوصين.

ولما كان القول بأن كل صحابة الرسول (ص) ما عدا نفر معدود على اليد قد ارتدوا بعده أو حتى لم يكفروا بالمعنى العام وإنما كفروا بالمعنى الخاص، يعني في جميع الأحوال أن الرسول فشل في تأدية رسالته ولم يستطع أن يقدم للبشرية نموذجا لمجتمع قائم على الأخلاق الحسنة والود والتعاون والتراحم والتكاتف والتناصر والألفة! وإنما قدم لها نظرية في كتاب اسمه القرآن لم يستطع تطبيقها على أرض الواقع! فهل سيطبقها الآخرون؟ لذا رأينا توجها حديثا عند بعض الأخوة علماء الشيعة يخالفون ذلك النهج القديم الغالي، وغيروا من تلك النظرة المغالية إلى الصحابة، فوجدنا مثلا السيد مرتضى الرضوي يقول: "الشيعة يوالون أصحاب محمد (عليه وآله الصلاة والسلام) الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة الدين وجاهدوا بأنفسهم وأموالهم. واتهام الشيعة بسب الصحابة وتكفيرهم أجمع هو اتهام بالباطل، ورجم بالغيب وخضوع للعصبية، وتسليم للنزعة الطائفية، وجري وراء الأوهام والأباطيل". ومنهم من يقول إن مخالفة الصحابة رضوان الله عليهم للأمر النبوي بتنصيب علي إماما بعده كان من باب الاجتهاد! حيث رأوا أن الأمر النبوي لم يكن من باب الأمر الديني وإنما الأمر الدنيوي المصلحي الذي يجوز الاجتهاد بخلافه، كما كان يحدث أحيانا في بعض الأوامر من الرسول، مثل صلاة العصر في بني قريظة وما شابه.

وكأي مذهب إخباري لا بد أن يحتوي بداخله الحق والباطل، وجدنا في روايات الشيعة روايات تحث على احترام الصحابة وتقديرهم! ومنها: ما جاء في البحار للمجلسي: عن الصّادق عن آبائه عن علي عليه السّلام قال: "أوصيكم بأصحاب نبيّكم لا تسبّوهم، الذين لم يحدثوا بعده حدثًا ولم يؤووا مُحدِثًا، فإنّ رسول الله أوصى بهم الخير"، وفي البحار أيضًا، قال النبي صلى الله عليه وسلم: "طوبى لمن رآني، وطوبى لمن رأى من

رآني، وطوبى لمن رأى من رأى من رآني". وعن موسى بن جعفر (الإمام السّابع عند الشيعة) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنا أمنة لأصحابي، فإذا قبضت دنا من أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمّتي، فإذا قبض أصحابي دنا من أمّتي ما يوعدون، ولا يزال هذا الدّين ظاهرًا على الأديان كلّها ما دام فيكم من قد رآني"

وفي نهاية المطاف يمكننا القول إن الشيعة لا ينظرون إلى الصحابة نفس نظرة التقديس التي ينظر بها أهل السنة، فهم عندهم بشر يصيبون ويخطأون، كما أنهم لا يعطون لقب الصحابي لكل من رأى النبي(ص)، لأن الصحبة لا تكون إلا لمن صحب! أما أن يتجاوز علماء أهل السنة ويقولون: أن رؤية النبي لها فضل خاص، فمن رأه مؤمنا به فهو صحابي، فهو قول تأباه اللغة والنفس، وإذا قبلوه هم فلا ننتظر أن يقبله الآخرون. ونحن نعترف أن هناك الكثير من المواقع والكتب الشيعية لا تزال تنتقص من قدر الصحابة، ولكن على الأقل قلت نغمة التكفير هذه، وأصبحنا نسمع عن أقوال أخرى أخف، وهي خطوة إيجابية على طريق الوحدة بين المسلمين. أما أن يتمسك أهل السنة برأيهم في الصحابة ويرفضون التزحزح عنه ويريدون أن يحملوا الناس عليه، فلن يؤدي ذلك إلا إلى مزيد توتر بين الفريقين. ونختم هذا البحث بقولنا: إن الناظر في حال المسلمين يجد تفرقا وتشتتا كبيرين، ومنبع هذا التشتت هو أسباب تاريخية يمكن غض الطرف عنها، فإذا كنت أنا كسني أرى فضل الصحابة وعدالتهم، والشيعي يرى أحقية أهل البيت بالإمامة ويرى أن الصحابة لم يكونوا ملائكة! الآن ليس هناك أهل للبيت ولا صحابة، فليعتقد كل منا في هذه المسألة ما يحلو له، ولا يحاول أن يحمل الآخرين عليها. فبدلا من أن يدعو الشيعة أهل السنة إلى اعتقاد أفضلية أهل البيت ويدعو السنة الشيعة إلى اعتقاد عدالة الصحابة، فليركز كل منا مجهوداته داخليا وخارجيا في الدعوة إلى الله، فنركز على إصلاح أخلاق الناس التي انحدرت إلى أقل من الحضيض، ونقف وقفة رجل واحد أمام هجمة الرأسمالية المسعورة التي محت عقول الناس. كما ندعو الغربيين إلى الدخول في الإسلام بسماحته وبساطته وشموليته وعالميته، حتى نكون ممن قال الله عزوجل فيهم: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ﴿١١٠﴾﴾ [سورة آل عمران, ١١٠]. وفي

آخر هذا المبحث عن الشيعة أثبت كلمتين، كلمة لي و كلمة وجدتها على الشبكة المعلوماتية ولم يذكر صاحبها اسمه:

أما كلمتي، فأقول: لقد عدّلت الشيعة الإمامية كثيرا من تصوراتها لعقائدها وطرحتها بشكل جيد جديد، ولكن هذا الطرح يحتاج إلى وقت حتى يجد صداه على الأرض، وحتى تختفي أذناب التيارات المغالية التي كانت موجودة سابقا. فلا نعجل على الأخوة الشيعة ولننتظر فالتغيير لن يكون بين يوم وليلة، ولنتعامل مع الأخوة الشيعة على أنهم أخوة في الدين، فنحن يجمعنا إله واحد ونبي واحد وهدف واحد وخطر واحد، فلنتحد ولا نفترق ولا نكن من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا متناحرين!

أما الكلمة التي وجدتها على الشبكة المعلوماتية فهي: "الفرق بين الشيعة والسنة في المحصلة النهائية لا يختلف عن الفرق بين مذاهب الطائفة الواحدة، بل هو أقل ضراوة من الخصومات الدامية التي نشبت في التاريخ بين أبناء المذهب الواحد. وأتمنى أن أوفق في التعبير عما ترسخ في مخيلتي من ملاحظة البون الشاسع والمترامي الأطراف بين واقع المذاهب الإسلامية اليوم، وخصائص نشأتها ومراحل تطورها.

وأضرب لك مثلا المذهب الحنبلي، الذي أصبح اليوم في الطرف الأبعد من الشيعة الإمامية، بينما كان يوما من الأيام مذهب الكثيرين من أعلام الشيعة الإمامية!. فهذا ابن الفوطي (ت723هـ) صاحب (معجم الألقاب) والذي كان قيما لأكبر مكتبة في الدنيا في عصره (مكتبة الرصد) لم يجد ما يعيبه في أن يكون شيعياً حنبليا، وهذا الحكيم الطوفي، وهو من تلاميذ ابن تيمية كما ذكر ابن رجب، كان حنبليا شيعيا، وترك خزانة كتب من تصانيفه.

وهذا شيخ الإمامية وعالمهم في عصره شمس الدين محمد بن أبي بكرالسكاكيني، كل مشايخه من أهل السنة، وقد خرَّج له ابن الفخر: علاء الدين ابن تيمية مارواه عنهم وناظره شيخ الإسلام ابن تيمية وشهد له بالتفوق وقال: (هو ممن يتشيع به السني، ويتسنن به الرافضي) ونسخ صحيح البخاري بيده، وتوفي يوم 26/ صفر/ 721هـ

ومولده سنة (635) وهو صاحب القصيدة المشهورة التي رد عليها ابن تيمية، وأولها: (أيا معشر الإسلام ذمّي دينكم... تحير دلوه بأوضح حجة)... ولو رجعنا إلى أبعد من ذلك رأينا الحلاج وهو رأس العجائب والغرائب كان حنبليا لا ينتطح في ذلك عنزان".

والآن ننتقل إلى الحديث عن الشيعة الزيدية.

الفرقة الثالثة: الشيعة الزيدية

بعد أن أنهينا الحديث عن الشيعة الإمامية والتي تعتبر أبعد الفرق الإسلامية عامة عن أهل السنة، ننتقل إلى الحديث عن الشيعة الزيدية، وهي أقرب فرق الشيعة إلى أهل السنة، بل إن الفروق بين الشيعة الزيدية وأهل السنة طفيفة جدا. وعندما نتكلم في الفصل عن الشيعة الزيدية سنكتفي بقولنا الزيدية. وكالعادة نبدأ بالتعريف بالفرقة وأصل التسمية سريعا ثم نلج بعد ذلك إلى عقائد الفرقة: تنتشر الزيدية حاليا في اليمن، حيث يعيشون في إخاء وود مع الإخوة السنة، وبعد أن كانت الزيدية تمثل المذهب الغالب في اليمين تراجع ذلك النفوذ، وامتد نفوذ الشافعية وزاد.

من هم الزيدية؟

من هم الزيدية؟ ومما اشتق هذا الاسم؟ يجيب الدكتور يحيى عبد الكريم الفضيل فيقول: "قال الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى في كتاب (الملل والنحل): فالزيدية منسوبة إلى الإمام زيد بن علي بجميع مذاهبه؛ في تفضيل علي –كرم الله وجهه–، واعتقاد أولويته بالإمامة، وقصرها من بعده في البطنين، واستحقاقها بالفضل والطلب، ثم افترقوا فمنهم جارودية وبترية، والجارودية منسوبة إلى أبي الجارود زياد بن منذر العبدي، أثبتوا النص على إمامة علي بالوصف دون التسمية. إلى أن قال: وأثبتوا الإمامة للبطنين بالدعوة مع العلم والفضل. إلى أن قال: أما البترية وأصحاب الإمام أبي حنيفة فذهبوا أن الإمامة شورى وتصح بالعقد، وفي المفضول، ويقولون بإمامة الشيخين مع أولوية أولاد علي عندهم، وسموا بترية لتركهم الجهر بالبسملة بين السورتين، وقيل: لما أنكر سليمان بن جرير البلخي النص على علي سماه المغيرة بن سعيد أبتر. إلى أن

قال: وانقسم المتأخرون إلى قاسمية وناصرية وكان يخطئ بعضهم بعضاً حتى خرج المهدي أبو عبد الله (الداعي إلى الله) وألقى إليهم: أن كل مجتهد مصيب." اهـ [223]

وهذا التعريف يوضح اختلاف الشيعة الزيدية عن الإمامية، فهم يقصرون الإمامة في البطنين الحسن والحسين، أما الشيعة الإمامية فقصروها فقط في أولاد الحسين، والزيدية يقولون باسحقاقها بالفضل أي بانتسابهم إلى أهل البيت وبالطلب، أما الإمامية فيقولون بأن الأئمة معينون محدودون بالاسم. ونقدم للقارئ تعريفا آخر للزيدية أكثر شمولا ووضوحا يذكره الأستاذ علي بن عبد الكريم الفضيل، معلقا على مسألة التسمية بالزيدية: "تطلق كلمة الزيدية على أئمة أهل البيت النبوي الشريف ومن تابعهم أو وافقهم في الاعتقاد: بعدل الله المطلق، وتوحيد الله في ذاته وصفاته دون تجسيم أو تشبيه أو تعطيل، والقول بإمامة الإمام زيد بن علي عليه السلام، ووجوب الخروج على الظلمة بالشروط المبينة في كتبهم، واستحقاق الإمامة بالفضل والطلب لا بالوراثة أو القوة، وأفضلية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام وأولويته بالإمامة، والقول بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل إذا كان ذلك لعذر. أمّا ما عداها من الأمور فكلٌّ وما أدّى إليه نظره. لهذا فلا يُخرجون عن الزيدية أحداً لما يعتقده مجتهداً في الفروع من الأحكام الشرعية إذ "كلّ مجتهد مصيب"، أمّا الجاهل فله الحق أن يقلّد من يراه أهلاً للتقليد...

والحقيقة أن النسبة للإمام زيد إنما هي نسبة اعتزاء لا مذهبية وذلك لما يلي:-

1- لأنّ المذهب الزيدي يُحرّم التقليد على كل متمكن من أخذ الحكم من كتاب الله وسنة رسوله، ولا يبيحه إلاّ لغير المتمكن من الاجتهاد لقوله تعالى: ﴿... فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [سورة النحل, ٤٣].

[223] يحيي عبد الكريم الفضيل، من هم الزيدية.

2- لأن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على نفسه ولا على أتباعه ولا أطلقها أتباعه على أنفسهم في البداية، وإنما أطلقها عليهم حكام بني أمية، ثم بني العباس على أي ثائرٍ عليهم من بعد الإمام زيد عليه السلام من أهل البيت النبوي الشريف. فالتسمية إذاً تسميةً سياسية في الأصل ولكن الزيدية الطائفة رضيت بهذه التسمية، واعتبرتها شعار حرية وكرامة وجهاد وتضحية في سبيل الله والمستضعفين من عباده.

3- لأن الزيدية لا تعتقد بأن الإمام زيد أولى بالتقليد من غيره كالإمام جعفر الصادق مثلاً، ولا أنهما أولى بالتقليد من الإمام القاسم الرسي، ولا أنهم جميعاً أولى بالتقليد من أبائهم وأجدادهم. ولذلك فإنهم يتمسكون بما أجمع عليه أهل البيت النبوي الشريف للأحاديث الواردة في ذلك كحديث التمسك بالثقلين المروي في صحيح مسلم وغيره من الأحاديث الدالة على أن إجماع أهل البيت حجة؛ وهو مذهب الكثير من العلماء ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية كما هو مذكور في فتاويه ج28،ص493. أمّا في المسائل الفرعية فالعالم يعمل بما أدّى إليه اجتهاده، والمقلد المميز يعمل بمذهب إمامه الذي قلّده، أما الجاهل الصرف فمذهبه مذهب أهل جهته، وفيما قد عمله معتقداً صحته ولم يخرق الإجماع فمذهبه مذهب من وافق من الأئمة المتبوعين. ومع كلٍّ هذا التيسير فلا تجيز الزيدية تتبع الرخص والرغبات." اهـ [224]

مفاخر للزيدية

كما تفتخر الزيدية بقيام مذهبها على علوم أهل البيت وأئمته، فيقولون: "لعلّه من المُلفِت للنظر أن الزيدية هي الفرقة الوحيدة التي احتوى مَذهَبهَا على سادات أهل البيت من أبناء الحسن والحسين (ع)، حيث أنّهم مُمَهّدو مسالكها ومؤصلي قواعدها وناقلو أخبارها، فبينما نجد أنّ مذهب الشيعة الجعفرية قامَ على أكتاف سليم بن قيس –إن

[224] الزيدية الطائفة والمذهب، السيد علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين

صحَّ كتابه الموسوم بالسقيفة-، وعلى أكتاف الحافظ محمد بن يعقوب الكليني، وعلى أكتاف مشائخ القميين، وعلى أكتاف الشيخ المفيد، ومذاهب أهل السنة والجماعة قامت على أكتاف الأئمة الأربعة أحمد ومالك وأنس والشافعي رحمهم الله تعالى، والمتأخرين من أهل السنة والجماعة على أكتاف ابن تيمية وتلميذه المخلص ابن القيم، وأيضاَ نجد الأشاعرة قامَ مذهبهم على أكتاف أبي الحسن الأشعري والجيلاني والجويني، والكل من هؤلاء يدّعي المتابعة لأهل البيت (ع)!! بينما نجد مذهب الزيدية قامَ على أكتاف أئمة أهل البيت أنفُسهم) تأمّل (ومنهُم، الإمام فقيه آل محمد أحمد بن عيسى بن زيد بن علي الحسيني، والإمام زاهد الآل عبدالله بن موسى الجون بن عبدالله المحض الحسني، والإمام نجم آل الرسول وترجمان الدين القاسم الرسي بن إبراهيم طباطبا الحسني، وإمام أهل البيت وسيدهم علي الرضا ابن موسى الكاظم الحسيني، والإمام الخضم محمد بن القاسم الرسي الحسني، وابن أخيه الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي، وإمام طبرستان الإمام الناصر للحق الحسن بن علي بن الحسن الأطروش الحسيني، وعلى أكتاف أشراف وسادة الجيل والديلم السادة الهارونيين أسباط الحسن بن زيد، وعلى أكتاف مسند أهل الكوفة ومُحدثهم الشريف الحافظ أبي عبدالله محمد بن علي العلوي الحسني، وعلى أكتاف تلميذه المُخلص الثَبْتْ المُتابع الشريف عمر بن إبراهيم الكوفي الحسني، وعلى أكتاف الإمام المنصور بالله القاسم بن علي العياني الرسي الحسني، وعلى أكتاف علي بن محمد بن عبيدالله العباسي العلوي -صاحب الإمام الهادي وراوي سيرته-، وعلى أكتاف أشراف الحجاز أبناء موسى الجون السليمانيين منهم والقتادات -أبناء الأمير الشريف أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن- وغيرهم الكثير.[225]"اهـ

[225] الكاظم الزيدي, مجموعة الرسائل المهمة عن الزيدية.

ما الفرق بين الشيعة الزيدية والشيعة الإمامية؟

وكالعادة يكون الرد من كتبهم، فيقول الشيخ الحسين الحوثي: "أن الإمامية تقول: إن الإمامة محصورة –بعد الحسين– في تسعة من ولده أولهم علي بن الحسين وآخرهم محمد بن الحسن العسكري وهو الإمام المنتظر المهدي عندهم، والزيدية تقول: إن الإمامة محصورة في ولد السبطين لا يختص بها بطن من بطن، واحتجت الزيدية بحديث الثقلين وحديث السفينة، والإثنا عشرية معترفة بصحة هذين الحدثين، وقد روى هذين الحديثين الشيعة وأهل السنة، فلهذا احتججنا على الكل بهذين الحديثين وأشباههما مما اعترف به جميع الطوائف، وبقوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [سورة الأحزاب, ٣٣]، ﴿... قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ... ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الشورى, ٢٣]، وقد أجمع أهل البيت على أنه لا يختص بها التسعة من ولد الحسين، والإمامية لا تنكر أن جميع أهل البيت في زمن كل إمام من أئمتهم لا يقولون بإمامة ذلك الإمام، لأنه لم يقم ويدعوا ولو قام ودعى مع كمال الشروط لقالوا بإمامته إلا علي الرضا فإنه إمام عندنا لأنه قام ودعا ولا نعترف بأن أئمتهم يدَّعون لأنفسهم الإمامة ولا نعتقد ذلك وحاشاهم...، فمن ما اختلفنا فيه: أنهم يشترطون عصمة الأئمة ونحن لا نشترطها لكن نشترط العدالة والذكورة والعلم والورع وحسن التدبير والشجاعة والكرم والمنصب وقد قدمناه وسلامة الأطراف فيما يحتاج إليه الإمام مثل السمع والبصر واليدين مما يخل، وسلامته من المنفرات مثل الجذام والبرص والحمق، وإذا اختلّ أي هذه الشروط بطلت ولو من بعد." اهـ[226]

هذه هي أهم الفروق في العقيدة الشيعية بين الطائفتين، أما في الأحكام الفقهية فهم يخالفون الشيعة الإمامية فيما تفردوا به ويوافقون أهل السنة في الزكاة، وفي غسل الرجلين على عكس الشيعة الإمامية التي تقول بمسحهما، كما يقولون بتحريم زواج

[226] الحسين بن يحيي الحوثي، الجواب الراقي على مسائل العراقي.

المتعة –مثل أهل السنة– ويرون أنه نسخ، كما يحرمون إتيان المرأة من دبرها على عكس مذهب الشيعة الإمامية، والذي أجازه بعض علمائهم مع الكراهة! –عندنا أيضا في أهل السنة بعض الأقوال لعلماء أجازوا نكاح الدبر، فليس الأمر من مستنكرات الشيعة فقط!–.

ما هي الفروق المشهورة بين الزيدية وأهل السنة؟

تتشابه الزيدية مع أهل السنة في بعض العقائد، وتخالفهم في بعضها، وهذا ما سنراه عند عرض عقائد الزيدية، ولكن الملاحظ أن هذه العقائد المختلف فيها يمكن القول إنها من الفروق الدقيقة في العقيدة والتي يمكن أن تدخل في الجانب الفلسفي للعقيدة، والتي تحتاج إلى دراسة وإمعان فكر حتى يعرفها ويفهم مدلولها القارئ العادي، والتي لا يشغل الإنسان العامي بها نفسه، ومن الممكن أن يموت بدون أن يعلم عنها شيئا ولا يضيره ذلك شيئا! أما أسس العقائد والتي تؤخذ مباشرة من كتاب الله ومن السنة الموافقة والتي يجب على كل إنسان مسلم أن يعرفها، فلقد كنت أقرأ في رسالة العقيدة الصحيحة والدِّيْنُ النصيحة، من تأليف الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين إسماعيل بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد، وهي رسالة مختصرة جامعة لأسس العقائد فعندما قرأتها وجدت أنها تتطابق تماما مع معتقدات أهل السنة إلا في نقاط معدودات وهي قوله: "وأن الشفاعة لمن ارتضى، ﴿... مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ۝١٨﴾ [سورة غافر, ١٨]، وعندنا الشفاعة للعصاة والطائعين، وقوله: "وأن من أدخل النار فهو خالد فيها ﴿... وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝١٦٧﴾ [سورة البقرة, ١٦٧]. "وعندنا يدخل ويخرج، وبداهة تأتي النقطة الأخيرة وهو أفضلية الإمام علي بن أبي طالب حيث يقول: "وأنَّ الله حصر الولاية للمؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ [سورة المائدة, ٥٥]. فالولاية: وهي

الإمامة لمن جعلها الله له ووصفه بإيتاء الزكاة وهو راكع، ولم يفعل ذلك أحد غير أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو ابن عمه لأبيه وأمه ﴿... وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ ... ﴿٧٥﴾﴾ [سورة الأنفال ,٧٥]، وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، آخى بينه وبينه، وهو منه بِمَنْزِلَةِ هارون من موسى، ودعاه عند نزول آية المباهلة، وفداه بنفسه، وهو أول من صلى معه، ومن كان مولاه فعلي مولاه، وهو خامس أهل الكساء الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم..." إلخ وهذا بداهة مستند إلى أحاديث آحاد ضعيف معظمها لا يصح أن يحمل القرآن عليها، بغض النظر عن عدم تطابقها مع النص القرآني.

كما تأتي في أهم الفروق بين الزيدية وأهل السنة هو تجويزهم الخروج على الحاكم الظالم بشروط حددوها في كتبهم. وعلى الرغم من أن هذه النقطة لا علاقة لها بالعقيدة، إلا أنها في الواقع من أهم أسباب تمييز معظم الفرق عن أهل السنة!

أصول الدين عند الزيدية

كما تحدثنا عن أصول الدين لدى الشيعة الإمامية، نذكر في عجالة أصول الدين لدى الزيدية، وسنلاحظ أنها تتشابه مع أصول الدين عند المعتزلة، حيث أنه ثمة تشابه كبير جدا في العقائد بين المعتزلة والزيدية، حتى أن كثيرا من المفكرين والفقهاء، قالوا إن الزيدية تتلمذوا على المعتزلة في العقائد. وبغض النظر عن مسألة التأثير والتأثر بين الزيدية والمعتزلة، ما هي أصول الدين عند الزيدية؟ سنجد أن أصول الدين عند الزيدية هي نفسها لدى المعتزلة وهي:

1- التوحيد./ 2- العدل./ 3- المنزلة بين المنزلتين./ 4- صدق الوعد والوعيد./ 5- وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد يعجب القارئ من أن تكون هذه أصول الدين عند فرقة مثل الزيدية، ويرى أنه من الأولى أن يكون المعاد من بين أصول الدين وكذلك النبوات. ولكن عجب القارئ سيزول إذا علم أن كل ما يجول في خاطره من عقائد مندرج تحت هذه الأصول، فمعرفة الله وتوحيده تندرج في الأصل الأول، وإرسال الرسل هو من عدل الله عزوجل، أما المعاد يوم القيامة فهو داخل في صدق الوعد والوعيد والذي يشتمل بالإضافة لذلك عدم خروج من دخل النار منها، كما أن الخروج على الحاكم يدخل تحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والذي يمكن أن يستعمل بخلاف ذلك في الأمور الحياتية العادية والجوانب الاجتماعية المألوفة.

الزيدية والمعتزلة التأثير والتأثر

قد يكون القارئ قد لاحظ وأنا أستدل على بعض عقائد المعتزلة أنني أذكر الأدلة عليها من كتب للزيدية! وذلك كما قلنا لاتفاقهم الكبير في نصيب من العقائد، ولكون عقائدهم تكاد تتطابق مع المعتزلة رُموا بأنهم تلاميذ المعتزلة وعلى أيديهم أخذوا العقائد وبذلك انحرفوا عن نهج أهل البيت. والزيدية معترفون بعلاقة أئمتهم بشيوخ المعتزلة، إلا أنهم يرون أن المعتزلة هم من تأثروا بالزيدية وبعبارة أخرى بأهل البيت. أما مسألة صياغة المصطلحات واستعمال الألفاظ الفلسفية فهي من عند المعتزلة وكذلك الغلو في تقديم العقل فليس من أهل البيت. ونذكر للقارئ الأقوال التي أوردت على الزيدية لهدفين اثنين:

أولهما: أن يعرف مدى العلاقة الوثيقة بين المعتزلة والزيدية، وثانيهما: أن يعرف بعضا من أسماء أئمة الزيدية في سياق مفيد، بدلا من سردها في قائمة جافة تحوي أسماءهم من أجل تعريفهم: اختلف القائلون بتأثر الزيدية بالمعتزلة، ولم يستطيعوا أن يحددوا بدقة متى بدأ هذا الانحراف عن نهج أهل البيت، وأهمية هذه النقطة تكمن في أنه إذا استطاعت الزيدية إثبات عدم وجود تغير في عقائدهم، وأن المسألة مسألة ديباجة الفاظ

وتغير أسلوب لا بد منه مع تغير الزمان والتطور، فسيعني هذا أن عقيدة الزيدية عقيدة سليمة مأخوذة عن أهل البيت وكذلك عقيدة المعتزلة وأن المعتزلة هم من تأثروا بهم، وهذا سيعني توجيه ضاربة قاضية للمذاهب المخالفة، فهم اجتهدوا في تأصيل عقائدهم، أما الزيدية فأخذوها مباشرة من أئمة آل البيت! ونذكر للقارئ الآن التصورات التي وضعت لتأثر الزيدية بالمعتزلة وأخذهم منهم:

بدأ الأمر بعلاقة الإمام زيد بن علي زين العابدين(ع) (ت122هـ)، بواصل بن عطاء. ثم علاقة الإمام محمد بن عبدالله النفس الزكية(ع) (ت145هـ)، بواصل بن عطاء وعمرو بن عبيد المعتزلي. ثم علاقة الإمام إبراهيم بن عبدالله النفس الرضية(ع) (ت145هـ)، بسواد معتزلة البصرَة، بل إن سوادَ جيشه عليه السلام كان من المُعتزلَة. ثم علاقة الإمام إدريس بن عبد الله المحض(ع) (ت177هـ)، بكبير المعتزلة في المغرب إسحاق بن عبدالحميد الأوربي، وعبدالحميد هذا من غرس دُعاة واصل بن عطاء المبعوثين إلى المغرب، وناصرَ عبدالحمدي إدريس بن عبدالله. ثم الإمام إدريس بن إدريس بن عبدالله(ع) (ت213هـ)، ونشأته في حِجر أمّه كنزة بنت إسحاق بن عبد الحميد المعتزلي، (قل في بيئة عَدليّة)، حتى بلغَ أشدّه وواصل مشوارَ سلفهِ من أهل البيت(ع) في الدّعوة إلى الله. ثم الإمام محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي زين العابدين(ع) (ت بعد 229هـ)، وهُوَ الطالقاني، ومن اللافت للنظر هُنا أنّ محمد هذا هُو ابن عم علي بن الحسن (والد الناصر الأطروش)، أيضاً تأمّل أنّ محمد بن القاسم وعلي بن الحسن من أقران القاسم الرسي(ع)، ومعَ هذا فعقيدَة الاعتزال (والأصل عقيدة أهل البيت) فاشيَةٌ ظاهرةٌ عليهِم، وكيفَ لا تظهَر!، ثم الإمام علي بن موسى الرضا(ع) (ت 203هـ)،وعَدم تصريحهُ أو تلميحهُ للمأمون العباسي بإزالَة المُنكَر المُتمثّل في تبنيّه –أي المأمون– لفكر أهل العدل والتوحيد. وهُوَ دليلٌ على الرّضا، ولوَ طلبَ علي الرّضا إزالة هذا الفِكر ما أُهمِلَ طَلَبُه. ثم الإمام عبدالله بن موسى الجون(ع) (ت247هـ)، واحتواء دُعاته وخاصّته على عدد من المعتزلَة.

كل هذه العلاقات كانت كافية ليرى الآخرون تأثر الزيدية بفكر المعتزلة! وهناك من يرى أنه كان هناك تأثر بسيط ثم زاد الأمر تدريجيا أو على شكل قفزات، وظهرت هذه الزيادة على شكل محطات حاسمة، اختلف المنظرون كالعادة في تحديدها، فمنهم من يرى أن الزيدية: تأثَّرت وبدَّلَت مسارَ سلفها من أهل البيت(ع) بمسار الإعتزال بعدَ أن أحضرَ القاضي جعفر بن أحمد بن عبدالسلام (ت576 هـ) كُتُبَ المعتزلة من العراق بعدَ أن كادَت تُحرَقُ على أيدي العباسيين، وذلكَ بأمرٍ من الإمام الحسني أحمد بن سليمان عليه السلام (ت 556هـ)، فَمن هنا تتلمذَ عُلماء الزيدية على هذه الكتب فَدَرَسُوهَا ودَرَّسُوها.

أنَّ الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين(ع) قَد تَتَلمَذَ على أيدي مشائخ أهل الإعتزال والذي منهم أبو القاسم البلخي، فَمِن هُنا بدأ التحول يدبُّ في مذهب أهل البيت، ويُغيّر مسارَه إلى الإعتزال.

أنّ ترجمان الدين ونجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي(ع) (169/246-هـ)، قد تأثّر بأبي الهذيل العلاّف المعتزلي (ت 235هـ)، وذلكَ عندما قابلَه في مصر، ومِن هُنا بدأت الزيدية طور التحول إلى مذهب الإعتزال.

بل إن هناك من يرى أن خط الانحراف بدأ مبكرا، وذلك لأنَّ الإمام زيد بن علي زين العابدين(ع) هُوَ أولُ مَن بدَّلَ وتأثّر بالإعتزال وأهله، وذلك عن طريق تتلمذه على يد واصل بن عطاء شيخ المعتزلة في وقته، فبدأت الزيدية مِن هُنا بالإنحراف عن مذهب أهل البيت الصحيح إلى مذهب الإعتزال واليونان.وهذا يعني أن المذهب من أول الخط منحرف.

أما الزيدية فيردون على هذه الأقوال بأن أقوال أئمتهم من أولها إلى آخرها أقوال واحدة لم تتغير، ويضربون على ذلك النماذج من مقالات أوائل أئمتهم، ويقولون إن المسألة مسألة ديباجة واختيار ألفاظ وأسلوب كتابة ليس أكثر، أما مسألة تشابه المعتزلة معهم، فهم يرون أن المعتزلة هم الذين أخذوا هذه العقائد عن أئمة أهل البيت عن علي بن أبي

طالب عن رسول الله، وعلي بن أبي طالب حتما لم يتأثر بفكر أئمة المعتزلة، الذين كانوا في عهده إما أطفالا أو لما يولدوا بعد.

الزيدية والإمامـة

من المعروف أن الفرق الشيعية قاطبة تدور في فلك إمامة علي بن أبي طالب، ولقد تطرفت الإمامية فقالوا بالنص على علي وعلى الأئمة من بعده، أما الزيدية فكما رأينا في تعريفهم فهم قالوا بأن الإمامة تتحقق بالأفضلية والطلب، وقالوا بجواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، فما هو موقفهم من مسألة الإمامة وهل تعد من أصول المذهب عندهم؟

يعجبني ما كتبه الإمام عزالدين بن الحسن في هذه المسألة، وروعته تكمن في أن الكلام صادر من شيعي، نعم زيدي ولكنه في النهاية شيعي، فماذا قال الإمام؟ قال: "جرت عادة الأصحاب بذكر الإمامة في كتب علم الكلام وفي أصول الدين، وعُدت في بعض كتبهم أحد الأصول الخمسة، وليس لذلك وجه يظهر، فإنها مسألة فروعية وباب من أبواب الفقه بين علمي وعملي، وليس ينبغي أن يُعَدَّ من فنِّ الكلام إلا ما كان علماً بالله عز وجل ذاته وصفاته أو أفعاله أو أحكام أفعاله، والذي ينبغي أن يعتذر به لهم في ذلك وجهان:

أحدهما: أنها مسألة قطعية لا يؤخذ فيها إلا بالعلم اليقين والأدلة والبراهين، فألحقت بالفنِّ الذي هذا حالُه، وهذه صفته.

وثانيها: إظهار الاهتمام بهذه المسألة وتعظيم شأنها وإنزالها من القلوب بمنزلة رفيعة؛ إذ هذا الفنّ أجلّ الفنون، فكما أدخل فيه وألحق بِه إنسحب عليه حكمه، والعذر الأول لا تعويل عليه ولا التفات إليه ويستلزم أن يُلحق بعلم الكلام كل مسألة قطعية من الفروع وأصولها وغيرها، وأمَّا العذر الثاني فعذر حسن، وأحسن منه أن الإمامة لما كانت خالفة

النبوءة وقائمة مقامها وبدلاً منها حين قضت الحكمة برفعها وكانت النبوءة من فنّ الكلام وباب من أبواب كتاب العدل منه، ذكرت في الفن الذي تذكر النبوءة فيه لكنه لما لم يكن لها تعلق بباب العدل ولا غيره من أبواب فن الكلام أخرت وذكرت بعد فراغ ذلك الكلام على أبواب ذلك الفن، وحُّدي بذكرها فيه حُذُوَّ ذكرها في فن الفقه حيث يذكر في آخره والله سبحانه وتعالى أعلم. (...) فأمَّا الدليل من الكتاب والسنة على وجوب الإمامَة فمنتفٍ ولم يرد في آيات القرآن ولا الأحاديث النبويَّة المتواترة صريحة الدلالة في هذه المسألة شيء، وأمَّا القياس فلا مدخل له هنا وأدلته المذكورة من قبيل الإجماع ومرجعها كلها إليه ومدارَها عليه،(...) فأمَّا أدلة حجيته فهي مذكورة مشهورة وفي إفادتها للقطع إشكال؛ لأن الذي استدل به في ذلك من الكتاب من قبيل الظواهر التي دلالتها ظنية، والذي استدل به من السنة أخبار أحاديَّة، والذي تكلفه ابن الحاجب وغيره واعتسفوا فيه من الاستدلال على الإجماع بالإجماع أو ما يعود إليه، هو من قبيل ظن السراب ماءً،"[227] اهـ

وما أروع هذه الكلمة التي تضع الأمور في نصابها، فما علاقة الإمامة بالعقائد؟! ولكنها العادة والعرف والإلف، ولولا الإمامية لما سمعنا بهذه المسألة إلا في أبواب الفقه.

ونأتي إلى طريقة اختيار الإمام في الفكر الزيدي, فكيف يتم اختيار الإمام؟ يقول السيد علي بن عبد الكريم:

"هنالك طريقتان متّبعتان لإختيار الإمام بكل حرية ورغبة في الإختيار وهما:

1- ترشيح الشخص العارف من نفسه الأهلية والصلاحية لنفسه بواسطة منشور (الدعوة) يوضح فيه موجبات دعوته وصحة أهليته للقيام بأمر الإمامة ويبين منهج عمله فيها. وعند ذلك يجتمع رجال الحل والعقد -علماء وزعماء ومثقفون- لديه لمناقشته

[227] الإمام عز الدين بن الحسن، العناية التامة في تحقيق مسالة الامامة.

إن كان غير معروف لديهم ويتشاورون فيما بينهم في استحقاقه من ناحية الكفائة والمكانة، فإذا ارتضوه بايعوه، وإذا لم يرتضوه نظروا من يصلح للخلافة والإمامة غيره.

2- يرشح رجال الحل والعقد واحداً ممن يرونه صالحاً لهذا المنصب، فإذا وافقهم بايعوه، وإذا لم يوافقهم عدلوا إلى غيره.

ومن علماء الزيدية المعاصرين من يرى أن يناط هذا الأمر إلى اختيار وترشيح مجلس الأمة الجامع لمجلس الشورى ومجلس القضاء ومجلس العلماء.

ولكون الإمام في نظر الزيدية غير معصوم فهم يشترطون عليه السير على المنهج الإسلامي والعمل على تحقيق الحق والعدل والحرية والمساواة والشورى وعلى الاستقامة عقيدةً وسلوكاً والحرص على تحقيق سيادة الأمة وحريتها وحماية حقوقها وصيانة استقلالها والدفاع عن أراضيها.[228]" اهـ

وبعد أن ظهر لنا أن الإمامة ليست من أصول المذهب في الزيدية وأنها مسألة فرعية بالنسبة لهم، ننتقل الآن إلى النقطة الرئيسة في البحث وهي: عقائد الزيدية.

عقائد الزيدية

كأي فرقة إسلامية لا بد أن تشترك الزيدية مع الفرق الإسلامية الأخرى في كم كبير من العقائد، وبالإضافة إلى هذه العقائد المشتركة فإنه ثمت بعض العقائد التي خالفت فيها أهل السنة وإن كانت قد اتفقت مع فرق أخرى مثل الإباضية والمعتزلة! ونظرا لأن العقائد المشتركة بين كل الفرق الإسلامية معروفة لدى الجميع ولا تحتاج إلى ذكر، فإننا سنذكر نقاط الاختلاف مع المذهب السني، لأننا أولا في مصر وهو بلد ذو مذهب سني، ولأن المذهب السني يمثل المذهب الأكبر والأكثر تابعين بين كل المذاهب في

[228] السيد علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين، الزيدية: الطائفة والمذهب.

كل أنحاء العالم، فما هي العقائد التي تختلف الزيدية فيها مع أهل السنة؟

تختلف الزيدية مع أهل السنة في عدد من العقائد، أهمها:

1- الشفاعة

حيث ترى الزيدية أن شفاعة النبي المصطفي تكون للمؤمنين الذين لم يرتكبوا كبائر أو ارتكبوها وتابوا عنها، وتكون الشفاعة من باب زيادة الدرجات ومن باب الإكرام، أما المجرمون ومرتكبي الكبائر غير التائبين عنها فلا تصلهم شفاعة الشافعين. ولأن عقيدة الشفاعة من أهم العقائد عند الفرق الإسلامية والتي يترتب على إثرها إقدام وترك وتكاسل وفعل، سنطيل النفس قليلا في نقاش هذه العقيدة. ونبدأ بتعريفها لغة:

شفع كما جاء في لسان العرب: "الشفع: خلاف الوَتْر، وهو الزوج. تقول: كانَ وَتْراً فَشَفَعْتُه شَفْعاً.وشَفَعَ الوَتْرَ من العَدَدِ شَفْعاً: صيَّره زَوْجاً؛" وهي في مقاييس اللغة: الشين والفاء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على مقارنة الشيئين. من ذلك الشَّفْع خلاف الوَتْر. تقول: كان فرداً فشفَعْتُه. قال الله جل ثناؤه: ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾] سورة الفجر ,٣[، قال أهل التفسير: الوَتْر الله تعالى، والشَّفْع الخلق. والشُّفْعَة في الدار من هذا. قال ابن دريد: سُمِّيَتْ شُفْعةً لأنَّه يَشفَع بها مالَه. والشاة الشَّافع: التي معها ولدُها. وشَفَعَ فلانٌ لفلانٍ إذا جاء ثانِيَه ملتمساً مطلبه ومُعِيناً له.ومن الباب ناقَةٌ شَفُوع، وهي التي تجمع بين مِحْلَبَيْن في حَلْبَةٍ واحدة. الشفاعة لغة:من شفع يشفع والشفع هو الزوج،وشفع لي يشفع شفاعة وتشفع:طلب. والشفاعة كلام الشفيع للملك في حاجة يسألها لغيره. وشفع إليه في معنى طلب إليه. والشافع: الطالب لغيره يتشفع به إلى المطلوب." اهـ

"وأما التعريف الاصطلاحي فلم يخرج عن الدلالة اللغوية كثيرا، إذ الشفاعة هي: "السؤال في التجاوز عن الذنوب"، أو هي: "عبارة عن طلبه من المشفوع إليه أمرا للمشفوع له، فشفاعة النبي(ص) أو غيره عبارة عن دعائه الله تعالى لأجل الغير وطلبه منه

غفران الذنب وقضاء الحوائج، فالشفاعة نوع من الدعاء والرجاء" وردت مادة الشفاعة في القرآن الكريم بعدة معاني نفيا وإثباتا، و بلغ مجموع الآيات الشريفة التي تحدثت بصورة مباشرة عن هذا المفهوم خمس وعشرين آية توزعت على ثمانية عشر سورة قرآنية شريفة. (......)

في موضوع الشفاعة يتحرك النص القرآني الشريف باتجاهين: الأول: الاتجاه الذي يحدد الشفعاء[229]، ونلاحظ أن القرآن لم يحدد من سيشفع ومن لن يشفع بل يذكر الأمر بشكل عام، لذلك وجدنا اختلافا بين الفرق الإسلامية في عدد الشفعاء، فعند أهل السنة سيشفع الرسول والملائكة وسيشفع الصحابة والصالحين والشهداء، وعند الشيعة الإمامية شتشفع الأئمة الاثنى عشر، وعند الصوفية ستشفع الأقطاب والأولياء. وعندما ينظر المرء في كتب الأقدمين يشعر أن الآخرة ستصير ملعبا للشافعين، كل شافع يجمع من شيشفع فيهم ويوقفهم خلفه! وعلى الرغم من اختلاف الفرق الإسلامية في الشافعين وفي المشفع فيهم، فإنهم متفقون في إثبات شفاعة النبي المصطفي – على تفصيل في نوعها – وتعرف بالشفاعة العظمى أو المقام المحمود وتكون في المحشر عندما يطول الانتظار فيلجأ الصالحون إلى الانبياء واحدا بعد واحد فيعتذرون إلى أن يصلوا إلى النبي(ص) فيستجيب لهم ويدعو ربه فيأذن لهم بدخول منازلهم في الجنة.

والثاني: الاتجاه الذي يحدد الأفراد والمجموعات الذين تنالهم الشفاعة من جهة، والذين لا تنالهم الشفاعة من جهة ثانية. والقرآن إذ يحدد ذلك فإنه يحددهم موضوعيا من خلال طبيعة السلوك العام للأفراد في الحياة الدنيا، فليس كل إنسان مؤمن ستناله الشفاعة، بل أصناف معينة حددها القرآن وستذكر في معرض ذكر أدلة الفرقاء على

---

[229] **هناك من يرى أن الشفاعة لا تكون إلا للملائكة، لأن الله عز وجل لم يذكر الشفاعة أبدا مع البشر، وإنما يذكرها عامة وعندما يفصل يذكرها مع الملائكة فقط، كما في قوله تعالى ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ... ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٢٨]، ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا ... ﴿٢٦﴾﴾ [سورة الـنجـم ,٢٦]، والبشري لا يعلم من يستحق أن يشفع فيه، أما الملك الذي كان يراقب العبد فهو أدرى الخلق به، فيمكن أن يشفع فيه، ويقولون إن المقام المحمود للرسول هو مقام منزلة ومرتبة وليس مقام شفاعة.**

أقوالهم. وهناك اتجاه ثالث في الآيات القرآنية وهو اتجاه نفي مطلق الشفاعة. وعلى الرغم من ورود بعض الآيات في القرآن الكريم والتي تنفي الشفاعة بصورة مطلقة، مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾ [سورة البقرة, ٢٥٤]، إلا أنه هناك الكثير من الآيات التي تتحدث عن وقوع الشفاعة، فيفهم من هذا وجوب فهم الآيات المطلقة على أنها من باب العام الذي دخله التخصيص، ومن الملاحظ أن النفي جاء متعلقا بفئة معينة من الناس ممن حددهم الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم بمواصفاتهم، ومن هنا فإن الثابت هو أن قسما معينا من الناس ممن يدخلون ضمن دائرة التعريف ب "الكفر" بكل معنى من معانيه هم المحرومون من الشفاعة. والقرآن الكريم حين ينفي استحقاق مجموعة معينة من الناس للشفاعة فإنه من جهة ثانية يؤكد وجودها لصنف آخر من الناس ممن يدخلون ضمن دائرة التعريف ب "المؤمنين". ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ وَإِن تَعۡدِلۡ كُلَّ عَدۡلٖ لَّا يُؤۡخَذۡ مِنۡهَآۗ ... ٧٠﴾ [سورة الأنعام, ٧٠]. والاستثناء من نيل الشفاعة كما ورد في الآية الشريفة واضح فهو ينصرف إلى الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا."[230] اهـ

وبعد أن انتهينا إلى وجود الشفاعة في القرآن، على اختلاف بين الفرقاء في الشافعين، نأتي الآن إلى تفصيل أنواعها: فهل هي رفع درجات فقط، أم أنها تخرج بعض الناس من النار، كذلك نجد أنه قد اختلف فيمن تكون له، هل تكون للمؤمنين أم للعصاة أصحاب الكبائر؟ يقول أهل السنة أن شفاعة النبي المصطفي هي للعصاة وللطائعين وللمقربين، ترفع الناس في الجنان وتخرج العاصين من النيران، وستنال حتما كل إنسان ناطق لسانه بالإيمان، وفي هذا يقول الإمام الطحاوي: "والشفاعة التي ادخرها –أي الرسول صلى الله عليه وسلم– له حق كما روي في الأخبار ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو

---

[230] الشفاعة حقيقة إسلامية, من مؤلفات مركز الرسالة.

عنهم ويدخلهم الجنة برحمته، ولا نأمن عليهم،ولا نشهد عليهم بالجنة،ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم،ولا نقنطهم".

وقد استدل أهل السنة على ذلك بأدلة من الكتاب والسنة: فمن الكتاب:قوله تعالى: ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ... ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٢٨]! فقال الإمام الرازي: "وجه الاستدلال به أن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله تعالى، وكل من كان مرتضى عند الله تعالى وجب أن يكون من أهل الشفاعة وإنما قلنا إن صاحب الكبيرة مرتضى عند الله بحسب إيمانه وتوحيده واذا ثبت أن صاحب الكبيرة داخل في شفاعة الملائكة (أين ثبت ذلك؟ -المؤلف-) وجب دخوله في شفاعة الانبياء وشفاعة محمد(ص) ضرورة أنه قال لاقائل بالفرق".ويقول الأشعري إجابة عمن سأل عن هذه الآية:"فالجواب عن ذلك: (إلا لمن ارتضى) فهم يشفعون له". وقوله تعالى: (لا يملكون إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا) يقول الرازي: (والتقدير أن المجرمين لا يستحقون أن يشفع لهم غيرهم، إلا إذا كانوا اتخذوا عند الرحمن عهدا، فكل من اتخذ عند الرحمن عهدا وجب دخوله فيه، وصاحب الكبيرة اتخذ عند الرحمن عهدا وهو التوحيد والإسلام فوجب ان يكون تحته". وقوله تعالى: (فما تنفعهم شفاعة الشافعين). يقول الإمام الرازي: فهذا وارد في حق الكفار، وهو يدل بسبب التخصيص على ضد هذا الحكم في حق المؤمنين.

الأدلة من السنة النبوية: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام": لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته. وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة، إن شاء الله تعالى من مات من أمتي لا يشرك بالله شي". فهنا دلالة واضحة على عموم اللفظ في قول الرسول لايشرك بالله شي على انها تتضمن من مات على التوحيد من أمته دون تخصيص سواء أكانوا من المؤمنين أم من مرتكبي الكبائر.

وروى البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أنه قال: قلت: يارسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله: "لقد ظننت أن لايسألني عن هذا الحديث

أحد أولى منك، لحرصك على الحديث: إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال لا إله إلا الله، خالصا من قبل نفسه".

كان هذا هو رأي أهل السنة وأدلتهم في هذه المسألة، أما رأي الزيدية فيلخصه الإمام المؤيدي في هذه المسألة قائلا: "والمشهور عن الجمهور وهم الأكثر من الزيدية والمعتزلة (والإباضية وبعض العلماء من أهل السنة –المؤلف–): (أن شفاعة النبي لا تكون لمن يستحق النار من الكفار والفساق) أصلاً، (وإنما تكون للمؤمنين) سواء كانوا قد أتوا كبائر ثم تابوا عنها، أو لم يواقعوا كبيرة رأساً (حتى يزيدهم الله بها شرفاً) ونعيماً إلى نعيمهم وسروراً إلى سرورهم. قال المصنف: (أو تكون لمن يستوى حسناته وسيئاته) على القول بصحة ذلك (فيشفع له النبي ليدخل الجنة)، وإلى هذا القول الأخير ذهب أبو القاسم البلخي، وهو باطل بالدليل الدال على المنع من الاستواء، ومن أجاز ذلك فبطلانه بأنه لا دليل على قصر الشفاعة على من كان له هذا الحكم دون غيرهم من أهل الجنة. وقال أهل الإرجاء (ونحن داخلون فيهم –المؤلف–): بل الشفاعة للمصرين من أمته من أهل الكبائر، والمطلوب بالشفاعة أن يعفوَ عنهم ويدخلوا الجنة تفضلاً. (والدليل على أن شفاعة النبي) (لا تكون لأحد من الظالمين) أنها لو كانت لكانت إما أن تقبل وهو باطل؛ لما تقدم من أن الفساق في النار على جهة الدوام، وإما أن لا تقبل، وهو باطل بالإجماع. (قوله تعالى: ﴿... وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٢٨] فإذا كانت الملائكة لا تشفع إلا للمؤمنين فكذلك الأنبياء، والاتفاق وقع على أن الفاسق غير مرضي على الإطلاق، وإنما المرتضى على الإطلاق المؤمن الذي ليس بفاسق، والآية دلت على أن الشفاعة لمن ارتضاه مطلقاً غير مقيد. وقال تعالى: ﴿... مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة غافر ,١٨] فقد أخبر الله على سبيل القطع بأنه لا شفيع للظالمين يوم القيامة تقبل شفاعته، ولا شك أنه مقبول الشفاعة، فلا يشفع لفاسق؛ لأن اللام لام الاستغراق والنكرة في سياق النفي للاستغراق، والفاسق ظالم بلا خلاف بدليل قوله تعالى: ﴿... وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾ [سورة

الحُجُرات ,١١] ولا يقال: إنه تعالى لم ينف الشفاعة إلا عن جملة الظالمين وهو محل اتفاق؛ لأنا نقول: لو شفع النبي لظالم لما صدق العموم فبطل ما قلتموه، قال تعالى: ﴿... وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝١٩٢﴾ [سورة آل عمران ,١٩٢] ولا نصرة فوق دفع ضرر العقاب، وقال في الذين كسبوا السيئات: ﴿... مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ... ۝٢٧﴾ [سورة يونس ,٢٧]. شبهتهم أن المطيع مستغن بكونه من أهل الجنة عن الشفاعة فلا فائدة فيها. والجواب: أن فائدتها بيان مرتبة الشافع وزيادة مسرة المشفوع له ومنافعه، ونعارضهم بقوله: ﴿... وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ۝٧﴾ [سورة غافر ,٧] فنقول: لا فائدة في هذا الاستغفار وبالزيادة في قوله: ﴿... وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ... ۝١٧٣﴾ [سورة النساء ,١٧٣]. قالوا: قال: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"، ونحوه كما رواه أبو هريرة أن النبي قال: "لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وأنا اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة فهي نائلة من مات إن شاء الله من أمتي لا يشرك بالله شيئاً" أخرجة البخاري ومسلم ومالك في الموطأ والترمذي. والجواب: أن هذه الأحاديث لو صحت لم تخرج عن رتبة الآحاد، فإن التواتر من حقه كثرة الرواة، واستواء الطرفين والأوساط في ذلك، والمسألة قطعية على أن الحديث التالي للحديث الأول وما يشابهه ممكن التأويل بتخفيف جزء من العقاب لا يفضي إلى خلاف ما قضى به رب الأرباب، هذا مع الصحة التي بها تعارض القاطع، والذي يحسم المادة أن شفاعة النبي للفاسق كيف تليق بخلائقه الشريفة الفائقة أن يقول لرب العزة يوم القيامة: يا رب قد كُنتَ أنزلت عليَّ كتاباً في الدنيا وبعثتني رسولاً إلى الجن والإنس؛ لأعلِّمهم ما شرعت لهم، وآمرهم بطاعتك وأعدهم عليها ثوابك، وأنهاهم عن معصيتك، وأتوعدهم عليها بعقابك، وأنا الآن أسألك ألاَّ تفي بذلك، وأن تُصيِّر المسيء مع المحسن والمجرم مع المسلم"[231] اهـ

[231] إبراهيم بن محمد بن أحمد المؤيدي، الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح، تحقيق عبد الرحمن بن حسين شايم.

إذا فالزيدية يرون أن الشفاعة تكون لمن ارتضى، أما نحن فنرى أنها للعصاة!، وهم يرفضون هذا الرأي بحجة مخالفة روايات الآحاد للقرآن. وهم على صواب في هذه النقطة لو نظرنا إلى الرواية من المنظور الذي تصوره أهل السنة للحديث. فهم تصوروا وصوروا أن النبي المصطفي سيشفع لكل من هب ودب من أصحاب الكبائر حتى تصير الآخرة سواءا بين العاصين والطائعين، فالكل في الجنة مع اختلاف فقط في الدرجات! أما الذي أراه أنا في حديث "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" أنها فيمن كان صالحا من أمة الرسول وارتكب كبيرة ثم تاب، فهو من أهل الكبائر أو ممن كان صالحا ثم لسبب من الأسباب ارتكب كبيرة ولم يدرك التوبة. فعلى سبيل المثال قد تراود امرأة رجلا صالحا، وليس كلنا سيدنا يوسف عليه السلام، فيقع معها في الخطأ، فيأتي زوج المرأة فيقتله! فهذا رجل صالح ختمت حياته بكبيرة وهي الزنا، ولم يستطع أن يتوب عنها، فهل سنقول أن هذا الرجل في النار من أجل هذه الكبيرة التي كان حتما سيندم عليها؟ أم أنه من الممكن أن يدخل في الشفاعة؟ وقس على هذا المثال أي مثال آخر. ونثبت في آخر هذا المبحث كلمة للشيخ محمد الغزالي رحمه الله، حيث يقول: "يلغط عوام المسلمين بأحاديث واردة في شفاعة النبي صلى الله علي وسلم لبعض العصاة، وتعلق أولئك العوام بأحاديث الشفاعة يخيل إليك أن قوانين الجزاء عطلت، وأن نيران الجحيم توشك أن تكون بردا وسلاما على عصاة المؤمنين، وكثير مايفرط هؤلاء الجهال في الفروض،ويقعون في وخم الذنوب، ثم يقولون إن أمة محمد بخير،وهذا مسلك ساقط، ومحمد عليه أفضل الصلاة والسلام أول من يستنكره ويحارب أصحابه وينذرهم بأنهم أصحاب آل جحيم.والقول بأن القوانين توقف بالنسبة لأتباع نبي ما سخف فارغ وقد قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [سورة البقرة ,٤٨] والعجب للمسلمين يصابون بهذه اللوثة وهم يتركون قوله تعالى: ﴿لَّيۡسَ بِأَمَانِيِّكُمۡ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِۗ مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدۡ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ١٢٣﴾ [سورة النساء ,١٢٣]

2– أفضلية الملائكة على البشر

ومن المسائل التي خالفت فيها الزيدية أهل السنة كذلك قولهم بأفضلية الملائكة على البشر، وللفرق الإسلامية في هذه النقطة أقوال عدة: فقالت:الأشاعرة: الأنبياء أفضل من الملائكة. وقالت الإمامية: الأنبياء والأئمة أفضل من الملائكة. وقال آخرون: الأنبياء والمؤمنون أفضل من الملائكة. وقال أهل البيت عليهم السلام (الزيدية) والمعتزلة: بل الملائكة أفضل من الأنبياء، بمعنى أن ثواب أدنى الملائكة أكثر من ثواب أفضل الأنبياء.

وقد يبدو هذا القول مستثقلا بالنسبة لكثير من الناس والذين اعتادوا أن يصفوا النبي(ص) بأنه خير خلق الله. ولكن لكي يجري المرء مقارنة بين شيئين لا بد من وجود التساوي والمشابهة، أما أن أجري المقارنة بين ذرة ومجرة! فهذا ليس عادلا بأي حال. وحتى يكون الأمر واضحا للقارئ فإن النقطة الفاصلة بين الأقوال هي: أن أصحاب الأقوال الثلاثة الأولى يتهمون الملائكة بالجبر وانتفاء حرية الإرادة، فهم عندهم مسيرون!، ولذلك يفضلون البشر عليهم باعتبار أن البشر غير مجبورين وحرية الإرادة كاملة لديهم.

أما أصحاب القول الأخير فإنهم يثبتون للملائكة حرية الإرادة وأنهم مكلفون مختارون. هذه هي النقطة المهمة في كلام الفريقين، فمتى ثبت أن الملائكة غير مكلفين ولا حرية إرادة لهم ثبت أن البشر أفضل من الملائكة، وإذا ثبت العكس، وأن الملائكة مكلفون مختارون دل ذلك دلالة قاطعة على أن الملائكة أفضل من البشر بمراحل كبيرة جداً. ونظرا لوضوح الأدلة على هذه المسألة في القرآن، فسنذكر للقارئ الكثير من الأدلة التي يستدل بها الزيدية على تأكيد حرية اختيار الملائكة، وتباعا أفضليتهم على البشر لفرق الإمكانيات والأدوار، كما قلنا سابقا:

الدليل الأول: ونبدأ بالدليل الذي يستدلون به، وهو قوله تعالى: ﴿... لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [سورة التحريم ,٦]، والتكليف عبارة عن أمر بالفعل وأمر بالكف عن الفعل (أفعل، ولا تفعل). هذا هو التكليف، والله تعالى لا يخاطب بالتكليف إلا من يعقل معنى التكليف فالجمادات والحيوانات التي لا تعقل غير مكلفة وبالتالي لا عقاب عليها ولا حساب، وفي هذه الآية بين الله تعالى أن الملائكة مكلفون، لتوجيه خطاب التكليف إليهم بقوله تعالى (ما أمرهم) وقوله (ما يؤمرون،) وكذلك نسب الله تعالى الفعل إليهم في قوله: (لا يعصون) وقول (يفعلون) كما نسب الأفعال إلى المؤمنين من البشر إليهم، وفي هذا دلالة على عدم الجبر على الفعل، ولو كانوا مسيرين لما كان لهم فضل، ويكون مدلول الآية مطابق لمن يقول "إن هذه الآلة رائعة جدا، تنفذ كل ما آمرها به، ولا تعصيني أبدا"، فليس هناك أي فضل للآلة، فالمرء هو الذي وضع لها البرنامج الذي تتحرك به، فلا يكون المدح لها بل لمصصمها وصانعها.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ۝١٧٢﴾ [سورة النساء ,١٧٢] في هذه الآية من الدلالة على أفضلية الملائكة الشيء الكبير، وبيان الاستدلال بهذه الآية أن قوله تعالى: (وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ) ترق وصعود من درجة إلى درجة أعلى منها، وأضيف أن الله ذكر ملائكته المقربين وقد يكون المقصود بالمقربين جميع الملائكة أو المقربون منهم كجبريل وميكائيل وإسرافيل، وفي كلا الحالتين بين الله لنا عظيم منزلتهم حيث خصهم الله تعالى بهذا الوصف العظيم، وقال: لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا من هم أفضل منه وأفضل من غيرهم، ولو كان أحد أفضل منهم لعطف الله تعالى البيان عليه.

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۝٦١﴾ [سورة الإسراء ,٦١] وكل الآيات التي تتحدث عن أمر الملائكة بالسجود لآدم.

في هذه الآيات دلالة على التكليف من عدة أوجه:

الوجه الأول: الخطاب الموجه إلى الملائكة بالسجود وفي الخطاب بالأمر دلالة على التكليف.

الوجه الثاني: أن الأمر بالسجود لآدم كان اختبارًا للملائكة وامتحانًا لهم بالإضافة إلى إبليس حيث كان معهم في الاختبار، فنجح الملائكة بالاختبار وفشل إبليس في الاختبار، والابتلاء والاختبار لا يكون إلا لمكلف لأن الله لا يبتلي ويختبر غير المكلفين وهذا شيء متفق عليه وإلا ما الحكمة من الابتلاء والاختبار إذا كان المبتلي غير مكلف؟! أما عن نوعية الجزاء على الابتلاء والتكليف الذي يجازى به الملائكة فلسنا مخاطبين بمعرفته، فإذا كنا نحن لا نعرف بالضبط حقيقة وكنه الجزاء الذي نحن سنجازى به مقابل التكليف الذي كلفنه الله، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٧﴾ [سورة السجدة, ١٧]، فهل سنعلم ما أعد للملائكة؟

الوجه الثالث: إن إبليس مكلف بدليل أنه لم يكن مجبوراً على المعصية ورفض السجود عصيانا واستكبارا منه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾ [سورة البقرة, ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ... ۝٥٠﴾ [سورة الكهف, ٥٠]

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ... ۝١٢﴾ [سورة الأنفال, ١٢]. في هذه الآية يوحي الله تعالى إلى الملائكة أنه معهم، والاستدلال بالآية على التكليف أن الله يوحي إلى الملائكة أنه معهم وهذه بشرى من الله تعالى إلى الملائكة والبشرى لا تكون لمجبور وإنما لمختار. هذا وجه، والوجه الآخر الأمر بتثبيت الذين أمنوا والأمر لا يكون إلا لمكلف كما سبق وأن بيّنّا.

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [سورة التكوير, ١٩-٢١]. وصف الله تعالى أمينه جبريل عليه السلام بأنه مكين ومطاع، ثم ذكر الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه أمين، وكيف نتصور أن يمدح الله أحداً بالأمانة وهو مجبول على فعل الأمانة لا يستطيع أن يخون لأن الله جبله على هذا الفعل.

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ [سورة البقرة, ١٦١.] وقوله تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة آل عمران, ٨٧] نستشف من خلال هذه الآية في لعن الملائكة للذين ماتوا وهم كفار على أن الملائكة لهم إدراك وتمييز في استحقاق الكفار اللعنة، ومن كان له هذا الإدراك والتمييز يكون مكلفاً لإن التكليف لا يكون إلا لعاقل مدرك مميز.ثم إنهم يذكرون قبل الناس أجمعين، وهذا الترتيب دليل على تقدمهم عليهم.

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٨]. في ذكر الملائكة بالشهود على وحدانية الله تعالى مع أولي العلم من الرسل والنبيين والصديقين ومن هو عالم بوحدانية الله تعالى وعدله دون غيرهم من المخلوقين غير المكلفين لدلالة على تكليفهم ومنزلتهم حيث ذكروا بعد الله وقبل البشر.

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ ... ﴿١٣﴾﴾ [سورة الرّعد, ١٣]، يسبح الرعد بحمد الله تعالى بكيفية تتفق مع كونه وخلقته وبطريقة يعلمها الله، وتسبح الملائكة من خيفته. وذكر الله تعالى الفارق في سبب تسبيح الملائكة وهو الخوف من الله سبحانه وتعالى وهذا السبب (أي الخوف) غير مذكور في الرعد ومن في حكمه مِن مَن لا إرادة –ظاهرة– له، أما الملائكة فذكر الله تعالى أنهم يخافون الله تعالى

وهذا ينافي قول من يقول إن الملائكة مجرد آلة أو خلق للعبادة فقط، فإذا كان الله سبحانه وتعالى أراد الملائكة مخلوقات مجبولة على العبادة لما فرق بين الرعد ومن في حكمه وبين الملائكة في مسألة الخوف من الله تعالى.

الدليل التاسع: قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ٢٦ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ٢٧ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ وَهُم مِّنۡ خَشۡيَتِهِۦ مُشۡفِقُونَ ٢٨ وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [سورة الأنبياء, ٢٦-٢٩]. فالله في قوله: ﴿وَمَن يَقُلۡ مِنۡهُمۡ إِنِّيٓ إِلَٰهٞ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجۡزِيهِ جَهَنَّمَۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٩﴾ [سورة الأنبياء, ٢٩] يتوعد الملائكة بجهنم في حال قول أحدهم بما يستوجب العقاب أي أن عليهم ثواب وعقاب والله لايستثني أحداً، وفي هذه الآية دلالة واضحة كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، ثم إن الملائكة هم المخصصون بالذكر عند الشفاعة، وما عدا ذلك تذكر الشفاعة عامة.

الدليل العاشر: قوله تعالى ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾ [سورة الإسراء, ٧٠]، هذه الآية تدحض الأوهام التي يتصورها البعض من أن الإنسان أفضل مخلوق خلقه الله تعالى بقوله تعالى ﴿وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ﴾. ولم يطلق الله التفضيل على جميع المخلوقات وإنما قال: (عَلَى كَثِيرٍ) ومخلوقات الله كثيرة من أجرام ودواب باشكالها من حيونات وأسماك وحشرات وهوام وملائكة، والإنسان مفضل على كثير من هذه المخلوقات وما أكثرها من أجناس، ولكن يوجد جنس من المخلوقات أفضل من البشر بنص الآية." اهـ

إذا نخرج من هذه الأدلة القاطعة بصواب رأي الزيدية في هذه المسألة، بأن الملائكة أفضل من البشر، وأنه من الظلم البين أن نقارن بين خلقين متفاوتي الإمكانيات.

3- القرآن محدث

كذلك خالفت الزيدية أهل السنة في القول بأن القرآن محدث، أي مخلوق!، لأنه مرتب منظوم، وما هذا شأنه يجب أن يكون مُحدَثاً، وقد قال تعالى ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ ... ﴿٢﴾﴾ [سورة الأنبياء ,٢]، وغير ذلك من الآيات. وكما قلنا من قبل، فإن أهل السنة تقول بأنه قديم وتكفر! من يقول بأنه مخلوق، ولست أدري ما دليلهم من الكتاب أو السنة على ما يقولون!

ومن العقائد التي خالفت فيها الزيدية أهل السنة أيضا: عدم رؤية الله تعالى في الدنيا والآخرة، وأهل السنة كما أسلفنا الذكر يقولون برؤية الله يوم القيامة، وسنناقش المسألة عند التعرض لعقائد الإباضية.

4- القول بالوعيد

كذلك خالفت الزيدية في القول بالوعيد، أي أن المسلم العاصي المرتكب للكبائر ولم يتب عنها حتى مات يدخل النار، ومتى دخل النار لا يخرج منها! وفي هذا يقول الإمام أبو القَاسِمِ الحُسَيني: "أن من توعده اللّه تعالى من الفساق بالنار ومات مصراً على فسقه غير تائب فإنه صائر إلى النار ومخلدٌ فيها دائماً. والدليل على ذلك قوله تعالى ﴿... وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾ [سورة الجن ,٢٣]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾ [سورة الانفطار ,١٣-١٦]، وغيرها من الآيات العامة

والخاصة بفساق أهل القبلة، فيجب القطع بصدق ما تناوله الوعد والوعيد لقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ٢٩﴾] سورة ق ,٢٩[."[232] اهـ

لأنه كما قلنا سابقا لا شفاعة في حقه!

ونورد هنا حوارا مفترضا أجراه الإمام أبو سعيد البيهقي حول هذه المسألة: "لا خلاف بين أهل القبلة أن الكفار يخلدون في العقاب، وأنه لا يغفر لهم ولا يخرجون من النار، وإنما الخلاف في مرتكب الكبائر من أهل الصلاة. وقال بعضهم: يجوز أن يغفر لهم ويجوز أن يعاقبوا بقدر استحقاقهم ثم يخرجون من النار. ومنهم من قال: لا تجوز عقوبتهم عقلا، ونحن نقول: إنه يجوز عقلاً الغفران عن جميع الذنوب الكفر وغيره إلا أنه ورد السمع بأن الكفار يعذبون دائماً كما ورد في الكفار، وهذا مذهب مشايخنا البصريين. فإن قال: ولم قلتم أولاً إن العقاب يستحق دائماً في الذنوب من جهة العقل والشرع؟. قلنا: أجمعت الأمة على دوامه في الكفار والقرآن نطق بذلك، وبعد فإن من أقدم على فعل كبيرة يستحق الذم واللعن كما يستحق عذاب الآخرة ويجري هذا الذم مجرى العقاب، ولذلك يبقى ما دام يبقى العقاب ويسقط متى سقط هو، ثم الذم يدوم كذلك العقاب. وبعد فهذه الكبيرة لو فعلها كافر استحق عليها العقاب دائماً أو منقطعاً؟. فإن قال: دائماً. قلنا: كذلك إذا فعله الفاسق، وإن قال: منقطعاً، وجب أن ينقض عقاب الكفار وهذا لا قائل به. فإن قال: هلاَّ قلتم إن الإسلام أوجب انقطاع العقاب ويخرجه من حدّ التأبيد؟. قلنا: لو أثر فيه لأثر في الدم، ولأنه كان يجب أن يسقط الحدود. فإن قال: ولم قلتم: إنه يجوز أن يعفو عن الفساق عقلاً؟ قلنا: لأن العقاب حق لله تعالى خالص ليس في إسقاطه إسقاط حق الغير جاز أن يسقط، كصاحب الدين إذا أسقط دينه؛ ولأن إسقاطه يقع لغيره ولا ضرر فيه على أحد فوجب أن يحسن ولا يقال: فوجب أن يقبح استيفاؤه؛ لأن استيفاؤه حسن وإسقاطه حسن كما

[232] الإمَام أبي القَاسِمِ مُحَمَّد بن القَاسِمْ الحوثي الحُسَيني، الموعظة الحسنة. والآية التي تسبق الآية المستدل بها هي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ٢٨﴾] سورة ق ,٢٨[

قلنا في الذنوب. فإن قال: ولم قلتم: إنهم يعاقبون دائماً؟ قلنا: لأنه تعالى أخبر بذلك فقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا ... ﴿١٤﴾﴾]سورة النساء ,١٤[، وقال: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا ... ﴿٩٣﴾﴾] سورة النساء ,٩٣[، وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾] سورة الانفطار ,١٣-١٤[، ثم قال: ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾] سورة الانفطار ,١٦[، وغير ذلك من الآيات. فإن قال: عندي يجوز خلف الوعيد وهو مدح. قلنا: فجوّز في وعيد الكفار [ولأنه يكون كذباً، (يقصد أنه من الممكن في هذه الحالة تخلفه كذلك بالنسبة للكفار فلا يدخلون النار! –المؤلف–) وقد قال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾] سورة ق ,٢٩[. فإن قال: الخلود يذكر ولا يراد به التأبيد. قلنا: ذلك مجاز كما يذكر التأبيد فيما ينقطع، ثم هو يلزمه في وعيد الكفار.(أي أن الكفار في هذه الحالة سيدخلون النار فترة ثم يخرجون، أو يفنون هم والنار –المؤلف–). ويقال له: هل يدخل الفاسق في آي الوعيد أم لا؟ فإن قال: لا يدخل، وهو مزجور به، قلنا: فيه إغراء بالمعاصي. ويقال: المؤمن الذي عبد الله سنين جمّة، ثم سرق أو زنى يعاقب بالحدود أم لا؟ فإن قال: لا، خالف الأمة والكتاب، وإن قال: نعم. قلنا: فإذا كان إيمانه لا يسقط عنه هذه الحدود كيف يسقط العقاب. ويقال لهم: خبّرونا عمّن كان في شدة فأخبر بأنه قرب خروجه منها وخلاصه أليس يُسَرَّ؟ فلا بد من: بلى، فيقال: ما أنكرتم أن أهل النار مسرورون لما يعلمون من قرب خروجهم ونيلهم الجنة، وقد أجمع المسلمون أن أهل النار لا سرور لهم. ويقال له: أليس الله تعالى قال عقيب القتل والزنى: ﴿... وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾﴾] سورة الفرقان ,٦٨-٦٩[. (مهانا وليس مسرورا بخروجه القريب –المؤلف–) فإن قال: أليس قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ... ﴿٤٨﴾﴾] سورة النساء ,٤٨[. قلنا: علّق الغفران بالمشية فيكون مجملاً ثم بينه في موضع آخر فقال: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ

عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ ... ﴿٣١﴾] سورة النساء ,٣١[. فإن قيل: روي عن النبي –صلى الله عليه وآله– أنه قال: "يخرج قوم من النار بعدما امتحشوا وصاروا فحماً وحمما". قلنا: هذا خبرٌ واحد لا يحتج به في الأصول؛ لأنه لا يعلم أن النبي –صلى الله عليه وآله– قاله أم لا، وبعد فقد روي ما يدلّ على خلاف هذا فقال –صلى الله عليه وآله–: "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها بطنه في نار جهنم خالداً مخلداً فيها أبداً". وقال –عليه السلام–: "لا يدخل الجنة قتات" وهو الساعي بالناس إلى السلطان الجائر. وقال: "لا يدخل الجنة عاق والديه ولا مدمن خمرٍ ولا منانٍ". وبعد فقوله يخرج من النار يحتمل أنهم يخرجون من النار بعدما استحقوها إذا تابوا كقوله: ﴿... إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ... ﴿١٠﴾﴾] سورة النساء ,١٠[، وكقوله: ﴿... وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ... ﴿١٠٣﴾﴾] سورة آل عمران ,١٠٣[."[233] اهـ

ومثل المعتزلة قالت الزيدية بالمنزلة بين المنزلتين، فعندهم الفاسقَ ليس بمؤمنٍ، ولا كافرَ جُحُودٍ، بل هو كافرُ نعمةٍ. وقالت الأشاعرة: الفاسقُ فاسقٌ بفسقه، مؤمنٌ بإيمانه، والإيمان عندهم هو التصديق بالقلب. وقال الحسن البصري: هو منافقٌ.

5– الإرادة عند الله

ومن المسائل التي خالفت فيها الزيدية هي تصورهم لصفة إرادة الله عزوجل، وعلى الرغم من عدم إرادتي الخوض في المسائل المتعلقة بصفات الله عزوجل، لأنها كما قلنا لم تسبب في يوم من الأيام الخلاف بين الفرق الإسلامية، كما أنها تدخل إلى حد ما في الجانب الفلسفي للعقيدة الذي يحتاج من القارئ إعمال فكر شديد حتى يستوعبه، إلا أن هذه الصفة ستعد من باب الإستثناء، حيث أن الزيدية خالفت فيها المعتزلة وكان

[233] الإمام أبو سعيد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، تحكيم العقول في تصحيح الأصول.

دليلها هو الأرجح في هذا النقاش العقلي! وكذلك خالفت أهل السنة، فلنر ماذا تقول الزيدية في هذه المسألة؟ يقول المتوكل على الله أحمد بن سليمان الحسني:

"أجمعت الأمة أن الله سبحانه يُريد ويشاءُ، واختلفوا في حقيقة الإرادة والمشيئة؛ فعندنا أن إرادة الله ومشيئته في فعله: إرادةُ حَتْمٍ وخَلْقٍ وإحْدَاثٍ وجَبْرٍ وحُكمٍ ووعدٍ ووعيدٍ، وأنه لا تسبق إرادته مرادَهُ، وأن إرادته خلقهُ، وأن خلق الشيءِ هو الشيءُ، وفناء الأجسام هو هي، وليس هو غيرها، وأن إرادته في فعل خلقه: إرادة نَهيٍ، وأمرٍ، وأنّ رضى الله ومحبته [هما] رحمته وثوابه، وأن سخط الله وكراهته وغضبه نقمته وعقابه، فمن رضي الله عنه وأحبه فقد حكم له بالرحمة والثواب، ومن سخط عليه وكره أفعاله فقد حكم عليه بالنقمة والعقاب، فهذه إرادةُ الحكم. وقالت المعتزلة: لله إرادةٌ غير المراد، وهي محدثةٌ، وهي في غير محلٍّ (!!)، وقالوا: لا يكون مُريداً لنفسه؛ لأنه لو كان مريداً لنفسه، لكان مُريداً لكل المرادات، كما أنه لما كان عالماً لنفسه كان عالماً بجميع المعلومات. قالوا: والدليل على أن إرادة الله غير مراده أنه آمرٌ ومخبرٌ، ولا يكون الآمرُ آمِراً إلا أن يُريد كون المأمور، ولا يكون مُخْبراً إلا إذا أراد إيقاع الحروف، واستدلُّوا بقول الله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾ [سورة النساء, ٢٦]، وبقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [سورة النساء, ٢٧]، وبقوله: ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٨٥]، وذلك كثيرٌ، وهذا مذهبُ البصريين منهم. فأما قول البغداديين فمثل قولنا.

والرد على المعتزلة أن الأمة مجمعة على أنه لا يكون شيءٌ موجودٌ –غير الله– إلا في العالَم. فإن كانت الإرادة في العالَم فقد صار العالَمُ لها مكاناً، وإن كانت في غير العالَمِ فماذا غير العالم إلا الله أو العدمُ؟ فإن قالوا: هي في العدم، فيكون العدم باطلاً، فكيف كون شيء فيه فإذا لم تكن نيّة ولا ضميراً، ولا كانت الخلقَ نفسه، ولا كانت في مكانٍ،

فهل هي إلا عَدَمٌ؟ ولا يعقل شيءٌ موجودٌ لا يكون حالاً ولا محلولاً إلا الله تعالى. فبطل ما قالوا، وصح أن إرادة الله هي خلقُهُ لا غير. وقول الله تعالى: {يُريد} بمعنى: يخلقُ، ويحكُمُ، ويُثيبُ، ويُعاقبُ. وإنما خاطب الله العرب بلغتهم وبما يعرفون؛ كما قال تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠﴾] سورة يس ,٣٠[، فخاطبهم بما يعرفون. والله تعالى لا يتحسَّر؛ لأنه لا يتحسّر على شيءٍ إلا من فاته وأعجزه، والله لا يفوته شيءٌ ولا يعجزه؛ ولأنه لو كانت إرادته غير مُراده لم تكن إلا نيّةً أو هِمَّةً، أو مشبهةً للنيّة والهمّة. وهم فلا يقولون هي همّةٌ ولا نيّةٌ، إذا كانت شيئاً غير المراد أشبهت النيّةَ المتقدِّمةَ للفعل، ولا يتقدّم الفعلُ ويُريد فعله قبل فعله إلا من يفعل بآلةٍ، والله يتعالى عن ذلك. وأما قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَيۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٠﴾] سورة النحل ,٤٠[فإنهم مجمعون معنا أنه ليس ثَمَّ قول غير إيجاد الشيء كما لم يكن ثمّ قول غير إيجاد القول، كذلك ليس ثَمَّ إرادة غير إيجاد الشيءِ. وإذا كان الكلام مع الصفاتية قلنا: إذا كان الكافُ والنونُ غيرَ الكائنِ كَانَا قولاً، وإذا كانا قولاً فلا يكون القولُ هذا إلا أمراً. فإذا كان القول لموجودٍ فإيجادُ الموجود محالٌ، وإذا كان لمعدومٍ فمُحالٌ أيضاً أن يُؤمر المعدوم، فبطل ما قالوا، وصحّ أنه لا قول غير إيجاد الشيءِ. ومثل هذا موجود في لغة العرب قال الشاعر: امتلأ الحوضُ وقال قطني مهلاً رُويداً قد ملأتُ بطني والحوضُ لم يكن منه قول غير الامتلاء. وقالت الصفاتية: (الله مريدٌ بإرادة قديمةٍ)، كما قالوا: (عالمٌ بعلمٍ قديمٍ). والدليل على أن إرادة الله محدثةٌ أنك تقول: الله يُريد، ولا يُريد، كما تقول: يخلُقُ ولا يخلُقُ، ويرزُقُ ولا يرزُقُ. فجاز أن تصفه بصفات الفعل وأضدادها. وليس كذلك صفات الأزل. ألا ترى أن الله لما كان عالماً فيما لم يزل استحال الجهل عليه، ويُؤيد ذلك أن الله إذا أراد حياةَ زيدٍ ثم أراد موته، ألا ترى أن الإرادة التي هي الموتُ حادثةٌ، وقد قال الله تعالى: ﴿... يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ ... ١٨٥﴾] سورة البقرة ,١٨٥[. والرد عليهم في قولهم: (إن الله يُريد بهمَّةٍ ونيّةٍ) أن الهمة والنيّة لا يكونان إلا لمن يعمل الشيءِ بآلةٍ ومِثَالٍ وجَوَلاَنِ فِكرٍ، وتصوُّرٍ للصنع وضميرٍ، وهذه الأشياءُ كلُّها من صفات المحدثين –

تعالى عنها رب العالمين– وهذه الأشياء (كلها) تكلُّفٌ وإدَارَةُ حيلةٍ، ولا يتكلَّف ويحتال ويفعل الشيء بالمثال إلا عاجزٌ ضعيفٌ، والضّمير والنيّةُ لا يكونان إلا عرضان، ولا يكون العرضُ إلا حَالاً في غيره، وإذا كان محلاً للعرض كان جسماً –تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً– فبطل قول المشبهة. واعلم أن إرادة الله هي فعلُهُ، وهي تخرُجُ على وجوه: منها إرادة حَتْمٍ وجَبْرٍ كخلق السماوات والأرض ومن فيهن وما خلق الله. ومنها إرادةُ أمرٍ ونهيٍ، فهذه الإرادةُ إرادة تخْيير وتمكينٍ وليست إرادةَ حتمٍ وجبرٍ؛ لأنه قد أراد من عباده الطاعة، فلو كانت الإرادةُ إرادة حتمٍ وجبرٍ لأنفذ ما أراده وأمضاه، ولَمَا قَدَرَ أحدٌ (على) أن يخرجَ من الطاعة إلى المعصية، فصحّ أن هذه الإرادة منه إرادة تخييرٍ وتمكينٍ. ومنها إرادة حكمٍ ووعدٍ ووعيدٍ، وهي إرادة خَبَرٍ وليست إرادةَ حتمٍ وجبرٍ؛ لأنها لو كانت إرادة حتمٍ وجبرٍ لأنفذ ما أراده وأمضاه، ولكان قد خلق الوعد والوعيد والآخرة وما فيها، فصحّ أنها إرادة خبرٍ لا غيرُ."[234] اهـ

فهذا تصور رائع لإرادة الله عزوجل نابع من فكر أصيل، مخالف لقول المعتزلة ولأهل السنة في آن واحد ولكنه موافق للعقل وللقرآن.

6– الهدى والضلال

كذلك خالفت الزيدية أهل السنة في معنى الهدى والإضلال، فقال أهل السنة إن الهدى والضلال من الله عزوجل، فهو يضل من يشاء ويهدي من يشاء! مطلقا بدون تخصيص أو تحديد، وقالت الزيدية –والمعتزلة– إن الهدى ثلاثة أصناف: هدى تفضل، وهدى جزاء وهدى زيادة ثواب وتوفيق وتسديد من الله في الدنيا، وفي هذا يقول أحمد سليمان الحسني: "اختلف الناس في الهداية والإضلال: فذهب الذين قالوا: الاستطاعة مع الفعل، وسائر المجبرة (ونحن كأهل السنة منهم –المؤلف–) إلى أن الله أجبر

[234] أحمد بن سليمان الحسني، حقائق المعرفة في علم الكلام.

المهتدين على الهُدَى، وأجبر الضالين على الضّلال؛ واستدلوا بظاهر قول الله تعالى: ﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ... ٣١﴾ [سورة المدثر, ٣١].

وعندنا وعند المعتزلة: أن الهُدى من الله على ثلاثة وجوه: فهدىً تفضُّلٌ ابتدأ الله به المكلّفين، يستوي فيه المؤمن والكافرُ، والبر والفاجر؛ وهو العقل الضروريُّ الذي هو استحسان الحَسَنِ واستقباحُ القبيحِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ٣﴾ [سورة الإنسان, ٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمۡ نَجۡعَل لَّهُۥ عَيۡنَيۡنِ ٨ وَلِسَانٗا وَشَفَتَيۡنِ ٩ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ١٠﴾ [سورة البلد, ٨-١٠]، فهذا هو الهدى المبتدأ، وهو حُجّةُ الله على العبد. وكذلك الكتابُ، والرسولُ، هَدَى الله بهما الناس؛ قال تعالى في الكتاب: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِ ... ١٨٥﴾ [سورة البقرة, ١٨٥]، وقال في الرسول صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [سورة الجمعة, ٢] إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ ... ٤﴾ [سورة الجمعة, ٤]، وقال تعالى: ﴿... وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [سورة الشورى, ٥٢]،...

والثاني: هُدى جزاء وهو الجنة، قال الله تعالى: ﴿... وَٱلَّذِينَ قَٰتَلُواْ[235] فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [سورة محمّد, ٤-٦]، ولأن الذين قاتلوا، قد قُتل منهم في الحال قوم، فصح أن الهُدَى الذي وعدهم الله في الآخرة؛ لأنهم لم يبقوا لهداية الدنيا. وقد قرأ أبو عمروٍ: ﴿... وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ... ٤﴾ [سورة محمّد, ٤] الآية. ومما يؤكد هذا قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ ... ٥٦﴾ [سورة القصص, ٥٦]، أراد به هُدَى الجزاء على الحقيقة؛

[235] هذه قراءة ورش، أما ما في المصحف وقراءة حفص ! فهي "والذين قُتلوا ".

لأنه لا يُثيب من أحبَّ في الآخرة. فلو كان المراد بالهداية هاهنا في الدنيا، لكان هذا مخالفاً للكتاب والسُّنة، ناقضاً للأصول؛ لأنه قد هَدَى في الدنيا من أحبّ ومن لم يُحب، وأثاب أيضاً في الدنيا من أحبَّ، فصحّ أن المراد: أنك لا تُثيب في الآخرة من أحببتَ، وصحّ أن الجزاء يُسمّى هُدًى، وقول الله تعالى: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [سورة المائدة, ٥١]، وقوله: ﴿... إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٦﴾ [سورة المنافقون, ٦]، فهو يُريد هداية الثّواب؛ لأنه قد هداهم في الدنيا فلم يهتدوا، قال عز من قائلٍ: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ ... ۝١٧﴾ [سورة فصّلت, ١٧].

والثالث: هُدَى زيادةٍ في الثواب في الآخرة، وتوفيقٍ وتسديدٍ في الدنيا، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدًى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾ [سورة محمّد, ١٧]، وقال تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضۡلِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ۝٣٨﴾ [سورة النّور, ٣٨]، وقال تعالى: ﴿... وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥ ... ۝١١﴾ [سورة التغابن, ١١]، فصح أن الزيادة على الأجر تُسمَّى هُدىً. وقوله تعالى: ﴿... وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ۝١٧﴾ [سورة محمّد, ١٧] يريد ثوابهم. فأما التوفيق والتسديد في الدنيا فهو مثل قوله: ﴿... وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ ... ۝٨﴾ [سورة الحُجُرات, ٧-٨]، فبيّن أنه فضلٌ، والفضل غير الجزاءِ.

وأما الإضلال من الله تعالى، فلا يكونُ من الله تعالى إضلالٌ لأحدٍ، إلا أن يكون جزاءً على معصيةٍ، قال الله تعالى: ﴿... يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٢٦ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝٢٧﴾ [سورة البقرة, ٢٦-٢٧]، وقال تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ

ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾] سورة آل عمران ,٨٦[، وقال تعالى: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿١٤﴾] سورة المطففين ,١٤[، فصحّ أن الإضلال من الله جزاءٌ للفاسقين على فسقهم. ويؤيد ذلك قول الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ﴿١١٠﴾] سورة الأنعام ,١١٠[، وكذلك الطبع والختم يكونان أيضاً من بعد الكفر والفسق جزاءً لهم على كفرهم وفسقهم، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾] سورة البقرة ,٦-٧[، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴿١٦﴾] سورة محمّد ,١٦[، فدلّ على أنه جزاؤهم لاتباعهم أهواءهم.[236]"اهـ

ويوضح الإمام الناصر للحق الحسن بن علي الأطروش عملية الإضلال والتي قد تلتبس عند بعض القراء فيقول: "الله جل ذكره يبتديء عباده بالهداية لهم التي هي الدلالة على ماتقدم به وصفي، ولايبتديهم بالإضلال، فإذا هم اختاروا الضلالة وركبوا معاصيه بعد دلالته إياهم على ماتعبدهم وأمرهم به أضلهم بما يكون منهم من ضلال وأفعال المخالفين له الجهال. فإضلاله لعباده حكمه عليهم إذا عصوه وخرجوا عن أمره بالضلال قال جل ذكره في بيان ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ [سورة محمّد,١] ثم قال سبحانه بعد ذلك: ﴿... وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾] سورة محمّد ,٤-٥[ثم قال بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٩﴾] سورة محمّد ,٨-٩[

[236] المرجع السابق.

فلو لم أذكر في هذا الباب غير هؤلاء الآيات لكان فيها شفاء وبيان لايخفي آلا ترى أن اضلال الله للأعمال هو حكمه عليها أنها ضلال. وقال جل ثناؤه، زيادة في البيان والإحسان في سورة البقرة: ﴿... وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾] سورة البقرة ,٢٦[وقال في مكان آخر: ﴿... كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤﴾] سورة غافر ,٧٤[وقال في موضع آخر: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ٢٧﴾] سورة إبراهيم ,٢٧[. أفلا ترى أنه سبحانه إنما أضلهم بعد فسقهم، وبعد كفرهم، وبعد ظلمهم فحكم عليهم بالضلال، وقال جل ذكره: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوۡمَۢا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰهُمۡ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ... ١١٥﴾] سورة التوبة ,١١٥[فأخبر أنه لايبتدي عباده بالحكم عليهم بالضلال حتى يبتدئهم بالهدى، ويعرفهم سبيل التقوى فإذا لم يجتهدوا ويتقوا أضلهم على علم منه لما كان من عصيانهم وضلالهم كما وصف بقوله: ﴿أَفَرَءَيۡتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلۡمٖ ... ٢٣﴾] سورة الجاثية ,٢٣[. وقد قال بعض أهل النظر: بأن ترك الله عباده العصاة له من لطفه وتوفيقه وتخليتهم من يديه، ويداه فهما نعمتاه في الدنيا والآخرة، وخذلانه اياهم عقوبة لهم على معاصيهم إياه واستخفافهم بحقه وجرأتهم عليه حتى يزدادوا إثما، إذ جائز في اللغة أن يقال: قد أضلهم حين تركهم في طغيانهم يعمهون ولو لم يمنعهم من ذلك إجبارا لهم فقد تقول العرب لمن ترك عبده ولايحجر عليه ولايأخذ على يديه حتى يضل وإن لم يكن الولي أراد أن يضل ولاأحب ذلك من عبده: أنت أضللت عبدك بتركك إياه وتخليتك له، وهذا بيّن في اللغة ووجه يحتمل التأويل."[237] اهـ

فهذا التصور للهداية والضلال من الزيدية يوضح أنهما مرتبطان بفعل الإنسان، وليس أن الله يضل من يشاء هكذا بدون أسباب وبدون إبتداء ضلال من العبد وإصرار عليه، فإذا بدأ العبد في طريق الضلال وأصر عليه يفتح الله فيه. ولعله من الملاحظ أن الإنسان إذا

[237] الإمام الحسن بن علي الأطروش، كتاب البساط.

أراد أن يخوض في طريق الضلال تقابله العثرات والصعوبات في أول الطريق التي تردعه، فإذا استمر فيه وأصر أصبحت تساق إليه وجوه الضلال سوقا بعد ذلك بدون أن يبحث عنها. فعلى الإنسان أن يلتزم طرق الهداية ويدعوا الله أن يثبته عليها في الدنيا والآخرة.

7- عدم تكليف العباد ما لا يطيقون

كذلك خالفت الزيدية أهل السنة في قولهم أن الله تعالى لا يكلف العباد ما لا يطيقون، ولا يجوز ذلك في حقه، أما أهل السنة فلم يقولوا إنه يكلفهم ولكنهم قالوا بالجواز فقط[238]! وفي هذه المسألة يقول الإمام محمد بن الحسن: "واللّه سبحانه وتعالى لا يكلف عباده ما لا يطيقونه؛ لأن قبحَ ذلك معلوم بضرورة العقل، وقد ثبت بالدليل القطعي أن اللّه سبحانه لا يفعل القبيح، وهو القائل في محكم كتابه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ... ﴾] سورة البقرة ,٢٨٦[، ﴿... لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ... ﴾] سورة الطلاق ,٧[، ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ... ﴾] سورة التغابن ,١٦[، ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ... ﴾] سورة آل عمران ,٩٧[. وقال رسول اللّه الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى صلى اللّه عليه وآله وسلم: "إذا أُمرتم بأمر فأتوا منه ما استطعتم"، وقال في الأنصاريّ الذي شَبَكَتْه الريح فسأله عن الصلاة: "إن استطعتم أن تجلسوه فأجلسوه"، وقال فيه: "وإن لم يستطع أن يقرأ القرآن فاقرأوا عنده"،... وهذه مسألة لولا مكابرة أهل العناد، ومن لم

[238] جاء في بعض الروايات –والله أعلم بصحتها– أنه قيل لهشام بن الحكم: أترى أن الله يكلف عباده ما لا يطيقون ثم يعذبهم عليه؟ قال: والله قد فعل ذلك ولكن لا نجسر أن نتكلم.!!!

ينزه رب العباد، لم يحتج أهل العدل عليها إلى الإستدلال، مع العلم بعدل اللّه ذي الجلال."[239]

8- الصواب والحكمة في فعل الله

كذلك قالت الزيدية بأن الله لا يفعل إلا الصواب والحكمة –وليس الأصلح أو الأصوب–، والعامية عندنا في أهل السنة يقولون بنفس هذا القول، أي أن كل فعل الله خير، وأن المرء لا يدري أين الخير في فعل الله ولعله يظهر فيما بعد. وهذا تصور فطري سليم لفعل الله عزوجل بدون دراسة مبادئ العقيدة ومعرفة ما يجب لله وما لا يجب! ويعلق الفقيه محمد بن يحيي مداعس قائلا: "[لأنه تعالى لا يفعل إلا الصواب والحكمة كما تقدم،] في أول العدل أنه تعالى لا يفعل القبيح [فإذا أمرضهم أو ابتلاهم] بخير مما يحبونه من صلاح الثمار وسعة الأرزاق ونحو ذلك أو شر مما يكرهونه من أضداد ذلك أو بتكليف أو يفعل ما يزيد في مشقته كتمكين العدو من مقاتلتهم، والدليل على أن الكل بلوى قوله تعالى: ﴿... وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةًۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ٣٥﴾] سورة الأنبياء ,٣٥[، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ٢﴾] سورة الإنسان ,٢[، [أو امتحنهم بفوات ما أعطاهم،] كنقص بعض الثمار أو تفويتها بالجوائح والعاهات أو موت الدواب وشحة الدرور وغير ذلك [فلا بد] في جميع ذلك من حكمة ومصلحة راجعة إلى الخلق."[240] اهـ

فالزيدية ترى أن كل فعل الله راجع إلى حكمة حتى ولو لم يظهر للإنسان في ذلك منها شيء، وأكثر ما قد يفكر فيه الإنسان –ويعترض عليه الملاحدة تحديدا– هو مسألة وجود الآلام والكوراث، فلماذا يسمح الله العليم الحكيم بوقوع هذه الآلام؟ وهذا نابع

---

(239) محمد بن الحسن ابن القاسم بن محمد، سبيل الرشاد إلى معرفة رب العباد.

(240) محمد بن يحيى مداعس، الكاشف الأمين عن جواهر العقد الثمين.

من نظرة قاصرة للإنسان، يضع فيها الإنسان نفسه في موضع غير موضعه، فكل إنسان يفكر هذا التفكير يظن نفسه مركز الكون، والذي ينبغي أن يسير تبعا له ولمصلحته، والله تعالى يقول: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٧١﴾] سورة المؤمنون, ٧١[، فالآلام هذه نشأت من استغلال الإنسان الخاطئ لحريته التي وهبها الله عزوجل له، كما أن حدوثها لمن لم يصدر منه ما يستحق عليه الآلام هو نوع من الحكمة في فعل الله تعالى، وفي هذا يقول الإمام إبراهيم المؤيدي:

"واعلم: أن الآلام مضرة عاجلة ووجوه حسنها خفية غير ظاهرة، فلذلك ضل كثير من الناس حتى كان ذلك شبهة في إثبات ثان مع الله تعالى وفي جواز كل قبيح على الله تعالى. وفي التعطيل عند ابن الراوندي حيث رأى أهل الفضل والعلم مبتلين بمقاسات الفقر والأمراض والمصائب، وأهل الجهالة والوضاعة بالعكس حتى أنشد البيتين المعروفين:

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه وجاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

هذا الذي ترك الأوهام حائرة وصَيَّر العالم النحرير زنديقاً

وكذلك أبو عيسى الوراق فإن ذبح البهائم صار له شبهة حتى صنف كتاباً سماه النوح على البهائم، وكان السبب في ذلك نفار الطبع عن هذه الآلام وميله إلى اللذة. (واعلم أن جميع الآلام والنقائص) إذا كانت من أفعالنا، فإنها تحسن إذا كانت لجلب نفع أو دفع ضرر أعظم، أو استحقاق، أو لظن أحد الوجهين المتقدمين، وهذا لا شبهة فيه، فإن كل عاقل يعلم حسن تحمل المشاق في الأسفار ومعالي الأمور ومشاق التعليم طلباً للمنافع سواءً كانت معلومة أو مظنونة، وكذلك يستحسنون الفصد والحجامة وشرب الأدوية الكريهة ونحو ذلك طلباً لدفع مضار هي أعظم منها سواءً كان اندفاعها معلوماً أو مظنوناً... وأما الآلام والنقائص (النازلة بالأطفال والمجانين، وسائر الممتحنين اللاتي من الله تعالى)، وكذلك المضار اللاتي لا تتوقف على اختيارنا كفساد الثمار واجتياحها بالبَرْد والبَرَد، فالذي عليه أهل الإسلام وكثير من الخارجين عنه أن ذلك فعل الله تعالى

(ولا بُدّ فيها) من أحد وجهين: إما الاستحقاق، ولا شبهة في ذلك كعقاب أهل النار ونحوه، وإما لمجموع (العوض) للمؤلم (والاعتبار)، ولا يكفي في حسن الألم أحد الأمرين: إما العوض، أو الاعتبار. وقد ذهب عَبَّاد إلى أن الاعتبار كاف في حسن الألم، فإن كان كلامه على عمومه بحيث أنه يقول: يحسن منه تعالى إيلام الأطفال ونحوهم؛ لمجرد أن يحصل بذلك اعتبار للمكلفين، أو بعضهم، أو إيلام مكلف لمجرد إعتبار يحصل لغيره فقد أبعد في مقالته (والدليل على) بطلان (ذلك) أنها (لو خلت عن العوض) وكانت كما قال (لكانت ظلماً؛ لأنه يكون ضرراً عارياً عن جلب نفع للمؤلم، أو دفع ضرر عنه أو استحقاق، وهذه هي صفة الظلم، والظلم قبيح والله تعالى لا يفعل القبيح). وأيضاً فلو أجزنا ذلك لأجزنا جميع أنواع الظلم، فإنه لا يكاد يخلو شيء منها عن نفع لغير المظلوم، وإن أراد أن الألم يحسن لمجرد اعتبار يحصل للمؤلم... (و) قال أبو علي في القديم: إن العوض كاف في حسن الآلام، قلنا له: (لو خلت الآلام من الاعتبار لكانت عبثاً؛ لأن العبث هو الفعل الواقع من العالم به عارياً عن عوض مثله)، وهذا المعنى حاصل في الألم لو خلى من الاعتبار؛ لأنه كان يمكن ويحسن إيصال نفع العوض إلى المؤلم من دون الألم، وله أن يجيب بأن فائدته أن يصير العوض مستحقاً وليس المستحق كالمتفضل به، (و) إذا كان عبثاً فلا شك أن (العبث قبيح والله يتعالى عن فعل القبيح). والذي يدل من السمع أنه لا بد في الآلام من العوض قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ۝٥﴾] سورة التكوير ,5[ولا وجه لحشرها إلا للعوض، والذي يدل على أنه لا بد من الاعتبار قوله تعالى: ﴿... فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢﴾] سورة الحشر ,2[فلو لم يكن مراداً لله تعالى لما أمر به، والله أعلم. (فثبت بهذه الجملة أن جميع الآلام والنقائص لا بد فيها من العوض والاعتبار)."[241] اهـ

ففعل الله كله حكمة، علم العباد أو جهلوا، وعلى الإنسان الرضى والإتكال. كذلك خالفت الزيدية في مسألة الآجال، وقولهم فيها مثل قول المعتزلة السابق الذكر.

[241] إبراهيم بن محمد بن أحمد المؤيدي، الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح.

9- الرزق

وخالفوا كذلك في الأرزاق، فقالوا إن الرزق لا يكون إلا حلالا، والحرام لا يكون رزقا. وقال أهل السنة إن كل ما انتفع به الإنسان حلالا كان أم حراما فهو رزق ساقه الله إلى الإنسان، ويجري الإمام أبو سعيد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، مجادلة مفترضة حول هذه المسألة فيقول: "فيقال لهم: إذا غصب إنسان شيئاً وأكله أهو رزقه جعله الله له رزقاً؟. فإن قالوا: نعم. قلنا: فكيف عذّبه على شيء جعله رزقاً له؟. ويقال: إذا كان للإنسان ملك غصبه غاصب وأكله ولم يأكل المغصوب منه، أليس هو عندكم رزقاً للغاصب؟ فلا بد من: بلى، فيقال: فَلِمَ يضمن ما هو رزق له؟ أليس لو أكل ملك نفسه لا يضمن كذلك رزق نفسه؟. ويقال: هل للمغصوب منه أن يمنع الغاصب من غصبه ماله أم لا؟ فإن قال: لا، كابر ودفع العقل والشرع، فقد ورد الشرع بأن من قُتِلَ دون ماله شهيد، وإن قال: نعم. قلنا: فكيف جعله رزقاً له ثم أمر غيره بمنعه منه. ويقال: أليس ما سرقه السارق وأكله رزقاً له؟ فإن قالوا: بلى. قلنا: أليس أمر بقطع يده أو رجله، وفي قاطع الطريق يقطعهما، فلا بد من: بلى، فيقال: هذا فعل الحكيم أن يجعل شيئاً رزق إنسان فإذا أكل ما جعله رزقاً له أمر بقطع يده ويقول لم أكلت ما جعلته رزقاً لك؟! ويقال: المنفق للحرام محمود أم مذموم؟. فإن قالوا: محمودٌ كابروا، وإن قالوا: مذمومٌ. قلنا: أليس الله مدح على إنفاق الرزق في مواضع من كتابه وأمر بالإنفاق فما هو محمود عليه غير ما هو مذموم عليه. ويقال لهم: ما الرزق؟ فإن قالوا: ما نأكله. قلنا: فكيف ينفق ما يأكله، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم ... ۝١٠﴾.] سورة المنافقون ,١٠[، ﴿... وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣﴾] سورة البقرة ,٣[. ويقال: ما تقولون فيمن أطعم خمراً أو شيئاً حراماً أليس قد أعطاه رزقه عندكم؟ فلا بد من: بلى، فيقال: كل واحد منهما محمود أو مذموم؟ فإن قالوا: مذموم. قلنا: ولم هذا أعطاه رزقه وذاك أكل رزقه وهذا واضح. ويقال لهم: إذا وقف العبد يوم القيامة فيقال له: لِمَ عصيت وسرقت؟ فيقول: يا ربّ ما أخذت شيئاً قلّ أو كثر إلا وأنت جعلته رزقاً

لي وكنت لا أتمكن من تركه، ولو لم تجعله رزقي ما أكلته وما أخذته، أهو صادقٌ أم كاذبٌ؟. فإن قالوا: كاذبٌ وافقونا، وإن قالوا: صادقٌ. قلنا: فإذا قال: يا ربّ إذا كنت صادقاً فلماذا أمرت بقطعي ولماذا تعذبني؟ وليس هذا بعدل منك أيحسن منك مثل ذلك وأنت أحكم الحاكمين؟ أليست العقول تشهد بصحة ذلك وتكون له الحجّة؟ وكلّ مذهب يؤدي إلى أن تكون الحجة للخلق على الخالق كان باطلاً."[242] اهـ

ونترك هذه المسألة للقارئ يرجح فيها أي الرأيين أكثر قناعة! وبهذه النقطة نكون قد وصلنا إلى آخر نقطة من نقاط عقائد الزيدية والتي خالفوا فيها أهل السنة، ولم نذكر النقاط التي اشتركوا فيها مع المعتزلة في مخالفة أهل السنة، لسبق ذكرها عند الحديث عن المعتزلة، ولخوف التكرار فليرجع إليها هناك. وقبل أن نختم هذا الفصل نتوقف لنناقش مسألة موقف الزيدية من الصحابة. وسنطيل الحديث هنا كثيرا كما أسلفنا الذكر، ونحن لم نرد أن نذكر هذا التفصيل عند الحديث عن الشيعة الإمامية لأنه من المعلوم أنهم يسبونهم ويكفرونهم، وسيرفض الإنسان أي قول عقلاني في هذه المسألة عند نقاشها في بابهم، أما هنا فالأعصاب المشدودة تكون قد ارتخت كثيرا، ويكون لدى الإنسان القابلية لقبول الحق ووزنه بميزان العقل، لا العصبية والهوى!

موقف الزيدية من الصحابة

من أكثر المواضيع حساسية وشوكانية! عند التعرض لمواضيع العقائد هو الكتابة عمن سلف من الصحابة، فلأسباب تاريخية كثيرة وكناتج لفعل ورد فعل دخل الصحابة في كتب العقائد، كما دخلت الإمامة سابقا. ولأن كل من الفريقين المتنازعين في هذه المسألة –أهل السنة والشيعة– من المغالين في الرجال! فليسوا كالإباضية مثلا أو المعتزلة أو حتى الزيدية، ففريق قدس أفراد معدودين وهم الشيعة الإمامية وفريق آخر

[242] الإمام الحاكم أبو سعيد المحسن بن محمد بن كرامة الجشمي البيهقي، تحكيم العقول في تصحيح الأصول.

قدس –وليس قدر– جيل كامل، فالفريق الأول اعترف صراحة وقالها أن أئمته معصومين، أما الفريق الآخر فلم يقلها باللسان ولكن لسان حاله ناطق بذلك، والويل كل الويل لمن يتعرض لهؤلاء المائة ألف من الملائكة الأطهار ومن القديسين الأبرار!

والناظر في كتب التاريخ يجد أن الصحابة أنفسهم وحتى تابعوهم لم ينظروا إليهم تلك النظرة المقدسة، كما أن الشيعة كذلك لم تغالي في تكفيرهم وتفسيقهم إلا متأخرا، ولأن كلا الفريقين من المتأخرين لم يكن ينظر إلى القرآن الكريم نظرة اعتراف بكتاب كامل، وإنما كتاب يكمله أهل البيت في ناحية والرسول وأصحابه في ناحية أخرى، فكان لا بد من إصباغ القداسة على حاملي التراث! وأصبحنا الآن نخشى أن نخوض في تاريخنا ونلجم عقولنا، والعجيب أننا نلوم اليهود ونأن صارخين بأنهم يريدون أن يزوروا التاريخ عندما يستصدرون قوانين تجرم التكذيب والتشكيك في الهولوكست! ألا يعتبر ما يفعله أهل السنة شيئا من هذا القبيل؟ ألا يحق للشيعة الإمامية أن ينفخوا صدورهم زاهين أن الحق معهم وأن أهل السنة يريدون التعتيم على خطأ سلفهم بالصمت عن هذه الفترة! وأرجوا أن لا يظن القارئ أننا سنعرض لمناقشة تاريخ الصحابة فليس هذا من أبواب الكتاب في شيء، ولكنا نمهد من أجل الدخول في هذه المسألة الشائكة التي يتنازع فيها القداسة طرفان اثنان، والتي يقول عنها الأستاذ محمد عزان:

"وقد مَثَّل طرفي هذا النّزاع تياران، أحدهما: يرى أن كل من لقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وآمن به؛ صحابي يجب احترامه، والحكم بعدالته، وغض الطرف عن أخطائه مهما كانت، بحجة أنه صحابي. والآخر: يعتبر كثيراً من الصحابة ساقطي العدالة متهمين في دينهم؛ لوضعهم أمر الخلافة في غير أهله أو سكوتهم على ذلك.

وخاض الطرفان كثيراً من المعارك الكلامية وتبادل التهم والشتائم، وألفوا مئات الكتب المتضادة، وسيطروا على معظم مساحة الكلام في هذه المسألة، حتى قال الشاعر:

إذا نحن فضلنا علياً فإننا روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل

وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكري للفضل

فما زلت ذا رفض ونصب كليهما أدين به حتى أوسد في الرمل

(...) ويلمس المتتبع لأخبار الصحابة وسيرهم أنهم كانوا ينظرون إلى أنفسهم نظرة طبيعية، بعيدة عن التفريط والإفراط الذي جلبه التعصب وردود الأفعال، وتنامى في جو الخصومة والتمذهب، فقد كان الصحابة يثنون على من بادر إلى فضيلة أو أجاد في عمل، وينتقدون من قَصَّر في أداء واجب، أو تعدى في سلوك، بما يصل أحياناً إلى حد التجريح والإهانة، وشواهد ذلك كثيرة، وهو أمر طبيعي لا يطعن في الدين، ولا يؤثر على عقيدة المسلمين، ما دام بعيداً عن النوايا السيئة والتعصب الأعمى."[243]اهـ

ونسرد هنا بعض ما كتبته أقلام المؤلفين الزيدية حول هذه المسألة: وينبغي التذكير أن الزيدية تأخذ موقفا وسطا من الصحابة، فلا يسبونهم أو يكفرونهم كما فعلت الإمامية، وإنما يحترمونهم ويجلونهم وينقدون بعضهم في نفس الوقت، وهذا هو عين الصواب في هذه المسألة، فالمدينة الفاضلة لم ولن توجد على هذا الكوكب، فمكانها هناك في الجنان، عندما ينزع الله بفضله ما في صدورنا من غل إخوانا على سرر متقابلين:

محمد بن أحمد أبي الثلج (325هـ) له كتاب في (فضائل الصحابة)، ذكره الأستاذ الوجيه في أعلام المؤلفين الزيدية، ونقل عن (أعيان الشيعة) أن أبا الثلج كان من محدثي الزيدية.

المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني المتوفي سنة (141 هـ)، له كتاب في الجواب على رجل يسمى: (قابوس) كتب رسالة في الطعن على الصحابة. ذكرها الحاكم الجشمي في (جلاء الأبصار– مخطوط).

أبو القاسم البستي المتوفي سنة (420 هـ) ألف كتاب (التحقيق في الإكفار والتفسيق) خصص جزءاً كبيراً منه للكلام في مسألة الصحابة الذين تقدموا على الإمام علي.

[243] محمد يحيي سالم عزان، الصحابة عند الزيدية.

الإمام يحيى بن حمزة (749هـ) له عدة رسائل، هي: (أطواق الحمامة في حمل الصحابة على السلامة). ذكره الحبشي. و(التحقيق في الإكفار والتفسيق). ذكر الحبشي أنه يوجد نسخة منه كتبت في عصره. و(الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين). طبع سنة 1348هـ بمصر ضمن مجموع الرسائل اليمنية، ثم طبع مرة أخرى بدار التراث اليمني سنة 1410هـ.

أحمد بن مير الحسني الجيلي (القرن الثامن)، له كتاب (صفوة الصفوة) في فضائل الصحابة. ذكره يحيى بن الحسين في (المستطاب)، وإبراهيم بن القاسم في القسم الثالث من (طبقات الزيدية) ترجمة (رقم 109).

العلامة يحيى بن الحسن القرشي (780هـ) خصص فصلاً كبيراً من كتابه (منهاج المتقين) للكلام في موضوع الصحابة والدفاع عنهم.

الإمام عز الدين بن الحسن (900هـ) استرسل في شرح أحوال الصحابة ومكانتهم في كتابه (المعراج شرح المنهاج).

عبد العزيز بهران (1010هـ) له (حل الشبهات الواردات في الصحابة الثقات)، ضمن مجموع في مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء.

محمد بن عز الدين المفتي (1049هـ) له (منهج الإنصاف العاصم من الاختلاف) في الذب عن الصحابة والترضية على المشايخ الثلاثة وتحريم سبهم. ذكره في (المستطاب)، وقال الحبشي: مخطوط بمكتبة هولندا، رقم 478.

يحيى بن الحسين بن القاسم (1100هـ) له كتابان: (الإيضاح لما خفي من الاتفاق على تعظيم صحابة المصطفى) موجود بخطه نسخة منه في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء. و(منتهى الإصابة فيما يجب من رعاية الصحابة)، بخط المؤلف في مكتبة الأوقاف بالجامع الكبير.

تعريف الصحابي

لكي نبدأ في حل خيوط هذه الأزمة لا بد من الاتفاق على نقاط مشتركة يجري التناقش حولها، وهذا لا يتأتى إلا بالتعريف، فما هو تعريف الصحابي لدى الفرقاء المختلفين؟ اختلف تعريف الصحابي بين علماء أهل السنة، وبداهة بين أهل السنة وغيرها من الفرق، وأصحاب الحديث هم أصحاب أكثر التعريفات مخالفة للواقع وتوسعا في الضم إلى الصحابة، لذلك نجد أن تعريفه عندهم: كل من لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم مؤمناً به، ومات على الإسلام[244]. فيدخل في الصحبة من ارتد بعد الرسول، ثم عاد إلى الإسلام مرة أخرى تحت سطوة السيوف! ويعلق الإمام ابن حجر العسقلاني على هذا التعريف موضحا مفرداته: "فيدخل فيمن لقيه: من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن روى عنه أو لم يرو، ومن غزا معه أو لم يغز، ومن رآه رؤية ولو لم يجالسه، ومن لم يره لعارض كالعمى".

وتبعا لهذا التعريف فإن من رأي النبي(ص) ولم يجالسه فهو أيضا صحابي عدل، لأن كل الصحابة كما يقول ابن حجر: "اتفق أهل السنّة على أنّ الجميع عدول"!، بل إنه يعتبر بالإضافة إلى ذلك إمام يسبق عمله أي عمل آخر، كما يقول الإمام ابن حزم رحمه الله في كتابه: الإحكام في أصول الأحكام: "وكلهم عدل إمام فاضل رضا، فرض علينا توقيرهم وتعظيمهم، وأن نستغفر لهم ونحبهم، وتمرة يتصدق بها أحدهم أفضل من صدقة أحدنا بما يملك، وجلسة من الواحد منهم مع النبي أفضل من عبادة أحدنا دهره كله.. إلى أن قال: وكلهم عدول فاضل من أهل الجنة"

وهذا القول مصادم للواقع وللعقل وللمنطق، فإن الصحبة لا تتأتى من جلسة أو نظرة أو!! وعلى الرغم من أن علماء أهل السنة مقرون بأن تعريفهم تعريف استثنائي، لأن فضل مقابلة ورؤية النبي ليست كأي فضل، فيعتبر من رأه كأنه صاحبه، فيدخل في

[244] هناك من بالغ حتى أدخل في الصحابة من لم ير النبي(ص) وإنما أسلم وعاصره فقط!

صحبته! وعلى الرغم من غرابة هذا القانون، فلا ينبغي لمن قبله أن يحمل غيره عليه، ولكن أهل الحديث يتهمون من يتكلم في الصحابة بأنه زنديق، طاعن في حملة القرآن —هم طبعا يؤمنون بالقرآن لأنه نقل متواترا بواسطة الصحابة والتابعين عن النبي! وهذا منطق مقلوب، فالقرآن هو الشاهد للرسول وليس العكس! ولكن هل سيستوعب أهل الحديث هذه المسلمة والبدهية، أن القرآن لا يحتاج إلى تواتر أو خلافه فهو آية في ذاته، فلو طعن العالم كله في نقلة القرآن لن يؤثر هذا في القرآن في شيء. وما سمعنا أن أحدا طعن في القرآن لأن نقلته زيد أو عمرو، حتى أن الشيعة الإمامية عندما كفروا الصحابة لم يكن غرضهم التشكيك في ثبوتية القرآن وإنما كان غرضهم إثبات إمامة علي رضي الله عنه—.

ما هو تعريف الزيدية للصحابي؟

يرى الزيدية أن الصحابي هو: أن الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وآمن به، وصحبه فترة يتمكن فيها من معرفة شرعه، والتخلق بأخلاقه، ثم مضى على نهجه، ومات على ذلك. وفي هذا يقول الإمام عبد الله بن حمزة: في (صفوة الاختيار): «الصحابي من اختص بملازمة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والأخذ عنه وهو الذي نختاره، لا من لقيه مرة أو مرتين كما ذهب إليه كثير من أصحاب الحديث». وذكر العلامة صارم الدين الوزير في (الفصول اللؤلؤية) أن الصحابي عند الزيدية هو: «من طالت مجالسته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم متَّبعاً له». وهذا هو التعريف الصحيح والمنطقي والذي يتفق مع اللغة والواقع، لذلك سنجد أن تعريف الأصوليين للصحابي يكاد يتطابق مع هذا التعريف —حيث أنه لا مصلحة لهم في توسيع دائرة الصحابة بخلاف أهل الحديث!—، ونذكر للقارئ تعريف جمهور الفقهاء والأصوليين لهم: من لقي النبي صلى الله عليه وسلم يقظة مؤمناً به، بعد بعثته، حال حياته، وطالت صحبته وكثر لقائه به، على سبيل التبع له، والأخذ عنه، وإن لم يرو عنه شيئاً، ومات على الإيمان..

وقيل إن الصحابي هو: هو من رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم واختص به، واتبعه أو رافقه مدة يصدق معها اطلاق (صاحب) عليه بلا تحديد لمقدار تلك الصحبة.

مع الشيخ حسن بن فرحان المالكي في تعريف الصحابة

كما ذكرنا فإن تعريف الصحابي مختلف فيه بين الأصوليين وأهل الحديث –داخل مذهب أهل السنة–، ولكنا نجد للشيخ حسن بن فرحان رأيا آخر جديدا في هذه المسألة، حيث يفرق بين الصحبة الشرعية والصحبة اللغوية! فيقول: "الأصل أن الصحبة لغةً تعني الملازمة والمخالطة والمعاشرة، ولكن قد تطلق الصحبة من حيث اللغة مجازاً على من لم يلازم، بل إنها تطلق على العدو والمقاتل والشاتم والمخالف في الديانة ونحو ذلك، وكل هذا جائز لغوياً، إما على سبيل المجاز أو للتشابه في صفة ما أو للاشتراك في شيء ما. كما يجوز لغة إطلاق صحبة الكافر للمؤمن والعكس كقوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾﴾ [سورة الكهف, ٣٧] فهنا إضافة صحبة المؤمن إلى كافر. وعلى هذا فلا تفيد كلمة (صاحب) مدحاً دائماً كما يظن كثير من الناس كما لا تفيد ذماً فهي من الناحية اللغوية كلمة محايدة وقد تكون الصحبة صحبة حسنة فقد تكون صحبة سيئة.

مفهوم الصحبة في العرف

مفهوم الصحبة في العرف –وهو ما تعارف الناس عليه– أضيق وأكثر تحديداً من المفهوم اللغوي الواسع للصحبة. ولو توجهنا لأي فرد من العوام –فضلاً عن الخاصة– وسألناه: من هم أصحابك؟ فلن يسمي لنا كل من لقيه أو رآه، ولكن سيذكر لنا بعض الناس ممن يختص بمخالطته وصداقته ونحو ذلك، إذن فهذا هو المفهوم (العرفي) للصحبة، فإذا كانت اللغة تجيز اشتقاق اسم الفاعل (عادل) من الفعل (عدل) فإن

العرف لا يطلق كلمة (عادل) إلا على من غلب عليه العدل على أقل تقدير[245]، فالعرف يضيق ما قد توسعه اللغة أو تحتمله. ولعل أكثر الأصوليين (الفقهاء) في تعريفهم للصحابي والصحبة قد راعوا الجانب العرفي في تحديد هذا المفهوم بعكس كثير من أهل الحديث الذين توسعوا في المصطلح استئناساً باللغة؛ ولسبب آخر وهو أن وظيفتهم في نقل الأحاديث والأخبار –من اتصال الأسانيد– شجعت اختيارهم لهذا المذهب في تعريف الصحابي." اهـ[246]

ثم يبدأ الشيخ في تتبع الآيات التي ورد فيها ذكر للصحابة في كتاب الله، سواء على سبيل المدح أو اللوم، ويوضح أن المدح أو التوبة لم تذكر إلا مع المهاجرين والأنصار، أما باقي أصناف المسلمين فلم تذكرهم، فيقول: "وهذا يتفق أيضاً مع قول الله عز وجل يوم تبوك: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ... ﴿١١٧﴾﴾ [سورة التوبة, ١١٧]، مع أن جيش المسلمين كان فيه غير هؤلاء كثير من الطلقاء والأعراب والعتقاء ونحوهم، ممن لم يخبرنا الله بالتوبة عليهم، كما لم يخبرنا بالسخط عليهم، فيتوقف فيهم، (...) أننا رأينا أن كل الآيات في القرآن الكريم التي فيها ثناء على أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تنزل إلا على المهاجرين والأنصار، فهذه اثنا عشر آية[247] كلها في فضل المهاجرين والأنصار وليس فيها إلا

---

[245] يعلق الشيخ حسن في كتابه الثاني الذي يرد به على من انتقدوا الكتاب على هذه النقطة قائلا: "إذا كانت اللغة تجعل الذي يصدق مرة واحدة صادقاً فليس في الدنيا كاذب، وإذا كانت تجعل الذي يكذب مرة واحدة كاذباً فليس في الدنيا صادق إلا الأنبياء وعلى هذا نجمع النقيضين وهذا محال."، فإذا كان هذا في كل لغات وأعراف العالم، فلم الفرق مع الصحابة؟!!

[246] حسن بن فرحان المالكي، الصحبة والصحابة بين الاطلاق اللغوي والتخصيص الشرعي.

[247] نذكر للقارئ أطراف هذه الآيات، لأن معظمها ذكر سابقا فلا داعي لتكرارها: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ... ﴿١١٧﴾﴾ [سورة التوبة, ١١٧]، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ... ﴿١٠٠﴾﴾ [سورة التوبة, ١٠٠]، ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ ... ﴿٨﴾﴾ [سورة الحشر, ٨]، ﴿... لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ... ﴿١٠﴾﴾ [سورة الحديد, ١٠]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ ... ﴿٧٢﴾﴾ [سورة الأنفال, ٧٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ... ﴿٩٧﴾﴾ [سورة النساء, ٩٧]، ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ... ﴿١٤﴾﴾ [سورة الحجرات, ١٤]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ... ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الفتح, ٢٩]، ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ... ﴿١٨﴾﴾ [سورة الفتح, ١٨]، ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ... وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ [سورة آل عمران, ١٥٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ

الثناء عليهم لا على غيرهم وفيها اشترط الإحسان! في من جاء بعدهم وتسميهم تابعين!"

ثم يبدأ بعد ذلك في مناقشة الروايات التي جاءت في شأن الصحابة – وعلى الرغم من عدم تسليمي ببعض هذه الروايات بسبب متنها، إلا أنها صحيحة سندا! عند أهل الحديث ويأخذون بها، فنذكر مناقشته لهذه الروايات: "حديث أبي سعيد الخدري في تخاصم خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف وهو قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نصيفه". الحديث مشهور بلفظ "لا تسبوا أصحابي..."، وهو يخاطب خالد بن الوليد عندما تخاصم مع عبد الرحمن بن عوف، في قضية بني جذيمة (بعد فتح مكة). (ويخرج من هذا الحديث بأن خالد بن الوليد لا يدخل في الصحبة الشرعية، وإلا كيف يقول له النبي(ص) ذلك وهو منهم!، وإذا لم يؤخذ بهذا الفهم يرد الحديث لتناقضه! –المؤلف–) روى الترمذي وابن حبان قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم "الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبّهم فبحبّي أحبّهم ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه". والحديث محل نظر لكن قد صححه بعضهم. (الحديث ضعيف سندا، منكر متنا، ولكنها تحكمات الرجال –المؤلف–) حديث حذيفة بن اليمان مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يكون لأصحابي من بعدي زلة يغفرها الله لهم لسابقتهم معي يعمل بها قوم من بعدهم يكبهم الله في النار على مناخرهم"!!. (وهذا من

مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾] سورة آل عمران ,١٥٥]، ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ ۙ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا ... ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾] سورة التوبة ,٢٥-٢٧]. **ففي الحالتين الأولتين عفا الله عنهم، أما في الأخيرة يتوب على من يشاء.**، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾]سورة البقرة ,٢١٨]، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾] سورة آل عمران ,١٩٥]

أعاجيب الوضع في الحديث، من تأصيل للسكوت عن تاريخ الصحابة استنادا إلى أمر النبي(ص) –المؤلف–) لما كان يوم حنين التقى هوازن ومع النبي صلى الله عليه وآله وسلم عشرة آلاف والطلقاء فأدبروا قال: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله وسعديك لبيك نحن بين يديك، فنزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: أنا عبد الله ورسوله، فانهزم المشركون فأعطى الطلقاء والمهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً، فقالوا: فدعاهم فأدخلهم في قبة، فقال: أما ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: لو سلك الناس وادياً وسلكت الأنصار شعباً لاخترت شعب الأنصار".

وبعد أن يعرض الأحاديث ويستنتج منها ما قلناه، بأن الصحبة لا تطلق على كل من رأى النبي المصطفى، بل هي للسابقين منهم من المهاجرين والأنصار، يوضح وهم من يرى أن تعريف أهل الحديث للصحابي مجمع عليه، وأن من يناقشه خارق للإجماع، فيقول: "فالمحدّثون وحدهم –رغم أنهم لم يجمعوا– لا يعد إجماعهم حجة شرعية، وقد اختلفوا في تحديد معنى الصحبة، وتعريف الصحابي، فكيف يصح إجماع المحدثين مع خلاف سعيد بن المسيب وشعبة بن الحجاج ومعاوية بن قرة وعاصم الأحول وأبي حاتم ويحيى بن معين وابن عبد البر وأبي زرعة وأبي داود وغيرهم فضلاً عن بعض الصحابة الذين نقلنا أقوالهم؟

فكل هؤلاء لا يعتبرون مجرد الرؤية ولا مجرد اللقيا كافياً لاثبات الصحبة، وهؤلاء كلهم من كبار أهل الحديث بل كان العلماء المتقدمون على هذا كما ذكر ابن عبد البر، ولكن قصر الصحبة على المهاجرين والأنصار تضاءل مع تقادم الزمان إلى أن تركه أكثر أهل الحديث لسبب ظاهر، وهو تركيزهم على اتصال الإسناد، فهم معذورون في هذا التوسع؛ للسبب المتعلق بوظيفتهم في نقل أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ولكنهم مع ذلك لا يغلون غلو المعاصرين، ولا غلو الحنابلة فتجد أهل الحديث ينقلون لنا الأحاديث في ذم بعض من وصف بالصحبة كحرقوص بن زهير، وقاتل عمار، والوليد بن عقبة، والحكم، ومعاوية، ونحوهم، وتجد كثيراً منهم يذمون سيرة هؤلاء، ولا يفهمون

من (عدالة الصحابة) عدم تجريح أمثال هؤلاء كما يفعل بعض المعاصرين، كما لم يردوا الأحاديث الواردة في ذمهم، ولا يعدّلون كل من وصف بالصحبة فتجد بعضهم يقول عن بسر بن أبي أرطأة: (كانت له صحبة ولم تكن له استقامة)!، ونجد بعضهم يطلق على الوليد (الفاسق) وأوردوا في ذم أبي سفيان ومعاوية وأخيه حديث (لعن الله الراكب والقائد والسائق) وفي معاوية خاصة حديث (الفئة الباغية) وحديث (أول من يغير سنتي رجل من بني أمية) ونحوها، ولهم أقوال كثيرة تتفق مع ما ذكرناه من ذم بعض من وصف بالصحبة ثم لم يحسن السيرة، أما غلاة المعاصرين فليسوا على مذهب المحدّثين، ولا مذهب الأصوليين، وليس لهم سلف فيما يعتقدون إلا بعض غلاة الحنابلة أمثال البربهاري وابن بطة وابن حامد المتأثرين بالخصومة مع المعتزلة والشيعة والمتأثرين بنواصب الشام والبصرة الذين بالغوا في تعريف الصحبة وفضلها، حتى يحموا بها بعض الطلقاء، الذين كان لهم أثر سيئ في الأمة، ثم إن قصر الصحبة على المهاجرين والأنصار لا يؤثر كثيراً في الأحاديث المنقولة إلينا، وليس الخلاف في بعض هؤلاء أولى بالضرر على الحديث من الخلاف في بعض التابعين أو تابعيهم لمن تأمل هذا الأمر."

ثم يصل في نهاية المطاف إلى تحديد مصطلح "الصحابي" الممدوح في القرآن، مقسما إياه إلى قسمين، شرعية وعامة لغوية، فيقول: "فالصحبة الشرعية لا يصح إطلاقها إلا في المهاجرين والأنصار ومن في حكمهم من مواليهم وحلفائهم والمستضعفين ونحو ذلك، أما الأعراب والطلقاء (مسلمو فتح مكة) والوفود وغيرهم، فليسوا صحابة من الناحية الشرعية وإن كانوا صحابة صحبة عامة من الناحية اللغوية، وعلى هذا فلم ترد في حقهم تلك الآيات الكريمة من الثناء على من كانوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم أو على المهاجرين والأنصار ومن في حكمهم كما سيأتي. ولتحديد مفهوم الصحبة يجب علينا أن نفرق بين المصطلحات الشرعية والمصطلحات العرفية والمصطلحات اللغوية. فاللغة أوسع دائرة نظراً لدخول المجاز والمشترك اللفظي فيها ثم تأتي دائرة العرف إذ يشترط فيه إلى جانب الحقيقة اللغوية أن يضاف إليه عرف الناس فما تعارف الناس عليه من قولهم: فلان صاحب فلان أو من أصحابه فهو صاحبٌ عرفاً والعرف يستلزم الحقيقة

اللغوية لا الشرعية، ثم أخص الدوائر هنا التعريف الشرعي؛ لأنه أكثر تحديداً، ولذلك فالشرع يحكم على العرف واللغة، والعرف لا يحكم إلا على اللغة، واللغة لا تحكم على الشرع ولا على العرف وإنما فيها الحقيقة والمجاز. الصحبة الشرعية: لا تكون إلا في المهاجرين والأنصار، الذين كانوا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة من بداية الهجرة إلى زمن الحديبية، ويدخل في حكم هؤلاء، السابقون إلى الإسلام، الذين توفوا في مكة قبل الهجرة، لأن الهجرة لم تكن واجبة يؤمئذٍ أو في الحبشة، الذين هاجروا بإذن النبي صلى الله عليه وآله وسلم- كما أذن لبعضهم في العهد المكي-، أو قدموا بعد الحديبية من مهاجرة الحبشة فقط، كما يدخل في حكمهم نساؤهم ومواليهم وحلفاؤهم وكبار أبنائهم الذين شاركوهم في الصحبة قبل بيعة الرضوان. الصحبة العامة: التي مرجعها اللغة، فهذه يدخل فيها كل من صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم من المسلمين أو المنافقين وأفضلهم المسلمون بعد الحديبية، ثم المسلمون بعد خيبر، ثم بعد فتح مكة من طلقاء وأعراب ووفود، هذا من حيث الجملة، وبعض هؤلاء من المتأخرين أفضل من كثير ممن سبقهم."[248]

نخرج من هذا التفصيل اللغوي الرائع للشيخ حسن بن فرحان، أن التعريف المنطقي اللغوي العرفي هو الصحيح، أما تعريف أهل الحديث فليس بشيء في هذه المسألة. ونسلم بأن الصحابة الممدوحين في القرآن هم السابقون الأولون وليس من رأى مرة أو قابل برهة!

موقف علماء الزيدية من الصحابة

نعود مرة أخرى إلى الزيدية، ما هو موقف علماء الزيدية من الصحابة؟ يجيب الأستاذ محمد يحيى عزان قائلا: "لم يختلف موقف أبناء علي وأهل بيته عن موقفه تجاه متقدميه

[248] المرجع السابق.

في الخلافة، فلم يرو عن أحد من صلحاء أهل البيت وأكابرهم سبٌ أو براءة أو تجريح، وإليك بعض ما روي عنهم في ذلك: الإمام الحسن (49 هـ) والإمام الحسين (61هـ) ذكر العلامة يحي بن الحسن القرشي: أنه روي عن الحسن والحسين الموالاة للخلفاء والمناصرة لهم والمدح، وإظهار القول الجميل، ولم يرو أحد من أهل النقل أنهما لعنا الصحابة، ولا فسقاهم، ولا أساءا القول فيهم، وهما سيدا شباب أهل الجنة، وأعرف الناس بأحوال الصحابة وأحوال نبيهم. وروى أن الحسن كتب إلى أهل البصرة كتاب دعوته، وترحم فيه على أبي بكر وعمر،... وقال الإمام يحيى بن حمزة: «روي أن الإمام زيد بن علي كان كثير الثناء على الشيخين أبي بكر وعمر والترحم عليهما، وينهى عن سبهما، ويعاقب على ذلك، والمشهور أن بعض الناس قالوا: لا نبايعك حتى تبرأ من الشيخين فقال: كيف أتبرأ منهما وهما صهرا جدي وصاحباه ووزيراه؟ وجعل يثني عليهما، فرفضوه.

وأثناء دراستي لهذه المسألة وجدت أن موقف جمهور الزيدية الذين أتوا بعد ذلك لم يتجاوز ما مضى عليه الإمام علي والحسن والحسين، ولكن التجاذبات والجدل المستمر، جعل بعض المتأخرين يصنفهم في توجهين:

التوجه الأول: الموالاة والترضية مع التخطئة، وفي هذا قال الإمام عبد الله بن حمزة: «هم عندنا أغلى من أن يكفروا ويفسقوا، مع تجويزنا عليهم الخطأ فيما اختلفوا، وعندنا أن علياً أولى بالأمر، وأنهم أخطؤوا بالتقدم عليه، ولم ندرِ ما مقدار ذلك الخطأ عند الله سبحانه، وقد أخطأ أنبياء الله سبحانه وهم أعلى قدراً من الصحابة وأعرف بجلال الله سبحانه. ولسنا نعتقد فيهم أنهم قصدوا شقاق النبي صلى الله عليه وآله وسلم في وصيِّه عليه السلام، وإنما جهلوا وجه الاستدلال فاعتقدوا أنهم أولى بالأمر، فلو صح أنهم قصدوا خلاف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقطعنا على ضلالتهم، ولكنّا لا نقول ذلك، وعلى هذا الوجه أخبار الصحابة ثابتة، وجلالتهم باقية، وخطؤهم في مسألة واحدة لا يذهب حرمة إسلامهم، وإصابتهم فيما لا يحصى من المسائل، فتأمل ذلك موفقاً (...)".

وقال العلامة يحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد: «واعلم أنَّ القائلين بالترضية على الصحابة من أهل البيت هم: أمير المؤمنين، والحسن والحسين، وزين العابدين علي بن الحسين، والباقر، والصادق، وعبد الله بن الحسن، ومحمد بن عبد الله النفس الزكية، وإدريس بن عبد الله، وزيد بن علي، وكافة القُدماء من أهل البيت. ومن المتأخرين: سادة الجيل والديلم: المؤيد بالله، وصِنْوه أبي طالب، والناصر الحسن بن علي الأطروش، والإمام الموفق بالله، وولده السيد المرشد بالله، والإمام يحيى بن حمزة. ومن المتأخرين باليمن: الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، والسيد محمد بن إبراهيم الوزير، وصنوه الهادي، والإمام أحمد بن الحسين، والإمام عزّ الدين بن الحسن، وولده الحسن بن عزّ الدين، والإمام شرف الدين، وغيرهم"

ورجح الإمام يحيى بن حمزة الخروج من التوقف إلى الترضية، فقال: «التوقف وإن كان أسلم حالاً من السب، لكنه لا معنى للتوقف؛ لأنه إذا كان إسلامهم قبل الخلاف مقطوعاً به، وكذلك الترضية والتزكية من جهة الله تعالى ورسوله، ولم يحصل دليل قاطع ينقل عن ذلك، فلا وجه للتوقف وترك المعلوم للمظنون. وقال: ولو حسن التوقف لمجرد الخطأ، لحسن التوقف في جميع المؤمنين الصالحين؛ لأنه ما من أحد إلا ويلابس في اليوم والليلة كثيراً من المعاصي، لا يُقطع بكونها كفراً أو فسقاً، وهذا القول الفصل. إلى أن قال: وعلى كل حال فالواجب حسن الظن بالمؤمنين وتعظيمهم وموالاتهم وإن علمنا خطأهم في بعض المسائل القطعية، مالم يقطع بكون ذلك الخطأ كفراً أو فسقاً لا سيما أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أهل السابقة والفضل والجهاد في سبيل الله، فلا أقل مما يعاملهم بمثل ما يعامل به بعضنا بعضاً من حسن الظن والقول الجميل، التوجه الثاني: التوقف عن الولاء والبراء، فلا يرضُّون ولا يسبون، وهذا مروي عن كثير من الزيدية، قال العلامة محمد بن الحسن الديلمي في كتابه (قواعد عقائد آل محمد): «اعلم أن مذهب سادات الزيدية من العترة الزكية، بل مذهب جميع الطهرة من الذرية وأتباعهم وأشياعهم –دون من تسمى باسمهم وليس

منهم-: التوقف في أمر الشيخين، بل بعضهم يرون موالاتهما ويخطئون من تبرأ منهما، ويظهرون محبتها وفضلهما».''اهـ [249]

وقارن عزيزي القارئ بين هذا التوجه الصحيح النابع من سادات أهل البيت، وليس من متطرفي مؤصلي المذهب الإمامي، ولا من منافحي المذهب السني الذين يتأولون للصحابة قتالهم بعضهم وقتلهم بعضا من الصحابة الآخرين، ولا يتأولون لمن يصل إلى نتيجة تخالف قولهم، الاجتهاد في الرأي والأجر الواحد للمصيب!

لذلك وجدنا في تاريخنا الإسلامي بعض أقوال لعلماء صرحوا برأيهم في هذه المسألة ولم يخشوا من سطوة أهل الحديث، فمن ذلك ما قاله التفتازاني في: شرح المقاصد: «إنّ ما وقع بين الصحابة من المحاربات والمشاجرات على الوجه المسطور في كتب التواريخ، والمذكور على ألسنة الثقات، يدلّ بظاهره على أنّ بعضهم قد حاد عن طريق الحق، وبلغ حدّ الظلم والفسق، وكان الباعث له الحقد والعناد، والحسد واللداد، وطلب الملك والرئاسة».

وذكر الآمدي في أصول الأحكام عن حسين القطان، أن حكم الصحابة في العدالة حكم غيرهم في لزوم البحث عنها. وليس كما يدعي أهل الحديث أنهم كلهم عدول بتعديل الله عزوجل، فلقد قرأنا القرآن كله وما وجدنا قول أهل الحديث!

لذلك ينبغي أن لا نتحرج عندما نقرأ بعض التقسيمات للصحابة – تبعا للتعريف اللغوي وإلا فإن كل صحابة الرسول الحقيقين من السابقين على خير ومن المتبعين الطائعين كما وصفهم الله تعالى، وكما أثبت التاريخ – يرد فيها بعض النقد للصحابة، فهؤلاء كما قلنا ليسوا صحابة على وجه الحقيقة، وإنما على وجه اللغة.

لذلك لا يعجب القارئ عندما يجد نقدا لبعض الصحابة عند الزيدية، لأن هؤلاء ضيعوا شرف الصحابة. ولن نورد بعض نماذج لذلك، كما يورد أصحاب الفرق الأخرى في

[249] محمد يحيي سالم عزان، الصحابة عند الزيدية.

التدليل على أقوالهم في مخالفات الصحابة وتضيعهم لشرفها، فإن الله حليم ستير، وليس غرضنا هنا ذكر محاسن بعض ومساوئ آخرين، وإنما الكلام في المبدأ وهو جواز النقد لا السب أو الطعن في الدين، لأنه لا أحد أعلم ببواطن الناس، وإنما لنا الظاهر نقدرهم ونقيسهم ونحكم عليهم تبعا لهم.

ونذكر القارئ أننا نرى أن أفضل جيل ظهر على وجه الأرض هو جيل الصحابة الذين تربوا وأعدوا على يد أفضل قائد ومرب، ألا وهو النبي(ص) خير الأنبياء وخاتمهم، وهذه الأفضلية هي أفضلية إجمالية وليست تفصيلية، فالجيل ككل كان صالحا، ولكن هذا لا يعني صلاح كل فرد في الجيل وأنه أفضل من الأفراد في الأجيال الأخرى!

في نهاية المطاف يجد القارئ أن فرقة الزيدية منذ مبدأها ثابتة المبادئ، معتدلتها لم تشط أو تغالي في أو ضد أحد، وإنما حاولت التزام الهدى قدر الإمكان. وهي لا تبعد كثيرا في عقائدها أو أحكامها الفقية عن أهل السنة، وما الخلافات التي عرضت إلا خلافات متخصصة بعض الشيء لا تؤثر في الإنسان العامي عند أهل السنة أو عند الزيدية، لذلك لا يجد المسلم السني أي حرج في التعامل معهم فهم ونحن في الدين إخوان.

الفرقة الرابعة: الإباضية

بعد أن أنهينا الحديث عن أهل السنة والشيعة بفرقتيها الإمامية والزيدية، ننتقل للحديث عن فرقة نالها من الظلم ما لم تناله فرقة أخرى، فرقة رميت بالتطرف وبالمروق من الدين من كل الفرق الإسلامية تقريبا، على الرغم من كونها من أكثر الفرق الإسلامية اعتدالا وقربا من المذهب السني في نفس الوقت، وهي فرقة الإباضية. قد لا يكون الإسم معروفا بالنسبة لكثير من القراء، وقد يكون بعضهم قد سمعه أو قرأه مرة، ولكنه لا يعلم ما هي الإباضية وما هي مبادئها، ثم إن الاسم نفسه يوحي بأنها فرقة من الفرق المنحرفة –ما علاقة اسم الإباضية بالإسلام أو الإيمان؟!–، مع أن الفرقة والحمد لله من أقرب الفرق إلى روح الإسلام في مبادئه وتصوراته العامة. وكالعادة سنبدأ بالتعريف بالفرقة ومما اشتق هذا الاسم، ثم نلج إلى عقائد الفرقة للناقشها، ولكن لما كانت الفرقة متهمة بأنها "خوارج" أو من أذناب الخوارج، الذين يكفرون الناس ويقتلونهم ويستبيحون دمائهم، فسنخوض في التاريخ بعض الشيء لنرى كيف يرى الإباضية هذه المسألة وكيف يرون علاقتهم بالخوارج، وهل يعدون أنفسهم منهم أم لا؟ ثم نعرج بعد ذلك للحديث عن عقائدهم.

من هم الإباضية؟

ونجيب على هذا السؤال من خلال تعريفهم هم لأنفسهم، فيقول الدكتور عمرو النامي: "أخذ المذهب الإباضي اسمه عن عبد الله بن إباض المري التميمي؛ وقد سمي المذهب على اسم أبيه لأنه كان أكثر من ابنه شهرة، كما هي الحال في علم الأنساب عند العرب. والملطي هو الوحيد الذي ذكر أن هذه الفرقة سميت على اسم مؤسسها، وهو كما قال، إباض بن عمرو. على أن هذه المعلومة لا يمكن أن تؤخذ بالاعتبار لأن الملطي أورد في كتابه معلومات عن الخوارج مناقضة لجميع المراجع الموثوقة التي

تناولت الموضوع (...) ما نعلمه عن عبد الله بن إباض قليل جدا، سواء في المصادر الإباضية أم غير الإباضية؛ وهو من بنى صريم بن الحارث بن مقاعس من بني تميم، إحدى قبائل مضر الرئيسة. ولا يعرف شيء عن حياته الأولى، ويرى العالم الإباضي الحديث محمد بن يوسف اطفيش أن ابن إباض انتقل من نجد، موطن قبيلته، إلى البصرة كذلك ذكر أن هنالك روايات معنية تفيد أنه كان صحابيا لفترة قصيرة؛ إلا أن رواة إباضيين أوردوا ابن إباض في طبقة التابعين الذين عاشوا في أثناء النصف الثاني من القرن الهجري الأول. ولا يعرف هل اشترك في الحروب الأهلية التي وقعت بين المسلمين قبل خلافة بني أمية، ويبدو أنه لم يكن راضيا عن حكم معاوية." اهـ[250]

إلا أن الإباضية ترى أن المؤسس الحقيقي للفرقة هو جابر بن زيد وليس عبد الله بن إباض، وأن الفرقة نسبت إلى ابن إباض بسبب تسمية الإمويين لهم، بسبب مجاهدة ابن إباض لهم فسموهم بهذا الاسم فقبلوا التسمية. أما جابر بن زيد فكان توجهه وتفرغه للعلم أكثر فلم تنسب إليه الفرقة.

من هو جابر بن زيد؟ وما هي مكانته العلمية؟

هو أبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي تابعي من التابعين ولد سنة 21 للهجرة، وتوفي سنة 96 منها. وهو و إن كان عمانياً إلا أنه عاش في العراق، فقد أمضى أكثر عمره المبارك، في البصرة، إحدى عواصم العراق العلمية في ذك الحين. أتيحت له الفرصة لملاقاة الكثير من الصحابة وطلب العلم مباشرة على أيديهم، ويتحدث الدكتور عمرو النامي عن النشأة العلمية لجابر بن زيد فيقول: "أما الشيوخ الذين كان يمكن الحصول منهم على هذه المعرفة بالإسلام فهم صحابة الرسول. ومن حسن حظ جابر أنه عاصر عددا كبيرا من الصحابة الأولين، فالتقى سبعين من الصحابة الذين حضروا معركة بدر الكبرى،

[250] عمرو النامي، دراسات عن إباضية.

وحفظ عنهم جميع الأخبار والأحاديث التي كانوا يعرفونها. كذلك التقى بعائشة، زوج الرسول المفضلة، وسألها عن حياة الرسول الخاصة، وناقش معها مشاكل الأمة الإسلامية السياسية التي لعبت فيها دورا رئيسا. وبالإضافة إلى عبد الله بن عمر، وعائشة، وابن مسعود، وأنس بن مالك، فإن أبرز شيوخه كان عبد الله بن عباس، وهو كان الأوسع علما بين الصحابة الشبان، وعرف بحبر الأمة وبالبحر بسبب معارفه الواسعة بالقرآن وتفسيره وبالسنة معا.

ثم إن جابر كان صديقا مقربا لابن عباس وتلميذه المفضل، وحفظ جابر أحاديث الرسول عن الصحابة الذين التقاهم بالبصرة والمدينة ومكة. واستغل مناسبة الحج للقاء الصحابة الذين كانوا يأتون إلى مكة في وقت الحج من شتئ أنحاء البلدان الإسلامية. ويقال إن جابرا تنقل بين البصرة ومكة حاجا ما لا يقل عن أربعين مرة ولقد دفعه توقه إلى معرفة أحاديث الرسول إلى بذل كل الجهود لجمع هذه الأحاديث. وقد قدم إلى المدينة بصورة خاصة، وقصد بني عمرو بن حزم الأنصاري وطلب منهم أن يروه الرسالة التي بعث بها الرسول مع والدهم عمرو بن حزم إلى أهل اليمن بخصوص الزكاة، واستجابوا إلى طلبه. لقد حصل جابر على معرفة واسعة بالقرآن والأحاديث والفتاوى. وكان شيخه ابن عباس راضيا عنه تمام الرضى، ويروي عن ابن عباس أنه قال: "لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما في كتاب الله".

ثم وصف جابرا بأنه من العلماء؛ واعتقد أن جابرا بلغ مرتبة عالية من العلم، حتى أنه لا حاجة للعودة إلى أحد بعده، ولو إلى ابن عباس نفسه، لإصدار أية أحكام شرعية إذا كان جابر قد عبر عن رأيه في ذلك. وسأل الربيع –وهو أحد أبناء البصرة– ابن عباس عن رأيه الشرعي في مسائل معينة، فرد عليه ابن عباس: "تسألونني وفيكم جابر بن زيد؟". وكان لصحابة آخرين، كعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله الأنصاري مثل رأي ابن عباس في جابر. وقد نقل البخاري عن جابر بن زيد أنه قال: "مر بي ابن عمر بينما كنت في الطواف، وقال لي: "يا جابر إنك من فقهاء أهل البصرة وإنك ستستفتى، فلا

تفتين إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإنك إن فعلت غير ذلك هلكت وأهلكت". "اهأ[251]

متى ظهر المذهب الإباضي وما هي أسباب الظهور؟

يجيب الأستاذ علي بن هلال العبري على هذا السؤال قائلا: "تعود نشأة المذهب الإباضي إلى أوائل النصف الثاني من القرن الأول الهجري، حيث بدأ في مدينة البصرة كحركة إصلاحية، وتنظيم سياسي بقيادة شخصيات من كبار التابعين، آلمها الحال الذي وصلت إليه الأمة الإسلامية من الابتعاد عن منهج الخلافة الراشدة في السياسة والحكم، وتدبير مصالح الأمة، ورأت أن لا خلاص من ذلك إلا بالعودة إلى النهج الراشدي في اختيار الإمام وممارسة صلاحياته، وكان على رأس تلك الحركة ثلاث شخصيات يعود إليها الفضل في تأسيس الحركة، وبلورة أفكارها، ومبادئها، وهذه الشخصيات هي: أبو بلال مرداس بن حدير التميمي، وعبدالله بن أباض، والإمام جابر بن زيد الأزدي."[252] اهـ

ومثل كل الحركات الناشئة في هذا الوقت كان لا بد من الاستناد إلى أصل قبلي قوي يدافع عن الحركة ويذب عنها، كما كان من المهم حماية القائد الروحي للحركة والمؤسس لها بأي شكل ممكن، حتى تنهض الحركة ولا توأد في مهدها، وكان لهذا الدور عبدالله ابن إباض، فكان المجاهد علنا في سبيل تحقيق الحقائق، وتصحيح قضايا العقول، وكان له الكثير من المناظرات وكان حجة دامغة، وله مجادلات مع عبد الملك بن مروان تشرح الصدور وتعلي الحق. وفي هذا يقول الأستاذ العبري: "ويؤكد ذلك اختيار الجماعة عبدالله بن إباض للقيام بدور المدافع عن آراء الحركة، ومبادئها، لمكانته

---

[251] المرجع السابق.

[252] علي بن هلال العبري، الإمامة في الفقه الإسلامي.

القبلية، فهو من بني تميم، ولإخفاء القيادة الحقيقية المتمثلة في شخص الإمام جابر بن زيد الذي تولى قيادة الحركة منذ انضمامه إليها في عهد أبي بلال، ذلك الاختيار الذي جعل الآخرين من خارج الحركة يظنون أن أبي إباض هو زعيم الحركة وإمامهم، فنسبت إليه. هذا، وقد استمرت الحركة الإباضية في مرحلة السرية والكتمان، طوال قيادة الإمام جابر الذي توفي سنة 93هـ، فخلفه في القيادة تلميذه أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة التميمي. استمر أبو عبيدة يقود الحركة ويديرها، ويعد أعضائها إعداداً روحياً وعلمياً"اهـ[253]

الإباضية والخوارج!

على الرغم من أن الإباضية يصرحون ويصرخون طيلة تاريخهم بأنهم ليسوا من الخوارج وأنهم يختلفون عن الخوارج، و"أن الشيء الوحيد الذي يربط الإباضية بالخوارج هو رفضهم المشترك للتحكيم، والدعوة الى إمامة المسلمين عن طريق حرية الاختيار والكفاءة الشرعية لهذا المنصب بين المسلمين جميعا"[254]، إلا أن الفرق الإسلامية الأخرى رفضت هذه الصرخات وأصرت على هذه التسمية، وأن الإباضية ما هم إلا خوارج –متنكرون لأصلهم!– وأنهم يخدعوننا، ومهما فعلوا فهم خوارج!

ولأن هذا القول يعتبر من العقائد التاريخية الباطلة،والتي يجب القضاء عليها من أجل وحدة الصف الإسلامي، وإزالة أسباب الفرقة والتشرذم بين المسلمين، فإنه يجب علينا رفع هذا الظلم والغبن عن إخواننا المسلمين، عن طريق عرض وجهة نظرهم في هذه المسألة لباقي إخوانهم من المسلمين من الطوائف الأخرى، لا أن نظل هكذا نخاطب أنفسنا، فنقرأ في كتب عقائدنا أن الإباضية يقولون كذا وكذا ويرون كذا وكذا، وهم يصرخون وما من مجيب! لذا سنعرض لوجهة نظرهم في هذه المسألة بدون ترجيح منا أو

[253] المرجع السابق.

[254] بكير بن سعيد أعوشت، دراسات إسلامية في الأصول الإباضية.

رفض لما يقولون، فهذه عقيدة تاريخية نحاول أن نقدم حولها في هذا الكتاب وجهة نظر الطرف الآخر.

أول شيء لابد أن نوضح للقارئ أن الإباضية لا يبرأون من أهل النهروان، وهم الذين رفضوا موقف عليا من التحكيم ويرون أنه بذلك أسقط حقه في الإمامة عندما رضى خلع نفسه من الإمارة عند إجراء التحكيم، وحق لهم بذلك مبايعة إمام جديد وهو عبدالله بن وهب الراسبي الذي بايعوه بعد علي[255]، وهم مقتنعون بأدلة أهل النهروان في مناقشة ابن عباس وعلي، ولكنهم يبرأون من الخوارج ومن الذي أحدثوه بعد ذلك من استعراضهم الناس وسؤالهم عن معتقدهم، وقتلهم للمخالف لهم. ويرون أن العرض التاريخي للمسألة من مبدأها عرض غير سليم، ثم استند بعد ذلك إلى أقاويل وأقاصيص حول مبادئ وأفعال الخوارج. ويعلق الأستاذ علي الحجري علي عدم المنهجية البحثية في هذه المسألة قائلا: "فأبو الحسن الأشعري في كتابه "مقالات الإسلاميين" بيّن مصادر معلوماته عن أهل النهروان وعن الذين سموا خوارج. فقد قال: ".. ويقال إن أول...، ويقال إن المبتدع ... قالوا وقد كان نافع.. "،.. وقال بعض الناس..،.. وقال قوم إن.."، "وحُكي لنا عنهم ما لم نتحققه.."، "وحُكي عنهم أنهم.."، "وحكى حاكٍ.."، "وحكى حاكٍ عن الخوارج.."

وأما عبد القاهر البغدادي صاحب كتاب "الفَرق بين الفِرق" فقد قام بتلخيص ما تناقلته كتب المقالات وكتب التاريخ من أحداث من دون الإشارة إلى المصادر الأولى التي

---

(255) يقول الأستاذ علي بن محمد بن عامر الحجري في كتابه: الإباضية ومنهجية البحث عند المؤرخين وأصحاب المقالات "إن الذي لمسناه من أخبار تلك الأحداث هو أن الحرب التي جرت بين الإمام علي –كرم الله وجهه– وأهل الجمل وأهل الشام كان أساسها ومبدؤها ترسيخ قوائم الخلافة في أرض الخلافة، لهذا وجد أهل النهروان أنفسهم ملزمين بالوفاء للخليفة فباعوا نفوسهم الغالية لما هو أبقى وأغلى منها. ولكنهم حينما رأوا الخليفة يتنازل عن مكانه السامق الذي قدموا لأجله أرواحهم الزكية ودماءهم العطرة ما كان منهم إلا أن يطالبوا الإمام علياً بالاستمرار على ما كان عليه كما وضحت ذلك رواية الإمام أحمد. فلو كان أحد أركان الصلح هو استسلام معاوية لأمر الإمام علي –كرم الله وجهه– لكان أهل النهروان أول الناس قبولاً ورضاءً ولكان ذلك مرغوباً فيه من قِبَلهم. ولكنهم عرفوا أن محاولة معاوية وعمرو بن العاص في إيقاف الحرب ليس معناه الاستسلام للإمام علي –كرم الله وجهه– وتفويض الأمر إليه، بل كانت تلك المحاولة هي لأجل الخروج من المأزق الذي آل إليه جيش معاوية حين ظهرت علامات الهزيمة تدب في صفوف أهل الشام."

جاءت بتلك الأخبار. وقال عبد القاهر أيضاً: ".. فمنهم من زعم أن أول من أحدث ذلك منهم عبد ربه الكبير ومنهم من قال: عبد ربه الصغير..."، وقال: ".. وذكر أصحاب التواريخ...".

والشهرستاني صاحب كتاب "الملل والنحل" لم يسند الأخبار التي ذكرها إلى مصدر قوي متصل، بل جاءت أقواله نقلاً عن كتاب "مقالات الإسلاميين "للأشعري. وكذلك من مصادر لا يعرف أصحابها حيث قال: "... ويقال إن أول سيف سل من الخوارج..."، "... وقيل كان نجدة بن عامر ونافع بن الأزرق.."، ".. ويحكى عنهم.."، ".. ويحكى عن جماعة منهم أنهم قالوا... "

وأما ابن تيمية فإنه نسف كل الأخبار والأحكام التي سطرها في مؤلفاته عن أهل النهروان بقوله: "... وأقوال الخوارج إنما عرفناها من نقل الناس عنهم لم نقف لهم على كتاب مصنف، كما وقفنا على كتب المعتزلة والرافضة، والزيدية، والكرامية والأشعرية، والسالمية، وأهل المذاهب الأربعة، والظاهرية، ومذاهب أهل الحديث، والفلاسفة والصوفية، ونحو هؤلاء "." اهـ[256]

فأقوال علماء المقالات بهذه الطريقة مجتثة من فوق الأرض ما لها من قرار ولا تصلح لأي بحث علمي محترم!، وعلى الرغم من ذلك يُحكم على المسلمين تبعا لها. وأرجو أن يكون القارئ قد علم لماذا لم أكتب إلا عن هذه الفرق الخمس ولم نكتب عن باقي الفرق التي لم نجد أقوالها إلا في كتبنا! ونبدأ الآن في ذكر اعتراضاتهم على أقوال المؤرخين في حق أهل النهروان.

[256] علي بن محمد بن عامر الحجري، الإباضية ومنهجية البحث عند المؤرخين وأصحاب المقالات

اعتراضات الإباضية على أقوال المؤرخين في أهل النهروان

فهم يرون أن أول كذبة ألصقت بأهل النهروان هي أنهم أناس سذج من أجلاف الأعراب لا يفقهون إلا لغة الحديد والنار؟!!، ويرون أنهم كانوا من القراء العباد وكانوا طلاب حق أصابوه، وكانوا من أهل الفضل والعلم، وكان فيهم جملة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، بل تدل بعض الروايات على أن فيهم السن الأول من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي الأقدمين منهم. كما وصفوا بأنهم أصحاب البرانس والسواري، وفي ذلك دلالة واضحة على اتصافهم بنعوت الخير والتقى والزهد في الحياة، ووصفوا بالقراء الذي كان لقباً للعلماء والفقهاء يومئذ[257].

ولا خلاف بين كل المسلمين في أن الخوارج كانوا من العباد! ولكن هل كانوا فعلا من الفقهاء، كما ترى الإباضية؟ يوردون كدليل على قولهم هذا ما رواه الإمام أحمد والنسائي وابن أبي شيبة: عن أبي وائل شقيق بن سلمة ما نصه: "قال: كنا بصفين فلما استحر القتل بأهل الشام اعتصموا بتل، فقال عمرو بن العاص لمعاوية: أرسل إلى علي بمصحف وادعه إلى كتاب الله فإنه لن يأبى عليك! فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) فقال علي: نعم أنا أولى بذلك بيننا وبينكم كتاب الله. قال فجاءته الخوارج ونحن ندعوهم يومئذ القراء وسيوفهم على عواتقهم فقالوا: يا أمير المؤمنين ما ننتظر بهؤلاء القوم الذين على التل ألا نمشي إليهم بسيوفنا حتى يحكم الله بيننا وبينهم ..."

والقراء بمصطلحنا المعاصر هم الفقهاء، وفي شرح معنى كلمة "القراء" يقول ابن خلدون في المقدمة: "... ثم إن الصحابة كلهم لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ

[257] رُوي عن ابن عباس أنه قال لعتاب بن الأعور التغلبي –أحد معارضي التحكيم– كما جاء في مصنف ابن أبي شيبة: "إني أراك قارئاً للقرآن، عالماً بما قد فصلت ووصلت"، حتى أن راوي القصة –وهو كليب بن شهاب الجرمي– قال: "كأنما ينزع بحاجته من القرآن في سورة واحدة".

عن جميعهم. وإنما كان ذلك مختصاً بالحاملين للقرآن العارفين بناسخه ومنسوخه ومتشابهه ومحكمه وسائر دلالته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمعه منهم ومن عليتهم. وكانوا يسمّون لذلك القراء أي الذين يقرأون الكتاب لأن العرب كانوا أمة أمية. فاختص من كان منهم قارئاً للكتاب بهذا الاسم لغرابته يومئذ. وبقي الأمر كذلك صدر الملة.. وكمل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبُدِّلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء.. " اهـ

كما أن الإباضية يستدلون بهذه الرواية على تفنيد الإدعاء القائل بأن الخوارج شجعوا الإمام علي على قبول التحكيم، وأنه هو الذي كان يأبي، ويثبتون بأنهم كانوا معارضين لمسألة التحكيم من أول الخط. حتى إن الدكتور حسين عبيد غانم غباش وهو شافعي من السنة قال بعد أن ذكر رواية القلهاتي (العالم الإباضي) والتي يتفق معناها مع معنى رواية الإمام أحمد هذه، ما نصه: "هذه الرواية للوقائع تعيد وضع مجموعة من كتابات مؤرخين مسلمين غير إباضيين، وعلى الأخص ما يدعيّ منها أن الخوارج شجعوا علياً على قبول مبدأ التحكيم، موضع المساءلة، بل ويدحضها."

إذا فأول اختلاف يرونه هو أن الخارجين على الإمام علي لم يكونوا من أجلاف الأعراب ولم يكونوا هم من شجع الإمام علي على قبول التحكيم. ثاني نقطة يخالفون فيها وهي قولهم: أنه كان بين الخارجين على الإمام علي كثيرا من الصحابة، أما أهل السنة فيقولون إنه لم يكن بينهم صحابيا واحدا! لذلك يورد الأستاذ ناصر بن سليمان بن سعيد السابعي في كتابه "الخوارج والحقيقة الغائبة" سردا بأسماء الصحابة الذين كانوا من بين الخارجين على إمامة الإمام علي رضي الله عنه، فيورد لذلك إثنا عشر اسما وهم:

1- زيد بن حصن (أو حصين) الطائي: ذكره عدد من المؤرخين ضمن أهل النهروان، وعده كل من أبي المؤثر والبرّادي من الصحابة، كما أورده ابن حجر في القسم الأول من أقسام كتابه "الإصابة" اعتماداً على ما ذكره الهيثم بن عدي من أنه كان عامل عمر بن الخطاب على حدود الكوفة...

2- حرقوص بن زهير السعدي التميمي: ذكره فيمن قتل في أهل النهروان عدد من أهل التاريخ. لكن يفهم مما نقله ابن حجر عن الهيثم بن عدي أن الخوارج تزعم أن حرقوصاً من الصحابة وأنه قتل يوم النهروان، قال الهيثم: "فسألت عن ذلك فلم أجد أحداً يعرفه" يفهم من ذلك أن حرقوص بن زهير هذا غير حرقوص المقتول بالنهروان. وعليه فقد ذكر ابن حجر ثمة حرقوصاً آخر هو العنبري، ونقل عن ابن أبي داود الجزم بأنه ذو الثدية المقتول بالنهروان، مما ينفي أن يكون حرقوص السعدي قد قتل في معركة النهروان، وصنف ابن حجر حرقوصاً العنبري في القسم الثالث، وذكر أن له إدراكاً وشهد فتح تُسْتُر مع أبي موسى الأشعري، قال: "وهو غير حرقوص بن زهير السعدي" وهو كلام مناقض لما ثبت في التاريخ من أن حرقوصاً الذي قتل في النهروان هو الذي شهد فتح تستر...

3- عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي ذو الثَّفِنات: سبق في المبحث الأول أنه بايعه أهل النهروان قبل خروجهم من الكوفة. وتشير عبارات بعض العلماء إلى أنه ليس له صحبة؛ حيث يذكر أبو المؤثر كلاً من حرقوص بن زهير وزيد بن حصن في سياق ذكر صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم... إلا أن الطبري يروي في خبر فتح ماسبذان أن عمر بن الخطاب كتب إلى سعد بن أبي وقاص بأن يبعث جنداً ويجعل على إحدى مجنبتيه عبدالله بن وهب الراسبي... وبناءً على ما مر من إدراك عبدالله بن وهب الراسبي الجاهلية وعلى ما قرره ابن حجر من أنهم كانوا لا يؤمرون يومئذ إلا صحابياً فإن عبدالله بن وهب يعد -إذن- صحابياً، ويؤكد ذلك الدرجيني والبرّادي.

4- شجرة بن أوفي السلمي: ذكر البرّادي والشماخي أنه شهد النهروان وكان بدرياً.

5- عبدالله بن شجرة السلمي: ذكره فيمن شهد النهروان كل من البلاذري والطبري والبرّادي، وعده فيمن بايع تحت الشجرة.

6– شريح بن أوفي (أو أبي أوفى) بن ضبعة العبسي: ذكره في أهل النهروان البلاذري والطبري والبرّادي، وجعله الأخير ممن بايع تحت الشجرة، لكنه قال "السلمي"، ويبدو أنه خلط بينه وبين شجرة بن أوفي السلمي.

7– ثرملة (من بني حنظلة): أورده فيمن قتل مع أهل النهروان كل من الجوهري – وجعله هوذا الثدية– والقلهاتي، والبرّادي، وذكر الأخيران أنه من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم

8– نافع: (...) وهو مولى لثرملة السابق ذكره. ولعل كونه مولى لثرملة لبس على الجوهري فجعل ثرملة هو ذا الثدية. هذا وفي الصحابة عدد ممن اسمه نافع من الصعب تحديد واحد منهم ليكون هو صاحب هذه الترجمة.

9– عمير بن الحارث: ذكره البرّادي في أهل النهروان ونسبه أنصارياً. وأورد الحافظ ابن حجر اثنين اتفق اسماهما وتشابه اسما أبويهما، الأول: عمير بن الحارث الأنصاري، شهد العقبة وبدراً وأحداً والثاني: عمير بن حارثة السلمي، صحابي شهد صفين مع علي (...)

10– أبو عمرو بن نوفل: ذكره البرّادي في أهل النهروان وفي الصحابة.

11– هرم بن عمرو الأنصاري (من بني واقف): ذكره البرّادي في أهل النهروان، وأورده ابن عبدالبر في الصحابة وسماه هرم بن عبدالله الأنصاري، قال عنه: "من بني عمرو بن عوف هو أحد البكائين الذين نزلت فيهم "تولوا وأعينهم تفيض من الدمع"، وأورده ابن الأثير في هرم بن عبدالله الأنصاري أيضاً، لكن نسبه إلى بني واقف، واعتذر لابن عبدالبر بأن بني واقف كانوا حلفاء بني عمرو بن عوف، قال ابن حجر: "وهو اعتذار حسن"...

12– الخِرِّيت بن راشد السامي الناجي: شهد مع علي الجمل وصفين، وقد خرج عن علي بن أبي طالب بسبب التحكيم، ثمّ أرسل إليه علي معقل بن قيس الرياحي فقتل

الخريت. وقد ذكر الخريت بن راشد في الصحابة ابن عبدالبر وابن الأثير وابن حجر في القسم الأول، لكنه أورد في القسم الثالث الخِرِّيت بن راشد الشامي قائلاً: "له إدراك" مغايراً بذلك بين الاثنين، وإن كان ذكر في ترجمة كل منهما ما يفيد أنهما شخص واحد، ذلك أنه لا تغاير بين الناجي والسامي؛ فإن السامي نسبة إلى بني سامة بن لؤي، والناجي منسوب إلى ناجية قبيلة من سامة بن لؤي، وأما الشامي فواضح أنها مصحفة عن السامي."اهـ

والإباضية ممثلون في الأستاذ ناصر يحاولون إثبات أن سلفهم كانوا من الصحابة بإيراد أسماء من ورد ذكرهم من الصحابة عندهم وعند أهل السنة، ولكن الواقع أن دعواهم ودعوى أهل السنة غير منطقية، فهل قام أهل السنة بعمل سرد كامل لأسماء الصحابة؟ نعم هناك كتب مثل الطبقات الكبرى لابن سعد، ولكن ما الدليل على أنها جمعت الصحابة فلم تغادر منهم أحدا؟ وما الدليل على أنه لم يكن هناك بين الخوارج أحد من الصحابة؟ هل قام أهل السنة بجردهم؟ وهل قام الإباضية كذلك؟ هناك من مات مباشرة بعد صفين وفي معركة النهروان ولم يذكر لهم التاريخ أي أثر.

نعم الإباضية أكثر دراية برجالهم من الآخرين وأكثر بحثا عنهم، ولكن دعوى الاستقصاء الشامل عند الفريقين مستحيلة تاريخيا، فمن الممكن أن يكون عدد الصحابة بينهم أكبر من ذلك، وحتى بغض النظر عن وجود صحابة بينهم أو عدم وجودهم فالعبرة في ذلك في أدلتهم على الخروج، هل كان معهم الحق أم لا؟ وكما قيل: اعرف الحق تعرف الرجال! وليس بالعكس!

كذلك يرفض الإباضية الإدعاء أن عبدالله بن عباس عندما أرسله علي بن أبي طالب ليجادل أهل النهروان فغلبهم، ويرون أن أهل النهروان هم من حاجوا ابن عباس فغلبوه، فيعرضون مسألة محاجة ابن عباس لأهل النهروان بالشكل القادم: "تتفق الروايات على ذكر أمرين احتج بهما أهل حروراء:

1– أن علياً حكّم الرجال في أمر الله، وهو الأمر بقتال الفئة الباغية، أي معاوية وأصحابه.

2– أنه محا اسم الإمارة عن نفسه عند كتابة وثيقة التحكيم.

3– وتضيف بعض هذه الروايات إليهما أمراً ثالثاً، وهو أن الإمام علياً لم يغنم ولم يسبِ.

4– وتنفرد رواية بالقول إن من جملة مآخذ معارضي التحكيم على الإمام علي تخليه عن المطالبة بحقه الذي أوصاه به الرسول صلى الله عليه وسلم – حسب زعم الرواية – وهو تسلم الخلافة من بعده.

ولا يخفي أن الصبغة الشيعية بادية على الأمر الرابع؛ إذ لا يفيد أي مصدر البتة تبنّي أهل حروراء فكرة وصاية الرسول صلى الله عليه وسلم للإمام علي بالخلافة بعده، فكيف تكون مبدءاً من مبادئهم، بل كان من أول ما أعلنوه أن "الأمر شورى" وهي فكرة لا تتفق مع فكرة الوصاية.

كما أن الخلاف بين الإمام علي وأهل حروراء نبع من قبوله التحكيم. بالإضافة إلى أنه كان على سدة الخلافة يومئذ، فلا أساس –إذن– لنسبة هذا الاحتجاج إلى أهل حروراء، مما يغني عن ذكر نقضه من قبل ابن عباس.

أما الأمر الثالث فيبدو أنه لا علاقة له بمنكري التحكيم أيضاً، فإن هذا الاحتجاج إنما طرحه أصحاب علي بعد معركة الجمل، حين توقعوا أن يكون السبي والغنيمة نتيجة للنصر، وجواب ابن عباس في هذه الروايات بقوله: "أتسْبُون أمكم عائشة أم تستحلون منها ما تستحلون من غيرها" يؤكد ذلك، إذ لا يد للسيدة عائشة في معركة صفين. يضاف إلى ذلك أن أهل حروراء اتخذوا موقفهم بناءً على عدم مواصلة القتال، ولم تنته معركة صفين بتغلب الإمام علي وأصحابه حتى يتسنى توقع الغنيمة والسبي، على أن سؤال أصحاب علي عن الغنيمة والسبي إثر معركة الجمل يمنع من تكرره فيما بعد لا سيما أن الذين قاتلوا مع علي في الجمل هم الذين قاتلوا معه في صفين، والذين اعتزلوا

إلى حروراء كانوا من ذلك الجيش. فضلاً عن خلو الروايات الأخرى من ذكر هذا الاحتجاج.

أما الأمران الأولان فقد أجاب عنهما ابن عباس بما يلي:

1- أن الله تعالى أجاز تحكيم رجلين في الشقاق بين الزوجين في قوله سبحانه: (وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها)، وفي صيد الحرم: (يحكم به ذوا عدل منكم).

2- أن محو اسم الإمارة عن الإمام علي لا يخلعه منها اقتداء بما فعله النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية حين رفض المشركون كتابة اسم الرسالة للنبي صلى الله عليه وسلم في وثيقة الصلح، فمحاه.

وإلى هنا تتوقف بعض الروايات لتخلص من ذلك إلى أن قسماً من أهل حروراء رجعوا إلى الكوفة تائبين. بيد أن القسم الآخر من الروايات يبين أن أهل حروراء نقضوا على ابن عباس ردوده تلك بما يلي:

أن ما جعل الله حكمه إلى العباد فلهم ذلك، وأما ما حكم الله فيه فليس لهم أن ينظروا فيه، فقد حكم في الزاني مائة جلدة وفي السارق بقطع يده فليس للعباد أن ينظروا في ذلك، وقد أمضى الله حكمه في معاوية وأصحابه أن يقاتلوا حتى يرجعوا وقد دُعوا إلى حكم الكتاب قبل الحرب فأبوه. كما أن الحَكَمَ من شرطه أن يكون عدلاً، وليس عمرو ابن العاص -بناء على سفكه دماء أصحاب علي- عدلاً، كما أن أبا موسى كان يثبط الناس عن علي.

أما ما يتعلق بمحو اسم الإمارة فقد أكد أهل حروراء كلام الأحنف بن قيس لعلي في صفين: "خشيت ألا يرجع إليك أبداً إنه ليس لكم ما لرسوله صلى الله عليه وسلم" بأن أمر الموادعة في الحديبية كان فترة مرحلية نقل عنها النبي صلى الله عليه وسلم فيما

بعد، فما جرى في الصلح كان لهذا السبب "وقد قطع الله عز وجل الاستفاضة والموادعة بين المسلمين وأهل الحرب منذ نزلت براءة".

وبناء على كل ما تقدم يتضح أن ما ينسب إلى ابن عباس من تغلبه على أهل حروراء أمر بعيد. وهذا الذي ذهب إليه ابن أبي الحديد، لكنه زعم أن السبب في ذلك مخالفة عبدالله بن عباس وصية علي له بألا يخاصمهم بالقرآن وأن يخاصمهم بالسنة، يقول ابن أبي الحديد: "فإن قلت: فهل حاجهم بوصيته؟ قلت: لا، بل حاجهم بالقرآن، مثل قوله: (فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها)، وقوله في صيد المحرم (يحكم به ذوا عدل منكم)، ولذلك لم يرجعوا والتحمت الحرب وإنما رجع باحتجاجه نفر منهم".

وهذا كلام غريب، لا سيما صدوره من معتزلي يشيد بالعقل، لأن الطريقة التي أريد أن يجري بها التحكيم وشرعية التحكيم نفسها مأخوذتان من هاتين الآيتين وأمثالهما. قد مضى كلام معاوية إثر رفع المصاحف: "لنرجع نحن وأنتم إلى ما أمر الله به في كتابه، تبعثون منكم رجلاً ترضون به ونبعث منا رجلاً...". "[258] اهـ

تفسير قتل الإمام علي

كذلك يرفض الإباضية نسبة قتل الإمام علي إلى أهل النهروان، ويرون أن ذلك كان فعلا فرديا من الثلاثة الذين اتفقوا على القيام بهذا الجرم، أو أنه كان من تدبير الأشعث بن قيس الكندي، وفي هذا يقول الأستاذ ناصر السابعي: "إن اتهام المحكّمة بمقتل الإمام علي يعتوره شكوك جمة ويحيط به إشكالات عديدة نتبينها من خلال طرح الأمور التالية (...) ويبدو على فرض ثبوت صلة عبدالرحمن بأهل النهروان أن عمله هذا عمل مستقل محتاج إلى قرينة قوية تثبت تواطؤهم عليه. ومن المريب أن نجد موقفين لمن ينسب إلى

---

[258] ناصر بن سليمان بن سعيد السابعي الخوارج والحقيقة الغائبة.

الخوارج نسبة تاريخية يفيدان قطع حبل الوصل بينهم وبين ما فعله عبدالرحمن بن ملجم. أما الموقف الأول فكلام المسعودي: "وكثير من الخوارج لا يتولى ابن ملجم لقتله إياه غيلة" يعني لقتله علياً. وهذا يعني أن قتل الإمام علي غير مرضي عند كثير من المحكّمة، ولئن جاز أن تعني هذه العبارة رضا المحكّمة أو الخوارج عن قتل ابن ملجم الإمام علياً أن لو لم يقتله غيلة فإن الموقف الثاني لا يؤيد ذلك وهو مقولة أبي سفيان محبوب بن الرحيل القرشي –من كبار علماء الإباضية في أواخر القرن الثاني الهجري– حين سئل عن عبد الرحمن بن ملجم قال: "ما سمعت أحداً يمدحه ولا يذمه، وما بلغني فيه شيء" قيل: ولعل ذلك من قبل الغيلة؟ قال: لا. (...) ويقول الأستاذ أحمد السيابي: "عبد الرحمن بن ملجم شخص أقحم في المحكّمة أو أهل النهروان إقحاماً وزج به في أوساطهم زجّاً مع أنه مجهول في صفوفهم ... وقول هذا الإمام الجليل: "لم أجد من أصحابنا من يمدحه" لأنه ليس منهم ولا متصل بهم "ولا من يذمه" لترفعهم وتنزههم عن السب والشتم"."[259] اهـ

فهذا يوضح أن الإباضية تبرأ من هذه الجريمة الشنعاء، التي أدخلت الأمة في فتن كقطع الليل المظلم والتي لا تزال تعاني منها حتى الآن! ولكن الناظر في الروايات الواردة في هذا الشأن يجد أن بعضها يصرح أنهم كانوا من أهل النهروان، فلقد وردت رواية في تاريخ الطبري تقول: "أن ابن ملجم والبرك بن عبدالله وعمرو بن بكر التميمي اجتمعوا فتذاكروا أمر الناس وعابوا على ولاتهم، ثمّ ذكروا أهل النهر فترحموا عليهم، وقالوا ما نصنع بالبقاء بعدهم شيئاً، إخواننا الذين كانوا دعاة الناس لعبادة ربهم (...) فقال ابن ملجم: أنا أكفيكم علي بن أبي طالب (...) وقال البرك بن عبدالله: أنا أكفيكم معاوية بن أبي سفيان، وقال عمرو بن بكر: أنا أكفيكم عمرو بن العاص". اهـ

فهذه الرواية –بصرف النظر عن صحتها– تصرح بأنهم كانوا منهم! فكيف يرى الإباضية هذا القول؟ يرى الإباضية أنه بفرض صحة الرواية، فإنه قد وردت بعض الروايات تقول

---

[259] المرجع السابق.

"أن نفرا اجتمعوا"، ولم تذكر أنهم من أهل النهروان أو ما شابه، ولكن حتى لو سُلّم بأنهم من أهل النهروان، فهم يرون أن هذا فعل فردي منهم، لم يأمر به كبار القوم، فإذا حدث وتطرف بعض أفراد فرقة لا ينبغي أن يُحمّل الذنب للفرقة كاملة.

وهناك التوجه الآخر في تفسير عملية اغتيال الإمام علي وهو الذي ذكرناه أنه كان من تدبير الأشعث بن قيس، ويعلق على هذه النقطة الأستاذ ناصر السابعي قائلا: "إن استعراض تاريخ الأشعث بن قيس الكندي يبرهن على أنه لم يكن مخلصاً لعلي، وأن شكوكاً كثيرة تحوم حول صدق نواياه تجاهه، بل "إن ماضيه لم يكن مشرّفاً"، فقد ارتد مع من ارتد في خلافة أبي بكر الصديق ثم عاود الإسلام. ورغم ذلك فقد ندم أبو بكر –بعد حين– على أنه لم يقتل الأشعث فقال: "وددت يوم أتيت بالأشعث بن قيس ضربت عنقه، فإنه يخيل إلي أنه لا يرى شرّاً إلا سعى فيه وأعان عليه".

ولعل مما أثار حفيظة الأشعث على علي، أنه عزله عن أذربيجان بعدما ولاه إياها عثمان بن عفان، وقد جاء أن علياً قال له في كتاب عزله: "إنما غرك من نفسك إملاء الله لك، فما زلت تأكل من رزقه وتستمتع بنعمه وتذهب طيباتك في أيام حياتك، فأقبل واحمل ما قبلك من الفيء ولا تجعل على نفسك سبيلاً. وهذا الذي دفع بالأشعث –كما يروى– أن يكاتب معاوية... وبذلك يكون الأشعث قد بدأ حياته مع علي بداية غير ودية ولا مخلصة فكان يتربص به الدوائر ويتحين الفرص لينتقم منه وقد فعل.

ومنذ صفين نشاهد للأشعث دوراً فعالاً ووجوداً ملحوظاً، ومن ذلك:

1– إصراره على وقف القتال.

2– إصراره على اختيار أبي موسى.

3– عرضه صحيفة التحكيم على القبائل في جيش علي.

4– إلحاحه على علي بالتراجع عن وعده أهل حروراء بعدم إنفاذ أبي موسى إلى أذرح.

5– إلحاحه على علي في النخيلة بالانعطاف إلى أهل النهروان بدلاً من أهل الشام وذلك بعد ظهور نتيجة التحكيم.

6- تخذيله أصحاب علي بعد النهروان عن نصرته لحرب أهل الشام.

وإذن لا غرابة في أن يقول ابن أبي الحديد: "كل فساد كان في خلافة علي عليه السلام وكل اضطراب حدث فأصله الأشعث"، وأن يعد الشهرستاني الأشعث "من أشدهم خروجاً عليه ومروقاً من الدين"."[260] اهـ

وهناك ثمة روايات تؤكد هذا التوجه، فمن هذا ما رواه أبو الفرج الأصفهاني في مقاتل الطالبيين: "وقد كان ابن ملجم أتى الأشعث بن قيس في هذه اللَّيلة فخلا به في بعض نواحي المسجد، ومرَّ بها حجر بن عدي، وسمع الأشعث وهو يقول لابن ملجم: «النجاء النجاء بحاجتك فقد ضحك الصبح، قال له حجر: قتلته يا أعوروخرج مبادرا إلى علي، وقد سبقه ابن ملجم فضربه فأقبل حجر والناس يقولون: قتل أمير المؤمنين"

وما ذكره ابن أبي الدنيا في كتابه: مقتل أمير المؤمنين عليه السلام: "حدثنا الحسين، قال: حدثنا عبد الله، قال: حدثني عبد الله بن يونس بن بكير، قال: حدثني أبي عن عبدالغفار بن القاسم الانصاري، قال: سمعت غير واحد يذكر أن ابن ملجم بات عند الاشعث بن قيس، فلما أسحر جعل يقول له، اصبحت، وكان حجر مؤذنهم، فخرج حجر وأذّن، فلم يكن أسرع من أن سمع الواعية، فجعل حجر ينادي فوق المنارة: قتله الاعور -وكان الرجل أعور- وكان علي يسميه عرف النار" اهـ

فتبعا لهذه الروايات يمكن القول إن الأشعث بن قيس الكندي كان هو وراء مقتل الإمام علي! وحتى إذا لم يكنه، فإن هذا يلقي بظلال كثيفة على مسألة ضلوع الخوارج في اغتيال الإمام علي رضي الله عنه. كذلك يعترض الإباضية على مسألة استعراض أهل النهروان للناس وقتلهم بسبب عقائدهم ويرون أن هذا المسلك كان من فرقة من الخوارج وهم الأزارقة -أتباع نافع بن الأزرق-، والصفرية -أصحاب زيد بن الأصفر- وليس من كل أهل النهروان، وأن أهل النهروان تبرأوا منهم ومن سلوكهم. ويرون أن هذا

[260] المرجع السابق.

الخروج لهذه الفرقة مسجل في التاريخ، ويعلق الأستاذ علي الحجري بعد استعراضه لرواية طويلة في تاريخ الخوارج قائلا: "... من رواية ابن أبي شيبة وأبي يعلى يظهر لنا أن هناك فرقة انفصلت عن أهل النهروان فأخذت تهدّ الناس قتلاً، فما كان من أهل النهر إلا أن نابذوهم ودعوا عليهم بالويل. ويتضح ذلك من قول الراوي: ".. فافترقت منهم فرقة فجعلوا يهدون الناس قتلاً قال لهم أصحابهم ويلكم ما على هذا فارقنا علياً.. "، وهذه الفرقة هي التي يقصدها الإمام علي –كرم الله وجهه– بقوله: ".. ما ترون أنسير إلى أهل الشام أم نرجع إلى هؤلاء الذين خلفوا إلى ذراريكم قالوا بل نرجع إليهم..".[261]

أما لماذا ظهر هذا الاتجاه من الأزارقة والصفرية فيرون أن هذا كان ردة فعل للأحداث التي ظهرت على الساحة –ولا يعني هذا تبرأة الأزارقة أو الصفرية، ولكن يمكن أن تفهم كتطرف ناتج عن تطرف، ولقد رأينا هذا في العصر الحديث، فبسبب تطرف السلطة ظهرت جماعات التكفير والهجرة في الستينيات!–، والتي أدت إلى وقوع مجزرة الصحابة بالنهروان، تمَّ تتبع من بقي من الناس الذين يمتون إلى هؤلاء فكراً، في كلِّ أرض لإبادتهم، وتزعمت هذه الحملة بطبيعة الحال الدولةُ التي خرج ضدها هؤلاء وللقارئ أن يقرأ أفعال زياد بن أبيه فيهم؛ ويكفي أنه كان يصلب نسائهم عرايا، فكانت هنالك ردة فعلٍ مُجْرمةٍ لدى بعض هؤلاء فأفتوا بشرك مخالفيهم؛ فاستحلوا دماءهم وأموالهم وحرَّموا مناكحتهم، كالنجدية أتباع نجدة بن عامر الحنفي أهل اليمامة، والأزارقة، والصفرية، فما كان من بقية أهل النهروان إلا أن أعلنوا البراءة منهم، وهذا سرُّ تسمية هؤلاء البغاة للإباضية بالقَعَدَة، أي أنهم قعدوا عمَّا سوَّلته لهم أنفسهم بأنه جهاد. وهذا يوضح أن الإباضية ليسوا من الخوارج.

كما أن التاريخ يثبت أن قادة الإباضية كانوا غير راضين عما يقوم به "الخوارج"، ومن ذلك ما رُوي في تاريخ الطبري عن أبي بلال –أحد الأئمة الثلاث الكبار للإباضية– لما وقعت حادثة قريب بن مرة الأزدي الإيادي وزحاف بن زحر الطائي وكانا ابني خالة، فقتلا

[261] علي بن محمد بن عامر الحجري، الإباضية ومنهجية البحث عند المؤرخين وأصحاب المقالات.

رجالاً، فقال أبو بلال: "قريب لا قربه الله من كل خير وزحاف لا عفا الله عنه، لقد ركباها عشواء مظلمة" أي: لاستعراضهما الناس. وفي رواية: "قريب لا قربه الله، وايم الله لأن أقع من السماء أحب إلي من أن أصنع ما صنع".

أما حادثة قتل عبد الله بن خباب بن الأرت الشهيرة والتي تنسب إلى الخوارج –وإلى الإباضية تباعا–، فهم يرون أنه على فرض صدورها من الخوارج فإنها مسلك غير مقبول منهم، وأهل النهروان تبرأوا من الخوارج المنحرفين عن النهج القويم، وفاعلوا هذه الفعلة من المتطرفين المغالين منهم، بل إن الإمام الأشعري أورد بعض الروايات التي تصرح أن عبدالله بن وهب الراسبي –القائد الذي بايعه أهل النهروان بعد خلع علي لنفسه من الخلافة– وأصحابه لم يكونوا راضين عن مقتل عبدالله بن خباب بن الأرت.

كما يعترض الإباضية على مسألة نسبة التكفير إلى أهل النهروان ويرون أن هذه النسبة غير صحيحة، وأنها مدسوسة عليهم. وعلى فرض صحة هذه النسبة فهم يأولونها بمعنى كفر النعمة والمعصية الكبري وما شابه. –وأرجوا أن يتذكر القارئ ما قلناه عند حديثنا عن التكفير عند الطوائف الإسلامية عموما وعند الشيعة خصوصا!– وفي هذا يقول الشيخ علي يحيي معمر: "والواقع أنَّ كلمات الكفر والإيمان والنفاق، والعصيان والشرك، والكبيرة والإسلام، من المباحث اللغويَّة والمصطلحات الشرعيَّة أو الحقائق الشرعيَّة التي تناولتها أقلام أكثر علماء الإسلام واختلفت أنظارهم فيها حينًا واتَّفقت حيناً آخر، وطال فيها الجدال حتَّى بلغ حدَّ المراء في بعض الأوقات، وللإباضيَّة في هذه المواضيع مفاهيم كما لغيرهم، والذي ساعدهم أن يطلقوا كلمة كافر على آكل الرشوة من الإباضية ومن غيرهم هو قول الرسول(ص): «الرشوة في الحكم كفر وعلى من أتى كاهنًا أو عرَّافًا فصدَّقه قوله(ص): «من أتى كاهنا أو عرَّافا فصدَّقه فيما قال فقد كفر بما أنزل على محمَّد"وعلى من تهاون بصلاة، قوله(ص): «من ترك الصلاة كفر»، وعلى من وجب عليه الحجُّ فلم يؤدِّه، قوله تبارك وتعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾] سورة آل

عمران ,٩٧[وعلى من يتعامل بالربا قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾] سورة البقرة ,٢٧٦[إلى كثير من هذه النصوص التي وردت بهذا المعنى والتي إذا أمكن تأويل بعضها بالشرك أو الردَّة فإنَّ بعضها الآخر لا يمكن تأويله إلاَّ على كفر النعمة الذي هو بمعنى العصيان أو الفسوق، أو ما يطلق عليه أصحاب الحديث: «كفر دون الكفر»."[262]

الأحاديث الواردة في الخوارج

وتبقى النقطة الأخيرة وهي مسألة الأحاديث الواردة في الخوارج، فلقد وردت بعض الأحاديث التي تكلمت عن مروق طائفة من الدين، وعن قوم من الزهاد والعباد يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، مثل ما رواه الإمام البخاري ومسلم: "عن أبي سعيد الخدري أنه قال سمعت رسول الله(ص) يقول: يخرج فيكم قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم وعملكم مع عملهم ويقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر في النصل فلا يرى شيئا وينظر في القدح فلا يرى شيئا وينظر في الريش فلا يرى شيئا ويتمارى في الفوق".

كما أخرج هذه الرواية أيضا الإمام الربيع بن حبيب –الإباضي– في مسنده! ومثل ما رواه الإمام البخاري: "أن أبا سعيد الخدري قال بينما نحن عند رسول الله(ص) وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم فقال يا رسول الله اعدل فقال ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل قد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه! فقال: دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى رصافه فما يوجد

[262] على يحيي معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية.

فيه شيء ثم ينظر إلى نضيه –وهو قدحه– فلا يوجد فيه شيء ثم ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس. قال أبو سعيد:فأشهد أني سمعت هذا الحديث من رسول الله(ص) وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي(ص) الذي نعته".

وما رواه الإمام البخاري: "حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان عن الأعمش عن خيثمة عن سويد بن غفلة قال قال علي إذا حدثتكم عن رسول الله(ص) فلأن أخر من السماء أحب إلي من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإن الحرب خدعة سمعت رسول الله(ص) يقول: يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لا يجاوز إيمانهم حناجرهم فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإن قتلهم أجر لمن قتلهم يوم القيامة."

فما هو موقف الإباضية من هذه الأحاديث؟ هل يردونها أم يقبلونها أم يأولونها؟ نظرا لأن هذه الأحاديث أسقطت إسقاطا على الخوارج بجميع طوائفها، وعلى الرغم من قناعتي التامة بأن هذه الأحاديث كلها وضعت لتبرر عملية الإجتثات والإستئصال التي قامت بها الدولة الأموية ضد مخالفيها من خوارج وخلافهم من الخارجين عليها، إلا أنهم لم يقوموا برد الأحاديث الواردة في هذا الشأن بل تأولها بعضهم وفصل بعضهم فيها، وقبل أن نذكر تعليقاتهم على الأحاديث نذكر تعليقاتنا نحن حولها:

نجد في هذه الروايات الثلاثة التي إخترتها ثلاثة اختلافات، ففي رواية يقول "يخرج فيكم قوم"، وفي رواية يقول: "أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم،... آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر ويخرجون على حين فرقة من الناس"، وفي رواية يقول: "يأتي في آخر الزمان". فيخرج المرء من الروايات: أن القوم سيخرجون في حياة الصحابة، وأنهم على الرغم من كونهم من بني تميم –أصحاب الرجل– وعلى الرغم من كونهم أصحاب عبادة فإن آيتهم رجل صفته كذا وكذا! ما

فائدة هذا الحديث؟ هل يأمر الرسول(ص) أن يسألوا الناس قبل أن يقاتلوهم: هل فيكم رجل صفته كذا وكذا؟! أم يقاتلونهم ويقتلونهم -على الرغم من أنهم مسلمون- ثم يبحثون بعد ذلك عن الرجل؟! ونخرج أيضا من الروايات بأن آخر الزمان سيكون في أيام الصحابة! بدليل استدلال علي بن أبي طالب بالحديث على مقاتلته لهم -هذا إذا كان هذا الكلام صدر منه!-، مع ملاحظة أن أحاديث "آخر الزمان" لا يصح فيها شيء!

هذا ويمكننا إذا قبلنا حديث الإمام علي وأنهم في آخر الزمان وأخذنا بعض الروايات الواردة عند الإمام البخاري والتي فيها: "سيماهم التحليق"، فمن الممكن إسقاط هذه الأحاديث على فرقة الوهابية، وهذا ما قاله بعض العلماء! فمن المعلوم أنه لم يكن من سيما الخوارج التحليق، وأن التحليق كان مختصا بالوهابية، حتى أنه قد روي أنهم كانوا يأمرون النساء بالتحليق كذلك!

نعود إلى ردود شيوخ الإباضية حول هذه الروايات، لنر ماذا يقولون حولها: الشيخ يحيي علي معمر يقول معلقا على هذه الروايات: "وبناء على هذا فإن أحاديث المروق -إذا صحت- لايكون المقصود منها إلا أصحاب الثورة الأولى، أولئك الذين خرجوا على خلافة أبي بكر منكرين للشريعة أو لأصل من أصولها، فإن هؤلاء يستطيع الباحث أن يطلق عليهم كلمة الخوارج، وهو يقصد بهذه الكلمة معنييها السياسي والديني وهو مطمئن، لخروجهم عن خلافة مجمع عليها، وإنكارهم للإسلام جملة بعدما أمنوا به، أو تكذيبهم بركن ثابت بالكتاب والسنة والإجماع، إنكارا إستحقوا به أن يحاربهم خليفة رسول الله الأول حربا لاهوادة فيها، مصداقا لقوله عليه السلام: [لإن أدركتهم لأقتلنهم قتل ثمود] -إن صح الحديث- وقد قتلهم خليفته رضي الله عنه قتل ثمود تحقيقا لخبره عليه السلام.

ويظهر من سياق الحوادث أن هذه الأحاديث التي تتحدث عن الخوارج، لم تكن معروفة عند حدوث الثورات الأولى، وإلا فكيف أمكن أن لاتدور على الألسنة، وأن

لايوصف بها الخارجون عن الخلافة في زمن أبي بكر وعثمان وعلي، ولا الخارجون عن الدين في زمن الصديق؟ لماذا تبقى محفوظة لايستفيد منها أنصار الخلافة أو خصومها في أربع ثورات جامحة ذهب ضحيتها عدد غير قليل من المسلمين الأبطال. إن دل على شيء فإنما يدل على أن هذه الأحداث لم تكن معروفة عند وقوع هذه الثورات، وإنها إنما وضعت بعد ذلك قصدا للتشنيع على أهل النهروان، ولحمل علي على قتالهم والقضاء عليهم، خوفا من أن يتحرج علي من دمائهم، ويتردد في قتالهم، ويفكر تفكيرا منطقيا في أنه قد يكون لهؤلاء حق، ولرأيهم سند."[263]

ويساند المنطق الشيخ يحيي معمر في ملاحظته عدم ظهور هذه الأحاديث إلا بعد ظهور الخوارج وعدم ظهورها قبل ذلك، فلماذا لم تظهر فعلا إلا في هذا الوقت؟! ولكن يخالفه الواقع في إسقاط هذه الأحاديث عليهم، فمن ألف هذه الأحاديث استحضر الوصف الفعلي للخوارج وهو كثرة العبادة وقراءة القرآن وهذا لم يكن متحققا في المرتدين بعد وفاة الرسول المصطفى، بل كانوا حديثي عهد بالإسلام وسرعان ما ارتدوا عنه، –وإذا شئنا الدقة لم يقبلوا أن يدفعوا الزكاة، فليس كل القبائل ارتدت!–. إذا يؤخذ من تعليق الشيخ يحيي جزء وهو عدم ظهور هذه الأحاديث إلا بعد ظهور الخوارج، ويرد عليه قوله أنه من الممكن إسقاطها على المرتدين بعد الرسول!

وهناك من قال إن المقصود بالخوارج في زمن الصحابة لم يكن فقط الخوارج ولكن استعمل اللفظ في كل من خرج على السلطة ومن ذلك ما رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين: عن "عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال له ولابنه علي: انطلقا إلى أبي سعيد فاسمعا منه حديثه في شأن الخوارج! فانطلقا فإذا هو في حائط له يصلح، فلما رآنا أخذ رداءه ثم احتبى ثم أنشأ يحدثنا حتى علا ذكره في المسجد فقال كنا نحمل لبنة لبنة وعمار يحمل لبنتين لبنتين فرآه النبي(ص) فجعل ينفض التراب عن رأسه ويقول يا عمار ألا تحمل لبنة لبنة كما يحمل أصحابك قال إني

[263] على يحيي معمر، الإباضية في موكب التاريخ.

أريد الأجر عند الله قال فجعل ينفض ويقول ويح عمار تقتله الفئة الباغية قال ويقول عمار: أعوذ بالله من الفتن". من هذه الرواية تدرك عزيزي القارئ أن ابن عباس وأبا سعيد الخدري فسر "الخوارج" بالفئة الباغية صاحبة الفتنة والتي قتلت الصحابي الجليل عمار بن ياسر. ومن المعلوم أن عمار بن ياسر –رضي الله عنهما– قتل في حرب صفين. ومن المعلوم أن أبا سعيد الخدري روى بعضا من الأحاديث في مسألة الخارجين هذه، ذكرنا نحن منها اثنين، فلم لا يحمل ما رواه في الروايتين على ما قاله بعد ذلك عند حديثه عن الفئة الباغية التي سماها بالخوارج وهي التي خرجت على الإمام علي رضي الله عنه؟!

ولقد فصّل الدكتور ناصر السابعي في الأحاديث فقال فيها: "–حديث المروق حديث صحيح ثبت عن عشر طرق عن الصحابة. يمكن أن يحمل حديث المروق على الخوارج الذين ظهروا بعد عام أربعة وستين من الهجرة، وذلك لانطباقه على صفاتهم المتمثلة في كثرة العبادة مع الانحراف في توجيه بعض الآيات والنصوص الشرعية المتعلقة بالمشركين بجعلها متوجهة إلى أهل القبلة، فيرتب عليه استباحة القتل مصداقاً لقوله صلى الله عليه وسلم في بعض ألفاظ هذا الحديث: "يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان". وينسحب هذا الحكم على كل من يتبنى الفكر الخارجي قديماً وحديثاً.

حديث المخدج لا يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو زيادة شاذة.

حديث شيطان الردهة حديث منكر. حديث المتعبد حديث ضعيف.

حديث الإمام علي: "لقد علمت عائشة بنت أبي بكر أن أهل النهروان ملعونون على لسان محمد صلى الله عليه وسلم" حديث ضعيف.

حديث الإمام علي: "أمرت بقتال الناكثين والقاسطين والمارقين" حديث موضوع.

حديث "تمرق مارقة عند فرقة من المسلمين يقتلها أولى الطائفتين بالحق" صحت بعض أسانيده، لكنه غير صريح في قومٍ مخصوصين. وأما إن حُمِل على أهل النهروان فلا

يصح بالزيادة، والصحيح منه بلفظ "لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة".

حديث "الخوارج كلاب النار" لا يصح رفعه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والأقرب أنه موقوف على أبي أمامة الباهلي صُدَيّ بن عَجْلان." اهـ[264]

هذا هو موقف الإباضية من الأحاديث الواردة في هذا الشأن، موقف من يأخذ الروايات بالفحص والتدقيق، وليس من يأخذها ككل، وهذا هو المنتظر، فالأمر له علاقة بهم، وكل ما تعلق بالمرء تفرغ له وفصّل فيه. أما نحن فليس فيه ناقة ولا جمل فأخذنا الروايات الواردة ككل وقبلناها بدون تدقيق ولا شديد بحث! وليس من قرأ كمن بحث!

وفي نهاية هذا المبحث نخرج بأن نقاط الإشتراك بين الإباضية والخوارج هي قولهم بصحة موقف أهل النهروان وعدم اشتراط قرشية الخلافة وجواز الخروج على الحاكم الظالم، أما ما بخلاف ذلك فلا يوافقونهم في شيء فيها، بل ينكرون عليهم أشد النكير فيها.

موقف الإباضية من الصحابة

بعد أن انتهينا من الحديث عن تلك العقيدة التاريخية! ووضحنا وجهة نظر الإباضية فيها، وكيف يرون تلك المرحلة التاريخية، نعرض رأيهم في الصحابة لأن هذه المسألة مرتبطة بتلك، فكلها عقائد تاريخية! كفرقة لا بد أن تختلف الآراء إلا حد ما، لذلك سنجد أن لهم في الصحابة ثلاثة أقوال:

1- الصحابة كلهم عدول إلا من فسقه القرآن كالوليد بن عقبة و ثعلبة بن حاطب! –اعتمادا على ما ورد في الروايات في أسباب نزول الآيات!!–.

---

[264] ناصر بن سليمان بن سعيد السابعي، الخوارج والحقيقة الغائبة

2- الصحابة كلهم عدول ورواياتهم مقبولة إلا في الاحاديث المتعلقة بالفتن ممن خاض في الفتن.

3- الصحابة كغيرهم من الناس، من اشتهر بالعدالة فكذلك، ومن لم يعرف حاله بحث عنه! وفي ذلك يقول السالمي:

أما الصحابي فقيل عدل وقيل مثل غيره والفصل

إنه عدل الى حين الفتن وبعدها كغيره فليمتدح

كذلك يقول الإمام أبوالعباس الدرجيني في كتابه الطبقات: «الطبقة الأولى هم أصحاب رسول الله، وأفضليتهم أشهر، وأسماؤهم ومزاياهم أظهر، فلا يحتاج إلى تسميتهم، لأنَّهم رضوان الله عليهم تحصل من سيرهم وأخبارهم في الدواوين، ومن آثارهم محفوظًا في صدور الراوين، ما أغنى عن تكلف تصنيف، وانتحال تأليف، وحسبهم ما قال رسول الله: "لا يشقى من رآني"، وقوله: "أفضل أمتي قرني ثُمَّ الذين يلونهم ثُمَّ الذين يلونهم" وأحاديث كثيرة في فضائلهم، فإذا ثبت هذا فاعلم أنَّ من الصحابة من لم يخالفنا في تقدمهم مخالف، فقد امتلأت بذكر فضائلهم الصحائف، ومنهم من لم ينل حظًّا من الانصاف عند أهل الخلاف، وهم عندنا في جملة الأكابر والأسلاف». ويقول أبو الربيع سليمان الحيلاتي: "وأما الانكار على بعض الصحابة فكذب وفرية علينا، وهذه كيفيَّة صلاتنا على النبي: اللهمَّ صل وسلم على سيدنا ومحمد النبيء الأمي وعلى آله وأصحابه وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته وآل بيته أجمعين، كما صلَّيت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين إنَّك حميد مجيد. فمن حسنت شيمته، وسلم من داء الحسد والبغض والغيبة، وإذا تأمل هذه العبارة، وفهم معناها، يجدها شاملة لكلّ صاحب وآل وزوجة وذرية قريبة أو بعيدة اتباعاً لقوله تعالى: ﴿... قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ... ﴿٢٣﴾﴾] سورة الشورى ,٢٣[والمودَّة الصلاة والترحّم، ونحن -والحمد لله- وفينا بما أمرنا الله به، والجهال المتشدقون عسى الله أنْ يرحمنا ويكفينا شرهم، وشرَّ أنفسنا، وشرّ القوم الظالمين". اهـ

هذا هو موقفهم من الصحابة، وهو موقف معتدل ومنطقي جدا، وقريب من موقف أهل السنة منهم، فلا يحتاج إلى أي تعليق!

موقف الإباضية من السلطان

نظرا لأن كثيرا من الكُتّاب أكثروا من القول إن الإباضية يوجبون الخروج على الحاكم الظالم مهما كلف ذلك الأمر من تضحيات ومخاطر، فنوضح موقف الإباضية من مسألة الإمامة بشكل عام.

أول شيء نلاحظه في هذه المسألة هو أن الإباضية مثل كل الفرق الإسلامية تقريبا قالت بوجوب إقامة الإمامة،وفي ذلك يقول العلامة نور الدين السالمي في شرحه على مسند الإمام الحافظ الربيع بن حبيب ما يلي: "والإمامة فرض بالكتاب والسنة والاجماع والاستدلال".

فإذا نحن انتقلنا إلى شروطها عندهم، وجدنا أن الإباضية في هذه المسألة قالت بقول تحسد عليه ويحسب لها –وللخوارج!– وهو قولهم بعدم اشتراط أي نسب أو منزلة للإمام، فلم تقل بقرشية الإمامة كما قال أهل السنة، استنادا إلى الأحاديث التي وردت عندهم، مثل ما روي عن النبي(ص) "الأئمة من قريش"[265]، أو أنها في أهل البيت تبعا لما روي عند الشيعة أن الإمامة في أهل البيت، وإنما قالت بصلاحيتها لكل مسلم يصلح لتولي هذه المسألة العظمى، وفي هذا يقول الشيخ علي يحيي معمر:

"وصحيح أنَّ الإباضية لا يشترطون القرشية بصحة الخلافة، وإنَّما تكون القرشيَّة مرجّحا إذا تساوت الكفاءات الأخرى، ولم يكن الإباضية أو الخوارج هم أوَّل من قال بهذا، وإنَّما سبقهم إليه كبار الصحابة عندما ناقشوا أوَّل خليفة في الإسلام. فقد قال بعض

[265] قام العلامة محمد عمراني بتضعيف هذه الأحاديث، فمن يرد المراجعة فليرجع إلى "أحاديث في السياسة لا تصح" له !

الأنصار للمهاجرين: منا أمير ومنكم أمير. فلو كانوا يعرفون أنَّه لا يجوز أن يتولّى الإمارة غير قرشي، لما قالوا ذلك. وقال عمر: لو كان سالم مولى حذيفة حيًّا لبايعته. فلو كان غير القرشي لا يصحّ أن يتولّى لما قال عمر ذلك، وقال سيدنا أبو بكر: إنَّ العرب لا تدين إِلاَّ لهذا الحي من قريش.فلعلّ اختيار القرشي في ذلك بطاعة العرب لهم فإذا تغيّر الحال تغير موضع الاختيار، فليس الإباضية أو الخوارج هم الذين قالوا بهذا، بل قال به أصحاب محمَّد"

والعجيب أننا نرى بعض الكتاب من أهل السنة لا يزالون يتكلمون عن قرشية الخلافة! إذا أول نقطة تتفوق فيها الإباضية هي قولهم بتساوي المسلمين جميعا في هذه المسألة! فإذا انتقلنا إلى موقفهم من الحاكم، هل هم يوجبون فعلا الخروج على الحاكم، أم أنه مما نسب إليهم زورا؟!

يقول قطب الأئمة الإمام محمَّد بن يوسف طفيش في غير موضع من كتبه ما يلي: "ونحن بعد لا نقول بالخروج على سلاطين الجور الموحدين، ومن نسب إلينا وجوب الخروج فقد جهل مذهبنا".

إذا فهم يجوزون الخروج على الحاكم الظالم بتفصيل في هذه المسألة من اشتراط عدد في الخارجين وتبعا لطريقة وصول الحاكم إلى سدنة الحكم وحسب سيرة حكمه بين الناس، وكذلك التحقق من عدم وقوع فساد أكبر من فساد الحاكم أو وقوع فتن إلخ الشروط المنثورة في كتب الفقه والتي ليس هذا موضعها، وليست الإباضية فقط من قالوا بجواز الخروج على الحاكم الظالم الباغي وإنما قالت به الزيدية من الشيعة والمعتزلة من أهل السنة، وكل العقلاء في العالم، كما قلنا بشرط عدم وقوع الفتنة والمفاسد –وهذا من المتعثر وقوعه جدا، فالخروج على الحاكم دوما مرتبط بمفاسد وفوضى واضطرابات وقلاقل!–، وعلى هذا فليس رأي الإباضية في هذه المسألة بدعا من القول بل هو قول منطقي متفق مع بعض الفرق الإسلامية الأخرى.

نخرج من هذا كله بأن موقفهم من السلطان والإمامة هو الرأي الراجح بين كل الفرق الإسلامية الأخرى، والذي يتفق مع روح الإسلام ومع تعاليمه العالمية الصالحة لكل زمان ومكان وليس مع ذلك التصور القبلي العائلي الضيق للإسلام!

موقف الإباضية من السنة

من التهم الملصقة بالإباضية اتهام العلماء لهم بأنهم من غير المهتمين بالسنة، ومن التاركين المضيعين لها، فهل هذا القول صحيح أم أنه مجاف للحقيقة؟ وما هو موقفهم من السنة وكيف يتعاملون معها؟

يرفض الإباضية هذه التهمة ويرون أنهم من السابقين الأولين في خدمة السنة والاعتناء بها، ويرون أنهم أول من دون السنن قبل أي فرقة من الفرق الأخرى، وفي هذا يقول الشيخ علي يحيي معمر: "الإباضية اتجهوا إلى خدمة الاسلام علمًا وعملاً منذ ابتدأت الفتنة فاشتغلوا بالتدوين، فكانوا أوَّل من دوَّن الحديث، فإمامنا جابر بن زيد أوَّل من دوَّن الحديث وأقوال الصحابة في ديوانه الذي وصفوه بأَنَّهُ وقر بعير، ثُمَّ تلاميذه من بعده وهم حملة العلم إلى المشرق والمغرب".

ونظرا لأن عملية جمع السنة والتاريخ عمل بشري ولأن الله ورسوله لم يحددا لنا منهجا معينا في تلقي وقبول السنة، كان حتما ولزاما أن تختلف المناهج في قبول ورد الأحاديث، فكما رأينا أن الشيعة لا تقبل الروايات إلا عن طريق أهل البيت، وأن أهل السنة تقبل الأحاديث من أي صحابي كان، لأنهم كلهم عدول، فكذلك سنجد أن الإباضية لهم منهج مختلف في تلقي الأحاديث، لا يتوسع في قبول الأحاديث مثل أهل السنة ولا يضيق الدائرة ويحصرها في أهل البيت كما يفعل الشيعة، ولكنهم بشكل عام مُقلّون من الرواية لاشتراطهم شروطا معينة في قبول الرواية التي تعتبر عندهم صحيحة، ولنر كيف يتعاملون مع السنة: السنة الصحيحة عندهم هي المصدر الثاني للدين

الإسلامي وهي على درجات، منها: المتواتر قطعي الدلالة يفيد العلم ويوجب العمل ومنكره كالمنكر للقرآن، والمشهور من السنَّة أو المستفيض هو أضعف من المتواتر وأقوى من الأحادي وهو يوجب العمل واختلفوا هل حجَّته قطعية أم ظنِّية على قولين. والأحادي من السنَّة ظنِّيُّ الدلالة يوجب العمل والمرسل وإن كان أضعف من الأحادي إلاَّ أنَّه يوجب العمل إذا كان لصحابيٍّ أو تابعيٍّ. وبذلك نرى أن تقسمهم للسنة هو تقريبا نفس تقسيمنا لها مع وجود خلافات طفيفة، والاختلاف كل الاختلاف في منهج التلقي والرواية كما أسلفنا.

يرى الإباضية أن نهجهم في الإقلال من الرواية هو الوضع الطبيعي وهو الذي كان سائدا أيام أبي بكر وعمر، أيام الاستقرار، وكانت الرواية مقتصرة على ما عُرف عن النبي(ص) واشتهر! ثم بدأ الإكثار من الرواية في زمن الفتن، ولقد جاءت الروايات التي تؤكد هذا التوجه العام من الخليفة الثاني الفاروق رضي الله عنه، حيث روى الحاكم في المستدرك والدارمي في السنن عن عمر: أقلوا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم. وكما وروى ابن عساكر عن السائب بن يزيد قال: سمعت عمر يقول لأبي هريرة: لتتركن الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو لألحقنك بأرض دوس. وجاء في البداية والنهاية لابن كثير عن أبي هريرة: إني لأحدث أحاديث لو تكلمت بها في زمان عمر لشج رأسي.

ويعلق الأستاذ خالد بن مبارك الوهيبي حول هذه الظاهرة قائلا: "وهذا الإقلال في نظري مرده إلى أمرين:

أولاً: الخشية من اختلاط التطبيق بالتشريع، وخاصة في عملية الرواية التي تتم من غير الفقهاء العارفين بظروف وملابسات الرواية، فتأتي آليات الاقتطاع والحذف والبتر والرواية بالمعنى، لتقدم للأجيال نصاً على أنه نص تشريعي، في حين أنه نص تطبيقي (واقعة حال لا تتعداها، أو تطبيق لنصوص تشريعية أخرى). ومن أمثلة ذلك كثير من المرويات التي صنفت تحت باب الطب النبوي، فكثير منها ليس تشريعاً، إنما هي تعبير

عن جملة المعارف الموجودة في ذلك العصر، وإنما جاءت تطبيقاً لأصل تشريعي وهو وجوب التداوي ومنها قوله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن أبي هريرة: (ما أنزل الله داء إلا أنزل له شفاء).

ثانياً: الخشية من طمر الدلالات القرآنية بروايات هي في حقيقتها تعامل زمني معها، في حين أن دلالات القرآن الكريم على تلك القضايا دلالات منطلقة عبر الزمان والمكان، وهو ما يعبر عنه بعض المعاصرين بخاصية (الاكتناز) أي وجود اكتناز هائل للنص القرآني يستثار عند احتكاك النص القرآني بالواقع، ولذلك كانت نصائح الفاروق عمر –رضي الله عنه– إلى البعوث التي يرسلها إلى الأمصار بأن يقلوا من الرواية ولا يشغلوا الناس عن القرآن، اعتماداً على ما استقر عليه العمل من السنن المعروفة بدلاً من إحداث مرويات مجتزئة عن سياقاتها وملابساتها."[266]

يرى الإباضية بشكل عام أن التفسير الوارد في السنة متاح لكل الناس وليس مقصورا على فئة مخصوصة مثل أهل البيت، الذين يدعي الشيعة في حقهم توارثهم علم الرسول المصطفي –كأن الرسول كان يكتم علما لأهله ويخرج علما للناس، وحاشاه!–، وفي هذا يقول الأستاذ خالد بن مبارك الوهيبي: "رواية عند الترمذي ومسلم وكثير من المحدثين يزعمون إنها بلغت درجة التواتر!!: "تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله حبل ممدود إلى السماء وعترتي أهل بيتي لن يتفرقا حتى يردى علي الحوض". طبعاً يستدل بهذه الرواية على أن هنالك فئة كهنوتية مخولة لتفسير نصوص الشريعة لديها حق إلهي في تفسير نصوص الشريعة، وهذا دليل يقال عنه إنه دليل العصمة، ومفهوم الكهنوتية لا يعرف في كتاب الله عز وجل، كتاب الله عز وجل ناص نصاً صريحاً على أنه ليس هناك عنصر مقدس ﴿... إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ ... ﴿١٣﴾﴾] سورة الحُجُرات ,١٣[ومن حقائق الإسلام الناصعة التي نص عليها من أول ما نزل (من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه). (...) ثم إن الله سبحانه وتعالى أمر برد

---

[266] خالد بن مبارك الوهيبي، مقال كيف نتعامل مع السنة.

الاختلاف إلى كتابه العزيز والثابت المستقر من سنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يقل ارجعوه إلى آل بيت من بيوت العرب أو إلى فئة كهنوتية أو إلى عنصر مقدسٍ تسري في عروقه الدماء الزرقاء. –الفريق الذي يؤمن بمثل هذه الروايات ويعتبرها تأصيلاً أو حجراً أساساً في طريقته يقول: لن يتفرقا حتى يردا علي الحوض، الحقيقة أنهما افترقا (=الكتاب العزيز وهؤلاء) ومن عرفوا بذلك قد أصبحوا في ذاكرة التاريخ، ولم يعد لهم وجود سوى ما يذكر سوى ما يذكر بأنهم لا يزالون في عالم الغيب!.وآل البيت العلوي قد تفرقوا في البلدان وتمذهبوا بمذاهب أهلها فمن مِن هؤلاء الفرقاء المتخاصمين يملكون الحق الإلهي وهم من بيت واحد؟، ثم لماذا خص الحسينيون دون الحسنيين بهذا الحق الإلهي؟ هل نزل وحي بذلك؟ مع أن هذا النص يشملهم جميعاً." اهـ[267]

كما أنهم لا يتعاملون مع السنة من منطلق تجزيئي، يعتمد قبول الرواية منفردة عن إخواتها من الروايات وسيداتها من آيات الكتاب[268]، وإنما يحكم قبول الرواية منهج

---

[267] .المرجع السابق.

[268] هناك رواية واردة عن ابن مسعود، وكان قبول أهل الحديث والفقه لها يستفزني كثيرا لمخالفتها البينة لكتاب الله، ونذكرها هنا كنموذج لقبول الرواية منفردة حتى ولو خالفت القرآن الكريم!، ولقد كفانا الأستاذ خالد الوهيبي التعليق عليها، فننقل تعليقه هو عليها، حيث يقول: ويحضرني في هذا المقام ما رواه الترمذي وغيره من أصحاب السنن عن علقمةَ، عن ابنِ مسعودٍ، أنَّهُ سُئلَ عن رَّجلٍ تزوَّجَ امرأةً ولم يفرضْ لها صداقاً، ولم يدخلْ بها حتىَّ ماتَ. فقال ابنُ مسعود: لها مثلُ صداقِ نسائِها، ولا وكسَ ولا شَطَطَ، وعليها العدَّةُ ولها الميراثُ. فقامَ معقلُ بنُ سنان الأشجعيُّ فقال: قضى رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَليهِ وسلَّم في بروعَ بنتِ واشقٍ، امرأةٍ منَّا، مثلَ ما قضيتَ. ففرحَ بها ابنُ مسعود.

فهذه الرواية كثيراً ما يتداولها المحدثون ويرون فيها (حجة لازمة) في وجوب حكم صداق المثل لمن توفي عنها زوجها ولم يسم لها صداقاً، وكثيراً ما يشنعون على الفقهاء الذين لم يروا في هذه الرواية إلزاماً بهذا الحكم وينقلون عن الْحَاكِمُ فِي المستدرك: سَمِعْت أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدِ بْنِ يَعْقُوبَ يَقُولُ: سَمِعْت الْحَسَنَ بْنَ سُفْيَانَ يَقُولُ: سَمِعْت حَرْمَلَةَ بْنَ يَحْيَى قَالَ: سَمِعْت الشافعي يَقُولُ: إن صح حَدِيثُ بروَعَ بنت واشق قُلْت بِهِ، قَالَ الْحَاكِمُ: فَقَالَ شَيْخُنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: لَوْ حَضَرْت الشافعي لَقُمْت عَلَى رُءُوسِ النَّاسِ وَقُلْت: قَدْ صَحَّ الْحَدِيثُ فَقُلْ بِهِ. مع أن الفقهاء حينما لم يعولوا على هذه الرواية كانوا يأخذون بالحظ الأوفر من النظر، فهم قد عولوا على:

1– عدم اشتهار هذه الرواية بين الصحابة وبالأخص بين فقهائهم كعبد الله بن عباس وابن عمر وعلي بن أبي طالب وغيرهم ممن أفتوا بأنه لا صداق للمرأة في مثل هذه الحالة.

2– بل وحتى ابن مسعود نفسه لم يكن على معرفة بتلك الرواية، وإنما عول على نظره في القضية، وبعد ذلك أخبره معقل بن سنان بقصة بروع بنت واشق.

3– في حين أن مثل هذه القضايا تعم بها البلوى ويحتاج الناس إليها، فينبغي أن تكون أقضية النبي صلى الله عليه وسلم فيها مشتهرة بين الناس، وبخاصة بين فقهاء الصحابة والمشتغلين بالفتوى والقضاء منهم، في حين لا يطلع عليها إلا من هم دون هذه

نقدي استقرائي شمولي، حتى لا يدخل في دين الله ما ليس منه من الخرافات والإسرائيليات، وهذا للأسف ما عانينا ونعاني منه في منهج أهل السنة، فنظرا لقبولهم الروايات من كل صاحب سند وعدم قياسها على القرآن وإرجاعها إليه تسللت الكثير والكثير من الخرافات والإسرائيليات إلى كتب الحديث، نعم علماء الحديث انتقدوا كثيرا منها ولا يزالون ينتقدون، ولكن لا يزالون على نفس النهج سائرين وهو النقد السندي وليس المتني المعتمد على الدلالات القرآنية البينات! أما الإباضية فكان لهم مقاييس محددة في ثبوت الرواية، وحول هذه المعايير يقول الأستاذ خالد الوهيبي.

المرتبة العلمية، فهذا دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن حريصاً على تبليغها للناس على وجه التشريع الملزم، لذا فهي في كثير من الأحوال تكون – إن صحت– من وقائع الأحوال التي لها ملابساتها وظروفها الخاصة.

4– لذلك فقد عولوا على النظر في كتاب الله عز وجل حول قضية (الصداق)، وبالاستقراء الكلي لمجموع النصوص لعلهم رأوا أن: صداق المرأة مرتبط بأمرين اثنين

أ– المس (تعبير قرآني راق كناية عن المعاشرة الجنسية)، وهو العامل الأهم في تحديد الصداق، وهو إن حصل حتى مع عدم تسمية الصداق فيحكم بالصداق كاملاً قال تعالى: ﴿... فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ... ﴿٢٤﴾﴾ [سورة النساء, ٢٤].

ب– تسمية الصداق: ﴿... تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ... ﴿٢٣٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٦] قال الله تعالى: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةً ... ﴿٢٣٦﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٦] وقال تعالى: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ... ﴿٢٣٧﴾﴾ [سورة البقرة, ٢٣٧].

–ففي الآية 236 من سورة البقرة ينفي الله سبحانه وتعالى الجناح عمن طلق النساء دون حصول ممارسة جنسية بينهما أو دون فرض فريضة لهن، ولذا فحين يحصل التطليق مع (فرض فريضة لهن) دون مس (فنصف ما فرضتم) أي للمطلقة نصف الصداق في هذه الحالة.

– ومع الوفاة وعدم تسمية الصداق وعدم حصول المس قالوا لا صداق لها عليه وعليها العدة ولها الميراث، لأن الأمرين معاً (المس وتسمية الصداق) لم يتوافرا في هذه الحالة.

– فهم قد نظروا إلى أن هذه الرواية على خلاف هذه الأصول القرآنية فلم يعولوا عليها في نظرهم.

أما ابن مسعود رضي الله عنه فلم يكن على علم بالرواية لما أصدر حكمه في القضية، ويبدو أنه عول على نظر آخر في المسألة، ولعله –كما يذكر ذلك بعض الفقهاء– كان يرى أن الموت كالدخول أخذاً من أحكام المرأة المعتدة.!!

مقاييس ثبوت الرواية

المقياس الأول:لا بد أن تثبت الرواية بمقاييس المنهج النقدي الشمولي.

المقياس الثاني: ثبوت الرواية بمقاييس السند من الإتصال وعدالة الرواة وضبطهم كما هو معروف من علوم الحديث.

المقياس الثالث: مراعاة وضبط موقع الرواية بعد ثبوتها في حركة الحياة.

وهذه مقاييس أو شروط غير متعسفة في قبول الروايات، بل لا بد من وجود شروط أكثر إحكاما من التي وضعها أهل الحديث عندنا في تصحيح الروايات، والتي لم تمنع للأسف البالغ تسلل الكثير من الروايات الباطلة إلى كتب السنة. والخلاف حول شروط تلقي وتصحيح الأحاديث مختلف فيه بين علماء الفقه والحديث منذ بداية عملية التدوين، فنجد أن الفقهاء اشترطوا شروطا تزيد عن الشروط التي اشترطها علماء الحديث، رغبة منهم في تحقيق منهج أكثر صرامة ودقة في تلقي الأحاديث، فكان الإمام مالك لا يقبلون رواية الآحاد المخالفة لعمل أهل المدينة، لأنه يستحيل عندهم أن يخالف أهل المدينة جميعا السنة في هذا الزمن القريب ويكون هناك من عرف من السنة ما لم يعرفه أهل المدينة، جيران الرسول. كما كان للإمام أبي حنيفة شروطا في قبول الروايات عن الصحابة والتابعين اعترض عليها أهل الحديث وأكثروا من الطعن فيه بسببها بحجة أنه راد للسنة! لذلك إذا كان لدى المدرسة الإباضية ضوابط عامة في قبول السنة فلا حرج في ذلك، بل هو من الأمور الواجبة في تعاملنا مع السنة، وذكر الأستاذ خالد الوهيبي أهم هذه الضوابط في التعامل مع خبر الآحاد: "من الضوابط التي كانت لهذه المدرسة للتعامل مع خبر الآحاد:

1- ضرورة تماشي الرواية الآحادية مع روح القرآن الكريم والقيم الإسلامية العليا عن صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم (=السنة المتواترة) ومقاصدها وكلياتها، وفي ذلك

يقول الإمام جابر فيما رواه الربيع في مسنده: "كيف يمسح الرجل على خفيه والله تعالى يخاطبنا في كتابه بنفس الوضوء، والله أعلم بما يرويه مخالفونا في أحاديثهم".

2- عدم مخالفة الرواية لما استقر عليه العمل عند الأمة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام، إذ إن ذلك مؤذن بظهور الرواية متأخرة أو هي من الشواذ الذي لم يعرف، والشريعة قد أكملت "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً". يقول الإمام جابر فيما نقله أبو غانم في مدونته ج1 ص 67: "سألت أبا المؤرج هل في الصلاة قنوت؟ قال: حدثني أبو عبيدة عن جابر بن زيد أنه سئل عن ذلك فقال: الصلاة كلها قنوت، قال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ... ۝٩﴾] سورة الزمر ,٩[، قلت: يا أبا الشعثاء ليس عن هذا أسألك، ولكن إنما أسألك عن الذي يفعل هؤلاء بعد الركوع، ويدعون ويتهللون وهم قيام. قال: "هذا أمر محدث لا نعرفه ولا نؤثره عمن مضى من هذه الأمة".

3- العناية بالسنن المجمع عليها في التعامل مع الآحاد فهماً وتطبيقاً، والسنن المجمع عليها هي التي وصلت للجميع وإن كانت آحاداً وجرى عليها العمل، يقول فقهاء المدونة في ذلك ج1 ص:(وذلك كله اختلاف منهم في الرأي، ولم يكن اختلاف في كتاب ولا سنة ولا أثر مجتمع عليه، إلا اختلافهم في الرأي)." اهـ[269]

كتب الحديث عند الإباضية

يأتي مسند الربيع بن حبيب الفراهيدي (181هـ) ومدونة أبي غانم الخراساني كأهم مراجع الحديث عند الإباضية. ويعتبر الإباضية مسند الربيع من أصح كتب الحديث حيث يرون أنه توفر فيه ما لم يتوفر في غيره من كتب الحديث من قرب عهد

(269) المرجع السابق.

بالنبي(ص) وعلو سند ووثاقة في الرجال، وغير ذلك من المميزات، وحول علو سنده يقول الشيخ علي يحيي معمر:

"الثلاثيات: وقد ذكر أئمَّة الحديث أن رتب الصحيح تتفاوت تفاوت الأوصاف المقتضية للتصحيح، وأن في المرتبة العليا ما أطلق عليه بعض رجال الحديث أنَّه أصح الأسانيد الثلاثيَّة، كسند الزهري عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه، وسند إبراهيم النخعي عن علقمة عن ابن مسعود، وسند مالك عن نافع عن ابن عمر، وهو قول البخاري لأنَّ هذه الأسانيد قصيرة السند، وقريبة الاتصال بالينبوع المحمَّدي، واشتهر رجالها بقوة الحفظ والضبط وكمال الصدق والصيانة والأمانة، وذهب الإمام أبو منصور التميمي إلى أن أجل الرواة عن الإمام مالك بن أنس هو الشافعي فأجل الرواة على ذلك ما رواه الإمام أحمد بن حنبل عن الشافعي عن مالك ويسمَّى هذا السند سلسلة الذهب.

ويشبه هذه السلاسل الذهبيَّة سلسلة مسند الربيع بن حبيب وثلاثياته: أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس، ورجال هذه السلسلة الربيعيَّة من أوثق الرجال وأحفظهم، وأصدقهم لم يشب أحاديثها شائبة إنكار ولا إرسال ولا انقطاع وإعضال، لأنَّ الثلاثيات بأجمعها موصولة باتصال إسنادها، ولم يسقط في أسانيدها الثلاثية أحد. و(المعضل) هو ما سقط من إسناده اثنان فأكثر بشرط التوالي كقول مالك: قال رسول الله(ص) وقول الشافعي قال ابن عمر، وقد يردّ على قولها هذا أنَّ في مسند الربيع البلاغ والسماع مِمَّا يجعل الحديث مرسلاً، ويجاب على هذا القول إن رجال هذا المسند إذا نقلوا عن غير مشافهة بينوا ذلك بقولهم بلغني أو بلغنا أو سمعت عن فلان، أو نحو ذلك مِمَّا يبعد بالمسند عن التدليس، فهم رحمهم الله أجل وأتقى من أن يوهموا الناس السماع وليسوا بسامعين، وبذلك يظهر أنَّ عنعنة هذا المسند مقطوع باتصالها، لأنَّ أبا عبيدة أخذ عن جابر، وجابر أخذ عن الصحابة مباشرة، حتَّى قيل إن أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر من الصحابة." اهـ[270]

---

[270] علي يحيي معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية.

ما هي خصائص مسند الربيع بين حبيب؟

يجيب الأستاذ خالد الوهيبي حول هذا السؤال، عارضا خصائص المسند والتي كان ينبغي أن تتوفر في كل مسانيد الحديث، وهي كما يرى: "إن النص الحديثي لم يتضخم في هذين السفرين، فمسند الإمام الربيع على سبيل المثال يحوي معظم أبواب الشريعة وعدد أحاديثه (742) حديثاً...

1- التلقي عن الفقهاء، فمعظم روايات المسند التي رواها الإمام الربيع بن حبيب جاءت بالسند التالي: أبو عبيدة عن جابر بن زيد عن أحد من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهذه سلسلة فقهاء تتلمذوا وتعاصروا وأخذوا عن بعضهم البعض، فالمسألة عندهم ليست مجرد رواية ونقل فحسب، بل نظر وتأمل وفحص، وهذا الملحظ أدى إلى تجنيب المسند الكثير من المرويات التي تخالف نصوص الكتاب العزيز، أو تصطدم مع الأصول الثابتة بالنصوص الصحيحة المتفق عليها، أو تلك التي طغى عليها المد الإسرائيلي المثيولوجي...

2- الترجمة العملية لأصول القرآن الكريم: الذي ينبغي أن ينتبه له أن القرآن الكريم هو المنهج والدستور وهو كتاب الأركان والأصول: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)، (ما فرطنا في الكتاب من شيء)، (ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)، ولكن السؤال الملح: ما موقع السنة بالنسبة إلى القرآن؟! من واقع الاستقراء الكلي للمسند يتبين لنا، أن روايات المسند ترجمة عملية للأصول التي جاء بها الكتاب العزيز، ولم يأت شيء من الروايات مبتوت الصلة عن القرآن الكريم، وما يتوهم من ذلك إنما هو في حقيقته عند النظر والتأمل ترجمة لأصول ثابتة بالاستقراء الكلي لمجموع نصوص وردت في الكتاب العزيز. إن فقدان الرواية للأصل القرآني سواء كان بالنص عليه أو بالاستقراء والتتبع والنظر الكلي هو الذي كانت المدارس القديمة تعبر عنه بالشاذ، وتعتبره مبتوت الصلة بالوحي الإلهي لمجيئه خارج نطاق دائرة الأصول الثابتة. وما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم

ليشرع أمراً خارج نطاق الوحي الذي جاءه من عند ربه تبارك وتعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى)...

3- إعلاء شأن الدلالات القرآنية: فالقرآن الكريم أولاً وثانياً وعاشراً ثم تأتي السنة بعد ذلك، أي أن القرآن هو الذي يجب أن تحاكم إليه الروايات الآحادية لا العكس، فتطمر الدلالات القرآنية تحت زخم طوفان الرواية الجارف. وهذه كانت نتيجة طبيعية لظاهرة الإكثار من الروايات، وهو المنهج الذي سارت عليه المدارس الأثرية الأخبارية بشتى اتجاهاتها، والتي قلبت المعادلة رأساً على عقب، فأصبحت الروايات هي الأصل التي يجب أن توجه إليه الدلالات القرآنية. أما بالنسبة إلى المدرسة الجابرية وفقهائها فلم يعانوا من هذه المشكلة، فبسبب الإقلال من الرواية، لم يتضخم النص الحديثي المدون لديهم إلى ذلك الحد المخيف، الذي أوجد بدوره حضوراً قرآنياً بارزاً حاكموا إليه المرويات" اهـ[271]

خبر الآحاد والعقائد

مثل أصولي أهل السنة لا يأخذ الإباضية بخبر الآحاد في العقائد إلا إذا كان له أصل صريح في كتاب الله عزوجل، أما ما لا أصل له فمرفوض عندهم. ومعلوم أن هذا المنهج مستفز لأهل الحديث ويشنعون بسببه على أي فرقة بحجة أنهم يردون الآثار ولا يقبلون العقائد الصحيحة الواردة عن طريق أفراد! ثقات نقلوا لنا هذا الدين!

نخرج من هذا العرض العام الشامل أن منهج الإباضية في التعامل مع الحديث منهج متوازن في القبول والرد، فاق مذهب أهل السنة بداهة بنقاط، ولا يقارن طبعا بعلم الحديث عند الشيعة الذي حمّل الدين من الخرافات والتناقضات ما يقصم ظهر قافلة

[271] خالد بن مبارك الوهيبي، مقال كيف نتعامل مع السنة.

من البعير. ونعرف القارئ أن الإباضية يقبلون الأحاديث الواردة عند أهل السنة بشرط صحتها، فليس المقبول فقط أحاديثهم هم، ولكن ما روي عند أهل السنة بسند صحيح ومتن موافق للقرآن فيأخذون به ولا حرج.

وبعد أن انتهينا من الحديث عن موقف الإباضية من السنة ننتقل للحديث عن عقائد الإباضية.

عقائد الإباضية

بعد أن أنهينا هذا الجزء التاريخي من العقائد، ننتقل للحديث عن العقائد الدينية! للمذهب الإباضي، ونعطي القارئ تصورا عاما عن عقائد الإباضية قبل الخوض في تفاصيل هذه العقائد:

بخلاف النقاط المشتركة وبدهيات الإيمان التي تتفق عليها كل الفرق الإسلامية علماء وعامة يقوم تصورهم لله عزوجل على التنزيه المطلق له سبحانه عن كل ما أوهم التشبيه من الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية، فما ورد موحيا بالتشبيه يجب تأويله بما يناسب المقام بدون شطط.

وصفات الله تعالى عندهم ذاتية ليست زائدة على الذات ولا قائمة بها ولا حالة فيها، وهذا مماثل لتصور المعتزلة والشيعة الإمامية والزيدية للصفات، كما أنهم يقولون بنفي رؤية الله في الدنيا وكذلك في يوم القيامة، ويرون أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده، فالوعيد لا يتخلف كما لا يتخلف الوعد، ويرون أن القرآن مخلوق كما تقول الشيعة والمعتزلة، ويرون أن الإيمان يتكون من ثلاثة أركان وهي: الاعتقاد والاقرار والعمل.

ويرون أن مرتكب الكبيرة منافق وليس بمشرك، فإن لم يتب يدخل النار ويخلد فيها ولا تناله أي شفاعة، لذلك فهم يرون أن الخلود في الجنة وفي النار أبدي، فمن سعد في

الآخرة فلا يشقى أبدا ومن شقي لا يسعد أبدا، لذلك فمن دخل النار فلا يخرج منها أبدا.

ويرون كذلك أن الصراط ليس جسرا حسيا منصوب فوق ظهر جهنم وإنما هو طريق الإسلام المستقيم. والناس عندهم قسمان مؤمن وكافر أو سعيد وشقي وليس هناك قسم ثالث لا منزلة بين المنزلتين، وأما النفاق فمنزلة بين الشرك والإيمان والمنافقون مسلمون في أحكام الدنيا ومع المشركين في الاخرة. ويجب موالاة الطائعين والبراءة من العصاة، والإنسان حر في اختياره مكتسب لعمله ليس مجبرا عليه ولا خالقا له.

ويرون أن شفاعة الرسول المصطفي ثابتة، ولكنها نوعان فقط: الشفاعة الكبرى يوم القيامة لبدا الحساب ولدخول المؤمنين الجنة، وهي المقام المحمود والشفاعة الصغرى ولا تكون الا للمؤمنين الطائعين وتكون بزيادة الدرجات، ولا يخرج الرسول من النار أحد.ولا تؤمن الإباضية بالمهدي ولا بنزول عيسى عليه السلام في آخر الزمان!.

هذا تصور عام موجز لأهم عقائد القوم، ونبدأ الآن في نقاش أهم عقائد الإباضية المخالفة لأهل السنة، وهناك بعض العقائد المشتركة مع الزيدية والمعتزلة والشيعة، فما سبق نقاشه بالتفصيل لن نعيد القول فيه، وسنذكر بعض أقوالهم في الفصل القادم عند مناقشة وإبطال خرافة المهدي والدجال.

1- خلود أهل الكبائر في النار

يرى الإباضية -متفقين مع المعتزلة والزيدية- خلود أهل الكبائر في النار، وذلك القول نابع من عقيدتهم في صدق الوعيد، فكما يصدق الله وعده يصدق وعيده. وهذا الرأي مصادم لعقائد أهل السنة الذين يُمنون أتباعهم بأنهم مهما فعلوا من الكبائر فأمرهم إلى الله، إن شاء عفا وغفر وإن شاء عاقب، وإن دخلوا النار فسيعذبون فترة من الزمن، طالت أو قصرت ثم يخرجهم الله عزوجل ويدخلون الجنة! وقبل أن نخوض في الآراء

الواردة في هذه المسألة لا بد أن نعرض للجانب اللغوي فيها، لأنه نقطة حاسمة في ترجيح رأي أحد الفريقين.

جاء في مقاييس اللغة: (خلد) الخاء واللام والدال أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الثبات والملازمَة، فيقال: خَلَدَ: أقام، وأخلَدَ أيضاً. ومنه جَنَّةُ الخُلْدِ. قال ابن أحمر: إلاَّ مَنازِلَ كلُّها قَفْرُ خَلَدَ الحبيبُ وبادَ حاضِرُهُ ويقولون رجلٌ مُخْلَدٌ ومُخْلِد، إذا أبطأ عنه المشِيب. وهو من الباب، لأنَّ الشَّباب قد لازمَه ولازَمَ هو الشباب. ويقال أخْلَدَ إلى الأرض إذا لَصِق بها. قال الله تعالى: ﴿... وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ... ﴿١٧٦﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٧٦]. فأما قوله تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ... ﴿١٩﴾﴾ [سورة الإنسان, ١٩]، [فهو] من الخُلْد، وهو البقاء، أي لا يموتون. وقال آخرون: من الخِلَد، والخِلَدُ: جمع خِلَدة وهي القُرْط. فقوله: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾ أي مقرَّطون مشنَّفون." اهـ

وجاء في اللسان: الخلد دوام البقاء في دار لا يخرج منها، خَلَدَ يَخْلُد خُلْداً وخلوداً بقي وأقام، ودار الخلد الآخرة لبقاء أهلها فيها، وخلده الله وأخلده تخليداً وقد أخلد الله أهل دار الخلد فيها وخلدهم. ومنه قوله تعالى: "وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مِتَّ فهم الخالدون". اهـ

وأن الخلود موضوع للدوام والتأبيد هو مذهب أكثرية اللغويين. وهناك من جعل الخلود في المكث الطويل بغض النظر عن التأبيد مثل الإمام الفخر الرازي وأبو حيان وأبو السعود، فهو عندهم من المشترك اللفظي الذي يتعين ما يراد به بالقرينة الدالة عليه، ولما رأوا ذلك ظهرت أمامهم إشكالية تأبيد أهل الجنة فيها، فجعلوا دوام الثواب والعقاب بالدلائل الأخرى من الكتاب والسنة كاقترانه بالأبد في قوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ... ﴿٨﴾﴾ [سورة البينة, ٨] وقوله: ﴿... وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا

﴿٢٣﴾] سورة الجن, ٢٣]، ومن الأحاديث الصحيحة الصريحة في النص على خلود أهل الدارين فيهما بلا انقطاع.

والذي يظهر لنا هو أن الرأي الأول هو الأرجح لعديد من الترجيحات اللغوية، منها أنه هو الذي أورده ابن فارس في مقاييسه وهو حجة في اللغة، وكذلك هو رأي ابن منظور في اللسان، وهو رأي أكثر علماء اللغة، كما أنه هو الرأي الذي يستخرج من الآيات الواردة في القرآن، وهذا هو أكبر المرجحات، فلو حمل على المعنى الثاني لاختل معنى كثير من الآيات، ونذكر للقارئ نموذجا واحدا من القرآن الكريم على ذلك وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾] سورة الأنبياء, ٣٤]، فلو كان المعنى المقصود من الخلد هو المكث الطويل لكان معنى الآية غير صحيح، فسيدنا نوح لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، وهذا حتما مكث طويل أي خلد! وبغض النظر عن الاستنتاجات فالآية تربط الخلود بالموت، فهي تتحدث عن سريان قانون الموت على كل الأحياء حتى الأنبياء منهم، وتستنكر على المشركين قولهم، وتقول: أفائن مت يا محمد سيظلون هم بدون موت! فالمعنى الصريح للآية هو أن الخلد معناه البقاء والدوام –عدم الموت– وليس المكث الطويل كما رأى بعض المفسرين تهربا من استدلال المخالفين عليهم بالآيات، أو لرجحان هذا الرأي عندهم، فالله أعلم بذات الصدور.

ونبدأ بمناقشة هذا القول، ما هي الآراء الواردة في هذه المسألة؟

الآراء الواردة في هذه المسألة

الأول: قول الأشاعرة: أهل الشرك مخلدون في النار، وأهل الكبائر مما عدا الشرك إما أن يعفوا الله عنهم فلا يدخلونها إبتداءً، أو يعذبوا بقدر أعمالهم ثم يخرجون منها إلى جنات النعيم.

الثاني: أهل الكبائر لا يعذبون والعذاب لأهل الشرك خاصة، ونسب هذا إلى مقاتل وبعض المفسرين.

الثالث: الجنة والنار فانيتان بعد دخول أهل كل واحد منهما فيهما ونسب هذا القول إلى جهم بن صفوان. –والله أعلم بصحة هذا النسب فهناك من طعن في صحته–.

الرابع: أهل الكبائر من العاصين لله سواءا كانوا مشركين أو فاسقين مخلدون في النار دائماً وأهل الطاعة مخلدون في الجنة دائماً، وهذا قول الإباضية والزيدية والمعتزلة، لكن الإباضية –أهل الاستقامة– يرون التعذيب بعدل الله والثواب بفضله، والمعتزلة يقولون: بوجوب ذلك على الله تعالى.

ويقسم الأستاذ هلال بن صالح الهاشمي هذه الآراء إلى قسمين اثنين، فيقول: "ويمكننا أن نقول إن الفرق الإسلامية اختلفت في مسألة الخروج من النار على اتجاهين:

1– المعتزلة والإباضية والخوارج على اختلاف طوائفهم ذهبوا إلى تأبيد الخلود لجميع العاصين من المشركين والموحدين.

2– أهل السنة والشيعة والرافضة ذهبوا إلى خروج عصاة الموحدين من حكم التأبيد في الخلود دون أهل الشرك والجحود." اهـ[272]

وحتما ولزاما فإن أحد الرأيين خاطئ، فلا يمكن الجمع والتوفيق بينهما أو اتخاذ موقف وسط بين الفريقين، وهذه المسألة من أخطر المسائل التي يترتب عليها عمل الإنسان في حياته، فلو أيقن أنه خارج من النار لا محالة خارج، فهو لا محالة مقصر ومتهاون، أما لو أيقن أنه لو دخل فلن يخرج منه أبدا فسيؤدي هذا إلى تغيير سلوكه وتصرفه في حياته الدنيا. فعلى المسلم أن يتفكر في هذه المسألة بالذات أيما تفكر ولا تمر عليه مر الكرام. وسنقدم له أدلة الفريقين في هذه المسألة وليزن بنفسه أي الفريقين أرجح أدلة.

---

[272] هلال بن صالح الهاشمي، خلود أهل الكبائر في النار بين المؤيدين والمعارضين

أدلة القائلين بانقطاع عذاب أصحاب الكبائر من المسلمين

بداهة لن يدخل النار من المسلمين إلا من هم أصحاب الكبائر، أما أصحاب الصغائر فهم في الجنة لزاما، لقول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ۝٣١﴾ [سورة النساء, ٣١]، فما هي أدلة أصحاب القائلين بخروج أهل الكبائر من المسلمين من النار؟ يعرض الأستاذ هلال الهاشمي آراء القائلين بهذا الرأي فيقول:

"لقد تعلق القائلين بانقطاع عذاب الموحدين دون عذاب المشركين بآيات من القرآن وبأدلة من الحديث الشريف وبالاستدلال العقلي لما ذهبوا إليه.

أولاً: الأدلة من القرآن الكريم:

ويمكننا تقسيم الآيات الكريمة التي استدلوا بها إلى الآتي:

1- آيات الخلود أو ما يفيد معناه، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ۝٩٣﴾ [سورة النساء, ٩٣]. وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَـٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٤﴾ [سورة النساء, ١٤]. فذهب منكرو الخلود لأهل الكبائر إلى تأويل الخلود هنا بطول المكث، وإنّ الآيات خصصت الخلود الدائم للمشركين، وقالوا: أن غاية ما أخبر به الكتاب المبين في وعيد عصاة الموحدين أنهم في النار خالدين، والخلود ما لم تضم إليه كلمة التأبيد قد يقتضي معنى الدوام ولا يفيد، ولكن يراد به المكث الطويل الذي ينقطع. والأساس لدى هؤلاء أن رحمة الله أوسع من غضبه فلذلك لا يرتضون تخليد عصاة أهل الصلاة في النار.

2- آيات علقت العذاب بالمشيئة: قوله تعالى: ﴿... قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۝١٢٨﴾ [سورة الأنعام, ١٢٨]. قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا

ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [سورة هود, ١٠٦-١٠٧]. ووجه استدلالهم بالآيتين ما فيهما من استثناء مشيئة الله تعالى فهم يعتبرون صاحب الكبيرة غير مخلد، وإن عذب فإنهم يقولون هو في مشيئة الله، إن شاء غفر له وعفا عنه بلا تعذيب، وإن شاء شفع فيه من شاء، وإن شاء عذبه في ناره بقدر عمله إلى ما شاء الله من المدة ثم يقطعون بخروجه منها.

3- آيات حددت اللبث بدوام السماوات والأرض وبالأحقاب: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝١٠٦ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝١٠٧﴾ [سورة هود, ١٠٦-١٠٧]، قال تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [سورة النبإ, ٢٣]. ووجه استدلالهم بالآية الأولى: «جعل الله بقائهم في النار منوطاً بدوام السماوات والأرض» ووجه استدلالهم بالآية ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ۝٢٣﴾ [سورة النبإ, ٢٣] أن الأحقاب متناهية وما دام لبثهم فيها مقدراً بقدرها فهو متناهٍ أيضاً. قال تعالى: ﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ كَانُواْ مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ [سورة الحجر, ٢]. ووجه تعلقهم بالآية أن ودهم ذلك يكون عندما يرون عصاة المسلمين يخرجون من النار مع بقاءهم فيها.

ثانياً: الأدلة من الحديث الشريف:

1- حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: "ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد"

2- "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي"، رواه أبو داود باب في الشفاعة وأحمد في المسند.

3- رواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم "أن الله عزوجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا فيها وصاروا حمماً".

ثالثاً: الاستدلال العقلي:

لو تساوى عصاة الموحدين مع المشركين في الخلود لما بقي لكلمة التوحيد أثر، ولا لأعمال البر فائدة." اهـ [273]

هذه هي عمدة أدلة القائلين بخروج أصحاب الكبائر من الموحدين من النار، فكيف يرد الإباضية على هذه الأدلة؟ يرى الإباضية أن الأدلة على خلود أهل الكبائر من الموحدين ومن المشركين هي العامة والغالبة في القرآن، ولا يحتاج الأمر إلى جدال فيها، فيكفي ورود آيات تقول بالخلود، وعدم وجود آية واحدة تذكر الخروج من النار لمن دخلها، سواء كان غير موحد أو موحدا، فلماذا أغفل القرآن هذه العقيدة الهامة بدون أن يشير إليها؟

أدلة القائلين بعدم انقطاع عذاب أصحاب الكبائر من المسلمين

ويذكر فضيلة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي سلطنة عُمان بعضا من الأدلة على خلود أهل الكبائر في النار, فيقول:

1- قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةً ۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓ ۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٨٠ بَلَىٰ ۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾ [سورة البقرة , ٨٠-٨١] **ودلالته عليه من وجوه: أولها: أن هذه العقيدة يهودية المنبت كما هو ظاهر من هذا النص وقد ذُكرت في مساق التنديد بهم والتشهير بضلالهم. ثانيها: ما فيه من الاستنكار لهذا القول الوارد مورد الاستفهام المقصود به التحدي، والتقرير بأنهم لم يستندوا في مقالتهم هذه إلى عهد من الله، وإنما هي من ضمن ما يتقولونه عليه تعالى بغير علم، وناهيك**

[273] المرجع السابق.

بذلك ردعاً عن التأسّي بهم فيما يقولون، والخوض معهم فيما يخوضون. ثالثها: ما فيه من البيان الصريح بأن مصير كل من ارتكب سيئة وأحاطت به خطيئته لعدم تخلصه منها بالتوبة النصوح أنه خالد في النار مع الخالدين، وهو رد على هذه الدعوى يستأصل أطماع الطامعين في النجاة مع الإصرار على الإثم (...) واعترض على الاستدلال به بأمرين: أولهما: أن السيئة هنا هي الشرك كما روي عن طائفة من المفسرين وإذا كان هذا الوعيد للمشركين فهو لا يعم الموحدين. ثانيهما: أن الخلود لم يرد به التأبيد وإنما أريد به المكث الطويل. ويرد الإعتراض الأول أن حمل السيئة على الشرك وحده خروج بالآية عما يقتضيه لفظها، فإن لفظ (سيئة) نكرة مطلقة في سياق الشرط، والنكرات إذا وردت في الشرط فهي محمولة على العموم لأن الشرط كالنفي، وحكم النكرة في سياق النفي عمومها.(...) ويرد الإعتراض الثاني أن حمل الخلود هنا على المكث الطويل دون التأبيد يستتبع حمله على ذلك في نظيره، وهو الخلود الموعود به الذين آمنوا وعملوا الصالحات في الجنة إذ لا دليل على الفرق بينهما. وقد تحدث عن ذلك الإمام محمد عبده فقال: ومن المفسرين من ترك السيئة في الآية على إطلاقها، ولم يؤولها بالشرك ولكنهم أولوا جزائها، فقالوا: إن المراد بالخلود طول مدة المكث، لأن المؤمن لا يخلد في النار وإن استغرقت المعاصي عمره، وأحاطت الخطايا بنفسه فانهمك فيها طول حياته ؛ أولوا هذا التأويل هروباً من قول المعتزلة: إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار، وتأييداً لمذهبهم أنفسهم المخالف للمعتزلة، والقرآن فوق المذهب، يرشد إلى أن من تحيط به خطيئته لا يكون أو لا يبقى مؤمناً".

2- قوله تعالى: ﴿... فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٧٥﴾ [سورة البقرة, ٢٧٥]، ووجه الاستدلال بالآية أنها وعيد لأكلة الربا وهم غير مشركين، لأن الآية في معرض التحذير من أكل الربا بعد تحريمه. واعترض بأن هذا الوعيد ليس على أكل الربا بل هو على استحلاله، بدليل ما جاء في صدرها من حكاية قولهم المعارض لحكم الإسلام في الربا "إنما البيع مثل الربا"، والمُسْتَحِل لما حرم الله بالنص القطعي كالربا مشرك بالإجماع،

فلا يعم حكم الخلود مرتكبي الكبائر دون الشرك. والجواب أن حمل الوعيد على الاستحلال دون الأكل يهون من وقْع أوامر الله تعالى ونواهيه في نفوس العباد، ويقلل من أهمية حكم الحرمة في المحظورات، على أن سياق ما قبل وما بعد هذه الآية إنما هو حظر الربا، وتغليظ أمره على الناس، وليس ذكر ما يقوله مستحلوه مخرجاً لهذا الوعيد عما يقتضيه السياق، وإلا لما كانت فائدة في شيء مما ذكر قبلها أو بعدها.

3- قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة آل عمران, ٢٤]، ووجه الاستدلال به ما سبق في نظيره من إثبات أن هذه العقيدة من عقائد اليهود، وأنها جرّأتهم على معصية الله، وقادتهم إلى الإعراض عن كتابه، وذُكرت في معرض تفنيد ضلالهم وتبكيتهم على عيوبهم، ولصاحب المنار في تفسيره هذه الآية كلام جاء فيه: "لعل المراد بعبارة الآية أنهم كانوا يعتقدون أن الإسرائيلي إذا عوقب فإن عقوبته لا تكون إلا قليلة، كما هو اعتقاد أكثر المسلمين اليوم، إذ يقولون إن المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش إما أن تدركه الشفاعات وإما أن تنجيه الكفارات وإما أن يمنح العفو والمغفرة بمحض الفضل والإحسان، فإن فاته كل ذلك عذب على قدر خطيئته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة، وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالدون في النار كيفما كانت حالهم، ومهما كانت أعمالهم، والقرآن لا يقيم للانتساب إلى دين ما وزناً، وإنما ينوط أمر النجاة من النار والفوز بالنعيم الدائم في دار القرار بالإيمان الذي وصفه وذكر علامات أهله وصفاتهم، وبالأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، مع التقوى وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن. وأما المغفرة فهي خاصة في حكم القرآن بمن لم تحط به خطيئته، وأما من أحاطت به حتى استقرت شعوره ورانت على قلبه فصار همه محصوراً في إرضاء شهوته، ولم يبق للدين سلطان على نفسه "فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"، لهذا يحكم هذا الكتاب الحكيم بأن من يجعل الدين جنسية وينوط النجاة من النار بالانتساب إليه أو الاتكال على من أقامه من السلف فهو مغتر بالوهم مفتر يقول على الله بغير علم، كما قال هنا:

"وغرَّهم في دينهم ما كانوا يفترون"، أي بما زعموا من تحديد مدة العقوبة للأمة في مجموعها، وهذا من الافتراء الذي كان منشأ غرورهم في دينهم، (...)

4- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [سورة النساء, ١٤]، ووجه الإستدلال به أنه جاء بعد تبيان أحكام المواريث، والنص على أنها من حدود الله، ووعد من يطيع الله ورسوله بالخلد، في جنات تجري من تحتها الأنهار، فثبت من ذلك بأن من جاوز حكماً من أحكام الله صدق عليه هذا الوعيد، وقد تحدث في تفسير هذه الآية كل من الإمام محمد عبده والسيد رشيد رضا بما يؤيد كلامهما السابق.

5- قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾﴾ [سورة النساء, ٩٣]، ووجه الاستدلال بالآية أن الله تعالى توعد فيها قاتل المؤمن -فيما توعده به- بالخلود في النار مع أن القتل كبيرة دون الشرك. وقد حاولوا التخلص مما دل عليه هذا النص بضروب من التأويلات التي أنكر فيها بعضهم على بعض، ولم يتفقوا منها على شيء. قال الفخر (الرازي): "وزعم الواحدي أن الأصحاب سلكوا في الجواب عن هذه الآية طرقاً كثيرة، قال: وأنا لا أرتضي شيئاً منها، لأن التي ذكروها إما تخصيص وإما معارضة وإما إضمار، واللفظ لا يدل على شيء من ذلك. والذي أعتمده وجهان، الأول: إجماع المفسرين على أن الآية نزلت في كافر قتل مؤمناً ثم ذكر تلك القصة، والثاني: أن قوله: "فجزاؤه جهنم" معناه الاستقبال، أي أنه سيجزى بجهنم، وهذا وعيد، وخلف الوعيد كرم، وعندنا أنه يجوز أن يخلف الله وعيد المؤمنين. (فهذا حاصل كلامه الذي زعم أنه خير مما قاله غيره). وبعدما أورد الفخر هذا الكلام أخذ ينقضه (!!) مع ما عرف عنه من التعصب للقول بخروج أهل الكبائر من النار، وهذا نص كلامه: "وذلك أنه ثبت في أصول الفقه أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فإذا ثبت أن اللفظ الدال على الاستغراق حاصل فنزوله في حق الكفار لا يقدح في ذلك العموم، فيسقط هذا بالكلية، ثم نقول

كما أن عموم اللفظ يقتضي كونه عاما في كل قاتل موصوف بالصفة المذكورة فكذا هاهنا وجه آخر يمنع من تخصيص هذه الآية بالكافر، (ثم أخذ الفخر الرازي يتفلسف ويلف ويدور من أجل أن يأول الآية، والفخر الرازي على الرغم من علو كعبه في التفسير، وعلو شأنه في قلبي إلا أنه ككل متمذهب لا بد أن يخضع الآية لمذهبه، ولو طارت عنزة، فأولها في نهاية المطاف! ورد عليه فضيلة الشيخ الخليلي وفند أقواله، ونجنب القارئ الخوض في تلك المزالق التنطعية فلا فائدة منها إلا الابتعاد عن النص نفسه! –المؤلف–)

6- قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةِۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة يونس, ٢٦-٢٧]، والاستدلال به من وجوه:

أولها: أن الله وعد بالجنة الذين أحسنوا وحصرها فيهم بقوله: "أولئك أصحاب الجنة "فعرَّف المسند والمسند إليه، ووسَّط بينهما ضمير الفصل لتأكيد الحصر.[274] ثانيهما: أنه أخبر عنهم أنهم لا يصيبهم قتر ولا ذلة، ولا يعقل أن يصلى أحد النار ولو لمدة ثواني فلا يرهقه فيها قتر ولا ذلة. ثالثهما: أنه توعد الذين عملوا السيئات بالنار مخلدين فيها، وهذا الحكم يصدق على من أتى أي سيئة، فإن السيئات جنس غير محصورة أفراده، وما كان كذلك فحكمه يصدق على كل فرد من أفراده سلباً وإيجاباً، ألا ترى أن قول القائل تزوجت النساء لا يعني أنه تزوج جميع أفراد النساء، بل يصدق على ما لو تزوج ولو واحدة منهن، ولو حلف أنه لم يتزوج النساء، وقد تزوج واحدة كان في قَسمه حانثاً. فإن قيل: إن الله وعد المحسنين بالجنة، وكل من أتى حسنة فقد أحسن، على أن المفسرين من فسر المحسنين هنا بالموحدين لأن التوحيد أس الحسنات. فجوابه لو

[274] إذا قلنا أن الحسنى هي الجنة –وهي ليست الجنة حتما–، فأول الآية هو الدليل على ما يذهب إليه الشيخ الخليلي، لقوله تعالى: "للذين أحسنوا الحسنى" حيث استعمل أسلوب حصر عن طريق تقديم المعمول، وهذا يفيد أن الحسنى للذين أحسنوا فقط، بخلاف قوله تعالى : "الحسنى للذين أحسنوا" التي تحتمل –عن بعد– أن تكون لغيرهم كذلك.

كان الأمر كذلك لم يكن داع إلى أمر أو نهي في كتاب أو سنة ما دام المطلوب هو التوحيد وحده، ولتساقطت جميع آيات الوعيد على ما دون الشرك من المعصية، كترك الصلاة ومنع الزكاة وأكل الربا وعقوق الوالدين، وقطيعة الرحم، وقتل النفس المحرمة بغير حق، والزنى، وسائر أعمال الفجور، ولاستلزم ذلك أن يكون القتلة والزناة، واللصوص، وسائر أهل الكبائر في تعداد المحسنين ماداموا يلوكون كلمة التوحيد بألسنتهم، وإن من أعجب العجب أن يُفسَّر الإحسان بما ذكر ولو مع مقارفة هذه الفواحش وأمثالها، والنبي صلى الله عليه وسلم يفسر الإحسان بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

7- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصۡرِفۡ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَۖ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [سورة الفرقان ,٦٥]، فإن وصفه بالغرام يدل على عدم انقطاعه، قال في اللسان: والغرام: اللازم من العذاب والشر الدائم والبلاء، والحب والعشق وما لا يستطاع أن يُتفصّى منه. وقال الزجاج: هو أشد العذاب في اللغة، قال الله عز وجل: "إن عذابها كان غراما" وقال الطرماح:

ويوم النسار ويوم الفجا   ركان عذابا وكان غراما.

وقوله عز وجل: ﴿... إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ٦٥﴾ [سورة الفرقان ,٦٥] أي ملحا دائما ملازما، وقال أبو عبيدة: "أي هلاكاً ولزاماً لهم).

8- قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ٦٨ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ٦٩﴾ [سورة الفرقان ,٦٨-٦٩]، فقد توعد الله فيه قاتل النفس المحرَّمة بغير الحق، والزاني بما توعد به من دعا مع الله إلها آخر من الخلود في النار. واعترض بأن هذا الوعيد خاص بمن جمع بين الكبائر الثلاث دون من أتى واحدة منها. وأجيب بأن هذا يعني أن من أشرك مع الله إلها آخر ولم يجمع مع شركه بين الزنا وقتل النفس

المحرمة لم يَصْدُق عليه هذا الوعيد، وهذا لا يقوله أحد منكم، فإن قيل إن خلود المشرك ثبت بنصوص أخرى دلت على أن شِركه كافٍ في استحقاقه هذا العذاب، فالجواب أن النصوص لم تفرق بين الشرك وغيره في الخلود، بل دلت على خلود غير المشرك بالنص على بعض الكبائر كالقتل تارة والتوعد به على مطلق المعصية تارة أخرى كما في الآية الآتية.

9- قوله تعالى: ﴿... وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾﴾]سورة الجن, ٢٣[، ولا يماري أحد يؤمن بما أنزل الله أن مقارفة الكبيرة معصية لله ولرسوله، فإن قيل إن هذا الوعيد خاص بالمعصية الكبرى وهي الإشراك بالله تعالى. قلنا هذه مخالفة لصريح اللفظ بدون داع. فإن قيل إن الداعي إلى ذلك حمل هذا الوعيد على ما جاء من وعيد المشركين بهذا الجزاء. قلنا: إن ورود الحكم العام في بعض أفراد مدلولاته لا يخصص عمومه، وكما تُوعِّد المشركون بهذا الجزاء توعد سائر أصحاب الكبائر به في نصوص أُخرى كما سبق بيانه.

10- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾﴾] سورة الانفطار, ١٣-١٦[، ووجه الاستدلال به ما فيه من تقسيم الناس إلى طائفتين، أبرار وفجار، وتقسيم جزائهم إلى مصيرين، نعيم وجحيم، مع النص على عدم غياب أصحاب الجحيم عنها، وذلك على حد قوله تعالى: ﴿... فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾﴾] سورة الشورى, ٧[. واعترض بأن المراد بالفجار الكاملون في الفجور الذين وصفهم الله بقوله: "أولئك هم الكفرة الفجرة"، حتى أن الفخر الرازي قال: "لا نسلم أن صاحب الكبيرة فاجر". ويرد هذا الإعتراض أنهم ملزمون على قولهم هذا أن يكون الزناة، ومن عَمِل عَمَل قوم لوط، وأكلة الربا، وقتلة الأنفس بغير حق، ومانعو الزكاة، وسائر أهل الكبائر ماعدا الشرك في تعداد الأبرار الموعودين بالنعيم، ورضوان من الله أكبر، ولعمر الله ما من وسيلة لهدم قواعد الدين واستئصال الفضائل، وإشاعة الفحشاء، ونشر الرذائل، أبلغ من هذا الاعتقاد، فإنه يهدم

جميع أوامر الله ونواهيه وينسف كل ما جاء في كتابه، وفي سنة رسوله صلى الله عليه وسلم من وعيد لأهل الكبائر، وناهيك أن يكون الزنى، واللواط، وشرب الخمور، والدياثة، وسائر المنهيات من أعمال البر لأن مرتكبيها في صفوف الأبرار." اهـ [275]

ونعود فنقول إن لأهل السنة ردودا على ردود الإباضية على أقوالهم! ولو دخلنا في هذه الدائرة المغلقة فلن نخرج منها أبدا، ولكن نقول للقارئ: هل تقبل أن توجد عقيدة بمثل هذه الأهمية بدون أن يوجد دليل لها في القرآن؟ فإذا قبلت، فستقبل قول أهل السنة، وإذا توقفت أو رفضت فستزن الأمور بعقلك وتأخذ الدليل الراجح! ولكن قبل أن تقبل أو ترفض عزيزي القارئ أقدم لك الدليل الأخير من القرآن، ولم أر أحد استدل به في هذه المسألة، ولست أدري صراحة لم؟! وسنذكر نصين طويلين بعض الشيء –حتى لا يقول أحد أن الآية منزوعة من السياق– نثبت به خلود أهل الكبائر في النار بغض النظر عن دينهم، وكذلك نثبت أن الخلود بمعنى البقاء الدائم وليس بمعنى المكث الطويل، إقرأ معي عزيزي القارئ قول الله تعالى من سورة المؤمنون:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [سورة المؤمنون, ٩٩-١١٠]

---

[275] فضيلة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي، الحق الدامغ.

فالآية تتحدث صراحة عن الإنسان بغض النظر عما إذا كان مسلما أو غير ذلك، بدليل أنها قالت على لسانه "رب ارجعون لعلي أعمل صالحا"، ولم يقل: لعلي أؤمن! فهذا دليل على أنها عامة في الصنفين. ثم تقول بعد ذلك: إن من خفت موازينه في جهنم خالدون، ثم يطلبون بعد ذلك الخروج من النار فيقول الله عزوجل لهم: اخسئوا فيها ولا تكلمون! فهذا دليل أكبر من واضح على أنهم لن يخرجوا منها أبدا! وأما الدليل الثاني فهو قول الله تعالى في سورة الزخرف:

﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۝٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ۝٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧٦ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قال إنكم مَّٰكِثُونَ ۝٧٧﴾ [سورة الزخرف, ٧٤-٧٧]

فهذه الآيات دليل على أن المجرمين إذا دخلوا النار لا يخرجون منها، والمجرمون موجودون في المسلمين –اسما!– وهم أصحاب الكبائر! وحتى لا يجادل أحد ويقول إن المجرمون هم الكفار فقط، وهو ما لا يُقبل وإلا لقال الله: الكافرين أو المشركين! فنذكر الدليل الخاتم الذي يرد على هذه الدعاوى كلها ويؤكد ما ذهبنا إليها في فهم هذه الآية وهي قوله تعالى في سورة غافر:

﴿وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ۝٤٧ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ۝٤٨ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ۝٤٩ قَالُوٓاْ أَوَ لَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ۝٥٠﴾ [سورة غافر, ٤٧-٥٠].

فالله يقول إن الذين في النار سيطلبون تخفيف العذاب ولو ليوم واحد، ولا أعتقد أن هناك عاقل واحد سيقول إن الذين في النار هم كفار فقط ولا يوجد بينهم من كان مسلما اسما، فكل فرق المسلمين متفقة على أن هناك من سيدخل النار من المسلمين،

فهناك مسلمون في النار مع الكفار، و "الذين" اسم موصول عام يدل على شمول! فلو كان المسلمون سيخرجون من النار لقالت الملائكة للكفار ما ذكرته الآية، ثم تقول للمؤمنين: انتظروا فيوما ما ستخرجون، وفي جنة ربكم ستتمتعون، كما تمتع من قبلكم المؤمنون السابقون! واعتقد أن هذه الأدلة مجتمعة أكثر من كافية لرد هذه العقيدة إلا عند من يريد أن يتمسك بأي أحبال وهمية للنجاة بدون أن يساندها شيء من العمل الصالح.

رد الإباضية على الأحاديث والاستدلال العقلي

أما بخصوص رد الإباضية على الأحاديث الواردة في هذه المسألة وعلى الاستدلال العقلي، فيقول الأستاذ هلال بن صالح الهاشمي: "حديث الشفاعة "شفاعتي لاهل الكبائر من أمتي": إن هذا الحديث إن ترك على ظاهره كفي به إغراء لأهل الكبائر على انتهاك ما حرم الله ثم هم آمنون من عقوبة الله، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يشفع لهم، فلا حاجه إلى كبح النفس عن شهواتها، وسيكون أهل الكبائر ممن أتاهم الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة ووقاهم عذاب النار فيحتاج أن يقال في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨﴾ [سورة الـنازعات, ٣٧-٣٨]، ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾ [سورة الـنازعات, ٤١] لا كما ورد: ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ [سورة الـنازعات, ٣٩]، والعياذ بالله من مخالفة حكمه وتبديل قوله. يقول الشيخ الحارثي: "إن صح الحديث فلابد من تأويل "فإن تابوا" على غرار قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ [سورة الزمر, ٥٣] فلو سكتت الآية على ذلك لكان مطابقاً للحديث فليفرح أهل الكبائر لكن القرآن الكريم قال بعد ذلك مباشرة: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝٥٤﴾ [سورة الزمر, ٥٤]

ولقد جاء عن جابر بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم: "ليست شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" يحلف جابر على ذلك. ما لأهل الكبائر شفاعة لأن الله أوعد أهل الكبائر النار في كتابه. ويقول السالمى في شأن هذا الحديث: "وخالفت الأشاعرة فيها (الشفاعة) فأثبتوها لأهل الكبائر تعويلاً على حديث رووه: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" ويجاب بوجوه: أحدها: أنه خبر واحد لا يعارض القطعي. وثالثها: أنه عارضته رواية مثلها ونصها: "لا تنال شفاعتي أهل الكبائر من أمتي"، فهذه بتلك على أن هذه قد عضدها الكتاب، وتلك قد خالفته، فوجب: إما القول بوضع تلك الرواية إذ لو كانت الشفاعة لأهل الكبائر لتقرب إليه المتقربون بالكبائر، وإما القول بأنها معلقة بشرط دل عليه الكتاب وهو: "ما إذا تابوا"، فإن من فعل كبيرة وتاب منها كان مستحقا لأن يشفع له غيره. ولا يلزم من هذا تخصيص الشفاعة بمن أتى الكبيرة ثم تاب منها دون من أوفي طول عمره، لتغليب من عصا فتاب على من لم يعص قط، والفائدة من تخصيصه بالذكر دفع إياسهم من رحمة الله وتسهيل الطريق لهم "قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله" (...) أما استدلالهم العقلي: فجوابه أنهم وإن تساووا في الخلود فهم غير متساوين في العذاب كما أن الأبرار لا يتساوون في الثواب بل يتفاوتون بتفاوت الأعمال والنار دركات كما أن الجنة درجات."[276] اهـ

وهم لا يكتفون بردهم هذا على الأحاديث المستشهد بها في الباب، ولكنهم يستدلون بأحاديث أخرى متوافقة مع النص القرآني فيما يذهبون إليه، فيأخذون بظواهر الأحاديث بدون الإلتجاء إلى تأويلها كما يفعل أهل السنة، ولقد ذكر فضيلة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي في كتابه الحق الدامغ كثيرا من هذه الأحاديث، اخترنا منها بعضا مردوفة بتعليقه عليها: "روى البخاري ومسلم وغيرهما من طريق أبن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم: يا أهل النار لا موت و يا أهل الجنة لا موت كل هو خالد فيما هو فيه" وروى مثله البخاري من طريق أبي هريرة رضي الله عنه والطبراني والحاكم –وصححه من طريق

(276) هلال بن صالح الهاشمي، خلود أهل الكبائر في النار بين المؤيدين والمعارضين.

معاذ رضي الله عنه، ودلالته على صحة عقيدة القائلين بخلود أهل الكبائر في النار لا غبار عليها، فإنه يفيد أن ذلك يعقب دخول الطائفتين في الدارين. روى الطبراني وأبو نعيم وابن مردويه عن أبن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو قيل لأهل النار أنكم ماكثون في النار عدد كل حصاة في الدنيا لفرحوا بها، ولو قيل لأهل الجنة أنكم ماكثون فيها عدد كل حصاة لحزنوا ولكن جعل لهم الأبد" روى أحمد والبزار والحاكم والنسائي عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يدخل الجنة عاق ولا مدمن خمر" وفي رواية: "ثلاثة قد حرم الله عليهم الجنة، مدمن الخمر، والعاق لوالديه والديوث"، وهو الذي يقر السوء في أهله. أخرج البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من استرعاه الله رعية ثم لم يحطها بنصحه إلا حرم الله عليه الجنة" أخرج الشيخان وغيرهما من طريق أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالداً فيها أبدا، ومن قتل نفسه بسمٍّ فسمُّه في يده يتحساه في نار جهنم خالداً فيها أبداً، ومن نزل من جبل فقتل نفسه فهو ينزل في نار جهنم خالدا مُخّلداً فيها أبدا."اهـ

فهذه بعض نماذج لأحاديث ذكرها الشيخ الخليلي، وهم يأخذونها بظاهرها بلا تأويل، أما أهل السنة فيأولونها حتى تتوافق مع مذهبهم القائل بخروج أهل الكبائر من النار! ولست أدري ماذا أو كيف يأولون حديث قاتل نفسه، فلقد ذكر فيها التأبيد أكثر من مرة، والرواية في البخاري، والذي هو عندهم أصح كتاب بعد كتاب الله، والحاكم على كتاب الله في نفس الوقت!!

نخلص من هذا العرض بعدة نقاط:

1- لا توجد آية واحدة في القرآن تذكر خروج من دخل النار سواء كان موحدا أو من المشركين.

2- أهل السنة عمدتهم في هذه المسألة أحاديث آحاد، أما الإباضية ومن وافقتهم من الفرق الأخرى فعمدتهم آيات كتاب الله.

3- الخلود في اللغة موضوع للتأبيد، وليس للمكث الطويل،والقول بأنه يعني المكث الطويل يفقد الآيات القرآنية معناها.

4- لن يخسر الإنسان شيئا إذا اعتقد بعقيدة خلود أصحاب الكبائر في النار بل سيكسب إلتزامه بأوامر الله، أما مع العقيدة الأخرى فقد تؤدي به غالبا إلى التكاسل.

2- رؤية الله عز وجل

على الرغم من أن هذه المسألة ليست من المسائل الرئيسة في العقيدة مثل مسألة خلود المسلم مرتكب الكبيرة في النار، ولا تقدم قليلا أو كثيرا في سلوك الإنسان المسلم، أو في التصور العام لعقيدة الإنسان، إلا أنا وجدنا بعض العلماء يقولون بتكفير من ينكر رؤية الله عزوجل في الآخرة ولا يُجوّز الصلاة خلفهم. وأعجب جدا من مسلكهم هذا في هذه المسألة، فالمسألة من فرعيات العقيدة، وأدلة كل فريق من الفريقين لا تصل بأي حال من الأحوال إلى درجة تكفير المخالف، فلكل أدلته التي يستند عليها في دعواه. وحتى يعلم القارئ إلى أي مدى من الممكن أن يصل التطرف في أمور قد يكون الإنسان نفسه هو المخطأ فيها، نعرض للقارئ أدلة كل فريق من الفريقين، مطيلين النفس فيها بعض الشيء حتى يعلم القارئ كيف أن كثيرا من دعاوى التكفير –إن لم تكن كلها– لا أساس لها!

ما هي الأقوال الواردة في مسألة رؤية الله عز وجل؟

قبل الحديث عن هذه المسألة لا بد أن نعرف القارئ أنه يكاد لا يكون هناك خلاف بين المسلمين –باستثناء الصوفية!– بأن الله لا يُرى ولم يره أحد في الدنيا، وإنما الخلاف كل الخلاف في رؤيته عز وجل في الآخرة، فهل سيراه الناس أو المؤمنون فقط؟ أم لن يراه أحد مطلقا، مؤمنا كان أو منافقا أو فاسقا أو كافرا؟ اختلف في هذه المسألة –كالعادة– في داخل مذهب أهل السنة، فقيل يراه المؤمنون فقط، وقيل كل أهل المحشر وقيل المنافقون فقط، ويعلق الإمام بن القيم حول هذه المسألة في كتابه: حادي الأرواح, قائلا: "فقد دلت الأحاديث الصحيحة على أن المنافقين يرونه تعالى يوم القيامة، بل والكفار أيضا كما في حديث التجلي يوم القيامة، ثم قال: وفي هذه المسألة ثلاثة أقوال لأهل السنة: أحدها: أن لا يراه إلا المؤمنون. والثاني: يراه جميع أهل الموقف مؤمنهم وكافرهم، ثم يحتجب عن الكفار فلا يرونه بعد ذلك. والثالث: يراه المنافقون دون الكفار، والأقوال الثلاثة في مذهب أحمد وهي لأصحابه." اهـ

إذا فهناك خلاف بين أهل السنة حول من يرى الله عزوجل، ولكن من هم المنكرون لرؤية الله عزوجل مطلقا؟ يعدد فضيلة الشيخ الخليلي القائلين بهذا الرأي قائلا: "وذهب إلى استحالتها في الدنيا والآخرة أصحابنا –الإباضية– وهو قول المعتزلة والجهمية والزيدية والإمامية من الشيعة، وبه قال جماعة من المتكلمين المتحررين من أسر التقليد كالإمام الجصاص في "أحكام القرآن"، وجنح إليه الإمام الغزالي في بعض كتبه، بل صرح به في بعضها، وهو الثابت عندنا عن سلف هذه الأمة، فقد رواه الإمام الربيع رحمه الله عن أفلح ابن محمد عن أبى معمر السعدي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، ورواه عن جبير عن الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورواه عنه من طريق أبي نعيم عن العباس أبي إسحاق عن سعيد بن جبير عن نافع بن الأزرق، ورواه أيضا عن عائشة رضي الله عنها ومجاهد، وإبراهيم النخعي، ومكحول الدمشقي، وعطاء بن يسار وسعيد بن المسيب وسعيد بن جبير والضحاك بن مزاحم، وأبي صالح صاحب التفسير،

وعكرمة ومحمد بن كعب، وابن شهاب الزهري ومحمد بن المنكدر، وهو مقتضى ما رواه ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في قول موسى عليه السلام: "وأنا أول المؤمنين" أنه لا يراك أحد، وما رواه عن السدي أنه قال في قوله تعالى: "لا تدركه الأبصار" لا يراه شيء وهو يرى الخلائق، وستأتيك إن شاء الله رواية عبد بن حميد وابن جرير له عن مجاهد، ورواية ابن مردويه له عن ابن عمر رضي الله عنهما وعن عكرمة، ورواية ابن جرير وعبد بن حميد أيضا له عن أبى صالح، ونسبه ابن حزم أيضا إلى مجاهد وتعذر له في ذلك بأن الخبر لم يبلغ إليه وعزاه أيضاً إلى الحسن البصري وعكرمة." اهـ [277]

وقبل أن نخوض في هذه المسألة نتوقف لنظرح سؤالا، وهو:

هل من الممكن عقلا أن يُرى الله؟

ويعلق الشيخ حعفر سبحاني –شيعي إمامي– حول هذا السؤال قائلا: "إن الرؤية في منطق العلم والعقل لا تتحقق إلا إذا كان الشيء مقابلا أو حالا في المقابل، من غير فرق بين تفسيرها حسب رأي القدماء أو حسب العلم الحديث، فإن القدماء كانوا يفسرون الرؤية على النحو التالي: خروج الشعاع من العين وسقوطه على الأشياء ثم انعكاسه عن الأشياء ورجوعه إلى العين لكي تتحقق الرؤية، ولكن العلم الحديث كشف بطلان هذا التفسير وقال: إنها صدور الأشعة من الأشياء ودخولها إلى العين عن طريق عدستها وسقوطها على شبكية العين فتحقق الرؤية. وعلى كل تقدير فالضرورة قاضية على أن الإبصار بالعين متوقف على حصول المقابلة بين العين والمرئي أو حكم المقابلة، كما في رؤية الصور في. المرآة" اهـ [278].

[277] أحمد بن حمد الخليلي، الحق الدامغ.

[278] جعفر سبحاني، رؤية الله في ضوء الكتاب والسنة والعقل.

وبشيء من التفصيل يذكر الشيخ الخليلي الشروط الواجبة في الرؤية فيقول: "الرؤية البصرية المعهودة هي انطباع صورة المرئي في حدقة الرائي بقوة الذبذبات الضوئية الملتقطة للصور، ولها شروط:

أولها: سلامة الحاسة.

ثانيها: أن يكون المرئي جائز الرؤية فيخرج بذلك ما كان ممتنعها كالروح والعقل والروائح والأصوات.

ثالثها: مقابلته للباصرة في جهة من الجهات أو انعكاس صورته في شيء مقابل للرائي، وتدخل في ذلك الصور المرئية في المرايا أو الشاشات.

رابعها: أن لا يكون دقيقا جدا كالميكروبات التي تعجز الأبصار عن التقاط صورها وإدراك حقيقتها، وذلك يختلف باختلاف حالة البصر قوةً وضعفا.

خامسها: أن لا يكون في منتهى اللطافة كالنسيم.

سادسها: أن لا يكون قريبا جداً فان الالتصاق بالأبصار يحجبها عن الرؤية، ولذلك تحجب الأجفان الأحداق عن رؤيتها.

سابعها: عدم غاية البعد، فإن البعيد جدا يضعف البصر عن رؤيته، ولذلك تخفي عن أبصارنا الأجرام السماوية الضخمة لإيغالها في البعد. وتختلف الحالة في هذا الشرط باختلاف الأبصار قوة وضعفا واختلاف المبصرات صغرا وكبرا.

ثامنها: عدم الحجاب الحائل وهو الجسم الكثيف أو ما في حكمه كالضباب المتراكم.

تاسعها: أن يكون مضيئا بنفسه أو واقعا عليه ضوء غيره. وقد اعترض على هذا الاستدلال بأن هذه الشروط إنما هي في رؤية الشاهد، ولا يجوز أن تحمل عليها رؤية الغائب. وأجيب بأن الرؤية المعهودة عند الناس هي هذه، ولا فرق في ذلك بين الشاهد

والغائب، على أن مثبتي الرؤية أنفسهم قاسوا الغائب على الشاهد في باب الصفات، فما بالهم يفرُّون هنا مما لجأوا." اهـ [279]

ونظرا لأن كل هذا غير جائز أو مقبول عقلا مع الله عزوجل، ظهرت بعض المحاولات والتفسيرات التي تبرر الرؤية بأي شكل كانت، ومن ذلك ما ذكره الشيخ جعفر سبحاني، معلقا على هذه الجهود، حيث ذكر التبريرات اللامنطقية و اللاعقلية لعقلنة الرؤية!!

محاولات تجويز الرؤية

ولتجويز رؤية الله في اليوم الآخر, ظهرت بعض التسويغات, مثل:

1- الرؤية بلا كيف: هذا العنوان هو الذي يجده القارئ في كتب الأشاعرة، وربما يعبر عنه خصومهم بالبلكفة، ومعناه أن الله تعالى يرى بلا كيف وأن المؤمنين في الجنة يرونه بلا كيف، أي منزها عن المقابلة والجهة والمكان (...)

2- اختلاف الأحكام باختلاف الظروف: إن بعض المثقفين من الجدد لما أدركوا بعقولهم أن الرؤية لا تنفك عن الجهة التجأوا إلى القول بأن كل شيء في الآخرة غيره في الدنيا، ولعل الرؤية تتحقق في الآخرة بلا هذا اللازم السلبي.

3- عدم الاكتراث بإثبات الجهة: إن أساتذة الجامعات الإسلامية في الرياض ومكة المكرمة والمدينة المنورة بدلا من أن يجهدوا أنفسهم في فهم المعارف ويتجردوا في مقام التحليل عن الآراء المسبقة، نراهم يقدمون لشباب الجامعات وخريجيها دعما ماليا وفكريا لمواصلة البحوث حول الرؤية في محاولة لإثباتها وإثبات الجهة لله تعالى.

---

[279] أحمد بن حمد الخليلي، الحق الدامغ.

وبعد أن عرضنا للجانب العقلي لرؤية الله عزوجل، نبدأ في عرض أدلة المثبتين والنافين للرؤية ليرئ القارئ بنفسه من أعلى حجة وبرهانا، ومن هو المتخبط في هذه المسألة.

وقبل أن نبدأ في عرض الأدلة ننبه القارئ إلى قاعدة هامة أصّلنا لها في أول الكتاب وهي اشتراط وضوح وصراحة العقيدة في كتاب الله، وسنذكر للقارئ هنا أقوال العلماء في مسألة الرؤية والرد عليها، ثم الرد على الرد والاستدلال بما قاله فلان ورواه علان في الرد على الرد على الرد!.

وسيلاحظ القارئ أنه لو احترم منطوق القرآن وتم مناقشة الروايات والأقوال على هذا الأساس لانتهى الأمر من بابه بدون طول جدال، ولكن كل الفرق قبلت التنازل بعض الشيء عن منطوق القرآن، فرأينا تلك المناقشات والمجادلات الكلامية التي يصعب على أي فريق أن يثبت أنه أنهى حجة خصمه، ونحن نرى أن كل فريق مقتنع أنه حاج خصمه فهزمه!لأن كل فرقة تنظر إلى أدلتها العقلية من زويتها هي وتركت النصوص القرآنية القاطعة البينة، ونبدأ الآن في ذكر ما عرضه الشيخ الخليلي حول هذه المسألة، حيث يقوم الشيخ الخليلي بعرض أدلة المخالف والرد عليها.

الرد على أدلة القائلين بالرؤية

ويسرد الشيخ أحمد الخليلي الأدلة في الرد على القائلين برؤية الله, فيقول: "وأما النقلي فبعضه من الكتاب وبعضه من السنة، أما من الكتاب فدليلان: سؤال موسى الكليم عليه السلام الرؤية بقوله: ﴿... رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَ ... ١٤٣﴾ [سورة الأعراف ,١٤٣]، ووجه استدلالهم به أنه إما أن يكون ناشئا عن جهل وهو مستحيل لاستحالة أن يجهل الأنبياء ما يستحيل عليه تعالى وهم أعرف بالله وبكبريائه، وما يجب له وما يستحيل عليه، وإما أن يكون مقترنا بعلمه –عليه السلام– أنها مستحيلة وهو باطل أيضا، لأن طلب المحال عمدا ليس من شأن الأبرار فضلا عن جوازه على النبيين، وإنما هو من شأن أهل العتو

والشقاق، فنتج عن ذلك أنها جائزة عليه تعالى وأن موسى عليه السلام عالم بجوازها، فلذلك اجترأ على سؤالها.

وأجيب بأنه عليه السلام كان عارفا باستحالتها ولم يرد بسؤالها نيل المستحيل، وإنما أراد ردع قومه الذين لجوا في طلبها وعلقوا عليها إيمانهم برسالته[280]، فلعلهم عندما يقرعون بالرد الحاسم باستحالتها يرعوون عن غيهم ويتراجعون عن جرأتهم، خصوصا عندما يقترن الرد بآية بينة تزجرهم عن مثل هذا التعنت.

---

[280] وردت عند الشيعة الإمامية بعض الروايات عن أئمتهم تحمل هذا المعنى، وبهذا يكون هذا القول هو الفصل عندهم لتعاضد أدلة العقل والنقل عليه، ومما ورد عند الشيعة في هذه المسألة ما ذكره الشيخ جعفر السبحاني في كتابه: "رؤية الله في ضوء الكتاب والسنة والعقل": "قال علي بن محمد بن الجهم: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى (عليهما السلام) فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك أن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى. فسأله عن آيات من القرآن، فكان فيما سأله أن قال له: فما معنى قول الله عز وجل ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي ... ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٤٣] كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران (عليه السلام) لا يعلم أن الله –تعالى ذكره– لا تجوز عليه الرؤية حتى يسأله هذا السؤال؟ فقال الرضا (عليه السلام): إن كليم الله موسى بن عمران (عليه السلام) علم أن الله تعالى عن أن يرى بالأبصار، ولكنه لما كلمه الله عز وجل وقربه نجيا، رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله عز وجل كلمه وقربه وناجاه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعت، وكان القوم سبعمائة ألف رجل، فاختار منهم سبعين ألفا، ثم اختار منهم سبعة آلاف ثم اختار منهم سبعمائة ثم اختار منهم سبعين رجلا لميقات ربه، فخرج بهم إلى طور سينا، فأقامهم في سفح الجبل، وصعد موسى (عليه السلام) إلى الطور وسأل الله تبارك وتعالى أن يكلمه ويسمعهم كلامه، فكلمه الله تعالى ذكره وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام، لأن الله عز وجل أحدثه في الشجرة، ثم جعله منبعثا منها حتى سمعوه من جميع الوجوه، فقالوا: لن نؤمن لك بأن هذا الذي سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا بعث الله عز وجل عليهم صاعقة فأخذتهم بظلمهم فماتوا، فقال موسى: يا رب ما أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا: إنك ذهبت بهم فقتلتهم لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك، فأحياهم الله وبعثهم معه، فقالوا: إنك لو سألت الله أن يريك أن تنظر إليه لأجابك وكنت تخبرنا كيف هو فنعرفه حق معرفته، فقال موسى (عليه السلام): يا قوم إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له، وإنما يعرف بآياته ويعلم بإعلامه، فقالوا: لن نؤمن لك حتى تسأله، فقال موسى (عليه السلام): يا رب إنك قد سمعت مقالة بني إسرائيل وأنت أعلم بصلاحهم، فأوحى الله جل جلاله إليه: يا موسى اسألني ما سألوك فلن أؤاخذك بجهلهم، فعند ذلك قال موسى (عليه السلام): ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ (بآية من آياته) فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ (يقول: رجعت إلى معرفتي بك عن جهل قومي) وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٤٣] منهم بأنك لا ترى. فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن،."

واعترض بأن أولئك القوم إن كانوا مؤمنين فبحسبهم جواب موسى لهم باستحالتها، فإنه الرسول الأمين المقرونة دعوته بآيات بينات لا تدع مجالا للشك في صدق قوله وصحة دعوته، وإن كانوا كفارا فلن يجديهم جوابهم باستحالتها في هذا الموقف شيئا.

ورُد هذا الاعتراض بأن القوم لم يكونوا على شيء من الإيمان، وكيف ينطبق وصف الإيمان على الذين قالوا: ﴿لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة﴾ وإنما أراد عليه السلام أن يقطع دابر شقاقهم ويستأصل شبهة عنادهم بجواب حاسم، يأتيهم من قبل الله العزيز الحكيم مخالف لوصف خطابه عليه السلام لهم، يتجلى فيه من الآيات ما يحسم كل شبهة، ويقضي على كل طمع في مطلبهم المستحيل. ومما يؤكد أن موسى عليه السلام لم يسألها لنفسه وإنما سألها لقومه، ما تكرر في القرآن من توبيخ الله لهم على هذا السؤال وعدّه من أعظم جرائرهم وأبلغ كفرهم، كما في قوله سبحانه: ﴿فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة﴾، وقوله: ﴿وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون﴾، واعتذار موسى إلى ربه بعد الرجفة مما حصل، عازياً إياه إلى السفهاء حيث قال عليه السلام: ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هي إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدي من تشاء أنت ولينا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين﴾. واعترض على ذلك بأمرين:

1- أنه عليه السلام لو لم يسألها لنفسه لما تاب من سؤاله.

2- أنه لو سألها لغيره لم يضفها إلى نفسه، ولقال رب أرهم ينظروا إليك ولم يقل رب أرني أنظر إليك!

وجواب الأول أنه عليه السلام سارع إلى التوبة لشعوره بالتورط بما سأل، وإن كانت له نية حسنة يعلمها الله تعالى، وإنما المقام يقتضي الاستئذان من الله قبل الإقدام على مثل هذا السؤال.

وعن الثاني بأن إضافتها إلى نفسه دونهم أبلغ في اقتناعهم باستحالتها عندما يعلمون أنه –مع علو مرتبته وصفاء سريرته مما يعلمون أنهم متلوثون به– لا تمكن له الرؤية التي هم ملحون في طلبها، وإذا تعذرت عليه فهي عليهم أشد تعذرا.

والخلاصة أن موسى عليه السلام ما سأل الرؤية طامعا في حصولها، وإنما سألها ليكون سؤاله وسيلة من وسائل الإقناع الذي يحرص عليه، وأسلوبا من أساليب الدعوة التي يقوم بها، ومثله في ذلك مثل إبراهيم عليه السلام الذي قال عندما رأى الكوكب والقمر والشمس (هذا ربي)، فإنه بالقطع لم يرد تأليهها، فإن العقل السليم لا يستسيغ بحال تأليه المخلوقات، فكيف بعقول النبيين الذين صنعوا على عين الله، واصطفاهم الله عز وجل لأن يكونوا وعاءً لهدايته وتجسيدا للحق الذي أرسلهم به" اهـ[281]

ونتوقف بعد هذا النموذج للعرض العقدي في كتب العقائد، فسنجد: أخذ ورد وأقوال واستدلالات، وإذا نحن نظرنا إلى منبت كل هذه الاستدلالات لوجدنا أن منبعها هو أن القائلون بجواز الرؤية استدلوا بالآية بشكل معين، فسلم لهم النافون! ثم أخذ النافون يجادلون في الآية ليخرجوها عن ظاهرها! ولكن مهما فعلوا فالآية واضحة فيما ذهب إليه النافون لأن أقوال النافين اجتهادات في تفسير! الآية وليس من منطوق الآية! ولكن نتوقف لنسأل: هل وجه استدلال المثبتين بالآية من الأساس سليم؟ السادة العلماء المثبتون انطلقوا من زاوية استحالة أن يكون موسى جاهلا باستحالة رؤية الله أو أنه كان عالما وعلى الرغم من ذلك طلب الرؤية! فهل منطلقهم هذا سليم؟ هنا نسأل السادة العلماء: متى كان هذا السؤال؟ قبل أم بعد التوراة؟ كان قبلها، بدليل أن الله أعطاه الألواح بعد هذا الموقف. فنسأل مرة أخرى: هل رؤية الله تعالى من المستحيلات العقلية البدهية؟ بداهة: لا، بدليل أننا رأينا من العلماء! من جوزها! فما المانع من أن سيدنا موسى قبل أن يؤتيه الله التوراة كان غير عارف بهذه الحقيقة؟ لا أرى أن هذا يقل من قدر الأنبياء، فقد يغيب عن عقل أي إنسان بعض الحقائق حتى ولو كان نبيا! هذا من

(281) المرجع السابق.

ناحية الاستدلال العقلي مقابل استدلالاتهم، فإذا نحن انتقلنا إلى الآية وجدنا أنها لم تقل أن موسى عليه السلام طلب الرؤية! ولكنه طلب رفع الحجب حتى يرى الله عزوجل!، فإذا كان العقل البشري يقول باستحالة رؤية الله عزوجل والأنبياء حتما عالمون بهذه الحقيقة، فإنه يقر أيضا أن الله لا يغيب عن خلقه –ليتذكر القارئ قصة سيدنا إبراهيم مع النجوم!–، فإذا كان الله لا يغيب عن خلقه وهو ظاهر فوق كل ظهور، فلا بد من وجود حجب تمنع الإنسان من أن يرى الله عزوجل، لذلك طلب موسى من الله عزوجل أن يريه لينظر إليه وليس أن يدعه ينظر إليه! فلو قالت الآية: دعني أنظر إليك، لكانت الآية حجة فيما يقولون، ولكنها قالت: أرني = أعطني القوة والمقدرة لأرى (أي أنها حالة خاصة أو استثنائية)، فانظر إليك! فموسى الكليم يعلم أن الله لا يرى في الحالات العادية ولكن ما خطر بباله هو أنه من الممكن أن يُرى في حالات استثنائية، لذلك قال: أرني أنظر إليك!

فهو يطلب مقدرة خاصة لينظر إلى الله تعالى وليس الرؤية مباشرة فعلمه الله تعالى أن الرؤية غير ممكنة حتى ولو أتته الإمكانية لأن المسألة متعلقة بطبيعته هو وبطبيعة الخلق، فعلق له الأمر على مسألة وهي النظر إلى الجبل ليعلمه ما معنى التجل الإلهي، وأن المستحيل يحدث فقط عندما يحدث المستحيل! فلما كان الجبل لن يستقر بل سيندك حتما فكذلك لن تحصل الرؤية أبدا. فلما أفاق أعلن موسى عليه السلام أنه تاب من الخاطر الذي جال بخاطره وهو أن الله من الممكن أن يريه نفسه كحالة استثنائية! – وعلمائنا الأفاضل قالوا إن الله سيرى كحالة استثنائية يوم القيامة ليتغلبوا على معضلة كيف يُرى الله يوم القيامة، ونسوا أو غفلوا أن هذه الآية تنهي وتلغي الطبيعي والاستثنائي. فانظر عزيزي القارئ كيف أن ترك التدقيق في كتاب الله يدخل المرء في نقاشات لا أول فيها ولا آخر، حيث يرى كل طرف فيها أنه هو الغالب.

ونواصل عرض أقوال الشيخ الخليلي في هذه المسألة، لنر كيف يرد على أدلة أهل السنة في هذه المسألة: "قوله تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة)، وهو أقوى ما استندوا إليه في هذا الباب، واعترِضوا بأن النظر أعم من الرؤية، فإنه يكون بمعنى

محاولتها ولو لم تتحقق، لجواز أن يقول قائل: نظرت إلى كذا فلم أره، مع عدم جواز أن يقول: رأيته فلم أره، ففي القاموس ما نصَّه: (نظره كنصره وسمعه، وإليه نظرا ومنظراً ونظراناً ومنظرة، وتَنْظَاراً تأمله بعينه) وفي شرحه للإمام الزبيدي نقلاً عن البصائر، والنظر أيضاً تقليب البصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص، ثم قال الشارح: ويقال نظرت إلى كذا إذا مددت طرفك إليه رأيته أو لم تره (...) وقد شاع النظر بمعنى الانتظار، كقوله تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة)، وقوله: (ما ينظرون إلا صيحة واحدة) وقوله: (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم)، وعليه يتعين حمل النظر في هذه الآية لوجوه:

1- إبعاد تأويل القرآن عن تعارض بعضه مع بعض، فإن حمل النظر في الآية على الرؤية يتعارض مع أدلة نفيها القطعية، وستأتي إن شاء الله.

2- الانسجام المعهود في آي القرآن وارتباط بعضها مع بعض، وهو لا يكون إلا بتفسير النظر بالانتظار، فإن الآيات قسّمت الناس يومئذ إلى طائفتين، إحداهما وجوهها ناضرة -أي مبتهجة مشرقة بما ترجوه من ثواب الله- إلى[282] ربها ناظرة: أي منتظرة لرحمته ودخول جنته، والأخرى مباينة لها في أحوالها، فوجوهها باسرة -أي كالحة مكفهرّة لما تتوقعه من العذاب- تظن أن بفعل بها فاقرة أي تتوقع أن ينزل بها ما يقطع فقار ظهورها، فَنَضَارَةَ هذه الوجوه مقَابَل ببسور تلك، وانتظاره هذه لرحمة الله ودخول جنته مقابَل بتوقع تلك للعذاب، ولو فسر النظر هنا بالرؤية لتقطع هذا الوصل بين الآيات، وتفكك رباطها، وذهب انسجامها، إذ لا تقابل بين الرؤية وما وصفت به تلك من ظنها أمراً يقطع فقارها، ومثل هذه النكت البلاغية لا تفوت البلغاء في كلامهم، منثوره ومنظومه، فما بالكم بكلام الله تعالى الذي هو أدق في التعبير، وأبلغ في التصوير، وأكثر انسجاماً، وأشد ترابطاً من كل كلام (وكيف لا وهو كلام الله عزوجل؟).

(282) هناك من المعتزلة من فسر قوله تعالى "إلى" بمعنى "نِعم" أي أنها تنظر نِعم ربها !

3- أن هذا التأويل هو الذي يتفق مع ما في خاتمة عبس، وهو قوله سبحانه: (وجوه يومئذ مسفرة ضاحكة مستبشرة ووجوه يومئذ عليها غبرة ترهقها قترة)، إذ لا فارق بين ما وصفت به وجوه المؤمنين هنا من الاستبشار، ووصفت به في آي القيامة من النظر بمعنى الانتظار، فإن المنتظر للرحمة مستبشر بها والمستبشر منتظر لما استبشر به.

4- أن تقديم المعمول على عامله يؤذن بقصره عليه، فتقديم (إلى ربها) على (ناظرة) يؤذن أنها لا تنظر إلا إليه، وهو لا يتفق إلا مع تفسير النظر بالانتظار، فلو كان المراد به الرؤية لاقتضى أنهم لا يرون شيئاً غيره تعالى مع ما هو معروف عقلاً ونقلاً من رؤية بعضهم لبعض، ورؤيتهم لما أعد الله لهم من النعيم. وأنكر المثبتون تفسير النظر بالانتظار من ثلاثة أوجه:

أولها: أن في الانتظار تنغيصاً يتنافي مع إكرام الله لعباده الأوفياء يوم القيامة

ثانيها: أن انتظار رحمة الله من قبل عباده المؤمنين أمر حاصل في الدنيا، فكيف يوعدون به في الآخرة.

ثالثها: أن تعدية النظر "بإلى" تمنع من حمله على الانتظار، خصوصاً إذا أسند إلى الوجوه.". وبعد أن أنهى الشيخ الخليلي ذكر الأدلة والاعتراضات، أخذ يذكر الأدلة من اللغة على أن "النظر" قد يتعدى ب "إلى" ويكون بمعنى الانتظار، فقال: "فلثبوت مجيء النظر بمعنى الانتظار حال تعديته بإلى النقول الثابتة والشواهد البينة[283] ولا عبرة بمن

---

[283] عندما رد الكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي على أدلة الشيخ الخليلي في كتابه المسمى: الرد القويم البالغ على كتاب الخليلي المسمى بالحق الدامغ، ذكر أدلة الشيخ الخليلي العقلية، ثم قال: "ج- إن هذا التأويل هو الذي يتفق مع مافي خاتمة عبس، وهو قوله سبحانه: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ۝ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ۝ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ۝﴾ [سورة عبس ,٣٨-٤١]. قال: إذ لافارق بين ماوُصفت به وجوه المؤمنين هنا من الاستبشار، ووصفت به في آية القيامة من النظر بمعنى الانتظار، فإن المنتظر للرحمة مستبشر بها والمستبشر منتظر لما استبشر به...) إلخ. فهذا خلاصة ماعند المؤلف الخليلي الإباضي، من محاولة لرد دلالة الآية على النظر إلى ربها بالأبصار، وإنما المقصود به الانتظار،كما يقول، ومعلوم أن هذا هو ردّ المعتزلة للآية، ويظهر للقارئ أن الذي عند المؤلف هو رد الآيات بالدلالة اللغوية، وأن معنى النظر هنا هو الانتظار، ورد دلالة الآيات ثم دعواه أنه فسر الآية بذلك، حتى لا تتعارض مع أدلة نفي الرؤية القطعية كما يقول (ص:42-44)."اهـ

أنكر ذلك: قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم فمن النقول المصححة له قول صاحب اللسان: (ويقول القائل للمؤّمل يرجوه: إنما ننظر إلى الله ثم إليك، أي إنما أتوقع فضل الله ثم فضلك) ومن شواهده ما رواه الإمام الربيع رحمه الله عن سفيان بن عيينة عن الأعمش عن أبي راشد أن مولاة لعتبة بن عمير قالت: إنما أنظر إلى الله وإليك، فقال لها: لا تقولي كذلك، ولكن قولي: إنما أنظر إلى الله ثم إليك. وقول جميل بن معمر: وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتني نعما.

وقول آخر: إني إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغني الموسر. وقول غيره: كل الخلائق ينظرون سجاله نظر الحجيج إلى طلوعِ هلال. ولا وجه للتفرقة بين كونه مسنداً إلى الوجوه أو إلى غيرها، فإنه تحكم لا دليل عليه، على أنه جاء بهذا المعنى مع إسناده إلى الوجوه في كلام العرب، ومنه قول حسان:

وجوه يوم بدرٍ ناظرات إلى الرحمن يأتي بالفلاح

وقول البُعيث: وجوه بَهَالِيلِ الحجاز على الهوى إلى مَلِكٍ كهف الخلائق ناظرة." اهـ[284]

ولست أدري لم لم يذكر الدكتور علي الأدلة التي ذكرها الشيخ من اللغة، هل يرى أنها غير صحيحة فلم يكلف نفسه عناء الرد عليها، أم أنه أراد أن يؤسس للرد المعتمد على مخالفة هذا القول للغة؟! فإذا كان لهذا الرأي كل هذا الأدلة اللغوية فهو مقبول لغة لا محالة، ولكن يبدو أنه كان لا بد من عدم ذكر هذه الأدلة، لأن الدكتور سيقول بعد ذلك: "وإليك دحض تلك الشبه والرد عليها بما يبين زيفها ومغالطة مدعيها وذلك بما يأتي: أولاً: بيان معاني النظر، فإن له عدة استعمالات بحسب صلاته وتعدّيه بنفسه، وليس محصوراً في معنى الانتظار، وإليك تلك المعاني: فإن عدّي بنفسه فمعناه: التوقف والانتظار كقوله تعالى: ﴿... ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ ... ⑬﴾ [سورة الحديد ,١٣]. وإن عدّي بفي فمعناه: التفكر والاعتبار، كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ... ⑱⑤﴾ [سورة الأعراف ,١٨٥]. وإن عدّي، بإلى فمعناه: المعاينة بالأبصار، كقوله تعالى: ﴿... ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ ... ⑨⑨﴾ [سورة الأنعام ,٩٩]. قال أبو منصور الأزهري في كتابه تهذيب اللغة (371/14): (ومن قال: إن معنى قوله: {إلى ربها ناظرة} بمعنى منتظرة فقد أخطأ، لأن العرب لاتقول: نظرت إلى الشيء بمعنى انتظرته، وإنما تقول: نظرت فلاناً، أي انتظرته... فإذا قلت: نظرت إليه لم يكن إلا بالعين، وإذا قلت: نظرت في الأمر احتمل أن يكون تفكراً وتدبراً بالقلب) اهـ.. ولكن كل هذه الأدلة منقوضة بذكر الشيخ الخليلي لأدلة من اللغة على ما يقول!!

[284] المرجع السابق.

وبعد أن أنهينا عرض الشيخ الخليلي للأدلة والرد عليها، نتوقف نحن لنرى ماذا تقول الآية التي تنازعها الطرفان، الآية تقول: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝﴾ [سورة القيامة, ٢٢-٢٣]، وأول ملاحظة نخرج بها هي أن الله عزوجل لم يقل "أناس أو عيون" وإنما قال "وجوه"، والله عزوجل لا يستخدم كلمة مكان كلمة عبثا أو من أجل الناحية الجمالية فقط، وإنما لكل كلمة معنى مراد يوجب مجيئها في هذا السياق، فهنا استعمل كلمة وجوه. والناظر في آيات كتاب الله تعالى يجد أن الله عزوجل يذكر أحوالا كثيرة للوجوه يوم القيامة، مثل قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ۝﴾ [سورة الغاشية, ٢]، ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ۝﴾ [سورة عبس, ٤٠]، ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ۝﴾ [سورة طه, ١١١]، ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝﴾ [سورة آل عمران, ١٠٦].

وسيلاحظ القارئ أننا لم نذكر كأمثلة إلا الآيات التي ذكر فيه الوجه بدون إضافة، فلم نذكر آية فيها وجوههم أو وجوهكم، وإنما كل الآيات تذكر الوجوه بدون إضافة، وكلها في اليوم الآخر. فإذا أردنا أن نفهم لفظة الوجوه في آية منها، لا بد أن تفهم في باقي الآيات بنفس المعنى. ولقد كنت أرى أن المقصود من الوجوه هم القادة من القوم، كما يقال: هو وجه في قومه، أي كبير وعظيم في قومه! ولكن استقراء الآيات أظهر أن المقصود حتما هو الوجه، فكما فهمنا أن الوجوه في سورة الغاشية وعبس وآل عمران هي الوجوه المعروفة كاملة، فلا يمكن أن تفهم الوجوه الواردة في القيامة إلا على أنها كل الوجوه وليس العيون فقط. إذا لو كان المقصود العيون لقال ذلك! فإذا فهمنا أن المقصود من الوجوه هو الوجوه كاملة، تظهر مشكلة وهي أن الوجوه لا ترى! فنخرج بأن الاستدلال بهذه الآية على مسألة الرؤية استدلال في غير محله، وعلينا أن نبحث

عن معنى يناسب الوجه! فنجد أن الانتظار[285] يناسب الوجوه، فكما أن النضرة والغبرة والقترة والخشوع كلها علامات وآثار تظهر على الوجوه، فكذلك الانتظار يظهر على الوجوه. ويكون معنى الآية: أن الإنسان المؤمن الطائع، والذي هو حتما وجه!–كبير وعظيم– يوم القيامة، يشعر أنه من الفائزين الناجين يوم القيامة، فيرفع رأسه منتظرا حساب الله عزوجل له حتى يدخل الجنة، فهو في أمن يوم الموقف، أما الوجوه الباسرة فتظن أن يفعل بها فاقرة، لأنها ترى أن أعمالها ستقودها حتما إلى النار. فالآية توضح موقف الناس يوم القيامة، بين مشتاق إلى الله وناظر حسابه وبين متوقع لعذاب الله! ولست أدري ما علاقة الآية بالنظر.

سيقول القارئ: ولكن السادة المفسرين كلهم أخذوا هذه الآية كدليل، والمعترضون أنفسهم لم يطعنوا في كون الآية دليل، ولكنهم أولوها بشكل معين، فكيف تقول ذلك؟ نقول: أرجوا أن تتذكر عزيزي القارئ التمهيد الطويل الذي ذكرناه في الباب الأول حول الفوضى اللغوية المنهجية التي استعملت مع كتاب الله عز وجل. فليس استعمال أحد من البشر كلمة بمعنى خاطئ حجة على الله، وإنما قول الله هو الحجة على كل إنسان، والذي يجب على كل مسلم أن يجتهد أن يفهمه ويتدبره كما هو، لا أن يلوي النص ويفهمه كما لم يقل الله عز وجل، ثم يوقعه فهمه في إشكاليات عدة، فيضطر من أجل التوفيق بينها أن يأول إلى مالانهاية، وهكذا يقع مبضع التأويل على كتاب الله فلا يرفع!

ونواصل الرحلة مع أدلة الشيخ الخليلي في جداله مع المثبتين: "(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)، فقد فسروا الحسنى بالجنة والزيادة بالرؤية، مستدلين بحديث صهيب عند

---

[285] لست أدري لم لم يقل القائلون بالمجاز أن المقصود من "نظر إلى" هو اهتم بالشيء وأعاره انتباهه، فيكون المقصود من الآية أن كل اهتمام الوجوه وانتباههم هو الله عز وجل وليس رؤيته، ولذلك القول دليل في كتاب الله تعالى وهو قوله عزوجل : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ ... ٧٧﴾]سورة آل عمران ,٧٧[، فلا يمكن القول إن الله ينظر إلى فلان ولا ينظر إلى آخر، فالله محيط بكل شيئ سمعا وبصرا وعلما، وإنما المقصود أن الله لا يهتم بهم ولا يعيرهم انتباهه، –ولا يعني ذلك أنه غافل–، ولكن الأمر كمن يخاطبك وأنت لا تسمع باهتمام لما يقول، على الرغم من أنك تسمع كل كلمة منه وتراه أمامك، ولكنك لا تعيره هو أو كلامه أي اهتمام. ففهم النظر إلى ب "الاهتمام والانتباه" فهم مقبول لست أدري كيف غفلوا عنه!

الشيخين مرفوعاً: (إذا دخل أهل الجنةِ الجنةَ نادى منادٍ إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، قالوا: ألم تبيضْ وجوهنا، وتنجنا من النار، وتدخلنا الجنة، قال: فيكشف الحجاب، قال: فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه). وأنتم ترون أن لفظة الزيادة مبهمة غير دالة على الرؤية وضعاً ولا استعمالاً؛ من قريب ولا من بعيد؛ أما الحديث الذي عوَّلوا عليه في تفسيرها فدلالته على ما قالوه ضعيفة جداً.

أولا: فلأن النظر لا يلزم أن يكون بمعنى الرؤية كما سبق بيانه في آية القيامة، وكشف الحجاب يجوز أن يكون كناية عن مزيد الإكرام ورفع الدرجات، وفتح أبواب العطاء غير المحدود، وهذا الذي يتعين أن يحمل عليه كشف الحجاب والنظر إلى الله في الحديث؛ لدفع التعارض بين آيات الله وأحاديث رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام.

ثانيا: فلأن حمل الزيادة على هذا المفهوم يتعارض مع ما استندوا إليه من المفهوم الذي عولوا عليه في تفسير آية القيامة، التي استندوا إليها في إثبات الرؤية، فإنه يلزمهم بموجب ذلك المفهوم أن تكون الرؤية حاصلة في الموقف قبل دخول الجنة، مع أنها حسب تفسيرهم لآية يونس وحديث صهيب لا تكون إلا بعد دخول الجنة.فلأن ذلك يتعارض مع حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما الذي استندوا إليه في إثبات الرؤية في الموقف. (!!)". اهـ.

ثم يبدأ الشيخ الخليلي في ذكر بعض أقوال للسلف فسروا فيها الزيادة بغير رؤية الله عزوجل، فيقول: "فقد روي عن السلف تفسيرهم الزيادة في الآية بغير الرؤية، فلو كان الحديث نصاً صريحاً صحيحاً على تفسيرها بالرؤية لما كان لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره، ومن أمثلة ذلك ما رواه الإمامان الربيع وابن جرير (روى ذلك ابن جرير عنه بثلاثة أسانيد) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسَّرها بغرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب، وروى الإمام الربيع عن ابن عباس مرفوعاً: (إن أهل الجنة لا يزالون متعجبين مما هم فيه حتى يفتح الله لهم باب المزيد فإذا فتح لهم كان لا يأتيهم منه شيء إلا وهو أفضل مما في جنتهم)، وروى ابن جرير عنه وعن علقمة بن قيس أن الزيادة مضاعفة الحسنة إلى

عشر أمثالها، وهذا رواه الإمام الربيع عنه وعن الحسن. وروى الإمام الربيع بإسناده إلى الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه أنه فسر الزيادة بغرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب –كما سبق عن ابن عباس– وروى ابن جرير عن الحسن أنه فسرها بمغفرة من الله ورضوان، وهو مروي عن مجاهد عند الربيع، وروى الربيع عن أبي حازم، وابن جرير عن ابن زيد أنها عدم محاسبتهم على ما أعطاهم في الدنيا. وروى الربيع عن الشعبي أن الزيادة دخول الجنة، وعن محمد بن كعب ما يزيدهم الله من الكرامة والثواب."اهـ

فإذا نحن نظرنا إلى الآية نفسها وإلى الأقوال الواردة في تفسيرها! وجدنا أن بعضها قرب من الفهم الصحيح لها، ولننظر إلى الآية لنر ما تقول: الله عزوجل يقول: "للذين أحسنوا الحسنى"، فهل الحسنى هي الجنة؟ لا، بداهة هذا كلام لاصواب فيه فالحسنى ليست الجنة قطعا الله تعالى يقول: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ وَلَا يَرۡهَقُ وُجُوهَهُمۡ قَتَرٞ وَلَا ذِلَّةٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٦﴾ [سورة يونس, ٢٦]، والحسنى معروفة وهي ليست الجنة، فالمعنى أن من يحسن يُحسن إليه بزيادة على أعماله عامة سواء في الدنيا والآخرة، أما في الآخرة فلا يرهق وجهه قتر ولاذلة ثم يكون من أصحاب الجنة. أما على تفسيرهم العجيب فيكون المعنى: للذين أحسنوا الجنة وزيادة وفي موقف الحشر لا يرهق وجوههم قتر ولاذلة –علم هذا بداهة من كونهم في الجنة–، و هم أصحاب الجنة! هل هذا تفسير مقبول معقول؟!! ولو افترضنا جدلا أن الحسنى هي الجنة، لم لا نقول أن الزيادة هي كلام الله أو الملائكة وليست رؤيته؟! فهناك آية تقول: ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا ٨٨﴾ [سورة الكهف, ٨٨] فتكون الزيادة من باب القول كما في الآية هنا وليست من باب الرؤية؟!

إذا فالآية لا مستند فيها لمن يثبت أو ينفي ولا علاقة لها بالباب بتاتا وإنما هي تتحدث عن فضل الله في معاملة عبادة في الدنيا والآخرة وأنه يعاملهم بالفضل مع العدل!.

ونواصل الرحلة مع الشيخ الخليلي في مناقشته لأدلة القائلين بالرؤية: "قوله تعالى: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)، ووجه استدلالهم به: أنه كما دل منطوقه على حجب

الكفار عن ربهم، فمفهومه دال على أن المؤمنين يرونه. لأن حجب الكفار عقاب توعدوا به فلا يليق بالمؤمنين إلا خلافه. وهو استدلال ساقط من عدة أوجه: أولهما: أن الحجاب في الآية كناية عن الحرمان من رحمته، والإبعاد عن دار كرامته، كما أن التقرب منه سبحانه لا يكون حسياً وإنما يفسر بامتثال ما أمر به من الطاعات، واجتناب ما نهى عنه من المعاصي، وكذلك تقرب الله من العبد لا يعني إلا إحاطته برعايته الرحمانية، وغمره بألطافه الربانية. ثانيهما: أنه استدلال بمفهوم المخالفة، وهو حجة ظنية اختلف العلماء في الأخذ بها في الأمور العملية الفرعية، فكيف بالقضايا الإعتقادية الأصلية مع أن الاعتقاد ثمرة القين، على أن المفهوم هنا أقرب أن يكون مفهوم لقب، وهو أضعف المفاهيم بإجماع الأصوليين والفقهاء، وسائر أصحاب فنون العلم، حتى أنهم عدوا من أخذ به من الفقهاء في الفروع شاذا. ثالثهما: أنه لو جاز الإستناد إلى هذا المفهوم في إثبات رؤية المؤمنين لله يوم القيامة، لكان أحرى أن يستند إلى مفهوم يفيده التقيد بـ (يومئذ) في إثبات رؤية الكفار له تعالى قبل ذلك اليوم."[286] اهـ

ونلاحظ أن الشيخ الخليلي يورد اعتراضات سلبية على الآية، من باب "إذا كان هذا لا يجوز، فذلك كذلك!"، والآية واضحة في بيانها ودليل الخطاب حجة بدهية لا يجادل فيها إلا الفقهاء!!! فالشيخ غفر الله له ولنا حام حول الآية ثم فسرها بالكناية!

ونتوقف مع هذه الآية لنر ما تقول: نلاحظ أن الآية تتحدث عن حجب للكفار عن "ربهم" وليس عن رؤية ربهم يوم القيامة!. ونسأل: لم يقل الله عزوجل: عن الله أو عن الإله؟

بداهة: لأن الكافر لا يعترف بالله أو بألوهيته، ولكنه شاء أو أبى سيظل عبدا لله ويظل الله له ربا. والرب هو الذي يرعى و يرزق ويخلق ويعطي ويمنع، أما الإله فهو الذي يأمر وينهي. ثم تخصص الآية الحجب بقوله: يومئذ، فيعني هذا أنهم لم يكونوا محجوبين عنه قبل ذلك، ولكن يكونوا محجوبين عنه بعد ذلك، أي أنهم بعد ذلك حين يصلوا

[286] المرجع السابق.

الجحيم سيرفع الحجب! فالآية تتحدث عن حجب في موقف مخصوص سيحدث للكفار المنكرين ليوم القيامة فلا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم!، أما بعد ذلك فسيرفع الحجب ويتساوى في ذلك الكفار والمؤمنون في عدم الحجب ولكن المؤمنون في الجنة والكفار في الجحيم. فيكون معنى الآية أن الكفار حجبوا عن ربهم فلا يصل إليهم منه شيء من فضله ونعمه، –ثم يحاسبون– ثم يدخلون النار فيصل إليهم عقاب الله وسخطه وعذابه!

والملاحظ أن الله عزوجل يقول إن الكفار يحجبون عن ربهم ثم يستدل بها السادة الفقهاء على أن الله هو الذي يحتجب عن بعض من خلقه ويظهر لآخرين. ويحق لي ولك عزيزي القارئ أن تضع من علامات التعجب ما يحلو لك! إذا يظهر أن الآية لا علاقة لها بمسألة الرؤية. وتبقى بعض الآيات التي يستدل بها على رؤية الله عزوجل يوم القيامة ولكنها أضعف في الاستدلال من هذه، فإذا سقط الاستدلال بهذه سقط الاستدلال بالأخريات من باب أولى. فإذا نحن أثبتنا أنه لو وجود لهذه العقيدة في القرآن ثبت بداهة أنه لا وجود لها في السنة الصحيحة! ولكنا نجد أنه وردت بعض الروايات تقول برؤية الله عزوجل يوم القيامة، وهذه هي عمدة القائلين بالرؤية، فنعرض لها لنر ما هي أدلتهم في السنة، وهل هي خالية من التناقض الداخلي أما مليئة بالتناقضات؟! –بغض النظر عن تعارضها مع كتاب الله عزوجل–.

أدلة المثبتين للرؤية من السنة

استدل المثبتون للرؤية من السنة بأدلة كثيرة، نورد نحن أهمها وهو حديث الرؤية الوارد في البخاري وكذلك حديث الشفاعة الوارد في البخاري كذلك والتي ذكرت فيه الرؤية عرضا، لنر هل هذه الأدلة –بغض النظر عن ظنيتها!– صالحة أن تنهض كأدلة على عقيدة؟ ونعرض للقارئ نص الحديثين أولا ثم نعلق بعد ذلك عليهما: "عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ نَرَى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ هَلْ تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ

الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ إِذَا كَانَتْ صَحْوًا قُلْنَا لَا قَالَ فَإِنَّكُمْ لَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَةِ رَبِّكُمْ يَوْمَئِذٍ إِلَّا كَمَا تُضَارُونَ فِي رُؤْيَتِهِمَا ثُمَّ قَالَ يُنَادِي مُنَادٍ لِيَذْهَبْ كُلُّ قَوْمٍ إِلَى مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ فَيَذْهَبُ أَصْحَابُ الصَّلِيبِ مَعَ صَلِيبِهِمْ وَأَصْحَابُ الْأَوْثَانِ مَعَ أَوْثَانِهِمْ وَأَصْحَابُ كُلِّ آلِهَةٍ مَعَ آلِهَتِهِمْ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ وَغُبَّرَاتٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ثُمَّ يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ تُعْرَضُ كَأَنَّهَا سَرَابٌ فَيُقَالُ لِلْيَهُودِ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ قَالُوا كُنَّا نَعْبُدُ عُزَيْرَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا فَيُقَالُ اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ ثُمَّ يُقَالُ لِلنَّصَارَى مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ فَيَقُولُونَ كُنَّا نَعْبُدُ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ فَيُقَالُ كَذَبْتُمْ لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ صَاحِبَةٌ وَلَا وَلَدٌ فَمَا تُرِيدُونَ فَيَقُولُونَ نُرِيدُ أَنْ تَسْقِيَنَا فَيُقَالُ اشْرَبُوا فَيَتَسَاقَطُونَ فِي جَهَنَّمَ حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ فَيُقَالُ لَهُمْ مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ فَيَقُولُونَ فَارَقْنَاهُمْ وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ الْيَوْمَ وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا قَالَ فَيَأْتِيهِمْ الْجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فيقول إنا رَبُّكُمْ فيقولون إنتَ رَبُّنَا فَلَا يُكَلِّمُهُ إِلَّا الْأَنْبِيَاءُ فَيَقُولُ هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ فَيَقُولُونَ السَّاقُ فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا ثُمَّ يُؤْتَى بِالْجَسْرِ فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا الْجَسْرُ قَالَ مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ عَلَيْهِ خَطَاطِيفُ وَكَلَالِيبُ وَحَسَكَةٌ مُفَلْطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عُقَيْفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ الْمُؤْمِنُ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَكَالْبَرْقِ وَكَالرِّيحِ وَكَأَجَاوِيدِ الْخَيْلِ وَالرِّكَابِ فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ وَنَاجٍ مَخْدُوشٌ وَمَكْدُوسٌ فِي نَارِ جَهَنَّمَ حَتَّى يَمُرَّ آخِرُهُمْ يُسْحَبُ سَحْبًا فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ لِي مُنَاشَدَةً فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِ يَوْمَئِذٍ لِلْجَبَّارِ وَإِذَا رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ نَجَوْا فِي إِخْوَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِخْوَانُنَا كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا وَيَصُومُونَ مَعَنَا وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ وَيُحَرِّمُ اللَّهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا ثُمَّ يَعُودُونَ فَيَقُولُ اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا قَالَ أَبُو سَعِيدٍ فَإِنْ لَمْ

تُصَدِّقُونِي فَاقْرَءُوا {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا}. فَيَشْفَعُ النَّبِيُّونَ وَالْمَلَائِكَةُ وَالْمُؤْمِنُونَ فَيَقُولُ الْجَبَّارُ بَقِيَتْ شَفَاعَتِي فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنْ النَّارِ فَيُخْرِجُ أَقْوَامًا قَدْ امْتُحِشُوا فَيُلْقَوْنَ فِي نَهَرٍ بِأَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ مَاءُ الْحَيَاةِ فَيَنْبُتُونَ فِي حَافَتَيْهِ كَمَا تَنْبُتُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ قَدْ رَأَيْتُمُوهَا إِلَى جَانِبِ الصَّخْرَةِ وَإِلَى جَانِبِ الشَّجَرَةِ فَمَا كَانَ إِلَى الشَّمْسِ مِنْهَا كَانَ أَخْضَرَ وَمَا كَانَ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ كَانَ أَبْيَضَ فَيَخْرُجُونَ كَأَنَّهُمْ اللُّؤْلُؤُ فَيُجْعَلُ فِي رِقَابِهِمْ الْخَوَاتِيمُ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ فَيَقُولُ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ الرَّحْمَنِ أَدْخَلَهُمْ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ فَيُقَالُ لَهُمْ لَكُمْ مَا رَأَيْتُمْ وَمِثْلَهُ مَعَهُ "

الحديث الثاني: حَدَّثَنَا قَتَادَةُ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يُحْبَسُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُهِمُّوا بِذَلِكَ فَيَقُولُونَ لَوْ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا فَيُرِيحُنَا مِنْ مَكَانِنَا فَيَأْتُونَ آدَمَ فيقولون إنتَ آدَمُ أَبُو النَّاسِ خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ وَأَسْكَنَكَ جَنَّتَهُ وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ لِتَشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا قَالَ فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ قَالَ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ أَكْلَهُ مِنْ الشَّجَرَةِ وَقَدْ نُهِيَ عَنْهَا وَلَكِنْ ائْتُوا نُوحًا أَوَّلَ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ سُؤَالَهُ رَبَّهُ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَكِنْ ائْتُوا إِبْرَاهِيمَ خَلِيلَ الرَّحْمَنِ قَالَ فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فيقول إني لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ كَذَبَهُنَّ وَلَكِنْ ائْتُوا مُوسَى عَبْدًا آتَاهُ اللَّهُ التَّوْرَاةَ وَكَلَّمَهُ وَقَرَّبَهُ نَجِيًّا قَالَ فَيَأْتُونَ مُوسَى فيقول إني لَسْتُ هُنَاكُمْ وَيَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ الَّتِي أَصَابَ قَتْلَهُ النَّفْسَ وَلَكِنْ ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ وَرُوحَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ قَالَ فَيَأْتُونَ عِيسَى فَيَقُولُ لَسْتُ هُنَاكُمْ وَلَكِنْ ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَبْدًا غَفَرَ اللَّهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ فَيَأْتُونِي فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي فَيَقُولُ ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ قَالَ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ قَالَ قَتَادَةُ وَسَمِعْتُهُ أَيْضًا يَقُولُ فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنْ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ الثَّانِيَةَ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي

عَلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يَقُولُ ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَ قَالَ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ قَالَ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ قَالَ قَتَادَةُ وَسَمِعْتُهُ يَقُولُ فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنْ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ ثُمَّ أَعُودُ الثَّالِثَةَ فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فِي دَارِهِ فَيُؤْذَنُ لِي عَلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُهُ وَقَعْتُ سَاجِدًا فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدَعَنِي ثُمَّ يَقُولُ ارْفَعْ مُحَمَّدُ وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ وَسَلْ تُعْطَهْ قَالَ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأُثْنِي عَلَى رَبِّي بِثَنَاءٍ وَتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ قَالَ ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا فَأَخْرُجُ فَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ قَالَ قَتَادَةُ وَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ فَأَخْرُجُ فَأُخْرِجُهُمْ مِنْ النَّارِ وَأُدْخِلُهُمْ الْجَنَّةَ حَتَّى مَا يَبْقَى فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ أَيْ وَجَبَ عَلَيْهِ الْخُلُودُ قَالَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ { عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا } قَالَ وَهَذَا الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي وُعِدَهُ نَبِيُّكُمْ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

والحديث الأول هو أشهر ما في الباب والذي يستدل به على الرؤية، فإذا نحن قرأنا الحديث قراءة متأنية وجدنا التالي: أول شيء يلاحظ هو التشبيه الحسي لرؤية الله عز وجل برؤية الشمس والقمر والضرر الذي قد يحدث من رؤيتهما، ولو أراد النبي أن يعبر عن ذلك بدون تشبيه أو تجسيم لقال: سترون ربكم بدون حجاب أو سفاحا أو مباشرة أو أي تعبير يفيد الرؤية بدون تشبيه بخلق من خلقه. ثاني نقطة تلفت الانتباه هي طلبهم السقيا، كأن الناس لا يشغل بالهم في هذا الموقف إلا الشرب! ثم ما العلاقة بين الشرب والسقوط في النار؟!! ثم كيف يسقطون في النار بدون أن يحاسبوا؟ الله عزوجل يقول: "يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها"، فأين جادلوا ومتى حوسبوا؟ لقد ألقوا في النار مباشرة!

أما مسألة الصورة فلها تعليق منفرد نذكره لاحقا، ثم ما هذا التصور الساذج عن وجود آية بين الله وخلقه؟! هل يحتاج الأمر إلى وجود علامة يعرفوا بها ربهم؟! ثم ما هذا الجسر الذي بين ظهراني جهنم؟ هل نسى الناس كم هي مساحة جهنم؟ لقد جاء في بعض الروايات أنها ستُجر يوم القيامة من سبعين ألف زمام يجر كل زمام سبعون ألف ملك! وبغض النظر عن صحة الرواية فجهنم لا محالة مترامية الأطراف وشاسعة المساحة

حتى أنها ستضم بداخلها مليارات من البشر! فكم يحتاج المرء من الوقت ليعبرها؟! وبغض النظر عن السرعة المكوكية التي سيعبر بها العابرون –نلاحظ أن البعض سيعبر حبوا، فقد يصل بعد ثلاثة ملايين سنة فقط!!–، هذا تصور بدائي عن نار موضوعة على الأرض وبعده تأتي الجنة! هذا التصور أقرب ما يكون إلى الخندق الذي يفصل المحاسبين في أرض المحشر عن دخول الجنة، فإذا عبروا هذا الخندق الضيق فازوا، وإن لم يفلحوا سقطوا في النار! هذا بغض النظر عن أن هذه الرواية تناقض أن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف، فهذا جسر! والجسر حتما ليس حبلا!

ثم ما أن يجد المؤمنون أنفسهم في الجنة حتى يناجون ربهم فيمن في النار، بحجة أنهم كانوا يصومون ويصلون، فلماذا دخلوا النار إذا؟ فيمنحهم الله القدرة على دخول النار بدون أن تؤثر فيهم –فليس الأمر للخليل فقط إذا!– فيخرجون أناسا، ويبدو أن أبا سعيد أو الراوي الذي ألصق به الرواية شعر أن هذه المقولة (واسعة) بعض الشيء، فأراد أن يدلل على قوله بكتاب الله. ثم نقابل مفاجأة كبرى وهي أن الأنبياء والملائكة لم يكونوا قد شفعوا بعد! فيشفعون! –وما الذي كان يحدث قبل هذا إذن؟– ثم يشفع الرحمن فيدخل أناسا الجنة بغير عمل أو خير قدموه! وهنا نسأل: لماذا أخرج بعضا وترك بعضا؟

هذه كانت بعض الملاحظات السريعة حول هذا الحديث، ولنر ماذا يقول الحديث الآخر؟

أول ملاحظة أن المؤمنين محبوسون، فمتى كان هذا الحبس؟ قبل مجيء الله أم بعده؟ فإذا كان قبله فمعنى ذلك أن الرسول سيشفع قبل أن يأتي الله، فلا حاجة لهذا الاختبار؟ وإذا كان بعده فالمؤمنون قد دخلوا الجنة! ثم نجد الحديث يصف الخليل إبراهيم عليه السلام الذي وصفه الله عزوجل بأنه كان صديقا بأنه كذب ثلاث كذبات –تأثرا بما ورد في التوراة!–، وموسى الذي تاب فغفر الله له بنص سورة الإسراء يتكلم عن خطيئته، أما عيسى فلم يصدر منه شيء –ربما ينبع هذا التصور من التصور

المسيحي الذي يرى أن المسيح هو البشري! الوحيد الذي بدون خطيئة- ولكنه على الرغم من ذلك يرفض! فيأتون إلى الرسول فيستأذن على الله تعالى في داره! وهنا يقف المرء ويضع سبعين ألف علامة اعتراض، أي دار هذه الذي يسكن فيه ملك الملوك؟ هي دار حسية مثل أي دار لأي ملك أرضي، حيث يستأذن النبي فيدخل فيرى الله عزوجل! يعني أن الدار هي التي تمنع رؤية الله! وهذه الجملة لوحدها كافية لنسف الحديث نسفا ولكن علماء الحديث لم يشغلوا بالهم بمثل هذه الجمل التي من الممكن أن تغتفر ويغض المرء عنها الطرف!

ولكن نواصل لنر التعارض الداخلي والغيري! يخرج النبي(ص) من دار ربه! حيث حد الله تعالى له حدا فيدخل النار فيخرجهم ويدخلهم الجنة —وبداهة حرم الله جسده على النار مثل ما حرم أجساد المؤمنين السابقين-. وهنا يظهر نفس الإشكال: الناس دخلوا النار بدون أن يحاسبوا! ثم يدخل الرسول ليخرجهم، ونسأل: يفترض من الحديث السابق أن المؤمنين سيدخلون ليخرجوا المؤمنين، ثم بعد ذلك يأتي الأنبياء والملائكة ليشفعون و هنا يدخل النبي فيخُرج الناس قبل أي أحد آخر، فهل أُدخل المؤمنون أولا ليخرجوا المؤمنين، أم يدخل الرسول أولا ليخرج الناس الذين دخلوا النار بلا حساب؟! وهكذا تتواصل رحلات الرسول المكوكية بين دار الله عزوجل وبين النار وحيث يحد كل مرة له حدا فيخرجهم! حتى لا يبقى إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود! وهذا يناقض الحديث الفائت في أن الله يخرج أقواما لم يعملوا خيرا أو فعلا حسنا! فإذا كان هذا لم يحبسه القرآن، فمن يحبسه إذا؟ وماذا نفعل بقول الله تعالى، الذي يقول فيه: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [سورة البقرة ,٨١]. ونظرا لأن هذا القول قد يبدو مخالفا للقرآن استدل عليه بقول الله تعالى: ﴿... عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ [سورة الإسراء ,٧٩]!

كانت هذه بعض التناقضات الواردة في الحديث الكافية لرده تماما، بغض النظر عن ظنيته التي تجعله غير كافيا لتأصيل عقيدة حتى ولو كان خاليا من التناقض، لأنه لا

أصل له في القرآن. ونحن كنا قد تجاوزنا عن مسألة الصورة التي يقول بها مثبتو الرؤية، فنعود لنعرض الإشكالية الرهيبة للقول بصورة لله عزوجل. قد تكون الكلمة قد مرت على القارئ العادي، ولكنها تعني لا محالة أن الله جسم وأنه مثل أشياء كثيرة وليس ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾] سورة الشورى , ١١[!

ويعرض الأستاذ علي الحجري تناقضات تبريرات القائلين بالصورة في هذا الحديث، فيقول: "والذين أثبتوا رؤية الله سبحانه وتعالى في الموقف تضاربت أفكارهم حول المرئي؛ فمنهم من قال برؤية مَلَك، ومنهم من صرح برؤية صورة لبعض مخلوقات الله تعالى، ومنهم من قال برؤية الله ولكن رؤية تختلف عن رؤية الذات والعياذ بالله. صورة: قال ابن حجر: "(فيأتيهم الله في صورة)... قال ابن بطال تمسك به المجسمة فأثبتوا لله صورة، ولا حجة لهم فيه لاحتمال أن يكون بمعنى العلامة وضعها الله لهم دليلاً على معرفته"!. ونقل ابن حجر أيضاً: "... ثم يتبدى لنا الله في صورة غير صورته التي رأيناه فيها أول مرة". (متى رأيناه أول مرة، الله أعلم!) مَلَك: قال ابن بطال عن المهلب إن الله يبعث لهم ملكا ليختبرهم في اعتقاد صفات ربهم" ذات الله سبحانه وتعالى: حسب تصورهم تنطبع على ذات الله آثار الرضى والغضب، والعياذ بالله: "قال شيخ الإسلام عبد الله الأنصاري رحمه الله لمحجوبون عن رؤية الرضى فإن الشقي يراه غضبان حين يتجلى في المحشر قبل دخول الناس الجنة"!! له صورتان: صورة الرضى وصورة الغضب في وقت واحد!!!. أين ذهبت العقول المقدِسة؟ رؤية عامة ولكن ليست حقيقية للذات المقدسة: قال الدكتور آل حمد: "ثم إنه تعالى يرى يوم القيامة رؤية عامة بأعين الرؤوس يراه أهل الموقف وليست رؤية حقيقية للذات المقدسة التي رؤيتها أعلى نعيم أهل الجنة، فلا يقال إن غير المؤمنين يرى ذات الباري تعالى وتقدس. إذ الرؤية الحقيقية التي فيها النعيم خاصة بالمؤمنين بعد دخولهم الجنة"

وقال الدكتور آل حمد في موضع آخر: "وما ورد في حديث أبي سعيد الخدري من ذكر للرؤية العامة ليست رؤية حقيقية، حيث إنه رآه من يعبده بعد ذلك في صورة غيرها، ثم هذه الصورة الأخيرة، هل هي الحقيقية التي يراه عليها أهل الجنة أو غيرها، الصحيح

أنها غيرها، إذ إن الرؤية الكاملة هي المعبر عنها بالمزيد في آية سورة (ق) وهو (مَزِيدٌ) على نعيم الجنة، وهم لم يدخلوا الجنة حال الرؤية المذكورة حتى يحصل لهم المزيد، يتبين هذا من الأحاديث التي ذكر فيها المزيد". وقال الألوسي: "وكأني بك بعد الإحاطة وتدقيق النظر تميل إلى أنه سبحانه وتعالى يرى لكن لا من حيث ذاته سبحانه البحت ولا من حيث كل تجل حتى تجليه بنوره الشعشعاني الذي لا يطاق".

ونقل ابن حجر: "وقال الخطابي: هذه الرؤية غير التي تقع في الجنة إكراماً لهم، فإن هذه للامتحان وتلك لزيادة الإكرام كما فسرت فيه (الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)". رؤية للصورة التي تعرف بالصفة: "وأما قوله: فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون: فالمراد: التي يعلمونها ويعرفونه بها، وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه، لأنهم يرونه لا يشبه شيئاً من مخلوقاته، فيعلمون أنه ربهم". تحول الذات من صورة إلى صورة: قال النووي: "قوله صلى الله عليه وسلم: (يرفعون رؤوسهم وقد تحول في صورته)... ومعناه، وقد أزال المانع لهم من رؤيته وتجلى لهم". الذات العلية تطلع وتتوارى –والعياذ بالله–: قال ابن خزيمة: "ويبقى المسلمون فيطلع عليهم رب العالمين، فيقول: ألا تتبعون الناس، فيقولون: نعوذ بالله منك. الله ربنا وهذا مكاننا حتى نرى ربنا. وهو يأمرهم ويثبتهم، ثم يتوارى ثم يطلع فيقول: ألا تتبعون الناس فيقولون: نعوذ بالله منك، الله ربنا. هذا مكاننا حتى نرى ربنا، وهو يأمرهم ويثبتهم[287]." اهـ

فانظر عزيزي القارئ كيف أن السادة العلماء يحاولون بكل الطرق إثبات وتمرير هذا القول بالصورة مع تسليمهم بأنه مستحيل عقلا، لذلك أخذوا يحاولون أن يمرروها بأي شكل استثنائي! ولكن أنى لهم ذلك!

نخرج من نقد هذه الأحاديث المتعلقة بمسألة الرؤية أنها مليئة بالتناقضات ولا أصل لها في القرآن، فلا تصلح لتأسيس عقيدة يُكفّر أو يُفسّق منكرها، بل يلام العاقل على اعتقادها. فإذا ثبت عدم حجية الأدلة المستدل بها، وجب القول بصحة الرأي الآخر

[287] علي بن محمد بن عامر الحجري، المنهج والتطبيق في دراسة ونقد روايات رؤية الله.

بغض النظر عن أدلته، ولكن سنعرض أدلته من الكتاب والسنة في هذه المسألة من أجل تأكيدها لدى القارئ! وليعلم أي الفريقين خير سبيلا وأحسن مقالا!

أدلة النافين للرؤية من كتاب الله

بعد أن ناقشنا أدلة المثبتين للرؤية ووجدنا أنه لا ينهض دليل واحد منها للاستدلال به على ما يذهبون، ننتقل إلى أدلة النافين للرؤية، ونبدأ بأدلة النفي من القرآن:

1- أهم وأشهر دليل يستدلون به في هذه المسألة هو قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ۝١٠٣﴾ [سورة الأنعام ,١٠٣]، وهذه الآية تنهي –لمن تدبرها– مسألة إمكانية الرؤية، ولكن على الرغم من ذلك وجدنا من يجادل في الآية فيقول: الآية نفت الإدراك ولم تنف الرؤية! بل وهناك من قال –من أئمة التابعين!–: إننا لن ندرك الله كله كما أننا لا ندرك السماء كلها! وهذا يعني أننا سندرك بعض الله –حاشا لله!–، وأخذ المثبتون للرؤية يجادلون في الآية بمجادلات عجيبة، مثل قولهم: "إن الآية ليس فيها أكثر من نفي كون جميع الأبصار تراه –ما يعرف بسلب العموم– وليست نافية أن يكون كل فرد من أفراد جنس الأبصار رائيا له –ما يعرف بعموم السلب– والاتفاق على أنه تعالى لا تراه جميع الأبصار وإنما يراه بعضها، وأقل ما يقال بأن الآية محتملة لهذا المعنى، والدليل إذا طرقه الإحتمال سقط به الإستدلال.!! ولو طبقنا كلامهم هذا على آي القرآن لتركناه واتخذناه ظهريا ولما بقى لأي خبر أو أمر في القرآن أي قيمة!

ولندقق النظر في الآية لنر ماذا تقول: الآية تبدأ بقوله تعالى "لا تدركه"، فما هو الإدراك؟ درك كما جاء في مقاييس اللغة: "الدال والراء والكاف أصلٌ واحد، وهو لُحوق الشَّيء بالشّيء ووُصوله إليه. يقال أدْرَكْتُ الشّيءَ أُدْرِكُه إدراكاً. ويقال فرس دَرَكُ الطريدةِ، إذا كانت لا تَفوتُه طريدة. ويقال أدرك الغلامُ والجارية، إذا بلَغَا. وتدارَكَ القومُ: لَحِق آخرُهم

أوّلَهم. وتدارَكَ الثَّرَيَانِ، إذا أدرك الثَّرَى الثاني المَطَرَ الأوّل. فأمَّا قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ ... ﴿٦٦﴾﴾ [سورة النمل, ٦٦]، فهو من هذا؛ لأنَّ عِلْمَهم أدركَهم في الآخرة حين لم ينفَعْهم..." اهـ

إذا فالإدراك في اللغة يدور حول الوصول واللحوق، ومن ينظر في معاجم اللغة كاللسان وتاج العروس سيجد أن المعاني الكثيرة الواردة في هذا الباب تدور كلها حول هذا الأصل الواحد. فإذا كان هذا هو معنى الإدراك فما معنى الأبصار؟

جاء في المقاييس: "الباء والصاد والراء أصلان: احدهما العِلْمُ بالشيء؛ يقال هو بَصِيرٌ به." اهـ. هذا هو المعنى العام للبصر، فما هو معنى الأبصار؟ هل يعني الرؤية؟

الناظر في القرآن يجد أنه استعملها استعمالا واحدا، ولم يكن هذا الاستعمال بمعنى الرؤية أبدا! وإنما كان بمعنى آخر وهو القدرة على التمييز[288] إما القدرة على تمييز المَشاهِد بالعين "وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون"، فهم ينظرون إلى الرسول ويرونه ولكنهم لا يفهمون ولا يميزون! وإما التمييز بالعقل ﴿أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَتَكُونَ لَهُمۡ قُلُوبٞ يَعۡقِلُونَ بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [سورة الحج, ٤٦]، فالله يقرر في هذه الآية أن القدرة على تمييز الحق من الباطل والخطأ من الصوب لا ترتفع أبدا من الإنسان، ولكن القلوب التي تحرك الإنسان إلى قبول الحق أو رفضه هي التي تعمى فتجعل الإنسان يرفض الحق الجلي. ومن السياق يمكن تحديد مراد الله عزوجل من كلمة "الأبصار"، فإذا كانت في مثل الآية الأولى فيكون التركيز على الجزء العيني من عملية التمييز، وإذا كان في مثل الثانية فيكون التركيز على الجانب العقلي. فإذا رجعنا إلى آيتنا وهي قوله تعالى "لا تدركه الأبصار" وجدناها نفيا عاما يقرر أن الأبصار البشرية غير قادرة على الوصول إلى كنه الله عزوجل، فلا العقول ولا العيون قادرة على إدراك الله عزوجل. أما الله عزوجل فيدرك –

[288] رحم الله ابن فارس وإخوانه من اللغويين الذين جعلوا البصر أساسا بمعنى العلم ولكن الأدق ما قلنا.

ولاحظ أنه عزوجل لم يقل:يرى– الأبصار، فهو واصل إلى عمليات التمييز التي تجري في داخل الإنسان، على الرغم من كونها بالنسبة لنا من المجردات أو من الإشارات التي تجري في الإنسان، فأي فكر يجول في بالك فالله مدركه لا محالة. فنخرج من هذا أن الأبصار بمعنييها العيني والعقلي لا تدرك الله، لأن الله لا يمكن تمييزه عن غيره[289] وإلا وقعت المشابهة أو المقارنة فتأمل! وصدق الله الذي يقول: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [سورة الشورى, ١١].

2- قوله تعالى لسيدنا موسى بعدما طلب رؤيته: ﴿... قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ... ﴿١٤٣﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٤٣] فالله عزوجل يقرر لنبي من أولي العزم أنه لن يراه، والنفي هنا نفي مطلق، لم يحدد بزمان أو مكان، فلو وقع في الآخرة لكان الخبر كاذبا! ولما أراد الله عزوجل أن ينهي هذه المسألة عند سيدنا موسى وغيره، بين له أن المستحيل يحدث فقط عندما يحدث المستحيل! فإن استقر الجبل عند تجلي[290] الله عزوجل، –وهو مستحيل– فسيحدث المستحيل الثاني وهو أن يرى موسى الرب القدير! ولما كان المستحيل لا يحدث، لذلك لا يحدث المستحيل!!

ونلاحظ أن الله عزوجل ينكر أشد الإنكار على من يطلب رؤيته، ويعتبرها فعلة كبيرة تستحق عقاب الله عزوجل، فإذا كان الله عزوجل سيُرى في الآخرة، فلم لم يقل لبني اسرائيل الذين طلبوا الرؤية أنكم لن تروني في الدنيا وإنما في الآخرة فقط؟! وحتى لا يقول أحد أن الأمر من باب الاستنتاجات، فالله يقول ويفعل ما يشاء، نقول للمعترض: إقرأ قول الله تعالى القادم الذي يثبت رأينا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ

[289] الإنسان لا يمكنه تمييز الشيء إلا إذا كان مختلفا عن غيره في الحجم أو المساحة أو اللون، ولكن لو توافقت هذه الأوصاف فلن يستطيع الإنسان تمييزها وسيحسبها شيئا واحدا.

[290] نلاحظ أن الله عزوجل قال: "تجلى" ولم يقل: "ظهر"، فالله لا يمكن أن يظهر لأنه ظاهر أساسا، فهو أظهر ظاهر "هو الأول والآخر والظاهر والباطن"، ولكن الله تعالى تجلى فقط، وشتان بين الاثنين.

ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾] سورة الفرقان , ٢١-٢٢[. فالمتكبرون يريدون إنزال الملائكة أو رؤية الله فيخبرهم الله أنهم سيرون الملائكة في الآخرة ولكن حين يرون الملائكة لا بشرى، فبدليل الخطاب الآية نص على أن الناس لم ولن يرونهم في الدنيا، أما رؤية الله فهي بعيدة كل البعد لذا لم يذكرها ولم يعقب على قولهم واكتفي بالاستنكار.

3- قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾] سورة الشورى , ٥١[، وهذه الآية جلية في الدلالة، فإذا كان الإنسان لا يطيق كلام الله عزوجل ولا بد من وجود الوسيط أو الحاجب، فكيف يرى الله عزوجل، ويلاحظ أن السيدة عائشة استدلت بهذه الآية على نفي الرؤية! والعجيب أن الإمام البخاري أورد في صحيحه رواية عن عدي بن حاتم تقول: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه"، وهذا الحديث مردود بداهة بغض النظر عن سنده فهو مناقض للآية السابقة. فالحديث أبطل الآية تماما فجعل كل البشر يكلمهم الله بدون حجاب! فالآية تنفي أن يكلم الله أي أحد من البشر إلا بطُرق من بينها من وراء حجاب، أما الحديث فجعل الله سيكلم كل الناس بدون حجاب!! وعلى الرغم من ذلك نجد من يتمحك لقبول الحديث، إذا لم يكن هذا الحديث مخالفا لكتاب الله فكيف يكون الخلاف؟!!

4- ونختم الأدلة بدليل قد يكون جديدا بالنسبة للقارئ، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾] سورة غافر , ٧[، فنجد أن الآية تقول إن الملائكة يؤمنون بالله عز وجل! أي أن حملة العرش أنفسهم وهم من هم في المنزلة وعظم الخلقة والاستطاعة لم يروا الله عز وجل، بدليل أنهم يؤمنون به، والإنسان لا يؤمن إلا بما لم يره، فإن رآه لم يعد إيمانا!

فإذا كان حملة العرش لا ترى رب العرش العظيم، فهل تقدر وتستطيع أن تراه أنت أيها الإنسان الضئيل؟!!

وبعد هذا العرض الموجز لأدلة النافين للرؤية من القرآن ننتقل لعرض أدلتهم من السنة حول نفي رؤية الله عزوجل، فلديهم أيضا أدلة على ذلك ولكنها غير مشتهرة، ومن الممكن أن تكون معلومة لبعض القراء ولكن لأنه قرأها ودرسها بتأويلها منذ صغره فسيفاجأ بأنها ليست كما فُسر له بل هي على ظاهرها!

الأدلة من السنة على نفي الرؤية

أخرج الإمام ابن جرير عن مجاهد في رواية منصور عنه أنه قال: لا يراه من خلقه شيء. وفي رواية أخرى من طريقه كذلكً قال: كان الناس يقولون في حديث (فيرون ربهم) فقلت لمجاهد: إن أناساً يقولون إنه يُرى، فقال: يَرى ولا يراه شيء.

روى الإمامان البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن)، ووجه الاستدلال به صراحته في عدم رؤيتهم لله لحيلولة رداء الكبرياء بينهم وبين ذلك.

ما أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله(ص) قال عندما سئل عن رؤيته لربه: (نور أنَّى أراه). ووجه الاستدلال به أن الرسول استبعد فيه حصول الرؤية بقوله: (أنَّى أراه) فإن أنَّى بمعنى كيف، وهو شاهد على استحالة رؤيته تعالى.

ونكتفي بهذا القدر من الأدلة على نفي الرؤية والآيات القرآنية بمفردها كافية لإثبات نفي رؤية الله! وبهذا يرى القارئ العزيز أن نفي الرؤية هو الثابت من كتاب الله وسنة

رسوله، وأن القائل بالرؤية هو المخالف للعقل وللنقل وهو المتأول. وبذلك يظهر أن دعوى التكفير التي يتشدق بها المتشدقون في هذه المسألة وما شابهها من المسائل لا أصل لها، وأن أدلة القوم في مجملها على قولهم ظنية! وعجبت لمن يكفر الناس بدليل ظني!!

وتبقى بعض العقائد التي خالف الإباضية فيها أهل السنة، ولكنهم اشتركوا مع غيرهم من الفرق الإسلامية فيها، ولقد عرضنا لها سابقا فلا حاجة إلى إعادة الكلام فيها أو حولها.

أوجه التقارب بين الإباضية والأشاعرة

كنا قد ذكرنا للقارئ أن الإباضية من أقرب إن لم تكن أقرب الفرق الإسلامية إلى أهل السنة، فالفروق بيننا وبينهم بسيطة ويمكن التجاوز عنها، كما أن هذه الفروق لا تمثل أي إشكالية بالنسبة للإنسان العامي، بخلاف الفروق بيننا وبين الشيعة الإمامية مثلا، ونذكر للقارئ الكريم مقارنة أجراها الشيخ الفاضل علي يحيي معمر يوضح فيها الشبه القريب بين الإباضية والأشاعرة وأنهم أقرب إليهم من الماتريدية والذين يصنفون من أهل السنة!!

"أورد التعاريتي صورًا كثيرةً في الخلاف في العقائد (أصول الدين) بين أصحاب المذاهب الأربعة نستخلص منها الصور الآتية، وسوف نذكر ما يقوله الإباضية فيها، ومنها يتضح للقارئ الكريم أن التقارب بين الإباضية في هذه المسألة وهي أصول وبين الأشعريَّة أشدَّ كثيرًا من التقارب بين الأشعريَّة والماتريديَّة وأشدَّ كثيرًا أيضًا من التقارب بين الإباضية والمعتزلة (حيث يرى كثير من الكاتبين في المقالات والعقائد أن عقائد الإباضية معتزلية الأصل أو مشابهة لها بدرجة كبيرة –المؤلف–) وإلى القارئ الكريم هذه الصور:

1- يقول الأشعري أنَّ الصفات الذاتية زائدة على الذات وخالفه في -القدم والبقاء- الحنفيَّة والباقلاني وإمام الحرمين والفخر، قائلين إنَّها ليست زائدة على الذات، والإباضية يقولون في جميع الصفات الذاتية بما يقوله الحنفيَّة والباقلاني وإمام الحرمين في القدم والبقاء.

2- يقول الأشاعرة بجواز تخلف الوعيد، وخالفهم الحنفيَّة فقالوا كما لا يجوز خلف الوعد لا يجوز خلف الوعيد وبهذا القول يقول الإباضية.

3- يقول الأشاعرة والماتريديَّة أيضًا بأنَّ عصاة المسلمين لا يخلدون في النار، وخالفهم الإمام الغزالي فقال به والإباضية يقولون به.

4- خالف القاضي بن العربي والرازي، جمهور الأشاعرة فقالا في الأفعال بالجبر، وذهب إمام الحرمين مذهب المعتزلة والإباضية في هذا يقولون بما يقولون به الأشاعرة.

5- يقول الأشعري أنَّ لكلامه تعالى تعلّقا أزليًّا، وخالفه عبد الله بن سعيد وطائفة من متقدمي الأشعريَّة فيها قائلين: ليس لكلامه تعالى تعلّقًا أزليًّا ويرى الإباضية أنَّ الكلام من حيث هو صفة كمال فهو صفة ذات كالعلم والقدرة.

6- يرى الأشاعرة أنَّ الإيمان بالله تعالى واجب شرعًا واختلف الشافعيَّة في ذلك على قولين، وذهب أبو منصور الماتريدي إلى أنَّه واجب عقلاً ويتفق الإباضية مع الأشاعرة في هذه المقالة.

7- يرى عامة الأشعريَّة أنَّ الإيمان مخلوق وذهب جمهور الحنفيَّة إلى أنَّه غير مخلوق ويتفق الإباضية مع الأشاعرة في هذه المقالة.

8- يرى الأشعريَّة أنَّ الحسن ما حسَّنه الشرع، والقبيح ما قبَّحه، ويذهب الحنفيَّة إلى أنَّ للعقل دخلاً في التحسين والتقبيح، أي في الحكم بالحسن أو القبح على بعض الأشياء ويتفق الإباضية مع الأشعريَّة في هذه المقالة.

9- يرى الأشاعرة أنَّ الإيمان يزيد وينقص ويرى الحنفيَّة وإمام الحرمين أنَّه لا يزيد ولا ينقص ويتفق الإباضية مع الأشاعرة في هذه المقالة.

10- يرى الحنفيَّة أنَّ القدرة تصلح للضدَّين، ويرى الأشعري ومن تابعه أنَّ لكل واحد من الضدَّين قدرة على حدة، ويتفق الإباضية مع الأشعري في هذا أيضًا، هذه أمثلة قليلة جدًّا من الخلافات والخصومات الواقعة بين علماء المذاهب التي يطلق عليها لفظ أهل السنَّة، وهي خلافات في الأصول والفروع كما رأيت وقد بلغت الخصومة بين بعضهم أحيانًا إلى التفكير والتفسيق والحكم بالزيغ والجهل المركَّب والضلال والإضلال، مثل ما يقع بين أصحاب كلّ مذهب ومخالفيهم من المذاهب الأخرى." اهـ[291]

فيظهر للقارئ الكريم أن هناك كثير من أوجه الشبه بين أهل السنة والإباضية. وحيث أن الإباضية وذهب معتدل لا شطط فيه وجدنا فيه تشابها مع المذاهب المعتدلة مثل أهل السنة والزيدية من الشيعة، بل إنَّ الخلاف بين الإباضية والزيديَّة لا يتجاوز ثلاث مسائل هي:

1- قولهم في الإمامة أنَّ عليًّا أولى من أبي بكر وعمر ولكنهم لم يحكموا بتخطئتهما أو تخطئة الأمَّة بسبب تقدُّمها أو تقديم الأمَّة لهما عليه في الخلافة.

2- تجويزهم لتحكيم حكمين فيما حكم فيه الله تبارك وتعالى.

3- قولهم بتشريك أهل التأويل مِمَّن يؤدِّي تأويله إلى التشبيه كمن يعتقد أنَّ الله يرى يوم القيامة، والإباضية يرون في المسائل السابقة أنَّ الأفضليَّة والأولويَّة بيِّن الأئمة الأربعة (الخلفاء الراشدين) كانت كما وقعت تاريخيًّا أفضلهم وأولاهم أبو بكر ثُمَّ عمر ثُمَّ عثمان ثُمَّ علي، ويرون أنَّ قبول التحكيم -فيما حكم فيه الله تبارك وتعالى- خطأ، ويجب قتال الفئة الباغيَّة إذا لم تستجب للصلح أو تراجع إلى الدخول فيما دخل فيه

[291] على يحيي معمر، الإباضية بين الفرق الإسلامية.

المسلمون، ويرون أنَّه لا يجوز أنَّ يحكم على المخطئين في التأويل بالشرك بدعوى أنَّهم مشبهة وقد التقت الزيديَّة في هذا الموضوع مع الخوارج لا مع الإباضية.[292]"اهـ

وبذلك يظهر للقارئ أن أوجه الشبه بين الفرق الإسلامية كبير وأن مسائل الخلاف مسائل نظرية محصورة في الكتب لا أساس لها على أرض الواقع وأن على الإنسان المسلم أن يتجاوزها!

وليتذكر القارئ أن عوامل وأسباب الاتفاق بين المسلمين أكبر من الخلاف، فليكن التركيز على مواطن الاتفاق ولننس المسميات المكروهة لدى كل فرقة عن الآخرين، ونتذكر الرباط العام الذي يحكمنا نحن المسلمين.

وأختم هذا البحث بكلمات للشيخ علي يحيي معمر: "المسلمون جميعًا باختلاف مذاهبهم متَّفقون أن الله تبارك وتعالى متَّصف بجميع صفات الكمال، منزَّه عن جميع صفات النقص لا يشبه شيئًا من خلقه ولا يشبهه شيء من خلقه.

المسلمون جميعًا باختلاف مذاهبهم متَّفقون أن الله تبارك وتعالى عادل في ملكه لا يجور، ولا يظلم الناس شيئًا.

المسلمون كلّهم باختلاف مذاهبهم متَّفقون أن الله تبارك وتعالى أعدَّ الجنَّة لمن أطاعه وأعدَّ النار لمن عصاه فإذا جاءوا إلى التفاصيل اشتدَّ الخلاف وادَّعى كلّ واحد أن كلام خصمه يستلزم محذورًا ويؤدِّي إلى الباطل. (...) الفرق الإسلاميَّة كلُّها –في دعواها– ترجع إلى أصلين ثابتين هما: الكتاب والسنَّة، وكل فرقة تزعم وتصرُّ أنَّها هي التي تعمل بالكتاب وتحافظ على السنَّة، وان غيرها ليس كذلك. وعلى هذا الأساس قام الناس فاحتكروا لأنفسهم اسم "أهل السنَّة" وناس (أهل الإستقامة) وناس (أهل الحق) إلخ، فأطلقوا على غيرهم عند التعميم كلمة المبتدعة أو أهل الأهواء أو غيرها من كلمات التَّضليل. ثمَّ انقسمت كلّ طائفة منهم على مذاهب كما قسَّموا أهل البدع في نظرهم

[292] المرجع السابق.

على المذاهب، ثمَّ ألصقوا بكلِّ طائفة أو فرقة أحكامًا خاصَّة بها أو تشترك فيها مع غيرها، فاصبح كلّ مذهب من مذاهب المسلمين إذا نظرت إليه من زاوية أتباعه فهو مذهب السنَّة ومذهب الحقّ ومذهب الإستقامة ومذهب العدل ومذهب الصواب، وإذا نظرت إليه من زاوية مخالفيه فهو مذهب الأهواء ومذهب البدعة ومذهب الزيغ ومذهب الضلال. وينشأ الناشئ المسلم في أكناف أحدها (أحد الفرق الإسلامية –المؤلف–)، فتعتاد أذنه على سماع هذه الأوصاف والنعوت ويتلقَّاها ويتشرَّبها في غير كلفة حتَّى تصبح عقيدة غير خاضعة للنِّقاش أو المراجعة. الأشاعرة يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. الماتريدية يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. المعتزلة يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. الإباضية يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. الشيعة يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. الخوارج يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. الظاهرية يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. فجميع فرق المسلمين يزعمون أنَّهم يعملون بالسنَّة ويحافظون عليها. وانظر لهذه الحقيقة فإن جميع المذاهب الإسلاميَّة داخلة تحت اسم (أهل السنَّة) فلا معنى أن تقصر هذه التسمية على فرق محدَّدة أو تحتكرها لنفسها مذاهب خاصَّة.[293]"اهـ

فليتذكر القارئ أننا كلنا مسلمون موحدون نعمل لله ونرجوا رحمته وجنته، ونتجاوز عن خلافاتنا مع إخواننا، فليس من طلب الحق فأخطأه كمن اتبع الباطل فأغرقه!

---

[293] علي يحيى معمر, الإباضية بين الفرق الإسلامية.

الفرقة الخامسة: الأحمديـة (القاديانية)

بعد أن أنهينا الحديث عن الفرق الإسلامية القديمة النشأة والمعترف بها بين كل الفرق الإسلامية، لكونها نشأت وتكونت في عصر صدر الإسلام، ننتقل إلى الحديث عن آخر فرقة وهي فرقة حديثة التكوين، حيث أنها نشأت في نهايات القرن التاسع عشر الميلادي وأوائل القرن العشرين، وهي الفرقة الأحمدية أو ما تعرف بالقاديانية. وسبب اختيار هذه الفرقة أنها هي الفرقة الوحيدة من بين الفرق الإسلامية الحديثة النشأة التي لم تشط أو تخرج عن تعاليم الإسلام كما فعلت الفرق الأخرى، وإنما سارت على نهج الفرق الإسلامية الأخرى، ولم تخالف إلا في نقطة جوهرية واحدة وهي مسألة ختم النبوة، حيث فهمت المسألة بشكل مخالف للفرق الإسلامية الأخرى، وهذا ما سنعرضه حالا. أما ما بخلاف ذلك فهي فرقة إسلامية مثل أي فرقة إسلامية، التي قد يكون لها بعض الآراء الغريبة، تحتوي جميع التيارات من سلفيين إلى مفكرين متحررين، إلا أنهم يجمعهم كلهم فكرة الإيمان بنبوة ومهدوية ومسيحية ميرزا غلام أحمد.

وبخلاف المنهج غير المغالي لهذه الفرقة فإن اختيارنا هذه الفرقة نابع من كون هذه الفرقة نموذجا أكبر من رائع لانقلاب السحر على الساحر، فالسادة المؤدلجون قاموا بوضع بعض الأحاديث –وسنثبت بعد صفحات قلائل وضعها– حول تصور خرافي لأحداث آخر الزمان، يظهر فيها شخص يصلح ما أفسده الدهر في أيام معدودات في تصور أسطوري يصلح أن يكون فيلما من أفلام الخبال العلمي الأمريكي! فقام الميرزا غلام باستغلال هذا التصور الأسطوري عن وجود المهدي ونزول المسيح فدمج الشخصيتين فأصبح هو شبيه المسيح عيسى بن مريم وأصبح مسيح هذه الأمة ومهديها في نفس الوقت! وحتى لا ندخل في تفاصيل مبادئ هذه الفرقة سنبدأ بعرض الجانب اللغوي لهذا الاسم ونبذة تاريخية عن هذه الجماعة سنحتاجها في حديثنا عنها، ثم نذكر أهم عقائد هذه الفرقة، ونماذج من الوحي الأحمدي! ثم نفند تلك الخرافة المزعومة المسماة المهدي المنتظر. فهي الخرافة التي استند عليها الميرزا غلام أحمد واستندت

عليها الفرقة، فإذا انهارت الخرافة ظهر بطلان المذهب من أوله ولا نحتاج إلى مناقشة صدق أو كذب الميرزا بل يصبح الأمر تحصيل حاصل!

ونبدأ بالاشتقاق اللغوي فنقول: تنسب الجماعة إلى الميرزا غلام أحمد، لذلك تسمى الجماعة بالأحمدية، ويطلق عليها الفرق المخالفة تسمية "القاديانية" نسبة إلى قاديان، القرية التي ولد فيها الميرزا غلام أحمد وهي إحدى قرى البنجاب بالهند! ولكن الأحمديين يرفضون هذه التسمية ويصرون على أنهم أحمديون فقط.

أحداث تاريخية هامة

حتى يكون عند القارئ خلفية جيدة عن هذه الجماعة لا بد أن نقدم له بعض الأحداث التاريخية الهامة والفاصلة في تاريخ الجماعة القصير حتى يعلم متى نشأت وظهرت، ويعلم تاريخ حياة غلام أحمد مؤسس الجماعة الأحمدية، ولقد أحسن الأستاذ فؤاد العطار تجميع أبرز تواريخ الجماعة:

"ولد الميرزا غلام أحمد في بلدة قاديان الهندية في عام 1839 أو 1840.

بدأ دراسة القرآن وعلوم الدين في سنة 1846م على يد معلم فارسي هو المولوي فضل إلهي.

في سنة 1850م عين له والده مدرساً للغة العربية اسمه فضل أحمد. في سنة 1857م عين له والده مدرساً آخر يدعى "جل علي شاه" لتعليمه العربية. في سنة 1864م تم تعيين الميرزا غلام موظفاً في المحكمة البريطانية. في سنة 1868م تقدم الميرزا لامتحان القانون لكنه فشل.

في سنة 1879م ادعى بأن الله عينه ليبين الإسلام الحقيقي.

في سنة 1879م أيضاً بدأ بجمع المال لنشر خمسين مجلداً باسم "براهين أحمدية".

بين سنة 1879م وسنة 1884م نشر 4 أجزاء من "براهين أحمدية".

في سنة 1884م تزوج زواجه الثاني من شاهجيهان بيجوم.

في سنة 1884م أيضاً ادعى أنه مجدد القرن الرابع عشر الهجري،.

في سنة 1888م طلب يد قريبته "محمدي بيجوم" لكن أهلها رفضوه.

في سنة 1888م أعلن الميرزا نبوءته بأن الفتاة ستلاقي مصيراً مأساوياً إن لم تتزوجه.

في سنة 1889م أسس الجماعة الإسلامية الأحمدية.

في سنة 1891م ادعى أنه "مثيل المسيح" ورفض أن يكون هو نفسه المسيح الموعود.

ثم ادعى في سنة 1891م أيضاً أن الله جعله مريم عليها السلام بصورة استعارية.

ثم ادعى في سنة 1891م أيضاً أن الله جعله حاملاً بصورة استعارية ثم أنه تحول إلى عيسى عليه السلام (بصورة استعارية) بعد مكوثه حوالي 10 أشهر في بطن مريم (الميرزا نفسه) بصورة استعارية، ثم ادعى في النهاية سنة 1891م أنه هو المسيح الموعود.

في سنة 1892م تزوجت الفتاة محمدي بيجوم من قريبها رغم تهديدات الميرزا.

في سنة 1892م قام بتطليق زوجته الأولى وأرغم ابنه على تطليق زوجته وحرم ابنه الآخر من الميراث لأنهم لم يساندوه في تحقيق زواجه بالفتاة محمدي بيجوم.

في سنة 1893م الميرزا يعلن أن الله هنأه بأنه سيهلك زوج محمدي بيجوم وبأن الفتاة سترجع إليه وبأن الله قد زوجه إياها.

في منتصف سنة 1893م أعلن نبوءته بأن النصراني "اثام" سيموت خلال 15 شهراً إن لم يرجع إلى الحق.

في منتصف سنة 1894م "اثام" يشكو من عدة محاولات لاغتياله.

في نهاية سنة 1894م "اثام" لا يزال حياً و يعلن في الصحيفة أنه لم يتب وأنه لا يزال على عقيدته الأولى، والنصارى يحتفلون بالنتيجة. في سنة 1897م يكتب الميرزا شعراً للملكة فكتوريا إمبراطورة بريطانيا والهند بمناسبة يوبيلها الفضي.!!

في سنة 1897م دعوى قضائية ضد الميرزا بعد أن اعترف شاب بأن الميرزا طلب منه اغتيال النصراني بنديت ليخرام الذي تنبأ الميرزا بموته.

في سنة 1899م يعلن القاضي البريطاني براءة الميرزا من تهمة محاولة الإغتيال لعدم كفاية الأدلة ويفرج عنه بكفالة مالية وتعهد بعدم إعلان نبوءة موت لأحد وعدم شتم أحد بألفاظ بذيئة.

في سنة 1900م ادعى الميرزا النبوة، وأعلن أن الذي لا يقبله ولا يصدقه ليس مسلماً وهو من أصحاب الجحيم!!.

في سنة 1901م الميرزا يؤكد بأن نبوءته بالزواج من محمدي بيجوم ستتحقق لكنها ستتأجل قليلاً.!!

في سنة 1902م يبدأ الطاعون بالإنتشار في الهند، ويعلن الميرزا أن الله أنبأه بالطاعون قبل عشرين عاماً حين قال له (إنه أوى القرية!!)، لكن الميرزا لم يفهم هذا الوحي إلا بعد أن جاء الطاعون.!

في سنة 1902م أيضاً يعلن الميرزا بأن الطاعون عقاب إلهي للذين كذبوه وبأن الطاعون سيبقى في الهند إلى سبعين عاماً ولن يزول حتى يصدقه أعداؤه. ويقول بأن الطاعون هو "دابة الأرض التي تكلم الناس" المذكورة في القرآن وبأنه هو النار التي تحشر الناس.!!

في سنة 1902م أيضاً يعلن الميرزا أن قاديان هي سفينة النجاة من الطاعون وأن الطاعون لن يدخل قاديان لأنها قرية الميرزا.

في سنة 1903م أمر ببناء "منارة المسيح" في قاديان لتكون مصداقاً لحديث نزول المسيح عند منارة دمشق.!!

في سنة 1903م يعلن الميرزا بأن الله بشره بأنه سيحييه ثمانين سنة أو أكثر.

في سنة 1904م يتم إغلاق المدرسة الأحمدية في قاديان بسبب انتشار الطاعون في القرية.

في سنة 1904م الميرزا يدعي بأنه النزول الثاني للنبي كريشنا الإله المقدس عند الهندوس.

في سنة 1905م أسس مقبرة الجنة في قاديان، وهي مقبرة يدخل صاحبها الجنة إن اشترى قبراً فيها.!

في سنة 1907م ادعى أيضاً أن الله أيده بثلاثة مائة ألف (300،000) آية ومعجزة ليثبت نبوته.

في سنة 1907م ادعى أيضاً أن الله قد ذكره في القرآن في الكثير من الآيات، وادعى بأنه هو ذو القرنين المذكور في القرآن، كما ادعى أن آية الإسراء تشير إلى إسراء النبي محمد إلى المسجد الأقصى الذي هو مسجد الميرزا في قاديان.

في سنة 1907م ادعى أيضاً أن الله سماه بكل أسماء الأنبياء من آدم عليه السلام إلى محمد.

في سنة 1907م ينشر إعلاناً في الصحيفة بخصوص خصمه الشيخ ثناء الله، و يدعو الله في الإعلان أن يهلك الكاذب في حياة الصادق.

في سنة 1907م أيضاً يعلن الميرزا بأن الله بشره بأنه سيحييه بين 75 و85 عاماً.

في سنة 1908م ينشر الجزء الخامس والأخير من "براهين أحمدية" ويقول بأن الفرق بين الخمسين والخمسة هو صفر، فهو بذلك يكون قد أوفي بوعده السابق أن ينشر خمسين جزءاً من هذا الكتاب.

في سنة 1908م يؤكد الميرزا بأن مؤسس طائفة السيخ "بابا ناناك" والمولود سنة 1469م هو في الحقيقة ولي صالح أرسله الله إلى الهندوس وأيده بالكثير من المعجزات.

في سنة 1908م أيضاً يموت الميرزا في بيته بالكوليرا (على رأي والد زوجته) أو بالإسهال (على رأي ابنه مؤلف سيرة المهدي) في حوالي السبعين من عمره.

في سنة 1908م وبعد موت الميرزا ينتخب الأحمديون حكيم نور الدين خليفة أولاً للميرزا.

في سنة 1914م تنقسم الجماعة الأحمدية إلى فرقتين تحت نفس الإسم، الأولى شعبة ربوة المشهورة بالقاديانية بزعامة بشير الدين محمود ابن ميرزا غلام، وتؤمن بنبوة الميرزا) والثانية: شعبة لاهور (المشهورة باللاهورية –بزعامة محمد علي اللاهوري أحد أصحاب ميرزا غلام، و تؤمن بأن الميرزا هو المسيح والمهدي لكنه ليس نبياً) اهـ

كانت هذه هي أهم الأحداث التاريخية في تاريخ غلام أحمد والأحمدية والأحداث التي وقعت بعد ذلك هي أحداث تاريخية لا نحتاج إليها في شيء في تقرير عقائد الأحمدية.

عقائد الأحمدية

يشكو الأحمدية دوما من الظلم البين الواقع عليهم، فهم يرون أن الفرق الأخرى تنسب إليهم أقوالا لا أساس لها في كتبهم ولم يقلها مهديهم، وأن هذه الأقوال من باب التجني الظالم. وفي هذا يقول الأستاذ هاني طاهر –فلسطيني– أحد منظري الأحمدية المعاصرين: "جاء في إحدى الكتب المفترية على عقائد الجماعة:

يعتقدون أن الله يصلي ويصوم وينام ويصحو ويكتب ويوقع ويخطئ ويجامع.

يعتقد مؤسس الجماعة أن إلهه إنجليزي.

يعتقدون أن مؤسس جماعتهم هو أفضل النبيين.

يقولون لا قرآن إلا ما قدّمه مؤسس جماعتهم، ولا حديث إلا ما يكون في ضوء تعليماته، ولا نبي إلا تحت سيادته.

يعتقدون أن كتابهم منزل واسمه (الكتاب المبين) وهو غير القرآن الكريم.

يعتقدون بأنهم أصحاب دين جديد مستقل وشريعة مستقلة وأن رفاق المؤسس كالصحابة.

يعتقدون بأن (قاديان) كالمدينة المنورة ومكة المكرمة، بل وأفضل منهما، وأرضهما حرم وهي قبلتهم وإليها حجهم.

إلغاء عقيدة الجهاد، والطاعة العمياء للحكومة الإنجليزية، لأنها ولي أمر بنص القرآن.

كل مسلم عندهم كافر حتى يدخل جماعتهم.

يبيحون الخمر والأفيون والمخدرات والمسكرات. "(انظر:الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الرياض: الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط2، 1409هـ 1989م، ص390)"اهـ.

والواقع فعلا أن بعضا من العقائد التي نسبت إلى الأحمدية لا أساس لها، وهذه نموذجا عقائد باطلة لا أساس لها من الصحة ولكن لا يمنع هذا من أن لهم بعض العقائد الغريبة، ويذكر الأستاذ فؤاد العطار[294] –سني– نماذجا لهذه العقائد الموجودة عند الأحمدية، فيقول: "الملائكة يشابهون بصفاتهم صفات الله تعالى في الحقيقة والكيفية: يقول الميرزا القادياني: "إن الملائكة يشابهون بصفاتهم صفات الله تعالى كما قال عزّ وجل "وجاء ربك والملك صفاً صفاً". فانظر رزقك الله دقائق المعرفة أنه تعالى كيف أشار في هذه الآية إلى أن مجيئه ومجيء الملائكة ونزوله ونزول الملائكة متحد في الحقيقة والكيفية" "كتاب حمامة البشرى".. ثمّ يضيف الميرزا قائلاً: "فاعلم أن نزول الملائكة كمثل نزول الله". كتاب حمامة البشرى. ثمّ يبيّن الميرزا كيفية نزول الملائكة والتي ادعى سابقاً أنها نفسها كيفية نزول الله –سبحانه وتعالى عما يصفون. يقول الميرزا القادياني: يخلق لهم الله في الأرض أجساداً جديدة غير أجسادهم الأصلية بقدرته اللطيفة المحيطة، ومع ذلك تكون لهم أجساد في السماء وهم لا يفارقون أجسادهم السماوية." كتاب حمامة البشرى ص273".

ويواصل الأستاذ فؤاد العطار ذكر بعض العقائد الغريبة والمنتقدة على الجماعة الأحمدية، فيذكر فعلا وجود بعض العقائد المنسوبة إليهم بالباطل، إلا أنه يعقب بذكر المعلومة الصحيحة، فيذكر خرافة أن لهم كتاب غير القرآن اسمه الكتاب المبين، ويصححها فيقول: "المعلومة الصحيحة هي: يؤمنون بالقرآن الكريم، لكنهم يؤمنون أيضاً بنزول الوحي على نبيهم المزعوم (ميرزا غلام أحمد القادياني)، يقول ميرزا غلام أحمد القادياني: "أقسم بالله تعالى أنني أؤمن بهذا الوحي النازل عليّ كما أؤمن بالقرآن

---

[294] الأقوال المنسوبة إلى الأستاذ فؤاد العطار في هذا الكتاب مأخوذة من منتدى التوحيد : http://eltwhed.com/vb

الشريف و بكتب الله الأخرى، وأني أعتبره قطعياً و يقينياً كما أعتبر القرآن قطعياً ويقينياً "–الخزائن الروحانية" مجموعة كتب الميرزا" جزء 22 صفحة 220.".

ويعلق كذلك على أكذوبة الحج إلى قاديان فيقول: "المعلومة الصحيحة هي: قبلة القاديانيين وحجهم إلى مكة المكرمة، لكنهم يعتقدون بقدسية قاديان أيضاً وبأن المسجد الأقصى هو مسجد الميرزا في قاديان وليس الذي في بيت المقدس."اهـ

عقائد مخالفة

بخلاف ذلك يعترف الأحمديون بأن الميرزا غلام أحمد جاء بعقائد جديدة قديمة، أي أنها هي في الأصل هي التي جاء بها النبي(ص)، إلا أنها ضاعت في وسط الأراء الفقهية والعقيدية، فأتى الميرزا غلام أحمد بها مرة أخرى، فهي قديمة جديدة في نفس الوقت، ويذكرون في مواقعهم على شبكة الإنترنت, نماذج على هذه العقائد المخالفة لما هو متداول من العقائد عند الفرق الإسلامية:

"لقد جاء الإمام المهدي مجددًا للدين الإسلامي، ومعنى التجديد هو إزالة ما تراكم على الدين من غبار عبر القرون، ليعيده ناصعًا نقيًا كما جاء به محمد المصطفى(ص). لذا كان طبيعيًا أن يكون هناك بعض الاختلافات بين عقائد الجماعة الإسلامية الأحمدية وبين العقائد المتداولة بين العوامّ، ومن هذه العقائد:

1– نؤمن بأن النبوة التشريعية هي التي انقطعت أما النبوة التابعة (غير التشريعية) فلم تنقطع، وهذا يتضمن أن الوحي التشريعي قد انتهى وانقطع بعد سيدنا محمد(ص)، أما وحي المبشرات فهو باق لن ينقطع.

2– نؤمن بأن عيسى قد مات ميتة عادية، فلم يُقتل ولم يُصلب، لكنه هو الذي عُلِّق على الصليب وأنجاه الله تعالى من الموت عليه، بل أُنْزِل وهو حيٌّ مغشي عليه، ثم

هاجر وعاش عشرات السنين الأخرى. ولا يُسمى مصلوبًا إلا من مات صلبًا، ومن ثم فإن معنى قوله تعالى (شبه لهم) أي شبه لهم صلبه، أي اشتبه عليهم أنه قد مات على الصليب، وليس معناه شُبه لهم شخص آخر. كما أن المقصود بنزوله هو مجيء شخص شبيه به من الأمة الإسلامية.

3– نؤمن بأن المسيح والمهدي صفتان لشخص واحد هو ميرزا غلام أحمد.

4– نؤمن بأن القرآن الكريم لم يُنسخ منه أي حكم، ولم ترتفع منه آية البتة.

5– نؤمن بأن العالَم المكلّف على هذه الأرض هو الإنسان، وأن لفظة الجن في القرآن إذا اقترنت بالإنس فإنها تعنى كبراء القوم، وأن الإنس تعني الرعية. ومن ثم فلا وجود للجن الشبحي المتوهم. ومن ثم فإن التلبس يبطل، وإن السحر ليس إلا تخييلا وخداعًا، وتبطل الروايات التي صرّحت بأن رسولنا محمدًا(ص) قد سُحر.

6– نؤمن بأن الجهاد القتالي شرعه الله تعالى ردًا لعدوان المعتدين، وليس انتقامًا من أهل الأرض غير المسلمين، فمن سالَمَنا سالَمْناه، ومن حارَبَنا حارَبْناه. ولا يجوز أن نبدأ بالعدوان على أي كافر غير محارب. ومن ثم فإننا نؤمن بأن الإسلام يكفل الحرية الدينية، وأنه نصّ أن لا إكراه في الدين، فلا يُقتل إلا المرتد المحارب.

7– نؤمن بأن من شهد الشهادتين فهو أخونا المسلم، لا يجوز تكفيره إلا إذا ناقض ما تتضمنه هاتان الشهادتان، كأن يرفض نصًا قرآنيًا أو يؤوله تأويلا لا تحتمله اللغة العربية بحال، أو ينكر الشريعة الإسلامية أو جزءا منها. أما الإمامة في الصلاة فإنه لا يُقتدى بأي إمام كان، بل لا بد أن يكون مسلمًا تقيًا لا يمارس الكبائر كالافتراء والظلم والكذب.

8– نؤمن بعصمة الأنبياء جميعًا، وبالتالي لا بدّ أن نخالف بعض العلماء في تفسير بعض الآيات التي ظن هؤلاء أنها تمس عصمة الأنبياء.

9- نؤمن بأن للأنبياء آياتٍ وبراهينَ تدل على صدق دعواهم، وقد أُطلق على هذه الآيات مصطلح معجزات. ولا مشاحة في الاصطلاح، بيد أننا نرى أن هذه المعجزات هي ضمن سنن الله في الكون، لأنه لن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لها تحويلا. لكن لا أحد من المخلوقات يحيط بسنن الله جميعها.

10- علامات الساعة نعتقد أنها تحققت، وبخاصة ظهور يأجوج ومأجوج والدجال والدابة ونزول المسيح وغيرها؛ فيأجوج ومأجوج هم الاستعمار الغربي والروسي الذي هاجم أمتنا العربية والإسلامية في القرون الأخيرة، والدجّال[295] هو ذاته مع قساوسته الذين جاءوا معه بهدف تنصير أمتنا حتى تصبح لقمة سائغة للاستعمار الذي أراد نهب ثرواتنا، فالدجال أمة وليس شخصًا.[296]"اهـ

وهذه العقائد المخالفة فيها الصحيح وفيها المقبول وفيها الغريب البعيد، فمن الصحيح المقبول فيها قولهم بوفاة عيسى بن مريم عليه السلام، فأدلة القرآن في هذه المسألة من أوضح ما يكون على وفاته وهي منتشرة في القرآن ولولا اعتقاد العلماء بحياته في السماء لما أولوا آية واحدة!، ولن أذكر أي آية كدليل على وفاة المسيح لأنه لا توجد آية واحدة تشير إلى غير ذلك، ناهيك عن أن تقول به. وليس في الباب حديث صحيح واحد أن عيسى بن مريم ظل حيا أو رفع إلى السماء في سن الثالثة والثلاثين كما يقول النصارى.

لذلك رفض الإمام بن حزم القول بحياة عيسى. ونظرا لأن أحاديث النزول صحّت عنده، فقال إنه مات وسيبعثه الله عزوجل قبل اليوم القيامة لينزل فيقتل الدجال إلخ الأحداث

---

[295] سلك الأحمديون في تعاملهم مع أحاديث الدجال مسلك أصحاب الديانات الأخرى، فهم يقرون أن هذه الأقوال والروايات الواردة في الدجال متناقضة ولا يمكن أن تؤخذ بحالها هكذا لاستحالتها عقلا، -وهذا حق- فلا بد من تأويلها حتى يفهم المراد منها! -الحمدلله الذي عصم القرآن من حاجة إلى تأويل!- ولست أدري كيف نلوم أتباع الديانات الأخرى إذا كانوا يأولون الخرافات في كتبهم من أجل قبولها إذا سلكنا نفس مسلكهم؟!

[296] كما أوردوا في موقعهم على الشبكة المعلوماتية: https://www.islamahmadiyya.net/

الأسطورية! كذلك من الصحيح قولهم بعدم وقوع النسخ[297] في كتاب الله عزوجل وأنه لم تنزل آية ثم رُفعت مرة أخرى، فآيات الكتاب كلها محكمة، وأحكامه كلها ثابتة، وهذا ما قاله القرآن وأكد عليه وما يقول به العقل السليم كذلك! والعجيب أنه لم يأت حديث صحيح سندا في مسألة نسخ الآيات حُكما –هناك بعض الأحاديث في رفع الآيات فقط!– أي نسخ آية بآية، وعلى الرغم من ذلك فعلمائنا مصرون على قولهم بوقوع النسخ في القرآن، لورود كثير من الروايات المنسوبة إلى الصحابة، والله وحده أعلم بصحة نسبها إليهم وبمقصودهم من كلمة النسخ، فكثير من المصطلحات كانت تستعمل في زمن الرسول والصحابة بشكل ثم تغير استعمالها بعد ذلك، ومن ذلك مصطلح النسخ! ومن عقائدهم المقبولة عقيدتهم في الجن، فهم لا يقولون بوجود جنس آخر مكلف غير الإنسان يسمى الجن، وإنما الجن صنف متخف ومتمرد من البشر، ونذكر للقارئ أدلتهم –بصياغتي– في هذا الباب بدون التعليق عليها:

---

[297] عدم إيمان الأحمدية بوقوع النسخ عقيدة صحيحة ولكنها أوقعتهم في ورطة كبيرة وهي: إذا قالوا بعدم وقوع النسخ وعدم تغير الأحكام فإن هذا مؤذن بإلغاء فرقتهم، فمن لم يؤمن بإمامهم فهو كافر أو على أقل تقدير مرتكب للكبائر، وهذا يدل بداهة على نسخ أكبر حكم في الدين وهو كفاية الإيمان بالرسول المصطفى. ولقد كنت راسلت الأستاذ هاني طاهر وسألته هذا السؤال فقلت له: ما حكم الذي لم يؤمن بالمسيح الموعود أيعد مسلما أم لا؟ فرد قائلا: الجواب: نعم، يبقى مسلما، فكل من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله مسلم لكن الإيمان بالإمام المهدي والمسيح الموعود واجب لا بد منه والكفر به جريمة كبيرة.!! ثم قال: الإيمان بالمسيح الموعود واجب حتى لو لم يرد في القرآن ولا في السنة، لأنه ضمن الإيمان بالغيب. ومع هذا فقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تأمر بالإيمان بالمبعوث الجديد من عند الله. وهي الآيات التي سنناقشها ونفندها. وفي نقاش لي مع الأستاذ مصطفي ثابت قلت له: إن الكفر بأي نبي مخرج من الملة، فما حكم الكافر بالميرزا؟ فقال لي: إن الكفر بالإمام المهدي ليس كفرا بالإسلام ولكنه كفر بالنبي هذا فقط!. مع أن الميرزا قال في كتاب الوحي القادياني تذكرة بالترجمة الإنجليزية ص 745: "لقد أوحى لي الرب تعالى أن كل شخص تصله دعوتي و لا يقبلني فإنه ليس بمسلم" –وما فهمته من كلامه أن الكفر قابل للتجزئة أو أنه كفر دون كفر، فعندنا أن من كفر برسول واحد –بنص القرآن– فهو كافر.! فبذلك أنكروا النسخ من ناحية ونسخوا أكبر حكم من ناحية أخرى.

أدلتهم على عدم وجود الجن الشبحي

1- القرآن خاطب الناس فقط، فلم يخاطب الجن قط، فوجدنا أن الله عزوجل قال "يا أيها الناس" في عشرين موضعا، وما قال في موضع واحد "يا أيها الجن"، فلم؟

2- أنزل الله كل الكتب لتحكم بين الناس، ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ... ﴿٢١٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٢١٣]، فلم لم ينزل الله عزوجل كتبا لتحكم بين الجن؟

3- خاطب الله بني آدم في القرآن أربع مرات في الدنيا ومرة في الآخرة، ولم يخبرنا الله أنه خاطب بني الجن أو بني النار قط.

4- يضرب الله الأمثال للناس فقط، ﴿... وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [سورة النّور, ٣٥]، فلم لا يضرب أمثالا للجن؟

5- بين الله آياته للناس فقط، ﴿... كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة البقرة, ١٨٧]، فلم لم يبينها للجن؟

6- أنزل الله القرآن والكتب نورا وهدى للناس، ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ... ﴿١٨٥﴾﴾ [سورة البقرة, ١٨٥]، ﴿... قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ... ﴿٩١﴾﴾ [سورة الأنعام, ٩١]، فلم لم ينزل كتبا هدى للجن؟

7- الأنبياء والرسل أرسلوا للناس فقط، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ... ﴿١٠٩﴾﴾ [سورة يوسف, ١٠٩]، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [سورة الفرقان, ٢٠]، فلم لم يرسل الله رسلا إلى الجن؟

8- الله سيحاسب الناس فقط، ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ۝١﴾]سورة الأنبياء ,١[، ألن يحاسب الجن؟ و نظرا لأن هذه المسألة لا دليل عليها اختلف العلماء في عاقبة الجن الطائع، فبعد أن اتفقوا أن العاصي منهم يدخل النار توقفوا في مسألة الطائع لأنهم لم يجدوا دليلا يقول إن الجن سيدخلون الجنة، فقالوا أقوالا عدة ما أنزل الله بها من سلطان للإجابة عن هذه المعضلة، فقالوا يكون جزاءهم النجاة من النار فقط، إذا فالجن الطائع لا يدخل الجنة! أذنبه أنه جن!!، و قالوا يكونون في مكان يراهم البشر من حيث لا يرونهم عكس ما كانوا في الدنيا، و أقوال أخرى لا دليل عليها إلا الظن.

9- كيف يطبق الجن شرائع الإسلام؟ فالجن المكلف كما يرون مخلوق من النار، فهل سيتوضأ بالماء؟ وإذا سرق كيف نقطع يده؟ وإذا زنى كيف نجلده؟ وكيف نعزره بالحبس؟

10- أين كان هذا الجن المؤمن في مواقف الشدة التي كان يحتاجه المسلمون فيها؟ نحن لم نجد أي ذكر في هذه المواقف إلا للملائكة أو الشيطان!! ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝١٢﴾] سورة الأنفال ,١٢[﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٤٨﴾] سورة الأنفال ,٤٨[. فأين هؤلاء الجن المؤمن أو الكافر؟

11- قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾] سورة الأحزاب ,٧٢[فهذه الآية توضح أن الإنسان هو الذي حمل الأمانة، فلو كان الجن كما يدعون خلق مستقل مخاطب بالقرآن، فهذه الآية خاطئة لا محالة، أما إذا رأينا أن من البشر من هو جن، فلا تعارض ولا خلاف.

12- قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سورة الروم ,٣٠] فالله تعالى جعل االدين الفطرة التي فطر الناس عليها، و لم يقل أنه فطر الجن عليها، فكيف نطالب الجن بالإيمان وهو غير مفطور عليه؟

13- كيف يمكن وجود جن كافر ويظل كافرا وهو يرى الملائكة ويستمع إليهم ويلمس السماء كما يعتقد الكثير من الناس؟

وأنا أتفق مع الجماعة الأحمدية في جزء نفيهم وجود الجن الشبحي وأخالفهم في مسألة الشيطان والشياطين، فأنا أرى وجود إنسان وملائكة وشياطين، أما هم فيرون وجود الإنسان والملائكة وكل ما طغى وشط من الشهوات والأفكار فهو شيطان.

عقائد متشابهة

نظرا لأن الجماعة الإسلامية الأحمدية جماعة إسلامية، فلا بد أن يكون هناك تشابها بين عقائدنا وعقائدهم، فبخلاف المذكور نجد أن عقائدهم هي عقائد المسلمين العادية ونجد أن تصورهم لله عزوجل قريبا –إن لم يكن هو نفسه– من التصور الإسلامي لله عزوجل. فهو نفس التصور المبني على كمال الله وتفرده ووحدانيته وعدم مشابهته للخلائق.

ويمكن القول إن تصورهم لصفات الله عزوجل مشابه لتصور الفرق الإسلامية غير أهل السنة أي أن الصفات عندهم ليست زائدة عن الذات كما أنهم يؤولون ما يؤدي إلى المشابهة مثل اليد والاستواء وما شابه من الآيات! وفي ذلك يقول الأحمدية في موقعهم على الشبكة المعلوماتية: "نؤمن بأنه عزّ وجل واحد لا شريك له في الأرض ولا في السماء، وكل ما عداه مخلوق ليس إلا. لم يلد ولم يولد، وليس له أم أو زوجة أو أخ أو

أخت، هو الأحد المنفرد في توحيده وتفريده ... كما نؤمن بأن الله قدوس ومنزه عن كل عيب، وأنه الجامع لكافة الفضائل، لا عيب فيه، ولا فضيلة هو بمعزل عنها. وأن قدرته لا نهائية وعلمه غير محدود. وهو يحيط بكل كائن في الوجود علما، ولا يحيط به شيء. كذلك هو الأول والآخر والظاهر والباطن. وهو خالق جميع الكون. وهو المقدر المدبر الذي لم يبطل تصرفه ولن يبطل أبداً. هو الحي الذي لا يموت والقيوم الذي لا يزول. جميع أعماله تصدر عن إرادة وليست عن اضطرار. وحكمه وملكوته يسود العالم كله اليوم كما كان يسوده من قبل. ولا يطرأ على صفاته تعطل أو انقطاع، بل تتجلى قدرته في كل وقت. (...) يقول حضرة المؤسس عليه السلام في الله عزّ وجل ما تعريبه: "إن إلهنا هو ذلك الإله الذي هو حيٌّ الآن كما كان حيًّا من قبل، ويتكلم الآن كما كان يتكلم من قبل، ويسمع الآن كما كان يسمع من قبل. إنه لظَنٌّ باطل بأنه سبحانه وتعالى يسمع الآن ولكنه لم يعد يتكلم. كلا، بل إنه يسمع ويتكلم أيضًا. إن صفاته كلها أزلية أبدية، لم تتعطل منها أية صفة قط، ولن تتعطل أبدًا. إنه ذلك الأحد الذي لا شريكَ له، ولا ولدَ له، ولا صاحبةَ له. وإنه ذلك الفريد الذي لا كفوَ له (...) إنه قريب مع بُعده، وبعيد مع قربه، وإنه يمكن أن يُظهر نفسه لأهل الكشف على سبيل التمثُّل[298]، إلا أنه لا جسمَ له ولا شكلَ ... وإنه على العرش، ولكن لا يمكن القول إنه ليس على الأرض. هو مجمع الصفات الكاملة كلها، ومظهر المحامد الحقة كلها، ومنبع المحاسن كلها، وجامع للقوى كلها، ومبدأ للفيوض كلها، ومرجع للأشياء

[298] نلاحظ هنا تشابه أقوال الميرزا مع العقائد الصوفية وهذا ما سيظهر جليا في تكوين نظريته عن النبوة التابعة وانقطاع النبوة التشريعية، وهناك أوجه كثيرة بين عقيدة الميرزا وأقوال الصوفية. ونذكر للقارئ نصين كدليل على ما نقول: رأيت في إحدى مناماتي أنني أنا نفسي الله. وكنت متأكداً أنني أنا هو. وأنه لم يبق من مشيئتي وإرادتي و افعالي البشرية شيء. وكأنني أصبحت مثل المنخل أو كأن كياني اندمج داخل كيان آخر بحيث يختفي الكيان الأول داخل الكيان الجديد ولا يبقى للكيان الأول أي أثر أبداً. وفي هذه المرحلة رأيت أن روح الله المقدسة قد دخلت في كياني وصار الله يسيطر على جسدي واندمج كياني مع كيان الله حتى لم يبق مني جزيء بشري واحد... ثم نظرت إلى جسدي فرأيت أن جوارحي صارت هي جوارح الله. عيناي صارت عينيه و أذناي صارت أذنيه ولساني صار لسانه. ثم ضمني الله إليه بحيث اندمجت كلياً معه وبحيث صارت قوته وسيطرته تجري في جسدي. وصارت ألوهيته تعصف في كياني. وصارت هالات الوقار والشرف التي تخصه تحيط بأرجاء قلبي. وصار مالك الملك في خلفية روحي بحيث لم يبق شيء مني ولم يبق شيء من مشاعري بالمرة. (كتاب البرية –ص 102 و103). ولكن العجيب أن أتباع الميرزا ينكرون أنه كان صوفيا، فلقد كنت أتحدث مع بعضهم –من المصريين– فرفضوا القول بأنه كان صوفيا.

كلها، ومالك لكل مُلكٍ، ومتصفٌ بكل كمالٍ، ومنزه عن كل عيب وضعف، ومخصوص بأن يعبده وحده أهلُ الأرض والسماء (الوصية، الخزائن الروحانية ج 20 ص 309 –310).

أدلة الأحمدية من القرآن على استمرار النبوة التابعة

إذا أراد إنسان أن يدعي أنه نبي فلا بد أن يكون معه من الآيات ما يبرهن أنه نبي من عند الله عزوجل، سواء كانت آيات حسية كما كان مع الأنبياء السابقين أو آيات متلوة كما جاء مع النبي(ص). ولكن إذا أراد شخص أن يدعي أنه نبي من عند الله وهو في نفس الوقت مسلم تابع للنبي(ص) فلا بد أن يثبت من القرآن أن النبوة لم تختم بالمصطفى(ص)، وأنها مستمرة بعده لمن يشاء الله ويرضى! ولقد قام الميرزا غلام أحمد بالاستدلال على استمرار النبوة التابعة بعد النبي(ص) ببعض الآيات، وأول بعض الآيات حتى لا تصادم دعواه. والعجيب أن أتباع الميرزا غلام أحمد استخرجوا بعض الآيات فاستدلوا بها له بعد وفاته، مع أنه هو نفسه لم يستدل بها! فإذا كان صاحب الدعوى الموحى إليه من الله! لم يقدم هذه الأدلة فيفترض أن ما قدمه هو كل ما لديه من الأدلة على دعواه، أما أن يزيد الاتباع فهو ما لا يقبل بحال!

وسنبدأ بعرض أدلتهم من القرآن على استمرار النبوة التابعة بعد النبي(ص) ومناقشتها، وفي آخر الفصل نناقش خرافة المهدي اللامنتظر التي استند إليها الميرزا والتي لو ثبت فعلا بطلانها لانهارت الفرقة من أصولها لاستناد كبيرها إلى دعوى باطلة وأحاديث خرافة يا! وقبل أن نبدأ بعرض أدلتهم نود أن نذكر القارئ أن الصوفية مخالفين لكل الفرق الإسلامية هم من قالوا باستمرار النبوة التابعة والوحي غير التشريعي! وأما الفرق الإسلامية الأخرى فقالت كلها بانقطاع الوحي التشريعي وغير التشريعي، وليس الغرض الاستدلال بذلك على صحة أو بطلان دعوى الميرزا ولكن التنبيه على أنه ليس أول من ابتدع هذه المقولة، وإنما له من الصوفية فيها السلف الكثير! ونبدأ بتقديم أدلتهم من

القرآن على دعواهم استمرار النبوة التابعة غير الناسخة أو مغيرة للأحكام التي أتى بها الرسول (ص) في القرآن أو السنة، ثم نناقش بعد ذلك تأويلاتهم لآيات ختم النبوة وكمال الدين:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [سورة النساء, ٦٩]، حيث يستدلون بهذه الآية أن الله عزوجل قد يعطي درجة النبوة لمن يطع الله ورسوله، وحجتهم في ذلك أنه ليس المراد من قول الله تعالى "مع الذين" هو "مع" وإنما يريد "من الذين أنعم" لأن مع أتت في آيات أخرى بمعنى "من". وهنا نسألهم السؤال الذي ينبغي على كل مسلم أن يسأله لمن يقول له: إن الله لم يرد كذا وإنما قصد: من أدراك أن الله لم يرد منطوق آيات كتابه وأراد فهمك أنت؟ وأما استدلالهم بآيات أخرى على فهمهم هذا فهو استدلال على فهم بفهم آخر وليس بنص على ما يقول، ونحن نفهم كتاب الله كما هو ولا نبرر فهم مخالف بفهم آخر مخالف! ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [سورة الحج, ٧٥]، حيث يقولون إن الله عزوجل استخدم صيغة المضارع وهذا يدل على أن الاصطفاء لا يزال موجودا وإلا لقال الله عزوجل "اصطفى".

ويشبه استدلالهم هذا استدلالهم بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥﴾ [سورة الأعراف, ٣٥]، فلو كانت النبوة أغلقت بالنبي المصطفي لما جاء الفعل في المضارع، ولجاء "أتى" بدلا من "يأتينكم". ويرد عليهم بأنه حتى على فرض صحة فهمكم فلقد انتهى الاصطفاء من الناس بعد الميرزا أحمد فلم يعد الله يصطفي أحدا من البشر. سيقول الأحمديون: لا باب النبوة لا يزال مفتوحا! نقول لهم: مهديكم ونبيكم التابع يقول: في كتاب "خطبة إلهامية" الذي ادعى أنه استلمه عن طريق الوحي عام 1902.

"اعلموا أن الختمية أعطيت من الأزل لمحمد ثمّ أعطيت لمن علمه روحه وجعله ظله فتبارك من علم و تعلم. فإن الختمية الحقيقية كانت مقدرة في الألف السادس الذي هو يوم سادس من أيام الرحمن"، ويقول كذلك في نفس الكتاب: "فأراد الله أن يتم النبأ ويكمل البناء باللبنة الأخيرة فأنا تلك اللبنة أيها الناظرون" ويقول كذلك في نفس الكتاب: "ثم اعلم أن المسيح الموعود في كتاب الله (أين أتى في كتاب الله المسيح الموعود هذا؟!! –المؤلف–) ليس هو عيسى بن مريم صاحب الإنجيل و خادم الشريعة الموسوية كما ظن بعض الجهلاء من الفيج الأعوج و الفئة الخاطئة بل هو خاتم الخلفاء من هذه الأمة كما كان عيسى خاتم خلفاء السلسلة الكليمية وكان لها كآخر لبنة وخاتم المرسلين"، ويقول في نفس الكتاب: "قدّر ظهوري في آخر السلسلة المحمدية كمثل المسيح الذي جاء في آخر السلسلة الموسوية بإذن المولى ليتساوى السلسلتان. و يقول عن نفسه في نفس الكتاب: "وأعطي له لقب عيسى الذي هو المسيح بما ختم عليه خلافة نبي الأمم خير الأصفياء كما ختم على عيسى خلافة سلسلة موسى من حضرة الكبرياء". اهـ

وأعتقد أن هذه الأقوال من مؤسس الجماعة أكثر من كافية على اعتقاده أن النبوة خُتمت! به هو لا بالرسول المصطفى، فعلى ذلك فيكون المعنى غير متطابق مع دعواهم أيضا.

ولقد تجادلت مع الأستاذ مصطفي ثابت في هذه النقطة فقلت له: على فرض فهمكم هذا، فلا بد أن يستمر بعث الأنبياء حتى قيامة الساعة، وهذا يعني أن هناك نبي سيظهر قبل قيام الساعة مباشرة حتى يصدق فيه وبه وعد الله عزوجل! وهذا ما لا يقبل عقلا. فقال لي: وما المانع من ذلك! نحن لا نقول بختم النبوة بالميرزا!. والعجيب أنهم لا يقولون على الرغم من أنه هو نفسه يقول بذلك.

وبغض النظر عن أقوال الميرزا أو أتباعه نعود لنناقش الآيات، ونسأل لماذا استعمل الله تعالى صيغة المضارع في قوله تعالى "الله يصطفي"؟ نقول: هذا هو الطبيعي والمنطقي في

الرد على أقوال الكافرين الرافضين لكتاب الله المشككين في نبوة النبي(ص) والمقللين من قدر الله عزوجل، ونعرض للقارئ سياق الآيات كاملا ليتأكد من أنه لو استعمل المولى عزوجل صيغة الماضي لأكد للكفار شكهم في كتاب الله وفي نبيه ولكن استعمل المضارع ليؤكد للكافرين والمشككين في نبوة النبي وعدم الاحتياج إلى القرآن بعد الكتب السابقة أن الله يجتبي من رسله من يشاء، وإليك أيها القارئ الآية في سياقها:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٧٦﴾﴾ [سورة الحج, ٧٢-٧٦].

فالآيات تخبر عن حال الكافرين إلى قيام الساعة بأنه إذا تتلى عليهم آيات الله تعرف في وجوهم المنكر...، ثم تتحدث عن مثل ضرب في الماضي –من الممكن في أحد الكتب السابقة مثل الإنجيل– وهو الذباب، ثم تتحدث عن نقصان الناس لقدر الله. وهذه الأفعال كلها مستمرة وصادرة من الناس إلى قيام الساعة، فلو قال الله تعالى بعدها: "الله اصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس "لكان هذا معلما أن النبي(ص) كاذب لأن الله اصطفي قبله ولم يصطفه هو!

فالخطاب في الآية للمشكك في آيات الله –القرآن– ويرد عليهم بأن الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس. ومن الملاحظ أن الإصطفاء من الملائكة مختلف عن الإصطفاء من البشر وأكثر منه بدليل قوله تعالى "يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس" فلو كان النوعين واحدا لقال الله تعالى: "الله يصطفي من الملائكة ومن الناس رسلا". ومن ذلك أيضا قوله تعالى: "وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل"، فالخليل

هو من قام بالجزء الأكبر وكان سيدنا إسماعيل مساعد له فقط في عمله، فلذلك أخر وجاء بعد المفعول ليدل على الدور المساعد. أما استدلالهم بقوله تعالى: "إما يأتينكم رسل منكم" فيقال فيها ما قيل من قبلها، ولقد قلت للأستاذ مصطفي ثابت في نقاشي معه حول هذه الآية: أن الآية على سبيل حكاية الله عزوجل لفعله التشريعي والإرسالي مع البشر فهذه الآية حكاية حال. فقال لي: لا يوجد ما يدل على أنها حكاية لفعل الله وإنما هي آية مستمرة مخبرة عن الواقع والمستقبل! ويرد عليه بأن السياق يحتم أن هذه الآية على سبيل الحكاية بدليل قوله تعالى بعدها: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٥ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٦﴾ [سورة الأعراف, ٣٥-٣٦] فلو كانت الآية على سبيل إخبار الله عزوجل عن فعله وهي مستمرة وليست على سبيل الحكاية لتعليم البشر أخطاء السابقين فلا يقعوا فيما وقع فيه السابقون، فينكروا نبوة محمد المصطفي ولا يقبلوه لقال الله تعالى بعدها: "والذين يكذبون بآياتنا ويستكبرون عنها" ولكن الله تعالى قال "كذبوا واستكبروا" فدل ذلك أن هذه الآية علي سبيل إعلام البشر بتجربتهم مع الوحي السابق لمحمد فلا يقعوا في ما وقع فيه السابقون.

كما أن الأحمديين قد غفلوا عن نقطة هامة جدا وهي قوله تعالى "يا بني آدم"، فالله لم يقل: أيها الناس، وإنما قال: يا بني آدم، فلو كان الأمر أمرا تشريعيا عاما لكل البشر لقال: يا أيها الناس، أما عندما يستعمل الله عزوجل تعبير "بني آدم" فهو يربط مباشرة بين قصة آدم وأبوته للبشر وبين ما يصدر منهم، فهو يذكرهم بقصة أبيهم وما صدر منه لئلا يقعوا فيما وقع فيه أبوهم، وهنا يربط الله تعالى قوله في الآية بقوله: ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨]سورة البقرة, ٣٨[، ﴿قَالَ ٱهۡبِطَا مِنۡهَا جَمِيعَۢاۖ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣﴾ [سورة طه, ١٢٣]، فهو تذكير بالعهد الذي أخذ على أبيهم، فهو حتما علي سبيل الحكاية والمخاطبة للمنكرين لنبوة

المصطفى. ويدلل على ذلك قول الله عزوجل: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٠٦﴾ [سورة البقرة, ١٠٦]، فهذه الآية رد على المنكرين لنزول الوحي بعد موسى وعيسى، فوضح الله عزوجل فعله التشريعي لهم بقوله تعالى: "ما ننسخ"، وهذا توضيح للفعل التشريعي على سبيل البشر في كل الأزمنة، فإذا سأل إنسان في القرن الثلاثين: لماذا أتى وحي بعد موسى وعيسى؟ يقال له قول الله تعالى: ما ننسخ من آية! ومن المعلوم أنه لا أحد يقول باستمرار النسخ، والأحمديون لا يقولون بالنسخ أساسا، والقائلون بالنسخ عندنا في أهل السنة قالوا بأنه انقطع بوفاة الرسول المصطفى! فلا يمكن أن يكون الفعل في الآية على سبيل الإخبار ولكنه على سبيل الحكاية والقص عن فعل الله في التشريع. وبذلك يظهر أن استدلالهم بالآيات لا وجه له. ويستدلون بقوله تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [سورة آل عمران, ٨١]، ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾ [سورة الأحزاب, ٧]. فيقولون إن الله عزوجل أخذ ميثاق النبين أن يؤمن كل منهم بالنبي الذي يليه ويصدقه وينصره، بدون التحديد بأي نبي. ثم يستدلون بآية الأحزاب على أن النبي(ص) أخذ منه الميثاق أيضا، فعلى ذلك لا يوجد ما يمنع أن يأتي نبي بعد المصطفى!

ويرد على ذلك بأن المراد من قول الله تعالى: "ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم" هو النبي(ص) لا محالة وليس أي نبي آخر، ونوضح ذلك بذكر السياق التي وردت فيه الآية: ﴿وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥ بَلَىٰۚ مَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَّقِينَ ٧٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ

وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾]سورة آل عمران, ٧٥-٨٣[

فمن بداية هذه الآية ومن قبلها أيضا من الآيات حديث عن موقف أهل الكتاب من النبي المصطفي ومن المؤمنين حيث يتلاعبون بهم ويهزأون، فيقولون ءامنوا وجه النهار واكفروا آخره، ثم يعاملونهم من باب علوهم عنهم، فهم أصحاب كتاب أما الرسول والعرب فمن الأميين! وهم على الرغم من ذلك يتلاعبون بالكتاب، فيوضح الله عزوجل لهم ولغيرهم علامة صدق النبي(ص) فيما يأمر به، من أنه يأمر بعبادة الله وحده. ثم يذكر المنكرين المتلاعبين بالميثاق الذي أخذ على النبيين بنصرة النبي والإيمان به. وهنا مربط الخلاف بيننا وبين الأحمدية، فهم يقولون إن هذا الميثاق أخذ من النبي(ص) بدليل آية الأحزاب. ونحن نقول إنه لم يؤخذ نفس الميثاق من النبي(ص) وإنما أخذ منه ميثاق مختلف. فآية آل عمران تتحدث عن ميثاق أخذ من النبيين وهو ما تتحدث عنه آية الأحزاب. ولكن آية الأحزاب توضح أن هناك ميثاقا مختلفا بعض الشيء أو تماما أخذ من الرسل الذين ذكروا في الآية بدليل إفرادهم، فالله تعالى يقول: ﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمۡ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۖ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٧﴾﴾] سورة الأحزاب, ٧[، فالله تعالى لم يفرد هؤلاء الرسل لمجرد الأهمية أو

التركيز كما يقول بعض المفسرين ولكنه أفردهم لوجود خلاف بينهم وبين الآخرين، ويدل على ذلك قول الله تعالى في آخر الآية: "وأخذنا منهم ميثاقا غليظا" فهذا الميثاق الغليظ أخذ من النبيين الذين استثني منهم هؤلاء الأنبياء أو الرسل الخمسة ولم يؤخذ من الجميع وإلا لما قال الله عزوجل: "وأخذنا منهم ميثاقا" ولقال "منكم" أي معاشر الأنبياء كلكم ميثاقا غليظا.

ويدل على وجود اختلاف بين هؤلاء الأنبياء الخمسة وباقي الأنبياء قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الشورى, ١٣]، فنلاحظ أن نفس الأنبياء الخمسة مذكورون في الآية مع تحديد للمتفق عليه بينهم في الدين وهو قوله تعالى: "أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه"، فلم لا يكون هذا هو الميثاق الذي أخذ منهم، وخاصة أنه لا يوجد في القرآن أن يكون الميثاق هو الإيمان بالنبي اللاحق، بل إن الميثاق الأول هو الإيمان بالله وهناك مواثيق عدة، مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة البقرة, ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٦٩].

فإذا رجعنا إلى سورة آل عمران وجدنا الآية التي تلي التالية لها هي قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [سورة آل عمران, ٨٣] يدل على أن الكلام على الإسلام في مواجهة المنكرين له وليس

الحديث حديثا عاما! فكل هذا يدل على أن الرسول المذكور في الآية هو الرسول المصطفى[299] وليس أي رسول عامة، بدليل السياق وباقي الآيات!

وآخر ما يستدلون به في هذا المقام هو قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٣ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝٤﴾ [سورة الجمعة ,٢-٤]، حيث يستدلون بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ ... ﴾ حيث يرون أن الله تعالى ذكر بعثة ثانية للرسول صلى الله عليه وسلم في الذين لم يلتحقوا بالصحابة. وما دام الرسول قد توفي فلا بد أن يمثله في هذه البعثة الثانية الروحانية أحد من خدامه المتفانين في حبه وطاعته صلى الله عليه وسلم. ويرون أن الرسول(ص) فسر هذه الآية بقوله في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، حيث قال: كنّا جلوسا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأُنزلت عليه سورة الجمعة: (وآخَرين منهم لمّا يلحقوا بهم). قال، قلت: من هم يا رسول اللّه؟ فلم يراجعه، حتى سأل ثلاثا، وفينا سلمان الفارسيّ. وضع رسول اللّه صلى الله عليه وسلم يده على سلمان، ثم قال: "لو كان الإيمان عند الثريّا لناله رجال أو رجل من هؤلاء."

ولست أدري صراحة ما علاقة منطوق الآية أو الحديث بما يقولون. لقد دافع أخ غير أحمدي عن هذا الفهم وقال إن فهم الأحمدية هو فهم محتمل للآية! فقدمت له فهم

[299] هناك من يرى أن المراد من الرسول في هذه الآية هو وحي الله عزوجل، سواء كان قرآنا أو توراة أو إنجيلا أو خلافه. فالله أخذ ميثاق النبيين للذي آتاهم من كتاب وحكمة وأرجو أن يلاحظ القارئ التنكير في قوله كتاب وحكمة، ثم جاءهم الوحي مصدق ومتطابق لما جاء في الكتاب والحكمة من وحدانية لله وتفرد وعدم تشابه ووجوب عبادة... إلخ. فيجب على النبي أن يؤمن بهذا الوحي وينصره ولا يتراجع عنه أو يبدله بأي حال أو يساوم فيه. فهذا ميثاق أخذ من كل نبي في زمانه يلزمه بالاستمرار في دعوته وعدم اللين أو الهوادة. وقد يقول قائل: أليس الكتاب والحكمة هو الوحي؟ فنقول: نعم ليس هو!، واقرأ معي قول الله عزوجل: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٤٨﴾ [سورة آل عمران ,٤٨] فالكتاب شيء والتوراة شيء آخر وهما غير الحكمة وهي ليست الإنجيل. وهناك آيات أخرى يذكر فيها الحكمة والكتاب منفصلين. أما عندنا في القرآن فالحكمة داخلة في القرآن. أما الكتاب فالعلماء يرون أنه القرآن كله وهناك من يفهم الكتاب بأنه آيات ذات نوع خاص من آيات القرآن أو سور من القرآن.

الآية تبعا لتفسيرهم وأوضحت له كم سيكون مضحكا هذا التفسير! حيث سيكون التفسير! "هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته (...) وآخرين من الأنبياء لما يلحقوا بهم!" كأن الأنبياء كانوا يبحثون عن هؤلاء الأميين ففاتوهم! وعلى الفهم المنطقي للآية: وآخرين منهم أي من الأميين لما يلحقوا بهم أي بالأميين، فلو كانت في الآية دليل على أي شيء لكانت دليل نفي لا إثبات، حيث أن من سيأتي بعدهم أقصى ما سيصل إليه هو درجة الصحابة ولا يتجاوزها! هذا إذا وصل إليها. أما استدلالهم بالحديث الصحيح فلا وجه له، حيث أنه يدل على فضل سلمان رضي الله عنه نفسه وليس على فضل الجنس الفارسي، وحتى على فرض أنه يدل على الجنس الفارسي فليس فيه ما يدل بأي شكل على أنه في النبوة! فليس في الآية أو الحديث ما يؤيد دعواهم. وبهذا نكون قد فندنا الأدلة التي يستدلون بها من القرآن على استمرار النبوة ونأتي إلى أدلتهم من السنة لنرى بما يستدلون!

أدلتهم من السنة على استمرار النبوة التابعة

يستدل الأحمديون من السنة على استمرار النبوة بعد النبي(ص) بأحاديث تحتمل ما يقولون، كما أنهم يستدلون بنفس الأحاديث التي يستدل بها أهل السنة على نفي النبوة ولكنهم يفهمونها فهما مطابقا لقولهم باستمرار النبوة، وسنذكر للقارئ لأحاديث التي يستدلون بها بالإضافة إلى تعليقاتهم عليها، ثم أعلق أنا على الأحاديث وعلى استدلالاتهم بها على قولهم: جعل النبي صلى الله عليه وسلم عليا رضي الله عنه أميرا على المدينة في غيابه حين خرج إلى غزوة تبوك. فقال له علي: هل تتركني مع الصبيان والنساء، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم مقولته الشهيرة التي يتضمنها الحديث كالآتي: "عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعليّ: أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي

بعدي." فهم يستدلون بهذا الحديث على أنه ليس المراد من "لا نبي بعدي" النبوة الزمنية بدليل تشبيه الرسول نفسه وعلي بموسى وهارون! حيث مات هارون قبل موسى!

وهذا من عجيب الإستدلال، فإن الرسول يوضح لسيدنا علي أنه منه بمنزلة أخاه – ليتذكر القارئ أن الرسول(ص) عندما هاجر إلى المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار أما هو فاتخذ عليا أخا!– كما كان هارون لسيدنا موسى أخا وعندما كان يذهب إلى أي مكان كان يخلفه في قومه. والله أعلم إذا كان الرسول كان يعلم إذا كان هارون مات قبل موسى أو لا يعلم! ولا يكبرن ذلك في عين القارئ، فالرسول لم يقرأ التوراة ولم يدرسه والقرآن لم يعلق على هذه المسألة، فما المانع أن يكون الرسول لا يعلمها أو يعلم بخلافها وأن هارون عاش بعد موسى.

وما المانع من أن يكون الرسول يشير فقط إلى منزلة هارون من موسى ويذكر سيدنا علي بأنه لا أنبياء بعده كما حدث مع سيدنا موسى حيث خلفه كثير من الأنبياء في بني إسرائيل؟ فالحديث ليس صريح الدلالة فيما ذهبوا إليه ولا ما ذهب إليه أهل السنة، وإنما هناك أدلة أصرح في مسألة الاستدلال هذه، وهي التي تؤكد دلالته على الختم. ومنها ما رواه أبو داود عن ثوبان رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبيّ، وأنا خاتم النبيين ولا نبي بعدي."فالأحمدية يردون على من يقول: أين المجال بعد هذا الحديث لمجيء نبي من أي نوع، أو بأي مفهوم من مفاهيم ختم النبوة؟ ويسلمون بأن هذا الحديث صحيح الدلالة في أنه لا نبي بعد النبي بأي نوع، إلا أن النبي(ص) قد أخبر في حديث آخر، أن عيسى نازل وأنه ليس بينه وبين النبي أي نبي، وهم يؤمنون بخروج الكذابين أما غلام أحمد فهو المسيح الموعود! ونحن نقول: لو سلمتم بهذا الحديث لوجب عليكم ترك الأحمدية، ففي الحديث استعملت لفظة "خاتم" بمعنى "خاتم"! فلو كانت خاتم لا تعني خاتم! لما استعملها الرسول بمعنى خاتم! ونسألكم: إذا كنتم قد سلمتم أن الحديث صحيح، فلم تجادلون في معنى لفظة خاتم؟ فمعناها في الحديث من أوضح ما يكون. وإذا سلمتم بالحديث وجب التسليم أن المقصود من "بعدي" في الأحاديث كلها

البعدية الزمانية، أما أن تكون خاتم أحيانا بمعنى خاتم وأحيانا ليست بنفس المعنى، و"بعدي" تكون في بعض الأحاديث بعدية زمانية وفي أخرى غير ذلك، فهذا مرفوض تماما! وكذلك يستدلون بالحديث الي رواه ابن ماجه: عن ابن عبّاس قال: لما مات إبراهيم ابن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: إن له مرضعا في الجنّة، ولو عاش لكان صدّيقا نبيّا. ولو عاش لعتقت أخواله القبط وما استرقّ قبطيّ."

وهذا الحديث منكر متنا قبل أن يكون ضعيفا سندا، وبغض النظر عن هذا كله فهناك أحاديث تعارضه، منها ما رواه الحاكم في المستدرك: "لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب" فهذا حديث يتحدث عن عدم وجود أنبياء بعد النبي(ص) ولو كان بعده لكان عمر! فبأي الحديثين نأخذ؟ قد يقول قائل: نأخذ بالحديث الأصح سندا. نقول: نعم معك كل الحق، ولكن الأحمدية لا يهتمون بمسألة السند هذه، فقد يقبلون الحديث ولو كان منكرا، لأنه لا يخالف القرآن في زعمهم! وكثير مما استدلوا به عل دعواهم ضعيف واه. ومن العجيب أنهم يستدلون بحديث اللبنة في دعواهم! –ولكن إذا كانوا قد استدلوا بآية خاتم النبيين ألا يستدلون بحديث اللبنة؟!–، وحديث اللبنة هو الحديث الشهير الذي رواه الإمام البخاري وهو: "أن مثلي ومثل الأَنْبِيَاء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل النَّاس يطوفون به، ويعجبون له ويقولون هلا وضعت هذه اللبنة قَالَ: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين"، ولقد تناقشت مع الأستاذ فتحي عبدالسلام في هذا الحديث والذي كان مصرا على أن فهمنا نحن للحديث مقل من قدر النبي(ص)، وكان يرى أن فهمنا للحديث يجعل النبي(ص) مجرد (كمالة عدد) في طابور الأنبياء، ثم أخذ يتكلم كلاما إنشائيا جميلا حول تصورهم وفهمم هم للحديث، والحق أنه حسن الكلام، ولكن لم يكف جمال كلامه وحسن صياغته لرفع دلالة الحديث الصريحة في أن صرح الرسالات السماوية اكتمل بالنبي الموعود محمد خاتم النبيين. وبداهة يستدلون بأحاديث نزول المسيح وأحاديث المهدي كأقوى الأدلة على دعواهم. وهي ما سنناقشه بمفرده عن التحدث لخرافة المهدي المنتظر عند السنة والشيعة وكيف استغلها الميرزا في تأسيس دعواه.

وبعد أن تكلمنا عن أدلتهم من القرآن والسنة وظهر لنا كيف أنه ليس هناك دليل صريح في كتاب الله عزوجل على هذه المسألة ولو كانت هناك آية واحدة فقط في هذه المسألة، فقط آية واحدة لكنت أول متبع للرجل! ولكن لا آية في كتاب الله تشير إلى ذلك والسنة والحمدلله مؤيدة لهذا القول، ولكنها أفهامهم العجيبة! وبعد هذه المناقشة نأتي لنناقش مناقشتهم هم للأدلة التي استدل بها أهل السنة على ختم النبوة. وسنركز مناقشتنا على القرآن، لأن ما ورد في السنة ذكرناه للقارئ وهو واضح جلي في أن الصواب مع أهل السنة فيه، فلا حاجة لإعادة القول مرة أخرى، ونبدأ بمناقشة قولهم في الآيات الدالة على ختم النبوة وكمال الدين.

ختم النبوة عند الأحمدية

نظرا لتأثر الميرزا بأقوال الصوفية، ولكي يتمكن من تجاوز قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾]سورة الأحزاب, ٤٠[، أخذ قولهم في معنى الخاتم وبنى عليه دعواه فقال إن الخاتم يكون بمعنى الأفضل والزينة ولكن لا يأتي بمعنى الأخير، وفي هذا يقول الأحمديون في موقعهم على الشبكة المعلوماتية: "ومن المعلوم أن الفعل "ختم" في اللغة يعني أنهى وأغلق، كما يعني أيضا طبع؛ أي ترك طابعه في شيء أو أعطاه من طابعه أو أثّر فيه. أما "خاتَم" أو "خاتِم" في اللغة فتعني: ما يوضع في الإصبع للزينة؛ ما يستخدم للختم أو التصديق؛ أو ما يستعمل للختم أو الإغلاق. وإذا أضيف "خاتَم" أو "خاتِم" أو "خاتِمة" إلى جمع العقلاء فلا يكون معناه إلا الأفضل والأكمل[300] الذي جاء بما لم يأتِ ولن

[300] كنت أتناقش مع الأستاذ محمد شريف في هذه المسألة، فاستدل بحديث: "أنا خاتم الأنبياء ومسجدي هذا خاتم المساجد"، فقال: هل مسجد الرسول هو آخر المساجد؟ فقلت: لا بد من التأكد من صحة الحديث أولا، فأنا لم أسمع بهذا الحديث من قبل؟ ثم انتبهت بعد ذلك إلى أنه حتى بفرض صحة الحديث فهم يرون أن معنى الأفضلية لا يكون إلا إذا أضيف إلى جمع العقلاء! أما

يأتي أحد من قبله أو من بعده بمثله. كذلك تعني مَن جَمَع أفضل ما كان للسابقين من أعمال وآثار ومحاسن، ومن ثم صاغها في أزين صورة، ثم ترك أثره وطابعه فيمن جاء بعده. وبهذا يكون قد وصل الكمال فيما نُسب إليه بحيث لا يصل إلى مرتبته أحد ممن كان قبله أو ممن جاء بعده. وهنالك أمثلة يصعب حصرها لهذه الصيغة بهذا المعنى في كتب التراث والآثار.

ونستطيع أن نرى في الأمثلة اللغوية أن صفة الخاتم قد أطلقت على شعراء وأولياء ومحققين وكتاب وغيرهم، وهذا لا يعني أن أيًّا من هذه الصفات أو الأعمال أو المراتب قد انتهت ولم يبق في الدنيا أحد يقوم بها أو يتبوءها.(...) إن خاتمية النبوة تفرض أن يكون هنالك من يصلون إلى مقام النبوة في الأمة الإسلامية كدليل على كمال الأمة الذي هو أحد ركائز ختم النبوة. وليس مقبولا مطلقا أن يقال بأن الأمة ستكون أفضل الأمم وأرفعها بينما لا يصل أفرادها إلى الدرجات العليا التي كان يصلها من كان قبلهم. فأي أفضلية بقيت في هذه الأمة إذن؟! وهكذا نجد أن مفهوم خاتم النبيين يحدد ملامح النبوة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بشكل واضح وجلي. وهذا المفهوم ما كان إلا لكي يبين علو شأن النبي بين الأنبياء من ناحية، واستمرار النبوة من بعده من ناحية أخرى وعدم انقطاعها. ولكن النبوة قد قُيدت بشروط لم تكن موجودة سابقا، وأصبحت محصورة في الأمة الإسلامية."

وقبل أن نعلق على الجانب اللغوي أود التنبيه على أن الأحمديين يركزون كلية على مسألة النبوة التابعة كأن الأمة لا يكون فيها أو لها فضل إلا إذا كان فيها أنبياء تابعون للنبي الرئيس، فإن لم يكن فإنها تصبح أمة سيئة! مع أنه من المنطقي والمفترض أن لا يأتي إلى القوم أي نبي إلا بعد أن يصبح ظاهرا لكل ذي عينين أو حتى لفاقدهما! أن هؤلاء القوم بلغوا درجة من الفساد تحتاج حتما إلى نبي جديد، أو أنهم حرفوا كتاب

إلى غير العقلاء فلا يدخل في الباب ! لذا فإن استدلالهم بكلمة "خاتم المساجد" لا تنهض للمحاجة لأن المساجد ليس جمع عقلاء!

ربهم فلا بد من إرسال نبي يجدد لهم دينهم. أما في ديننا فعندنا القرآن الذي هو تبيان كل شيء، ولست أدري ما الحاجة إلى نبي بعده!

ولقد كنت أتناقش مرة مع الأستاذ فتحي عبدالسلام فقلت له: إن النبي "القادياني" عندما أتى حدد وضيق دلالات القرآن، فبعد أن كانت مفتوحة يستخرج منها الكنوز، أصبح قول الميرزا هو التفسير المعتمد من عند الله! فقال: إن الميرزا أتى بدعوة وأقوال عامة ولم يدخل إلى كثير من التفاصيل، فقال مثلا للأخوة الشيعة: إن الله قد أوحى إلي أن أبا بكر وعمر رجلان صالحان فلا تخوضوا فيهما، وما شابه من الأقوال! فقلت له: وما الحاجة إليه إذن، إذا كان سيأتي بأقوال عامة؟ فاضطرب لحظة ثم قال للأستاذ محمد شريف الذي كان حاضرا: سؤال جميل من شخص جميل، ثم أخذ يقدم مقدمات جمالية يظهر منها أنه لم يكن مستعدا للسؤال وأنه يحضر للإجابة في أثناء هذا القول. ولا يحضرني بالضبط ما قاله بعد هذه المقدمة، ولكن ما أتذكره أنه لم يقنعني!

فمسألة أن أفضلية الأمة في وجود أنبياء تابعين ليست مقنعة بل إنها مخالفة لطبيعة القرآن المحكمة الخاتمة التي تحتاج إلى مهيمن عليه، فالقرآن رسالة الله رسالة مفتوحة إلى كل العالم، أما الكتب السابقة فلم تكن خاتمة وكنت كتبا مرحلية فلا حرج في وجود أنبياء تابعين في هذه الأمم، أما في أمتنا فلا ينبغي أن يكون فيها أنبياء تابعين مع وجود قرآنها، وننتقل الآن إلى مناقشة قولهم في مسألة فهمهم لمعنى "الخاتم". يدعي السادة الأحمديون أن الخاتم يأتي بمعنى كذا وكذا، وإذا أضيف "خاتَم" أو "خاتِم" أو "خاتِمة" إلى جمع العقلاء فلا يكون معناه إلا الأفضل والأكمل الذي جاء بما لم يأتِ ولن يأتي أحد من قبله أو من بعده بمثله، وأن الأمثلة على ذلك كثيرة في اللغة، فهل هذا القول صحيح؟ نقول بملء فينا: لا، القول قول غير صحيح بتاتا، ودعواهم في هذا مستند إلى قول الصوفية، الذين سبقوا المرزا بقرون طوال في دعواهم هذه، والعجيب أنهم يستدلون بأقوال الصوفية في هذا الشأن، فيعرضون آراء بعض الصوفية كدليل مثل: قول الصوفي المعروف الإمام عبد الوهاب الشعراني في اليواقيت والجواهر: "اعلم أن النبوة لم ترتفع مطلقا بعد محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما ارتفع نبوة التشريع فقط."

ويستدلون كذلك بقول محي الدين بن عربي في الفتوحات المكية، الجزء الثالث: فالنبوة سارية إلى يوم القيامة في الخلق وإنْ كان التشريع قد انقطع. فالتشريع جزء من أجزاء النبوة. "فإن النبوة التي انقطعت بوجود رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هي نبوة التشريع، لا مقامها، فلا شرع يكون ناسخا لشرعه صلى الله عليه وسلم، ولا يزيد في حكمه شرعا آخر. وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم: إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي. أي لا نبي بعدي يكون على شرع يخالف شرعي، بل إذا كان يكون تحت حكم شريعتي، ولا رسول أي لا رسول بعدي إلى أحد من خلق الله بشرع يدعوهم إليه. فهذا هو الذي انقطع وسدّ بابه، لا مقام النبوة."اهـ

وكذلك يستدلون بقول الصوفي المعروف محمد بن علي الحسن الحكيم الترمذي المتوفي عام 308هـ في كتاب ختم الأولياء: "فإن الذي عَمِيَ عن خبرِ هذا يظنّ أن خاتم النبيين تأويله أنه آخرهم مبعثا. فأي منقبة في هذا؟ وأي علم في هذا؟ هذا تأويل البُلْهِ الجَهَلة."

وهذه الأقوال من ألفاظ الصوفية، ولقد رأينا عند الحديث عن الصوفية أن لهم ألفاظ خاصة في فنهم لا تُفهم كما في اللغة وإنما تفهم تبعا لتفسيرهم ولاصطلاحاتهم هم، ومن ذلك لفظ "خاتم" فقد اصطلحوا له معنى جديدا وهو هذا المعنى الذي قال به الميرزا، ولقد علق الإمام ابن تيمية رحمه الله قبل ظهور الميرزا بقرون على هذا الاستعمال الخاطئ، فقال في فتاويه: "وكذا لفظ (خاتم الأولياء) لفظ باطل لا أصل له، وأول من ذكره محمد بن علي الحكيم الترمذي، وقد انتحله طائفة كل منهم يدعي أنه خاتم الأولياء: كابن حمويه وابن عربي وبعض الشيوخ الضالين بدمشق وغيرها، وكل منهم يدعي أنه أفضل من النبي عليه السلام من بعض الوجوه، إلى غير ذلك من الكفر والبهتان، وكل ذلك طمعاً في رياسة خاتم الأولياء لما فاتتهم رياسة خاتم الأنبياء، وقد غلطوا، فإن خاتم الأنبياء إنما كان أفضلهم للأدلة الدالة على ذلك، وليس كذلك خاتم الأولياء. فإن أفضل أولياء هذه الأمة السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، وخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر رضي الله عنه، ثم عمر رضي الله عنه و ثم عثمان رضي الله

عنه، ثم علي رضي الله عنه، وخير قرونها القرن الذي بعث فيه النبي صلى الله عليه وسلم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وخاتم الأولياء في الحقيقة آخر مؤمن تقي يكون في الناس، وليس ذلك بخير الأولياء، ولا أفضلهم بل خيرهم وأفضلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه تعالى عنه، ثم عمر: اللذان ما طلعت شمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل منهما". اهـ

فهذا الاستعمال لا أصل له في اللغة، بل هو من استعمالات الصوفية الذين لا يصلحون كدليل لغوي سليم. أما الدليل على أن خاتم بمعنى "آخر" فهو أجلى من الشمس وضوحا وأكثر من الجيوش عددا، ونبدأها بقول ابن فارس في المقاييس، والذي يذكر الأصل اللغوي للكلمة بغض النظر عن كسر المشتقات أو فتحها، فكل سواء عند الأصل: يقول ابن فارس في المقاييس: "الخاء والتاء والميم أصلٌ واحد، وهو بُلوغ آخِرِ الشّيء. يقال خَتَمْتُ العَمَل، وخَتم القارئ السُّورة. فأمَّا الخَتْم، وهو الطَّبع على الشَّيء، فذلك من الباب أيضاً؛ لأنّ الطَّبْع على الشيءِ لا يكون إلاّ بعد بلوغ آخِره، في الأحراز. والخاتَم مشتقٌّ منه؛ لأنّ به يُختَم. ويقال الخاتِمُ، والخاتام، والخَيْتام. قال: والنبي صلى الله عليه وسلم خاتِم الأنبياء؛ لأنّه آخِرُهم. وخِتام كلِّ مشروبٍ: آخِرُه. قال الله تعالى: ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٌۚ ... ٢٦﴾ [سورة المطففين, ٢٦]، أي إنّ آخرَ ما يجِدونه منه عند شُربهم إياه رائِحَةُ المسك." اهـ

وكلمات ابن فارس رحمه الله على الرغم من قلتها إلا أنها شافية كافية، فالختم هو بلوغ آخر الشيء وليس هو آخر الشيء، وهذا ما أراده الله تعالى من قوله "خاتم النبيين"، فهو لم يقل أن النبي المصطفي آخر النبيين، وإلا لن يكون له فضل ولكنه أراد التوضيح أن صرح الأنبياء وصل إلى آخره بأفضلهم وهو النبي المصطفى! لذلك استعمل كلمة آخر.

فإذا نحن تركنا المقاييس وانتقلنا إلى لسان العرب وجدنا ابن منظور يقول (حذفنا من النص المكرر و ما لا حاجة لنا به –المؤلف–): "قال أَبو إِسحق: معنى خَتَمَ وطَبَعَ في اللغة واحدٌ، وهو التغطية على الشيء والاستِيثاقُ من أَن لا يَدخله شيء كما قال جلّ

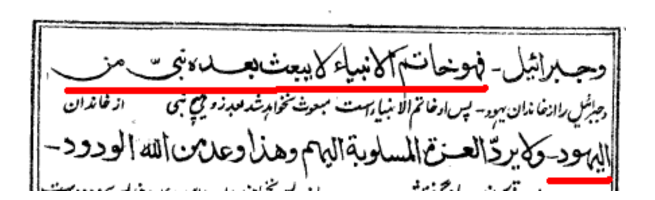
وعلا: أَم على قلوب أَقفالُها؛ (...) والخاتَمُ: ما يُوضَع على الطِّينة، وهو اسم مثل العالَمِ.والخِتامُ: الطِّينُ الذي يُخْتَم به على الكتاب؛ (...) والخَتْمُ المنع. والخَتْم أَيضاً: حفْظُ ما في الكتاب بتَعْلِيم الطِّينَة (...) ويقال: فلان خَتَمَ عليك بابَهُ أَعرَض عنك. وخَتَم فلان لكَ بابَه إِذا آثرك على غيرك. وخَتَم فلان القرآن إِذا قرأَه إِلى آخره. ابن سيده. خَتَم الشيء يَخْتِمُه خَتْماً بلغ آخرَه، وخَتَمَ الله له بخَير.وخاتِمُ كل شيء وخاتِمَته: عاقبته وآخِرُه. واخْتَتَمْتُ الشيءَ: نَقيض افتَتَحْتُه. وخاتِمَةُ السورة: آخرُها؛... وخِتامُ كل مَشروب: آخرُه. وفي التنزيل العزيز: خِتامُه مسك، أَي آخرُه لأَن آخر ما يَجدونه رائحة المسك، وقال عَلْقَمَةُ: أَي خِلْطُه مِسك، أَلم ترَ إِلى المرأَة تقول للطِّيب خِلْطُه مِسكٌ خِلْطُه كذا؟ وقال مجاهد: معناه مِزاجُه مسك، قال: وهو قريب من قول عَلْقَمَة؛... قال الفراء: والخاتِمُ والخِتام متقاربان في المعنى، إِلاَّ أَن الخاتِمَ الاسمُ، والخِتام المصدر؛ قال الفرزدق: فبِتْنَ جَنابَتَيَّ مُصَرَّعاتٍ، وبِتُّ أَفُضُّ أَغلاقَ الخِتامِ وقال: ومثلُ الخاتِم والخِتام قولك للرجل: هو كريم الطَّابِع والطِّباع، قال: وتفسيره أَن أَحدهم إِذا شرب وَجَدَ آخر كأْسِه ريحَ المِسك. وخِتامُ الوادي: أَقصاه. وخِتامُ القَوْم وخاتِمُهُم وخاتَمُهُم: آخرُهم؛ عن اللحياني؛ ومحمد، صلى الله عليه وسلم، خاتِمُ الأَنبياء، عليه وعليهم الصلاة والسلام. التهذيب: والخاتِم والخاتَم من أَسماء النبي، صلى الله عليه وسلم. وفي التنزيل العزيز: ما كان محمد أَبا أَحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتِمَ النبيّين؛ أَي آخرهم، قال: وقد قرئ وخاتَمَ؛... والخَتْم أَفواه خَلايا النَّحْل. والخَتْم أَن تَجمع النحلُ من الشَّمَع شيئاً رقيقاً أَرقّ من شَمَع القُرْص فَتَطْلَيَه به، والخاتَمُ أَقلُّ وضَحِ القوائم."اهـ

وهذا يؤكد ما قلنا به من أن معنى خاتم هو خاتم وليس أفضل فقط كما يدعي الأحمديون، لذلك يقول الأزهرى في كتاب التهذيب: وخاتم كل شئ آخره. ولم يذكر أى عالم لغوى ما يدعيه القاديانيون بأن معنى خاتم: هى الزينة، فلم يرد في الصحاح ولا المصباح المنير ولا القاموس ولا أساس البلاغة وجميع المعاجم والقواميس الأخرى أى شئ يُفيد المعنى الشاذ الذى ادعوه. كما أن التفاسير لا تذكر في بيان (خاتم النبيين) معنى غير معنى الآخر. وأعتقد أن هذا أكثر من كاف في دعوانا. فإذا نحن غضننا

الطرف عن قواميس اللغة ومعاجمها سنجد أن الميرزا نفسه استعمل "الخاتم" بمعنى الأخير في كتاباته العربية وغير العربية، وحتى لا يدعي أحد أن كتاباته هذه غير إلهامية نذكر قوله الذي جاء في كتاب "سيرة المهدي" الذي ألفه ابن ميرزا غلام الملقب بقمر الأنبياء: "إن جميع مؤلفاتي بالعربية هي من نوع الإلهام لأنني كتبتها بتأييد خاص من الله، فإنني أحياناً لا أعرف معنى بعض الكلمات و الفقرات التي أكتبها حتى أنظر إلى القاموس ثم أفهم المعنى". فإذا كان هذا قولا صحيحا فلا بد أن يكون كل ما كتبه بالعربية إلهاميا! ولكنه كلام متناقض يهدم آخره أوله، وإذا كانت هذه الجملة غير صحيحة فيعني ذلك أنه كاذب في دعواه، فلا يلتفت لكلامه! وإلى القارئ الكريم بعضا من وحيه المزعوم الذي يستعمل فيه لفظ "خاتم" بمعنى "آخر": جاء في كتاب حمامة البشرى: "وها إنني لا أصدق إلهاما من إلهاماتي إلاّ بعد أن أعرضه على كتاب الله، وأعلم أنه كل ما يخالف القرآن فهو كذب وإلحاد وزندقة، فكيف أدّعي النبوة وأنا من المسلمين؟ وأحمد الله على أني ما وجدت إلهاما من إلهاماتي يخالف كتاب الله بل وجدت كلها موافقا بكتاب رب العالمين.

ومعاذ الله أن أدّعي النبوة بعد ما جعل الله نبيّنا وسيدنا محمد المصطفى(ص) خاتم النبيين.

جاء في كتاب مواهب الرحمن: "ثم بعد ذلك نقل النبوة من ولد إسرائيل إلى إسماعيل، وأنعم الله على نبينا محمد وصرف عن اليهود الوحي وجبرائيل، فهو خاتم الأنبياء لا يبعث بعده نبي من اليهود، ولا يرد العزة المسلوبة إليهم، وهذا وعد من الله الودود".


وجبرائيل - فهو خاتم الانبياء لا يبعث بعده نبيّ من
وجبرائیل را از خاندان یهود - پس او خاتم الانبیاء است مبعوث نخواهد شد بعد زو ہیچ نبی از خاندان
اليهود - ولا يردّ العزة المسلوبة اليهم وهذا وعد من الله الودود -

جاء في كتاب تحفة بغداد: "وقد ختم الله برسولنا النبيين، وقد انقطع وحي النبوة فكيف يجيء المسيح ولا نبي بعد رسولنا؟! أيجيء معطلاً من النبوة كالمحرومين؟ وقد بشرنا

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المسيح الآتي يظهر من أمته وهو أحد من المسلمين."

> وقد ختم الله برسولنا النبيين – وقد انقطع وحي النبوة فكيف يجيء المسيح
> ولا نبي بعد رسولنا أيجيء معطلا من النبوة كالمعزولين – وقد بشرنا رسول الله صلى الله
> عليه وسلم أن المسيح الآتي يظهر من أمته وهو أحد من المسلمين – وفي الصحاح أحاديث
> صحيحة مرفوعة متصلة شاهدة على وفات عيسى عليه السلام خصوصا في البخاري بيان مصرح

جاء في كتاب خزائن روحانية: "كنت خاتم الولد عند أبي، فلم يولد له ابن بعدي".

> بھی وحی الٰہی ہو کر شائع ہو چکی ہیں۔ تیسری آدم سے مجھے یہ بھی مناسبت ہے کہ آدم توام کے طور پر
> پیدا ہوا اور میں بھی توام پیدا ہوا۔ پہلے لڑکی پیدا ہوئی بعدہٗ میں۔ اور باایں ہمہ میں اپنے والد
> کے لئے خاتم الولد تھا۔ میرے بعد کوئی بچہ پیدا نہیں ہوا۔ اور میں جمعہ کے روز پیدا ہوا تھا۔
> اور آدم کا حوا سے پہلے پیدا ہونا اس بات کی طرف اشارہ تھا کہ وہ سلسلہ دنیا کا مبدء ہے۔

لاحظ أنه استعمل "خاتم الولد" بلغة الأوردو بنفس استعمالها في اللغة العربية. "فهذه أدلة من أقوال الميرزا تشير بوضوح إلى أنه يستعملها نفس الاستعمال المألوف. ولقد كنت ناقشت الأستاذ مصطفي ثابت في مسألة الختم هذه فقال بما يقوله الأحمدية، فقلت له: إن هذا القول لا أساس له من الصحة وأنه من أقوال الصوفية. فقال: على فرض، عندما قال الله تعالى عاتبا على بني إسرائيل: "ويقتلون النبيين بغير الحق"، هل قتلوا كل الأنبياء؟ قلت له:لا، قال: فكذلك هذه الآية، فالرسول ليس خاتما لكل الأنبياء بل هو خاتم للأنبياء المشرعين فقط ولا مانع من أن يأتي بعده نبي تابع! والحق أن رده كان جديدا بالنسبة لي، وأخذت أفكر في معنى قتل الأنبياء هذه، وعلى الرغم من أن نبيه لم يستدل بالآية بهذا الشكل وفسرها بشكل آخر وعليه أن يلتزم به، إلا أن رده بغض النظر عن تفسير الميرزا كان جيدا، فلما تفكرت في الآية التي استدل بها وجدت أن المعنى الذي نفهمه نحن من الآية فهما غير صحيح، وهو أن بني إسرائيل كانوا يقتلون الأنبياء، وإنما قتلوا فريقا منهم ولم يقتلوا الآخر بنص القرآن. قد يقول القارئ: الآية على سبيل التغليب وحكاية العادة، أي أن عادتهم أنهم كانوا يقتلون

الأنبياء. فنقول: لا يوجد ما ورد في القرآن على سبيل التغليب أو التعميم، فما جاء عاما فهو عام وما استثني منه فهو مستثن. فكيف نفهم هذه الآية إذا؟ أنا كنت أعلم أن القتل قد يستعمل بمعنى اللعن، ولكن لم أكن متأكدا من كون هذا الاستعمال صحيحا، فعدت إلى معجم مقاييس اللغة فوجدته يعرف القتل كالتالي: "القاف والتاء واللام أصلٌ صحيح يدلُّ على إذلالٍ وإماتةٍ. يقال: قتَلَهُ قَتْلاً. والقِتْلَة الحالُ يُقْتَلُ عليها. يقال قَتَله قِتلةَ سَوء. والقَتْلة المرّة الواحدة. ومَقاتِلُ الإنسان: المواضع التي إذا أُصِيبت قَتَله ذلك. ومن ذلك: قتلتُ الشيءَ خُبراً وعِلْماً" اهـ.

وهو في لسان العرب: "(...) وقوله تعالى: قاتَلهم الله أَنَّى يؤفَكُون؛ أَي لَعَنَهم أَنَّى يُصْرَفون، وليس هذا بمعنى القِتال الذي هو من المُقاتلة والمحاربة بين اثنين. وقال الفراء في قوله تعالى: قُتِل الإنسان ما أَكْفَره؛ معناه لُعِن الإِنسان، وقاتَله الله لعَنه الله؛ وقال أَبو عبيدة: معنى قاتَلَ الله فلاناً قَتَله. ويقال قاتَل الله فلاناً أَي عاداه. (...) وفي حديث المارّ بين يدي المُصَلِّي: قاتِلْه فإِنه شيطان أَي دافِعْه عن قِبْلَتِك، وليس كل قِتال بمعنى القَتْل. وفي حديث السَّقِيفة: قَتَلَ الله سعداً فإِنه صاحب فتنة وشرٍّ أَي دفع الله شرَّه كأَنه إِشارة إِلى ما كان منه في حديث الإِفْك، والله أَعلم؛ وفي رواية: أَن عمر قال يوم السَّقِيفة اقْتُلوا سعداً قَتَله الله أَي اجعلوه كمن قُتِل واحْسِبُوه في عِداد مَنْ مات وهلك، ولا تَعْتَدُّوا بمَشْهَده ولا تُعَرِّجوا على قوله. وفي حديث عمر أَيضاً: مَنْ دَعا إِلى إِمارة فسِه أَو غيره من المسلمين فاقتلوه أَي اجعلوه كمن قُتِلَ ومات بأَن لا تَقْبَلوا له قولاً ولا تُقِيموا له دعوة، وكذلك الحديث الآخر: إِذا بُويِع لخَلِيفتين فاقتلوا الأَخير منهما أَي أَبْطِلوا دعوته واجعلوه كمَنْ قد مات. (...) كما تقول إنا أَقْتُل الشيء علماً تأْويله أَي أَعْلم علماً تامًّا (...) وتَقَتَّل الرجل للمرأَة: خضَع. ورجل مُقَتَّل أَي مُذَلَّل قَتَله العشق."اهـ

فهذه أدلة صريحة على أن القتل يأتي بمعنى اللعن والإذلال بخلاف إزهاق النفس وهو الذي يجب أن تحمل الآية عليه. وبذلك نقر بأن بني إسرائيل كانت تقتل الأنبياء بغير الحق وليس فريقا منهم فقط. وعلى ذلك فاستدلال الأستاذ مصطفي بهذه الآية لا ينهض للمحاجة ويبقى عليه إقراره بأن الرسول خاتم بمعنى آخر.

والحق يقال إنه عندما أتاني بهذا القول لم أحر جوابا وإنما توصلت إلى الرد فيما بعد عندما أخذت أتدبر في الآيات التي استدل بها، لذلك قال لي بعدها: ما الدليل إذا على أن الرسول هو آخر الأنبياء وأنه لا نبي بعده، فقلت له: قوله تعالى: ﴿... ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ ... ﴿٣﴾﴾ [سورة المائدة ,٣]، والدليل هو قوله: ﴿... وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي ... ﴿٣﴾﴾ [سورة المائدة ,٣]، لأنني لو قلت الدليل هو "أكملت" فقط، ستقول: إن الميرزا مذكور في الدين ولا يمنع كونه سيظهر متأخرا أن الدين سيكون كمل! ولكن إذا قلت إن النعمة قد تمت، وقال شخص: سيظهر نبي في آخر الزمان، فهذا مناقض حتما لتمام النعمة! فقال لي: إن فهمك عجيب، فالنعمة ليس المقصود منها كذا، وأتى بقول في تفسير الآية، ولكن الحق يقال إن الوقت لم يكن يسمح باستمرار النقاش لأن الساعة كانت قد قاربت الواحدة صباحا وكنت مضطرا للانصراف، فلم أجادله في هذا القول.

وبذلك يظهر لنا أن اللغة والقرآن والميرزا استعملوا الخاتم بمعنى الأخير، ولكن الميرزا عاد فاستعمل استعمال الصوفية، وهو استعمال لا ينهض للمحاجة لمخالفة أقواله الإلهامية أقواله الإلهامية الأخرى فيسقط القولان.و إذا نحن سكتناعن كل هذا فسنجد أن الميرزا يقول في كتاب الخزائن: "لقد أوحى الله إلي وحياً تشريعياً أيضاً، إذ ليس الوحي التشريعي سوى الوحي الذي يشتمل على الأمر و النهي و قد أمرني الله قائلاً ﴿... ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا ... ﴿٢٧﴾﴾ [سورة المؤمنون ,٢٧]، وبهذا يظهر لنا أن الميرزا يقوم بعمل الإستثناءات وتفصيلها على مقاسه ثم يغلقها بعد ذلك، فبعد أن قال إن رسول الله ليس آخر الأنبياء، عاد فناقض نفسه وجعل نفسه هو الخاتم، مع أن الخاتم عنده يعني الزينة! وكذلك قال بوجود النبوة التابعة أي التي لا وحي تشريعي فيها، ثم عاد فقال: إنه أوحي إليه وحي تشريعي! وبذلك يساوي الرسول، والعجيب كما قلنا أن أتباعه لا يلقون لأقوال إمامهم بالا ويأخذون ما يحلو لهم ويتركون ما يشاءون.

وبعد أن انتهينا من مناقشة قولهم في مسألة ختم النبوة[301]، ننتقل لعرض نماذج من الوحي الإلهامي الذي أتى الميرزا غلام أحمد.

نماذج من الوحي الإلهامي

حتى لا يظن أحد أننا نتقول على الرجل أو أننا نبالغ في حقه، وأنه من الممكن أن يكون الرجل نبيا تابعا، فهو لم يغير تقريبا أي حكم من أحكام الدين ودعا إلى عبادة الله وإلى الأخلاق الحميدة ... إلخ، فما الذي يمنع أن يكون نبيا تابعا؟ نقول بلسان الوائق: أكبر دليل على أنه ليس نبيا بأي حال ذلك الوحي الذي أتى به وادعى أنه إلهامي ومن عند الله، فهو إما كتابات عادية متناقضة أو تدجيل وتجميع لآيات من القرآن بشكل عجيب متناقض أو مبالغات لا تصدر من عند الله بأي حال. وإليك عزيزي القارئ نماذج غير مختارة من الوحي الإلهامي للميرزا:

جاء في كتاب حمامة البشرى "فألهمني ربي مُبشّرًا بفضل من عنده وقال إنك من المنصورين. وقال: "يَا أَحْمَدُ بَارَكَ اللهُ فِيكَ، مَا رَمَيْت إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيل الْمُجْرِمِينَ". وقال: "قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. لاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ وَإِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ". وقال: "أَنْتَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَّبِّكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ وَمَا أَنْتَ بِفَضْلِهِ مِن مَجَانِينَ. وَيُخَوِّفُونَكَ مِنْ دُونِهِ. إِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ، يَحْمَدُكَ اللهُ مِنْ عَرْشِهِ، وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ واللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ".

---

[301] من النقاط التي يتكأ عليها الأحمديون مسألة قلة عدد الآيات التي تتحدث عن ختم الرسالة، فهي لم ترد صراحة إلا في آيتين هما آية المائدة "اليوم أكملت" وآية الأحزاب "خاتم النبيين"، ويقولون: هل من الممكن أن لا تذكر مثل هذه العقيدة الهامة في القرآن إلا في آية أو آيتين.؟ نقول: نعم، من الممكن جدا، فإذا كانت عصمة القرآن من التحريف اللفظي لم ترد صراحة إلا في آيتين وهما: "إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون" والثانية: "اتل ما أوحي إليك من كتاب ربك لا مبدل لكلماته...". فهذه مسألة غاية في الأهمية وعلى الرغم من ذلك لم يكثر القرآن من الحديث عنها لترسخها في نفوس المسلمين.

وسمّاني ربي عيسى ابن مريم في إلهام من عنده، وقال: "يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ، إِنَّا جَعَلْنَاكَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَم، وأَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةٍ لاَ يَعْلَمُهَا الْخَلْقُ، وَأَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ تَوْحِيدِي وَتَفْرِيدِي، وَإِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ".

وكان الميرزا يقول: "وأما أحاديث مجيئ المهدي.. فأنت تعلم أنها كلها ضعيفة مجروحة ويُخالف بعضها بعضا، حتى جاء حديث في ابن ماجه وغيره من الكتب أنه لا مهدي إلاّ عيسى بن مريم، فكيف يُتّكأُ على مثل هذه الأحاديث مع شدة اختلافها وتناقضها وضعفها، والكلامُ في رجالها كثير كما لا يخفي على المحدثين.

فالحاصل أن هذه الأحاديث كلها لا تخلو عن المعارضات والتناقضات فاعتزل كلها ورد التنازعات الحديثية إلى القرآن، واجعله حكما عليها ليتبين لك الرشد وتكون من المسترشدين. فإن كنت تقبل الأحاديث مع شدة اختلافها وتناقضها وتنزلها عن مرتبة اليقين فكم من حري أن تقبل القرآن اليقيني القطعي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إن كنت تريد أن تتبع سبل اليقين."اهـ

ثم أصبح يقول: "فمن زعم أن المهدي المعهود والمسيح الموعود رجلان يخرجان كالمجاهدين، ويسلاّن السيف على النصارى والمشركين، فقد افترى على الله ورسوله خاتم النبيين، وقال قولا لا أصل له في القرآن ولا في الحديث ولا في أقوال المحققين. بل الحق الثابت أنه: "لا مهدي إلا عيسى"، ولا حرب ولا يؤخذ السيف ولا القنا.!!!!"

وسبحان الله يجيء الوحي للميرزا كما في الأحاديث الموضوعة!، فيقول في كتاب تذكرة أن الله أوحى إليه قائلاً: "لولاك لما خلقت الأفلاك". وقال له في كتاب البرية: "خلقت السماوات والأرض والليل و النهار من أجلك".!

وجاء في مكتوب أحمد: وقال: "يا أحمدي، أنت مرادي ومعي. يحمدك الله مِن عرشه". وقال: "أنت عيسى الذي لا يضاع وقته. كمثلك دُرٌّ لا يضاع. جَرِيُّ اللهِ في حلل الأنبياء".

وحتى لا يظن أحد أننا ننزع آياته من السياق –على الرغم من أنه هو نفسه نزعها مسبقا من القرآن– نذكر آياتا! طوالا من الوحي إلى الميرزا حتى يعلم القارئ كم هو مقدار الفوضى في تصفيفه آيات الله، وإليك أيها القارئ نموذجا من رسالة تحفة بغداد، حيث تفتتح الرسالة بقول الميرزا: رسالة تحفة بغداد وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ.

وإليكم نص من الرسالة التحفة: "واللهُ قصّ علينا قصص الملهَمين في كتابه العزيز، وأنبأنا أنه كلَّم أُمَّ موسى، وكلَّم ذا القرنين، وكلَّم الحواريّين. وما كان أحدٌ منهم نبيًّا ولا رسولاً، ولكن كانوا من عباده المحبوبين. أليس من أعجب العجائب أن يكلّم الله نساء بني إسرائيل ويعطي لهنّ عِزّةَ مكالماته وشرف مخاطباته، وما يعطي لرجال هذه الأمّة نصيبا منها وهي أمّة خير المرسلين؟ وقد سمّاها خير الأمم.. وختَم بها الأمم كلها، وقال: [ثَلَّةٌ مِّنَ الآخِرِينَ]، يعني فيها كثير من المكملات والمكملين. وقال: "إني مُهينٌ مَن أراد إهانتَك، وإنّا كفيناك المستهزئين. يا أحمدُ، بارَكَ اللهُ فيك، ما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى، لتُنذِرَ قومًا ما أُنذِرَ آباؤهم ولِتستبينَ سبيل المجرمين. قُلْ إني أُمِرتُ وأنا أوّلُ المؤمنين. قُلْ جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا. كلُّ بركة مِن محمد(ص)، فتبارَكَ مَن علَّم وتعلَّمَ. وقل إنِ افتريتُه فعليّ إجرامي، ويمكُرون ويمكُر الله والله خير الماكرين. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهِره على الدين كله. لا مبدِّلَ لكلمات الله. إني معك، فكُنْ معي أينما كنتُ. كُنْ مع الله حيثما كنتَ. أينما تُولّوا فثَمَّ وجهُ الله. كنتم خيرَ أُمّة أُخْرجتْ للناس وفخرًا للمؤمنين. ولا تيأَسْ مِن رَوح الله. ألا إن روح الله قريب. ألا إن نصر الله قريب. يأتيك مِن كلّ فَجٍّ عميقٍ. ينصرك الله مِن عنده. ينصرك رجالٌ نوحي إليهم من السماء. لا مبدِّلَ لكلمات الله، وإنك اليوم لدينا مَكينٌ أمين. وقالوا إن هذا إلا اختلاق. قُل الله ثم ذَرْهم في خوضهم يلعبون. ومَن أظلم ممن افترى على الله كذبا. وإنّ عليك رحمتي في الدنيا والدين، وإنك لمن المنصورين. بشرى لك يا أحمدي، أنت مرادي ومعي، غرَستُ كرامتك بيدي. أكان للناس عجبًا، قُلْ

هو الله عجيب. يجتبي من يشاء من عباده، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون. وتلك الأيام نداولها بين الناس. وإذا نصر الله المؤمنَ جعَل له الحاسدين. تَلطَّفْ بالناس وتَرحَّمْ عليهم، أنت فيهم بمنزلة موسى، فاصبر على جور الجائرين. أحسِب الناس أن يُترَكوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون. الفتنة هنا فاصبر كما صبر أولوا العزم. ألا إنها فتنة من الله ليحبّ حبًّا جَمًّا. وفي الله أجرك، ويرضى عنك ربك، ويتم اسمك. وإن يتخذونك إلا هُزوًا، قل: إني من الصادقين، فانتظِروا آياتي حتى حين. الحمد لله الذي جعَلك المسيحَ ابن مريم. (...) كن في الدنيا كأنك غريب أو عابرُ سبيل وكن من الصالحين الصدّيقين. أنا اخترتُك وألقيت عليك محبّة مني. خذوا التوحيدَ التوحيدَ يا أبناء الفارس. وبَشِّرِ الذين آمنوا أن لهم قدمَ صدقٍ عند ربهم. ولا تصعِّرْ لخَلْقِ الله ولا تسأَمْ من الناس، واخفِضْ جناحك للمسلمين. أصحاب الصفّةِ، وما أدراك ما أصحاب الصفّة؟ ترى أعينَهم تفيض من الدمع، يصلّون عليك ربنا إننا سمعنا مناديا ينادي للإيمان ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. شأنك عجيب، وأجرك قريب، ومعك جند السماوات والأرضين. أنت مني بمنزلة توحيدي وتفريدي، فحان أن تُعانَ وتُعرَف بين الناس. بوركت يا أحمد، وكان ما بارك الله فيك حقًّا فيك. أنت وجيهٌ في حضرتي. اخترتُك لنفسي، وأنت مني بمنزلة لا يعلمها الخلق. وما كان الله ليتركك حتى يمِيز الخبيثَ من الطيّب. انظُرْ إلى يوسف وإقباله، واللهُ غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون. أردتُ أن أَستخلِفَ فخلقتُ آدمَ ليقيم الشريعة ويحيي الدين. كتاب الوليِّ ذو الفقار علي، ولو كان الإيمان معلقا بالثريا لناله رجل من أبناء الفارس. يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسْه نار. جَرِيُّ اللهِ في حُلل المرسلين. قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله. وصلِّ على محمد وآل محمد سيِّدِ وُلْدِ آدم وخاتَمِ النبيين. يرحمك ربك ويعصمك من عنده وإن لم يعصمك الناس. يعصمك الله مِن عنده وإن لم يعصمك أحد من أهل الأرضين. تبّتْ يدا أبي لهب وتبّ، ما كان له أن يدخل فيها إلا خائفا. وما أصابك فمن الله، واعلم أن العاقبة للمتقين. وأَنذِرْ عشيرتك الأقربين، إنا سنُريهم آية من آياتنا في الثيِّبة ونردّها إليك، أمرٌ من لدنا إنا كنا فاعلين. إنهم كانوا يكذّبون بآياتي وكانوا بي من المستهزئين. فبشرى لك في النكاح، الحقُّ من ربك فلا تكوننّ من الممترين. إنا زوّجْناكَها، لا مبدِّلَ لكلمات الله،

وإنا رادُّوها إليك، إن ربك فعّالٌ لما يريد، فضلٌ من لدنا ليكون آية للناظرين. شاتانِ تُذبَحان، وكل من عليها فان. ونريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم ونريهم جزاء الفاسقين. إذا جاء نصر الله والفتح، وانتهى أمر الزمان إلينا، أليس هذا بالحق، بل الذين كفروا في ضلال مبين. كنتُ كنزًا مخفيًّا فأحببتُ أن أُعرَف. إن السماوات والأرض كانتا رَتْقًا ففتَقْناهما. قل إنما أنا بشرٌ يوحى إليّ أنما إلهكم إلهٌ واحدٌ، والخير كله في القرآن، لا يمسّه إلا المطهَّرون. ولقد لبثتُ فيكم عمرًا مِن قبله أفلا تعقلون. قل إن هدى الله هو الهدى، وإن معي ربي سيهدين. رب اغفر وارحم من السماء. رب إني مغلوب فانتصِرْ. إيلي إيلي لما سبقتاني. (يحق لنا أن نضع هنا سبعة آلاف ومائتين واثنين وأربعين علامة تعجب، فلقد وصل الأمر إلى الإنجيل!!، ونرجو أن يضع القارئ باقي علامات التعجب! —المؤلف—) يا عبد القادر، إني معك، أسمع وأرى. غرستُ لك بيدي رحمتي وقدرتي، وإنك اليوم لدينا مَكينٌ أمين. أنا بُدُّك اللازم، أنا محييك، نفختُ فيك من لدني روحَ الصدق. وألقيت عليك محبة مني ولتُصنَع على عيني كزرعٍ أخرجَ شَطْأَه فآزَرَه فاستغلظ فاستوى على سوقه. إنا فتحنا لك فتحا مبينا ليغفر لك الله ما تقدَّمَ من ذنبك وما تأخر، فكنْ من الشاكرين. أليس الله بكاف عبده. أليس الله عليما بالشاكرين. فقبِل الله عبدَه وبرّأه مما قالوا وكان عند الله وجيها. فلما تجلى ربه للجبل جعله دَكًّا، والله مُوهِنُ كيد الكافرين. ولنجعله آية للناس ورحمة منا ولنعطيه مجدًا من لدنا كذلك نجزي المحسنين. أنت معي وأنا معك. سرُّك سرّي. لا تحاط أسرار الأولياء، إنك على حق مبين. وجيهًا في الدنيا والآخرة ومن المقربين. لا يصدِّق السفيه إلا ضربة الإهلاك. عدوٌّ لي وعدو لك، عجلٌ جسدٌ له خُوار. قل أتى أمر الله فلا تكن من المستعجلين. يأتيك قمرُ الأنبياء وأمرُك يتأتّى، وكان حقا علينا نصر المؤمنين."اهـ

فهذا نص متوال متواصل من إلهامات الميرزا، أردنا أن نتحف به القارئ لأنه تحفة... بغداد. أما إذا أردنا الحديث عن المبالغات فحدث ولا حرج: جاء في الوحي القادياني: "وإن كنتم في ريب مما نزلنا فأتوا بآية من مثله"، فالقرآن طلب سورة، أما وحيه فيطلب آية واحدة فقط ويتحدى به!!

جاء في كتاب تذكرة الشهادتين، مجموعة الخزائن الروحانية: "إذاً فكل تلك الإعتراضات –التي يحتج بها الخصوم على فشل النبوءات– سببها هو الجهل والعمى والتعصب، وليس سببها الأمانة وطلب الحق. لقد ظهرت على يديّ أكثر من مليون آية ولا تزال تظهر، إن لم يتم فهم واحدة أو اثنتين من تلك النبوءات لمن هو غبي وجاهل وقصير النظر فهل يمكن لأحد أن يستنتج أن كل تلك النبوءات لم تتحقق؟" اهـ

جاء في كتاب حقيقة الوحي: "لقد ذكرت هنا نبوءتان أو ثلاثة نبوءات فقط، وبعكس ما يقوله الخصوم فإنني أود أن أبين كم من الآيات السماوية التي أيدني بها الله تعالى للشهادة على صدقي، لكنني أعتذر حيث إن كتابة كل تلك الشهادات السماوية لن يستطيع كتاب مكون من ألف مجلد أن يحصيها كلها" اهـ

وأنا أعتقد أن هذا الوحي العجيب المريب أكثر من كاف لرد كل دعاوى الميرزا، ولقد قلت للأستاذ مصطفي ثابت عندما سألني: هل قرأت شيئا للإمام المهدي؟ فقلت له: نعم؟ قال: ما رأيك؟ قلت: آيات قص ولزق مثل ما فعله الشيعة في سورة النورين عندما ادعوا أنها من عند الله ثم ضاعت أو حرفت، إلى آخر هذا الهراء. والعجيب أن الأستاذ مصطفي قال: نعم، ولكن الدليل على صدق نبوته هو تلك النبؤات الصحيحة التي قالها وتحققت. قلت له: لقد أخفق الميزا في بعض النبؤات. والحق يقال إني لم أكن أعلم وقتها، في كم نبؤة تحديدا أخفق الميرزا.

ولقد كفاني الأستاذ فؤاد العطار مؤنة البحث والتثبت من صدق وإخفاق الميرزا، فقام بكتابة آية بالشفرة ردا على ما كتبه الميرزا سابقا، عندما كتب آية مشفرة، ولقد أشار الأستاذ فؤاد بكل رقم إلى نبؤة فاشلة من نبؤات الميرزا، وإليكم بعضا من النبؤات التي لم تتحقق!!

نبؤات لم تتحقق

50:– إشارة إلى وعد الميرزا لزبائنه أنه سيطبع خمسين مجلداً من كتابه "براهين أحمدية" تحتوي على 300 برهان على صحة دين الإسلام دون غيره، لكنه طبع خمساً فقط بعد أن استلم النقود من زبائنه مقدما، علماً أنه لم يقدم 300 برهاناً كما وعد بل أعطى مقدمة لبرهان واحد فقط و حشى معظم المجلدات بإلهاماته و وحيه المدعى.

99:– إشارة إلى أن الميرزا كان له تسعة و تسعين إسماً.!!

1000000:– إشارة إلى ادعاء الميرزا أن الله أيد نبوته بمليون آية و شهادة سماوية.

5:– إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول بشارة إلهه له بولد خامس سيكون اسمه يحيى.

15:– إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول موت النصراني آتام خلال 15 شهراً.

5،2:– إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول موت زوج الفتاة "محمدي بيجوم" خلال سنتين ونصف.

3:– إشارة إلى وحي الميرزا الذي أمره بالزواج مرة ثالثة، لكن الميرزا لم يمتثل لأوامر وحيه المقدس!.

80:– إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول بشارة إلهه له بأنه سيحييه 80 عاماً أو أكثر. بينما مات الميرزا في حوالي ال 68 من العمر.

9:– إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول اختفاء حمى ابنه مبارك خلال 9 أيام، لكن الحمى لم تختف ومات الصبي مبارك.

1:– إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول ولادة ولد ذكر لأحد أتباعه، وكان من المفترض أن يكون اسم الولد "عالَم كباب".

100:- كما هو مذكور في كتاب الوحي القادياني "تذكرة" فإن الميرزا كان أحياناً يزور الحمام 100 مرة في اليوم.

70:- إشارة إلى نبوءة الميرزا الفاشلة حول بقاء الطاعون إلى سبعين سنة، حيث اختفي الطاعون خلال بضعة سنوات.

14:- إشارة إلى ادعاء الميرزا بأنه استقبل وحياً مباشراً حين كان عمره 14 عاماً، بينما كان الميرزا قد ادعى في كثير من كتبه أنه لم يستقبل وحياً مباشراً قبل أن يبلغ الأربعين من العمر.

200:- إشارة إلى ادعاء القاديانيين أن عددهم في العالم وصل إلى 200 مليون شخصاً، بينما لا يوجد ما يشير أن عدد القاديانيين في الكرة الأرضية قد وصل المليون.

81:- إشارة إلى ادعاء القاديانيين أن عدد الداخلين الجدد في دين القاديانية عام 2001م زاد عن 81 مليوناً، وذلك بمعدل 2.6 شخصاً في الثانية الواحدة لمدة عام كامل.

1000:- إشارة إلى اللعنات الألف التي سجلها الميرزا في أحد كتبه ضد خصومه، حيث رقمها واحدة واحدة حتى وصلت للألف وملأ بها عدة صفحات من كتابه.

50:- إشارة إلى الخمسين خزانة من الكتب التي تفاخر الميرزا بأنها كلها تصب في نصرة حكومة بريطانيا الإستعمارية و تصد المسلمين عن الجهاد ضدها.

50:- إشارة إلى ادعاء الميرزا بأنه استقبل 50 ألف إلهام ووحي بخصوص التنبؤ بالحوالات المالية التي تأتيه من أتباعه ومؤيديه.

13-: إشارة إلى اعتقاد القاديانيين الذين يعيشون في القرن الحادي والعشرين أن أول ليالي خسوف القمر في قاديان هي ليلة 13 من الشهر القمري وليس ليلة 12.

7000:– إشارة إلى اعتقاد الميرزا أن عمر الكون يوم القيامة سيكون 7000 سنة فقط.

3:– إشارة إلى وحي الميرزا الذي أنبأه بأن روح المسيح عليه السلام ستنزل على جسد أرضي ثلاث مرات، وبأن النزول الثالث لها سيكون على المسيح الثالث الذي سيظهر بعد وفاة الميرزا وقبيل قيام القيامة بقليل. لكن الميرزا ادعى بعد سنوات أنه لن يظهر أي مسيح بعده وبأن الختمية الحقيقية للرسالة قد أعطيت له.

0.1:– إشارة إلى تأكيد الميرزا أن المنافق من أتباعه هو الذي لا يشترك في برنامج الوصية للدفن في مقبرة الجنة التي استثمرها الميرزا في قاديان، حيث على المشترك أن يدفع عُشر دخله السنوي و أن يوصي بعُشر أملاكه المنقولة وغير المنقولة حتى يتمكن من أن يدفن في مقبرة الجنة."اهـ

ونشكر الأستاذ فؤاد العطار على ما قدّم بهذا الشأن, فلقد كفى وأوفى.

كما أن الأحمديين يستدلون ببعض العلامات التي وردت في السنة والتي يفترض أنها تحدث مع ظهور المهدي، ومن أقوى ما يستدلون به حادثة وقوع الخسوف والكسوف والتي ظهرت بعد إعلان الميرزا عن دعوته، ويقولون إن هذه الحادثة مما لا يمكن التلاعب بها! وإذا كان الحديث ضعيفا فإن وقوع ما فيه دليل على أنه من الرسول، بغض النظر عن الثقة فيمن حمله ونقله، فالواقع يثبته!

والرد عليهم: بالنسبة لموضوع آية الخسوف والكسوف فلا يوجد حديث واحد ضعيف أو صحيح عن رسول الله صلى الله عليه سلم حول ذلك الكسوف والخسوف، بل هو أثر رواه أحد مشاهير الوضاعين عن محمد الباقر الذي كانت ولادته بعد عقود من وفاة الرسول صلى الله عليه و سلم. ومن المعلوم أن أئمة أهل البيت لا يعلمون الغيب، لذلك فلا حجة في أقوالهم، كما أنه قد روي الأثر "إن لمهدينا آيتين.." عن الباقر بطرق أقوى بحيث يخالف فيها تواريخ الكسوف والخسوف التي ذكرها الوضاع عمرو بن شمر في روايته، فلماذا لم يقبل القاديانيون تلك الروايات يا ترى؟ كما أن الأثر الموضوع "إن

لمهدينا آيتين.." لا يذكر بتاتاً الخسوف والكسوف في 13 و28 من رمضان بل يذكر الخسوف والكسوف في 1 و15 رمضان.

والأحمديون يقولون إنه من المستحيل أن يصدر هذا الخطأ عن الرسول ويؤولون الحديث ويقولون إنه كان يقصد كذا أو كذا. فيقال لهم: أثبت العرش أولا ثم انقش. فمن قال إن الرسول قال هذا الحديث؟! إن واضع هذا الأثر كما هو واضح إنسان جاهل لا يفقه شيئا في علم الفلك، فألف هذه الرواية وراجت في وسط مجموعة من غير العالمين، أما أن تأول من أجل أن تقبل ثم يستدل بها على الآخرين فهذا ما لا يقبل بحال!

وبغض الطرف عن كل هذا فإن أول ليالي الخسوف في قاديان هي ليلة 12 من الشهر القمري وليس ليلة 13 كما يدعي الأحمديون. كما لا يمكن أن يحصل الكسوف في يوم 27 من الشهر القمري كما يدعي الأحمديون، فلكي يحدث الكسوف في اليوم 27 يجب أن تتأخر رؤية الهلال ليومين ونصف من تشكله.

أعتقد أنه بهذا الشكل نكون قد أنهينا أي إدعاء بأن ما قاله الميرزا هو من باب الوحي[302] وعرف القارئ الكريم من خلال الآيات حقيقة ما جاء به الميرزا وتناقضه وتهافته، وكيف أنه بنبوءات أو بغيرها لا يقبل كوحي من عند الله وإنما هو من باب التقليد السطحي للقرآن.

---

[302] في نهاية كتاب حمامة البشرى وجدت التالي: إعلان عندنا كتب قد ألّفناها فمن أراد أن يشتريها فليطلب منّا وهي هذه:

1- تحفة بغداد

2- التبليغ

3- آئينه كمالات إسلام (مرآة كمالات الإسلام)

4- المجلد الرابع من البراهين الأحمدية

5- كرامات الصادقين في تفسير سورة الفاتحة

6- هذا الكتاب (حمامة البشرى)

7- نور الحق (تحفة النصارى).

راقم ميرزا أحمد من قاديان. !!!!

الأحمديون والمعجزات

كما كنا قد قرأنا في النقاط التي يعترفون فيها أنهم مخالفون فيها للفهم التقليدي!، فإن من بين النقاط التي يخالفون فيها هي مسألة فهمهم للمعجزات، فهم يقولون: "نؤمن بأن للأنبياء آياتٍ وبراهينَ تدل على صدق دعواهم، وقد أُطلق على هذه الآيات مصطلح معجزات. ولا مشاحة في الاصطلاح، بيد أننا نرى أن هذه المعجزات هي ضمن سنن الله في الكون، لأنه لن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لها تحويلا. لكن لا أحد من المخلوقات يحيط بسنن الله جميعها. "وعلى الرغم من إدعاء الميرزا أن الله أيده بأكثر من مليون آية! إلا أنهم يرون كل هذا محكوم بسنن الله، أي أن المعجزة ما هي إلا قفزة معرفية ومن الممكن لمن يأتي بعد ذلك بسنين طوال أن يأتي بنفس ما أتى به الأوائل من الأنبياء!

وأهل السنة يرون المعجزة خرقا للقوانين من أجل أن يظهر الله صدق النبي. وبغض النظر هل المعجزة خرق للسنن أم أنها تجري وفقا لسنن الله، ولكن لأن لله تعالى سنن لما نكتشفها بعد، فهي تبدو لنا كأنها خرق للعادة، فليس هذا هو مربط الفرس، ولكن نقطة الخلاف الحقيقي هو كيفية فهمهم للآيات التي تتحدث عن الآيات الحسية للأنبياء. فهم يحاولون أن يفسروا هذه الآيات بجميع الطرق بحيث لا تخرج عن تصور عقلاني عادي لا أثر فيه حتى لسنن غير معلومة بل كل ما هنالك أنها سبق معرفة ليس أكثر. ونذكر للقارئ نماذج من فهمهم للآيات الحسية، وكيف يأولونها!:

يرون أن عصا موسى لم تنقلب إلى حية حقيقية[303]، ولكنها كانت من باب التخييل أيضا للسحرة! حيث يمكن القول إنه كان نوع من التنويم المغناطيسي أو ما شابه.

[303] كنت أتناقش مع المهندس فتحي عبد السلام حول مسألة إنكار الجماعة للمعجزات الحسية، وقلت له أني سمعت الأستاذ هاني طاهر في قناة الأحمدية يقول إن العصا لم تتحول وأن هذا كان من باب التخييل، فسألته: هل هذا التفسير معتمد من الجماعة الأحمدية أم أنه اجتهاد من الأستاذ هاني؟ فقال: إن هذه المسألة عسيرة ومن الصعب توضيحها في وقت قصير وتحتاج إلى إيضاح.

يرون أن الريح الذي سخر لسيدنا سليمان ليس كما نتصور نحن، من أن الريح تجري بأمره رخاءا حيث أصاب، وإنما أنه استخدم الريح في تسيير السفن الكبيرة. مع أن الله تعالى عندما تحدث عن تسخير الريح لسليمان، ذكر أن هذه المسألة كانت لسليمان عليه السلام فقط، فقال: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ۝٨١﴾ [سورة الأنبياء ,٨١]، ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٢﴾ [سورة سبإ ,١٢]، والتقديم يفيد الحصر! فلو قال "والريح لسليمان" لاحتملت أن تكون له ثم تكون لغيره، كما يرى الأحمدية أن كل الناس مسخرة لهم الريح الآن، ولكن لما قدم الله سليمان دل هذا على حصر المسألة فيه هو فقط! وليس كما يرى الأحمدية.

يرى الأحمدية أن الجن والطير اللذان سخرا لسليمان عليه السلام لم يكونا من الشياطين ومن الطيور وإنما من البشر، فالنملة والهدهد والعفريت كلهم من البشر!

يرى الأحمدية أن انفجار الماء من الحجر عندما ضربه سيدنا موسى لم يخرج من الحجر نفسه، وإنما كان الأمر معدا مسبقا! أن يعبر موسى وقومه من هذا المكان، فإذا ضرب موسى الحجر خرج الماء من عين تحته!

يرون أن سيدنا إبراهيم لم يقطع الطير ويضعها على الجبل وإنما علمها إجابة دعائه وعودها على ذلك! وهذا لا يدخل في باب التأويل لأن هذا منطوق الآية فعلا!

وبهذه الطريقة يتم تأويل الآيات الحسية لتصبح شيئا عاديا سابق لأوانه، ونذكر للقارئ نموذجا من كتبهم في مسألة الآيات هذه حتى لا يقال: مسألة عرض التفسيرات في سطر أو سطرين تؤدي حتما إلى عرض مبتسر، فإليك عزيزي القارئ تفسيرهم لآيات

فلما أصررت وسألته انفعل وقال: هل تريد أن تكفرني؟ قلت: أنا لا أريد أن أكفر أحدا، كل ما هنالك أنا أريد أن أعرف موقفكم من هذه المسألة ليس أكثر.

عيسى عليه السلام من خلق الطير من الطين وإحياء الموتى، وهذا الجواب أتاني كرد لبريد إليكتروني أرسلته إلى الأستاذ هاني طاهر أطلب إليه فيه تفسيرهم لهذه الآيات، حيث أنها –كما أرى– غير قابلة للتأويل، فأتاني تفسيرها والذي هو منقول من التفسير الكبير للخليفة الثاني بشير الدين محمود أحمد:

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدۡ جِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ أَنِّيٓ أَخۡلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٤٩﴾ [سورة آل عمران, ٤٩]

(أخلق) أشكِّل، مشتقة من خلق. يقال خلقه: 1– قاسه أو حدد مقياسه أو نسب أبعاده؛ فمثلا يقولون: خلق الأديم أي حدد الجلد بنظره ليقطعه. 2– صممه أو شكّله أو خطّطه. 3– صنعه طبقا لمقياس أو تصميم معين 4– أوجده الله أو أنشأه من غير مثيل سابق. 5– اخترع قصة أو أكذوبة وغير ذلك. 6– سواه ومهده وهيأه. (معجم لين ولسان العرب). (الطين) مشتقة من طان: أحسن الفعل أو العمل؛ أجاد تنفيذ فعله أو عمله. طانه الله على الخير: خلقه الله ذا ميل للخير أي ذا استعداد فطري للخير. طانه: علّقه أو ختمه بالطين أو الطمي. طين: طمى صلصال أو تراب، تربة، طينة: خلقه أو جبله، المادة التي يتكون منها الشيء؛ التركيب أو الاستعداد الطبيعي للشيء. يقولون ابن الطين للدلالة على آدم (معجم لين). وفي المجاز تدل لفظة طين على الأشخاص الذين يتصفون بطبيعة سهلة التعليم والأنقياد بحيث يسهل تشكيلها في أي شكل حسن كما هو الحال في الصلصال اللين. (على الرغم من قراءاتي القليلات في العربية ما قابلني هذا الاستعمال!–المؤلف–). (الطير) جمع طائر وقد يستخدم للمفرد أيضا. مشتق من طار وتعني 1– اندفع أو حلّق في الهواء نجاحه. 2– أسرع في العدو أو الهرب. 3– طار عقله: ضاع. طارت الأبل: حملت. طار لكل منهم سهمه: جاء إليه نصيبه. الطير أو طير كلاهما جمع طائر من طار. فالطير هي 1– الكائنات التي تطير كالطيور والحشرات وغيرها. 2– واحد من الطيور أو الحشرات لأن الكلمة تدل أيضا

على المفرد. 3- وتحمل اللفظة في صورة المصدر دلالات الفعل. (هيئة) كيفية مصدر هاء. يقال هاء الرجل: حسن مظهره وشكله أو صفات أخرى يعبر عنها بالهيئة. هاء إليه: رغبه واشتاق لرؤيته أو لقائه. هيأه: كساه وألبسه؛ أعده ورتبه في حالة طيبة. تهيأ للأمر: استعد له. هيئة: شكل، مظهر؛ صورة؛ رداء أو كسوة؛ حالة؛ كيفية، صفة (أقرب لين). (...) (تأكلون) ما سوف تطعمونه. من أكل: طعم، التهم، غزا، استهلك، أبلى. اخضع ويروى عن الرسول(ص) أنه قال: أمرت بقرية تأكل القرى. يعني أنه أمر بالهجرة إلى بلدة (هي المدينة) سوف تخضع وتهزم غيرها من البلدان. (لين) تبدأ هذه الآية في سرد رسالة عيسى عليه السلام كنبي من أنبياء الله، فبقوله (ورسولا إلى بني إسرائيل) تكشف الآية عن أن بعثة عيسى محصورة في بني إسرائيل. فهو لم يكن رسولا عالميا. (...) ولم يرد في الكتاب المقدس ذكر لمعجزة خلق الطير هذه التي اشتهر بين الناس أنه قام بها. ولو كان عيسى حقا قد خلق طيرا فليس هناك ما يبرر حذفها من الكتاب المقدس[304]، (...) إن من بين معاني اللفظة (خلق) القياس، والتحديد، والتصميم، والتشكيل، والصنع، والإيجاد. كما جاء في معاني المفردات. وقد استعملت الكلمة في الآية بالمعنى الأول لها. فإن فعل الخلق بمعى الإيجاد لم ينسب في القرآن إلى أي كائن آخر سوى الله عز وجل. (ومن قال إن عيسى أوجد شيئا، عيسى عليه السلام شكل طين فنفخ فيه فطار، أين الإيجاد؟! –المؤلف-) والواقع أن القرآن قد أكد بشدة على أن صفة الخلق إنما هي صفة تفرد بها الله سبحانه وتعالى، وأعلن مرارا وتكرارا بأنه عز وجل هو الخالق لكل شيء. وكل من نسب إليه الخلق لس إلا مخلوقا لله، محروما من القدرة على خلق أي شيء. فمثلا: (قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار(الرعد17)، (...) أما تلك الفكرة السخيفة التي يفهم بمقتضاها أن صفة الخلق التي تفرد بها الله وحده يمكن ان يفوضها سبحانه إلى غيره مؤقتا فإن القرآن المجيد يرفضها بالمرة. فيقول:(والله خلقكم ثم يتوفاكم...، والله فضل بعضكم على بعض في الرزق. فما الذين فضلوا برادي رزقهم

(304) من قال إن الكتاب المقدس لم يذكر هذه الآية، جاءت هذه الآية بشكل مختلف نوعا ما عما في القرآن في إنجيل توما، وهو أحد الأناجيل التي رفضته الكنيسة، لأنه لم يبق على الطاولة!!

على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء. أفبنعمة الله يجحدون،النمل 72)، (...) وعلى هدى من سبق من بيان، وإذا تنبهنا إلى المعنى المجازي لكلمة (الطين) فإن قوله (وأخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيصير طيرا بإذن الله) يعني: أنه إذا اتصل شخص عادي وضيع النشأة، ولكنه يمتلك القدرة الفطرية على النمو والارتقاء بالمسيح عيسى وقبل رسالته فإن حياته تتحول تحولا كاملا. من رجل يتمرغ في الوحل ولا يرى ما وراء اهتماماته الدنيوية وحاجاته المادية، يتشكل طيرا محلقا في أجواء السماوات الروحانية. وهذا هو عين ما حدث. (!!) إن جماعة الصيادين في منطقة الجليل الذين كانوا موطئ الاحتقار لوضاعتهم، استحالوا إلى طيور محلقة بفضل الدّفعات الكريمة في تعاليم سيدهم، وأصبحوا هم أنفسهم معلمين ربانيين يرشدون بني إسرائيل، ويتحملون كل أنواع العذاب والأذى، ويقدمون التضحيات التي يزدان بها تاريخ آية أمة. (...) ويمكن أيضا فهم معجزة خلق الطير بشكل آخر. لقد كان القوم في عهد عيسى مغرمون بممارسة العلوم الغامضة الخفية كالتنويم وما أشبه. ومن المحتمل أن الله تعالى قد أعطاه مثل هذه القدرة ليؤثر على الناس بما يجعلهم يصدقون ويؤمنون برسالته. وفي هذه الحالة تكون الآية أن عيسى صنع نماذج صغيرة من الطين على هيئة الطير، ثم أثر على الموجودين بالخاصة التنويمية بحيث بدت لهم النماذج طيورا تحلق في الجو. ولكنها لم تتحول إلى طير حقيقي، فما أن يضيع الأثر التنويمي حتى تصبح كتلا من الطين كَرّة أخرى. وهذه المعجزة العيسوية تشبه معجزة العصا الموسوية حيث بدت عصا موسى للحاضرين كأنها ثعبان حقيقي ولكنها لم تكن كذلك في حقيقة الأمر. ومهما كانت دلالة الآية فإن عيسى قد قام بها (بإذن الله) ولا يملك عيسى مقدرة على الخلق (...) وبالنسبة إلى إبراء الأكمة والأبرص، فإنه يبدو من الكتاب المقدس أن المرضى ببعض الأمراض كالبرص وغيره كانوا لا يسمح لهم بمخالطة غيرهم. فإذا أخذت كلمة(أبرئ) بمعنى أعلن خلاصه وأطلق صارحه، فإن دلالة العبارة إذن أن عيسى أزال ما يعانيه هؤلاء المرضى من تصور قانوني وإجحاف اجتماعي. وإذا أخذت اللفظة بمعنى أشفي فيكون دلالة الآية أن عيسى كان يشفي هؤلاء المرضى. وكما أشير من قبل بأن عيسى كان يتكلم بالمجاز والأمثال، فكما أن الخلق كان خلقا روحانيا، فإن المرض الذي كان

يشفي منه مرض روحاني كذلك. إن رسل الله أطباء روحانيون. انهم يمنحون البصر لمن فقدوا بصيرتهم والسمع لمن صمّت أرواحهم، ويبعثون إلى الحياة من ماتت قلوبهم وضمائرهم. يقول إنجيل متى 15:13 (ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع)، فالأكمه هو الأعمى أو الذي لا يرى في الليل، وهذه ترمز إلى الشخص الذي يمتلك نور الإيمان ولكنه ضعيف لا يستطيع الصمود أمام الإبتلاء؛ إنه يرى في النهار ما دامت شمس الإيمان مضيئة ولا يحجبها غمام التجارب؛ أما عندما يظلم الليل وتنسدل عليه ستائر الإمتحان ويحتاج الأمر إلى التضحية والفداء، فإنه يفقد الرؤية الروحانية ويقف في مكانه لا يتحرك (قارن هذا بآية 21 سورة البقرة). وبالمثل فإن كلمة (الأبرص) تعني روحيا الشخص الناقص الإيمان، يشوب جلده السليم بقع من الجلد المريض. وحتى إذا أخذنا الكلمة بمعناها المادي فإن هذا لا يضفي على عيسى عليه السلام مقدرة شاذة؛ فإن جميع الأنبياء لهم المقدرة على شفاء مختلف الأمراض والآلام بواسطة الدعاء. ويكون الأكمة في هذا المفهوم هو المريض بعدم الرؤية ليلا أو المصاب بضعف في النظر. ولا يعني قوله (وأحيي الموتى) أن عيسى قد قام فعلا بإعادة الحياة إلى من توفى. إن الذين يموتون موتا حقيقيا لا يمكن مطلقا أن يعودوا إلى الحياة في هذه الدنيا. إن مثل هذا الاعتقاد يتعارض تعارضا تاما وتعاليم القرآن. (...) (يذكر الأدلة على ذلك من القرآن –المؤلف–) إن الذين سُموا موتى وأقامهم عيسى لم يكونوا حقيقة أمواتا، ويتجلى هذا أيضا في الإناجيل. (...) والواقع أن رسل الله ما بعثوا إلا لإحياء الموتى الروحانيون –موتى القلوب والضمائر والأخلاق– إن إبراهيم وموسى وعيسى، وغيرهم، وفوق الجميع محمد نبي الإسلام أحدثوا تحولا كاملا في حياة أتباعهم. وهذا الفعل في لغة الدين هو إحياء الموتى. أما بالمفهوم الحرفي للعبارة فإن كلمة (الموتى) لا تعني بالضرورة من مات فعلا موتا طبيعيا. فإنها تعني أيضا الذين ماتوا روحانيا أو أخلاقيا أو حضاريا أو أدبيا. والقرآن يعبر صراحة عن منح الحياة إلى موتى الروح بإحياء الموتى (أفمن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها. كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون، الأنعام 123)، (...) ولقد سردت الآية الكريمة معجزات عيسى عليه السلام بترتيبها الطبيعي.

فأول الأمر ذكرت للتغيير في مظهر وطريقة الحياة لدى الذين اتصلوا به ولزموه. لقد تحولوا من أهل دنيا إلى رجال الرب؛ لقد ارتفعوا وسموا من التراب إلى أجواز الفضاء. ثم ذكرت الآية بعض العلل والأمراض الروحانية الشائعة التي شفاهم منها عيسى المسيح. لقد حصل العميان على البصيرة الروحية، وشفي ذو الآفات الجلدية من دائهم. وأخيرا أعلنت الآية أن الموتى اكتسبوا حياة روحية جديدة على يد عيسى عليه السلام. وهذا الذي سردته الآية ليس ترتيبا طبيعيا فحسب، وإنما هو نوع من التدرج في الترقي؛ بلغ ذروته بالنسبة لإصلاح الفرص عندما تمت معجزة بعث الموتى إلى حياة روحية جديدة. ولكن إذا أخذت الآية بمدلولها الحرفي فلن يبدو منها أي ترتيب في حدوث تلك المعجزات. فأين الترتيب في أحداث كخلق الطير من الطين، وشفاء الأعمى والأبرص وإحياء الموتى؟ والذروة الحقيقة في آيات عيسى أو معجزاته تأتي في قوله (وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم). يقول أبو البقاء أن لفظتي (نبأ وأنبأ) استعملتا في القرآن الكريم لإعلان الأمور المتصفة بالأهمية البالغة (كلمات). ويتضح من هذا أن عيسى قد أعلن لأتباعه أمورا ذات أهمية عظمى. والعبارة المستعملة من أسلوب التشبيه. فكلمة (تأكلون) أي تخضعون وتغزون. فالعبارة (وانبئكم بما تأكلون) تعني أخبركم بما سوف تخضعون وتغزون. أي أخبركم بالفتوحات المقدر لكم أن تقوموا بها في المستقبل. (ما هي هذه الفتوحات العظيمة التي قام بها النصارى؟! على حد علمي هم ظلوا مستضعفين في الأرض –المؤلف–) وقوله (وما تدخرون في بيوتكم) تعني وسوف أطلعكم على الأعمال التي يجدر بكم أن تخلفوها لذريتكم من بعدكم. والعبارة بأكملها لها دلالة أخرى. فيمكن أن يكون عيسى قد أخبر تلامذته بما يجب عليهم تناوله من طعام؛ أي ما يلزمهم انفاقه لحاجاتهم الجسدية. وما يجب عليهم ادخاره؛ أي ما يجب ادخاره لأنفسهم من كنوز سماوية. وبعبارة أخرى، أخبرهم عيسى عليه السلام أن عليهم الأكتساب من طريق شرعي شريف، وأن عليهم انفاق مدخراتهم في سبيل الله وألا يكنزوا للغد وإنما يتركون ذلك مفوضا لله تعالى."اهـ

وكما رأيت عزيزي القارئ فهموا يحاولون أن يفهموا الآيات بشكل عقلاني بعيد عن الإعجاز بجميع صوره، فإذا نحن رأينا فهمهم لآيات الميرزا، فيفهمونها كأنها معجزة، بغض النظر عن سننها الخاصة، ولكنهم يفهمون أنه أتى بكثير من الآيات الحسية! وهنا تظهر إشكالية كبرى بالنسبة لهم.

إذا كان هؤلاء الأنبياء في تلك العصور البدائية لم يأتوا بأي آية حسية وكل ما فعلوه كان عقلانيا تماما، ألا يعد إتيان الميرزا بآيات حسية انتكاسة عقلية للبشرية، فبعد أن آمن أقوام الأنبياء السابقين –بزعمكم– بدون آيات حسية، ثم جاء الرسول بالقرآن فآمن من آمن وكفر من كفر، تحصل ردة كبرة في عقل البشرية عن طريق إرسال شخص بوحي متناقض لا دليل فيه على أنه من عند الله، ولكي يقبل هذا الوحي يؤيد هذا الشخص بآيات حسية(305) كثيرة تتجاوز المليون –كما ادعى–، ولست أدرى متى وأين قام الميرزا بإجراء هذه الآيات، اللهم إلا إذا كانت كل خطوة يخطوها آية، فتخرج لذلك الأرض الزرع والثمر، وينظر إلى السماء فتمطر! نعوذ بالله من داء العقول! ولكن لا بد من الاعتراف أن الأحمدية يحاولون أن يقدموا تصورا عقلانيا للإسلام يناسب الغرب، ولكن لا يعني هذا أن نؤول الآيات من أجل الآخرين، وإذا كان الأحمدية يبحثون عن العقلانية فعليهم أن يبدأوا بأنفسهم فيطهروها من خرافات الدجال والمهدي الأسطوري ومن المعجزات المزعومة له، قبل أن يوجهوا عقلانيتهم إلى الآخرين!

---

(305) من المعجزات التي ينسبونها إلى الميرزا أنه تعلم اللغة العربية بين عشية وضحاها، وأن الله هو الذي علمها إياه! وأرجو أن يرجع القارئ إلى عنصر تواريخ هامة في الجماعة الأحمدية! ويشيد الأحمديون ببلاغة وفصاحة الميرزا وأنه لم يسبق لهذه البلاغة، على الرغم من أنه يقع في كثير من الأخطاء اللغوية، وليست المسألة مسألة خطأ نساخ كما يدعي الأحمديون، فهناك بعض الأخطاء تتكرر في أكثر من كتاب، فهل يخطأ النساخ في نفس الكلمات في كل الكتب؟! وإذا كنا سنتناول الجانب اللغوي للوحي الأحمدي فلا بد من الإشادة بأن الميرزا هو النبي الوحيد الذي أوحي إليه بثلاث لغات! **Multilinguale Offenbarung** عربية وإنجليزية وأردية، على الرغم من أن الكتب السابقة من توراة وإنجيل وقرآن أتت كلها بالعربية –أتى القرآن بلسان عربي مبين، أما التوراة والإنجيل فكانوا بلسان عربي قدم مغير نوعا ما للسان الحالي، وهذا مقبول مألوف لأن كل اللغات تتطور–!!! فما الحاجة إلى هذه الألسنة المغايرة؟!

هل الأحمديون كفار؟

بعد أن عرضنا مستند القوم في قبول نبي تابع بعد النبي(ص)، لا يصعب على القارئ أن يستنتج أن الميرزا استند إلى حديث "لا مهدي إلا عيسى بن مريم" ليحمل هو اللقبين في آن واحد. ولأنه ليس عيسى بن مريم فقد أثبت من القرآن أن عيسى بن مريم مات، وهذا صحيح، ولكن من أعطاه الحق والإمكانية أن يصير هو عيسى بن مريم؟ التأويلات الصوفية الباطنية مرتع لكل راتع، فبها يستطيع الإنسان أن يصير ما شاء كيفما شاء متى شاء، فهناك تأويل، والتأويل مدخل كل بلاء في الدين! ومنه دخل المرجفون في كل زمان، ولن نعرض للقارئ كيف أقنع الميرزا أتباعه أنه هو المهدي والمسيح في آن واحد ثم كيف صار نبيا تابعا! ولكننا نتوقف عند نقطة هامة في حديثنا عن الجماعة: هل الأحمديون كفار خارجون من الملة كما يرى كثير من الفقهاء والمشائخ؟ قبل الرد على هذا السؤال لا بد من أن نفرق بين الميرزا غلام أحمد وبين أتباعه، فالميرزا حسابه عند ربه، والله أعلم ماذا سيذيقه! ولكن ما حكم الأتباع الذين نشأوا وشبوا على هذه الملة، وما حكم من دخلوا في الدين الإسلامي من الديانات الأخرى، فوجدوا تصورا عقلانيا للإسلام إلى حد كبير مرتبط بهذه الجماعة، هل نعدهم كفار؟

بداهة المسألة ليست مسألة عدد وكثرة، فلو أخل مئات الملايين بركن من أركان الإيمان لعددناهم كفارا بدون تردد –ولكن لن نقتلهم أو نقيم عليهم أي حد!–، فهل أخل الأحمديون بركن من أركان الإيمان؟ يمكننا القول إن الأحمديين لم يخلوا بأي ركن من أركان الإيمان الخمسة وهي وحدانية الله وكماله وتفرده والإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر، نعم هم يخالفون في مسألة جوهرية وهي مسألة وجود نبي تابع بعد النبي(ص)، ولكنهم يقولون إنه لم يغير حكما واحدا[306]! ويرون أنهم يصيرون كفارا لو

[306] زاد الميرزا غلام أحمد بعض الأحكام مثل ندائه الله عزوجل ب "يلاش"، وهو والأحمديون يرون أن هذا داخل تحت باب : "اللهم إني أسألك بكل اسم هو لك...، أو علمته أحد من خلقك" فيرون أن هذا مما علمه الله للميرزا. ويجتهدون في إدخال ما زاده الميرزا تحت أي أصل في القرآن أو السنة.

غيروا حكما واحدا من أحكام الإسلام. أما مسألة الاختلاف في فهم أو تأويل النصوص فهو وراد في كل الفرق الإسلامية ولا يمكن أن نكفر أحدا من أجل فهم أعوج وإلا كفر كل علماء المسلمين أنفسهم، فهذا سيكفر ذاك وسيرى ذاك أن فهم الآخر حتما أعوج!. أما إذا أصر السادة العلماء على أن وجود نبي بعد النبي(ص) كفر مخرج من الملة فسيعني هذا أن أهل السنة كلهم كفار! وهذا ما سنوضحه لاحقا! لذا لا يمكن القول إنهم كفار، لأن الكفر لا يكون كفرا إلا بإنكار واحد من الخمسة أركان الإيمانية الرئيسة أو إدعاء إلغاء حكم من أحكام الإسلام[307]، أما ما بخلاف ذلك من الاجتهادات في فهم النصوص فلا يمكن القول فيها بتكفير أحد. لذا يمكن قبول الأحمديين في جماعة المسلمين بغض النظر عن اختلافنا معهم في بعض الأحكام.

وحتى لا نغمض الناس حقهم فلا بد من الإقرار بأن للأحمديين نشاط بارز في التحرك من أجل دين الله عزوجل، فلقد ترجموا القرآن إلى العديد من اللغات ترجمات رائعة لا تأويل فيها ولا زيغ ويمكنني أن أحكم على ذلك بحكم تخصصي، كما قاموا ببناء العديد من المساجد في الدول الأوربية –ربما كان الأمر أسهل بالنسبة لهم، فهم بالنسبة للأوروبيين فرقة مخالفة للمسلمين مضطهدة، فيُسمح لهم ببناء المساجد، أما المسلمون العاديون فتغلق في أبوابهم الأبواب–، كما أنهم قاموا بالتصدي لحركات التبشير في أفريقيا.

وبعد أن أنهينا الحديث عن الأحمدية ننتقل للحديث عن خرافة الدجال والمهدي اللامنتظر التي أسس عليها الميرزا دعواه ونوضح للقارئ أنها لا تزيد عن كونها حديث خرافة يا!

(307) يرى بعض الباحثين أن الميرزا ألغى فريضة الجهاد،استنادا إلى نصوص موجودة في كتبه! ويرى الأحمديون أن الميرزا قال فقط أن الجهاد جهاد دفاعي وليس هجومي، فلا يحق للمسلمين أن يبدأوا غيرهم بالقتال لمجرد مخالفتهم لنا في العقيدة، بلا لا بد من أن يبدأوا بالاعتداء أو تبدو منهم إمارات الهجوم! أما بخلاف ذلك فلا يجوز. ويرون أن النصوص التي يستند إليها القائلون أن الميرزا ألغى الجهاد منزوعة السياق. والقول إن الجهاد في الإسلام جهاد دفاعي هو قول سبع من المدارس الفقهية الثمانية ولم يخالف في ذلك إلا المدرسة الشافعية، حيث قالت أنه يجوز للمسلمين بدأ الآخرين بالقتال لمجرد أنهم مخالفون في الدين! ولست أدري حقا كيف قالوا بهذا الحكم؟!!

مثلث الخرافة: الدجال، نزول عيسى بن مريم، المهدي!

من العقائد المترسخة عند عامة المسلمين وعلمائهم عقيدة المهدي المنتظر أو مخلص آخر الزمان الذي يأتي فيقاتل الأعداء ويهزمهم، ويصلح في أيام معدودات ما أفسده الدهر في قرون طوال. وتصور أهل السنة للمهدي المنتظر ليس هو تصور الشيعة فكلاهما مغاير للآخر تماما، إلا أنهم يشتركون من حيث المبدأ في قبول الفكرة، على الرغم من أن كل فريق ينكر كل الأحاديث الواردة في هذا الباب ويعدها من الموضوعات التي لا جدال في وضعها! ويرتبط تصور المهدي بظهور دجال يفسد في الأرض فسادا كبيرا ويسلطه الله على خلقه ليختبرهم، فيعطيه من الآيات الحسية ما لم يعط نبي من قبل، حتى يختبر الناس. وعندما تبلغ الحلقة أقصى الضيق ينزل المخلص من السماء – مع ملاحظة أن هناك مهدي على الأرض حارب الأعداء وهزمهم– تبعا لتصور أهل السنة وهو عيسى بن مريم فيقتل الدجال[308] لأن الدجال كائن استثنائي يحتاج قتله إلى بطل استثنائي وليس أي شخص عادي ولو كان حتى مهديا، ثم تعيش الأرض في مدينة فاضلة لم يحلم بها أشد الفلاسفة إغراقا في التفاؤل. وبعد سنوات معدودات مختلف في عددها تقوم الساعة!

وقبل أن نخوض في هذا الموضوع الشائك نوضح لم نتكلم فيه من المبدأ رغماً عن كونه ليس من أسس الدين؟ فنقول: لأسباب عدة، منها: إخراج الخرافة من دين الله عزوجل وإثبات أن ما لا أصل له في كتاب الله من العقائد هو زخرف باطل، كذلك إلغاء سبب من أهم أسباب التكاسل والتقاعس عند المسلمين، فهم مسلمون بأن المهدي والمسيح سيأتيان في آخر الزمان ليصلحا الأمة، فالأمر مقدر ومكتوب فلم الحركة، فلن نفعل شيئا! أما إذا اقتنع المسلم أنه لا مهدي إلا النبي(ص) ومن هداه الله فسيصير كل

---

[308] أغفلنا ذكر الضلع الرابع وهو يأجوج ومأجوج، فالمثلث وإن كان يفترض أن يكون مربعا، إلا أن يأجوج ومأجوج ليسوا خرافة، وإنما أدخلت الخرافة في تصور خروجهم آخر الزمان! أما المهدي والدجال ونزول عيسى فخرافات لا أصل لها في كتاب الله عزوجل!

واحد منا مهديا يخرج أمته من ظلمات التخلف إلى نور الهداية والتقدم. وتبعا لترتيب أعضاء المثلث سيكون الحديث عنهم، فسنبدأ الحديث عن الدجال ثم نزول عيسى بن مريم ثم المهدي، ونبدأ بالدجال.

أول أضلاع المثلث: الدجال

قبل الخوض في مسألة الدجال لا بد من العروج أولا على الجانب اللغوي، لنعرف هل الدجال استعمل في اللغة العربية بالمعنى الوارد في الروايات، أم أنه معنى دخيل؟ ورد في المقاييس لابن فارس: "الدال والجيم واللام أصلٌ واحد منقاسٌ، يدلُّ على التغطية والسَّتْر. قال أهلُ اللغة: الدَّجْل: تمويهُ الشَّيء، وسُمّي الكذّابُ دجّالاً. وسمِعت عليَّ بن إبراهيمَ القَطَّان يقول: سمِعت ثعلباً يقول: الدَّجّال المموِّه. يقال سيفٌ مُدَجّل، إذا كان قد طُلِيَ بذهبٍ. قال: فقِيل له: فيجوز أن يكون الذّهب يسمَّى دَجَّالاً؟ فقال: لا أعرِفُه. ومن الباب الدّجّالة: الجماعة العظيمة[309] تحمل المتاع للتجارة. ويقال دَجَّلْتُ البعير، إذا طَلَيته بالقَطِران؛ والبعير مدجَّلٌ."اهـ

إذا يظهر لنا أن الدجل في اللغة مبني على الكذب والخداع والتمويه، ويعلق الأستاذ أمين نايف ذياب حول هذه الكلمة فيقول: "معنى كلمة الدجل عند العرب هو شدة طلي الجمال الجُرْب بالقطران، وانتقل المعنى إلى الكذب الذي يتعمد طمس الحقيقة الظاهرة البينة، فالدجل ليس تمويها ولا خداعاً ولا تلبيساً وليس تدليساً، فالدجال هو المدعي خلاف ظاهره وخلاف ما هو واضح من حالته، مثل إدعاء النبوة مع عدم وجود المعجزة، ومثل ادعاء الألوهية مع أنه جسم يعتريه النقص وفي العلم الجهالات، أو أنه

[309] أخذ الأحمديون هذا الجزء من المعنى واستندوا إليه في تفسيرهم الدجال بأنه الأمة النصرانية المضللة التي تضل الناس وتدعوهم إلى عبادة عيسى! وأن الدجال ليس فردا واحدا وأن الأحاديث الواردة في هذا الشأن هي من باب الترميز التي يحتاج إلى تأويل.

قادر مع ظهور عجزه وضعفه، فالدجال معلوم دجله حتى لضعفاء العقول ولأبسط الناس، بل أيضاً للأطفال الصغار فالدجال دجال ولا يحتاج لبرهان."اهـ

أما إذا نظرنا إلى التصور الأسطوري الوارد في روايات أهل السنة –الشيعة دجالهم بسيط مختلف عن دجالنا الجبار!– فنجد أنه لا يمكن أن يكون دجالا وإنما هو فتان جبار، أما دجال ضعيف فلا ينطبق عليه الوصف بأي حال. ونظرا لأن كلمة الدجل أو أيا من مشتقاتها لم ترد في القرآن، –وهو مما يعني انهيار العقيدة من مبدأها لأنها عقيدة دخيلة على الإسلام[310]–، فإننا سنناقش الأحاديث الواردة فيها من باب إظهار تعارضها وتناقضها البينين والذين لا يمكن رأبهما، لأن أي صنعة بشرية لا بد أن يظهر فيها الاختلاف، وصدق الله: ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا وبالفعل وجدنا اختلافا كثيرا يدل على أنه من عند غير الله. والآن إلى التعريف بالدجال، فما هي صفته؟

تناقضات صفة الدجال

الدجال رجل عادي وفتى صغير وكائن خرافي، وهو ابن صياد وليس ابن صياد ولا تعارض. وهو في المدينة المنورة وفي البحر وسيخرج من خراسان! ومن الممكن أن يخرج في زمن الرسول أو في آخر الزمان بعد فتح القسطنطينية عندما يكون هناك واحد من نسل الرسول يشبه اسمه اسم الرسول، وينزل المسيح بن مريم! والرسول يعرفه ولا يعرفه، وهو أعور العين اليمني واليسرى في آن واحد ومكتوب بينهما كفر يقرأه كل قارئ وغير قارئ ولا تعارض! وما يميزه عن الله عزوجل أن ربنا ليس بأعور، يعني لو كان الدجال ذا عينين خضرواتين كحيلهما، هل كنا سنُعذر إذا قبلناه كإله؟!!

[310] مصدر هذه العقيدة هو الفكر المسيحي المزيف فلم ترد إلا فيه فقط –وليس كما تقول الروايات أنه ما من نبي إلا وحذر قومه الدجال–، الذي أراد أن يصد الناس عن النبي المصطفي فاخترع فكرة الدجال هذه، أو عدو المسيح.

إن التصور الأسطوري المتناقض الموجود في الروايات يدل على وجود فكرة معينة وتصور أساسي، وقام عدد غفير بالتأليف حول هذه الفكرة فظهر التناقض الذي سنراه:

الدجال أعور العين اليمنى واليسرى!: من المعلوم بداهة أن الأعور لا يكون إلا من فقد إحدى عينيه، ولكن الروايات هنا قالت أنه أعور العينين الاثنين، فجاء في البخاري: "وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال: "إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، أَلا إِنَّ الْمَسِيحَ الدَّجَّالَ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ.."، أما عند مسلم: عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ –كَثِيرُهُ– مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ". وبداهة هذا تناقض لا يمكن توفيقه، فهو إما أعور اليمنى أو اليسرى، فإحدى الروايتين لا محالة باطلة، أو كلاهما. ولكن انتبه: أنت تتكلم عن البخاري ومسلم، وكل ما فيهما صحيح لا محالة كما قال أهل الحديث! فلا بد من التوفيق ولا بد أن تقبل توفيقنا، أما إذا تمسكت بمنطوق النص فأنت فاسق ضال مضل! ما هو توفيق أهل الحديث؟ يقولون: الملاحظ في الروايات السابقة أن في بعضها وصف عينه اليمنى بالعور وفي بعضها وصف عينه اليسرى بالعور، وكل الروايات صحيحة، وقد جمع بعض أهل العلم بين هذه الروايات، فقال القاضي عياض: "أن عيني الدجال كلتيهما معيبة، لأن الروايات كلها صحيحة، وتكون العين اليمنى هي العين المطموسة والممسوحة، العوراء الطافئة –بالهمز– التي ذهب نورها كما في حديث ابن عمر. وتكون العين اليسرى: التي عليها ظفرة غليظة وطافية –بلا همز– معيبة أيضاً". فهو أعور العين اليمنى واليسرى معاً، فكل واحدة منها عوراء أي معيبة، فإن الأعور من كل شيء المعيب، لا سيما ما يختص بالعين، فكلتا عيني الدجال معيبة عوراء، إحداهما بذهابهما والأخرى بعيبها. ووافق القاضي عياض على هذا الجمع النووي، ورجحه القرطبي". فإذا نحن قلنا أن هذا اجتهاد من العلماء من أجل التوفيق بين الأحاديث المتعارضة ومنطوق الأحاديث يخالفكم، ولا دليل على ما تقولون به،

سيرموننا بالفسق والضلال وأننا نريد أن نضلل الأمة عن العقيدة الصحيحة التي تنير القلوب والعقل وتعلي الإسلام على غيره من الأديان بالمنطق الخرافاتي!!

المسيح الدجال قصير وجسيم وأعظم إنسان خلقا!

وهذا بداهة مما لا تناقض فيه ولا تعارض إلا عند ضيقي الأفق، فما الذي يمنع اجتماع هذه الصفات في إنسان واحد؟!!: "روى الإمام أبوداود عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنِّي قَدْ حَدَّثْتُكُمْ عَنْ الدَّجَّالِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ لا تَعْقِلُوا، إِنَّ مَسِيحَ الدَّجَّالِ رَجُلٌ قَصِيرٌ أَفْحَجُ جَعْدٌ أَعْوَرُ مَطْمُوسُ الْعَيْنِ لَيْسَ بِنَاتِئَةٍ وَلا حَجْرَاءَ فَإِنْ أُلْبِسَ عَلَيْكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ" (ونعم الحرز والتمييز!)، ولا مانع من أن يكون جسيما كما عند البخاري: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي أَطُوفُ بِالْكَعْبَةِ فَإِذَا رَجُلٌ آدَمُ سَبْطُ الشَّعَرِ بَيْنَ رَجُلَيْنِ يَنْطُفُ رَأْسُهُ مَاءً فَقُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا ابْنُ مَرْيَمَ. فَذَهَبْتُ أَلْتَفِتُ فَإِذَا رَجُلٌ أَحْمَرُ جَسِيمٌ جَعْدُ الرَّأْسِ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ قُلْتُ مَنْ هَذَا قَالُوا هَذَا الدَّجَّالُ، أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهًا ابْنُ قَطَنٍ". ولا يوجد مانع من أن يكون أكبر من ذلك بكثير كما عند مسلم: "أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً". وهذا كله بداهة مما لا تعارض فيه.

وهو ابن صياد وقد لا يكنه، فالرسول غير متأكد من هذه المسألة، وخاصة أن ابن صياد كان يأتي بأشياء غريبة مريبة ولديه قدرات فائقة، فهو يعلم الغيب إلى حد ما: كما روى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أنه قال: إن امرأة من اليهود بالمدينة ولدت غلاماً ممسوحة عينه طالعة ناتئة فأشفق رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون الدجال، فوجده تحت قطيفة يهمهم فآذنته أمه فقالت: يا عبد الله هذا أبو القاسم قد جاء فاخرج إليه. فخرج من القطيفة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما لها قاتلها الله؟ لو تركته لبين". ثم قال: "يا ابن صياد ما ترى؟". قال: أرى حقاً وأرى باطلاً وأرى عرشاً على الماء فلبس عليه فقال: "أتشهد أني رسول الله؟". فقال هو: أتشهد أني رسول الله؟ فقال

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آمنت بالله ورسله". ثم خرج وتركه. ثم أتاه مرة أخرى فوجده في نخل له يهمهم فآذنته أمه فقالت: يا عبد الله هذا أبو القاسم قد جاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما لها قاتلها الله؟ لو تركته لبين". فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع من كلامه شيئاً فيعلم أهو هو أم لا قال: "يا ابن صياد ما ترى؟". قال هو: أتشهد أني رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آمنت بالله ورسله". فلبس عليه فخرج وتركه. ثم جاء في الثالثة أو الرابعة ومعه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما في نفر من المهاجرين والأنصار وأنا معه قال: فبادر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أيدينا ورجا أن يسمع من كلامه شيئاً فسبقته أمه فقالت: يا عبد الله هذا أبو القاسم قد جاء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما لها قاتلها الله؟ لو تركته لبين". فقال: "يا ابن صياد ما ترى؟". فقال: أرى حقاً وأرى باطلاً وأرى عرشاً على الماء قال: "أتشهد أني رسول الله؟". قال هو: أتشهد أنت أني رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "آمنت بالله ورسله". فلبس عليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا ابن صياد إني قد خبأت لك خبيئاً فقال: هو الدخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اخسأ". فقال عمر بن الخطاب: ائذن لي يا رسول الله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن يكن هو فلست صاحبه إنما صاحبه عيسى بن مريم، وإلا يكن هو فليس لك أن تقتل رجلاً من أهل العهد". قال: فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم مستيقناً أنه الدجال.". فالرسول مستيقن أنه الدجال، ولكن سنجد عند مسلم أنه متيقن أنه ليس الدجال، وأنه حدث المسلمين بذلك. ومن الأشياء الغريبة التي كان يأتي بها ابن صياد أنه كان ينتفخ حتى يملأ الطريق!

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم: عن نافع قال: لقي ابنُ عمر ابنَ صائد في بعض طرق المدينة، فقال له قولاً أغضبه، فانتفخ حتى ملأ السِّكَّة، فدخل ابن عمر على حفصة وقد بَلَغَها، فقالت له: رحمك الله ما أردتَ من ابن صائد؟ أما علمت أن رسول الله(ص) قال: إنما يخرج من غضبة يغضبها". ويبدو على الرغم من أن الرسول أكد للمسلمين أن الدجال ليس ابن صياد كما سنرى من الحديث القادم، إلا أن المسلمين لا يزالون في

شك مريب من ابن صياد هذا، فنجد في الحديث الذي رواه أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: "قَالَ لِي ابْنُ صَائِدٍ وَأَخَذَتْنِي مِنْهُ ذَمَامَةٌ هَذَا عَذَرْتُ النَّاسَ مَا لِي وَلَكُمْ يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ أَلَمْ يَقُلْ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ يَهُودِيٌّ وَقَدْ أَسْلَمْتُ قَالَ وَلَا يُولَدُ لَهُ وَقَدْ وُلِدَ لِي وَقال إن اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَقَدْ حَجَجْتُ قَالَ فَمَا زَالَ حَتَّى كَادَ أَنْ يَأْخُذَ فِيَّ قَوْلُهُ قَالَ فَقَالَ لَهُ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ الْآنَ حَيْثُ هُوَ وَأَعْرِفُ أَبَاهُ وَأُمَّهُ قَالَ وَقِيلَ لَهُ أَيَسُرُّكَ أَنَّكَ ذَاكَ الرَّجُلُ قَالَ فَقَالَ لَوْ عُرِضَ عَلَيَّ مَا كَرِهْتُ"، فلا يزال المسلمون في شك من ابن صياد، وابن صياد يلاحظ هذا فيخبرهم بعلامات براءته، ويعلمهم أنه يعلم مكان الدجال ويعرف أهله كذلك! ولكن لو عرض عليه الدور فلن يرفض. فهذا دور بطولة مفردة في فيلم من أقوى أفلام الكوميديا الإلهية التراجيدية والتي لايمكن للمرء أن يتنازل عن دور البطولة فيها، لأن هذا الفرصة لا تأتي مرتين! لست أدري حقا كيف يعرض عليه أن يكون هو والدجال موجود فعلا، هل سيأخذون العطاء من الدجال ويرسونه على ابن صياد؟!!!

أما عند الإمام مسلم فالرسول يجزم للمسلمين أنه ليس ابن صياد بل ذلك الكائن الخرافي المقيد في الدير في جزيرة في البحر وأن عليهم أن ينسوا موضوع ابن صياد هذا، فيبدو أن شك الرسول لم يكن في محله، فيروي لنا الإمام مسلم في صحيحه الحديث العجيب التالي:

جاء في الحديث الذي رواه تميم الداري النصراني الأصل عن فاطمة بنت قيس أخت الضحاك بن قيس –وكانت من المهاجرات الأُول–: سمعت نداء المنادي ينادي: الصلاة جامعة، فخرجت إلى المسجد فصلّيت مع رسول اللّه، فكنت في صف النساء التي تلي ظهور القوم فلما قضى رسول اللّه صلاته جلس على المنبر وهو يضحك، فقال: ليلزم كلّ إنسان مصلاّه. ثمّ قال: أتدرون لم جمعتكم؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: إنّي واللّه ما جمعتكم لرغبة ولا لرهبة، ولكن جمعتكم لأنّ تميماً الداري كان رجلاً نصرانياً فجاء فبايع وأسلم وحدّثني حديثاً وافق الذي كنت أُحدثكم عن مسيح الدجال، حدّثني أنّه ركب في سفينة بحرية مع ثلاثين رجلاً من لخم وجذام فلعب بهم الموج شهراً

في البحر، ثمّ أرفئوا إلى جزيرة في البحر حتى مغرب الشمس، فجلسوا في أقرب السفينة فدخلوا الجزيرة فلقيتهم دابة أهلب كثير الشعر لا يدرون ما قبله من دبره من كثرة الشعر، فقالوا: ويلك ما أنت؟ فقالت: أنا الجسّاسة. قالوا: وما الجسّاسة؟ قالت: أيّها القوم انطلقوا إلى هذا الرجل في الدير فإنّه إلى خبركم بالأشواق. قال: لما سمّت لنا رجلاً فزعنا منها أن تكون شيطانة. قال: فانطلقنا سراعاً حتى دخلنا الدير، فإذا فيه أعظم إنسان رأيناه قط خلقاً وأشده وثاقاً، مجموعة يداه إلى عنقه ما بين ركبتيه إلى كعبيه بالحديد، قلنا: ويلك ما أنت؟ قال: قد قدرتم على خبري فأخبروني ما أنتم؟ قالوا: نحن أُناس من العرب ركبنا في سفينة بحرية فصادفنا البحر حين اغتلم، فلعب بنا الموج شهراً ثمّ أرفأنا إلى جزيرتك هذه، فجلسنا في أقربها، فدخلنا الجزيرة فلقيتنا دابة أهلب كثير الشعر لا يدرى ما قبله من دبره من كثرة الشعر. فقلنا: ويلك ما أنت؟ قالت: أنا الجسّاسة. قلنا: وما الجسّاسة؟ قالت: اعمدوا إلى هذا الرجل في الدير فإنّه إلى خبركم بالأشواق، فأقبلنا إليك سراعاً وفزعنا منها ولم نأمن أن تكون شيطانة. فقال: أخبروني عن نخل بيسان. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: أسألكم عن نخلها هل يثمر؟ قلنا له: نعم. قال: أمّا إنّه يوشك أن لا يثمر. قال: أخبروني عن بحيرة الطبرية. قلنا: عن أي شأنها تستخبر؟ قال: هل فيها ماء؟ قالوا: هي كثيرة الماء. قال: أما إنّ ماءها يوشك أن يذهب. قال: أخبروني عن عين زغر. قالوا: عن أي شأنه تستخبر؟ قال: هل في العين ماء وهل يزرع أهلها بماء العين؟ قلنا له: نعم هي كثيرة الماء وأهلها يزرعون من مائها. قال: أخبروني عن نبي الأُميّين ما فعل؟ قالوا: قد خرج من مكة ونزل يثرب. قال: أقاتله العرب؟ قلنا: نعم. قال: كيف صنع بهم؟ فأخبرناه أنّه قد ظهر على من يليه من العرب وأطاعوه. قال لهم: قد كان ذلك؟ قلنا: نعم. أما إنّ ذاك خير لهم أن يطيعوه وإنّي مخبركم عنّي إنّي أنا المسيح وإنّي أوشك أن يؤذن لي في الخروج، فأخرج فأسير في الأرض، فلا أدع قرية إلاّ هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرّمتان عليّ كلتاهما، كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحداً منهما استقبلني ملك بيده السيف صلتاً يصدني عنها وإنّ على كل نقب منها ملائكة يحرسونها. قالت: قال رسول اللّه (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم): وطعن بمخصرته في المنبر هذه طيبة، هذه

طيبة، يعني: المدينة، ألا هل كنت حدّثتكم ذلك؟ فقال الناس: نعم، فإنّه أعجبني حديث تميم إنّه وافق الذي كنت أحدثكم عنه وعن المدينة ومكة ألا إنّه في بحر الشام أو بحر اليمن لا بل من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق ما هو من قبل المشرق، ما هو. وأومأ بيده إلى المشرق. قالت: فحفظت هذا من رسول اللّه (صلَّى الله عليه وآله وسلَّم).

تعليق الميرزا على بعض الأحاديث

والعجيب أن الميزا غلام أحمد القادياني كان قد علق على هذا الحديث قائلا: "هذه الأخبار الغيبية تدل على أن هذا الحديث ليس من رسول الله(ص) لأنها يُعارض القرآن ويُخالف محكماته، وكيف يمكن أن يقدر الدجّال الخبيث على بيان الأنباء المستقبلة؟ وقال الله تعالى في كتابه المحكم: ﴿... فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ... ۝٢٧﴾] سورة الجن ,٢٦-٢٧[، فكيف أخبر الدجال عن الغيب خبرا واضحًا صحيحًا مطابقا للواقع؟ وكيف قال الدجّال أن الخير للناس أن يُطيعوا هذا النبي الأمي العربي فإنه صادق، مع أن الدجّال كافر لا يطيع الله، فكيف يأمر بإطاعة نبيه(ص)؟ ومع ذلك هو ليس بقائل بزعم القوم بإله من دون نفسه، فكيف قال: وإني يوشك أن يؤذن لي في الخروج فأخرج، بل إن هذا اللفظ يدل على أنه لا يخرج من الدير إلاّ بإلهام الله تعالى ووحيه، فيلزم من هذا أن يكون الدجّال أحدًا من الأنبياء، وقد تقرر عندهم أنه من أكابر المفسدين فتفكر ولا تكن من الغافلين. منه."

وهنا يجب علينا أن نتوقف لنسأل: ما هو فعلا هذا المسيح الدجال؟ كيف يعلم الغيب؟ ولماذا خلقه الله عزوجل؟ ألكي يختبر الناس؟ الاختبار الذي أراده الله عزوجل من الناس هو الاختبار الطبيعي الحياتي الذي يفرق فيه الإنسان بين الحق والباطل، فإما أن يتبع الحق وإما أن يتبع الباطل، أما أن يخلق الله إنسانا! ويبقيه حيا هذه السنين الطوال –

ونعيب على الشيعة قولهم بحياة مهديهم إلى الآن، الخرافة متوحدة أيها السادة!– ثم يعطيه قدرات إلهيه وآيات تفوق كل الأنبياء لكي يختبر الناس! الناس لا يحتاجون إلى الدجال ليسقطوا، هم براقصة وكأس ساقطون! ولم لا نفرض أن الناس سيظهرون للدجال الإيمان!، ألا يمكن أن يتبعه كثير من الناس من أجل أن ينجوا ويعيشوا، ويظهروا له أنهم مؤمنون به وهم في الواقع كافرون به مؤمنون بالله، ألا يدخل هذا تحت قول الله عزوجل: "إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان"، لست أدري كيف لم يخطر ببال المدافعين عن هذه الخرافة أن هذه الخرافة مجتثة من فوق الأرض لهذا السبب!

فعندما يظهر للناس من يريد أن يفتنهم عن دينهم ليس بالحجة ولا البرهان وإنما بمنع الطعام والشراب، ما هو التصرف الطبيعي الذي سيظهره أي أحمق غبي؟ بداهة سيقول له: أنا مؤمن بك وأنت إلهي وكل ما تشاء فهو أنت، وأنت أنت... إلخ قصائد المدح والعشق المنافق، المهم أن يعطيه الطعام ولا يؤذيه، أم أن الدجال سيطلع على قلوب الناس؟ وإذا قال أحد المدافعين بهذه الفرضية فعليه أن يأتي بالدليل عليها من الروايات، وأنا أتحداه أن يأتي بدليل واحد، لأن المؤسسين لهذه الخرافة ما جال بخاطرهم هذا الخاطر قط! فهم يؤلفون خرافة يرهبون بها الناس ولا بد أن تفوتهم الحبكة الدرامية في بعض أجزائها فيتصوروا الناس فريقين اثنين ليس فيهما هذا الفريق، مع أن الطبيعي أن يصير الناس فريقين، أحدهما المظهر للإيمان به والآخر الكافر به علنا ويحتسبوا أجرهم عند الله، أما أن يؤمن أناس بشخص لأنه يعطيهم الطعام فهذا خبل ما بعده خبل!. كذلك يحق لنا أن نسأل: ما ذنب الدجال، إنه شخص مخلوق من أجل مهمة محددة يؤديها بدقة، وما أن حان الوقت حتى خرج ليؤديها، فهل يكون عاقبته ونهايته أن يصير إلى النار بعد أن ذاب كما يذوب الملح؟ إن الدجال مسير أيها السادة وليس مخير، وهذا يعني أنه أداة في يد الله عزوجل وأن الله هو الذي يختبر الناس بالقوة في مسألة الإيمان به!

والعجيب أن الإمام مسلم روى حديثا آخر عن النواس بن سمعان يجزم فيه الرسول أن الدجال ليس الكائن الخرافي ولا ابن صياد ولكنه شاب يظهر في آخر الزمان وقد يكون

في زمن الرسول، حيث قال فيه: "ذَكَرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الدَّجالَ ذاتَ غداةٍ، فَخفَّضَ فيه ورَفَّعَ، حتى ظنناهُ في طائفةِ النخلِ. فانصرفنا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم رُحْنَا إليه، فَعَرفَ ذلك فينا. فقال ما شأنكم"؟ فقلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة، فخفضَّت فيه ورفعَّت، حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: "غير الدجال أخوفني عليكم، إنْ يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم. وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه. والله خليفتي على كل مسلم. إنَّهُ شاب قطط، عينه طافئة كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن. فمن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف. إنَّهُ خارج خلة بين الشام والعراق، فعاث يمينا وعاث شمالا. يا عباد الله فاثبتوا"! قلنا يا رسول الله: وما لبثه في الأرض؟ قال: أربعون يوماً يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم". قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا، اقدروا له قدره". قلنا يا رسول الله: وما إسراعه في الأرض؟ قال: "كالغيث استدبرته الريح، فيأتي على القوم فيدعوهم فيؤمنون به؛ ويستجيبون له، فيأمرُ السماء فتمطر. والأرض فتنبت. فتروح عليهم سارحتهم أطول ما كانت ذُرىً واسبغه ضروعا وأمده خواصر، ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون مملحين ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخَرِبةِ فيقول لها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزُها كيعاسيب النحل. ثم يدعو رجلاً شابًّا ممتلئاً شبابا فيضربه بالسيف، فيقطعهُ جِزْلَتَيْن رَمْيَةَ الغَرض. ثم يدعوه فَيُقبل وَيَتَهلَّل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك إذ بعثَ اللهُ المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق –بين مهْرُوذَتَيْن– واضعاً كفيه على أجنحة مَلَكَيْن، إذا طأطأ رأسه قَطَرَ، وإذا رفعه تحدّرَ منه جمان كاللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِهِ إلا مات. وَنَفَسُه ينتهي حيثُ ينتهي طرفهُ، فيطلبه حيث يدركه بباب لُدَّ فيقتله. ثم يأتي عيسى قوم قد عَصَمَهُم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى عليه السلام أني قد أخرجتُ عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرّر عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حَدَب ينسلون، فيمر أوائلهم على بحيرة طَبَريّة، فيشربون ما فيها، ويمرُّ آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرةً ماء. ويُحْصَرُ نبيُّ الله عيسى عليه السلام

وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الله تعالى، فيرسل الله عليهم النّغَفَ من رقابهم، فيصبحون فرسى، كموت نفسٍ واحدة. ثم يهبط نبيُّ الله عيسى عليه السلام وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهُم ونتنهُم، فيرغب نبيُّ الله عليه السلام وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخُت، فتحملهم فتطرحهم حيثُ شاء الله. ثم يرسل الله مطراً لا يكُنُّ منه بيتُ مدَرٍ ولا وَبَر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزَّلَقَة. ثم يقال للأرض: انبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذٍ تأكل العصابةُ من الرّمانة؛ ويستظلُّون بِقْحِفِها، ويبارك في الرِّسْل حتى أنَّ الّلقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ من الناس. فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طَيِّبَة فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبضُ روحِ كل مؤمن وكل مسلم، ويبقى شرار الناس؛ يتهارجون فيها تهارجَ الحُمُر، فعليهم تقوم الساعة."اهـ

وبغض النظر عن الشك في سند الحديث والذي يبدأ الشك فيه مع الصحابي ذاته، فنواس بن سمعان هذا مختلف في تاريخه وفي نشأته فلم يجزم له بنسب وليس هناك تاريخ حياة ظاهرة قبل الإسلام أو بعده، وهذا في الصحابي نفسه، وباقي رجال السند فيهم أقوال، فكيف انفرد هذا الصحابي بهذا الحديث الخطير، مع وجود جمع من الصحابة مع الرسول ص يسمعون مثله؟ وبغض النظر عن أن للحديث أكثر من طريق عن كعب الأحبار موقوفا عليه فيه نفس المضمون، وهذا يرجح أن الحديث نفسه مأخوذ عن أهل الكتاب، نقول: الملاحظ في هذا الحديث أن الرسول يقول إنه من الممكن أن يخرج الدجال والرسول في الصحابة، ولنا هنا وقفة فالروايات الأخرى تقول إنه سيكون في آخر الزمان وسيكون هناك عيسى عليه السلام وسيكون هناك مهديا من نسل النبي(ص) يوافق اسمه اسم النبي(ص)، فكيف يمكن التوفيق بين الروايات؟

هل سيجتمع نبيان ومهدي في زمان واحد، فما أسعد هذا الزمان الذي اجتمع فيه هؤلاء، ثم كيف يجتمع هؤلاء، والأحداث كلها ستحدث في آخر الزمان وبعد ظهور

الفتن؟ ثم إن السادة علماء الحديث يقولون إن النبي أخبر بالوقائع التي حدثت بعده، فحدد مدة الخلافة الراشدة وبداية الملك وتحدث عن الفتن التي ستحدث، فلم الخلاف هذه المرة، فلا يعرف متى سيخرج هذا الدجال؟ هذا لربي دليل واضح على التدليس والتخبط في هذه الروايات، كما أن الرسول قبل في الحديث المروي عن تميم الداري أن يكون الدجال أعظم شيئا خلقا رأوه وهو مربوط في البحر، أما هنا فهو شاب قطط! ألا يعرف الرسول تحديدا ما هو الدجال؟ ثم هذا الشاب الذي يقتله الدجال وهو الوحيد الذي يسلط عليه هل يضربه بالسيف كما في الرواية هنا أم أنه سينشره بالمنشار كما جاء في الرواية الأخرى: "إن من عظيم فتنته أن يسلط على رجل واحد فيقول له: أتشهد أني ربك فيقول له الرجل: أنت الأعور الدجال الذي أنذرناه نبينا صلى الله عليه وسلم. فيقول: أوما تؤمن بي؟ فينشره بالمنشار نصفين ويمر بين جنبيه "فهو يسلط على رجل شاب واحد فقط باتفاق علماء الحديث، فهل يضربه بالسيف أم ينشره بالمنشار؟ أم أن السيف هو منشار؟

وإذا كان لا يحل لكافر يجد نفسه إلا مات،فكيف يدعوهم عيسى عليه السلام إلى الدخول في الإسلام؟ ولماذا لا يموت الدجال بنفس المسيح؟ وهل نَفَس المسيح يقتل فقط أم أنه يذيب كذلك؟ كما جاء في رواية أخرى عند مسلم وابن حبان وغيرهما عن أبي هريرة في حديث قال: فإذا جاؤوا . أي المؤمنون . الشام خرج، فبينما هم يُعِدُّون للقتال يُسوُّون الصفوف إذ أُقيمت الصلاة، فينزل عيسى بن مريم (ع) فأمَّهم، فإذا رآه عدو الله ذاب كما يذوب الملح في الماء، فلو تركه لانذاب حتى يهلك، ولكن يقتله الله بيده، فيُريهم دمه في حربته"، والعجيب أن سيدنا عيسى الوديع الذي لم يفعل أي شيء من هذه الأشياء طيلة حياته وقال: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر! هو من يفعل هذا! ولماذا يأجوج ومأجوج لا يدان لأحد بقتالهم، لم لا يكونون ممن يموتون بنفس المسيح؟! وما دورهم في هذه المهزلة الكوميدية؟ فقد افترضنا جدلا أن الدجال سيخرج ليفتن الناس عن دينهم بالقوة، وهذا ما وضحنا خباله! لماذا يخرج يأجوج ومأجوج بهذه الصورة، ألكي تكتمل الملحمة وتزداد الإثارة أم ماذا؟ الملاحظ أن

لا دور لهم سوى أنهم سيخرجوا ليفسدوا في الأرض ولا يقدر عليهم حتى النبي الجبار عيسى الذي لا يجد كافر نفسه إلا مات، ثم يموتون، ما هذا الدور الرائع؟!

ثم كيف يكون هؤلاء عبادا لله عزوجل، إن هؤلاء بوصفهم هذا لا يمكن إلا أن يكونوا عبيدا لله ولا يمكن أن يكونوا عبادا بأي حال، ومن يقرأ القرآن بعرف الفرق بين الاثنين! وبغض النظر عن التعارض بين وصف عيسى في أحاديث الإسراء ووصفه في أحاديث الدجال، نسأل: هل سنرى الملائكة التي سينزل عليها عيسى؟ طبعا لن نراها، فالقرآن ينفي هذا تماما فقال ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾]سورة الأنعام, ٩[، فما الغرض من هذا التحديد مادمنا لن نراهما؟ ولنا أيضا أن نسأل: هل تعبير "كجمعة" موجود في لغة العرب الفصيحة؟ نعم نحن نستعمل هذا التعبير الآن للدلالة على الأسبوع، ولكن هل كان العرب الخلص يستعملونه أيضا؟

أما صفات هذا الدجال فله كل صفات الله عزوجل ومعه كل معجزات الأنبياء، إلا أنه أعور وهذا ما يميزه عن الله –سبحان الله عما يصفون–، ولست أدري ما الذي يمنع الدجال من أن يجري جراحة تجميل مع كل هذا السلطان فتعطيه عيني زبيدة ثروت مثلا!!، وتأمل معي في صفات هذا الدجال: يخرج من جهة المشرق من خراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير في الأرض فلا يترك بلداً إلا دخله، إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما لأن الملائكة تحرسهما. وعلى الرغم من ذلك فهو أعور! و "يأتي على قوم فيدعوهم فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت... ثم يأتي القوم فيدعوهم فيردُّون عليه قوله، فينصرف عنهم فيصبحون ممحلين ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة فيقول لها: "أخرجي كنوزك"، فتتبعه كنوزها كيعاسيب النحل، ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً، فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين رَمْيَةَ الغَرَض، ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه يضحك"، وعلى الرغم من ذلك فهو أعور! و يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى، كما أخرج أحمد عن سمرة بن جندب أن رسول الله(ص) قال: "إن الدجَّال خارج، وهو أعور عين الشمال، عليها ظفرة غليظة، وإنه يُبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى" وعلى الرغم من ذلك فهو أعور!

وله حمار يركبه، عَرْض ما بين أذنيه أربعون ذراعاً، ولست أدري هل الحمار أعور هو الآخر أم أنه حمار طبيعي؟! ولست أدري بعد ذلك لم يظل هذا الدجال أعورا؟ ولم يعطى هذه الصفات الإلهية والقدرات التي لم تعط لأي نبي قبله؟

كما أن معه جنة وناراً، جنته ناره وناره جنته، وأن معه أنهار الماء وجبال الخبز، ويأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، وتتبعه كنوز الأرض، ويقطع الأرض بسرعة عظيمة كسرعة الغيث استدبرته الريح، إلى غير ذلك من الخوارق، ولست أدري لم هذه السرعة، هل يريد أن ينهي مهمته قبل نزول المسيح؟! جاء عند الإمام مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الدَّجَّالُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُسْرَى، جُفَالُ الشَّعَرِ –كَثِيرُهُ– مَعَهُ جَنَّةٌ وَنَارٌ فَنَارُهُ جَنَّةٌ وَجَنَّتُهُ نَارٌ"، وروى الإمام مسلم عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لأَنَا أَعْلَمُ بِمَا مَعَ الدَّجَّالِ مِنْهُ: مَعَهُ نَهْرَانِ يَجْرِيَانِ أَحَدُهُمَا رَأْيَ الْعَيْنِ مَاءٌ أَبْيَضُ وَالآخَرُ رَأْيَ الْعَيْنِ نَارٌ تَأَجَّجُ، فَإِمَّا أَدْرَكَنَّ أَحَدٌ فَلْيَأْتِ النَّهْرَ الَّذِي يَرَاهُ نَارًا وَلْيُغَمِّضْ ثُمَّ لْيُطَأْطِئْ رَأْسَهُ فَيَشْرَبَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مَاءٌ بَارِدٌ".

وفي البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن هذا الرجل الذي يقتله الدجال من خيار الناس أو خير الناس، يخرج إلى الدجال من مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول للدجال: "أَشْهَدُ أَنَّكَ الدَّجَّالُ الَّذِي حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَهُ. فَيَقُولُ الدَّجَّالُ: أَرَأَيْتُمْ إِنْ قَتَلْتُ هَذَا ثُمَّ أَحْيَيْتُهُ هَلْ تَشُكُّونَ فِي الأَمْرِ؟ فَيَقُولُونَ لا. فَيَقْتُلُهُ ثُمَّ يُحْيِيهِ، فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا كُنْتُ فِيكَ أَشَدَّ بَصِيرَةً مِنِّي الْيَوْمَ، فَيُرِيدُ الدَّجَّالُ أَنْ يَقْتُلَهُ فَلا يُسَلَّطُ عَلَيْهِ"

والملاحظ في أحاديث الدجال أنه كان هناك فريقان واتجاهان في التأليف، فريق مضخم للأمور وفريق يلطف ويقلل منها، ففريق قال إن معه جبل من خبز وجنة ونار وأنهار، فأراد الفريق الآخر أن يلغي هذا الغلو والشطط فوضع الحديث الذي يرويه البخاري: حدثني قيس قال: قال لي المغيرة بن شعبة: ما سأل أحد النبيَّ صلى الله عليه

وسلم عن الدجَّال ما سألته، وإنه قال لي: ما يضرك منه، قلت:لأنهم يقولون إن معه جبل خبز ونهر ماء. قال: هو أهون على اللّه من ذلك!!". وهنا يطرح سؤال هام نفسه على طاولة النقاش: من هم الذين يقولون إنه معه جبل خبز ونهر ماء، ألا يفترض أن رسول الله هو من قال هذا وأن هذه العقائد! تؤخذ منه فقط، أم أن القصص كانت مصدرا من مصادر الإيمان والتشريع عند المسلمين؟!

نهاية الدجال

أما بخصوص نهاية الدجال فتقول روايات أهل السنة أن عيسى بن مريم الذي مات ينزل فيقتل الدجال، ولست أدري من أين ينزل إذا كان ميتا؟ ويعلق الأستاذ خالد الوهيبي على نهاية الدجال قائلا: "أما نهاية الدجال فهو سيناريو توزع على منظومتين روائيتين:

روايات المحدثين السنيين التي تنص على أن الدجال يقتل على يد المسيح عليه السلام، ونبؤات بولس في رسالته الثانية إلى أهل تسالونيكي، الإصحاح الثاني تؤيد هذا السيناريو: (أما تذكرون أني وأنا بعد عندكم كنت أقول لكم هذا، والآن تعلمون ما يحجز حتى يستعلن في وقته، لأن سر الإثم الآن يعمل فقط إلى أن يرفع من الوسط الذي يحجز الآن، وحينئذ سيستعلن الأثيم، الذي الرب يبيده بنفخة فمه ويبطله بظهور مجيئه).

روايات الشيعة التي تنص على أن الدجال يُقتَل على يد المهدي المنتظر. فعن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: "إن الله تعالى أعطانا الحلم والعلم والشجاعة والسخاوة والمحبة في قلوب المؤمنين، ومنا رسول الله، ووصيه، وسيد الشهداء، وجعفر الطيار في الجنة، وسبطا هذه الأمة، والمهدي الذي يقتل الدجال"، ويرى المعلقون على معجم أحاديث الإمام المهدي أن التصوير الذي تقدمه الأحاديث الواردة في مصادرنا

الشيعية عن الدجال وحركته؛ يختلف عن التصوير الذي تقدمه الأحاديث الواردة في المصادر السنية ببعض الأمور، منها: خلو أحاديثنا من أكثر العناصر التصويرية المتقدمة.

أن حركة الدجال فيها ليست حادثاً ابتدائياً، بل هي حركة مضادة لثورة الإمام المهدي الشاملة، وقوام هذه الحركة المضادة اليهود والمنافقون من الداخل الذين يتصفون بدرجة خاصة من العداء للإمام المهدي وأهل البيت عليهم السلام.

أن الذي يقتل الدجال هو الإمام المهدي وليس عيسى عليهما السلام.[311]"اهـ

هذه أهم الأحاديث الواردة عن الدجال، ولم نكثر من الحديث حولها فعرضها مع بعض التعليقات عليها أكثر من كاف لكل ذي عقل يقبل النقد، أما ذلك العقل الذي يقبل أن تساوي الستة السبعة[312] فلن يجدي معه أي قول.

ويكفي قولهم السمج الذي ورد في أكثر الروايات: إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور! إن هذه المقولة وحدها أكثر من كافية لرد الروايات الواردة في الباب. ونعود فنقول: الإبتلاء في الدين يكون بأن يوضع الإنسان في مواقف يقدر فيها على المعصية ليظهر مسلكه، أما أن يأتي من يفتن الناس بالقوة فهو تصرف أحمق لا يصدر إلا من شخص أحمق لا يفقه ما يقوم به! لأن الناس ليسوا بحمقى فيؤمنوا بالإكراه. والملاحظ أن الجماعة الأحمدية أقرت بوجود التناقضات في أحاديث الدجال، وبدلا من أن تردها، سلكت مسلك أهل الكتاب، فقبلت المتناقضات وأولتها واستندوا في فعلهم هذا إلى الحديث الذي جاء فيه: "إنما أحدثكم هذا لتعقلوه وتفهموه وتفقهوه وتعوه فاعملوا

---

[311] خالد بن مبارك الوهيبي، أشراط الساعة: النص والتاريخ.

وهو إباضي والإباضية لا يؤمنون بخرافة المهدي أو الدجال، ويرون أن القرآن الذي قصّ أحسن القصص لا يمكن أن يغفل هذه القصة الهامة في مستقبل الناس بدون أن يشير إليها!

[312] إشارة إلى من يقبلون تصحيح الحديث الوارد عند الإمام مسلم والذي فيه أن الله خلق العالم في سبعة أيام، مع أن الله قالها في كتابه ست مرات، أنه خلق العالم في ستة أيام، على الرغم من أن الحديث منتقد منذ قديم الزمان من كبار العلماء أمثال البخاري، ولكنها أفة التقليد، ثم نعيب على من يقبل أن يساوي الواحد الثلاثة.

عليه وحدثو به من خلفكم فإنه فتنة من أشد الفتن"، فأولوا الأحاديث لكي تسقط على الاختراعات الحديثة وأولوا الروايات لكي تنطبق على الإنسان الغربي والحضارة الغربية المسيحية. ويكفينا إقرارهم بوجود التناقضات، أما مسلكهم في التوفيق بينها فلا يعنينا في شيء.

وقبل أن نختم هذا الجزء عن الدجال، نذكر للقارئ بعض الروايات الواردة عن أهم مسلمة أهل الكتاب وهما: كعب الأحبار ووهب بن منبه –وهما من هما في رواية الخرافات والأساطير الموجودة عند أهل الكتاب– التي ورد فيها ذكر هذه الخرافات، والتي تُعلم القارئ الأصل الحقيقي لهذه الروايات وهي خرافات أهل الكتاب والتي نسبت لاحقا بطريق الخطأ أو العمد إلى رسول الله المصطفي وإلى السنة: روى الإمام ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم ونعيم بن حماد في الفتن عن كعب الأحبار قال: "إذا كان عند خروج يأجوج ومأجوج حفروا حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا نحن غداً نفتح ونخرج، فيعيده الله كما كان، فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل قالوا نحن غدا نفتح ونخرج، فيعيده الله كما كان. فيحفرون حتى يسمع الذين يلونهم قرع فؤوسهم، فإذا كان الليل ألقى الله على لسان رجل منهم في الثالثة فيقول نحن غداً نخرج إن شاء الله، فيحفرون من الغد فيجدونه كما تركوه فيحفرون، ثم يخرجون فتمر الزمرة الأولى منهم بالبحيرية الطبرية فيشربون ماءها، ثم الزمرة الثانية فيلحسون طينها، ثم الزمرة الثالثة فيقولون قد كان هاهنا مرة ماء، ويفر الناس منهم فلا يقوم لهم شيء، قال ثم يرمون نشابهم إلى السماء فترجع مخضبة بالدماء، فيقولون قد قتلنا أهل الأرض وأهل السماء، فيدعو عليهم عيسى ابن مريم فيقول اللهم لا طاقة لنا بهم ولا يدين فاكفناهم بما شئت، فيسلط الله عليهم دواباً يقال لها النغف فتفرس رقابهم، ويبعث الله طيراً تأخذهم بمناقيرها فترميهم في البحر ويبعث الله عيناً يقال لها الحياة فتطهر الأرض وتنبتها حتى إن الرمانة ليشبع منها السكن". قال كعب: والسكن أهل البيت. "روى الداني في السنن الواردة في الفتن ونعيم بن حماد في الفتن عن كعب الأحبار قال: "يمكث الناس بعد يأجوج

ومأجوج في الرخاء والخصب والدعة عشر سنين، حتى إن الرجلين يحملان الرمانة الواحدة ويحملان بينهما العنقود الواحد من العنب فيمكثون على ذلك عشر سنين، ثم بعث الله عز وجل ريحاً طيبة فلا تذر مؤمناً إلا قبضت روحه، ثم يبقى الناس بعد ذلك يتهارجون كما تتهارج الحمر في المروج، فيأتيهم أمر الله والساعة وهم على ذلك". روى الإمام نعيم بن حماد في الفتن عن كعب الأحبار قال: "معاقل المسلمين ثلاثة، فمعاقلهم من الروم دمشق، ومعاقلهم من الدجال الأردن، ومعاقلهم من يأجوج ومأجوج الطور".

روى الداني في السنن الواردة في الفتن عن كعب الأحبار قال: "إن يأجوج ومأجوج ينقرون كل يوم بمناقيرهم في السد فيسرعون فيه، فإذا أمسوا قالوا نرجع غداً فنفرغ منه، فيصبحون وقد عاد كما كان، فإذا أراد الله عز وجل خروجهم قذف على ألسن بعضهم الاستثناء، فقال نرجع غداً إن شاء الله فنفرغ منه، فيصبحون وهو كما تركوه فينقبونه ويخرجون على الناس، فلا يأتون على شيء إلا أفسدوه، فيمر أولهم على البحيرة ويشربون ماءها، ويمر أوسطهم فيلحسون طينها، ويمر آخرهم فيقولون قد كان ها هنا مرة ماء، فيقهرون الناس ويفر الناس منهم في البرية والجبال، فيقولون قد قهرنا أهل الأض فهلموا إلى أهل السماء، فيرمون نبالهم إلى السماء فترجع تقطر دماً، فيقولون قد فرغنا من أهل الأرض وأهل السماء، فيبعث الله عز وجل عليهم أضعف خلقه النغف دودة تأخذهم في رقابهم فتقتلهم". روى نعيم بن حماد في الفتن عن وهب بن منبه قال: "الروم ثم الدجال ثم يأجوج ومأجوج ثم عيسى ثم الدخان".

بهذا العرض للروايات الواردة عن كعب الأحبار ووهب بن منبه يتضح لك جليا عزيزي القارئ، ما هو مصدر هذه الروايات ومن أصحابها، و كيف ألصقت بالرسول وبالإسلام زورا وبهتانا، وهما منها براء، وبعد أن أنهينا الحديث عن الدحال، ننتقل للحديث عن الضلع الثاني وهو نزول المسيح.

الضلع الثاني: نزول المسيح

لا يمكن في الواقع فصل هذا الضلع عن سابقه، فهما متداخلان أشد التداخل، فعيسى عند أهل السنة هو من سيقتل الدجال! ومن أجل هذه المهمة العزيزة الخطيرة والتي ستحدث بأن يبدأ الدجال بالذوبان بمجرد أن يرى عيسى، ولكن عيسى يقتله بالحربة قبل أن يذوب تماما، ولست أدري لم يقتله بالحربة ولا يتركه يذوب؟! المهم لأجل هذه المهمة الغالية أبقى الله عزوجل المسيح حيا إلى وقت نزوله في آخر الزمان!

ولكن مهلا عزيزي القارئ من قال إن عيسى بن مريم لا يزال حيا حتى الآن؟ إن القرآن يؤكد ويشدد أن عيسى مات وخلا كما خلت من قبله الرسل، والسنة لم يأتي فيها حديث واحد أن عيسى لم يمت وأنه رفع إلى السماء، نعم هناك أحاديث تقول إنه سينزل ولكن لا توجد أحاديث تقول إنه في السماء، كل ما قيل إنه سينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق ولكن لا يوجد حديث واحد أنه رفع إلى السماء! هناك أقوال رويت عن مسلمة أهل الكتاب وعن بعض الصحابة ولكنها مأخوذة من أهل الكتاب. لذا سيكون تركيزنا هنا على إثبات موت عيسى بن مريم من الكتاب والسنة، ثم نناقش بعد ذلك مسألة النزول المزعومة هذه:

إذا نحن نظرنا في القرآن وجدنا أنه أكثر من الحديث عن وفاة عيسى بن مريم، ولولا وجود أحاديث النزول هذه لما تجرأ أحد من العلماء على تأويل كلمة واحدة منها، ولو أولها أحدهم لاتهم بموالاة النصرانية وتصحيح عقائدها، ولكن لما كانت هناك روايات تؤيد عقائد النصارى قُبل التوجه وأولت الآيات وأصبح من يأخذ الآيات بظاهرها —كما يجب مع كل القرآن— لا يفقه شيئا في اللغة ومكابر ومعاند إلخ الأوصاف. وقبل أن نبدأ عرض الأدلة على وفاة المسيح نعرض معنى كلمة "وفاة" في اللغة، والكلمة واضحة المعنى ولكن السادة العلماء أنزلوا معاول التأويل على الكلمة حتى تخرج عن معناها وتحتمل أي معنى آخر.

تعريف الوفاة

جاء في المقاييس لابن فارس: "الواو والفاء والحرف المعتلّ: كلمةٌ تدلُّ على إكمالٍ وإتمام. منه الوَفاء: إتمام العَهْد وإكمال الشَّرط. ووَفي أوْفَى، فهو وفِيٌّ. ويقولون: أوْفَيْتُكَ الشَّيءَ، إذا قَضَيْتَه إيّاهُ وافياً. وتوفَّيْتُ الشَّيءَ واستَوْفَيْته؛ [إذا أخذتَه كُلّه] حتَّى لم تتركْ منه شيئاً. ومنه يقال للميِّت: تَوفَّاه الله."اهـ.

وجاء في اللسان: "... والوَفاةُ: المَنِيَّةُ. والوفاةُ: الموت. وتُوُفِّيَ فلان وتَوَفَّاه الله إذا قَبَضَ نَفْسَه، وفي الصحاح: إذا قَبَضَ رُوحَه، وقال غيره: تَوَفِّي الميتِ اسْتِيفاء مُدَّتِه التي وُفِيتْ له وعَدَد أَيامِه وشُهوره وأَعْوامه في الدنيا. وتَوَفَّيْتُ المالَ منه واسْتوْفَيته إذا أَخذته كله."اهـ.

وكلمة "الوفاة" إذا كانت من باب التفعل أي الفاعل هو الله والمفعول به هو من ذوي الأرواح ولا يوجد قرينة تصرف معناها فليس معناها سوى الموت لأنه هكذا اكتمل عمر الإنسان وتم فيتوفاه الله فيموت!. وهذا هو المعنى المتفق عليه في كل المعاجم. جاء في القاموس المحيط: توفاه الله:قبض روحه. وجاء في تاج العروس: توفاه الله:أماته الله. وفي المنجد: توفي فلانا: قبضت روحه ومات. والمعنى أكثر من واضح لا يحتاج إلى استدلال ولكنها مجادلة العلماء!!

ولتوضيح مسألة القرينة التي تحدد المعنى العام نورد الأمثلة التالية: توفني مسلماً: أمتني مسلما. يتوفاكم بالليل: الليل هي القرينة التي صرفت المعنى العام للوفاة. (ونلاحظ أن الله يتوفانا بالليل وليس في الليل!)

وفيت نذري: أديت ما علي من واجبات.

من ذلك يتضح لنا أن "الوفاة" إذا لم تصحب بقرينة كالليل أو المنام فمعناها الموت حتما ولقد حدد الله الوفاة بالموت في أكثر من آية في القرآن الكريم، منها: "إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا" أي أن الإنسان إذا مات فان قبض روحه يتم عن طريق

الملائكة الموكل إليهم هذه المهمة. وبعد هذا العرض لإثبات ما هو معلوم، نقدم إليك عزيزي القارئ الأدلة القرآنية الجلية على وفاة عيسى بن مريم وفاة طبيعية حين أتاه أجله:

الأدلة القرآنية على وفاة عيسى عليه السلام

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [سورة آل عمران, ٥٥]

هذه الآية نص صريح على وفاة عيسى قبل رفعه. ولكن العلماء اختلفوا من أجل الروايات في فهم الوفاة! فمنهم من قال إن الوفاة ليس المقصود بها الموت، على خلاف كل المواضع الواردة في القرآن، ومنهم من قال إن في الآية تقديم وتأخير، أي أنه والعياذ بالله كان من المفترض أن تكون "إني رافعك إليك ومتوفيك!"، وهذان القولان لا يحتاجان إلى كثير مناقشة ورد، فالآية أكثر من واضحة في المسألة.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [سورة النساء, ١٥٧-١٥٨].

والدليل في هذه الآية قوله تعالى: "بل رفعه الله إليه"، وبغض النظر عن الاختلاف في معنى الرفع، هل هو رفع مكانة أم رفع للجسد بعد الموت، الآية تذكر الرفع وآية آل عمران قالت أنه سيتوفي ثم يرفع، فإذا قيل هنا أنه "رفع" فيعني هذا أنه حدث بعد التوفي وليس بدونه!

﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [سورة المائدة, ١١٦-١١٧].

فهذه الآية نص صريح على أن عيسى توفي في زمانه الطبيعي وليس في آخر الزمان، ومن يجادل ويقول إن المعني هنا هو وفاة آخر الزمان فسيكون معنى كلامه أن عيسى رفع إلى السماء حيا –مخالفا آية 55 في آل عمران– وظل حيا بدون أن يعلم ما أحدثه أتباعه على الأرض، وكان كل همه الصلاة والزكاة في السماء! حتى يأتي الميعاد الذي ينزل عنده ليذوّب الدجال! قد يقول القارئ: وما علاقة الزكاة بمكثه في السماء؟ نقول: عيسى عليه السلام يخبر عن نفسه: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [سورة مريم, ٣١].

فهل سيقول القائل: إن الله أوصاه بالصلاة والزكاة ما دام حيا على الأرض فقط؟ وسيقولون، ولكن لا دليل لهم! ثم إن النبي(ص) استعمل هذه الآية في الاستدلال على ما نقول به، وذلك ما جاء عند البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ألا وإنه يجاء (يوم الحشر) برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات اليمين وذات الشمال فأقول يارب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: "وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلماتوفيتني كنت أنت الرقيب عليهم" فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم". فالرسول استدل بالآية على مخالفة أفعال الأقوام بعد وفاة نبيهم وليس على وفاة في آخر الزمان. ثم إنه سيكون من التناقض البين أن يكون المقصود من الوفاة هو وفاة آخر الزمان، فالله يسأله عن فعله في زمن بعثته وليس عما فعل في نزوله المزعوم، حيث أنه سيأتي من أجل القتل فقط وليس من أجل شيء آخر –وهذه هي أحلام

اليهود-، فهل سيرد عيسى بحديث عن وفاته في آخر الزمان؟ إن الآية تتحدث عن موقف عيسى يوم القيامة ممن ابتدعوا التثليث، فهو سيتبرا منهم ويعلن أنه لا علم له بهذه البدع ويعلن أنه أدى رسالته حتى أماته الله ولا علم له بما بعد ذلك فالعلم لله وحده. كما أنه من المفترض أن عيسى نزل من أجل أن يكسر الصليب وينهي المسيحية! ويفترض أن هذا سيحدث فعلا! فهل يسأله الله تعالى عن ماذا فعل قومه في آخر الزمان بعد أن ماتوا جميعا أو دخلوا في الإسلام، أم أنه يسأله عن فعل قومه بعد وفاته في زمانه؟ فنخرج من هذا كله أن المقصود من الوفاة هو الوفاة الطبيعية في زمن المسيح وليس وفاة آخر الزمان. أما من يقول إن المقصود من الوفاة هو التوفي، فعلى الرغم من مخالفته لآية آل عمران ولآيات أخرى من القرآن، فسنجد أنه لا دليل معه على ما يقول إلا دفاعه عن عقيدة النصارى في أن المسيح حي لم يمت وأنه في السماء!.

كانت هذه هي الأدلة على وفاة المسيح خاصة وإليكم الأدلة على وفاة الأنبياء عامة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [سورة آل عمران , ١٤٤]، والخلو كما جاء في المقاييس: الخاء واللام والحرف المعتل أصلٌ واحد يدلُّ على تعرِّي الشَّيء من الشيء. يقال هو خِلْوٌ من كذا، إذا كان عِزْواً منه. وخَلَتِ الدار وغيرُها تخلُو. والخَلِيّ الخالي من الغَمّ. وامرأةٌ خَلِيَّة: كنايةٌ عن الطَّلاق، لأنّها إذا طُلّقت فقد خَلَتْ عن بعلها. ويقال خلا لِيَ الشّيءُ وأخلى. قال: مِن الموتِ أم أخْلَى لنا الموتُ وَحْدَنا والخَلِيّة: الناقة تُعطَف على غير ولدِها، لأنّها كأنّها خَلَتْ من ولدها الأول. والقرون الخالية: الموَاضِي. والمكان الخَلاء: الذي لا شيءَ به."اهـ

وهناك من يقول إن "خلا الرجل" بمعنى مات. ولكن ليس هذا هو المعنى المخصوص من الخلو، وإنما المقصود هو الانخلاع من الشيء، فالرسل قبل الرسول أدوا مهمتهم ثم انخلعوا من الدنيا ومن الرسالة وتعروا عنها وانتقلوا إلى معية الله عزوجل، ولم يبق أي أحد منهم ولا أي مهمة لهم، فهم أدوا ما عليهم، ولو كان عيسى حيا أو حتى له مهمة

لم يؤدها بعد وسيبعث من أجلها!، لما كان خلا ولأصبحت الآية غير مطابقة للواقع. فالآية أكبر دليل على موت الرسل كلهم ميتة طبيعية، ولو كان هناك استثناء لقيل: ولم لا يرفع كما رفع عيسى وإدريس؟! ويؤيد هذا الفهم قول الله عزوجل: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٣٤]، فلو كان عيسى حيا لكان مخلدا!

سيقول المعترضون: عيسى سيموت في آخر الزمان وبذلك يكون لم يخلد! نعود فنقول: وما الدليل على أنه لا يزال حيا، الإمام بن حزم رحمه الله انتبه إلى أنه لا يوجد حديث يقول إنه لا يزال حيا وأن القرآن يقول إنه مات، فقال بذلك ولكن الله سيبعثه قبل يوم القيامة. والرسول نفسه قال إن عيسى قد مات، فيروي لنا الإمام الواحدي في أسباب النزول عن سبب نزول سورة آل عمران فيذكر حديثا طويلا فيه حوار الرسول المصطفي لوفد نصارى نجران ورده استدلالاتهم على ألوهية المسيح وفي هذا الحوار يقول الرسول(ص): "قالا: إن لم يكن عيسى ولد الله فمن أبوه؟ وخاصموه جميعاً في عيسى، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا ويشبه أباه؟ قالوا: بلى، قال: ألستم تعلمون أن ربنا حي لا يموت، وأن عيسى أتى عليه الفناء؟ قالوا: بلى"اهـ.

ومن يتدبر في كتاب الله يعلم أنه لا يمكن أن يكون في هذه الآية بالذات أي استثناء من أي نوع، فالآية والآيات السابقة لها تتحدث عن ثبات سنن الله في خلقه، فهي تتحدث عن السماء وثبوتها وحفظها وأن الناس معرضين عن ذلك وتتحدث عن الليل والنهار والشمس والقمر وأنه لكل منهم مساره الذي يحيد عنه قدر أنملة، ثم تواصل الآيات الحديث عن عدم وجود الإستثناءات في خلق الله فتقول: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [سورة الأنبياء, ٣٤]، فلا يطمع أحد في الخلود، ولو كان عيسى حيا لطمع الناس أن يرفعوا إلى السماء ويخلدون ولو حتى لألف سنة!

ولقد أكد الرسول المصطفي معنى الخلد وهو الاستمرارية والبقاء في حديث له ذُكر في كتاب إحياء علوم الدين للأمام الغزالي ورواه المفيد الشيعي في أماليه واللفظ للمفيد: "عن عبد الله ابن عباس قال: إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) والعباس بن عبد المطلب والفضل بن العباس دخلوا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) في مرضه الذي قبض فيه فقالوا: يا رسول الله هذه الأنصار في المسجد تبكي ورجالها ونسائها عليك فقال: وما يبكيهم؟ قالوا: يخافون أن تموت، فقال: "اعطوني أيديكم، فخرج في ملحفة وعصابة حتى جلس على المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد أيها الناس، فما تنكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنع إليكم أنفسكم؟! لو خلد أحد قبلي ثم بعثه الله لخلدت فيكم، ألا إني لاحق بربي، وقد تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله تعالى بين أظهركم تقرؤنه صباحا ومساء فلا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا، وكونوا إخوانا كما أمركم الله، وقد خلفت فيكم عترتي أهل بيتي، وأنا أوصيكم بهذا الحي من الأنصار[313] فقد عرفتم بلاهم عند الله عز وجل وعند رسوله وعند المؤمنين، ألم يوسعوا في الديار ويشاطروا الثمار ويؤثروا وبهم خصاصة فمن ولي منكم يضر فيه أحد وينفعه فليقبل من محسن الأنصار، وليتجاوز عن مسيئهم". وكان آخر مجلس جلسة حتى لقي الله عز وجل". اهـ

قد يقول قائل: سلمنا بأن عيسى عليه السلام قد مات، فما الذي يمنع أن يكون رأي بن حزم صحيحا وأنه سيبعث قبل يوم القيامة؟ نقول: الموانع المستخرجة من أصول الشريعة كثيرة ولكن نذكر أولا قول ربنا ثم من السنة ثم نذكر الموانع العقلية على البعث والإنزال: أولا هناك من يستدل بآيات عامة على أن من مات لا يعود إلى الدنيا أبدا ويستدلون بمثل قول الله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ٥٦﴾ [سورة الدخان, ٥٦]، وقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ٣١﴾ [سورة يس, ٣١]، وقوله: ﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ

(313) تعمدت ذكر باقي الحديث للإشارة إلى أن وصية النبي المصطفي بأهل بيته هي من باب وصية الرجل بأهله وأحبابه كما أوصى بالأنصار وليس من باب الوصية الإلهية على لسان الرسول.

أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾] سورة الأنبياء ,٩٥[، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾] سورة المؤمنون ,٩٩-١٠٠[.

ولكن الناظر يجد أنها كلها أدلة عامة استثنى القرآن منها بعض الحالات، مثلما ذكر بعث قوم بني إسرائيل وبعث الذي مر على قرية وبعث الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف، فلا يوجد ما يمنع عقلا أن يبعث عيسى مرة أخرى، ولكن كيف يتدخل العقل والنص حاكم عليه، فالنص القرآني يوضح أنه لا استثناءات مع عيسى بن مريم حيث يقول: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾] سورة مريم ,٣٣[، كما قال عن يحيي بن زكريا عليهما الصلاة والسلام: ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾] سورة مريم ,١٥[–وفي هذا دليل على كذب من قال إن يحيي عليه السلام قُتل من أجل عاهرة وإنما مات في سلام من الرحمن–، فلو كان هناك فرق بين النبيين لما قارن الله بينهما.

كما أن آية المائدة تنفي أن يكون عيسى على أي علم بما أحدثه قومه من بعده، فلو كان بُعث مرة أخرى قبل يوم القيامة لما قال: وكنت عليهم شهيدا مادمت فيهم، فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم، لأنه يفترض أن عيسى بُعث خصيصا من أجل أن يقتل الدجال! ورأى ما أحدثه قومه، بل ويفترض أنه أتى من أجل أن يضع الجزية ولكي لا يقبل إلى الإسلام، فكيف تنتفي رقابته عليهم في البعثة الثانية وهناك وصاية وليست رقابة فقط. –هذا إذا غضضنا الطرف عن التناقض الوارد في المسألة بين أحاديث البخاري ومسلم، فعند البخاري سيقتل الخنزير ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام، أما عند الإمام مسلم فهو فقط يقتل الدجال ثم يحصر بواسطة يأجوج ومأجوج ولا يذكر بعد ذلك شيء مما ذكره البخاري– كما أن الله عزوجل أجمل سيرة عيسى ونبوته وأتباعه إلى يوم القيامة في آية آل عمران فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ

إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾] سورة آل عمران, ٥٥[، فالله يخبر سيدنا عيسى أنه سيتوفاه وسيطهره ويجعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، ثم مرجع الكل والجميع إلى الله فيحكم بينهم يوم القيامة في مواطن الخلاف، ولو كان هناك أي دور له لذكره المولى عزوجل في موطن إخباره بأحوال قومه من بعده. ولكن لما لم يكن له أي دور لم يذكره الله عزوجل. فهذه الآية تقطع لسان كل من يزعم أنه سيبعث قبل يوم القيامة، ويدعي أن الله لم يخبر عما سيحدث قبل يوم القيامة بالنسبة لعيسى، فها هو الله أخبره، فماذا تقولون؟ إن السادة الذين يقولون إنه سيبعث لا يقرأون القرآن أو يفسرونه إلا ليوصلوه حيثما توجهت رواياتهم لا حيثما يحل القرآن!

وبخلاف ذلك فالله أجمل فضله عليه في آية المائدة فقال: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًاۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِيۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِيۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾] سورة المائدة, ١١٠[، فلم لم يذكر له أنه رفعه إلى السماء وأبقاه حيا وأنزله في آخر الزمان، أو أنه أماته ثم بعثه بخلاف باقي خلق الله، فمن منا لا يحلم أن يحيي مرتين ويأتيه الموت مرتين؟! كل هذه أدلة تنفي أن يكون عيسى مات ثم بعث، وهذه مسألة عقيدية لا ينفع فيها الظن بل لا بد من اليقين، فأين هو اليقين في أقوال ما أنزل الله بها من سلطان ولا جاءت في أقوال الرسول(ص)؟ أما الأدلة من السنة على وفاة عيسى فلم ترد مباشرة أحاديث تقول إن عيسى لن يعود إلى الدنيا مرة أخرى ولكن وردت القاعدة العامة، ومن ذلك ما رواه الترمذي: "قال: يا عبدي تمنى علي أعطيك قال يا رب أن تحييني فأقتل فيك ثانية قال الله: إنه سبق مني القول إنهم إليها لا يرجعون"، فمن مات لا يرجع إلى الأرض مرة أخرى!

تناقض نزول عيسى مع أصول الدين

أما الأدلة الكثيرات على أن بعث عيسى وإرساله مرة أخرى مناقض لأصول الدين، والتي سنذكر بعضها فقط، فمنها:

1- لو قلنا إن الله سيبعث عيسى مرة أخرى ليؤيد هذا الدين، فما الفائدة؟ سيقول السادة المتحمسون: حتى يظهر للنصارى أنهم كانوا على باطل. ونقول لهم: ولكن النصارى لن يقتنعوا أن هذا عيسى، وسيقولون: إن هذا دجال من المسلمين يدعي أنه عيسى، فكيف نقيم الحجة عليهم؟ ثم كيف نعرف أن هذا الشخص هو عيسى بن مريم؟ فقد يدعي أي شخص أنه عيسى ويرتدي الثياب الموصوفة في الحديث وينزل فوق المنارة البيضاء شرقي دمشق، فما الدليل على أنه عيسى؟ هل سيقوم بعمل المعجزات حتى نصدق أنه عيسى؟ إذا تكون البشرية قد ارتدت وانتكست على أدبارها، فلقد رفض الله أن يعطي جماعة من البدو معجزات حسية منذ قرابة ألف وخمسمائة عام وطالبهم بالإيمان بالعقل، فهل نعود هذه الأيام للإيمان عن طريق المعجزات الحسية؟

2- الشرائع القرآنية شرائع ثابتة ومستمرة، والله أعطى الناس الحرية ليؤمنوا فقال: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ... ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الكهف ,٢٩]، وقال: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [سورة الكافرون ,٦] والحساب يوم الحساب، فما الذي طرأ حتى ينزل المسيح فيصادر حرية الناس في العبادة ويحملهم على دين معين ويحطم مقدساتهم؟ و ما ذنب الخنزير حتى يقتل؟ فليس معنى أن لحم الخنزير محرم أنه يقتل.

3- قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [سورة محمّد ,٧] فالله ينصر من ينصره ويخذل من خذله، فما المبرر لنصرة الأمة في هذه الضائقة بالذات، فلقد مرت بالأمة المصائب والكوارث نتيجة لإعراضها عن شرع ربها؟ والأمة في هذه الحالة تستحق ما حل بها لأنها تركت أقوى أسلحتها، وبحثت

لنفسها عن أسلحة أخرى، والروايات كما رأينا تصور الأمة في حالة بالغة من السوء ثم ينزل المخلص من السماء فينصر الأمة، فلم تنصر الأمة ما دامت تركت طريق ربها؟ فالأولى أن تترك حتى تفيء إلى نفسها وتعود إلى طريق ربها.

4- القول ببعثة ونزول المسيح يعني أن شرائع الإسلام غير صالحة أو كافية، فلو كانت كافية لتسيير الأمة في كل وقت، فلم الحاجة إلى منقذ خارجي، ألا يكفي كل المسلمين ولم لا يبعث الرسول نفسه؟ أو أن يهيأ الله لهم من ينقذهم ويهديهم من الأمة، لم الحاجة إلى منقذ "سوبر" من خارج الأمة؟

5- كيف سينزل المسيح عليه السلام؟ هل سينزل نبيا أم سينزل منزوع اللقب أي أنه سينزل وهو ليس بنبي؟ إذا قال السادة العلماء أنه سينزل نبي فهذا يناقض قوله تعالى: ﴿... وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۧنَ ... ﴿٤٠﴾﴾ [سورة الأحزاب , ٤٠]، و إذا كان غير نبي فما سمعنا أن نبي ينزع منه اللقب. طبعا السادة العلماء الأفاضل لا يكلون ولا يملون وسيقولون: هو سينزل نبيا تابعا فلن يأتي بشرع جديد بل سيطبق الشريعة المحمدية، فهذا لا تعارض بينه وبين قوله تعالى "وخاتم النبيين". سنقول لهم: إذا قلتم بذلك فلم كفرتم الجماعة الأحمدية "القاديانية"؟ الفارق الرئيس بيننا وبينهم هو هذه الآية، فنحن نقول أن خاتم بمعنى الزينة والأخير، وهم يقولون إن لفظة "خاتم" إذا جاءت مضافة إلى جمع العقلاء فهي تعني الزينة فقط. إذا على قولهم فالرسول هو زينة الأنبياء وأفضلهم ولكن لا مانع من مجيء نبي آخر تابع للنبي(ص)، بمعنى أنه لا يأتي بشرع جديد بل يأتي بتوضيح ما أبهم وأشكل في القرآن والسنة ويكون قوله هو القول الفصل[314].

[314] نلاحظ التشابه بين قول الشيعة بالأئمة المعصومين الذين يكون لهم القول الفصل وبين قول الأحمدية أن المسيح والمهدي القادياني وظيفته هي الفصل فقط في الأقوال، -الأحمدية لا يقولون بالنسخ مطلقا-، فهل وصل العقل المسلم إلى هذه الدرجة التي يحتاج فيها دوما إلى وصي؟ أم أن القرآن نفسه بهذا الغموض، غير مبين يحتاج إلى توضيح؟!

6- هذا التصور لنزول المسيح وهزيمة الدجال مخالف لسنن الله في كونه، فلم و لن تكون هناك جنة على الأرض، فطالما أن هناك غل في القلوب سيكون هناك خير وشر في الدنيا، أما في الآخرة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [سورة الحجر, ٤٧]، أما أن نعتقد أن البشرية سيتدهور حالها ثم ينزل المسيح ويقابل المهدي المنتظر، فيغيران حال البشرية في أيام معدودات، فهذا ما لا يقبله عقل وما لا يكون إلا في الأفلام الأمريكية! فالرسول الأعظم ظل سنوات طوال لكي يغير الناس، والله يقول: ﴿... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ [سورة الرّعد, ١١]، فكيف سيغير المسيح حال هؤلاء الناس في أيام معدودات، فيصبح حالهم بهذه المثالية؟ الملاحظ أنه لا المسيح ولا المهدي سيغير الناس وإنما سيأتون ليقاتلوا ويقتلوا، -وهذا هو التصور اليهودي لمسيحهم المقاتل- وفي هذا هما مثل أي اثنين آخرين، فكيف سيتغير الناس هكذا فجأة لمجرد رؤية رجلين؟ الروايات لا تذكر أنهما سيعلما أو يوعظا الناس وإنما تركز على القتال! والمدينة المنورة كان بها الرسول وكان فيها الكثير من المنافقين، أما في زمن المسيح فسينصلح كل الناس، وهذا يعني أن عيسى سيفعل ما لم يفعله أحد من البشر ولا حتى نبينا الكريم، وهذا ما لن يحدث أبدا!

7- الحديث عن الأحداث التي ستقع مع نزول المسيح وظهور المهدي تدور بطريقة بدائية حيث أن القتال يدور بالخيل والسيوف وليس هناك أي إشارة إلى وجود أسلحة غير مألوفة، والمصدقون بهذه الأحاديث يقولون: قد تحدث كارثة تؤدي إلى تخلف الأرض مرة أخرى، ويعود الناس للقتال بالسيوف والرماح. ولكن إذا نظرنا في القرآن وجدنا أنه يقول إن حال الأرض في آخر الزمان الذي يسبق الساعة والتي يفترض أن ينزل فيها المسيح والمهدي سيكون قد بلغ تطورا عظيما لا أن الأرض ستنتكس وتعود إلى التخلف، فالله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ

بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾] سورة يونس, ٢٤[فالآية تقول بكل صراحة أن الساعة ستقوم عندما يظن الناس أنهم أصبحوا أرباب الأرض، والمسيطرين عليها والمتحكمين فيها، وهنا فقط يأتي أمر ربك، فكيف يجتمع التخلف كما في الروايات والتقدم الهائل كما في النص القرآني؟

8- الاعتقاد بوجود علامات كبرى للساعة ينافي المجيء المباغت للساعة، فالله تعالى يقول "لا تأتيكم إلا بغتة"، ولو سألت أي مسلم من المؤمنين بعودة المسيح: هل يمكن أن تقوم الساعة غدا؟ سيقول لك: لا يمكن، لأن المسيح لم ينزل بعد، فهو في طمأنينة من قيام الساعة، على الرغم من أن الله يقول إنها ستأتي بغتة، ولكنه مطمأن أنها لن تأتي إلا بعد أشراط معينة، فما الدليل على أنه ليس من المخاطبين ب "لا تأتيكم إلا بغتة"!!!؟.

9- القول ببعثة عيسى بعد موته أو أنه في السماء، والأحاديث الواردة في أفعاله العظيمات في آخر الزمان مدخل للقول بتميزه عن غيره من الأنبياء، وهذا ما لا أثر له في القرآن، فالقرآن يركز على بشرية عيسى وعدم اختلافه عن غيره من الأنبياء ليرد على دعاوى النصارى، ولكن أهل الروايات أخذوا الروايات وقبلوها وصدقوا خرافات النصارى، ومن هذا المدخل دخل النصارى، فقالوا إن المسلمين مقرون بحياة عيسى ولكنهم يجادلون في ألوهيته!. وأعتقد أن فيما ذكرنا الغنى والكفاية لمن يرد الهداية، أما من يبحث عن الجدال فليس لنا معه مجال، فهو يطلب منا المحال، وننتقل بك عزيزي القارئ إلى الضلع الأخير من أضلاع المثلث الخرافي وهو المهدي اللامنتظر.

الضلع الثالث: المهدي

بعد أن أثبتنا خرافة الضلعين الأوليين لا بد أن ينهار الثالث بداهة وحتما ولكن لما كان الناس لا يقنعون إلا بأن يروا التناقض في كل مسألة بأعينهم. ولما كانت الأحاديث

حول هذه المسألة كثيرة جدا، حتى أن بعض العلماء ادعى فيها التواتر، كان لا بد من الكتابة حولها وبنفس أسلوب المكاثرة التي يتخذه بعض العلماء أدلة على صحة الشيء!، فنقول: لا بد أن ينتبه القارئ أن الحديث في هذا العنصر سيكون عن مهديين اثنين: مهدي السنة ومهدي الشيعة، وأن كل مهدي مروي فيه وفي فضله وصفاته الكثير من الأحاديث، فعندنا في أهل السنة حوالي خمسين حديثا، وعند الشيعة ما يزيد على خمسة آلاف رواية!

وكل فرقة من الفرقتين ترفض مهدي الآخر وترى أنه خرافة كبيرة ما أنزل الله بها من سلطان، وتضعف كل الأحاديث الواردة فيه، وتردها عقلا ونقلا. والواقع أن كلا الفريقين مصيب في نقده ونقضه لمهدي الفريق الآخر، فمهدي السنة مثل مهدي الشيعة كلاهما وليد خرافة نمت و تشعبت. وقبل أن نبدأ الحديث عن هذه المسألة نوضح للقارئ أن الإيمان بالمهدي من العقائد المستحدثة والتي أدخلت وصنفت ضمن العقائد في المراحل المتأخرة المتخلفة، والتي أخذت على عاتقها جمع كل ما ذكر في الكتب وتصنيفه ضمن العقائد! فلم تذكر هذه العقيدة مثل كثير من العقائد في كتب السابقين، ونذكر للقارئ بعضا ممن أنكر المهدي من قدامى العلماء ليعرف أن المسألة ليست محدثة، -فقرآنا لا يصدقون إلا الشيوخ القدامى-.

تأخر إدراج المهدي في العقائد

وردت بعض "الأمور" في بعض الروايات ولكنها لم تُدرج رغما عن ذلك في كتب العقائد إلا متأخراً, ومن ذلك الإيمان بالمهدي, فلم يذكره الإمام أحمد مثلاً في العقائد, وأول من ذكره في كتب العقائد هو الإمام السفاريني المتوفي عام 1188 هجرية[315]، ورد

[315] قالوا إن الإمام البربهاري ذكر تلك العقيدة مبكرا في كتابه السنة، ولكن كما أشرنا سابقا فالكتاب مشكوك في صحة نسبه إليه. وحتى لو صح نسبه فمنهج الكتاب منهج مغال يجمع كل ما يتعلق بالرواية لذا لا بد أن يذكر فيه هذه الروايات الخرافية التي انتشرت في عصره.

عليه العلامة عبد القادر بدران في العقود الياقوتية بقوله: "لم نرَ أحدا قال به من المحققين لا من أصحابنا ولا من غيرهم، ولكن بعض المصنفين قلد من ألف في الوعظ والترهيب وذكر أشراط الساعة، فجعلوا قسم السمعيات من كتب العقائد وعظا وترهيبا، فخلطوا بذلك على العوام وعلى ذلك درج السفاريني في عقيدته وشرحها فكان كحاطب ليل" وقال: "ثم إن قول الشيخ السفاريني: (فالإيمان بخروج المهدي واجب كما هو مقرر عند أهل العلم ومدون في عقائد أهل السنة والجماعة) دعوى لا دليل عليها، بل الأمر بالعكس! لأننا راجعنا كثيراً من كتب عقائد أهل السنة والجماعة من المتقدمين والمتوسطين والمتأخرين فلم نجد أحداً منهم ذكر أنه يجب الاعتقاد بخروج المهدي. ومن ذكره منهم فإنما يذكره استطراداً في الكلام على أشراط الساعة، وهذه كتب الحنابلة بأجمعها، وهذه عيون كتب الأشاعرة والماتريدية كـ "المواقف" وشرحها، والمقاصد وشرحها، وشرح السنوسية والجوهرة وغير ذلك مما هو معروف ومتداول بالأيدي" اهـ.

ولم يدخلها علماء السنة في عقائدهم كشيخ الإسلام ابن تيمية في رسائله: الواسطية والأصفهانية والسبعينية، التسعينية، ولم تذكر في عقيدة الطحاوية وشرحها ولا في عقيدة ابن قدامة، ولا في الإبانة في أصول الديانة للأشعري.

ومن الذين أنكرو المهدي: الحافظ أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الجورقاني الهمذاني (ت 543هـ) في كتابه: (الأباطيل والمناكير، والصحاح والمشاهير). والحافظ أبو الفرج ابن الجوزي (ت 597هـ) في كتابه العلل المتناهية في الأحاديث الواهية. ومنهم العلامة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت 1379هـ) في كتابه: "تحقيقات وأنظار في القرآن والسنة", والذي قال فيه: "إنه –أي المهدي– ليس مما يتعين على المسلمين العلم به واعتقاده ... وإنما يكون من المسائل التي تندرج تحت توسيع المعارف الإسلامية".

وبعد أن أورد ثمانية أحاديث مما اختلف أهل العلم في تصحيحها وتضعيفها، دون ما اتفقوا على ضعفه خلص إلى أن أحاديث المهدي كلها لم تستوف شروط الحديث الصحيح، ولا شروط الحديث الحسن، فتكون جميعها من قسم الحديث الضعيف. ثم قال: "هذا حال أمثل الروايات في شأن المهدي، وخلاصة القول فيها من جهة النظر أنها مستبعدة مسترابة، وإننا لو سلمنا جدلاً بارتفاعها عن رتبة الضعف فإننا لا نستثمر منها عقيدة لازمة ولا مأمورات مندوبة، بَلْهَ الجازمة". وقال: "لو كانت أحاديث المهدي من الصحة في الموضع الذي يذكرونه من تواترها وشهرتها لما فات جميعها أو بعضها الإمامين الجليلين البخاري ومسلماً اللذين جمعا في صحيحيهما حتى كيفية الأكل والشرب والاضطجاع والسواك والحديث عن خف النبي صلى الله عليه وآله وسلم ونحو ذلك من أمور جزئية في الحياة."، وكذلك أنكره العلامة بن خلدون وأرجع الفكرة إلى أصول يهودية والعلامة ابن حزم الظاهري وقال إن المهدي اختراع فارسي وكذلك أنكره الشيخ رشيد رضا والشيخ حسن البنا وإن كانا حديثين نوعا ما وكثير من المفكرين وبعض أهل الحديث في العصر الحديث.

وبعد الحديث عن استحداث عقيدة المهدي وأنها ليست من أصول الدين ولا من قديم العقائد! نبدأ بحديثنا عن المهدي: هل للمهدي وجود في القرآن إو إشارة له ولظهوره؟ لا يوجد أي إشارة من قريب أو بعيد إلى هذا المهدي المقاتل، والقرآن منه خال، لأن القرآن كتاب واقعي لا يذكر أمثال هذه الأساطير والأوهام التي تناقض العقل والمنطق والواقع التاريخي. نعود فنسأل.

من هو المهدي؟

لخص العلامة ابن القيم رحمه الله في كتابه «المنار المنيف في الصحيح والضعيف» الأقوال في المهدي فقال: "اختلف الناس في المهدي على أربعة أقوال:

أحدها: أنه المسيح ابن مريم، وهو المهدي على الحقيقة.

الثاني: أنه المهدي بن المنصور، الذي ولي من بني العباس، وقد انتهى زمانه.

الثالث: أنه رجل من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، من ولد الحسن بن علي، يخرج في آخر الزمان. وأكثر الأحاديث على هذا.

الرابع: قول الإمامية، وأنه محمد بن الحسن العسكري."اهـ

فإذا كان هذا الخلاف موجودا في شخصية المهدي، يحق لنا أن نسأل: ما هو مبدأ ظهور شخصية المهدي؟

أول استعمال لكلمة المهدي كان من شاعر الرسول حسان بن ثابت في رثائه للنبي(ص) حيث قال:

ما بأل عَيْنِكَ لا تَـنامُ كأنَّما كُحِلَتْ مآقيها بِكُحْل الأرْمَـدِ

جَزعاً على المَهْدِيِّ أصبح ثاوياً يا خَيْر مَن وَطِئَ الحَصى لا تَبعَـدِ

جَنْبي يَقيكَ التُّرْبَ لَهْفي لَيْتَني غُيِّبْتُ قبْلَكَ في بَقيع الغَرْقَـدِ

بأبي وأُمي مَنْ شَهِدْتُ وفاتـهُ في يوْمِ الاثنين النَّبِيُّ المُهْتدي

فالنبي المصطفي هو المهدي الحقيقي والمجازي وبكل أنواع الكلام ولا مهدي سواه، لأنه كما وصفه القرآن يهدي إلى صراط مستقيم وهو نفسه على صراط مستقيم، لذلك فهو مهدي. أما ذلك المنقذ الوهمي الذي اخترعوه، ووجدنا له شبيها في كل الديانات فليس مهديا إلا كما هُدي غيره من الناس، هداية لا تسبب إلزاما لغيره! فلماذا استحق هذا اللقب بمفرده، وما علامة تميزه؟ وهل هو بهذا اللقب من المعصومين الذين لا يخطأون؟ أم أنه بشر عادي مثلنا يخطأ ويصيب، يعصي ويأوب؟

ولأن خرافة المنقذ المنتظر لها جذور متأصلة عند كل الشعوب تقريبا، وبدأت على حد علمنا في الديانة السماوية الإسلام مع اليهود عندما حلموا بقدوم مسيح مقاتل يحررهم من الظلم والاستعباد البابليين الذين قصما ظهروهم وأذلوا جباههم واستباحوا نساءهم، إلخ ألوان الذل، فحلموا بمحرر جبار مقاتل يهزم الأعداء بقوة خارقة لا ينهض أحد لقتاله، وانتقلت هذه الأسطورة إلى المسيحين ومن المسيحين إلى المسلمين، وعندما ظهرت هذه الخرافة في الديانة الإسلامية في مرحلتها الأخيرة كان عليها أن تكتسي بالثياب الإسلامية، وكان خير كسوة لها أن ينسب المهدي إلى بيت النبي(ص)، ولأن هذه العقيدة لا أساس لها في كتاب الله لُفقت الأخبار وألصقت على لسان العديد من الصحابة حتى لا ينازِع أحد في ثبوت هذا المهدي ومجيئه، ومن هؤلاء الصحابة:

1- عثمان بن عفان، 2- علي بن أبي طالب، 3- عبد الرحمن بن عوف، 4- طلحة بن عبيد الله، 5- الحسين بن علي بن أبي طالب، 6- عائشة، 7- حفصة، 8- أم سلمة، 9- أم حبيبة، 10- صفية بنت حُيَيْ، 11- عبد الله بن عباس، 12- عبد الله بن مسعود، 13- عبد الله بن عمر بن الخطاب، 14- عبد الله بن عمرو بن العاص، 15- أبو سعيد الخدري، 16- جابر بن عبد الله 17- عمار بن ياسر، 18- أنس بن مالك، 19- عوف بن مالك، 20- معاوية بن أبي سفيان، 21- ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، 22- حذيفة بن اليمان.

هذا بخلاف أقوال التابعين إما كمراسيل –أي هي من أقوال النبي ولكن بدون ذكر الصحابي– أو من أقوالهم أنفسهم. ونظرا لأن الأحاديث الواردة في هذا الباب كثيرة فقد ادعى بعض العلماء تواتر هذه الأحاديث وألفوا في ذلك الكتب، وفي هذا يقول الأستاذ محمد عمراني: "وأفردها آخرون بالتأليف، بل وادّعى لها التواتر! آخرون أمثال: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (1172-1255 هـ/1839 م) في كتاب "التوضيح في تواتر ما جاء في المهدي المنتظر!، والدجال، والمسيح". أبي خيثمة، زهير بن حرب النسائي، نزيل بغداد (160-238). ذكر ذلك ابن خلدون في مقدمته ولم يصلنا. أبي نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (336-430)هـ في

كتاب: "المهدي"، يوسف بن يحيى بن علي بن عبد العزيز المقدسي الشافعي السلمي (من علماء القرن السابع) في كتاب: "عقدُ الدُّرر في أخبار المنتظر". أبي عبد الله، شمس الدين محمد بن أبي بكر الحنبلي الشهير بلقب: ابن قيِّم الجَوْزِيَّة (691-751هـ) في: "المنار المنيف في الصحيح والضعيف" كفتوى أجاب فيها عن سؤال ورد إليه عن خبر: "لا مهدي إلا عيسى بن مريم"، أبي الفداء، إسماعيل بن كثير الدمشقي (701-774هـ) في كتاب: "الفتن والملاحم"، أبي الحسن، نور الدين، علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي (735-807هـ) في جزئه السابع من "مجمع الزوائد ونبع الفوائد": (باب ما جاء في المهدي) مستعرضاً لها ولرجال سندها في باقي الأصول التي أوردتها. وكذلك خصص باباً للمهدي في كتابه: "موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان" وهي الزيادات التي أضافها الهيثمي على ما أورده الحافظ أبو حاتم، محمد (ابن حبان) بن أحمد البُسْتي (ت: 354هـ) في كتابه: "التقاسيم والأنواع" وخص الهيثمي ذلك بعنوان: "باب ما جاء في المهدي" ..7 أبي الفضل، شهاب الدين، أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني الشافعي المصري (794-852هـ) في كتاب "القول المختصر في علامات المهدي المنتظر". جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (849-911هـ) في رسالة سماها: "العرف الوردي في أخبار المهدي"، حيث لخص فيه الأربعين أثراً التي أوردها أبو نعيم وأضاف لها زيادات إلى أن بلغت ما ينيف عن 236 خبراً معْزُوَّةً إلى من رواها من الصحابة أو التابعين أو أتباع التابعين وإلى من خرجها في كتابه، دون ذكر السند كله. والرسالة توجد ضمن كتابه: "الحاوي للفتاوِي" وهو أشملها. وكل من جاءوا بعده عالة عليه فيما جمع منها. علاء الدين، علي المتقي بن حسام الدين الهندي البُرْهانفوري (ت 97هـ) في كتاب: "كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال": "خروج المهدي"، وغير هؤلاء، ممن جاءوا بعدهم، ممن أدخلوا هذه الأخبار تصنيفاتهم دون أن يضيفوا جديداً إلى الموضوع."اهـ

ولا يغرن القارئ هذه الكثرة فليس معنى ورود الأحاديث عن أربعين صحابيا أنها وردت عنهم من أربعين طريقا، فقد يرد الحديث عن عشرة من الصحابة ويكون من طريق واحد فقط فلا عبرة بالعشرة والعبرة بهذا الواحد. وهنا يحق لنا أن نسأل:

هل الأحاديث الواردة في هذا الباب بهذا الحجم فعلا أم أنها من باب المكاثرة؟

يجيب فضيلة الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود فيقول: "إن هذه الأحاديث في المهدي قد غلط فيها طوائف من العلماء، فطائفة أنكروها مما يدل على أنها موضع خلاف من قديم بين العلماء، كما هو الواقع من اختلاف العلماء في هذا الزمان. ومنها: أن هذه الأحاديث لم يأخذها البخاري ومسلم، ولم يدخلاها في كتبهما، مع رواجها في زمنها، وما ذاك إلا لعدم ثباتها عندهما، كما أنه ليس للمهدي ذكر في القرآن، مما يقلل الاحتفال بها. ومنها: تناقض هذه الأحاديث و تعارضها في موضوعها، فمهدي اسمه اسم الرسول، اسم أبيه اسم أبيه، ومهدي اسمه أبو عبد الله، ومهدي يشبه الرسول في الخلق، ولا يشبهه في الخلق، ومهدي يصلحه الله في ليلة، ورجل يخرج هاربا من المدينة إلى مكة، فيبايع له بين الركن والمقام ورجل اسمه بن حران، يوطئ أو يمكن لآل محمد، ورجل يخرج من وراء النهر، ورجل يبايع له بعد وقوع فتنة عند موت خليفة، ورجل أخواله كلب، وتأتيه الرايات السود من قبل العراق، وأبدال الشام، ومهدي يصلي عيسى بن مريم خلفه، ومهدي يقال له بحضرة نبي الله عيسى: صل أيها الأمير، فيقول: كل إنسان أمير نفسه، تكرمة الله لهذه الأمة. فهذه وما هو أكثر منها، مما جعلت المحققين من العلماء يوقنون بأنها موضوعة على لسان رسول الله، وأنها لم تخرج من مشكاة نبوته، وليست من كلامه، فلا يجوز النظر فيها، فضلا عن تصديقها.

ثم إن عادة العلماء المحدثين والفقهاء المتقدمين، أن بعضهم ينقل عن بعض الحديث والقول على علاته، تقليدا لمن سبقه، كما ذكر عن الإمام أحمد أنه كان يستعير الملازم من طبقات ابن سعد، فينقلها، ثم يردها إليه ذكر ذلك في ترجمة ابن سعد، وكان الشافعي يقول للإمام أحمد: إذا ثبت عندك الحديث فارفعه إلي حتى أثبته في كتابي، وكذلك سائر علماء كل عصر، ينقل بعضهم عن بعض، فمتى كان الأمر بهذه الصفة فلا عجب متى رأينا أحاديث المهدي تنتشر في كتب المعاصرين لأبي داود كالترمذي وابن ماجه، لخروج الحديث من كتاب، إلى مائة كتاب، وانتقال الخطأ من عالم إلى مائة عالم، لكون الناس مقلدة، وقليل منهم المحققون المجتهدون... اعلم أن أحاديث المهدي تدور بين ما يزعمونه صحيحا و ليس بصريح، وبين ما يزعمونه صريحا وليس بصحيح، وأننا بمقتضى الاستقراء والتتبع لم نجد عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثا صحيحا صريحا يعتمد عليه في تسمية المهدي، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم تكلم فيه باسمه." اهـ [316]

ضعف روايات المهدي

ولقد أثبت ضعف روايات المهدي كلها بعض المحدثين مثل الأستاذ محمد عمراني في كتابه: المهدي اللامنتظر لا عند اليهود ولا عند الشيعة ولا عند السنة ولا عند والبرتغال، وأتى على هذه الأسطورة من جذورها، فلقد ناقش فكرة المهدوية في الحضارات المختلفة، وكيف أنها تصبغ في كل حضارة بما يناسبها فتتمظهر بالمظهر الجديد، وناقش الأسباب التاريخية السياسية لظهور فكرة المهدي عندنا في الإسلام، والأهم من كل هذا هو مناقشته لأسانيد الأحاديث الواردة في المسألة، لأنك لو أتيت أهل الحديث بتراب الأرض أدلة على بطلان الحديث بدون أن تنقد السند فليس قولك

---

[316] عبدالله بن زيد آل محمود الشريف، لا مهدي ينتظر بعد الرسول محمد خير البشر

بشيء، وقد ترمى بالضلال والزيغ، وناقش الأحاديث وأثبت ضعفها سندا ووضعها متنا. وكذلك ناقش روايات المهدي وأثبت ضعفها الأستاذ المحدث عداب محمود الحمش في كتابه: "المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثية نقدية"، وأثبت في هذا الكتاب بطلان هذه الروايات وضعفها، وخرج من بحثه للأحاديث الواردة عن المهدي عند أهل السنة بالنتائج التالية:

1- الأحاديث الموضوعة التي ذكر فيها المهدي صراحة عشرة أحاديث لم يبلغ درجة الاحتجاج منها شيء.

2- الأحاديث المرفوعة غير المصرحة بالمهدي لا يصح حملها على المهدي.

3- الآثار الموقوفة على الصحابة المصرحة بالمهدي لم يصح منها شيء.

وناقش المؤلف الشيعة في المهدي والذي هو عندهم من أصول الدين؛ فوجد أنهم يحتجون بـ: 5303 حديث، ولاستحالة مناقشة هذا العدد من الروايات اقتصر المؤلف على مناقشة روايات ولادته بحيث إذا ثبت ضعف وبطلان روايات ولادته ووجوده؛ فما قيمة روايات من رآه أو كلّمه؟ وعندما أثبت ضعفها خلص إلى بطلانه أيضا عند الشيعة.

وحتى يكون القارئ على بينة من أمره في أن خرافة المهدي هذه كانت مرتبطة بالظروف السياسية في العصر الأموي والعباسي ومرتبطة بالصراع العلوي العباسي تحديدا، وأنها كانت فكرة هلامية غير محددة المعالم، وأن كل من الفريقين كان يضع الأحاديث ليثبت صفه نذكر للقارئ عددا من "المهادي" الذين قيل بهم ودُعي إليهم عند الشيعة.

المهادي عند الشيعة

عبر التاريخ تم إدعاء المهدوية لعدد من أئمة الشيعة, ولم يقتصر الأمر على ذلك المختفي في السرداب, فادعى بعضهم أن المهدي هو:

"1- علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عند السبئية الذين زعموا أن عليا هو الإله! ولما استشهد علي رضي الله عنه زعم بن سبأ أنه لم يمت وأن بن ملجم إنما قتل شيطانا تصور بصورة علي، وأنه ينزل إلى الأرض بعد هذا ويملأها عدلا وينتقم من أعدائه.

2- محمد ابن الحنفية عند فرقة الكيسانية هو المهدي المنتظر والذي يفعل كذا وكذا.

3- محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، قالت فرقه: هو حي لم يمت مقيم في جبل يقال له "العلمية"، فهو عندهم مقيم فيه حتى يخرج.

4- الإمام محمد الباقر واتباعه الباقرية يرون أنه لم يمت وهو المهدي المنتظر!!.

5- محمد النفس الزكية بن عبد الله بن الحسن بن الحسن، الذي خرج بالمدينة.

6- المغيرة بن سعيد العجلى وذلك أنه لما قتل المغيرة اختلف اصحابه فمنهم من قال بانتظاره ورجعته ومنهم من قال إنهم ينتظرون رجعة محمد النفس الزكية الذي لم يمت قبله!

7- جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، قالت فرقته: إن جعفر بن محمد حي لم يمت ولا يموت حتى يظهر ويلي أمر الناس، وهو القائم المهدي، وروت عنه فرقة الناووسية أنه قال: إن رأيتم رأسي قد أهوى عليكم من جبل فلا تصدقوه فإني أنا صاحبكم!!

8- إسماعيل بن جعفر، أنكرت فرقة موت إسماعيل في حياة أبيه، وقالوا كان ذلك على سبيل التقية والتعمية على الناس لأنه خاف فغيَّبَه عنهم، وزعموا أن اسماعيل لا يموت حتى يملك الأرض ويقوم بأمر الناس، وأنه هو القائم لأن أباه أشار إليه بالإمامة بعده.

9- محمد بن إسماعيل، وفرقته المباركية: من الإسماعيلية أصحاب المبارك، يعتقدون أن الإمام بعد جعفر لابنه الأكبر إسماعيل ثم ابنه محمد وهو خاتم الأئمة والمهدي المنتظر.

10- محمد بن عبد الله بن جعفر المعروف بالأفطح، قالت فرقته أن لعبد الله الأفطح ابنا ولد له من جارية يقال له محمد، وأنه تحول بعد موت أبيه إلى خراسان فهو مقيم بها وأنه حي إلى اليوم وأنه الإمام بعد أبيه. (إذا فحبكة خرافة ابن العسكري ليست جديدة)

11- زكريا ابن محمد الباقر، وأتباعه الحاضرية: يقولون إن الامامة بعد محمد الباقر لابنه زكريا وهو مختف في جبل الحاضر لا يخرج حتى يؤذن له.

12- موسى بن جعفر، وقد أدعت مهدويته أربع فرق من أتباعه وزعمت أنه القائم، وأنه حي لا يموت حتى يملك شرق الأرض وغربها و يملأها كلها عدلا كما ملئت جورا وأنه القائم المهدي.

13- عبدالله بن معاويه بن جعفر ذي الجناحين، وأتباعه الجناحية:، يزعمون أن عبدالله بن معاويه بن جعفر حي لم يمت وأنه بجبل من جبال أصبهان ينتظر الخروج كغيره!!.

14- محمد علي بن محمد بن علي بن موسى، وكان قد توفي في حياة أبيه بسر من رأى، فزعمت فرقة أنه حي لم يمت، واعتلوا في ذلك بأن أباه أشار إليه وأعلمهم أنه الإمام بعده، والإمام لا يجوز عليه الكذب ولا يجوز البداء فيه، وإن ظهرت وفاته في حياة أبيه فإنه لم يمت في الحقيقة ولكن أباه خاف عليه فغيبه، وهو الإمام القائم وأنه سيخرج.. إلخ القصة. هذا ولم نذكر باقي المهادي وأهمهم طبعا محمد بن الحسن العسكري والذي لا تزال تنتظره الشيعة حتى الآن." اهـ

والنهج الذي اتبعه مؤلفو هذه الخرافة هو نهج المكاثرة وادعاء التواتر فمن كفر خرج من الملة، وهذا النهج سنجده كذلك عند الشيعة في ترسيخهم خرافة المهدي، ولنر كم من الروايات التي وردت عند الشيعة في هذه الخرافة والتي لا أصل من كلام الرسول، وسنلاحظ أن هذه الروايات متقاطعة في أحيان كثيرة مع الروايات عند أهل السنة، فليس معنى أنها روايات المهدي عند الشيعة أنها لا وجود لها عند السنة، بل سنجد لها وجود حاضرا عند السنة، والآن إلى الروايات.

روايات المهدي عند الشيعة الإمامية

يُعرفنا الشيخ جعفر السبحاني بعدد روايات المهدي, فيقول:

"ونحن نكتفي في هذا المقام بذكر فهرس الروايات التي رواها السنة والشيعة:

1- البشارة بظهوره 657 رواية.

2- أنه من أهل بيت النبي الأكرم 389 رواية.

3- أنه من أولاد فاطمة الزهراء عليها السلام 192 رواية.

4- أنه من أولاد علي 214 رواية.

5- أنه التاسع من أولاد الحسين 148 رواية.

6- أنه من أولاد الإمام زين العابدين 185 رواية.

7- أنه من أولاد الحسن العسكري 146 رواية.

8- أنه يملا الأرض قسطاً وعدلاً 132 رواية.

9- أن له غيبة طويلة 91 رواية.

10- أنه يعمر عمراً طويلاً 318 رواية.

11- الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت 136 رواية.

12- الإسلام يعم العالم كله بعد ظهوره عليهم السلام 27 رواية.

13- الروايات الواردة حول ولادته 214 رواية.[317]" اهـ

ويعلق الإباضية المنكرون لهذه الخرافة بشقيها حول هذا الكم الرهيب من الروايات قائلين:

"أولاً: ما مقداره ثلاثة مجلدات من هذه الروايات ليست أحاديث منسوبة للنبي صلى الله عليه وسلم، وإنما هي مرويات عن (الأئمة) أي أئمة البيت العلوي، وهذه لا يشك عاقل أنها ليست وحيا سماويا، بل هي أقوال بشرية، فيمكننا استبعادها من القائمة تماماً (أي قائمة الإلزام لنا، أما قائمة المناقشة لإخواننا الشيعة فسوف ندخلها لأنهم يلتزمون بها)، أما العقلاء من البشر فيخضعون للوحي الإلهي، والوحي قد انقطع بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ولا نعلم أن أحداً من آل البيت العلوي قد ادعى النبوة بعده صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: هناك خلط واضح بين الروايات الأصلية وطرقها، فتكون الرواية في كثير من الأحيان واحدة ولها طرق كثيرة جداً، وهذه الكثرة في الطبقات العليا مصدرها واحد أو اثنين فتعود في نهاية الأمر رواية واحدة، على سبيل المثال قد يروي الرواية أبو عبدالله جعفر الصادق فيرويها عنه من تلاميذه العشرات، ويرويها عن العشرات مئات، وعن المئات آلاف فتدون على تلك الحال، لكنها في حقيقة الأمر رواية واحدة لها طريق واحد فيأتي من لا يفهم هذه -أو يفهم- فليلبس على الناس دينهم ويقول إنها آلاف الطرق ويدعي تواترها. (وهذه المسألة معكوسة عندنا في أهل السنة، فقد نجد الرجل الواحد في أسانيد العديد من الروايات المنسوبة إلى الكثير من الصحابة، فمن يرى الروايات يظن أنها متواترة مع انحصار طرقها في منتصف السند في طرق قليلة جدا!)

ثالثاً: أتساءل ما هي طرق الرواية عند إخواننا الشيعة؟ من خلال تتبعنا لكتبهم الحديثية للكافي وبحار الأنوار ومن لا يحضره الفقيه والاستبصار وغيرها، وجدنا أن روايتهم لا بد

[317] جعفر السبحاني, محاضرات في الإلهيات.

أن تمر من طرق آل البيت (في أغلب الأحيان، والذي أستطيع أن أجزم به الآن أنها تتجاوز 95%)، فعلى هذا هي روايات آحادية ليس لها إلا منفذ واحد لا بد أن تمر عليه، وهم أحد آل البيت العلوي، وليست متواترة (وفق أساسيات علم الحديث الكلاسيكي)، فنستطيع بعد هذا أن نخفض من عدد الروايات بمقدار يصل إلى آلاف الروايات، ونستطيع أن نجعلها كلها طريقاً واحداً، على سبيل المثال طريق أبي عبدالله جعفر الصادق." اهـ

فبمثل هذا النهج المكاثر لدى الشيعة تضخمت روايات المهدي عندنا في أهل السنة وتشنج من أجلها المتأخرون، لأن من يرد هذه الروايات فهو يهدم بيضة الإسلام، وهم الذابون عنها في مواجهة المشككين في الدين. وبغض النظر عن الطعن في الآخرين نأخذك عزيزي القارئ معنا في جولة لتعلم أن المهدي شخصية هلامية، جمعت الروايات الواردة فيه والمتناقضة والتي تسقط بعضها لتكون في نهاية المطاف شخصية من تركيب أهل الحديث للصفات الواردة في الروايات المختلفة ليظهروا في آخر المطاف بمهدي واحد لا خلاف فيه.

المهادي

"هناك مهدي اسمه يوافق اسم رسول الله واسم أبيه يوافق اسم أبي الرسول، إذا فهناك مهدي اسمه محمد بن عبدالله.

وهناك مهدي اسمه السفاح، كما جاء عند نعيم بن حماد وأحمد وابن أبي شيبة وغيرهم في بعض الروايات: "يخرج رجل من أهل بيتي عند انقطاع من الزمان، وظهور من الفتن، يكون عطاؤه حثياً، يقال له السفاح"

وهناك مهدي اسمه أحمد بن عبدالله، كما جاء في بعض الروايات: "فإذا كان ذلك نادى مناد من السماء: ألا أيها الناس: إن الله قطع عنكم مدة الجبارين والمنافقين

وأشياعهم ووليكم خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالحقوا بمكة فإنه المهدي واسمه (أحمد بن عبدالله)..."

وهناك مهدي اسمه المنصور، كما عند ابن حماد في الفتن: "المنصور مهدي يصلي عليه أهل والسماء الأرض، وطير السماء، يبتدي بقتال الروم والملاحم عشرين سنة، ثم يقتل شهيداً في الملحمة العظمى هو وألفين معه كلهم وصاحب راية. ولم يصب المسلمون بمصيبة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم منها".

وهناك مهدي من نسل العباس عم النبي، كما جاء عند أبي نعيم في الحلية: "يا عباس، قال: لبيك يا رسول الله، فقال: يا عم النبي إن الله ابتدأ بي الإسلام، وسيختمه بغلام من ولدك وهو الذي يتقدم لعيسى بن مريم"

وهناك مهدي هو عيسى بن مريم، كما جاء عند ابن ماجه "... ولا مهدي إلا عيسى بن مريم".

وهناك مهدي عربي اللون، إسرائيلي الجسم، كما جاء في وصفه عند أحمد وابن ماجه: "اللون عربي والجسم جسم إسرائيلي"[318]

وهناك مهدي من بني إسرائيل، كما جاء عند نعيم بن حماد: "أنه رجل من بني إسرائيل". وهناك مهدي من أهل البيت ولكنه سيحكم بحكومة آل داود، كما جاء في الرواية: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: "لا تذهب الدنيا حتى يخرج رجل مني يحكم بحكومة آل داود ولا يُسأل بيّنة، يعطي كل نفس حقها"، وهناك مهدي حسني النسب وآخر حسيني وآخر هاشمي وآخرون، فلكل فرع مهديه!، ونعطيك ملخصا بالمهادي:

[318] لعل القارئ يكون قد استنتج من الروايات الأخيرة ما هو مصدر عقيدة المهدي، فالخرافة أصلها يهودي صرف، ويجد الباحث عن كعب الأحبار حوالي 54 رواية في المهدي المنتظر، والله أعلم كم من الروايات التي كانت أصلا عن كعب ثم نسبت بعد ذلك إلى الرسول المصطفى!

1- مهدي يخرج من اثني عشر خليفة يستقيم بهم الدين. روى أبو داود في سننه عن جابر بن سمرة قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لا يزال هذا الدين قائما حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة. ثم قال كلمة فقلت لأبي ما قال؟ قال: كلهم من قريش". وعلى فرض صحة الحديث، أين المهدي؟ الرسول يتكلم عن خلفاء لا عن مهدي، والعجيب أن الشيعة يستدلون بنفس الحديث على الأئمة، والحديث لا علاقة له لا بهؤلاء ولا هؤلاء، وليس هو صحيح من المبتدأ بل هو من الموضوعات!

2- ومهدي استخرجوه من الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن طريق أبي نعيم عن علي رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لبعث الله رجلا منا يملؤها عدلا كما ملئت جورا." الحديث على فرض صحته يتكلم عن حاكم صالح في آخر الزمان، فأين المهدي في الموضوع، ثم إن الحديث واضح التشيع، فالحديث عن على وهو يقول "منا"! أي من آل البيت!

3- ومهدي استخرجوه من الحديث الذي رواه أبو داود في سننه عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المهدي منى أجلى الجبهة، أقنى الأنف، يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا، يمكث في الأرض سبع سنين. "نعم الوصف والتحديد! أجلى الجبهة أقنى الأنف! كم ألف ألف واحد ينطبق عليه الوصف؟!

4- ومهدي استخرجوه من الحديث الذي رواه أبو داود عن أم سلمة، وفيه يقول الرسول الله صلى الله عليه وسلم: "المهدي من عترتي، ومن ولد فاطمة." والحديث ضعيف.

5- ومهدي يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة إلى مكة، فيبايعونه بين الركن والمقام. استنادا إلى ما رواه أبوداود عن أم سلمة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يكون اختلاف عند موت خليفة، فيخرج رجل من أهل المدينة هارباً إلى مكة، فيأتيه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره، فيبايعونه بين الركن والمقام، ويبعث إليه بعث من الشام، فتخسف بهم البيداء بين مكة والمدينة، فإذا رأى الناس

ذلك أتاه أبدال الشام، وعصائب أهل العراق، فيبايعونه، ثم ينشأ رجل من قريش، أخواله كلب فيبعث إليهم بعثاً، فيظهرون عليهم، وذلك بعث كلب، والخيبة لمن لم يشهد غنيمة كلب، أو قال: بيعة كلب، فيقسم المال، ويعمل في الناس بسنة نبيه، ويلقي الإسلام بجرانه إلى الأرض فيلبث سبع سنين، ثم يتوفى، ويصلي عليه المسلمون.".
وبعد قراءة هذا الحديث أفكر: ما فائدة هذا الحديث وما هو الخبر الذي يقدمه لنا، فهو يبدأ بالإخبار عن حصول اختلاف عن موت خليفة! هذا طبيعي، ثم يخرج رجل من أهل المدينة هاربا إلى مكة، من الرجل ولماذا هرب من المدينة إلى مكة؟! فيأتيه ناس من أهل مكة، من هم هؤلاء الناس ولماذا أتوه؟ ومن أين يخرجونه وهو كاره ولماذا هو كاره ماذا؟ وما معنى أن ينشأ رجل من قريش؟ وهل هذا الرجل هو المهدي أم أنه الرجل السابق الذي فر وبويع وهو كاره. العجيب أن هذا الحديث قدم مهديين وليس مهديا واحدا، ولكنهما مبهمان فليس في الحديث وصف واحد يجدي في التعرف عليهما، لا قدم وصفا واحدا مميزا هو أن المسلمين سيصلون عليه!

6- ومهدي يخرج من وراء النهر يقال له: الحارث بن حران، وعلي مقدمته رجل يقال له: منصور، يُمكّن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم.استنادا إلى ما رواه أبو داود بسنده إلى علي بن ألي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «يخرج رجل من وراء النهر يقال له: الحارث بن حران على مقدمة رجل يقال له: منصور، يوطئ أو يمكن لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت على كل مؤمن نصرته أو قال: إجابته»

7- ومهدي يُصلح في ليلة، استنادا إلى ما رواه الإمام أحمد عن علي رضي الله عنه: قال رسول الله: المهدي منا أهل البيت يصلحه الله في ليلة.

8- ومهدي قال فيه رسول الله: إنا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون ذلا وتشريدا من بعدي حتى يأتي قوم من المشرق معهم رايات سود، فيسألون الحق فلا يعطونه.

9- ومهدي هو عيسى بن مريم، استنادا إلى ما رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يزداد الأمر إلا شدة، ولا الدنيا إلا إدباراً، ولا الناس إلا شحاً، ولا تقوم الساعة إلا على شرار الناس، وما المهدي إلا عيسى بن مريم." اهـ

بأمثال هذه الروايات العامة المبهمة غير الصحيحة أدخل الإيمان بالمهدي في دين الله عزوجل. والملاحظ في هذه الروايات التحديد الشديد لشخصية المهدي، فهناك بعض الروايات تذكر اسما واحدا للمهدي وهناك منها ما يذكر اسمه واسم قائده كذلك... إلخ تلكم الأوصاف المرتبطة بحوادث تاريخية معروفة في زمانها.

والعجيب أن السادة علماء الحديث يدافعون عن هذه الأحاديث على الرغم من تاريخانياتها الواضحة، فهناك رايات سود، ونسألهم لمن في التاريخ كانت الرايات السود؟ وهناك مهدي اسمه المنصور وآخر اسمه السفاح ونسألهم: ألم يكن هناك بعض الخلفاء يحملون هذه الأسماء؟ وبغض النظر عن كل هذا فإننا لا نزال نرى في الروايات ذلك التصور اليهودي للمنتظر الذي يصلح كل شيء بحد السيف، والذي يغير وجه الأرض في أيام معدودات. وما قيل في نزول عيسى بن مريم ومناقضته لأصول الدين يقال هنا.

إن الإصلاح والتغيير الواقعيين يحتاجان إلى أيام وشهور وسنين بل ومن الممكن أن يحتاج إلى عشرات السنين، أما أن ينصلح شأن الأمة بين ليلة وضحاها لمجرد وقوع بعض الحروب وانتصارات للمسلمين فلم ولن يحدث بأي حال. إن المدينة الفاضلة لا تحدث بين ليلة وضحاها وإنما نتيجة لغرس طويل مستمر للقيم والأخلاق وبذلك نخرج أجيالا من المهادي السوبرمان، أما ذلك التصور الوهمي المهدوي فهو تصور خرافي مصادم للواقع ولحال الناس وللقرآن. ولست أدري صراحة لم سمي مهديا، الأولى أن يسمى السفاح كما جاء في بعض الروايات فهو لم يأت إلا بالقتل، كما رووا في تلك الرواية المزعومة عند ابن حبان أن الرسول الرحمة قال لقريش: لقد جئتكم بالذبح! فهذا الرجل جاء بالتقتيل لا بالحوار والدعوة فكيف يصير مهديا؟ الله وحده أعلم. ونظرا لأن

اللفظ لا مقابل له على أرض الواقع جاءت بعض الروايات التي تبرر لم سمي مهديا، فقالت لأنه يُهدى إلى جبل فيستخرج التوراة فيحكم بها وقيل وقيل ولكن لا دليل واحد صريح في المسألة من بابها.

نقض فكرة المهدي

انتقد كثير من العلماء والمفكرين فكرة المهدي، وقام بعض شيوخ الحديث بنقض أسانيدها في كتب كاملة وأثبتوا ضعفها، فمن أراد البحث في الأسانيد وأحوال الرجال فليرجع إلى تلك الكتب، أما هنا فليس غايتنا إثبات ضعف الأحاديث سندا، وإنما اجتثاث هذه الخرافة من أصولها ليعلم القارئ أن هذه الخرافة أدخلت في دين الله عزوجل وأنها ما أنزل الله بها من سلطان، وكما نقضنا فكرة نزول المسيح أو بعثه سننقض فكرة خروج المهدي من السرداب أو ولادة مهدي يهدي الأمة:

أول شيء نلاحظه أن لا ذكر للمهدي في القرآن بتاتا ولا إشارة إليه، وهذا وحده أكثر من كاف لإسقاطه من العقائد، فالعقائد لا تذكر إلا صراحة في القرآن لأنه ليس فيها إجمال أو إشارات كما يأتي في بعض الأحكام الفقهية أو الأوصاف العلمية، أما العقائد فواضحة صراح لا لبس فيها. وإذا غضضنا الطرف عن عدم ذكر القرآن للمهدي هل ذكر القرآن أي إشارة لعصر وردي مثل عصر المهدي المزعوم؟ لا توجد أي إشارة إلى عصر وردي يسيطر فيه الحق بل يقول القرآن إنه لن يحدث أن يصبح المسلمون هم أكثر سكان العالم، وسيظل أكثر الناس غير مومنين ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ١٠٣﴾ [سورة يوسف, ١٠٣]، وإذا كان أكثر الناس غير مؤمنين فلا بد أن يكون هناك صراع بين الخير والشر، بين الكفر والإيمان. كما أنه لا بد من وجود تدافع بين الناس ﴿... وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ ... ٢٥١﴾ [سورة البقرة, ٢٥١]، فالقرآن يلغي من فكر الناس ذلك المجتمع الطوباوي ويعلمهم أن الحياة

واقع يختلط فيه الخير بالشر، بل ويختلطان داخل الإنسان الواحد نفسه، لذا لا مدينة فاضلة على الأرض إلا في أحلام وأوهام البسطاء والفلاسفة لذلك لن تملأ الأرض أبدا عدلا كما ملئت جورا!

وكثيرا ما نقرأ وخاصة في كتابات الشيعة عن ضرورة المهدي وأنه من تمام الإيمان بالله ومن ضروريات إكمال الغرض من خلق الإنسان على وجه الأرض! ونقرأ كلاما إنشائيا جميلا، ولكن يحق لنا أن نتساءل: هل هذا المهدي مبعوث من عند الله، أي أنه بعبارة أخرى نبي تابع يشبه الميرزا غلام أحمد أم أنه مجرد رجل صالح؟ سيجيب الجميع: بل هو مجرد رجل صالح. نقول: على تصوركم هذا فلقد سبق الرجل الصالح أنبياء الله كلهم أولا وآخر، وهو وإن كان الأخير زمانه فقد أتى بما لم تأت به الأوائل من الأنبياء، ويثبت أن الأنبياء لم يؤدوا واجبهم كما ينبغي، أو أن الله لم ينصر أنبياؤه النصرة الكافية. فإذا نحن نظرنا إلى حال الأنبياء سنجد أن النبي كان يبعث إلى قوم قليل عددهم في مجتمع بدائي –وليس متخلفا– بسيط، فيدعوهم إلى عبادة الله وترك شين الأعمال، فيؤمن به بعض من قومه، ويناله الاضطهاد والتعذيب والأذى من آخرين بل ومنهم من قُتل في سبيل الله، وهكذا يظل النبي يدعوا قومه حتى تأتيه المنية فيقوم أتباعه بحمل رسالته من بعده ويعملون على نشرها، ودعوى كل نبي انتشرت حسب اجتهاد أتباعه وإيمانهم برسالته، وهذه سنة الله التي ما تخلفت مع نبي واحد.

فإذا نحن نظرنا في حال السيد المهدي فسنجد أنه سيخرج في مجتمع تعقدت أدواته وكثرت علاته وتشعب البشر فيه تشعب الدغل، فيصلح حال الناس كلهم –مؤمنهم وكافرهم أو لا يبقى كافر من الأصل! فيكون القرآن كاذبا– في أيام معدودات أو شهور قليلات ولا يصيبه أذى أو ضرر ويظل يحكم بالعدل سنين سبعا أو تسعا. ويحق لنا أن نقول في هذه الحالة أن هذا المهدي أكرم على الله من أنبياءه ومن كل خلقه، حتى أنه خرق له سننه وأمنه من خلقه تأمينا لم يؤمنه لنبي قبله، فنخرج من هذا أن المهدي أفضل من كل الأنبياء والرسل أو أن الله ما أيد الأنبياء السابقين كما ينبغي! كما نخرج من فكرة المهدي أن الله يُعلم الناس أنه لا صلاح لهم إلا بمبعوث يبعثه الله فيقاتل

الناس فيهتدي الآخرون (معادلة رياضية جديدة: قتال + سفك دماء = هداية)، فبدلا من أن يكون عالما ربانيا لا مثيل له، يكون مقاتلا فذا لا نظير له، ولا تذكر الروايات كيف ينصلح حال الناس مع المهدي والمسيح وآليات الإصلاح الجبارة التي تصلح الناس والتي لم تعط لنبي سابق حتى أن الكوكب كله لم ينصلح مع الرسول! وتعيش الأرض في بلهنية من العيش لم تنعم بها من قبل.

فإذا نحن انتقلنا إلى النعيم والبلهنية التي سيقدمها لنا المسيح والمهدي سنجد أن كثيرا من سكان الأرض تجاوزوها منذ زمن طويل، فالنعيم المذكور في الأحاديث كان تصور واضعي الروايات للنعيم، فما كان يخطر ببال أحدهم أنه سيكون هناك طائرات وقطارات وخلاطات وعصائر وأنواع من السكاكر والحلويات يستطيع الفقير أن يصل لها بكل سهولة، وما كانوا يتخيلون متعة اسمها تلفاز أو شبكة معلوماتية –أعدها أنا من أكبر نعم الله على خلقه!–، فكان النعيم في تصورهم تصورا خرافيا وهميا يضخم الأمور ويعطيها هي والرمان! حجما أكبر من حجمها الطبيعي.

كما نخرج من هذه التصورات بأن هذا المهدي حتمية دينية إسلامية لا بد من تحققها قبل القيامة، بدليل الحديث الذي يقول إنه لو لم يبق في الدنيا إلا يوم لأطاله الله من أجل أن يلي ذلك المهدي! –وهذا الحديث التشاؤمي ناسف للأحاديث التي تحدد مدة حكمه بسبع أو تسع سنين!–، ويحق لنا أن نسأل: لم هو حتم ولزام أن يملك واحد من ذرية النبي المصطفي قبل قيام الساعة؟! نقول: إن سبب ورود الرواية لا تخرج عن احتمالين:

الأول: أن ذلك كان نوعا من رفع الروح المعنوية عند الشيعة ومن أحلامهم بعودة الملك إليهم بعد ضياعه، وهو الاحتمال الذي أرجحه.

والاحتمال الثاني: أنه تصور ذو أصل يهودي، وهو قد لا يكون معلوما إلا لدارسي مقارنة الأديان، وهو أن هناك تصورا يقول إن النبي(ص) لم يؤت الملك وإنما أوتي النبوة فقط، فلا بد لكي يتحقق الملك في دين الإسلام أن يخرج من نسل الرسول من يحكم

ويملك. وهذا يعني أن الرسول لم يكن ملكا، وهذا مرفوض بداهة!، فالرسول كان ملكا بل هو أجل وأعظم ملوك الأرض وقدم للبشرية النموذج الصالح للمجتمع المثالي المتمثل في الصحابة، ولكن اليهود شوهوا هذا التصور.

ونعود فنسأل مرة أخرى: لماذا لا بد أن يخرج من نسل الرسول من يحكم؟ لا أجد ولا يجد أي إنسان تبريرا معقولا لحتمية خروج من يحكم من نسل الرسول هذا إذا استطعنا التأكد في زمننا هذا والأزمنة القادمة التي ستتخلف فيها الأرض! وتضيع الوثائق وتندثر الحضارة فيظهر المثلث الخرافي الدجال وينزل المسيح –ويأتي المهدي أن المهدي من نسل الرسول!–. فالحاكم الصالح يكون من نسل الرسول ويكون من غيره، أما إذا كانت الرواية تطبخ في وقت يُتصارع فيه على السلطة قريب من الرسول معلوم فيه أنساب الناس ولا يستطيع أحد أن يزور نسبه وينسب نفسه إلى الرسول[319] فلا بأس أبدا من القول بذلك.

والعجيب أن أهل السنة ينكرون على الشيعة قولهم بالنص على الإمام وهم يقولون به، فهم يرون أن المهدي حاكم مبعوث من عند الله، وهذه النظرية هادمة لمبدأ الشورى تماما كما هدمه الشيعة الأواخر، وأنا أسأل: ما حكمي إذا لم أكن من الذين سيبايعون المهدي بين الركن والمقام ورأيت أن هذا الرجل لا يصلح؟، لأنه رجل فاسد فاسق، ثم فجأة أطال لحيته وادعى أن الله هداه في ليلة –ليتذكر القارئ أن الله يصلح المهدي في ليلة، أي أنه قبل ذلك لم يكن صالحا!–، فقمت أنا ومئات الملايين من المسلمين بمبايعة رجل صالح نعرف صلاحه طيلة عمره، فهل سنصبح بهذا الموقف كافرين منكرين للنص على الإمام المهدي، أم أنه لا حرج علينا لأن العبرة في المبايعة بشروط صلاحية الإمام، وعدد المبايعين؟ ومن سنبايعه صالح طيلة عمره أما هذا فيدعي أنه هُدي في ليلة فهل نصدق قول واحد ونكذب فعلا نراه بأعيننا؟ إذا قال علماء أهل السنة بتكفيري أنا والمبايعين أو بتفسيقنا فقد وقعوا في نفس المأزق الذي وقع فيه علماء

[319] يدعي بعض الحكام العرب في زمننا هذا انتسابهم إلى الرسول المصطفى، لذا قد يخرج المهدي اللامنتظر من بيوتاتهم فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا بسبب أجداده الذين هم من نسل النبي!!

الشيعة، عندما وجدوا من يرد إمامة أئمتهم بحجة أنه لا نص عليها في القرآن فاخترعوا مسألة النص في السنة وكفرو المخالفين ثم عادوا فقللوا الحكم واكتفوا بالتفسيق! لذا أسألكم علماء أهل السنة: ما حكمي: كافر أم فاسق؟

ويحق لنا أن نسأل: على فرض وجود هذا المهدي المنصوص عليه من الله –تعالى الله عن ذلك– كيف نعرفه، فإذا كان عيسى عليه السلام يفترض فيه النزول على جناحي ملكين لن نراهما، فكيف نميز هذا المهدي، هل نميزه بأنفه وجبهته أم ماذا؟ إن عمليات التجميل أصبحت رخيصة جدا هذه الأيام، وبغض النظر عنها فالمواصفات الواردة في الحديث تنطبق على آلاف الأشخاص وقد يسول الشيطان لثلاثة منهم فقط ممن درسوا الخرافة جيدا أن يدعوا أنهم المهدي، فماذا سنفعل تجاه هذا المأزق: ثلاثة محشورون بين الركن والمقام عند موت خليفة –لم يعد هناك خلفاء ولا أمراء مؤمنين حقيقة أو فعلا– يدعون أنهم المهدي. من نبايع فيهم أو نصدق؟

وعلى فرض ظهور مهدي واحد فقط، ألم يسمع العلماء عن شيء اسمه المخابرات أو مباحث أمن الدولة، واللذان هما كفيلان وكافيان لرد عقل كل مدع للنبوة أو المهدوية؟! تصور المهدي الذي يبايع له بين الركن والمقام تصور مبني وقائم على وجود العصبيات القبلية التي تستطيع أن تمنع تابيعها وتحميهم، أما الآن لو ادعى شخص أنه المهدي واحتمى بعشيرته في أي قبيلة عربية فالدولة قادرة على انتزاعه من بين عشيرته أو إبادتهم جميعا واستئصالهم كلهم، ولنا في بعض القواد العرب السابقين والمعاصرين قدوة سوء في الإبادة –طبعا ليس ضد مدعي مهدوية أو نبوة وإنما ضد معارضين–. فلو ظهر مدع نبوة وتكررت مأساة الحرم الذي حدثت عام 1400 فسيقبض على المدعي، هذا إذا لم يقتل في وقته وتنتهي دعوى المهدوية في وأدها وتفقد الأرض منقذها فتبكيه دهورا!

والعجيب أن أهل السنة يعيبون على الشيعة قولهم بالوحي للأئمة بعد الرسول ويعيبون على الأحمدية نفس الشيء وهم يقولون بشبيهه!

فالناظر في الروايات يجد أن المهدي يصلحه الله في ليلة، أي أنه لم يكن صالحا، ولست أدري هل يُخبر في هذا الإصلاح أنه المهدي أم لا يخبر؟ فإذا أخبر فهو وحي، ولا يحتج أحد بأنه قد يكون في المنام فالمرء يرى في المنام العجب العجاب ولو صدقت أنا –أو غيري– ما أراه في المنام وتحركت على هداه فستكون كوارث كبرى. والظاهر أنه لا يخبر ولا يكون عالما أنه المهدي، وهنا يحق لنا أن نسأل: كيف سيعلم من سيبايعوه أنه هو المهدي إذا كان هو نفسه لا يعلم؟! هل سيوحى إليهم أنه المهدي فيصبح وحيا أو إلهاما جماعيا ما سمعنا به إلا في كتب النصارى! هذا هو الحل الوحيد لهذه الإشكالية: فالرجل نفسه لا يعرف وكان فاسقا فاسدا فأصلحه الله، فليس معلوما بالصلاح وما أن أطلق لحيته حتى يسارع الناس بمبايعته بين الركن والمقام، ونسأل: لم، إلا إذا كان أوحي إليهم بذلك؟

أو أن مؤلفي هذه الروايات كانوا يتكلمون عن إمام من أئمة أهل البيت كان مختفيا وسيظهر في الحرم فيصرخ صارخ أن الإمام فلان في الحرم، فيسارع إليه الناس، فكانوا يمهدون بذلك لمبايعة هذا الإمام بن الركن والمقام فوضعوا الحديث في ذلك الغرض؟!! وكما يبدو فإن أوجه تفضيل المهدي على الأنبياء لا تقتصر على الهداية والسلطان والمنعة فقط ولكنها تمتد إلى القدرات الخارقة فليس الدجال بأفضل منه في شيء، فلذلك وجدنا رواية تقول: "يخرج في آخر أمتي المهدي، يسقيه الله الغيث، وتخرج الأرض نباتها، ويعطى المال صحاحاً وتكثر الماشية، وتعظم الأمة، يعيش سبعاً أو ثمان"

وبغض النظر عن التصور الساذج للنعيم، فيبدو أن الله يعطي المهدي كما أعطى الدجال، وكما لم يعط أي نبي من قبل، وحتى لو أدى ذلك إلى مخالفة قوله في كتابه والذي يقول فيه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَـٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ... ﴿٩٦﴾﴾ [سورة الأعراف ,٩٦] فالله يربط البركة بصلاح الناس، أما الروايات فتربطها بصلاح الحاكم المقاتل!

ونختم هذا النقض السريع بسؤال: هل سيعرف الناس أن الحاكم بأمر الله هو المهدي أم لن يعرفوا؟ بداهة سيعرفوا فقد ظهر الدجال ونزل المسيح –الذي لا أعرف كيف سيعرف الناس أنه المسيح؟!– فكيف لا يكون الحاكم بأمر الله هو الإمام المهدي الذي يهدي بالسيف؟ فإذا كان ذلك، ألا يعلم الناس بذلك أن الساعة على الأبواب وبذلك تنتفي بغتية مجيء الساعة؟ فالله تعالى يقول: ﴿... لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ... ﴿١٨٧﴾﴾ [سورة الأعراف, ١٨٧] ويقول إنها تأتي في إزدهار وتقدم وتجبر لسكان الأرض حتى يظنون أنهم قادرون عليها و الروايات تقول إنها ستأتي في تخلف وتدهور يعود فيه الناس إلى حرب بالسيوف وتأتي في زمن علم الناس أن الساعة على الأبواب فلقد ظهرت العلامات الكبرى للساعة –آخر علامات الساعة جاء مع النبي ولا علامة بعده ﴿... فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ... ﴿١٨﴾﴾ [سورة محمّد, ١٨]– ولم يبق إلا سنوات معدودات اختلفت الروايات في تحديدها ولكنها لن تتجاوز المائة سنة على أي حال، فليلبس الناس المسوح وليترهبنوا فلا خير في حياة القيامة ستقوم في أي لحظة فيها! ونقول في آخر النقض: نعم لم يذكر القرآن شيئا عن المهدي، ولكن لما كان القرآن تبيانا لكل شيء، كان لا بد أن يوضح صحة أو زيف هذه الروايات، فقسنا روايات المهدي على أخبار القرآن فوجدناها تناقضها وتعارض محتواها فقلنا بردها. أما هؤلاء الذين لا يقولون بكمال القرآن ولا تبيانه ولا حاكميته فمن الطبيعي أن يقبلوا الروايات ويقبلوا المهدي ويرفضوا دلالات القرآن فعندهم الروايات حاكمة على كتاب الله تعالى.

وبهذا العرض السريع للضلع الثالث من أضلاع المثلث الخرافي، يظهر لنا أنه واه متهافت مثل سابقيه وأنه لا ينهض للمناقشة مع أي بحث علمي محترم. وبهذا يظهر لنا أن مثلث الخرافة هذا ساقط من قاعدته ولا يصلح إلا كقصص خرافية تحكى من أجل تسلية بعض العجائز. وبذلك نكون قد أثبتنا بطلان مثلث الخرافة والتكاسل والتواكل الموجود عند كثير من الناس وأبطلنا التصور المغلوط عند كثير من الناس حول الإسلام من أنه دين يشغل القتل والتقتيل حيزا كبيرا من تصوراته، ورأينا أن الهداية تكون من عند الله عن طريق دعاة لا مقاتلين جبارين!

الخاتمـة

وبعد هذه الرحلة الطويلة عزيزي القارئ مع عقائد الإسلاميين نخرج جميعا بذلك التصور النهائي وهو: أن الفرق الإسلامية بغض الطرف عن تمحورها وتمذهبها دارت في نفس الفلك الذي دار فيه إخوانها من الفرق، وعلى الرغم من ذلك رمت كل فرقة إخوانها من الفرق بالضلال. فكل الفرق الإسلامية –ما عدا القرآنيين الجدد– تأخذ بالكتاب والسنة وتجعل الكتاب –تنظيرا– هو الأصل الأول للعقائد والأحكام، ثم تجعل السنة –تنظيرا– تأتي في المركز الثاني بعد كتاب الله.

ولكن لما وقعت كبرى الفرق الإسلامية في مأزق تحكيم السنة على القرآن وجعلها في المركز الأول فعلا قبل كتاب الله، كان لا بد من أن نرى هذا الخلاف والشقاق، فكل فريق لديه رواياته التي يدافع عنها ويؤمن بها ويقدمها على كتاب الله ويرفض روايات الآخرين ويعدها من الضلال المبين. ولو قدم كتاب الله على الروايات وجعل حاكما عليها كما فعلت بعض الفرق الإسلامية لقل ذلك الخلاف كثيرا وانحصر في مسائل فرعية يقبل الخلاف فيها.

وبغض الطرف عن ذلك التأصيل فإن كل الفرق تقول بأولية القرآن وثانوية السنة ولكن لما كان الرسول لم يحدد الطريق الأمثل لتلقي السنة اختلفت الفرق في الشروط الموضوعة من أجل قبول الروايات أو ردها كل حسب اجتهاده. فوجدنا شروطا عند أهل السنة غير شروط الشيعة غير شروط الإباضية. وأثرت هذه الروايات في توجيه أبصار وعقول علماء كل فرقة في فهم آيات الله وإسقاطها على العقائد المترسخة عند كل فرقة. فعندنا في أهل السنة وجدنا من يقول إن السنة تكمل الكتاب وتأتي بما لم يأت به الكتاب، أما الشيعة فاستكبروا ذلك وقالوا لا بد أن تكون السنة تابعة للكتاب وتأتي بما قال به الكتاب، ولكنهم أضافوا إلى دين الله ما لم يضفه أهل السنة وجعلوه من أصول الدين وعقائد المسلمين.

فالناظر إذا يجد أن كل الفرق الإسلامية لم تكتف بالعقائد الخمس التي ذكرها الله عزوجل وأمر بالإيمان بها، وأضافت كل فرقة ما ساقها اجتهادها إلى إضافته، وكل يرى أن ما أضافه هو من دين الله الحنيف وأنه لم يدخل في دين الله بدعا من القول. وأنا لا أقصد أن الفرق اخترعت أشياءا وأضافتها من عندها ولكن أقصد أن مفهوم الإضافة ينحصر بشكل كبير في جعل فروع الدين أو الأحكام العملية من العقائد أو جعل التفسيرات هي من باب النصوص، مع أن النص شيء والتفسير شيء آخر، ولكن كل فرقة ترى أن تفسيرها هو القول المبين المستند إلى ما هو من الأدلة متين! وأقوال الآخرين في ضلال مبين. وهذا هو العنصر الرئيس في تفرق المسلمين وتشرذمهم.

ولكن نعود فنقول: إن النظرة الضيقة المنغلقة على الفرقة انحسرت عند كثير من علماء الفرق وأصبحنا نرى الدعاوى إلى توحيد صف المسلمين والتجاوز عن أسباب الفرقة وقبولها في مقابلة الآخر الذي يعاملنا كلنا على أننا مسلمون فلا يفرق بين سني وشيعي وإباضي وإنما يضع الكل في سلة واحدة. ودعاوي الوحدة هذه هي أصل الدين فالله عزوجل يقول في كتابه الكريم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍۚ إِنَّمَآ أَمۡرُهُمۡ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ١٥٩﴾ [سورة الأنعام ,١٥٩]، فكل سبب ودعوى إلى الفرقة بين المسلمين ليس الرسول منها في شيء، وقد رأينا في بحثنا أن منهج المسلمين كلهم في عقائدهم منهج واحد راجع إلى الكتاب والسنة وإنما الخلاف في شروط تلقي السنة وما ترتب عليها من أحكام.

فعندنا كتاب الله يجمعنا وعند كل فريق من الروايات والأخبار ما ينفعه ويهديه بإذن الله. وأما الروايات الخرافية والتصورات البدائية فعلماء المسلمين الآن لا يتكلمون عنها وأهملت في ركن سحيق من اهتماماتهم ولم نعد نسمع لها من أثر إلا عند بعض خطباء المساجد والزوايا في القرى. فليتذكر كل مسلم أننا كلنا مسلمين نأخذ بنفس النهج، وما اختلفنا فيه فنرده إلى كتاب، وأن اتفاقنا في العقائد هو اتفاق في الأساسيات وفي الجزء الأكبر منها وما اختلفنا إلا في تطبيقاتها وتصوراتها، أما عقائدنا الرئيسة فكلها

وبحمد الله واحدة لا جدال فيها ولا شطط ولا شقاق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

كان الفراغ من هذا الكتاب في الحادي والعشرين من شهر ذي القعدة لعام ثمان وعشرين وأربعمائة وألف بعد الهجرة المشرفة، الموافق الأول من ديسمبر لعام سبع بعد الألفين من ميلاد المسيح. آملين أن يتقبله الله منا ويجعله في ميزان حسناتنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

للتواصل مع الكاتب يرجى زيارة موقعه الشخصي:

www.amrallah.com

سرد لأهم المراجع

* القرآن الكريم.

* الكتاب المقدس.

كتب الحديث:

* أحمد بن شعيب النسائي، سنن النسائي الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، الطبعة الأولى 1991م، دار الكتب العلمية- بيروت.

* الترمذي، محمد بن عيسى: الجامع الصحيح سنن الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت.

* الربيع بن حبيب بن عمرو، الجامع الصحيح، بخدمة السيد قاسم بن سعيد الشماخي، 1328هـ، مطبعة النجاح باب الخلق، مصر.

* الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق بن همام: مصنف عبد الرازق، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي- الهند، الطبعة: الثانية، بيروت 1403هـ.

* الطبراني، سليمان بن أحمد بن أيوب: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، الناشر: مكتبة العلوم والحكم- الموصل، الطبعة الثانية 1983م.

* العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت 1379هـ.

* المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار، الطبعة الثانية 1983م، مؤسسة الوفاء، بيروت.

* النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسائي الكبرى، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، الناشر: دار الكتب العلمية– بيروت، الطبعة الأولى 1991م.

* بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد: الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد، الطبعة: الأولى، الرياض 1409هـ.

* محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى 1422هـ، دار طوق النجاة– السعودية.

* مسلم النيسابوري، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي– بيروت. (بدون تاريخ)

معاجم لغوية:

* أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت 1999م.

* الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة 2005م.

* جمال الدين بن منظور، معجم لسان العرب، تحقيق: عبد الله الكبير ومحمد حسب الله وهاشم الشاذلي، دار المعارف– القاهرة 1979م.

كتب التفسير:

* الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 2000م.

* الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر،

مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2000.

مراجع عامة:

* ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق: طاهر احمد الزاوي، محمود محمد الطناحي، الطبعة الأولى 1963م، مكتبة الحلبي.

* ابن العربي، أبو بكر، العواصم من القواصم، تحقيق: عمار طالبي، دار التراث، القاهرة.

* ابن دريد، محمد بن الحسن، جمهرة اللغة، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، دار العلم للملايين، 1987م، بيروت.

* ابن عبد البر، يوسف بن عبد الله، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، الطبعة الأولى، دار ابن الجوزي، الدمام 1994م.

* أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: أنور الباز وعامر الجزار، الطبعة الثالثة 2005م، دار الوفاء.

* أعوشت، بكير بن سعيد، دراسات إسلامية في الأصول الإباضية، الطبعة الثالثة 1988م، مكتبة وهبة، القاهرة.

* الأسد أبادي، القاضي عبد الجبار بن أحمد، الأصول الخمسة، تحقيق: د. فيصل بدير عون، لجنة التأليف والتعريب والنشر، جامعة الكويت، الطبعة الأولى 1998م.

* الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، رسالة استحسان الخوض في علم الكلام، الطبعة الثالثة 1979م، دائرة المعارف الإسلامية، حيدرأباد، الهند.

* الأطروش، الحسن بن علي، كتاب البساط، مكتبة التراث الإسلامي، الطبعة الأولى 1997م، صنعاء.

* الإمام عز الدين بن الحسن، العناية التامة في تحقيق مسالة الامامة.

* البربهاري، الحسن بن علي بن خلف، شرح السنة، تحقيق: خالد بن قاسم الردادي، الطبعة الأولى 1993م، مكتبة الغرباء الأثرية.

* التفتازاني أبو الوفاء، مدخل إلى التصوف الإسلامي، الطبعة الثالثة 1989م، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

* الجزيري، عبد الرحمن، الفقه على المذاهب الأربعة، الطبعة الثانية 2003م، دار الكتب العلمية، بيروت.

* الجيلاني، عبد القادر، الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، مكتبة ومطبعة مصطفي البابلي الحلبي وأولاده بالقاهرة.

* الحجري، علي بن محمد بن عامر، الميزان القسط، المنهج والتطبيق في نقد روايات رؤية الله، مكتبة الغبيراء، بهلا 2004م، سلطنة عمان.

* الحجري، علي محمد بن عامر، الإباضية ومنهجية البحث عند المؤرخين وأصحاب المقالات، الطبعة الأولى 1999م، مطابع النهضة، سلطنة عمان.

* الحسني، أحمد بن سليمان، حقائق المعرفة في علم الكلام، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، الطبعة الأولى 2003م، صنعاء.

* الحكمي، حافظ بن أحمد، أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، 2000م-1420هـ.

* الحنفي، صدر الدين علي بن علي بن محمد، شرح الطحاوية في العقيدة السلفية، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: وزارة الشئون الإسلامية والدعوة والإرشاد السعودية، 1418هـ.

* الحوثي الحسين بن يحيى بن محمد، الجواب الراقي على مسائل العراقي، مكتبة أهل البيت، صعدة اليمن.

* الحوثي الحُسَيني الإمَام أبي القَاسِمِ مُحَمَّد بن القَاسِمْ، الموعظة الحسنة، الطبعة الأولى 1435هـ، مكتبة أهل البيت، صعدة اليمن.

* الخطيب البغدادي، أحمد بن علي بن ثابت، شرف أصحاب الحديث، تحقيق: عمرو عبد المنعم سليم، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الأولى، القاهرة 1996م.

* الخليلي، أحمد بن حمد، الحق الدامغ، الطبعة الأولى 1409هـ، مطابع النهضة، مسقط، سلطنة عمان.

* الخميس محمد بن عبد الرحمن، اعتقاد أهل السنة شرح أصحاب الحديث، الطبعة: الأولى، 1419هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية.

* الرازي، فخر الدين محمد بن عمر، المعالم في أصول الفقه، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، مؤسسة مختار، القاهرة 1994م.

* السابعي، ناصر بن سليمان بن سعيد، الخوارج والحقيقة الغائبة، الطبعة الأولى 1999م، (الناشر غير مذكور)، سلطنة عمان.

* السالمي، نور الدين، شرح الجامع الصحيح مسند الإمام الربيع بن حبيب، المطابع الذهبية 1993م، سلطنة عمان.

* السباعي مصطفى، السنة ومكانتها في التشريع، الطبعة الثانية 2000م، دار الوراق/المكتب الإسلامي، الرياض.

* السبحاني جعفر، أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، الطبعة الأولى 1421هـ، دار مشعر.

* السبحاني، جعفر: رؤية الله في ضوء الكتاب والسنة والعقل الصريح، دار مشعر، الطبعة الأولى.

* السماوي محمد التيجاني، الشيعة هم أهل السنة، الطبعة الأولى، مؤسسة الفجر، لندن.

* السيد علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين، الزيدية الطائفة والمذهب.

* السيوطي، جلال الدين، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وضبطه: محمد أحمد جاد المولى، محمد أبو الفضل، على محمد البجاوي، الطبعة الثالثة، مكتبة دار التراث، القاهرة.

* السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

* الشاعر عمرو، لماذا فسروا القرآن، القرآن بين التفسير والهجران، غير مطبوع.

* الشعراني، عبد الوهاب، الطبقات الكبرى، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح وتوفيق علي وهبة، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة، الطبعة الأولى 2005م.

* الشوكاني، محمد بن علي، إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق: أبو حفص سامي بن العربي الأثري، دار الفضيلة، الطبعة الأولى، الرياض 2000م.

* الشوكاني، محمد بن علي، القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، تحقيق: عبد الرحمن عبد الخالق، دار القلم، الطبعة الأولى، الكويت 1396هـ.

* الصدر محمد باقر، نشأة التشيع والشيعة، تحقيق وتعليق عبد الجبار شرارة، الطبعة: الثانية 1417هـ/1997م مركز الغدير للدراسات الإسلامية.

* الصدوق، أبو جعفر محمد بن علي بن بابوية، عيون أخبار الرضا، الناشر: انتشارات الشريف الرضي، الطبعة الأولى، قم 1378هـ.

* العبدة، محمد، طارق عبد الحليم، دراسات في الفرق، الصوفية نشأتها وتطورها، دار الأرقم الطبعة الرابعة، الكويت 2001م.

* العبري، علي بن هلال، الإمامة في الفقه الإسلامي، رسالة للحصول على درجة الماجستير، كلية الدراسات العليا الجامعة الأردنية، 1991م.

* العلائي، صادق، إعلام الخلف بمن قال بتحريف القرآن من أعلام السلف، مركز الآفاق للدراسات الإسلامية قم، الطبعة الأولى 1425هـ.

* العميدي، ثامر هاشم، واقع التقية عند المذاهب والفرق الإسلامية من غير الشيعة الإمامية، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى 1995م.

* الفضلي، عبد الهادي، مذهب الإمامية بحث في النشأة وأصول العقيدة والتشريع، مركز الغدير للدراسات الإسلامية، الطبعة الأولى.

* الفضيل يحيي عبد الكريم، من هم الزيدية، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

* الفقيهي، علي بن محمد ناصر، الرد القويم البالغ على كتاب الخليلي المسمى بالحق الدامغ، دار المآثر، المدينة النبوية، الطبعة الثانية، 1422هـ.

* القاسم، محمود عبد الرؤوف، الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، دار الصحابة بيروت، الطبعة الأولى 1987م.

* القفاري، ناصر بن عبد الله بن علي، أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية، أصل هذا الكتاب رسالة دكتوراه من جامعة الإمام محمد بن سعود، الطبعة الثانية، 1994م.

* القوصي محمد عبد الفضيل، موقف السلف من المتشابهات بين المثبتين والمؤولين، دراسة نقدية لمنهج ابن تيمية، الطبعة الأولى 2004م، دار البصائر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.

* الكاتب أحمد، السنة والشيعة وحدة الدين وخلاف السياسة والتاريخ، الطبعة الأولى 2008م، مكتبة النافذة، الجيزة مصر.

* الكاتب أحمد، تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، الطبعة الأولى 2007م، دار الجديد، بيروت لبنان.

* الكليني، محمد بن يعقوب، أصول الكافي، دار المرتضى، الطبعة الأولى، بيروت 2005م.

* المالكي، حسن بن فرحان، الصحبة والصحابة بين الإطلاق اللغوي والتخصيص الشرعي، مركز الدراسات التاريخية، الطبعة الثانية 2004م، عمّان الأردن.

* المالكي، حسن بن فرحان، قراءة في كتب العقائد: المذهب الحنبلي نموذجا، الطبعة الأولى 2000م، مركز الدراسات التاريخية، عمان الأردن.

* المحرمي، زكريا: قراءة في جدلية الرواية والدراية عند أهل الحديث، الطبعة الأولى 2004م، مكتبة الضامري، سلطنة عمان.

* المدخلي، ربيع بن هادي عمير، حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام، دار المنهاج، الطبعة الأولى، 2005م القاهرة.

* المدرسي محمد تقي، الوجيز في أصول العقائد وأحكام التقليد والبلوغ، الطبعة الرابعة 1428هـ/2007م، دار محبي الحسين، قُم إيران.

* المراكبي، محمود، تسرب الفكر الباطني إلى الشرائع السماوية، الناشر: محمود المراكبي، 1996م.

* المظفر، محمد رضا، عقائد الإمامية، مطبعة النعمان، النجف الأشرف 1968م.

* المؤيدي، إبراهيم بن محمد، الإصباح على المصباح في معرفة الملك الفتاح، تحقيق: عبد الرحمن بن حسين شايم، الطبعة الأولى 2002م، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، صنعاء.

* النامي، عمرو، دراسات عن الإباضية، ترجمة: ميخائيل خوري، الطبعة الأولى 2001م، دار الغرب الإسلامي، بيروت.

* النبهاني، يوسف بن إسماعيل، جامع كرامات الأولياء، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، الناشر: المكتبة الثقافية، بيروت 1991م.

* النيلي عالم سبيط، النظام القرآني مقدمة في المنهج اللفظي، طبعة 2006م، دار المحجة البيضاء.

* الورداني صالح، عقائد السنة والشيعة: التقارب والتباعد، الطبعة الأولى 1415هـ/ 1995م، مكتبة مدبولي الصغير، الجيزة مصر.

* الورداني، صالح، عقائد السنة والشيعة التقارب والتباعد، مكتبة مدبولي الصغير، الطبعة الأولى، القاهرة 1995م.

* الوهيبي خالد بن مبارك، أشراط الساعة: النص والتاريخ، الطبعة الأولى 2004م، مكتبة الغبيراء، سلطنة عمان/ بهلا.

* بن أبي يعلى، أبو الحسين محمد، طبقات الحنابلة، تصحيح: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة.

* بن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن، تلبيس إبليس، دار القلم بيروت لبنان.

* بن حزم الظاهري، علي: الإحكام في أصول الأحكام، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الآفاق الجديدة- بيروت.

* بن حنبل، عبد الله بن أحمد، السنة، تحقيق: محمد بن سعيد بن سالم القحطاني، دار بن القيم، الطبعة الأولى، الدمام 1986م.

* خليف، يوسف، دراسات في الشعر الجاهلي، دار غريب، القاهرة.

* ذياب أمين نايف، المحنة وقضية خلق القرآن، الواقع والتاريخ قراءة تحليلة.

* رسالة العقيدة الصحيحة والدِّينُ النصيحة، من تأليف الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين إسماعيل بن الإمام المنصور بالله القاسم بن محمد.

* سبحاني، جعفر، أضواء على عقائد الشيعة الإمامية وتاريخهم، دار مشعر، الطبعة الأولى 1421هـ.

* سبحاني، جعفر، التحسين والتقبيح العقليان ومكانتهما في العقيدة والشريعة، مؤسسة الإمام الصادق، قُم 1424هـ.

* سعيد بن مبروك القنوبي، السيف الحاد على من أخذ بأحاديث الآحاد في الاعتقاد، الطبعة الثالثة، 1418هـ، مطابع النهضة، سلطنة عمان.

* ظهير، إحسان إلهي، التصوف المنشأ والمصادر، الناشر: إدارة ترجمان السنة، باكستان، الطبعة الأولى 1986م.

* عبد الله بن زيد آل محمود الشريف، لا مهدي ينتظر بعد الرسول محمد خير البشر، الطبعة الثانية 1429هـ – 2008م، الدوحة.

* عبد الملك بن هشام، السيرة النبوية، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، الطبعة الأولى 1411هـ، دار الجيل- بيروت.

* عزان محمد يحيى سالم، الصحابة عند الزيدية، الطبعة الأولى 2004م، مركز التراث والبحوث اليمني.

* عمارة، محمد، الحوار بين الإسلاميين والعلمانيين، دار نهضة مصر، القاهرة 2000م.

* عمراني، محمد، الأصولية الجعفرية الشيعية، مكتبة النافذة، الطبعة الأولى، القاهرة 2007م.

* غازي محمد جميل وعبد العظيم سعيد، الصوفية الوجه الآخر الصوفية طريق الهاوية. الطبعة الأولى 2007م، دار الإيمان، الإسكندرية مصر.

* محمد بن الحسن ابن القاسم بن محمد، سبيل الرشاد إلى معرفة رب العباد، مؤسسة الإمام زيد بن علي.

* مداعس محمد بن يحيى، الكاشف الأمين عن جواهر العقد الثمين، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، عمان الأردن.

* معمر، على يحيى: الإباضية في موكب التاريخ، الناشر: مكتبة الضامري للنشر والتوزيع، الطبعة: الثالثة، مسقط 2008م.

* معمر، علي يحيى، الإباضية بين الفرق الإسلامية عند كُتاب المقالات في القديم والحديث، الطبعة الثانية 1994م، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان.

* ميرزا، أحمد، حمامة البشرى، (نسخة قديمة مكتوبة بخط اليد)

* يعقوب، أحمد حسين، نظرية عدالة الصحابة والمرجعية السياسية في الإسلام، الطبعة الأولى، مطبعة الخيام، عمان الأردن.

مؤلفات عمرو الشاعر

* لماذا فسروا القرآن؟ القرآن بين التقييد والهجران

* عقائد الإسلاميين بين وحدة المنهج وتباين الأحكام

* القرآنيون مصلحوم أم هادمون؟

* السوبرمان بين نيتشه والقرآن

* نشأة الإنسان بين القرآن والتوراة ونظرية دارون

* قراءة لسور الطعن

* السيدة عائشة والتاريخ المشوه

* قصص القرآن القرآني

* الجن .. الأرباب المختلقة

* القرآن سورة واحدة جزء عمّ نموذجاً

* السلفية .. منهج إسلامي؟

* فقه الإنسان محاولة تأصيلية تأسيسة

* رواية خواطرٌ شواذ

* القنطرة I في قواعد اللغة الألمانية

* القنطرة II تكلم العامية الألمانية

الفهرست